العَذْبُ النَّمِير

مِنْ تَفْسِيرِ الحَافِظِ ابْنِ كَثِير

تَفْسِير

جُزْءِ عَمَّ

وسُورَة الْفَاتِحَة وآية الكُرْسي

للشَّيخِ الإِمَامِ الحَافِظِ عِمَاد الدِّينِ أَبي الفِدَاء
إِسْمَاعِيل بنِ عُمَر ابنِ كَثير القُرَشيِّ الدِّمَشقيِّ
ت ٧٧٤ هـ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

ويَليه: فَوَائِد مُهِمَّة

" إِنَّمَا العِلْمُ؛ خَشْيَةُ اللهِ تَعَالى "

❁❁❁

" جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ أَحْيَانَا اللهُ بِالعِلْم، وَوَفَّقَهُ بِالحِلْم، وَسَلَّمَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ جَمِيعِ الفِتَن، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَن "

❁❁❁

"
يَا نَاظِرًا فِيهِ سَلِ اللهَ مَرْحَمَةً
عَلَى المُصَنِّفِ وَاسْتَغْفِرْ لِكَاتِبِهِ
وَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مِنْ خَيْرٍ تُرِيدُ لَهَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ غُفْرَانًا لِصَاحِبِهِ
"

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحَمْدَ لله نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَه، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَه، وَأَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَـ«الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَإِلَهُ المُرْسَلِينَ، وَقَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ المَبْعُوثُ بِالكِتَابِ المُبِينِ، الفَارِقُ بَيْنَ الهُدَى وَالضَّلَالِ وَالغَيِّ وَالرَّشَادِ وَالشَّكِّ وَاليَقِينِ، أَنْزَلَهُ لِنَقْرَأَهُ تَدَبُّرًا، وَنَتَأَمَّلَهُ تَبَصُّرًا، وَنَسْعَدَ بِهِ تَذَكُّرًا، وَنَحْمِلَهُ عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِهِ وَمَعَانِيهِ، وَنُصَدِّقَ بِهِ وَنَجْتَهِدَ عَلَى إِقَامَةِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَنَجْتَنِيَ ثِمَارَ عُلُومِهِ النَّافِعَةِ المُوصِلَةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ مِنْ أَشْجَارِهِ، وَرَيَاحِينَ الحِكَمِ مِنْ بَيْنِ رِيَاضِهِ وَأَزْهَارِهِ، فَهُوَ كِتَابُهُ الدَّالُّ عَلَيْهِ لِمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَتَهُ، وَطَرِيقُهُ المُوصِلَةُ لِسَالِكِهَا إِلَيْهِ، وَنُورُهُ المُبِينُ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَرَحْمَتُهُ المُهْدَاةُ الَّتِي بِهَا صَلَاحُ جَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ، وَالسَّبَبُ الوَاصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ إِذَا انْقَطَعَتِ الْأَسْبَابُ، وَبَابُهُ الْأَعْظَمُ الَّذِي مِنْهُ الدُّخُولُ فَلَا يُغْلَقُ إِذَا غُلِّقَتِ الْأَبْوَابُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا تَمِيلُ بِهِ الْآرَاءُ، وَالذِّكْرُ الحَكِيمُ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَالنُّزُلُ الكَرِيمُ الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تُقْلِعُ سَحَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي آيَاتُهُ، وَلَا تَخْتَلِفُ دَلَالَاتُهُ، كُلَّمَا ازْدَادَتِ البَصَائِرُ فِيهِ تَأَمُّلًا وَتَفْكِيرًا زَادَهَا هِدَايَةً وَتَبْصِيرًا، وَكُلَّمَا بَجَسَتْ مَعِينُهُ فَجَّرَ لَهَا يَنَابِيعَ الحِكْمَةِ تَفْجِيرًا، فَهُوَ نُورُ البَصَائِرِ مِنْ عَمَاهَا، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ مِنْ أَدْوَائِهَا وَجَوَاهَا، وَحَيَاةُ القُلُوبِ، وَلَذَّةُ النُّفُوسِ، وَرِيَاضُ

القُلُوبِ، وَحَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَى بِلَادِ الْأَفْرَاحِ، وَالمُنَادِي بِالمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ: يَا أَهْلَ الفَلَاحِ! حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ! نَادَى مُنَادِي الْإِيمَانِ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ: ﴿**يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف: ٣١]، أَسْمَعَ -وَاللهِ- لَوْ صَادَفَ آذَانًا وَاعِيَةً، وَبَصَّرَ لَوْ صَادَفَ قُلُوبًا مِنَ الفَسَادِ خَالِيَةً، لَكِنْ عَصَفَتْ عَلَى القُلُوبِ هَذِهِ الْأَهْوَاءُ فَأَطْفَأَتْ مَصَابِيحَهَا، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا آرَاءُ الرِّجَالِ فَأَغْلَقَتْ أَبْوَابَهَا وَأَضَاعَتْ مَفَاتِيحَهَا، وَرَانَ عَلَيْهَا كَسْبُهَا فَلَمْ تَجِدْ حَقَائِقُ القُرْآنِ إِلَيْهَا مَنْفَذًا، وَتَحَكَّمَتْ فِيهَا أَسْقَامُ الجَهْلِ فَلَمْ تَنْتَفِعْ مَعَهَا بِصَالِحِ العَمَلِ، وَاعَجَبًا لَهَا! كَيْفَ جَعَلَتْ غِذَاءَهَا مِنْ هَذِهِ الْآرَاءِ الَّتِي لَا تُسْمِنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُوعٍ، وَلَمْ تَقْبَلِ الِاغْتِذَاءَ بِكَلَامِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَنُصُوصِ حَدِيثِ نَبِيِّهِ المَرْفُوعِ!»[1]. أَمَّا بَعْدُ:

مِنِّي التَّحِيَّةُ وَالسَّلامُ عَلَيْكُمُ ... وَأَخُصُّ [أَهْلَ العِلْمِ] ثُمَّ أُعَمِّمُ

الحَمْدُ للهِ الذي هُوَ أَهْلُهُ ... إِذْ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُ يَخْلُو أَجْذَمُ

وَإِلَيْكُمُ فِي العِلْمِ نَظْمَ صِفَاتِهِ ... وَالعِلْمُ أَعْلَى مَا يُقَالُ وَيُنْظَمُ

العِلْمُ نُورٌ لا انْطِفَاءَ لِضَوْئِهِ ... وَبِهِ الهِدَايَةُ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

وَبِهِ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاءُ بِفَقْدِهِ ... وَبِهِ يميزُ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ

وَبِهِ يَبِينُ الرُّشْدُ مِنْ غَيٍّ كَمَا ... يَمْتَازُ أَهْلُ العَدْلِ مِمَّنْ يَظْلِمُ

وَبِهِ يَدِينُ المُؤْمِنُونَ لِرَبِّهِمْ ... أَتَرَوْنَ كَيْفَ يَدِينُ مَنْ لا يَعْلَمُ؟!

أَتَرَى تَنَوُّرَ غَيْرِ مَنْ يُعْنَى بِهِ؟! ... أَمْ هَلْ تَدَهْوُرَ غَيْرِ مَنْ عَنْهُ عَمُوا!

وَالفَوْزُ فِي الدَّارَيْنِ لَيْسَ يَنَالُهُ ... أَحَدٌ بِغَيْرِ العِلْمِ فَادْرُوا وَاعْلَمُوا

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الرَّسُولِ وَآلِهِ ... صَلُّوا عَلَيْهِ وَتَابِعِيهِ وَسَلِّمُوا

وَأُسَبِّحُ اللهَ العَظِيمَ جَلَالُهُ ... وَبِحَمْدِهِ أَبْدَا بِذَاكَ وَأَخْتِمُ

وَعَلَيْكُمُوا مِنِّي السَّلَام تَحِيَّةً ... عَوْدًا عَلَى بَدْءٍ فَحَيُّوا وَاسْلَمُوا[2]

---

(١) مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(٢) العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بتصرُّف.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ إِعْدَاد هَذا الكِتَاب كَانَ عَلى النَّحْوِ التَّالِي:

- تَمَّ الابْقَاءُ عَلَى أَلْفَاظِ الحَافِظِ ابن كَثِير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، مَعَ اخْتِصَارِ بَعْضِ المَوَاضِعِ، وَحَذْفِ بَعْضِ المَسَائِل، وَإِعَادَةِ صِيَاغَة عِبَارَاتٍ مَعْدُودَة، وَإِضَافَةِ قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ[1] الذينَ ذُكِرُوا في جُزْءِ عَمَّ، وَقِصَّةِ فَتْحِ مَكَّة، وَإِدْرَاجِ عِبَارَة في أَثْنَاءِ التَّفْسِير تَدُلُّ عَلَى ذِكْرِ القِصَّةِ في آخِرِ السُّورَة، وَتَمَّ وَضْع عَلَامَة عِنْدَ أَرْقَامِ الصَّفحَات الخَاصَّةِ بِالقَصَص لِتَمْيِيزِهَا عَنْ أَصْلِ التَّفْسِير.

- تَمَّ اعْتِمَادُ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة مِن صَحِيحِ الإِمَامِ البُخَارِي وَصَحِيحِ الإِمَام مُسْلِم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ تَعَالَى، وَمَا وُجِدَ في غَيْرِهِمَا فَقَد تَمَّ اعْتِمَادُ تَصْحِيحَاتِ الإِمَام الأَلْبَاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ إِلا مَا نَدَر، كَمَا تَمَّ حَذْفُ الأَحَادِيثِ غَيْرِ الصَّحِيحَة، وَمَا تَمَّ إِبْقَاؤُهُ -وَهو نَادِر- بُيِّنَ ضَعْفُهُ، وَأَمَّا في القَصَصِ المُدْرَجَة، فَلَمْ يَتِم التَّرْكِيز عَلَى الصِّحَة بِنَفْسِ القَدْرِ الذي تَمَّ في التَّفْسِير.

- تَمَّ الرُّجُوعُ إِلى كَثِير مِن طَبْعَاتِ تَفْسِير ابْنِ كَثِير مِمَّا هُوَ مَطْبُوعٌ أَوْ مُتَوَفِّرٌ عَلَى الانْتَرْنِت، وَكَذَلِكَ المُخْتَصَرَات وَالتَّهْذِيبَات، مِن أَجْلِ وَضْعِ أَنْسَبِ العِبَارَات، وَضَبْطِ الكَلِمَات بِالشَّكْلِ الصَّحِيحِ -بِحَسَبِ الوِسْع-.

- تَمَّ اعْتِمَادُ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ التي سَاقَهَا ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بِلَفْظِ الحَدِيثِ مِن دَوَاوِينِ السُّنَّةِ المُسْنَدَةِ المَعْرُوفَةِ وَلَيْسَ بِاللَّفْظِ الذي أَوْرَدَهُ الحَافِظُ ابنُ كَثِير في تَفْسِيره، وَفِي حَالِ عَدَمِ وُجُودِ اللَّفْظِ نَفْسه يَتِمُّ وَضْع أَنْسَب لَفْظٍ مُقَارِبٍ لِمَا ذَكَرَهُ الحَافِظ، وَفِي حَالِ وُجُودِ حَدِيثٍ مُطَوَّل أَوْ فِيهِ قِصَّة وَحَدِيثٍ مُخْتَصَر، فَغَالِبًا يَتِمُّ وَضْع المُطَوَّل؛ لِفَهْمِ الحَادِثَةِ بِكَامِلِها، مَعَ وَضْعِ المَرْجِعِ وَرَقْمِ الحَدِيث، وَذَلِكَ حَتَّى يَعْرِفَ القَارِئ الحَدِيثَ الصَّحِيحَ كَمَا هُوَ بِلَفْظِهِ الصَّحِيحِ الوَارِدِ في كُتُبِ السُّنَّةِ وَالحَدِيث[2]، مَا عَدَا في قِصَّةِ فَتْحِ مَكَّة بَعْدَ سُورَةِ النَّصْر، فَقَدْ تَمَّتِ الإِشَارَةُ إِلى مَرْجِع

---

(١) لَعَلَّهَا تَكُونُ جَاذِبَةً لِمُخْتَلَفِ طَبَقَاتِ القُرَّاءِ، لِمَا فِيهَا مِن عِبَرٍ وَفَوَائِد، فَإِنَّ في القُرْآنِ أَحْسَنَ القَصَص، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَبْعَثُهُم عَلَى الاسْتِزَادَةِ وَالقِرَاءَةِ في ذَلِك.

(٢) الهَدَفُ مِن وَضْعِ الحَدِيثِ بِلَفْظِهِ كَمَا في الكُتُبِ المُسْنَدَة؛ إِطْلاعُ القُرَّاء عَلى الأَحَادِيثِ التي ذُكِرَت مُخْتَصَرَةً في أَصْلِ التَّفْسِيرِ وَإِثْبَاتِ مَا صَحَّ مِنْهَا بِلَفْظِه، فَلَعَلَّ ذَلِكَ يَبْعَثُهُم أَيْضًا عَلَى الاسْتِزَادَة وَالرُّجُوع إِلى كُتُبِ الحَدِيث. وَكُلُّ مُسْلِمٍ مِن أَهْلِ الاتِّبَاع -بَعْدَ حَوَالي ١٤٥٠ سَنَة- مُتَيَقِّنٌ بِأَنَّ مَا في القُرْآنِ العَظِيمِ الذي بَيْنَ أَيْدِينَا هُوَ كَلامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا حَقًّا مَحْفُوظًا كَمَا تَكَلَّمَ بِهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالأَحَادِيث الصَّحِيحَة التي بَيْنَ أَيْدِينا هِيَ كَلامُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ حَقًّا كَمَا لَوْ قَالَهَا لَنَا الآن، فَكَيْفَ بَعْدَ هَذا كُله نُفَرِّطُ في

الحَدِيث وَاعْتِمَاد لَفْظِ ابن كَثِير.

- تَمَّت إِضَافَة بَعْض الفَوَائِد في الهَامِش، كَالأَحَادِيث التي لَهَا عَلاقَة، أَوْ فَائِدَة حَوْلَ مَسْأَلَة ذُكِرَت، وتَمَّت إِضَافَة بَعْض الفَوَائِدِ المُهِمَّة بَعْدَ القُرْآن وَالتَّفْسِير، كَبَعْضِ مُتُونِ الحَدِيث، وَالعَقِيدَة، وَالمَنْهَج، وَالعِبَادَات، وَغَيْر ذَلِك، بِاخْتِصَارٍ يَسِيرٍ وَتَصَرُّف وَإِضَافَة، لِيَسْتَفِيد مِنْهَا القَارِئ الذي يَكُونُ الكِتابُ بَيْنَ يَدَيْه، وَلَعَلَّهَا تَفْتَحُ بَابًا لِمَا بَعْدَهَا، وَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ اللهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْر.

- فَائِدَة: قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ يَفْهَمُونَ مَا فِي كُتُبِي مِنْ مَعَانِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيَنْشُرُونَ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَنْسبُوهُ إِلَيَّ».

ثُـــمَّ انْتِفَـــاءُ نَقْصِـــنَا مُحَـــالُ ... وَجَـــلَّ وَجْـــهُ مَـــنْ لَـــهُ الكَمَـــالُ
ثُـــمَّ الصَّـــلاةُ مِنْـــهُ وَالسَّـــلامُ ... مُتَّصِـــلًا مَـــا جَـــرَتِ الأَقْـــلَامُ
عَلَـــى مُحَمَّـــدٍ رَسُـــولِهِ الأَمِـــينْ ... وَالآلِ؛ وَالحَمْـــدُ لِـــرَبِّ العَـــالَمِينْ[1]

فريق الإعداد

قِرَاءَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ كَامِلًا مَعَ تَفْسِيرٍ لَهُ -وَلَوْ مَرَّةً فِي حَيَاتِنَا-؟! وَنُفَرِّطُ فِي قِرَاءَةِ كُل مَا صَحَّ عَنِ النَّبِي ﷺ مِمَّا صَحَّحَهُ الحُفَّاظُ الأَكَابِر -وَلَوْ مَرَّةً فِي حَيَاتِنَا-؟! ثُمَّ لا نَسْعَى لِلفَهْمِ وَالاتِّبَاع -وَلَوْ قَصَرنَا-؟! فَهِيَ نِعْمَةٌ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِينَا، يَنْبَغِي لَنَا وَنَحْنُ نَدَّعِي حُبَّ اللهِ تَعَالَى وَحُبَّ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ نَحْرِصَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى ذَلِك.

وَرَحِمَ اللهُ العَلَّامَة عَبْد الرَّحْمن بن يَحْيى المُعَلِّمي إِذْ يَقُول: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُنزل كِتَابَهُ خَاصًّا بِأَحَد، بَلْ عَامًّا فِي كُلِّ مُكَلَّف، قَائِلًا سُبْحَانَهُ: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ**﴾، ﴿**يَٰعِبَادِى**﴾. فَكُلُّ مُكَلَّفٍ مِن بَنِي آدَم مُكَلَّفٌ بِأَنْ يَفْهَمَ خِطَابَ رَبِّهِ! وَإِنَّهُ لَعَارٌ وَشَنَارٌ وَفَضِيحَةُ الأَبَد: أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى الذي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُخَاطِبًا لَنَا خِطَابًا يَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا، مَوْجُودًا بَيْنَ أَيْدِينَا، مُيَسَّرَةٌ الطَّرِيقُ إِلى فَهْمِهِ وَالعَمَلِ بِهِ، ثُمَّ نُعرِضُ عَنْهُ وَنَهْجُره! إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون. وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ أَهْلَ مَدِينَةٍ مِنَ المُدُنِ جَاءَهُم كِتَابٌ مِن مَلِكِهِم يَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم، مَا بَقِيَ وَاحِدٌ مِنْهُم إِلا وَأَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ خِطَابَ المَلِكِ وَيَفْهَمهُ، فَأَمَّا إِذَا عَلِمُوا أَنَّهُ أَمَرَهُم أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا فِي ذَلِكَ الكِتَابِ اسْتَحَقَّ الإِنْعَامَ وَالإِكْرَام، وَمَن لَمْ يَعْمَل بِمَا فِيهِ اسْتَحَقَّ التَّخْلِيدَ فِي الحَبْس؛ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم يَبْذُل جِدَّهُ وَجُهْدَهُ لِيَطَّلِعَ عَلَى ذَلِكَ الكِتَاب! وَعَلى الأَقل: عَلَى خَبَرٍ جَازِمٍ مِمَّنْ يَثِقُ بِهِ أَنَّ الذي فِي الكِتَابِ هُوَ كَذَا. فَأَمَّا إِذَا قَالَ لَهُ مَنْ يَثِق: أَظُنُّ أَنَّ فِيهِ كَذَا، فَإِنَّهُ لا يَكْتَفِي بِذَلك -وَكَذَا لَوْ أَرْسَلَ المَلِكُ رَسُولًا وَأَمَرَ كُلَّ أَحَدٍ بِاتِّبَاعِهِ وَالعَمَلِ بِقَوْلِهِ-. إِذَا كَانَ هَذا فِي مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنْيَا، لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلا لِغَيْرِهِ نَفْعًا وَلا ضَرًّا، وَإِنْ أَثَابَ فَثَوَابُهُ مَحْدُود، وَإِنْ عَاقَبَ فَعِقَابُهُ مُنْقَطِع، فَكَيْفَ بِنَا وَكِتَابُ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ بَيْنَ أَيْدِينَا، وَثَوَابُهُ الجَنَّة وَعِقَابُهُ النَّار؟!» [تحقيق الكلام في المسائل الثلاث].

(١) العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

مِن فَضائل القُرآن

«هَذا القُرْآنُ العَظِيمُ هو النُّورُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ إلى أَرْضِهِ، لِيُسْتَضاءَ بِهِ، فَيُعْلَمَ في ضَوْئِهِ الحَقُّ مِنَ البَاطِلِ، وَالحَسَنُ مِنَ القَبِيحِ، والنَّافِعُ مِنَ الضَّارِّ، والرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ. قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]» [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن].

وَ«أَمَّا التَّأَمُّلُ في القُرْآنِ فَهو تَحْدِيقُ نَاظِرِ القَلْبِ إلى مَعانِيهِ، وَجَمْعُ الفِكْرِ عَلى تَدَبُّرِهِ وتَعَقُّلِهِ، وَهو المَقْصُودُ بِإنْزالِهِ، لا مُجَرَّدُ تِلاوَتِهِ بِلا فَهْمٍ وَلا تَدَبُّرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]» [مدارج السالكين في منازل السائرين].

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قَالَ: «يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾، يَقُولُ: اتَّبَعَها» [تفسير القرآن العظيم].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، «فَأَكْبَرُ سَبَبٍ لِنَيْلِ رَحْمَةِ الله؛ اتِّبَاعُ هَذَا الكِتَابِ؛ عِلْمًا وَعَمَلا» [تفسير السعدي].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ «هَذَا مَدْحٌ مِنَ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ- لِكِتَابِهِ القُرْآنِ العَظِيمِ المُنَزَّلِ

عَلَى رَسُولِهِ الكَرِيم» [تفسير القرآن العظيم].

وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ «أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاحْتِرَامًا...وَلَكِنْ يَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ إِذَا جَهَرَ الْإِمَامُ بِالقِرَاءَةِ» [تفسير القرآن العظيم].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]؛ «يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ؛ مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ فِي الْأَوْقَاتِ المَشْرُوعَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَعَلَانِيَةً، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أَيْ: يَرْجُونَ ثَوَابًا عِنْدَ اللهِ لَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ...[وَوَرَدَ فِي فَضَائِلِ] القُرْآنِ أَنَّهُ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: (إِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ)» [تفسير القرآن العظيم].

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]؛ «أَيْ: سَهَّلْنَا لَفْظَهُ، وَيَسَّرْنَا مَعْنَاهُ لِمَنْ أَرَادَهُ، لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ. كَمَا قَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مَرْيَم: ٩٧] ... وَقَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أَيْ: فَهَلْ مِنْ مُتَذَكِّرٍ بِهَذَا القُرْآنِ الَّذِي قَدْ يَسَّرَ اللهُ حِفْظَهُ وَمَعْنَاهُ؟!» [تفسير القرآن العظيم].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ «هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ أَجْمَلَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِيهَا جَمِيعَ مَا فِي القُرْآنِ مِنَ الهُدَى إِلَى خَيْرِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا وَأَصْوَبِهَا، فَلَوْ تَتَبَّعْنَا تَفْصِيلَهَا عَلَى وَجْهِ الكَمَالِ لَأَتَيْنَا عَلَى جَمِيعِ القُرْآنِ العَظِيمِ؛ لِشُمُولِهَا لِجَمِيعِ مَا فِيهِ مِنَ الهُدَى إِلَى خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» [أضواء البيان].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ «وَالنُّورُ هُوَ: القُرْآنُ، كَمَا [رُوِيَ] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ السُّدِّي: الْإِسْلَامُ. وَالكُلُّ صَحِيحٌ» [تفسير القرآن العظيم].

وَالآيَاتُ فِي فَضَائِلِ القُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» [البخاري (٥٠٢٧)].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ آيةً من كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَل؛ كَانَ لَهُ ثَوابُهَا مَا تُلِيَتْ» [السلسلة الصحيحة (١٣٣٥)].

وَقَالَ ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ، وَيَتَدارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِنْدَهُ» [مسلم (٢٦٩٩)].

وَقَالَ ﷺ: «إنَّ مِن إجْلالِ اللهِ: إكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وَحَامِلِ القُرآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإكْرَامُ السُّلْطَانِ المُقْسِطِ» [صحيح سنن أبي داود (٤٨٤٣)].

وَقَالَ ﷺ: «اقْرَأُوا الْقُرآنَ؛ فَإنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ» [مسلم (٨٠٤)].

وَقَالَ ﷺ: «المَاهِرُ بِالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرَةِ، وَالذي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُو عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرانِ» [البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨)].

وَقَالَ ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرآنَ، كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِيْ يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي لا يَقْرَأُ القُرآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ» [البخاري (٥٤٢٧) ومسلم (٧٩٧)].

وَقَالَ ﷺ: «إنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِين» [مسلم (٨١٧)].

وَقَالَ ﷺ: «لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهُو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وَآناءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ مَالًا فَهُو يُهْلِكُهُ فِي الحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ» [البخاري (٥٠٢٦)].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِن كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِن أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ» [صحيح سنن الترمذي (٢٩١٠)].

وَقَالَ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ: اقْرَأ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا» [صحيح سنن أبي داود (١٤٦٤)].

وَعَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَومٍ إلى بُطْحانَ، أَوْ إلى العَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إثْمٍ، وَلا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنا:

يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: أَفلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إلى المَسْجِدِ فَيَعْلَمُ -أَوْ يَقْرَأُ- آيَتَيْنِ مِن كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَل خَيْرٌ لَهُ مِن نَاقَتَيْنِ، وَثَلاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِن ثَلاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِن أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدادِهِنَّ مِنَ الإبِلِ» [مسلم (٨٠٣)].

وَقَالَ ﷺ: «القُرآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ، وَمَن جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ» [صحيح الترغيب (١٤٢٣)].

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُم؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ القُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ» [صحيح سنن ابن ماجه (١٧٩)].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ بِهِ؛ أُلبِسَ وَالِدَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ تَاجًا مِن نُورٍ، ضَوْؤُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتانِ لا تقومُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرآنَ» [صحيح الترغيب (١٤٣٤)].

وَقَالَ ﷺ: «يَجيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: هَلْ تَعْرِفُني؟ أَنَا الذي كُنْتُ أُسْهِرُ لَيْلَكَ، وَأُظْمِئُ هَواجِرَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِن وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَأَنا لَكَ اليَوْمَ مِن وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ؛ فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، وَيُكْسَى والِداهُ حُلَّتَيْنِ لا تقومُ لَهُمَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ فَيَقُولانِ: يَا رَبِّ، أَنَّى لَنَا هَذَا؟! فَيُقالُ: بِتَعْلِيمِ وَلَدِكُمَا القُرآنَ» [السلسلة الصحيحة (٢٨٢٩)].

وَقَالَ ﷺ: «يَجِيءُ صاحِبُ القُرآنِ يومَ القِيامَةِ، فَيَقُولُ القُرآنُ: يَارَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَارَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَارَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ، وَارْقَ، وَيُزادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً» [صحيح الترغيب (١٤٢٥)].

وَقَالَ ﷺ: «أَبْشِروا أَبْشِروا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَن لا إِلهَ إِلا اللهَ وَأَني رَسُولُ اللهِ؟ قَالوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ هَذا القُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُم، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُم لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا» [السلسلة الصحيحة (٧١٣)]؛ «التَّمَسُّك بِحَبْلِ اللهِ -الذي هُوَ بِأَيْدينَا- إِنَّمَا هُوَ العَمَلُ بِالسُّنَةِ المُفَصِّلَة للقُرْآنِ الكَرِيم» [الألباني].

وَقَالَ ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُم شَيْئَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَاب اللهِ، وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ

الحَوْضَ» [صحيح الجامع (٢٩٣٧)].

وَقَالَ ﷺ: «اقْرَأُوا القُرْآنَ، وَلا تَغْلوا فِيهِ، وَلا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلا تَأْكُلوا بِهِ، وَلا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ» [السلسلة الصحيحة (٣٠٥٧)].

وَقَالَ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ» [البخاري (٧٥٢٧)].

وَقَالَ ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ» [مسلم (٧٩٢)].

وَقَالَ ﷺ: «يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتابِ اللهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي القِراءَةِ سَوَاء، فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاء، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الهِجْرَةِ سَوَاء، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، وَلا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلا بِإِذْنِهِ» [مسلم (٦٧٣)].

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيامَةِ عَلَيْهِ...وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ، وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [مسلم (١٩٠٥)].

وَالأَحَادِيثُ فِي فَضَائِلِ القُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ؛ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾» [تفسير الطبري].

وَلَقَدْ أَجَادَ العَلامَةُ حَافِظُ بنُ أَحْمَد الحَكَمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الوَصِيَّةِ بِكِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

وَبِالتَّدَبُّرِ والتَّرتِيلِ فَاتْلُ كِتَا ... بَ اللهِ لاسِيَّمَا فِي حِنْدسِ الظُّلَمِ
حَكِّمْ بَرَاهِينَهُ واعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ ... حِلًّا وحَظْرًا ومَا قَدْ حَدَّهُ أَقِمِ
واطْلُبْ مَعانِيهِ بِالنَّقْلِ الصَّرِيحِ ولا ... تَخُضْ بِرَأْيِكَ واحْذَرْ بَطْشَ مُنْتَقِمِ
فَمَا عَلِمْتَ بِمَحْضِ النَّقْلِ مِنْهُ فَقُلْ ... وَكِلْ إِلَى اللهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبَهِمِ
ثُمَّ الْمِرَا فِيهِ كُفْرٌ فاحْذَرَنْهُ وَلا ... يَسْتَهْوِيَنَّكَ أَقْوامٌ بِزَيْغِهِمِ
وعَنْ مَناهِيهِ كُنْ يا صاحِ مُنْزَجِرًا ... والأَمْرَ مِنْهُ بِلا تِرْدادٍ فَالْتَزِمِ

ومـــا تَـشـابَـــهَ فَـــوِّضْ لِـــلإلهَ وَلا ... تَـــخُضْ فَخَـوْضُكَ فيـه مُوجِـبُ الـنِّقَمِ
ولا تُطـــعْ قـــولَ ذي زيْـــغٍ يُزَخْرِفُـــهُ ... مِـــنْ كُـــلِّ مُبْتَـــدِعٍ فـــي الديـــن مُـــتَّهَمِ
حَـــيْرانَ ضـــلَّ عـــنِ الحـــقِّ الْـــمُبينِ فـــلا ... يَـنْفَـــكُّ مُـنْحَـرِفًـــا مُـعْـــوَجّ لَـــمْ يَقُـــمِ
هُـــوَ الكِتـــابُ الـــذي مَـــن قـــامَ يَقْـــرَؤُهُ ... كَـأَنَّمـــا خاطَـــبَ الرَّحْـــمَنَ بالـــكَلِمِ
هُـــوَ الصِّـــراطُ هُـــو الْحَبْـــلُ الْمَتِينُ هُـــوَ الْـــ ... ميـــزانُ والعُـــرْوَةُ الـــوُثْقَى لَـــمُعْتَصِمِ
هُـــوَ البَيـــانُ هُـــو الـــذِّكْرُ الْحَـــكِيمُ هُـــوَ التَّـــ ... ـفْصِيـــلُ فاقْنَـــعْ بِـــهِ فـــي كُـــلِّ مُنْـــبَهِمِ
هُـــوَ البَـصـائِـــرُ والذكـــرَى لِمُـــدَّكِـــرٍ ... هُـــوَ الْمواعِـــظُ والبُـــشْرى لِغَيـــرِ عَمِـــي
هُـــوَ المُنَـــزَّلُ نُـــورًا بَيِّنًـــا وهُـــدًى ... وَهْـوَ الشِّفاءُ لِـما فِي الـقَلْبِ مِن سَقَمِ
لَكِنَّـــهُ لِأُولِـــي الإيمـــانِ إذْ عَمِـــلُوا ... بِـمـا أَتَـى فِـيه مِـنْ عِـلْمٍ ومِـنْ حِكَـمِ
أَمَّـا عَـلى مَـن تَـوَلّى عـنهُ فـهو عَـمًى ... لِكَوْنِـهِ عَـنْ هُـداهُ الْمُسْتَـنيرِ عَمِـي
فَمَـــنْ يُقِمْـــهُ يَكُـــنْ يَـومَ الْمَعـادِ لَـهُ ... خَيـرَ الإمـامِ إلَـى الـفِرْدَوسِ والنِّعَـمِ
كمَـا يَسُـوقُ أولِـي الإعْـراضِ عنـهُ إلَـى ... دارِ الْـمَقامِـعِ والأَنْكـالِ والأَلَـمِ
وقَـدْ أتَـى الـنصُّ فـي الطُّولَـيْنِ أَنَّـهُما ... ظِـلًّا لِتـالِيهِمـا فِـي مَـوْقِفِ الغمَـمِ
وأَنَّـه فـي غَـدٍ يَأتـي لِـصاحِبـهِ ... مُبَـشِّرًا وحَجِيـجًا عَنْـهُ إنْ يَقُـمِ
والْمُلْـكَ والْخُلْـدَ يُعْطِيـهِ ويُلْبِسُـهُ ... تـاجَ الوَقـارِ الإلـهُ الْـحَقُّ ذو الكَـرَمِ
يُـقالُ: اِقْـرَأْ ورَتِّـلْ وارْقَ فِـي غُـرَفِ الْـ ... جَنـاتِ كَـيْ تَنْـتَهِي لِـلْمَنْزِلِ الـنَّعِمِ
وحُلَّـتانِ مِـن الفِـرْدَوسِ قَـدْ كُسِيَـتْ ... لِوالِدَيْـهِ لَـها الأكْـوانُ لَـمْ تَقُـمِ
قـالا بِمـاذا كُسِيناهَـا فقيـلَ بِمـا ... أَقْرَأْتُمَـا ابْـنَكُما فاشْـكُرْ لِـذِي الـنِّعَمِ
كَـفَى وحَسْبُـكَ بالقُـرْآنِ مُعْـجِزَةً ... دامَـتْ لَدَيْنَـا دوامًـا غيْـرَ مُنْصَـرِمِ
لَـمْ يَعْتَـرِهْ قَـطُّ تَبْدِيـلٌ ولا غِيَـرٌ ... وَجَـلَّ فِـي كَثْـرَةِ التَّـرْدادِ عَـنْ سَـأَمِ
مُهَيْمِنًـا عَرَبِيًّـا غَيـرَ ذِي عِـوَجٍ ... مُصَدِّقًـا جـاءَ فِـي التَّنْـزِيلِ فِـي القِـدَمِ
فيـهِ التفاصِيـلُ للأحْكـامِ مَـعْ نَبَـأٍ ... عمَّـا سَـيأتِي وعَـنْ مـاضٍ مِـن الأُمَـمِ
فانْظُـرْ قَـوارِعَ آيـاتِ الْـمَعادِ بِـهِ ... وانْظُـرْ لِـما قَـصَّ عَـنْ عـادٍ وعَـنْ إرَمِ
وانْظُـرْ بـهِ شَـرْحَ أحْكـامِ الشَّـريعَةِ هَـلْ ... تَـرى بِـها مِـن عَـويصٍ غَيـرِ مُنْفَصِـمِ

أمْ مِـــن صَـــلاحٍ ولَـــمْ يَـــهْدِ الأنـــامَ لَـــهُ ... أمْ بـــابِ هُلْـــكٍ ولَـــمْ يَزْجُـــرْ ولَـــمْ يَلُـــمِ

أمْ كـــانَ يُغْنِـــي نَقِيـــرًا عـــن هِدايَتِـــهِ ... جَـــمِيعُ مـــا عنـــدَ أهـــلِ الأرضِ مِـــنْ نُظُـــمِ

أخبـــارُهُ عِظَـــةٌ أمثـــالُـــهُ عِبَـــرٌ ... وكُلُّـــهُ عَجَـــبٌ سُحْقًـــا لِـــذِي صَـــمَمِ

لَـــمْ تَلْـــبَثِ الْـــجِنُّ إذْ أصْـــغَتْ لِتَسْـــمَعَهُ ... أنْ بـــادَرُوا نُـــذُرًا مِنْهـــم لِقَوْمِـــهِمِ

الـــلهُ أكْبَـــرُ مـــا قـــدْ حـــازَ مِـــن عِبَـــرٍ ... ومِـــن بَيـــانٍ وإعْجـــازٍ ومِـــن حِـــكَمِ

واللـــهُ أكْبَـــرُ إذْ أعْيَـــتْ بلاغَتُـــهُ ... وحُسْـــنُ تَرْكِيـــبِهِ لـــلعُرْبِ والعَجَـــمِ

كـــمْ مُلْحِـــدٍ رامَ أن يُبْـــدِي مُعارَضَـــةً ... فعَـــادَ بالـــذُّلِّ والْـــخُسْرانِ والـــرَّغَمِ

هيْـــهاتَ بُعْـــدًا لِمـــا رامُـــوا ومـــا قَصَـــدُوا ... ومـــا تَمَنَّـــوْا لَقَـــدْ بَـــاؤُوا بِذُلِّهِـــمِ

خابَـــتْ أمـــانِيهُمُ شـــاهَتْ وُجُوهُهُـــمُ ... زَاغَـــتْ قُلوبُهُـــمُ عـــنْ هَدْيِـــهِ القِـــيَمِ

كَـــمْ قَـــدْ تَـــحدَّى قريشًـــا فِي القـــدِيمِ وهُـــمْ ... أهـــلُ البلاغـــةِ بيـــنَ الـــخَلْقِ كُلِّهِـــمِ

بِمِثْلِـــهِ وبِعَشْـــرٍ ثـــمَّ واحـــدةٍ ... فلَـــمْ يَرُومُـــوهُ إذْ ذا الأمـــرُ لَـــمْ يُـــرَمِ

الـــجِنُّ والإنـــسُ لـــم يـــأتوا لَـــوِ اجْتمعـــوا ... بِمِثْلِـــهِ ولَـــوِ انْضَـــمُّـــوا لِـــمِثْلِهِمِ

أنَّـــى وكيْـــفَ وربُّ العَـــرْشِ قائِـــلُهُ ... سبْحانَـــهُ جـــلَّ عـــنْ شِـــبْهٍ لـــه وسَـــمِي

مَـــا كـــان خَلْقًـــا ولا فَـــيْضًا تَـــصَوَّرَهُ ... نَبِيُّنـــا لا ولا تَعبيـــرَ ذِي نَسَـــمِ

بـــلْ قـالَـــهُ ربُّـنـــا قـــوْلا وأنْزَلَـــهُ ... وَحْيًـــا عَـــلى قلْبِـــهِ الْـــمُسْتَيْقِظِ الفَهِـــمِ

واللـــهُ يَشْهَـــدُ والأمـــلاكُ شاهِـــدَةٌ ... والـــرُّسْلُ مـــعْ مُـــؤْمِنِي العُرْبَـــانِ والعَجَـــمِ

للاستماع

العَذْبُ النَّمِير مِن تَفْسِيرِ الحَافِظِ ابنِ كَثِير

تَفْسِير

جُزْء عَمَّ

وسُورَة الْفَاتِحَة وآية الكُرْسي

للشَّيخِ الإِمَامِ الحَافِظِ عِمَاد الدِّينِ أَبي الفِدَاءِ
إِسْمَاعِيل بنِ عُمَر ابنِ كَثِيرٍ القُرَشيِّ الدِّمَشقيِّ
ت ٧٧٤ هـ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

تفسير سورة الفاتحة

(مكية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

يُقَالُ لَهَا: الفَاتِحَةُ؛ أَيْ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ خَطًّا، وَبِهَا تُفْتَتَحُ القِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا: أُمُّ الكِتَابِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ **أُمُّ القُرآنِ، وأُمُّ الكِتابِ، والسَّبْعُ المَثانِي**» [صحيح سنن الترمذي (٣١٢٤)]. وَيُقَالُ لَهَا: (الحَمْدُ). وَيُقَالُ لَهَا: (الصَّلَاةُ) لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قالَ اللهُ تَعالى: حَمِدَنِي عَبْدِي...**» [مسلم (٣٩٥)]. فَسُمِّيَتِ الفَاتِحَةُ صَلَاةً؛ لِأَنَّهَا شَرْطٌ فِيهَا. وَيُقَالُ لَهَا: (الرُّقْيَةُ)؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!**»(١). وَهِيَ مَكِّيَّةٌ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وقَتَادَة، وَأَبو العَالِية. وَقِيلَ: مَدَنِيَّة. قَالَهُ أَبو هُرَيْرَة، وَمُجَاهِد، وَعَطَاء، والزُّهْرِي. وَيُقال: نَزَلَتْ مَرَّتَيْن؛ مَرَّةً بِمَكَّةَ، وَمَرَّةً بِالمَدِينَة. وَالأَوَّلُ أَشْبَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي**﴾ [الحجر: ٨٧]، وَاللهُ تَعَالى أَعْلَمُ.

وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ بِلَا خِلَافٍ. وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي البَسْمَلَةِ؛ هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مِنْ أَوَّلِهَا؟، أَوْ

---

(١) عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انْطَلَقَ نَفَرٌ مِن أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ في سَفْرَةٍ سافَرُوها، حتَّى نَزَلُوا على حَيٍّ مِن أَحْياءِ العَرَبِ، فاسْتَضافُوهُمْ فأبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذلكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا له بكُلِّ شَيءٍ، لا يَنْفَعُهُ شَيءٌ، فَقالَ بَعْضُهُمْ: لو أَتَيْتُمْ هَؤُلاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا؛ لَعَلَّهُ أَنْ يَكونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيءٌ، فأتَوْهُمْ، فَقالوا: يا أَيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سَيِّدَنا لُدِغَ، وَسَعَيْنا له بكُلِّ شَيءٍ، لا يَنْفَعُهُ؛ فَهلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنكُم مِن شَيءٍ؟ فَقالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، واللهِ إنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ واللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْناكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونا، فَما أنا بِراقٍ لَكُمْ حتَّى تَجْعَلُوا لَنا جُعْلًا، فَصالَحُوهُمْ على قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فانْطَلَقَ يَتْفُلُ عَلَيْه، وَيَقْرَأُ: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾، فَكَأَنَّما نُشِطَ مِن عِقالٍ، فانْطَلَقَ يَمْشِي وَما به قَلَبَةٌ، قالَ: فأوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذي صالَحُوهُمْ عليه، فَقالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقالَ الَّذي رَقَى: لا تَفْعَلُوا حتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذْكُرَ له الَّذي كانَ، فَنَنْظُرَ ما يَأْمُرُنا، فَقَدِمُوا على رَسولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا له، فَقالَ: **وَما يُدْرِيكَ أَنَّها رُقْيَةٌ؟! ثُمَّ قالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، واضْرِبُوا لي معكُمْ سَهْمًا**. فَضَحِكَ رَسولُ اللهِ ﷺ» [البخاري (٢٢٧٦)].

بَعْضُ آيَةٍ؟، أَوْ لَا تُعَدُّ مِنْ أَوَّلِهَا؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ. قَالُوا: وَكَلِمَاتُهَا خَمْسٌ وَعِشْرُونَ كَلِمَةً، وَحُرُوفُهَا مِائَةٌ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ حَرْفًا. قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِ التَّفْسِيرِ: «وسُمِّيَتْ أُمُّ الكِتَاب؛ لأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي المَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ». وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِرُجُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ جَامِعٍ أَمْرٍ أَوْ مُقَدَّمٍ لِأَمْرٍ -إِذَا كَانَتْ لَهُ تَوَابِعُ تَتْبَعُهُ هُوَ لَهَا إِمَامٌ جَامِعٌ- أُمًّا، وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ: أُمَّ القُرَى؛ لِتَقَدُّمِهَا أَمَامَ جَمِيعِهَا وَجَمْعِهَا مَا سِوَاهَا، وَقِيلَ: لِأَنَّ الْأَرْضَ دُحِيَتْ مِنْهَا. وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا: الفَاتِحَةُ؛ لِأَنَّهَا تُفْتَتَحُ بِهَا القِرَاءَةُ، وَافْتَتَحَتِ الصَّحَابَةُ بِهَا كِتَابَةَ المُصْحَفِ الإِمَامِ. وَصَحَّ تَسْمِيَتُهَا بِالسَّبْعِ المَثَانِي، قَالُوا: لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِي الصَّلَاةِ، فَتُقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ -وَإِنْ كَانَ لِلْمَثَانِي مَعْنًى آخَرُ غَيْرُ هَذَا-.

ذكر ما وَرَد في فَضل الفَاتحة

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَرَّ بِيَ النبيُّ ﷺ وأَنا أُصَلِّي، فَدَعانِي فَلَمْ آتِهِ حتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ، فَقالَ: ما مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ فَقُلتُ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَقالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قالَ: ألا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ، فَذَهَبَ النبيُّ ﷺ لِيَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ، فَذَكَّرْتُهُ، فَقالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. هي السَّبْعُ المَثانِي، والقُرْآنُ العَظِيمُ الذي أُوتِيتُهُ» [البخاري (٤٧٠٣)].

وَعَنْ عَبدِ الله بنِ جَابِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قَال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَخْيَرِ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾» [صحيح الجامع (٢٥٩٢)]. وَاسْتَدَلُّوا بِهَذَا الحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ عَلَى تَفَاضُلِ بَعْضِ الآيَاتِ وَالسُّوَرِ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا هُوَ المَحْكِيُّ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ، مِنْهُمْ: إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ. وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى إِلَى أَنَّهُ لَا تَفَاضُلَ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الجَمِيعَ كَلَامُ اللهِ، وَلِئَلَّا يُوهِمَ التَّفْضِيلُ نَقْصَ المُفَضَّلِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الجَمِيعُ فَاضِلًا.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بَيْنَما جِبْرِيلُ قاعِدٌ عِنْدَ النبيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا مِن فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقالَ: هذا بابٌ مِنَ السَّماءِ فُتِحَ اليومَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إلا اليَومَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقالَ: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إلا اليَومَ، فَسَلَّمَ، وَقالَ: أَبْشِرْ بنُورَيْنِ أُوتِيتَهُما لَمْ يُؤْتَهُما نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتابِ، وَخَواتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بحَرْفٍ مِنْهُمَا إلا أُعْطِيتَهُ» [مسلم (٨٠٦)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَن صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فيها بأُمِّ القُرْآنِ فَهي خِداجٌ -ثَلاثًا- غَيْرُ تَمامٍ. فقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إنَّا نَكُونُ وراءَ الإمامِ؟ فقالَ: اقْرَأْ بها في نَفْسِكَ؛ فإنِّي سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: قالَ اللهُ تَعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْني وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قالَ اللهُ تَعالى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قالَ اللهُ تَعالى: أثْنى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وقالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِي-، فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قالَ: هذا بَيْني وبيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قالَ الله: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ» [مسلم (٣٩٥)].

ثُمَّ الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الحَدِيثِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالفَاتِحَةِ مِنْ وُجُوهٍ:

(أَحَدُهَا): أَنَّهُ قَدْ أَطْلَقَ فِيهِ لَفْظَ الصَّلَاةِ، وَالمُرَادُ: القِرَاءَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]. أَيْ: بِقِرَاءَتِكَ؛ كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قَالَ: «نَزَلَتْ ورَسولُ اللهِ ﷺ مُخْتَفٍ بمَكَّةَ؛ كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بالقُرْآنِ، فَإِذا سَمِعَهُ المُشْرِكُونَ سَبُّوا القُرْآنَ وَمَن أَنْزَلَهُ وَمَن جَاءَ بِهِ، فَقالَ اللهُ تَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أَيْ: بقِراءَتِكَ؛ فَيَسْمعَ المُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا القُرْآنَ، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عَن أَصْحابِكَ فَلا تُسْمِعُهُمْ، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾» [البخاري (٤٧٢٢)].

وَهَكَذَا قَالَ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» [مسلم (٣٩٥)]. ثُمَّ بَيَّنَ تَفْصِيلَ هَذِهِ القِسْمَةِ فِي قِرَاءَةِ الفَاتِحَةِ فَدَلَّ عَلَى عَظَمَةِ القِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَرْكَانِهَا، إِذْ أُطْلِقَتِ العِبَادَةُ وَأُرِيدَ بِهَا جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْهَا وَهُوَ القِرَاءَةُ؛ كَمَا أَطْلَقَ لَفْظَ القِرَاءَةِ وَالمُرَادُ بِهِ: الصَّلَاةُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وَالمُرَادُ: صَلَاةُ الْفَجْرِ، كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ» [مسلم (٦٤٩)]، وَفِي رِوَايَةٍ: «تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ الليلِ، وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ» [صحيح سنن الترمذي (٣١٣٥)].

فَدَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ القِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهُوَ اتِّفَاقٌ مِنَ العُلَمَاءِ.

(**الوَجْه الثَّانِي**): وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا: هَلْ يَتَعَيَّنُ لِلْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ فَاتِحَةُ الكِتَابِ، أَمْ تُجْزِئُ هِيَ أَوْ غَيْرُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورَيْنِ:

فَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّهَا لَا تَتَعَيَّنُ؛ بَلْ مَهْمَا قَرَأَ بِهِ مِنَ القُرْآنِ أَجْزَأَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَاحْتَجُّوا بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ**﴾ [المزمل: ٢٠].

وَبِمَا ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ المُسِيءِ صَلَاتَهُ: «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ على النبيِّ ﷺ، فَرَدَّ وَقالَ: **ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**، فَرَجَعَ يُصَلِّي كما صَلَّى، ثُمَّ جاءَ، فَسَلَّمَ على النبيِّ ﷺ، فَقالَ: **ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ** -ثَلاثًا-، فَقالَ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي، فَقالَ: **إذا قُمْتَ إلى الصَّلاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ معكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَعْدِلَ قائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتّى تَطْمَئِنَّ ساجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ جالِسًا، وافْعَلْ ذَلكَ في صَلاتِكَ كُلِّها**» [البخاري (٧٥٧)].

قَالُوا: فَأَمَرَهُ بِقِرَاءَةِ مَا تَيَسَّرَ، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُ الفَاتِحَةَ وَلَا غَيْرَهَا، فَدَلَّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ.

وَالقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَتَعَيَّنُ قِرَاءَةُ الفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَلَا تُجْزِئُ الصَّلَاةُ بِدُونِهَا، وَهُوَ قَوْلُ بَقِيَّةِ الْأَئِمَّةِ: مَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَأَصْحَابُهُمْ، وَجُمْهُورُ العُلَمَاءِ.

وَاحْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَة بن الصَّامِت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**» [البخاري (٧٥٦)، مسلم (٣٩٤)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَن صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِي خِداجٌ** -ثَلاثًا- **غَيْرُ تَمامٍ**» [مسلم (٣٩٥)].

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا البَابِ كَثِيرَةٌ، وَوَجْهُ المُنَاظَرَةِ هَاهُنَا يَطُولُ ذِكْرُهُ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى مَأْخَذِهِمْ فِي ذَلِكَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ[1].

---

(١) **فَائِدَة؛ قَالَ العَلَامَةُ المُحدِّثُ مُحَمَّد نَاصِر الدِّين الأَلْبَانِي** رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «(جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِي ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنَ القُرْآنِ شَيْئًا، فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ. قَالَ: **قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلا إِلهَ إِلا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَر، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ**. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذا للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَا لِي؟ قَالَ: **قُلْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي** -زَادَ فِي رِوَايَة: **وَاغْفِر لِي**-.

(**الوَجْه الثَّالِث**): هَلْ تَجِبُ قِرَاءَةُ الفَاتِحَةِ عَلَى المَأْمُومِ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ؛

(**أَحَدُهَا**): أَنَّهُ تَجِبُ عَلَيْهِ قِرَاءَتُهَا، كَمَا تَجِبُ عَلَى إِمَامِهِ؛ لِعُمُومِ الأَحَادِيثِ المُتَقَدِّمَةِ.

(**وَالثَّانِي**): لَا تَجِبُ عَلَى المَأْمُومِ قِرَاءَةٌ بِالكُلِّيَّةِ، لَا الفَاتِحَةُ وَلَا غَيْرُهَا، لَا فِي الصَّلَاةِ الجَهْرِيَّةِ وَلَا السِّرِّيَّةِ، لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بن عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ: «**مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ، فَقِرَاءَتُهُ لَهُ قِرَاءَةٌ**»(١).

وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ. وَرَوَاهُ مَالِكٌ، عَنْ وَهَبِ بْنِ كَيْسَان، عَنْ جَابِرٍ مِنْ كَلَامِهِ.

وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ مِنْ طُرُقٍ، وَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(**وَالقَوْلُ الثَّالِثُ**): أَنَّهُ تَجِبُ القِرَاءَةُ عَلَى المَأْمُومِ فِي السِّرِّيَّةِ، لِمَا تَقَدَّمَ، وَلَا تَجِبُ فِي الجَهْرِيَّةِ(٢) لِمَا ثَبَتَ؛ فَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا**» [صحيح الجامع (٢٣٥٩)].

فَدَلَّ هَذَا عَلَى صِحَّةِ هَذَا القَوْلِ.

وَهُوَ قَوْلٌ قَدِيمٌ لِلشَّافِعِيِّ وَرِوَايَةٌ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَد بن حَنْبَل رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالى.

وَالغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ المَسَائِلِ هَاهُنَا بَيَانُ اخْتِصَاصِ سُورَةِ الفَاتِحَةِ بِأَحْكَامٍ لَا تَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهَا

فَلَمَّا قَامَ؛ قَالَ هَكذا بِيَدِهِ -وَفِي لَفْظ: فَعَدَّهُنَّ الرَّجُلُ فِي يَدِهِ عَشْرًا-؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَمَّا هَذا؛ فَقَدْ مَلَأَ يَدَيْهِ مِن الخَيْر**)...قُلْتُ: وَلَعَلَّ الحَدِيثَ بِهذَيْنِ الإِسْنَادَيْنِ يَصِيرُ حَسَنًا، وَاللهُ أَعْلَم...قَالَ الخَطَّابِي فِي المَعَالِم: (الأَصْل أَنَّ الصَّلَاةَ لا تُجْزِئ إِلا بِقِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الكِتَاب؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: "لا صَلاةَ إِلا بِفَاتِحَةِ الكِتَاب". وَمَعْقُولٌ أَنَّ وُجُوبَ قِرَاءَتِها إِنَّمَا هُوَ عَلى مَنْ أَحْسَنَهَا دُونَ مَنْ لا يُحْسِنهَا؛ فَإِذا كَانَ المُصَلِّي لا يُحْسِنها وَكَانَ يُحْسِنُ شَيْئًا مِن القُرْآنِ غَيْرِها؛ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ قَدْرَ سَبْع آيات؛ لأَنَّ أَوْلَى الذِّكْرِ بَعْدَ فَاتِحَةِ الكِتَاب مَا كَان مِثْلاً لَهَا مِن القُرْآن، فَإِنْ كَانَ رَجُلٌ لَيْسَ فِي وِسْعِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ شَيْئًا مِن القُرْآنِ؛ لِعَجْزٍ فِي طَبْعِهِ، أَوْ سُوءِ حِفْظِهِ، أَوْ عُجْمَةٍ لِسَان، أَوْ آفَةٍ تَعْرِضُ لَهُ؛ كَانَ أَوْلَى الذِّكْرِ بَعْدَ القُرآن مَا عَلَّمَهُ النَّبِي ﷺ مِن التَّسْبِيحِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ)» [أصل (صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها)].

(١) [حسن، إرواء الغليل (٥٠٠)].

(٢) **فَائِدَة؛ قَالَ العَلامَةُ المُحدِّثُ مُحَمَّد نَاصِر الدِّين الأَلْبَانِي** رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «[قَدْ] لا تَسْمَع قِرَاءَة الإِمَام -وَذَلِكَ فِي الصَّلاةِ الجَهْرِيَّة-، أَوْ فِي حَالَةٍ أُخْرَى: قَدْ يَكُونُ صَوْتُ الإِمَامِ خَافِتًا، وَقَدْ يَكُونُ سَمْعُ المُقْتَدِي خَفِيفًا، يَكونُ فِي النِّهَايَة هُوَ لا يَسْمَعُ قِرَاءَةَ إِمَامٍ -وَلَوْ أَنَّهُ يَجْهَرْ-، فِي هَذِهِ الحَالَة يَقْرَأ، أَمَّا وَأَنْتَ تَسْمَعُ قِرَاءَة الإِمَام، فَسَمَاعُكَ يُغْنِيكَ عَنْ قِرَاءَتِكَ أَنْتَ» [جامع تراث العلامة الألباني في الفقه)].

مِنَ السُّوَرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.(١)

الكَلام عَلى تَفسير الاستعاذة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ أَنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ العَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ؛ لِيَرُدَّهُ عَنْهُ طبعُهُ -الطَّيب الْأَصْلِ- إِلَى المُوَادَّةِ وَالمُصَافَاةِ، وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ العَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ -لَا مَحَالَةَ-؛ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ، لِشِدَّةِ العَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ

---

(١) بيَّن العَلامَةُ المُحدِّثُ مُحَمَّد نَاصِر الدِّين الأَلْبَاني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى مَسْأَلَة (نَسْخ القِرَاءَة وَرَاءَ الإِمَام في الجَهْرِيَّة) وَ(وُجُوب القِرَاءَةِ في السِّرِيَّة) بِقَوْلِهِ: «وَكَانَ ﷺ قَدْ أَجَازَ لِلمُؤْتَمِّينَ أَنْ يَقْرَؤُوا بها وَرَاءَ الإِمَام في الصَّلاةِ الجَهْرِيَّة؛ حَيْثُ كَانَ ﷺ في صَلاةِ الفَجْرِ، فَقَرَأَ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ القِرَاءَةُ، فَلَمَّا فَرَغَ؛ قَالَ: (لَعَلَّكُم تَقْرَؤُونَ خَلْفَ إِمَامِكُم؟ قُلْنَا: نَعَمْ؛ هَذًّا يَا رَسُولَ الله! قَالَ: لا تَفْعَلوا؛ إِلا أَنْ يَقْرَأَ أَحَدكُم بِفَاتِحَةِ الكِتَاب؛ فَإِنَّهُ لا صَلاةَ لِمَن لَمْ يَقْرَأ بِها) ثُمَّ نَهَاهُم ﷺ عَن القِرَاءَةِ كُلِّهَا في الجَهْرِيَّة، وَذَلِكَ حِينَمَا (انْصَرَفَ من صَلاةٍ جَهَرَ فِيهَا بِالقِرَاءَة -وَفي رِوَايَة: أَنَّهَا صَلاة الصُّبْح-، فَقَالَ: هَلْ قَرَأَ مَعِي مِنْكُم أَحَدٌ آنِفًا؟! فَقَالَ رَجُلٌ: نَعَمْ؛ أَنَا يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ: إِنِّي أَقُولُ: مَا لِي أُنَازَعُ؟!). قَالَ أَبو هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (فَانْتَهَى النَّاسُ عَن القِرَاءَةِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رَسُول الله ﷺ بِالقِرَاءَة حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ من رَسُول الله ﷺ، وَقَرَؤُوا في أَنْفُسِهِم سِرًّا فِيمَا لا يَجْهَرُ فِيهِ الإِمَام). وَجَعَلَ ﷺ الإِنْصَاتَ لِقِرَاءَةِ الإِمَام من تَمَام الائْتِمَام بِهِ؛ فَقَالَ: (إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ؛ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ؛ فَأَنْصِتُوا). كَمَا جَعَلَ ﷺ الاسْتِمَاعَ لَهُ مُغْنِيًا عَن القِرَاءَةِ وَرَاءَهُ؛ فَقَالَ: (مَنْ كَانَ لَهُ إِمَام؛ فَقِرَاءَةُ الإِمَام لَهُ قِرَاءَة)، هَذا في الجَهْرِيَّة. وَأَمَّا في السِّرِيَّة؛ فَقَدْ أَقَرَّهُم عَلى القِرَاءَةِ فِيهَا، فَقَالَ جَابِر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (كُنَّا نَقْرَأُ في الظُّهْرِ وَالعَصْرِ خَلْفَ الإِمَام في الرَّكْعَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ بِفَاتِحَةِ الكِتَاب وَسُورَة، وَفي الأُخْرَيَيْنِ بِفَاتِحَةِ الكِتَاب)» [أصل (صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها)].

﴿مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وَقَدْ أَقْسَمَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ لَمِنَ النَّاصِحِينَ -وَكَذَبَ!-، فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؟! [ص: ٨٢-٨٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨-٩٩].

قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ القُرَّاءِ وَغَيْرِهِمْ: نَتَعَوَّذُ بَعْدَ القِرَاءَةِ -وَاعْتَمَدُوا عَلَى ظَاهِرِ سِيَاقِ الْآيَةِ- وَلِدَفْعِ الْإِعْجَابِ بَعْدَ فَرَاغِ العِبَادَةِ.

وَالمَشْهُورُ الَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُورُ أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ لِدَفْعِ الوَسْوَاسِ فِيهَا؛ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَهُمْ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؛ أَيْ: إِذَا أَرَدْتَ القِرَاءَةَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الْآيَةَ [المائدة: ٦]؛ أَيْ: إِذَا أَرَدْتُمُ القِيَامَ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ.

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا قامَ منَ اللَّيلِ كبَّرَ، ثمَّ يقولُ: **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلا إِلَهَ غَيرُكَ**. ثُمَّ يَقُولُ: **لا إِلَهَ إلا اللهُ** -ثَلاثًا- ثُمَّ يَقولُ: **اللهُ أَكْبرُ كَبيرًا** -ثلاثًا- **أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِن هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ**، ثُمَّ يَقْرَأُ» [صحيح سنن أبي داود (٧٧٥)].

وَقَدْ فُسِّرَ (الهَمْز) بِالمَوْتَةِ وَهِيَ الخَنْقُ، وَ(النَّفخ) بِالكِبْرِ، وَ(النَّفْث) بِالشِّعْرِ.

وعَنْ سُلَيْمَان بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النبيِّ ﷺ، فَجَعَلَ أَحَدُهُما يَغْضَبُ وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ النبيُّ ﷺ فَقالَ: **إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَها لَذَهَبَ ذَا عَنْهُ: (أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ)**، فَقَامَ إِلى الرَّجُلِ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَ النبيَّ ﷺ فَقالَ: أَتَدْرِي مَا قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آنِفًا؟ قَالَ: إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَها لَذَهَبَ ذَا عَنْهُ: (أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ)، فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَمَجْنُونًا تَرانِي؟» [مسلم (٢٦١٠)].

وَقَدْ جَاءَ فِي الِاسْتِعَاذَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا هَاهُنَا، وَمَوْطِنُهَا كِتَابُ الْأَذْكَارِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْ لَطَائِفِ الِاسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَتَطْيِيبٌ لَهُ، وَتَهَيُّؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللهِ، وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللهِ وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ، وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا العَدُوِّ المُبِينِ البَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً، وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ، بِخِلَافِ العَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ القُرْآنِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ المَثَانِي، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا**﴾ [الإسراء: ٦٥].

وَقَدْ نَزَلَتِ المَلَائِكَةُ لِمُقَاتَلَةِ العَدُوِّ البَشَرِيِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَمَنْ قَتَلَهُ العَدُوُّ الظَّاهِرِيُّ البَشَرِيُّ كَانَ شَهِيدًا، وَمِنْ قَتَلَهُ العَدُوُّ البَاطِنِيُّ كَانَ طَرِيدًا، وَمَنْ غَلَبَهُ العَدُوُّ الظَّاهِرُ كَانَ مَأْجُورًا، وَمَنْ قَهَرَهُ العَدُوُّ البَاطِنُ كَانَ مَفْتُونًا أَوْ مَوْزُورًا، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ؛ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشَّيْطَان.

فَصْلٌ

وَالاسْتِعَاذَةُ هِيَ: الِالْتِجَاءُ إِلَى اللهِ وَالِالْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَالعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، وَاللِّيَاذُ يَكُونُ لِطَلَبِ جَلْبِ الخَيْرِ، كَمَا قَالَ المُتَنَبِّي:

يَـــا مَـــنْ أَلُـــوذُ بِـــهِ فِيمَـــا أُؤَمِّلُـــهُ ... وَمَـــنْ أَعُـــوذُ بِـــهِ مِمَّـــا أُحَـــاذِرُهُ

لَا يَجْبُـــرُ النَّـــاسُ عَظْمًـــا أَنْـــتَ كَاسِـــرُهُ ... وَلَا يَهِيضُـــونَ عَظْمًـــا أَنْـــتَ جَـــابِرُهُ

وَمَعْنَى: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ **أَيْ**: أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ، أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُفُّهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللهُ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُدَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الجَمِيلِ إِلَيْهِ، لِيَرُدَّهُ طَبْعُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَذَى، وَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رِشْوَةً وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ؛ لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ، وَلَا يَكُفُّهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ.

وَهَذَا المَعْنَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَا أَعْلَمُ لَهُنَّ رَابِعَةً، قَوْلُهُ فِي الْأَعْرَافِ: ﴿**خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فَهَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ الْأَعْدَاءِ مِنَ البَشَرِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ**

هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وَالشَّيْطَانُ فِي لُغَةِ العَرَبِ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ البَشَرِ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ. وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ. وَالشَّيْطَانُ مُشْتَقٌّ مِنَ البُعْدِ عَلَى الصَّحِيحِ؛ وَلِهَذَا يُسَمُّونَ كُلَّ مَا تَمَرَّدَ مِنْ جِنِّيٍّ وَإِنْسِيٍّ وَحَيَوَانٍ: شَيْطَانًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وعَنْ أَبِي ذَر الغِفَارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**إذا قامَ أحَدُكُمْ يُصَلِّي، فإنَّهُ يَسْتُرُهُ إذَا كَانَ بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فَإذَا لَمْ يَكُنْ بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فإنَّه يَقْطَعُ صَلاتَهُ الحِمارُ، والمَرْأَةُ، والكَلْبُ الأسْوَدُ**. قُلتُ: يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا بَالُ الكَلْبِ الأسْوَدِ مِنَ الكَلْبِ الأحْمَرِ مِنَ الكَلْبِ الأصْفَرِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، سَأَلْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ كَمَا سَأَلْتَنِي فَقَالَ: **الكَلْبُ الأسْوَدُ شيطانٌ**» [مسلم (٥١٠)].

وَرُوِيَ عَن عُمَر بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ رَكِبَ بِرْذَوْنًا، فَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بِهِ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا تَبَخْتُرًا، فَنَزَلَ عَنْهُ وَقَالَ: مَا حَمَلْتُمُونِي إِلَّا عَلَى شَيْطَانٍ، مَا نَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّى أَنْكَرْتُ نَفْسِي!

وَالرَّجِيمُ: فَعِيلٌ؛ بِمَعْنَى: مَفْعُول، أَيْ: أَنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

افْتَتَحَ بِهَا الصَّحَابَةُ كِتابَ الله، وَاتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِن سُورَةِ النَّمْل، ثُمَّ اخْتَلَفوا، هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَة؟ أَوْ هِيَ مِن أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا؟ أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِن أَوَّلِ كُلِّ سُورَة؟ أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِها؟ أَوْ أَنَّها إِنَّمَا كُتِبَتْ للفَصْلِ لا أَنَّها آيَة؟

عَلَى أَقْوَالٍ لِلعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَعرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنزِلَ عَلَيْهِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾» [صحيح سنن أبي داود (٧٨٨)]. وَمِمَّنْ حُكِيَ عَنْهُ أَنَّهَا آيَة مِن كُلِّ سُورَةٍ إِلا بَرَاءَة: ابنُ عَبَّاس، وَابنُ عُمَر، وابنُ الزُّبَيْر، وأَبو هُرَيْرَة، وَعَلي. وَمِن التَّابِعين: عَطَاء، وَسَعيد بن جُبَيْر وَغَيْرهم. وَبِهِ يَقُولُ الشَّافِعي، وَأَحْمَد بن حَنْبل فِي رِوَايَةٍ عَنهُ، وَقَالَ مَالِك وَأَبو حَنِيفَة وَأَصْحَابهمَا: لَيْسَت آيَة مِن الفَاتِحَة وَلا مِن غَيْرِهَا مِن السُّوَر.

هَذا مَا يَتَعَلَّقُ بِكَوْنِها آية مِن الفَاتِحَة أَمْ لا. فَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالجَهْرِ بِهَا فَمُفَرَّعٌ عَلى هَذا؛ فَمَنْ رَأَى أَنَّهَا لَيْسَت مِنْهَا فَلا يَجْهَر بِهَا، وَكَذَا مَن قَالَ: إِنَّهَا آيَة مِن أَوَّلِهَا. وَأَمَّا مَن قَالَ: بِأَنَّهَا مِن أَوَائِلِ السُّوَرِ فَاخْتَلَفوا؛ فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلى أَنَّهُ يُجْهَرُ بِهَا مَعَ الفَاتِحَةِ وَالسُّورَة، وَهُوَ مَذْهَبُ طَوَائِفَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعينَ وَأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ سَلَفًا وَخَلَفًا، وَالحُجَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا بَعْضُ الفَاتِحَةِ فَيُجْهَرُ بِهَا كَسَائِرِ أَبْعَاضِهَا، وَفِي صَحِيحِ البُخَارِي: «سُئِلَ أَنَسٌ: كيفَ كانَتْ قِراءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقالَ: كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ يَمُدُّ بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وَيَمُدُّ بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وَيَمُدُّ بـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾» [البخاري (٥٠٤٦)]. وَذَهَبَ آخَرونَ إِلى أَنَّهُ لا يُجْهَرُ بِالبَسْمَلَةِ فِي الصَّلاةِ، وَهَذا هُوَ الثَّابِتُ عَن الخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ، وَعبْدِ اللهِ بنِ مُغَفَّل، وَطَوَائِفَ مِن سَلَفِ التَّابِعِينَ وَالخَلَفِ، وَهُو مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَأَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ. وَعِنْدَ الإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّهُ لا يَقْرَأُ البَسْمَلَةَ بِالكُلِّيَّةِ لا جَهْرًا وَلا سِرًّا.

وَاحْتَجوا بِمَا وَرَد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْتُ خَلْفَ النبيِّ ﷺ، وأَبِي بَكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثْمانَ، فَكانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لا يَذْكُرُونَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فِي أَوَّلِ قِراءَةٍ ولا فِي آخِرِها» [مسلم (٣٩٩)].

فَهَذِهِ مَآخِذُ الأَئِمَّةِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ؛ لأَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّةِ مَنْ جَهَرَ بِالبَسْمَلَةِ وَمَنْ أَسَرَّ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

فَصْلٌ في فضلها

عَنْ عَاصِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا تَمِيمَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَدِيفِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كنتُ رَدِيفَ النبيِّ ﷺ فعَثَرت دابَّتُه، فقلتُ: تَعِسَ الشيطانُ. فقال: **لا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ البَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِن قُلْ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**» [صحيح سنن أبي داود (٤٩٨٢)]. فَهَذَا مِن تَأْثِيرِ بَرَكَةِ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وَلِهَذا تُسْتَحَبُّ في أَوَّلِ كُلِّ عَمَلٍ وَقَوْلٍ؛ فَتُسْتَحَبُّ في أَوَّلِ الخُطْبَةِ، وَتُسْتَحَبُّ البَسْمَلَةُ عِنْدَ دُخُولِ الخَلاءِ، وَتُسْتَحَبُّ في أَوَّلِ الوُضُوءِ وَتُسْتَحَبُّ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ -في مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَجَمَاعَة-، وَتُسْتَحَبُّ عِنْدَ الأَكْلِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**يَا غُلامُ، إِذَا أَكَلْتَ، فَقُلْ: بِسْمِ اللهِ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**» [السلسلة الصحيحة (٣٤٤)]. وَتُسْتَحَبُّ عِنْدَ الجِمَاعِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إذا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، فَقَالَ: باسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشَّيْطانَ وجَنِّبِ الشَّيْطانَ مَا رَزَقْتَنا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُما وَلَدٌ في ذلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**» [البخاري (٧٣٩٦)].

﴿ٱللَّهِ﴾: عَلَمٌ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ الاسْمُ الأَعْظَمُ؛ لأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، فَأَجْرَى الأَسْمَاءَ البَاقِيَةَ كُلَّهَا صِفَاتٍ لَهُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ [الإسراء: ١١٠]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**» [البخاري (٢٧٣٦)، مسلم (٢٦٧٧)].

وَهو اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِهذا لا يُعْرَفُ في كَلامِ العَرَبِ لَهُ اشْتِقَاقٌ مِن فَعَلَ يَفْعَل، فَذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ النُّحَاةِ إِلى أَنَّهُ اسْمٌ جَامِدٌ لا اشْتِقَاقَ لَهُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ، وَقَد اسْتُدِلَّ عَلَى كَوْنِهِ مُشْتَقًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ**﴾ [الأنعام: ٣]؛ أَيْ: المَعْبُودُ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ**﴾ [الزخرف: ٨٤].

وَنَقَلَ سِيبَوَيْه عَنِ الخَلِيلِ أَنَّ أَصْلَهُ (إِلَاه)، مِثْل: فِعَال، فَأُدْخِلَتِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ بَدَلًا مِنَ الهَمْزَةِ.

قَالَ سِيبَوَيْه: مِثْلُ النَّاسِ، أَصْلُهُ أُنَاسٌ. وَقِيلَ: أَصْلُ الْكَلِمَةِ: (لَاهٌ) فَدَخَلَتِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ لِلتَّعْظِيمِ، وَهَذَا اخْتِيَارُ سِيبَوَيْهِ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ المُبَالَغَةِ، وَرَحْمَانُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِن رَحِيمٍ، وَفِي كَلامِ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ حِكَايَةُ الاتِّفَاقِ عَلَى هَذَا، وَفِي تَفْسِيرِ بَعْضِ السَّلَفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ القُرْطُبِيُّ: وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ؛ مَا خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا اللهُ، وَأَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ**» [صحيح سنن الترمذي (١٩٠٧)]. قَالَ: وَهَذا نَصٌّ فِي الاشْتِقَاقِ، فَلَا مَعْنى لِلمُخَالَفَةِ وَالشِّقَاقِ.

قَالَ: وَإِنْكَارُ العَرَبِ لاسْمِ الرَّحْمَنِ لِجَهْلِهِم بِاللهِ وَبِمَا وَجَبَ لَهُ. قَالَ أَبو عَلي الفَارِسِيِّ: الرَّحْمَنُ: اسْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ يَخْتَصُّ بِهِ اللهُ تَعَالَى، وَالرَّحِيمُ: إِنَّمَا هُوَ فِي جِهَةِ المُؤْمِنِين، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا**﴾. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاس: هُمَا اسْمَانِ رَقِيقَانِ أَحَدُهُمَا أَرَقُّ مِنَ الآخَرِ؛ أَيْ: أَكْثَرُ رَحْمَةً.

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِير عَن العَزْرَمِيِّ: ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾؛ قَالَ: ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنِ**﴾ بِجَمِيعِ الخَلْقِ، ﴿**ٱلرَّحِيمِ**﴾ قَالَ: بِالمُؤْمِنِين. قَالوا: وَلِهَذا قَالَ: ﴿**ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ**﴾ [الفرقان: ٥٩]، وَقَالَ: ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥]، فَذَكَرَ الاسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَن لِيَعُمَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَقَالَ: ﴿**وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا**﴾، فَخَصَّهُمْ بِاسْمِهِ الرَّحِيم.

قَالوا: فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ﴿**ٱلرَّحۡمَٰن**﴾ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَ﴿**ٱلرَّحِيمِ**﴾ خَاصَّةٌ بِالمُؤْمِنِين.

وَعَلَى هَذا فَيَكُونُ تَقْدِيمُ اسْمِ ﴿**ٱللَّهِ**﴾ الذي لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَوَصْفُهُ أَوَّلا بِـ﴿**ٱلرَّحۡمَٰن**﴾ الذي منعَ مِنَ التَّسْمِيَةِ بِهِ لِغَيْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ**﴾ [الإسراء: ١١٠].

وَأَمَّا ﴿ٱلرَّحِيم﴾ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِن أَسْمَائِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. وَالحَاصِلُ: أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا مَا لا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ؛ كَاسْمِ: اللهِ، وَالرَّحْمَنِ، وَالخَالِقِ، وَالرَّزَّاقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَلِهَذا بَدَأَ بِاسْمِ ﴿ٱللَّه﴾ وَوَصَفَهُ بِالرَّحْمَنِ؛ لأَنَّهُ أَخَصُّ وَأَعْرَفُ مِن ﴿ٱلرَّحِيم﴾؛ لأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوَّلًا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الأَسْمَاءِ، فَلِهَذا ابْتَدَأَ بِالأَخَصِّ فَالأَخَصِّ.

وَلَمَّا تَجَهْرَمَ مُسَيْلِمَةُ الكَذَّابُ وَتَسَمَّى بِرَحْمَانِ اليَمَامَةِ، كَسَاهُ اللهُ جِلْبَابَ الكَذِبِ، وَشَهَرَهُ بِهِ، فَلا يُقَالُ إِلا مُسَيْلِمَة الكَذَّاب، فَصَارَ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي الكَذِبِ بَيْنَ أَهْلِ الحَضَرِ وَأَهْلِ المَدَرِ، وَأَهْلِ الوَبَرِ مِن أَهْلِ البَادِيَةِ وَالأَعْرَابِ، وَلَمْ يُتَابِعْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلا مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الضَّلالَةِ[1].

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُم أَنَّ العَرَبَ لا تَعْرِفُ الرَّحْمَن! حَتَّى رَدَّ اللهُ عَلَيْهِم ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وَلِهَذَا قَالَ كُفَّارُ قُرَيْش يَوْمَ الحُدَيْبِيَة لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اكْتُبْ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا (باسْمِ اللهِ)، فَمَا نَدْرِي مَا (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» [مسلم (١٧٨٤)].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩﴾[الفرقان: ٦٠]، وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِنْكَارَهُم هَذَا إِنَّمَا هُوَ جُحُودٌ وَعِنَادٌ وَتَعَنُّتٌ فِي كُفْرِهِم، فَإِنَّهُ قَدْ وُجِدَ فِي أَشْعَارِهِم فِي الجَاهِلِيَّةِ تَسْمِيَةُ اللهِ بِالرَّحْمَن!

---

(١) لا يَصِحُّ الحَدِيثُ فِي تَسَمِّي مُسَيْلِمَة الكَذَّاب بِرَحْمَانِ اليَمَامَةِ؛ وَمِن الأَحَادِيث: «كَانَ ﷺ يَجْهَرُ بِـ: (بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم) بِمَكَّةَ، وَكَانَ أَهلُ مَكَّةَ يَدعُونَ (مُسَيْلِمَة) الرَّحْمانَ، فَقَالوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَدْعُو إِلى إِلَهِ اليَمَامَةِ، فَأُمِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْفَاهَا فَمَا جَهَرَ بِها حتَّى مَاتَ» [منكر، السلسلة الضعيفة (٦٤٣٠)]. قَالَ العَلامَةُ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَقَدْ أَعَلَّهُ الحَافِظُ فِي (الدِّرَايَة) مِنْ وَجْهٍ آخَر، فَقَالَ: (وَالمَتْنُ مَعْلولٌ مِن جِهَة أَن مُسَيْلِمَة لَمْ يَكُنْ يَدَّعِي الألوهِيَّة، وَمِن جِهَة التَّسْمِيَة، لَكِن فِي نَصِّ الخَبَرِ أَنَّهُ يُدْعَى "رَحْمَان اليَمَامَة"، وَلَفْظ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ فِي بَقِيَّة الفَاتِحَة، وَهُوَ قَوْل: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بَعْدَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فَلا مَعْنَى للإِسْرَارِ بِالبَسْمَلَةِ لأَجْلِ ذِكْرِ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ مَعَ وُجُودِ ذِكْرِ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ عقبَ ذَلِك!) وَهَذا غَايَة فِي تَحْقِيقِ نَكَارَةِ الحَدِيث».

قَالَ ابْنُ جَرِير: وَقَدْ أَنْشَدَ بَعْضُ الجَاهِلِيَّة:

أَلَا ضَـــرَبَتْ تِلْـــكَ الفَتَـــاةُ هَجِينَهَـــا ... أَلا قَضَـــبَ الـــرَّحْمَنُ رَبِّـــي يَمِينَهَـــا

وَقَالَ سَلَامَةُ بنُ جَنْدَلٍ:

عَجِلْـــتُمْ عَلَيْنَـــا عَجْلَتَيْنَـــا عَلَـــيْكُمُ ... وَمَـــا يَشَـــإِ الـــرَّحْمَنُ يَعْقِـــدْ وَيُطْلِـــقِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

القُرَّاءُ السَّبْعَةُ عَلَى ضَمِّ الدَّالِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ. قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِهِ، بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا العَدَدُ، وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ أَحَدٌ، فِي تَصْحِيحِ الْآلَاتِ لِطَاعَتِهِ، وَتَمْكِينِ جَوَارِحِ أَجْسَامِ المُكَلَّفِينَ لِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، مَعَ مَا بَسَطَ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ، وَغَذَّاهُم بِهِ مِنْ نَعِيمِ العَيْشِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَعَ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيْهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ، مِنَ الْأَسْبَابِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى دَوَامِ الخُلُودِ فِي دَارِ المُقَامِ فِي النَّعِيمِ المُقِيمِ، فَلِرَبِّنَا الحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَفِي ضِمْنِهِ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. وَقَدْ اشْتُهِرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ مِنَ المُتَأَخِّرِينَ أَنَّ (الحَمْدَ) هُوَ الثَّنَاءُ بِالقَوْلِ عَلَى المَحْمُودِ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ وَالمُتَعَدِّيَةِ، وَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى المُتَعَدِّيَةِ، وَيَكُونُ بِالجَنَانِ وَاللِّسَانِ وَالْأَرْكَانِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَـــادَتْكُمُ النَّعْمَـــاءُ مِنِّـــي ثَلَاثَـــةً ... يَـــدِي وَلِسَـــانِي وَالضَّـــمِيرَ المُحَجَّبَـــا

وَلَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا: أَيُّهُمَا أَعَمُّ، الحَمْدُ أَوِ الشُّكْرُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا، فَالحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ وَالمُتَعَدِّيَةِ، تَقُولُ: حَمِدْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ وَحَمِدْتُهُ لِكَرَمِهِ، وَهُوَ أَخَصُّ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالقَوْلِ.

وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالقَوْلِ وَالعَمَلِ وَالنِّيَّةِ. وَهُوَ أَخَصُّ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الصِّفَاتِ المُتَعَدِّيَةِ؛ لَا يُقَالُ: شَكَرْتُهُ لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَتَقُولُ: شَكَرْتُهُ عَلَى كَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيَّ. هَذَا حَاصِلُ مَا حَرَّرَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا المَدْحُ فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الحَمْدِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ لِلْحَيِّ وَلِلْمَيِّتِ وَلِلْجَمَادِ أَيْضًا -كَمَا يُمْدَحُ الطَّعَامُ وَالمَالُ وَنَحْو ذَلِكَ-، وَيَكُونُ قَبْلَ الْإِحْسَانِ وَبَعْدَهُ، وَعَلَى الصِّفَاتِ المُتَعَدِّيَةِ وَاللَّازِمَةِ أَيْضًا، فَهُوَ أَعَمُّ.

وَعَن الأَسْوَدِ بنِ سَرِيعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ شَاعِرًا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! إِنِّي مَدَحْتُ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ بِمَحَامِد، قَالَ: **أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الحَمْدَ**» [صحيح الأدب المفرد (٦٦٠)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمْدُ لِلَّهِ**» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٨٣)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ؛ إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ**» [صحيح الجامع (٥٥٦٣)].

قَالَ القُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ -فِي مِثْلِ لَفْظِ هَذا الحَدِيثِ-: أَيْ: لَكَانَ إِلهَامُهُ الحَمْدَ لِلَّهِ أَكْبَرَ نِعْمَةً عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ ثَوَابَ الحَمْدِ لَا يَفْنَى، وَنَعِيمُ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ [الكهف: ٤٦].

وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (الـ)حَمْدِ لِاسْتِغْرَاقِ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الحَمْدِ وَصُنُوفِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّه**» [صحيح الترغيب (١٥٧٦)].

﴿**رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾؛ وَالرَّبُّ هُوَ: المَالِكُ المُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى المُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللهِ، بَلْ بِالْإِضَافَةِ؛ تَقُولُ: رَبُّ الدَّارِ، رَبُّ كَذَا، وَأَمَّا (الرَّبُّ) فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ الِاسْمُ الْأَعْظَمُ.

و﴿**ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾: جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالعَوَالِمُ أَصْنَافُ المَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فِي البَرِّ وَالبَحْرِ، وَكُلُّ قَرْنٍ مِنْهَا وَجِيلٍ يُسَمَّى عَالَمًا أَيْضًا.

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾؛ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الخَلْقُ كُلُّهُ؛ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرَضُونَ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، مِمَّا نَعْلَمُ وَمَا لَا نَعْلَمُ. وَفِي رِوَايَة: رَبُّ الجِنِّ وَالإِنْسِ. وَكَذلِكَ قَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيْر، وَمُجَاهِد، وَابنُ جُرَيْج.

وَاسْتَدَلَّ الْقُرْطُبِيُّ لِهَذَا القَوْلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وَهُمُ الجِنُّ وَالإِنْسُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: رَبُّ العَالَمِينَ، كُلُّ صِنْفٍ عَالَمٌ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: العَالَمُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالَ القُرْطُبِيُّ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ؛ أَنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ العَالَمِينَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]، وَالعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ العَلَامَةِ.

قُلْتُ: لِأَنَّهُ عَلَمٌ دَالٌّ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ المُعْتَزِّ:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهِ فِي البَسْمَلَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

قَالَ القُرْطُبِيُّ: «وَصَفَ نَفْسَهُ تَعَالَى بَعْدَ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بِأَنَّهُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي اتِّصَافِهِ بِـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَرْهِيبٌ، قَرَنَهُ بِـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لِمَا تَضَمَّنَ مِنَ التَّرْغِيبِ، لِيَجْمَعَ فِي صِفَاتِهِ بَيْنَ الرَّهْبَةِ مِنْهُ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ أَعْوَنَ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَمْنَعَ، كَمَا قَالَ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وَقَالَ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ العُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ» [مسلم (٢٧٥٥)].

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

قَرَأَ بَعْضُ القُرَّاءِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿مَلِكِ﴾، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ فِي السَّبْعِ.

وَ﴿مَٰلِكِ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ المِلْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٢].

وَ﴿مَلِكِ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ المُلْكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وَقَالَ: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وَقَالَ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وَتَخْصِيصُ المُلْكِ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يَقُولُ: لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَهُ حُكْمًا، كَمِلْكِهِمْ فِي الدُّنْيَا. وَ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يَوْمُ الحِسَابِ لِلْخَلَائِقِ، وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ يُدِينُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ، إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْهُ. وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَالمَلِكُ فِي الحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «أَخْنَعُ اسمٍ عِنْدَ اللهِ -وَفي رواية: أَخْنَعُ الأَسْماءِ عِنْدَ اللهِ- رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاكِ» [البخاري (٦٢٠٦)، مسلم (٢١٣٤)].

وَفِيهِمَا عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَقْبِضُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى الأَرْضَ يومَ القِيامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ. أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟» [البخاري (٧٣٨٢)، مسلم (٢٧٨٧)].

وَفِي القُرْآنِ العَظِيمِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فَأَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِـ (مَلِكٍ) فَعَلَى سَبِيلِ المَجَازِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وَقَالَ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وَقَالَ: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «مِثْلُ المُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ»(١).

---

(١) عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرامٍ بنْتِ مِلْحانَ فَتُطْعِمُهُ -وَكانَتْ أُمُّ حَرامٍ تَحْتَ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ- فَدَخَلَ عَلَيْها رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَطْعَمَتْهُ وَجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنامَ رَسولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهو يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يا رَسولَ اللهِ؟ قَالَ: نَاسٌ مِن أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذا البَحْرِ،

وَ﴿ٱلدِّينِ﴾؛ الجَزَاءُ وَالحِسَابُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، وَقَالَ: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]؛ أَيْ: مَجْزِيُّونَ مُحَاسَبُونَ، وَفِي الأَثَرِ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»؛ أَيْ: حَاسَبَ نَفْسَهُ لِنَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَأَهَّبُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ عَلَى مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيهِ أَعْمَالُكُم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]».

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

العِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الذِّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أَيْ: مُذَلَّلٌ.

وَفِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ المَحَبَّةِ وَالخُضُوعِ وَالخَوْفِ. وَقُدِّمَ المَفْعُولُ وَهُوَ ﴿إِيَّاكَ﴾ وَكُرِّرَ؛ لِلِاهْتِمَامِ وَالحَصْرِ.

أَيْ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ، وَالدِّينُ كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ.

وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الفَاتِحَةُ سِرُّ القُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الكَلِمَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَالْأَوَّلُ: تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَالثَّانِي: تَبَرُّؤٌ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ، وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَهَذَا المَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ القُرْآنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وَقَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وَتَحَوُّلُ الكَلَامِ مِنَ الغَيْبَةِ إِلَى المُوَاجَهَةِ بِكَافِ الخِطَابِ -وَهو مُنَاسِبٌ-؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللهِ فَكَأَنَّهُ اقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالَى، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

مُلُوكًا عَلَى الأسِرَّةِ، أوْ: مِثْلَ المُلُوكِ عَلَى الأسِرَّةِ، -شَكَّ إسْحاقُ-، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعا لَهَا رَسولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ وضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهو يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسولَ اللهِ؟ قَالَ: نَاسٌ مِن أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللهِ -كَمَا قَالَ في الأوَّلِ- قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: أنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ، فَرَكِبَتِ البَحْرَ في زَمانِ مُعاوِيَةَ بنِ أبِي سُفْيانَ، فَصُرِعَتْ عَن دَابَّتِها حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، فَهَلَكَتْ» [البخاري (٢٧٨٨)، مسلم (١٩١٢)].

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ الحُسْنَى، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ بِأَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا لَا تَصِحُّ صَلَاةُ مَنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ -وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ-، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا صَلاةَ لِمَن لَمْ يَقْرَأْ بفاتِحَةِ الكِتابِ**» [البخاري (٧٥٦)، (مسلم (٣٩٤)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾؛ **يَعْنِي**: إِيَّاكَ نُوَحِّدُ وَنَخَافُ وَنَرْجُو يَا رَبَّنَا لَا غَيْرَكَ. ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ عَلَى طَاعَتِكَ، وَعَلَى أُمُورِنَا كُلِّهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ العِبَادَةَ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أَمْرِكُمْ.

وَإِنَّمَا قَدَّمَ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ عَلَى ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾؛ لِأَنَّ العِبَادَةَ لَهُ هِيَ المَقْصُودَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا، وَالِاهْتِمَامُ وَالحَزْمُ هُوَ أَنْ يُقَدَّمَ مَا هُوَ الْأَهَمُّ فَالْأَهَمُّ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى النُّونِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**إِيَّاكَ (نَـ)ـعْبُدُ وَإِيَّاكَ (نَـ)ـسْتَعِينُ**﴾ فَإِنْ كَانَتْ لِلْجَمْعِ فَالدَّاعِي وَاحِدٌ، وَإِنْ كَانَتْ لِلتَّعْظِيمِ فَلَا تُنَاسِبُ هَذَا المَقَامَ؟

وَقَدْ أُجِيبَ: بِأَنَّ المُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْإِخْبَارُ عَنْ جِنْسِ العِبَادِ -وَالمُصَلِّي فَرْدٌ مِنْهُمْ-، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ فِي جَمَاعَةٍ أَوْ إِمَامَهُمْ، فَأَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ إِخْوَانِهِ المُؤْمِنِينَ بِالعِبَادَةِ الَّتِي خُلِقُوا لِأَجْلِهَا، وَتَوَسَّطَ لَهُمْ بِخَيْرٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّعْظِيمِ، كَأَنَّ الْعَبْدَ قِيلَ لَهُ: إِذَا كُنْتَ فِي العِبَادَةِ فَأَنْتَ شَرِيفٌ وَجَاهُكَ عَرِيضٌ؛ فَقُلْ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، وَإِذَا كُنْتَ خَارِجَ العِبَادَةِ فَلَا تَقُلْ: نَحْـ(ـنُ) وَلَا فَعَلْـ(ـنَا)، وَلَوْ كُنْتَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ أَلْفِ أَلْفٍ، لِافْتِقَارِ الجَمِيعِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ أَلْطَفُ فِي التَّوَاضُعِ مِنْ (إِيَّاكَ أَعْبُدُ) لِمَا فِي الثَّانِي مِن تَعْظِيمِ القَائِلِ نَفْسَهُ؛ مِنْ جَعْلِهِ نَفْسَهُ وَحْدَهُ أَهْلًا لِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى -الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْبُدَهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ-، وَالعِبَادَةُ مَقَامٌ عَظِيمٌ يَشْرُفُ بِهِ العَبْدُ؛ لِانْتِسَابِهِ إِلَى جَنَابِ اللهِ تَعَالَى.

وَقَدْ سَمَّى اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِـ: (عَبْدِهِ) فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ، فَقَالَ: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ [الكهف: ١]، وَقَالَ: ﴿**وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾ [الجن: ١٩]، وَقَالَ: ﴿**سُبْحَٰنَ**

﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا﴾ [الإسراء: ١]، فَسَمَّاهُ عَبْدًا عِنْدَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ وَقِيَامِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَإِسْرَائِهِ بِهِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى القِيَامِ بِالعِبَادَةِ فِي أَوْقَاتٍ يَضِيقُ صَدْرُهُ مِنْ تَكْذِيبِ المُخَالِفِينَ لَهُ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾

قِرَاءَةُ الجُمْهُورِ بِالصَّاد. وَقُرِئَ: (السِّرَاطَ)، وَقُرِئَ بِالزَّايِ. لَمَّا تَقَدَّمَ الثَّنَاءُ عَلَى المَسْؤُولِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، نَاسَبَ أَنْ يُعَقَّبَ بِالسُّؤَالِ؛ كَمَا قَالَ: «فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي. وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» [مسلم (٣٩٥)]. وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَالِ السَّائِلِ؛ أَنْ يَمْدَحَ مَسْؤُولَهُ، ثُمَّ يَسْأَلَ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ إِخْوَانِهِ المُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ لِأَنَّهُ أَنْجَحُ لِلْحَاجَةِ وَأَنْجَعُ لِلْإِجَابَةِ، وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ، وَقَدْ يَكُونُ السُّؤَالُ بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَالِ السَّائِلِ وَاحْتِيَاجِهِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]، وَقَدْ يَتَقَدَّمُهُ مَعَ ذَلِكَ وَصْفُ المَسْؤُولِ؛ كَقَوْلِ ذِي النُّونِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وَقَدْ يَكُونُ بِمُجَرَّدِ الثَّنَاءِ عَلَى المَسْؤُولِ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

وَالهِدَايَةُ هَاهُنَا: الإِرْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ، وَقَدْ تُعَدَّى الهِدَايَةُ بِنَفْسِهَا كَمَا هَاهُنَا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فَتَضَمَّنُ مَعْنَى: أَلْهِمْنَا، أَوْ وَفِّقْنَا، أَوِ ارْزُقْنَا، أَوِ اعْطِنَا؛ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]؛ أَيْ: بَيَّنَّا لَهُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ.

وَقَدْ تُعَدَّى بِإِلَى؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل: ١٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وَذَلِكَ بِمَعْنَى الإِرْشَادِ وَالدَّلَالَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

وَقَدْ تُعَدَّى بِاللَّامِ، كَقَوْلِ أَهْلِ الجَنَّةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، أَيْ: وَفَّقَنَا لِهَذَا وَجَعَلَنَا لَهُ أَهْلًا.

وَأَمَّا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَر بْنُ جَرِيرٍ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هُوَ الطَّرِيقُ الوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَذَلِكَ فِي لُغَةِ جَمِيعِ العَرَبِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرِ بْنِ عَطِيَّةَ الخَطَفِي:

أَمِيـــرُ المُـــؤْمِنِينَ عَلَـــى صِـــرَاطٍ إِذَا اعْـــوَجَّ المَـــوَارِدُ مُسْـــتَقِيمِ

قَالَ: وَالشَّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ. قَالَ: ثُمَّ تَسْتَعِيرُ العَرَبُ (الصِّرَاطَ) فَتَسْتَعْمِلُهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وُصِفَ بِاسْتِقَامَةٍ أَوِ اعْوِجَاجٍ، فَتَصِفُ المُسْتَقِيمَ بِاسْتِقَامَتِهِ، وَالمُعْوَجَّ بِاعْوِجَاجِهِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ المُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ فِي تَفْسِيرِ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، وَإِنْ كَانَ يَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ المُتَابَعَةُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ، فَرُوِيَ أَنَّهُ كِتَابُ اللهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قَالَ: ذَاكَ الْإِسْلَامُ.

وَقَالَ ابْنُ الحَنَفِيَّةِ: هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مِنَ العِبَادِ غَيْرَهُ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، قَالَ: هُوَ الْإِسْلَامُ.

وَفِي مَعْنَى هَذَا؛ عَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلًا صِراطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوابِ سُتورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقولُ: يَا أَيُّها النَّاسُ! ادْخُلوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلا تَتَعَوَّجوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فَالصِّرَاطُ: الإِسْلامُ، وَالسُّورَانِ: حُدودُ اللهِ، وَالأَبْوابُ المُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْق: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسلِمٍ**» [صحيح الجامع (٣٨٨٧)][1].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قَالَ: الحَقُّ. وَهَذَا أَشْمَلُ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَقَدَّمَ.

وعَنْ أَبِي العَالِيَةِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قَالَ: هُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَاحِبَاهُ مِنْ بَعْدِهِ.

قَالَ عَاصِمٌ: فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلْحَسَنِ، فَقَالَ: صَدَقَ أَبُو العَالِيَةِ وَنَصَحَ!

---

(١) وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا فَقَالَ: **هَذَا سَبِيلُ اللهِ**. ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: **وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**، ثُمَّ تَلَا: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾» [هداية الرواة (١٦٥)].

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَال صَحِيحَةٌ، وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ، فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَاقْتَدَى بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ - أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - فَقَدِ اتَّبَعَ الحَقَّ، وَمَنِ اتَّبَعَ الحَقَّ فَقَدِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ فَقَدِ اتَّبَعَ القُرْآنَ، وَهُوَ كِتَابُ اللهِ، وَحَبْلُهُ المَتِينُ، وَصِرَاطُهُ المُسْتَقِيمُ، فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلِلَّهِ الحَمْدُ. وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ قَالَ: الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ الَّذِي تَرَكَنَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْن جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدِي -أَعْنِي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾- أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِهِ: وَفِّقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَى مَا ارْتَضَيْتَهُ وَوَفَّقْتَ لَهُ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِكَ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَذَلِكَ هُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ.

لِأَنَّ مَن وُفِّقَ لِمَا وُفِّقَ لَهُ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن -النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ- فَقَدْ وُفق لِلْإِسْلَامِ، وَتَصْدِيقِ الرُّسُلِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ، وَالعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، وَالِانْزِجَارِ عَمَّا زَجَرَهُ عَنْهُ، وَاتِّبَاعِ مِنْهَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْهَاجِ الخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَكُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ يَسْأَلُ المُؤْمِنُ الهِدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الحَاصِلِ أَمْ لَا؟!

فَالجَوَابُ: أَنْ لَا، وَلَوْلَا احْتِيَاجُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الهِدَايَةِ لَمَا أَرْشَدَهُ اللهُ إِلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ العَبْدَ مُفْتَقِرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَثْبِيتِهِ عَلَى الهِدَايَةِ وَرُسُوخِهِ فِيهَا، وَتَبَصُّرِهِ وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ العَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ، فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَمُدَّهُ بِالمَعُونَةِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَلَا سِيَّمَا المُضْطَرُّ المُحْتَاجُ المُفْتَقِرُ إِلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآيَة [النساء: ١٣٦].

فَقَدْ أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَحْصِيلُ الحَاصِلِ؛ لِأَنَّ المُرَادَ: الثَّبَاتُ وَالِاسْتِمْرَارُ وَالمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَعْمَالِ المُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ اسْتَمِرَّ بِنَا عَلَيْهِ، وَلا تَعْدِل بِنَا إِلى غَيْرِهِ.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الحَدِيثُ فِيمَا إِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِهَا أَنَّ اللهَ يَقُولُ: «هَذا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» [مسلم (٣٩٥)]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مُفَسِّرٌ لِلصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ. وَهُوَ بَدَلٌ مِنْهُ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفَ بَيَانٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ هُمُ المَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بِطَاعَتِكَ وَعِبَادَتِكَ؛ مِنْ مَلَائِكَتِكَ وَأَنْبِيَائِكَ، وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ وَذَلِكَ نَظِيرُ مَا قَالَ رَبُّنَا تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآيَةَ [النساء: ٦٩].

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ: هُمُ النَّبِيُّونَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمُ المُؤْمِنُونَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ وَكِيع: هُمُ المُسْلِمُونَ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ. وَالتَّفْسِيرُ المُتَقَدِّمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَعَمُّ، وَأَشْمَلُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ المَعْنَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُمْ وَنَعْتُهُمْ؛ وَهُمْ أَهْلُ الهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ.

﴿غَيْرِ﴾ صِرَاطِ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ وَهُمُ الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَاتُهُمْ، فَعَلِمُوا الحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ. وَلَا صِرَاطِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ وَهُمُ الَّذِينَ فَقَدُوا العِلْمَ فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الحَقِّ.

وَأَكَّدَ الكَلَامَ بِـ(لا) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمَّ مَسْلَكَيْنِ فَاسِدَيْنِ، وَهُمَا طَرِيقَتَا اليَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأ: غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِين. وَكَذَلِكَ حُكِيَ عَن أُبَي بنِ كَعْب. وَهو مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ صَدَرَ مِنْهُمَا عَلَى وَجْهِ التَّفْسير؛ فَيَدُلُّ عَلى مَا قُلْنَاهُ مِن أَنَّهُ إِنَّمَا جِيءَ بِـ (لا) لِتَأْكِيدِ النَّفْي، لِئَلَّا يُتَوَهَّم أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

وَلِلْفَرْقِ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ؛ لِتُجْتَنَبَ كُلًّا مِنْهُمَا؛ فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى العِلْمِ بِالحَقِّ وَالعَمَلِ بِهِ، وَاليَهودَ فَقَدوا العَمَلَ، وَالنَّصَارَى فَقَدوا العِلْمَ، وَلِهَذا كَانَ الغَضَبُ لِليَهودِ، وَالضَّلالُ للنَّصَارَى؛ لأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ اسْتَحَقَّ الغَضَبَ بِخِلافِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ، وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانوا قَاصِدينَ شَيْئًا لَكِنَّهُم لا يَهْتَدُونَ إِلى طَرِيقِهِ؛ لأَنَّهُم لَمْ يَأْتوا الأَمْرَ مِن بَابِهِ -وَهُو اتِّبَاعُ الرَّسُولِ الحَقِّ- ضَلُّوا.

وَكُلٌّ مِن اليَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، لَكِن أَخَصُّ أَوْصَافِ اليَهودِ الغَضَبُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وَأَخَصُّ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلالُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وَبِهَذا جَاءَتِ الأَحَادِيثُ وَالآثَارُ، وَذَلِكَ وَاضِحٌ بَيِّنٌ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِوَادِي القُرَى عَلَى فَرَسِهِ، وَسَأَلَهُ رَجُل مِنْ بَنِي القين، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: **هَؤُلَاءِ المَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ** -وَأَشَارَ إِلَى اليَهُود-، قَالَ: فَمَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: **هَؤُلَاءِ الضَّالِّين** -يَعْنِي: النَّصَارَى-» [السلسلة الصحيحة (٣٢٦٣)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هُمُ اليَهُودُ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هُمُ النَّصَارَى.

وَكَذَلِكَ قَالَ الرَّبِيعُ بنُ أَنَسٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَن بنُ زَيْدِ بن أَسْلَم، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِم: وَلا أَعْلَمُ بَيْنَ المُفَسِّرينَ فِي هَذا اخْتِلافًا.

وَشَاهِدُ مَا قَالَهُ هَؤُلاءِ الأَئِمَّةُ مِن أَنَّ اليَهودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِم، وَالنَّصَارَى ضَالُّون؛ الحَدِيثُ المُتَقَدِّم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي خِطَابِهِ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيل فِي سُورَةِ البَقَرَة: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

وَقَالَ تَعَالَى فِي المَائِدَة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وَفِي السِّيرَةِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إلى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، ويَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عالِمًا مِنَ اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عن دِينِهِمْ فَقالَ: إنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي؟

فَقَالَ: لا تَكُونُ عَلى دِينِنا حتَّى تَأْخُذَ بنَصِيبِكَ مِن غَضَبِ اللهِ.

قَالَ زَيْدٌ: مَا أفِرُّ إلا مِن غَضَبِ اللهِ! وَلا أَحْمِلُ مِن غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أبَدًا، وَأَنَّى أسْتَطِيعُهُ! فَهلْ تَدُلُّنِي عَلى غَيرِهِ؟

قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إلا أَنْ يَكونَ حَنِيفًا.

قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟

قَالَ: دِينُ إبْراهِيمَ؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلا نَصْرَانِيًّا، وَلا يَعْبُدُ إلا اللهَ.

فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلى دِينِنا حَتَّى تَأْخُذَ بنَصِيبِكَ مِن لَعْنَةِ اللهِ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إلا مِن لَعْنَةِ اللهِ! وَلا أحْمِلُ مِن لَعْنَةِ اللهِ وَلا مِن غَضَبِهِ شَيْئًا أبَدًا، وَأَنَّى أسْتَطِيعُ! فَهلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيرِهِ؟

قَالَ: مَا أعْلَمُهُ إلا أنْ يَكونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟

قَالَ: دِينُ إبْراهِيمَ؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلا نَصْرَانِيًّا، وَلا يَعْبُدُ إلا اللهَ.

فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ في إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أشْهَدُ أنِّي عَلَى دِينِ إبْراهِيمَ» [البخاري (٣٨٢٧)].

فَاسْتَمَرَّ عَلَى فِطْرَتِهِ، وَجَانَبَ عِبَادَةَ الأَوْثَانِ وَدِينَ المُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَدْخُلْ مَعَ أَحَدٍ مِن اليَهُودِ وَلا النَّصَارَى.

وَأَمَّا أَصْحَابُهُ فَتَنَصَّرُوا وَدَخَلُوا في دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ لأَنَّهُم وَجَدُوهُ أَقْرَبَ مِن دِينِ اليَهُودِ إِذْ ذَاكَ، وَكَانَ مِنْهُم وَرَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ حَتَّى هَدَاهُ اللهُ بِنَبِيِّهِ؛ لَمَّا بَعَثَهُ آمَنَ بِمَا وَجَدَ مِنَ الوَحْيِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَسْأَلَة

وَالصَّحِيحُ مِنْ مَذَاهِبِ العُلَمَاءِ أَنَّهُ يُغْتَفَرُ الْإِخْلَالُ بِتَحْرِيرِ مَا بَيْنَ الضَّادِ وَالظَّاءِ لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّ الضَّادَ مَخْرَجُهَا مَنْ أَوَّلِ حَافَّةِ اللِّسَانِ وَمَا يَلِيهَا مِنَ الْأَضْرَاسِ، وَمَخْرَجُ الظَّاءِ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ وَأَطْرَافِ الثَّنَايَا العُلْيَا، وَلِأَنَّ كُلًّا مِنَ الحَرْفَيْنِ مِنَ الحُرُوفِ المَجْهُورَةِ وَمِنَ الحُرُوفِ الرِّخْوَةِ وَمِنَ الحُرُوفِ المُطْبَقَةِ، فَلِهَذَا كُلِّهِ اغْتُفِرَ اسْتِعْمَالُ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ لِمَنْ لَا يُمَيِّزُ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَأَمَّا حَدِيث: «أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ» فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَصْلٌ

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الكَرِيمَةُ -وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ-:

عَلَى حَمْدِ اللهِ وَتَمْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الحُسْنَى المُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ العُلْيَا.

وَعَلَى ذِكْرِ المَعَادِ -وَهُوَ: يَوْمُ الدِّينِ-.

وَعَلَى إِرْشَادِهِ عَبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ.

وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِم وَقُوَّتِهِم.

وَإِلَى إِخْلَاصِ العِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَاثِلٌ.

وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ -وَهُوَ: الدِّينُ القَوِيمُ-.

وَتَثْبِيتِهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفْضِي بِهِم ذَلِكَ إِلَى جَوَازِ الصِّرَاطِ الحِسِّيِّ يَوْمَ القِيَامَةِ المُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جِوَارِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ.

وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ البَاطِلِ لِئَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ القِيَامَةِ -وَهُمُ المَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ-.

وَمَا أَحْسَنَ إِسْنَادَ الإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وَحَذْفَ الفَاعِلِ فِي الغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ -وَإِنْ كَانَ هُوَ الفَاعِلَ لِذَلِكَ فِي الحَقِيقَةِ-، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ الآيَة [المجادلة: ١٤].

وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ -وَإِنْ كَانَ هُوَ الذي أَضَلَّهُم بِقَدَرِهِ- كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، لا كَمَا تَقُولُ الفِرْقَةُ القَدَرِيَّةُ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُم مِن أَنَّ العِبَادَ هُمُ الذينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَهُ؛ وَيَحْتَجُّونَ عَلَى بِدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهٍ مِن القُرآنِ، وَيَتْرُكُونَ مَا يَكُونُ فِيهِ صَرِيحًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِم؛ وَهَذا حَالُ أَهْلِ الضَّلالِ وَالغَيِّ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ هذه الآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِذا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ» [البخاري (٤٥٤٧)].

فَلَيْسَ بِحَمْدِ اللهِ لِمُبْتَدِعٍ فِي الْقُرْآنِ حجةٌ صَحِيحَةٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيَفْصِلَ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الهُدَى وَالضَّلَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ تناقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

فَصْلٌ

يُسْتَحَبُّ لِمَن قَرَأَ الفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا: (آمِين) مِثْل: ﴿يٰسٓ﴾.

وَيُقَالُ: (أَمِين) بِالقَصْرِ أَيْضًا مِثْل: (يَمِين)؛ وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّأْمِينِ مَا جَاءَ عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: آمين، وَرَفعَ بِهَا صَوْتَهُ» [صحيح سنن أبي داود (٨٦٣)][1].

---

(١) لا يَنْبَغِي «تَرْكُ السُّنَّةِ المُحْكَمَةِ الصَّحِيحَةِ فِي الجَهْرِ بِـ (آمِينَ) فِي الصَّلَاةِ؛ كَقَوْلِهِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: (إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)، وَلَوْلَا جَهْرُهُ بِالتَّأْمِينِ لَمَا أَمْكَنَ المَأْمُومُ أَنْ يُؤَمِّنَ مَعَهُ وَيُوَافِقَهُ فِي التَّأْمِينِ! وَأَصْرَحُ مِنْ هَذَا حَدِيثُ...وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ...وسُئِلَ الشَّافِعِيُّ عَنْ الْإِمَامِ: هَلْ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِآمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَيَرْفَعُ بِهَا

وَفِي رِوَايَة: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وَقَالَ: آمين، وَمَدَّ بِهَا صَوْتَهُ» [صحيح سنن الترمذي (٢٤٨)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ المَلائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**» [البخاري (٧٨١)، مسلم (٤١٠)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذا أَمَّنَ الإِمَامُ، فَأَمِّنُوا، فَإِنَّه مَن وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلائِكَةِ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**» [البخاري (٧٨٠)، مسلم (٤١٠)][1].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ خَطَبَنا فَبَيَّنَ لَنا سُنَّتَنا وَعَلَّمَنا صَلاتَنا. فَقَالَ: **إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذْا قَالَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقُولوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ**» [مسلم (٤٠٤)][2].

مَنْ خَلْفَهُ أَصْوَاتَهُمْ، فَقُلْت: وَمَا الحُجَّةُ؟ فَقَالَ: أَنْبَأَنَا مَالِكٌ، وَذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ...قَالَ: فَفِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا**» دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ أَمَرَ الإِمَامَ أَنْ يَجْهَرَ بِـ (آمين) لِأَنَّ مَنْ خَلْفَهُ لَا يَعْرِفُ وَقْتَ تَأْمِينِهِ إِلَّا بِأَنْ يَسْمَعَ تَأْمِينَهُ!» [ابن قيّم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين].

(١) مَعْنى: «**فَإِنَّه مَن وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلائِكَةِ**»؛ «قَالَ الحَافِظُ العِرَاقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الصَّحِيحُ أَنَّ المُرَادَ: المُوَافَقَةُ فِي الزَّمَنِ، بِحَيْثُ يَقَعُ تَأْمِين ابْن آدَم وَتَأْمِين المَلائِكَة مَعًا، وَهو ظَاهِرُ الحَدِيثِ، وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ: المُوَافَقَةُ فِي صِفَةِ التَّأْمِين، مِنْ كَوْنِهِ بِإِخْلاصٍ وَخُشُوعٍ، قَالَ القُرْطُبِيُّ: وَهَذا بَعِيد، وَقِيلَ: مَنْ وَافَقَ المَلائِكَةَ فِي اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ غُفِرَ لَهُ، وَقِيلَ: مَنْ وَافَقَهُم فِي لَفْظِ الدُّعَاءِ، قَالَ القُرْطُبِيُّ وَابْنُ دَقِيق العِيد: وَالأَوَّلُ أَظْهَرُ) انْتَهى. وَقَالَ الحَافِظُ فِي "الفَتْح" مَا حَاصِلُهُ: (المُرَادُ: المُوَافَقَةُ فِي القَوْلِ وَالزَّمَانِ، خِلافًا لِمَنْ قَالَ: المُرَادُ: المُوَافَقَةُ فِي الإِخْلاصِ وَالخُشُوعِ، كَابنِ حِبَّان، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الحَدِيثَ قَالَ: يُرِيدُ مُوافَقَةَ المَلائِكَةَ فِي الإِخْلاصِ بِغَيْرِ إِعْجَاب، وَكَذا جَنَحَ إِلَيهِ غَيْرِه فَقَالَ نَحْو ذَلِكَ مِن الصِّفَاتِ المَحْمُودَةِ، أَوْ فِي إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، أَوْ فِي الدُّعَاءِ بِالطَّاعَةِ خَاصَّة، أَوْ المُرَادُ بِتَأْمِينِ المَلائِكَة: اسْتِغْفَارهُم لِلمُؤْمِنِين. وَقَالَ ابنُ المُنَيِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحِكْمَةُ فِي إِيثَارِ المُوَافَقَةِ فِي القَوْلِ وَالزَّمَانِ أَنْ يَكُونَ المَأْمُوم عَلَى يَقَظَةٍ لِلإِتْيَانِ بِالوَظِيفَةِ فِي مَحَلِّهَا؛ لِأَنَّ المَلائِكَةَ لا غَفْلَةَ عِنْدَهُم، فَمَنْ وَافَقَهُم كَانَ مُتَيَقِّظًا")...انْتَهى مَا فِي "الفَتْح" بِتَصَرُّف، وَهو تَحْقِيقٌ حَسَنٌ جِدًّا، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَم» [الإتيوبي، البحر المحيط الثجاج].

(٢) جَاءَ فِي رِوَايَة: «**فَأَمِّنُوا**»؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ الإِمَامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَأَمِّنُوا: فَأَمِّنُوا، فَإِنَّ المَلائِكَةَ تُؤَمِّنُ عَلَى دُعَائِهِ، فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلائِكَةِ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنبِهِ**» [السلسلة الصحيحة (٢٥٣٤)]؛ «فَإِنِّي أُكَرِّرُ تَنْبِيهَ جَمَاهِيرِ المُصَلِّين؛ بِأَنْ يَنْتَبِهُوا لِهَذِهِ السُّنَّة، وَلا يَقَعُوا مِن أَجْلِهَا فِي مُسَابَقَةِ الإِمَامِ بِالتَّأْمِينِ، بَلْ عَلَيْهِم أَنْ يَتَرَيَّثُوا حَتَّى إِذَا سَمِعُوا نُطْقَهُ بِأَلِفِ (آمين) قَالوهَا مَعَهُ. وَاللهِ تَعَالَى نَسْأَل أَنْ يُوَفِّقَنَا لاتِّبَاعِ الحَقِّ حَيْثُمَا كَانَ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ. وَفِي هَذا الأَثَرِ فَائِدَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: جَهْرُ المُؤْتَمِّينَ بِـ (آمين)» [الألباني، السلسلة الصحيحة (٢٥٣٥)].

قَالَ الجَوْهَرِيُّ: مَعْنَى: آمين؛ كَذَلِكَ فَلْيَكُنْ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: مَعْنَاهُ؛ لا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا. وَقَالَ الأَكْثَرُون: مَعْنَاهُ؛ اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لَنَا.

وَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: «دَخَلَ يَهُودِيٌّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: **وَعَلَيْكَ**. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَعَلِمْتُ كَرَاهِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِذَلِكَ فَسَكَتُّ. ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ. فَقَالَ: **عَلَيْكَ**. فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَعَلِمْتُ كَرَاهِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِذَلِكَ. ثُمَّ دَخَلَ الثَّالِثُ فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ. فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قُلْتُ: وَعَلَيْكَ السَّامُ وَغَضَبُ اللهِ وَلَعْنَتُهُ، إِخْوَانَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، أَتُحَيُّونَ رَسُولَ اللهِ بِمَا لَمْ يُحَيِّهِ اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ، قَالوا قَوْلًا فَرَدَدْنَا عَلَيْهِم، إِنَّ اليَهودَ قَوْمٌ حُسَّدٌ، وَإِنَّهُم لا يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَى السَّلامِ وَعَلَى (آمِين)**» [السلسلة الصحيحة (٦٩١)].

وَفِي لَفْظٍ: «**لا يَحْسُدونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدونَنَا عَلَى يَوْمِ الجُمُعَةِ التي هَدَانَا اللهُ وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى القِبْلَةِ التي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الإِمَامِ آمينَ**» [السلسلة الصحيحة، تحت (٦٩١)].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

فَذَكَرَ الدُّعَاءَ عَن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَحْدَهُ، وَمِنْ سِيَاقِ الكَلامِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَمَّنَ؛ فَنَزَلَ مَنْزِلَةَ مَن دَعَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَمَّنَ عَلَى دُعَاءٍ فَكَأَنَّمَا قَالَهُ.

تفسير آية الكرسي

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

هَذِهِ آيَةُ الكُرْسِيِّ، وَلَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ صَحَّ الحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ.

فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِن كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟** قَالَ: قُلتُ: اللهُ ورَسولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **يَا أَبَا المُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِن كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟** قُلْتُ: ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ**﴾. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي؛ وَقَالَ: **وَاللهِ! لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ لِهَذِهِ الآيَةِ لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ المَلِكَ عِندَ سَاقِ العَرْشِ**» [صحيح الترغيب (١٤٧١)][1].

---

(١) لا يَصِحُّ الاحتِجَاجُ بِهَذا الحَدِيثِ وَمَا شَابَهَهُ عَلَى أَنَّ القُرآنَ مَخْلُوقٌ، فَالقُرآنُ كَلامُ اللهِ، وَمَعْنَاهُ الصَّحِيحُ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ العِلْمِ فِي أَحَادِيثِ مُشَابِهَةٍ كَمَا يَلِي: قَالَ الإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ: أَنَّهُ يَجِيءُ ثَوَابُ قِرَاءَتِهِ، كَذَا فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذَا الحَدِيثَ وَمَا يُشْبِهُ هَذَا مِنَ الأَحَادِيثِ، أَنَّهُ يَجِيءُ ثَوَابُ قِرَاءَةِ القُرْآنِ. وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا فَسَّرُوا إِذْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**وَأَهْلُهُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا**) فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ أَنَّهُ يَجِيءُ ثَوَابُ العَمَلِ» [سنن الترمذي]، **وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ بَطَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «مِثْلُ الْحَدِيثِ الَّذِي رُوِيَ: (**يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ الْقُرْآنُ: أَنَا الَّذِي أَظْمَأْتُ نَهَارَكَ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، فَيَأْتِي اللهَ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ تَلانِي وَوَعَانِي وَعَمِلَ بِي**) وَالحَدِيثُ الْآخَرُ: (**تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ**)...وَإِنَّمَا عَنَى فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي قَوْلِهِ: يَجِيءُ الْقُرْآنُ، وَتَجِيءُ الْبَقَرَةُ، وَتَجِيءُ الصَّلَاةُ، وَيَجِيءُ الصِّيَامُ؛ يَجِيءُ ثَوَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَكُلُّ هَذَا مُبَيَّنٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فَظَاهِرُ اللَّفْظِ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَرَى الْخَيْرَ وَالشَّرَّ! لَيْسَ يَرَى الخَيْرَ وَالشَّرَّ وَإِنَّمَا ثَوَابُهُمَا وَالجَزَاءَ عَلَيْهِمَا مِنَ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ. كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٣٠]، وَلَيْسَ يَعْنِي أَنَّهَا تِلْكَ الْأَعْمَالُ الَّتِي عَمِلَتْهَا بِهَيْئَتِهَا وَكَمَا عَمِلَتْهَا مِنَ الشَّرِّ، وَإِنَّمَا تَجِدُ الجَزَاءَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**مَن**

وَمِمَّا وَرَدَ -أَيْضًا- فِي فَضْلِهَا:

عَنْ عَبْدِ اللهِ -بنِ أُبَيٍّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ، قَالَ: «أَنَّهُ كَانَ لَهُم جُرنٌ فِيهِ تَمْرٌ، وَكَانَ أَبِي يَتَعَاهَدُهُ، فَوَجَدَهُ يَنْقصُ، فَحَرَسَهُ، فَإِذا هُوَ بِدَابَّةٍ تُشْبِهُ الغُلامَ المُحْتَلِمَ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّ السَّلامَ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ أَجِنٌّ أَمْ إِنْسٌ؟ قَالَ: جِنٌّ، قَالَ: فَنَاوِلْنِي يَدَكَ، فَنَاوَلَنِي يَدَهُ فَإِذَا هِيَ يَدُ كَلْبٍ، وَشَعْرُ كَلْبٍ، قَالَ: هَكَذَا خَلْقُ الجِنِّ؟ قَالَ: لَقَدْ عَلِمَتِ الجِنُّ مَا فِيهِمْ أَشَدُّ مِنِّي، قَالَ لَهُ أبي: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّكَ رَجُلٌ تُحِبُّ الصَّدَقَةَ، فَأَحْبَبْنَا أَنْ نُصِيبَ مِن طَعَامِكَ، قَالَ أبي: فَمَا الذي يُجِيرُنَا مِنْكُم؟ قَالَ: هَذِهِ الآيَةُ: آيَةُ الكُرْسِيِّ، ثُمَّ غَدَا إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ ﷺ: **صَدَقَ الخَبِيثُ**» [السلسلة الصحيحة (٣٢٤٥)].

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ سَهْوَةٌ فيها تَمرٌ، فَكَانَت تَجِيءُ الغُولُ فَتَأْخُذُ مِنهُ، قَالَ: فَشَكَا ذَلِكَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **فَاذْهَبْ فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ، أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ** ﷺ. قَالَ: فَأَخَذَهَا، فَحَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ، فَأَرْسَلَهَا، فَجَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ**؟ قَالَ: حَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ، قَالَ: **كَذَبَتْ وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ**، قَالَ: فَأَخَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى، فَحَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ، فَأَرْسَلَهَا، فَجَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ**؟ قَالَ: حَلَفَتْ أَنْ لا تَعُودَ، فَقَالَ: **كَذَبَتْ وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ**، فَأَخَذَهَا فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِكِ حَتَّى أَذْهَبَ بِكِ إِلى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنِّي ذَاكِرَةٌ لَكَ شَيْئًا؛ آيَةَ الكُرْسِيِّ، اقْرَأْهَا فِي بَيْتِكَ، فَلا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ وَلا غَيْرُهُ. فَجَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ**؟ قَالَ: فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَتْ، قَالَ: **صَدَقَتْ وَهِيَ كَذُوبٌ**» [صحيح سنن الترمذي (٢٨٨٠)].

يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فَيَجُوزُ فِي الكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: يَجِيءُ الْقُرْآنُ، تَجِيءُ الصَّلَاةُ، وَتَجِيءُ الزَّكَاةُ، يَجِيءُ الصَّبْرُ، يَجِيءُ الشُّكْرُ، وَإِنَّمَا يَجِيءُ ثَوَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيُجْزَى مَنْ عَمِلَ السَّيِّءَ بِالسُّوءِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**﴾ [الزلزلة: ٨]، أَفَتَرَى يَرَى السَّرِقَةَ وَالزِّنَا وَشُرْبَ الخَمْرِ وَسَائِرَ أَعْمَالِ المَعَاصِي؟! إِنَّمَا يَرَى العِقَابَ وَالعَذَابَ عَلَيْهِمَا، وَبَيَانُ هَذَا وَأَمْثَالُهُ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ، وَأَمَّا مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ فَقَولُ النَّبِيِّ ﷺ: (**ظِلُّ الْمُؤْمِنُ صَدَقَتُهُ**)، فَلَا شَيْءَ أَبْيَنُ مِنْ هَذَا، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ**)، فَإِرْشَادُكَ الضَّالَّةَ صَدَقَةٌ، وَتَحِيَّتُكَ لِأَخِيكَ بِالسَّلَامِ صَدَقَةٌ، وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ مُنْبَسِطٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَمُبَاضَعَتُكَ لِأَهْلِكَ صَدَقَةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّ مُبَاضَعَتِهِ لِأَهْلِهِ؟! إِنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ كُلِّهِ ثَوَابَ صَدَقَتِهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُظِلَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، فَلْيُنْظِرْ مُعْسِرًا أَوْ لِيَدَعْ لَهُ**)، فَأَعْلَمَكَ أَنَّ الظِّلَّ مِنْ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ» [الإبانة الكبرى].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: **أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **إِنَّهُ سَيَعُودُ**، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي؛ فَأنا مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: **أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ.

فَقَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿**اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ**﴾، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: **مَا هِيَ؟**

قَالَ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿**اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ**﴾.

وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ-، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**، قلتُ: لَا، قَالَ: **ذَاكَ شَيْطَانٌ**» [البخاري معلقا (٢٣١١)، صحيح الترغيب (٦١٠)].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرفُوعًا: «**اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي سُوَرٍ مِن القُرآنِ ثَلاثٍ، فِي (البَقَرَةِ)، وَ(آلِ عِمْرَانَ)، وَ(طَه)**» [السلسلة الصحيحة (٧٤٦)].

قَالَ هِشَامٌ -وَهُوَ ابْنُ عَمَّارٍ خَطِيبُ دِمَشْقَ-: أَمَّا (البَقَرَةُ) فَـ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَفِي (آلِ عِمْرَان)؛ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَفِي (طه)؛ ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾.

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِن دُخُولِ الجَنَّةِ إلا أَنْ يَمُوتَ» [صحيح الجامع (٦٤٦٤)].

وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضِيلَتِهَا أَحَادِيث أُخَرُ، تَرَكْنَاهَا -اخْتِصَارًا- لِعَدَمِ صِحَّتِهَا وَضَعْفِ أَسَانِيدِهَا.

وهذه الآيةُ مُشتملةٌ على عَشْرِ جُمَلٍ مُستقلَّة

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ المُتَفَرِّدُ بِالإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الخَلَائِقِ.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾؛ أَيْ: الحَيُّ فِي نَفْسِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، المُقِيمُ لِغَيْرِهِ، وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ: «القَيَّام»، فَجَمِيعُ المَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَلَا قَوَامَ لَهَا بِدُونِ أَمْرِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؛ أَيْ: لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خَلْقِهِ؛ بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَمِنْ تَمَامِ القَيُّومِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

فَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾؛ أَيْ: لَا تَغْلِبُهُ سِنَةٌ، وَهِيَ: الوَسَنُ وَالنُّعَاسُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السِّنَةِ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قامَ فِينا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِماتٍ، فَقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَنامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجابُهُ النُّورُ، -وفي رِوايَة: النَّارُ-، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ» [مسلم (١٧٩)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِخْبَارٌ بِأَنَّ الجَمِيعَ عَبِيدُهُ وَفِي مُلْكِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ عَزَّوَجَلَّ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، قَالَ ﷺ: «فأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فيُؤْذَنُ لي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقالُ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بمَحامِدَ عَلَّمَنِيها، ثُمَّ أشْفَعُ فَيَحُدُّ لي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أرْجِعُ، فَإِذا رَأَيْتُ رَبِّي وقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بمَحامِدَ عَلَّمَنِيها رَبِّي، ثُمَّ أشْفَعُ فَيَحُدُّ لي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أرْجِعُ، فإذا رَأَيْتُ رَبِّي وقَعْتُ ساجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، قُلْ يُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأحْمَدُ رَبِّي بمَحامِدَ عَلَّمَنِيها، ثُمَّ أشْفَعْ، فَيَحُدُّ لي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أرْجِعُ فأقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إلا مَن حَبَسَهُ القُرْآنُ، ووَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ، قَالَ النبيُّ ﷺ: يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَن قَالَ: لا إلَهَ إلا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ ما يَزِنُ مِنَ الخَيْرِ ذَرَّةً» [البخاري (٧٤١٠)، مسلم (١٩٣) نحوه].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الكَائِنَاتِ؛ مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ المَلَائِكَةِ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾؛ أَيْ: لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَى شَيْءٍ إلا بِمَا أَعْلَمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ: لَا يَطَّلِعُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُمُ اللهُ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الكُرْسِي: مَوْضِعُ القَدَمَين. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى، وَالسُّدِّيِّ، وَالضَّحَّاكِ، وَمُسْلِمٍ البَطِينِ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا: «الكُرْسِيُّ مَوْضِعُ القَدَمَيْنِ، وَالعَرْشُ لا يُقَدِّرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ» [الألباني، مختصر العلو (٤٥)].

وَعَنْ أَبِي ذَر الغِفَارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الكُرْسِي، فَقَالَ: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْض فَلاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَةِ**» [السلسلة الصحيحة (١٠٩)][1]. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الكُرْسِيَّ غَيْرُ العَرْشِ، وَالعَرْشَ أَكْبَرُ مِنْهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْآثَارُ وَالْأَخْبَارُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾؛ **أَيْ**: لا يُثْقِلُهُ وَلا يُكْرِثُهُ حِفْظُ السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَنْ فِيهِمَا وَمَن بَيْنَهُمَا؛ بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، وَهُوَ القَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا حَقِيرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، مُتَوَاضِعَةٌ ذَلِيلَةٌ صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، مُحْتَاجَةٌ فَقِيرَةٌ، وَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ، الفَعَّالُ لَمَّا يُرِيدُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. وَهُوَ القَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الحَسِيبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الرَّقِيبُ العَلِيُّ العَظِيمُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

فقوله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ**﴾ [سبأ: ٢٣]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿**ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد: ٩]. وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ؛ الْأَجْوَدُ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَالِحِ: إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ؛ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَشْبِيه.

❁ ❁ ❁

(١) «وَالحَدِيثُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّفْسِيرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ**﴾، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي كَوْنِ الكُرْسِيِّ أَعْظَمُ المَخْلُوقَاتِ بَعْدَ العَرْشِ، وَأَنَّهُ جُرْمٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَيْسَ شَيْئًا مَعْنَوِيًا؛ فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَتَأَوَّلُهُ بِمَعْنَى المُلْك وَسعَة السُّلْطَان، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِير، وَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس أَنَّهُ: العِلْم، فَلا يَصِحُّ إِسْنَادُهُ إِلَيهِ» [الألباني، السلسلة الصحيحة، تحت (١٠٩)].

تفسير سورة النبأ

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسَاؤُلِهِمْ عَنْ يَوْمِ القِيَامَةِ إِنْكَارًا لِوُقُوعِهَا: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أَيْ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ؟ عَنْ أَمْرِ القِيَامَةِ؟ وَهُوَ: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يَعْنِي: الخَبَرَ الهَائِلَ المُفْظِعَ البَاهِرَ. قَالَ قَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ البَعْثُ بَعْدَ المَوْتِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ القُرْآنُ. وَالْأَظْهَرُ الْأَوَّلُ، لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾؛ يَعْنِي: النَّاسُ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ: مُؤْمِنٌ بِهِ وَكَافِرٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمُنْكِرِي القِيَامَةِ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ. ثُمَّ شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَيِّن قُدْرَتَهُ العَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الغَرِيبَةِ وَالْأُمُورِ العَجِيبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ أَمْرِ المَعَادِ وَغَيْرِهِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾؟؛ أَيْ: مُمَهَّدَةٌ لِلْخَلَائِقِ ذَلُولا لَهُمْ، قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾؛ أَيْ: جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا حَتَّى سَكَنَتْ وَلَمْ تَضْطَرِبْ بِمَنْ عَلَيْهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ يَعْنِي: ذَكَرًا وَأُنْثَى، يَسْتَمْتِعُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ، وَيَحْصُلُ التَّنَاسُلُ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾؛ أَيْ: قَطْعًا لِلْحَرَكَةِ؛ لِتَحْصُلَ الرَّاحَةُ مِن كَثْرَةِ التَّرْدَادِ وَالسَّعْيِ فِي المَعَايِشِ فِي عَرْضِ النَّهَارِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْل هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أَيْ: يَغْشَى النَّاسَ ظَلَامُهُ وَسَوَادُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أَيْ: سَكَنًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾؛ أَيْ: جَعَلْنَاهُ مُشْرِقًا مُنِيرًا مُضِيئًا، لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ وَالذِّهَابِ وَالمَجِيءِ لِلْمَعَاشِ وَالتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾؛ يَعْنِي: السَّمَوات السَّبْع، فِي اتِّسَاعِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا، وَتَزْيِينِهَا بِالكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ يَعْنِي: الشَّمْس المُنِيرَة عَلَى جَمِيعِ العَالَمِ، الَّتِي يَتَوَهَّجُ ضَوْؤُهَا لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قَالَ: الرِّيَاحُ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَمُقَاتِلٌ، وَالكَلْبِيُّ، وَغَيْرُهُم. وَمَعْنَى هَذَا القَوْلِ: أَنَّهَا تَسْتَدِرُّ المَطَرَ مِنَ السَّحَابِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾؛ أَيْ: مِنَ السَّحَابِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ أَيْضًا، وَأَبُو العَالِيَةِ، وَالضَّحَّاكُ، وَالحَسَنُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالثَّوْرِيُّ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ الفَرَّاءُ: هِيَ السَّحَابُ الَّتِي تَتَحَلَّبُ بِالمَطَرِ وَلَمْ تُمطر بعدُ، كَمَا يُقَالُ: امْرَأَةٌ مُعْصِرٌ؛ إِذَا دَنَا حَيْضُهَا وَلَمْ تَحِضْ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّ المُرَادَ بِـ ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: السَّحَابُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]؛ أَيْ: مِن بَيْنِه. وَقَوْلُهُ: ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: مُنْصَبًّا. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: مُتَتَابِعًا. وَقَالَ ابنُ زَيْد: كَثِيرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾؛ أَيْ: لِنُخْرِجَ بِهَذَا المَاءِ الكَثِيرِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ المُبَارَك ﴿حَبًّا﴾ يُدَّخَرُ لِلْأَنَاسِيِّ وَالْأَنْعَام، ﴿وَنَبَاتًا﴾؛ أَيْ: خَضِرًا يُؤكَلُ رَطْبًا. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾؛ أَيْ: بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَطُعُومٍ وَرَوَائِحَ مُتَفَاوِتَةٍ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُجْتَمِعًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُ: مُجْتَمِعَةً. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الفَصْلِ -وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ-: أَنَّهُ مُؤَقَّتٌ بِأَجَلٍ مَعْدُودٍ، لَا يُزَادُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ، وَلَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: زُمَرًا. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي: تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ رَسُولِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١][1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ. قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلا يَبْلَى، إِلا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهو عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القِيامَةِ» [البخاري (٤٩٣٥)، مسلم (٢٩٥٥)].

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾؛ أَيْ: طُرُقًا وَمَسَالِكَ لِنُزُولِ المَلَائِكَةِ. ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أَيْ: يُخَيَّلُ إِلَى النَّاظِرِ أَنَّهَا شَيْءٌ وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَبَعْدَ هَذَا تَذْهَبُ بِالكُلِّيَّةِ، فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾؛ أَيْ: مُرْصَدَةً مُعَدَّةً. ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ وَهُم: المَرَدَةُ العُصَاةُ

(١) «قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هَذَا أَكْبَرُ شَرَفٍ لِأَصْحَابِ الحَدِيثِ؛ لِأَنَّ إِمَامَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ» [ابن كثير].

المُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ. ﴿مَـَٔابًا﴾؛ أَيْ: مَرْجِعًا وَمُنْقَلَبًا وَمَصِيرًا وَنُزُلًا.

وَقَالَ الحَسَنُ، وَقَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾؛ يَعْنِي: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الجَنَّةَ حَتَّى يَجْتَازَ بِالنَّارِ، فَإِنْ كَانَ مَعَهُ جَوَازٌ نَجَا، وَإِلَّا احْتُبِسَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾؛ أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا، وَهِيَ جَمْعُ (حُقْب)، وَهُوَ: المُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ. وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهِ؛ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِهِلَالٍ الهَجَرِي: مَا تَجِدُونَ الحُقْبَ فِي كِتَابِ اللهِ المُنَزَّلِ؟ قَالَ: نَجِدُهُ ثَمَانِينَ سَنَةً، كُلُّ سَنَةٍ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، كُلُّ شَهْرٍ ثَلَاثُونَ يَوْمًا، كُلُّ يَوْمٍ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيرة، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمرو، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَير، وعَمرو بْنِ مَيْمُونٍ، وَالحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَالضَّحَّاكِ. وَعَنِ الحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ أَيْضًا: سَبْعُونَ سَنَةً كَذَلِكَ. وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: الحُقْبُ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّان: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. وَقَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدان: هَذِهِ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ. رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ثُمَّ يُحْدِثُ اللهُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَذَابًا مِنْ شَكْلٍ آخَرَ وَنَوْعٍ آخَرَ. ثُمَّ قَالَ: وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا لَا انْقِضَاءَ لَهَا، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾؛ أَيْ: لَا يَجِدُونَ فِي جَهنَّم بَرْدًا لِقُلُوبِهِمْ، وَلَا شَرَابًا طَيِّبًا يَتَغَذَّوْنَ بِهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ قَالَ أَبُو العَالِيَةِ: اسْتَثْنَى مِنَ البَرْدِ الحَمِيم، وَمِنَ الشَّرَابِ الغَسَاق. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ. فَأَمَّا الحَمِيمُ: فَهُوَ الحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ وَحُمُوُّهُ. والغَسَّاق: هُوَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَعَرَقِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ وَجُرُوحِهِمْ، فَهُوَ بَارِدٌ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ بَرْدِهِ، وَلَا يُوَاجَهُ مَنْ نَتَنِهِ. أَجَارَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقِيلَ: المُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾؛ يَعْنِي: النَّوْم. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُرَّةَ الطَّيِّبِ، وَنَقَلَهُ عَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا. وَحَكَاهُ البَغَوِيُّ عَنْ أَبِي عُبَيدة، وَالكِسَائِيُّ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾؛ أَيْ: هَذَا الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ العُقُوبَةِ وَفْقَ أَعْمَالِهِمُ الفَاسِدَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ

حِسَابًا﴾؛ أَيْ: لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ثَمَّ دَارًا يُجَازَوْنَ فِيهَا وَيُحَاسَبُونَ. ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾؛ أَيْ: وَكَانُوا يُكَذِّبُونَ بِحُجَجِ اللهِ وَدَلَائِلِهِ عَلَى خَلْقِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ، فَيُقَابِلُونَهَا بِالتَّكْذِيبِ وَالمُعَانَدَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿كِذَّابًا﴾؛ أَيْ: تَكْذِيبًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾؛ أَيْ: وَقَدْ عَلِمْنَا أَعْمَالَ العِبَادِ كُلِّهِم، وَكَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ، وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾؛ أَيْ: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: ذُوقُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ، فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا مِنْ جِنْسِهِ، ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٨].

ويُرْوَى عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: لَمْ يَنْزِلْ عَلَى أَهْلِ النَّارِ آيَةٌ أَشَدُّ مِنْ هَذِهِ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قَالَ: فَهُمْ فِي مَزِيدٍ مِنَ العَذَابِ أَبَدًا.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السُّعَدَاءِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ تَعَالَى مِنَ الكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: مُتَنَزَّهًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: فَازُوا، فَنَجَوْا مِنَ النَّارِ.

وَالأَظْهَرُ هَاهُنَا قَوْلُ ابن عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿حَدَآئِقَ﴾ وَهِيَ البَسَاتِينُ مِنَ النَّخِيلِ وَغَيْرِهَا ﴿وَأَعْنَـٰبًا﴾. ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾؛ أَيْ: وَحُورًا كَوَاعِبَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾؛ أَيْ: نَوَاهِدَ، يَعْنُونَ: أَنْ ثُدِيَّهُنَّ نَوَاهِدَ لَمْ يَتَدَلَّيْنَ؛ لِأَنَّهُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ؛ أَيْ: فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَمْلُوءَةٌ مُتَتَابِعَةٌ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: صَافِيَةٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿دِهَاقًا﴾ المَلْأَى المُتْرَعَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابنُ جُبَيْرٍ: هِيَ المُتَتَابِعَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]؛ أَيْ: لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ لاغٍ عَارٍ عَنِ الفَائِدَةِ، وَلَا إِثْم كَذِب، بَلْ هِيَ دَارُ السَّلَامِ، وَكُلُّ مَا فِيهَا سَالِمٌ مِن النَّقْصِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾؛ أَيْ: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ جَازَاهُمُ اللهُ بِهِ وَأَعْطَاهُمُوهُ،

بِفَضْلِهِ ومَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ.

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾؛ أَيْ: كَافِيًا وَافِرًا شَامِلًا كَثِيرًا؛ تَقُولُ العَرَبُ: «أَعْطَانِي فَأَحْسَبَنِي»؛ أَيْ: كَفَانِي. وَمِنْهُ: «حَسْبِيَ اللهُ»؛ أَيْ: اللهُ كَافِيَّ.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الَّذِي شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ابْتِدَاءِ مُخَاطَبَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالرُّوحِ هَاهُنَا، مَا هُوَ؟ عَلَى أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُمْ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ.

الثَّانِي: هُمْ بَنُو آدَمَ. قَالَهُ الحَسَنُ، وَقَتَادَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هَذَا مِمَّا كَانَ ابْنُ عَبَّاس يَكْتُمُهُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَلَى صُورِ بَنِي آدَمَ، وَلَيْسُوا بِمَلَائِكَةٍ وَلَا بِبَشَرٍ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالْأَعْمَشُ.

الرَّابِعُ: هُوَ جِبْرِيلُ. قَالَهُ الشَّعْبِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ. وَيُسْتَشْهَدُ لِهَذَا القَوْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: الرُّوحُ: أَشْرَفُ المَلَائِكَةِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وَصَاحِبُ الوَحْيِ.

وَالخَامِسُ: أَنَّهُ الْقُرْآنُ. قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآيَةَ [الشورى: ٥٢].

وَالسَّادِسُ: أَنَّهُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ بِقَدْرِ جَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاس: هُوَ مَلَكٌ عَظِيمٌ مِنْ

أَعْظَمِ المَلَائِكَةِ خَلْقًا.

وتَوَقَّفَ ابنُ جَرِيرٍ فَلَمْ يَقْطَعْ بِوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا، وَالْأَشْبَهُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُمْ بَنُو آدَمَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وَكَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «وَلا يَتَكَلَّمُ يومَئِذٍ أحَدٌ إلّا الرُّسُلُ» [البخاري (٨٠٦)]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؛ أَيْ: حَقًّا، وَمِنَ الحَقِّ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، كَمَا قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ، وَعِكْرِمَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أَيْ: الكَائِنُ لَا مَحَالَةَ. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾؛ أَيْ: مَرْجِعًا وَطَرِيقًا يَهْتَدِي إِلَيْهِ وَمَنْهَجًا يَمُرُّ بِهِ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾؛ يَعْنِي: يَوْمَ القِيَامَةِ لِتَأَكُّدِ وُقُوعِهِ صَارَ قَرِيبًا؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أَيْ: يُعْرَضُ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، قَدِيمُهَا وَحَدِيثُهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾؛ أَيْ: يَوَدُّ الكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تُرَابًا وَلَمْ يَكُنْ خُلِقَ وَلَا خَرَجَ إِلَى الوُجُودِ. وَذَلِكَ حِينَ عَايَنَ عَذَابَ اللهِ، وَنَظَرَ إِلَى أَعْمَالِهِ الفَاسِدَةِ قَدْ سُطِّرَتْ عَلَيْهِ بِأَيْدِي المَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا يَوَدُّ ذَلِكَ حِينَ يَحْكُمُ اللهُ بَيْنَ الحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، فَيَفْصِلُ بَيْنَهَا بِحُكْمِهِ العَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقْتَصُّ لِلشَّاةِ الجَمَّاءِ مِنَ القَرْنَاءِ. فَإِذَا فَرَغَ مِنَ الحُكْمِ بَيْنَهَا قَالَ لَهَا: كُونِي تُرَابًا، فَتَصِيرُ تُرَابًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الكَافِرُ: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾؛ أَيْ: كُنْتُ حَيَوَانًا فَأَرْجِعُ إِلَى التُّرَابِ. وَقَدْ وَرَدَ مَعْنَى هَذَا فِي آثَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، وَغَيْرِهِمَا؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «يَقْضِي اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيُقِيدُ يَوْمَئِذٍ الجَمَّاءَ مِنَ القَرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ تَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لأُخْرَى، قَالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الكَافِرُ: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾»، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ: مُدَّ الأَدِيمُ، وَحُشِرَ الدَّوَابُّ وَالبَهَائِمُ وَالوَحْشُ، ثُمَّ يَحْصُلُ القِصَاصُ بَيْنَ الدَّوَابِّ؛ يُقْتَصُّ للشَّاةِ الجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ نَطَحَتْهَا، فَإِذا فُرِغَ من القِصَاصِ بَيْنَ الدَّوَابِّ، قَالَ لَهَا: كُونِي تُرابًا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الكَافِرُ: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾» [السلسلة الصحيحة (١٩٦٦)].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة النازعات

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَسْرُوقٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَأَبُو الضُّحَى، وَالسُّدي: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ المَلَائِكَةُ. **يَعْنُونَ**: حِينَ تَنْزِعُ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِعُنْفٍ فَتُغْرِقُ فِي نَزْعِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِسُهُولَةٍ وَكَأَنَّمَا حَلَّتْهُ مِنْ نشَاطٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ هِيَ أَنْفُسُ الكُفَّارِ، تُنْزَعُ ثُمَّ تُنشَط، ثُمَّ تُغْرَقُ فِي النَّارِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾؛ المَوْتُ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ المَلَائِكَةُ. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ، وَمُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيرٍ، وَأَبِي صَالِحٍ، مثلُ ذَلِكَ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾؛ المَوْتُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ النُّجُومُ. وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: هِيَ السُّفُنُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ رُوِي عَنْ عَلِيٍّ، وَمَسْرُوقٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَالحَسَنِ البَصْرِيِّ: **يَعْنِي**: المَلَائِكَةَ؛ قَالَ الحَسَنُ: سَبَقَتْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: المَوْتُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ النُّجُومُ. وَقَالَ عَطَاءٌ: هِيَ الخَيْلُ فِي سَبِيلِ الله. وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ قَالَ عَلِيٌّ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ: هِيَ المَلَائِكَةُ. زَادَ الحَسَنُ: تُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ. **يَعْنِي**: بِأَمْرِ رَبِّهَا عَزَّوَجَلَّ. وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي هَذَا.

وَلَمْ يَقْطَعِ ابْنُ جَرِيرٍ بِالمُرَادِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. إِلَّا أَنَّهُ حَكَى فِي ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أَنَّهَا المَلَائِكَةُ، وَلَا أَثْبَتَ وَلَا نَفَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَمَّا النَّفْخَتَانِ: الْأُولَى، وَالثَّانِيَةُ. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَمَّا الْأُولَى؛ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ فَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، وَالثَّانِيَةُ، وَهِيَ: ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ فَهِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثا اللَّيلِ قَامَ فَقَالَ: يَا أَيُّها النَّاسُ، اذْكُروا اللهَ، اذْكُروا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ، قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاةَ عَلَيْكَ، فَكَم أَجْعَلُ لَكَ مِن صَلاتِي؟ فَقَالَ: مَا شِئْتَ. قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهوَ خَيرٌ لَكَ. قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِن زِدْتَ فَهوَ خَيرٌ لَكَ. قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ، فَإِن زِدْتَ فَهوَ خَيرٌ لَكَ. قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرَ لَكَ ذَنبُكَ» [صحيح سنن الترمذي (٢٤٥٧)].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: خَائِفَةٌ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ.

﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾؛ أَيْ: أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا. وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَيْهَا لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ: ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ؛ مِمَّا عَايَنَتْ مِنَ الْأَهْوَالِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾؛ يَعْنِي: مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ فِي إِنْكَارِ المَعَادِ، يَسْتَبْعِدُونَ وُقوعَ البَعْثِ بَعْدَ المَصِيرِ إِلَى الحَافِرَةِ -وَهِيَ: القُبُورُ-، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَبَعْدَ تَمَزُّقِ أَجْسَادِهِمْ وَتَفَتُّتِ عِظَامِهِمْ وَنُخُورِهَا؛ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ وَقُرِئَ: نَاخِرَةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: أَيْ: بَالِيَةً.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ العَظْمُ إِذَا بَلِيَ ودَخَلَت الرِّيحُ فِيهِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَقَتَادَةَ: ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: الحَيَاةُ بَعْدَ المَوْتِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: النَّارُ. وَمَا أَكْثَرَ أَسْمَائِهَا! هِيَ النَّارُ، وَالجَحِيمُ، وَسَقَرُ، وَجَهَنَّمُ، وَالهَاوِيَةُ، وَالحَافِرَةُ، وَلَظَى، وَالحُطَمَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: قَالَتْ قُرَيْشٌ: لَئِنْ أَحْيَانَا اللهُ بَعْدَ أَنْ نَمُوتَ لَنَخْسَرَنَّ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾؛ أَيْ: فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهِ وَلَا تَأْكِيدَ، فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ؛ وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ البَعْثِ، فَإِذَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ يَنْظُرُونَ، كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: أَشَدُّ مَا يَكُونُ الرَّبُّ غَضَبًا عَلَى خَلْقِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: زَجْرَةٌ مِنَ الغَضَبِ. وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: هِيَ النَّفْخَةُ الْآخِرَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿السَّاهِرَةِ﴾؛ الْأَرْضُ كُلُّهَا. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيرٍ، وَقَتَادَةُ، وَأَبُو صَالِحٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ، وَالْحَسَنُ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ: وَجْهُ الْأَرْضِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا بِأَسْفَلِهَا فَأُخْرِجُوا إِلَى أَعْلَاهَا. قَالَ: وَ﴿السَّاهِرَةِ﴾: المَكَانُ المُسْتَوِي.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا الْأَرْضُ؛ وَجْهُهَا الْأَعْلَى. وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَومَ القِيامَةِ على أَرْضٍ بَيْضاءَ عَفْراءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ» [مسلم (٢٧٩٠)].

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وَيَقُولُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]؛ وَبَرَزَتِ الْأَرْضُ الَّتِي عَلَيْهَا الجِبَالُ، وَهِيَ لَا تُعَدُّ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَهِيَ أَرْضٌ لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ، وَلَمْ يُهْرَقْ عَلَيْهَا دَمٌ.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ ابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَأَيَّدَهُ بِالمُعْجِزَاتِ، وَمَعَ هَذَا اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ، حَتَّى أَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ؛ وَكَذَلِكَ عَاقِبَةُ مَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتَ بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ القِصَّةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾؟ أَيْ: هَلْ سَمِعْتَ بِخَبَرِهِ؟ ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أَيْ: كَلَّمَهُ نِدَاءً، ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾؛ أَيْ: المُطَهَّر، ﴿طُوًى﴾ وَهُوَ اسْمُ الوَادِي عَلَى الصَّحِيحِ. فَقَالَ لَهُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أَيْ: تَجَبَّرَ وَتَمَرَّدَ وَعَتَا. ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟؛ أَيْ: قُلْ لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُجِيبَ إِلَى طَرِيقَةٍ وَمَسْلَكٍ تَتَزَكَّى بِهِ؟ أَيْ: تُسْلِمَ وَتُطِيعَ.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أَيْ: أَدُلُّكَ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ، ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ أَيْ: فَيَصِيرُ قَلْبُكَ خَاضِعًا لَهُ مُطِيعًا خَاشِعًا بَعْدَمَا كَانَ قَاسِيًا خَبِيثًا بَعِيدًا مِنَ الخَيْرِ؟ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ يَعْنِي: فَأَظْهَرَ لَهُ مُوسَى مَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الحَقِّ حُجَّةً قَوِيَّةً، وَدَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾؛ أَيْ: فَكَذَّبَ بِالحَقِّ وَخَالَفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ. وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ كَفَرَ قَلْبُهُ فَلَمْ يَنْفَعِلْ لِمُوسَى بِبَاطِنِهِ وَلَا بِظَاهِرِهِ، وَعِلْمُهُ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ حَقٌّ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ؛ لِأَنَّ المَعْرِفَةَ عِلْمُ القَلْبِ، وَالْإِيمَانُ عَمَلُهُ؛ وَهُوَ الِانْقِيَادُ لِلْحَقِّ وَالخُضُوعُ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾؛ أَيْ: فِي مُقَابَلَةِ الحَقِّ بِالبَاطِلِ، وَهُوَ جَمْعُهُ السَّحَرَةَ لِيُقَابِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ المُعْجِزَةِ البَاهِرَةِ. ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أَيْ: فِي قَوْمِهِ، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: وَهَذِهِ الكَلِمَةُ قَالَهَا فِرْعَوْن بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] بِأَرْبَعِينَ سَنَةً.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾؛ أَيْ: انْتَقَمَ اللهُ مِنْهُ انْتِقَامًا جَعَلَهُ بِهِ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِأَمْثَالِهِ مِنَ المُتَمَرِّدِينَ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾؛ أَيْ: الدُّنْيَا وَالْآخِرَة. وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ: كَلِمَتَاهُ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ. وَقِيلَ: كُفْرُهُ وَعِصْيَانُهُ. وَالصَّحِيحُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ: الْأَوَّلُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾؛ أَيْ: لِمَنْ يَتَّعِظُ وَيَنْزَجِرُ. [وَسَيَأْتِي ذِكْرُ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي نِهَايَةِ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى مُنْكِرِي البَعْثِ -فِي إِعَادَةِ الخَلْقِ بَعْدَ بَدْئِهِ-: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟؛ يَعْنِي: بَلِ السَّمَاءُ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

فَقَوْلُهُ: ﴿بَنَىٰهَا﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أَيْ: جَعَلَهَا عَالِيَةَ البِنَاءِ، بَعِيدَةَ الفِنَاءِ، مُسْتَوِيَةَ الْأَرْجَاءِ، مُكَلَّلَةً بِالكَوَاكِبِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أَيْ: جَعَلَ لَيْلَهَا مُظْلِمًا أَسْوَدَ حَالِكًا، وَنَهَارَهَا مُضِيئًا مُشْرِقًا نَيِّرًا وَاضِحًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أَظْلَمَهُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أَيْ: أَنَارَ نَهَارَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ قَالَ: وَدَحْيُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا المَاءَ وَالمَرْعَى، وَشَقَّقَ فِيهَا الْأَنْهَارَ، وَجَعَلَ فِيهَا الجِبَالَ وَالرِّمَالَ وَالسُّبُلَ وَالْآكَامَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾؛ أَيْ: قَرَّرَهَا وَثَبَّتَهَا وَأَكدهَا فِي أَمَاكِنِهَا، وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ، الرَّؤُوفُ بِخَلْقِهِ الرَّحِيمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾؛ أَيْ: دَحَا الْأَرْضَ فَأَنْبَعَ عُيُونَهَا، وَأَظْهَرَ مَكْنُونَهَا، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا، وَأَنْبَتَ زُرُوعَهَا وَأَشْجَارَهَا وَثِمَارَهَا، وَثَبَّتَ جِبَالَهَا، لِتَسْتَقِرَّ بِأَهْلِهَا وَيَقِرَّ قَرَارُهَا.

كُلُّ ذَلِكَ مَتَاعًا لِخَلْقِهِ وَلِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مُدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمَدُ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطُمُّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْظِعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾؛ أَيْ: حِينَئِذٍ يتذكرُ ابنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾؛ أَيْ: أُظْهِرَتْ لِلنَّاظِرِينَ فَرَآهَا النَّاسُ عِيَانًا.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾؛ أَيْ: تَمَرَّدَ وَعَتَا. ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أَيْ: قَدَّمَهَا عَلَى أَمْرِ دِينِهِ وَأُخْرَاهُ.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أَيْ: فَإِنَّ مصيرَه إِلَى الجَحِيمِ، وَإِنَّ مَطْعَمَهُ مِنَ الزَّقُّومِ، وَمَشْرَبَهُ مِنَ الحَمِيمِ.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أَيْ: خَافَ القِيَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[1]، وَخَافَ حُكْمَ اللهِ فِيهِ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أَيْ: مُنْقَلَبُهُ وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى الجَنَّةِ الفَيْحَاءِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ أَيْ: لَيْسَ عِلْمُهَا إِلَيْكَ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ؛ بَلْ مَرَدُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَقْتَهَا عَلَى التَّعْيِينِ، ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ

---

(١) القِيَامُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَائِنٌ لا مَحَالَةَ؛ فَعَنْ عَدِي بنِ حَاتِمٍ الطَّائِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ إلا وسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يومَ القِيامَةِ، لَيْسَ بيْنَ اللهِ وَبيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُم أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بشِقِّ تَمْرَةٍ» [البخاري (٦٥٣٩)]، وفي رِوَايَة: «مَا مِنكُم أَحَدٌ إلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ من عَمَلِهِ، ويَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ، ويَنْظُرُ بيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إلا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بشِقِّ تَمْرَةٍ، -وَعَنْ خَيْثَمَةَ: مِثْلَهُ. وَزَادَ فِيهِ:- وَلَوْ بكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» [البخاري (٧٥١٢)].

﴿حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ قَالَ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» [البخاري (٤٧٧٧)].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾؛ أَيْ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتُنْذِرَ النَّاسَ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَعَذَابِهِ، فَمَنْ خَشِيَ اللهَ وَخَافَ مَقَامَهُ وَوَعِيدَهُ؛ اتَّبَعَكَ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَالخَيْبَةُ وَالخَسَارُ عَلَى مَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾؛ أَيْ: إِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى المَحْشَرِ يَسْتَقْصِرُونَ مُدَّةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَانَتْ عَشِيَّةً مِنْ يَوْمٍ أَوْ ضُحًى مِنْ يَوْمٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾؛ أَمَّا ﴿عَشِيَّةً﴾: فَمَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾؛ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَقْتُ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِ القَوْمِ حِينَ عَايَنُوا الْآخِرَةَ!

❁ ❁ ❁

قِصَّةُ مُوسَى الكَلِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فِرْعَون

«وَهُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١-٥٣]. وَقَدْ ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ. وَذَكَرَ قِصَّتَهُ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مَبْسُوطَةً مُطَوَّلَةً وَغير مُطَوَّلَةٍ. وَسَنُورِدُ سِيرَتَهُ هَاهُنَا مِنِ ابْتِدَائِهَا إِلَى آخِرِهَا مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا وَرَدَ فِي الْآثَارِ الَّتِي ذَكَرَهَا السَّلَفُ وَغَيْرُهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١-٦]. يَذْكُرُ تَعَالَى مُلَخَّصَ القِصَّةِ، ثُمَّ يَبْسُطُهَا بَعْدَ هَذَا، فَذكر أَنه يَتْلُو عَلَى نَبِيِّهِ خَبَرَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ، أَيْ: بِالصِّدْقِ الَّذِي كَأَنَّ سَامِعَهُ مُشَاهِدٌ لِلْأَمْرِ مُعَايِنٌ لَهُ.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أَيْ: تَجَبَّرَ وَعَتَا وَطَغَى وَبَغَى، وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَأَعْرَضَ عَنْ طَاعَةِ الرَّبِّ الْأَعْلَى. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أَيْ: قَسَّمَ رَعِيَّتَهُ إِلَى أَقْسَامٍ وَفِرَقٍ وَأَنْوَاعٍ. ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وَهُمْ شَعْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ سُلالة نَبِي الله يَعْقُوب ابْن إِسْحَق بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ خِيَار أهل الأَرْض.

وَقد سُلِّط عَلَيْهِمْ هَذَا المَلِك الظَّالِم الغَاشِم الكَافِر الفَاجِر، يَسْتَعبدهم ويَسْتَخدمهم فِي أَخسِّ الصَّنَائِع والحِرَف وأَرْدَاها وَأَدْنَاهَا وَمَعَ هَذَا؛ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وَكَانَ الحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ القَبِيحِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَتَدَارَسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا يأثرونه عَن إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ غُلَامٌ يَكُونُ هَلَاكُ مَلِكِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ.

وَذَلِكَ -وَالله أعلم- حِين كَانَ جَرَى عَلَى سَارَةَ امْرَأَةِ الخَلِيلِ مِن مَلِكِ مِصْرَ مِنْ إِرَادَتِهِ إِيَّاهَا عَلَى السُّوءِ وَعِصْمَةِ اللهِ لَهَا. وَكَانَتْ هَذِهِ البِشَارَةُ مَشْهُورَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَحَدَّثَ بِهَا القِبْطُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ووَصَلت إِلَى فِرْعَوْن فَذكرهَا لَهُ بعض أُمَرَائِهِ وَأَسَاوِرَتِهِ وَهُمْ يَسْمُرُونَ عِنْدَهُ، فَأَمَرَ عِنْدَ ذَلِكَ

بِقَتْلِ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَذَرًا مِنْ وُجُودِ هَذَا الغُلَامِ، وَلَنْ يُغْنِيَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ!

وَذُكِرَ أَيْضًا: أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى فِي مَنَامِهِ، كَأَنَّ نَارًا قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ نَحْوِ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَأَحْرَقَتْ دُوْرَ مِصْرَ وَجَمِيعَ القِبْطِ وَلَمْ تَضُرَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ هَالَهُ ذَلِكَ، فَجَمَعَ الكَهَنة والحَذَقَة والسَّحَرَة، وسَأَلَهُم عَن ذَلِك، فَقَالُوا: هَذَا غُلَام يُولد من هَؤُلَاءِ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ، فَلِهَذَا أَمَرَ بِقَتْلِ الْغِلْمَانِ وَتَرْكِ النِّسْوَانِ.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ**﴾ أَيِ: الَّذِينَ يَؤُولُ مُلْكُ مِصْرَ وَبِلَادُهَا إِلَيْهِمْ. ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ**﴾ أَيْ: سَنَجْعَل الضَّعِيفَ قَوِيًّا والمَقْهُور قَاهِرًا وَالذَّلِيل عَزِيزًا.

وَقَدْ جَرَى هَذَا كُلُّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ احْتَرَزَ كُلَّ الِاحْتِرَازِ أَنْ لَا يُوجَدَ مُوسَى، حَتَّى جَعَلَ رِجَالًا وَقَوَابِلَ يَدُورُونَ عَلَى الحَبَالَى، وَيَعْلَمُونَ مِيقَاتَ وَضْعِهِنَّ، فَلَا تَلِدُ امْرَأَةٌ ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحَهُ أُولَئِكَ الذَّبَّاحُونَ من سَاعَته. وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ: أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَأْمُرُ بِقَتل الغِلْمَان، لِتَضْعُفَ شَوْكَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ إِذا غَالبوهُم أَو قَاتلوهُم.

وَهَذَا فِيهِ نَظَر، بل هُوَ بَاطِل. وَإِنَّمَا هَذَا فِي الأمر بِقَتْل الولدَان بَعدَ بعثَة مُوسَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ**﴾ [غافر: ٢٥]. وَلِهَذَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿**أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فَالصَّحِيحُ أَنَّ فِرْعَوْنَ إِنَّمَا أَمَرَ بِقَتْلِ الغِلْمَانِ أولا، حَذَرًا من وُجود مُوسَى.

هَذَا؛ وَالقَدَر يَقُول: يَا أيهذا المَلِكُ الجَبَّارُ، المَغْرُورُ بِكَثْرَةِ جُنُودِهِ وَسُلْطَةِ بَأْسِهِ وَاتِّسَاعِ سُلْطَانِهِ: قَدْ حَكَمَ العَظِيمُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا تُخَالَفُ أَقْدَارُهُ: أَنَّ هَذَا المَوْلُودَ الَّذِي

تَحْتَرِزُ مِنْهُ -وَقَدْ قَتَلْتَ بِسَبَبِهِ مِنَ النُّفُوسِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى- لَا يَكُونُ مَرْبَاهُ إِلَّا فِي دَارِكَ وَعَلَى فِرَاشِكَ، وَلَا يُغَذَّى إِلَّا بِطَعَامِكَ وَشَرَابِكَ فِي مَنْزِلِك، وَأَنت الَّذِي تَتَبَنَّاه وتُربيه وتتفدَّاه، وَلَا تَطَّلِعُ عَلَى سِرِّ مَعْنَاهُ، ثُمَّ يَكُونُ هَلَاكُكَ فِي دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ عَلَى يَدَيْهِ؛ لِمُخَالَفَتِكَ مَا جَاءَكَ بِهِ مِنَ الحَقِّ المُبِينِ، وَتَكْذِيبِكَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، لِتَعْلَمَ أَنْتَ وَسَائِرُ الخَلْقِ، أَن ربَّ السَّمَوَات وَالْأَرْضِ هُوَ الفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ هُوَ القَوِيُّ الشَّدِيدُ، ذُو البَأْسِ العَظِيمِ، وَالحَوَلِ وَالقُوَّةِ، والمَشِيئَةِ الَّتِي لَا مَرَدَّ لَهَا!

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ: أَنَّ القِبْطَ شَكَوْا إِلَى فِرْعَوْنَ قِلَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِسَبَب قَتْل وِلدَانهم الذُّكُور، وخَشَوْا أَنْ تَتَفَانَى الكِبَارُ مَعَ قَتْلِ الصِّغَارِ، فَيَصِيرُونَ هُم الَّذين يَلونَ مَا كَانَ بَنو إِسْرَائِيل يُعَالِجُون، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِ الأَبْنَاءِ عَامًا وَأَنْ يُتْرَكُوا عَامًا، فَذكرُوا أَن هَارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وُلِدَ فِي عَام المُسَامحَة عَن قَتْل الأَبْنَاء، وَأَن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وُلِدَ فِي عَام قَتْلِهِمْ، فَضَاقَتْ أُمُّهُ بِهِ ذَرْعًا واحتَرَزَت مِن أَوَّل مَا حَبلت، وَلم يَكُن يَظْهر عَلَيْهَا مَخَايِلُ الحَبَلِ.

فَلَمَّا وَضَعَتْ أُلْهِمَتْ أَنِ اتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا، فَرَبَطَتْهُ فِي حَبْلٍ، وَكَانَتْ دَارُهَا مُتَاخِمَةً لِلنِّيلِ، فَكَانَتْ تُرْضِعُهُ، فَإِذَا خَشِيَتْ مِنْ أَحَدٍ وَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوت، فَأَرْسَلَتْهُ فِي البَحْر، وَأَمْسَكَتْ طَرَفَ الحَبْلِ عِنْدَهَا، فَإِذَا ذَهَبُوا اسْتَرْجَعَتْهُ إِلَيْهَا بِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ [القصص: ٧-٩]. هَذَا الوَحْيُ وَحْيُ إِلْهَامٍ وَإِرْشَادٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وَلَيْسَ هُوَ بِوَحْيِ نُبُوَّةٍ كَمَا زَعَمَهُ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ، بَلِ الصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، كَمَا حَكَاهُ أَبُو الحَسَنِ الْأَشْعَرِي عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهَا أُرْشِدَتْ إِلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، وَأُلْقِيَ فِي خَلَدِهَا وَروعِهَا أَنْ لَا تَخَافِي وَلَا

تَحْزَنِي، فَإِنَّهُ إِنْ ذَهَبَ فَإِنَّ اللهَ سَيَرُدُّهُ إِلَيْكِ، وَإِنَّ اللهَ سَيَجْعَلُهُ نَبِيًّا مُرْسَلًا، يُعْلِي كَلِمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَكَانَتْ تَصْنَعُ مَا أُمِرَتْ بِهِ فَأَرْسَلَتْهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَذَهَلَتْ أَنْ تَرْبُطَ طَرَفَ الحَبْلِ عِنْدَهَا فَذَهَبَ مَعَ النِّيلِ فَمَرَّ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿(لِـ)ـيَكُونَ﴾ هَذِهِ لَامُ العَاقِبَةِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ إِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾. وَأَمَّا إِنْ جُعِلَ مُتَعَلِّقًا بِمَضْمُونِ الكَلَامِ، وَهُوَ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ قَيَّضُوا لِالْتِقَاطِهِ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا، صَارَت اللَّام مُعَلِّلة كَغَيْرِهَا، وَالله أعلم. ويُقوِّي هَذَا التَّقْدِير الثَّانِي قَوْله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وَهُوَ الوَزِيرُ السُّوء، ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ التَّابعين لَهُمَا، ﴿كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ أَيْ: كَانُوا عَلَى خِلَافِ الصَّوَابِ، فَاسْتَحَقُّوا هَذِهِ العُقُوبَةَ وَالحَسْرَةَ.

وَذَكَرَ المُفَسِّرُونَ: أَنَّ الجَوَارِيَ التَقَطْنَهُ مِنَ البَحْرِ فِي تَابُوتٍ مُغْلَقٍ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَتَجَاسَرْنَ عَلَى فَتْحِهِ، حَتَّى وَضَعْنَهُ بَيْنَ يَدَي امْرَأَةِ فِرْعَوْن؛ «آسِيَةَ» بِنْت مُزَاحِم. فَلَمَّا فَتَحَتِ البَابَ وَكَشَفَتِ الحِجَابَ، رَأَتْ وَجْهَهُ يَتَلَأْلَأُ بِتِلْكَ الأَنْوَار النَّبَوِيَّة وَالجَلَالَةِ المُوسَوِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ وَوَقَعَ نَظَرُهَا عَلَيْهِ أَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا جِدًّا. فَلَمَّا جَاءَ فِرْعَوْنُ، قَالَ: مَا هَذَا؟ وَأَمَرَ بِذَبْحِهِ، فَاسْتَوْهَبَتْهُ مِنْهُ، وَدَفَعَتْ عَنْهُ، وَقَالَتْ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾. فَقَالَ لَهَا فِرْعَوْن: أَمَّا لَكِ؛ فَنَعَم. وأَمَّا لي؛ فَلَا. أَيْ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ. وَالبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ!. وَقَوْلها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾؛ قَدْ أَنَالَهَا اللهُ مَا رَجَتْ مِنَ النَّفْعِ: أَمَّا فِي الدُّنْيَا؛ فَهَدَاهَا اللهُ بِهِ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ: فَأَسْكَنَهَا جَنَّتَهُ بِسَبَبِهِ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمَا تَبَنَّيَاهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُولَدُ لَهُمَا وَلَدٌ. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: لَا يَدْرُونَ مَاذَا يُرِيدُ اللهُ بِهِمْ أَن قَيَّضَهُمْ لِالْتِقَاطِهِ مِنَ النِّقْمَةِ العَظِيمَةِ بِفِرْعَوْنَ وَجُنُوده!. وَعِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ: أَنَّ الَّذِي الْتَقَطَتْ مُوسَى وَرَبَّتْهُ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ، وَلَيْسَ لِامْرَأَتِهِ ذِكْرٌ بِالْكُلِّيَّةِ. وَهَذَا مِنْ غَلَطِهِمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٠-١٣]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَالحَسَنُ وَقَتَادَةُ

وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أَيْ: مَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ أَمْرِ مُوسَى. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أَيْ: لَتُظْهِرُ أَمْرَهُ وَتَسْأَلُ عَنْهُ جَهْرَةً. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أَيْ: صَبَّرْنَاهَا وَثَبَّتْنَاهَا. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ وَهِي ابْنَتُهَا الْكَبِيرَة: ﴿قُصِّيهِ﴾ أَي: اتَّبِعِي أَثَرَهُ وتَقَصَّي عَنهُ، وَاطْلُبِي لِي خَبَرَهُ. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَنْ بُعْدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهَا لَا تُرِيدُهُ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا اسْتَقَرَّ بِدَارِ فِرْعَوْنَ، أَرَادُوا أَنْ يُغَذُّوهُ بِرَضَاعَةٍ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ ثَدْيًا وَلَا أَخَذَ طَعَامًا، فَحَارُوا فِي أَمْرِهِ، واجْتَهَدُوا عَلَى تَغْذِيَتِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ فَلَمْ يَفْعَلْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فَأَرْسَلُوهُ مَعَ القَوَابِلِ وَالنِّسَاءِ إِلَى السُّوقِ، لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ مَنْ يُوَافِقُ رَضَاعَتَهُ. فَبَيْنَمَا هُمْ وُقُوفٌ بِهِ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ عَلَيْهِ إِذْ بَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ، فَلَمْ تُظْهِرْ أَنَّهَا تَعْرِفُهُ بَلْ قَالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؟

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، قَالُوا لَهَا: مَا يُدْرِيكِ بِنُصْحِهِمْ وَشَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ: رَغْبَة فِي سُرورِ المَلِكِ وَرَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ. فَأَطْلَقُوهَا وَذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنْزِلِهِمْ، فَأَخَذَتْهُ أُمُّهُ. فَلَمَّا أَرْضَعَتْهُ؛ التَقَمَ ثَدْيَهَا وَأَخَذَ يَمْتَصُّهُ وَيَرْتَضِعُهُ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ البَشِير إِلَى «آسِيَةَ» يُعْلِمُهَا بِذَلِكَ، فَاسْتَدْعَتْهَا إِلَى مَنْزِلِهَا وَعَرَضَتْ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ عِنْدَهَا، وَأَن تُحْسِنَ إِلَيْهَا، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنَّ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا أَنْ تُرْسِلِيهِ مَعِي. فَأَرْسَلَتْهُ مَعَهَا، وَرَتَّبَتْ لَهَا رَوَاتِبَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النَّفَقَاتِ وَالكُسَاوى وَالهِبَاتِ، فَرَجَعَتْ بِهِ تَحُوزُهُ إِلَى رَحْلِهَا وَقَدْ جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ بِشَمْلِهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أَيْ: كَمَا وَعَدْنَاهَا بِرَدِّهِ وَرِسَالَتِهِ؛ فَهَذَا رَدُّهُ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ البِشَارَةِ بِرِسَالَتِهِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ بِهَذَا عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ كَلَّمَهُ، فَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٧-٣٩]. وَذَلِكَ أنه كَانَ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَيْ: تُطْعَمَ وَتُرَفَّهَ وَتُغَذَّى بِأَطْيَبِ المَآكِلِ، وَتُلْبَسَ أَحْسَنَ المَلَابِسِ بِمَرْأَى مِنِّي، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِحِفْظِي وَكَلَاءَتِي لَكَ فِيمَا صَنَعْتُ بِكَ وَلَكَ، وَقَدَّرْتُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرِي. ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. وَسَنُورِدُ حَدِيثَ الفتُونِ فِي مَوْضِعِهِ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلان.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤-١٧]. لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَى أُمِّهِ بِرَدِّهِ لَهَا وَإِحْسَانِهِ بِذَلِكَ وَامْتِنَانِهِ عَلَيْهَا، شَرَعَ فِي ذِكْرِ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ ﴿أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ -وَهُوَ احْتِكَامُ الخَلْقِ وَالخُلُقِ، وَهُوَ سِنُّ الْأَرْبَعِينَ فِي قَوْلِ الأَكْثَرِين- آتَاهُ اللهُ ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وَهُوَ النُّبُوَّة والرِّسَالَة الَّتِي كَانَ بَشَّرَ بِهَا أُمَّهُ حِينَ قَالَ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثُمَّ شَرَعَ فِي ذِكْرِ سَبَبِ خُرُوجِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ، وَذَهَابِهِ إِلَى أَرْضِ مَدْيَنَ وَإِقَامَتِهِ هُنَالِكَ، حَتَّى كَمُلَ الأَجَلُ وَانْقَضَى الْأَمَدُ، وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ كَلَامِ اللهِ لَهُ وَإِكْرَامِهِ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَة والسُّدي: وَذَلِك نِصْف النَّهَار. وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَ العِشَائَيْنِ. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أَي: يَتَضَارَبان وَيَتَهَاوَشَان. ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أَي: إِسْرائيلي. ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أَيْ: قِبْطِيٌّ. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ لَهُ بِدِيَارِ مِصْرَ صَوْلَةٌ، بِسَبَبِ نِسْبَتِهِ إِلَى تَبَنِّي فِرْعَوْنَ لَهُ وَتَرْبِيَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ عَزُّوا وَصَارَتْ لَهُمْ وَجَاهَةٌ، وَارْتَفَعَتْ رُؤُوسُهم بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أَرْضَعُوهُ، وَهُمْ أَخْوَالُهُ. أَيْ: مِنَ الرَّضَاعَةِ. فَلَمَّا اسْتَغَاثَ ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيُّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى ذَلِكَ القِبْطِيِّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ مُوسَى ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ: طَعَنَهُ

بِجَمعِ كَفِّهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بِعَصًا كَانَتْ مَعَهُ، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: فَمَاتَ مِنْهَا. وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ القِبْطِيُّ كَافِرًا مُشْرِكًا بِاللهِ العَظِيمِ، وَلَمْ يُرِدْ مُوسَى قَتْلَهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ زَجْرَهُ وَرَدْعَهُ. وَمَعَ هَذَا، ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أَيْ: مِنَ الْعِزِّ وَالْجَاهِ. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ١٨-٢١]. يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى أَصْبَحَ بِمَدِينَةِ مِصْرَ خَائِفًا -أَيْ: مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ- أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا القَتِيلَ الَّذِي رُفِعَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، إِنَّمَا قَتَلَهُ مُوسَى فِي نُصْرَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَقْوَى ظُنُونُهُمْ أَنَّ مُوسَى مِنْهُمْ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. فَصَارَ يَسِيرُ فِي الْمَدِينَةِ فِي صَبِيحَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أَيْ: يَتَلَفَّتُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ؛ إِذْ بالرَّجُل الإِسْرَائِيلِي الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخهُ، أَيْ: يَصْرُخُ بِهِ وَيَسْتَغِيثُهُ عَلَى آخَرَ قَدْ قَاتَلَهُ، فَعَنَّفَهُ مُوسَى وَلَامَهُ عَلَى كَثْرَةِ شَرِّهِ وَمُخَاصَمَتِهِ، قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِذَلِكَ القِبْطِيِّ الَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لِمُوسَى وَلِلْإِسْرَائِيلِيِّ، فَيَرْدَعُهُ عَنْهُ وَيُخَلِّصُهُ مِنْهُ، فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ وَأَقْبَلَ عَلَى القِبْطِيِّ؛ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾. قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا قَالَ هَذَا الكَلَامَ الإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي اطَّلَعَ عَلَى مَا كَانَ صَنَعَ مُوسَى بِالْأَمْسِ، وَكَأَنَّهُ لَمَّا رَأَى مُوسَى مُقْبِلًا إِلَى القِبْطِيِّ اعْتَقَدَ أَنَّهُ جَاءَ إِلَيْهِ هُوَ، لما عَنَّفَهُ قبل ذَلِك بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فَقَالَ مَا قَالَ لِمُوسَى، وَأَظْهَرَ الْأَمْرَ الَّذِي كَانَ وَقَعَ بِالْأَمْسِ، فَذَهَبَ القِبْطِيُّ فَاسْتَعْدَى فِرْعَوْنَ على مُوسَى، وَهَذَا الَّذِي لَمْ يَذكُر كَثِيرٌ مِن النَّاس سِوَاهُ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ قَائِلَ هَذَا هُوَ القِبْطِيُّ،

وَأَنَّهُ لَمَّا رَآهُ مُقْبِلًا إِلَيْهِ خَافَهُ، وَرَأَى مِن سَجِيَّتِهِ انتِصَارًا لِلْإِسْرَائِيلِيِّ جَدِيدًا لِلْإِسْرَائِيلِيِّ، فَقَالَ مَا قَالَ مِنْ بَابِ الظَّنِّ وَالفِرَاسَةِ؛ وأَنَّ هَذَا لَعَلَّهُ قَاتِلُ ذَاكَ القَتِيلِ بِالْأَمْسِ، أَوْ لَعَلَّهُ فَهِمَ مِنْ كَلَامِ الْإِسْرَائِيلِيِّ حِينَ اسْتَصْرَخَهُ عَلَيْهِ مَا دَلَّهُ عَلَى هَذَا. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ بَلَغَهُ أَنَّ مُوسَى هُوَ قَاتِلُ ذَلِكَ المَقْتُولِ بِالْأَمْسِ فَأَرْسَلَ فِي طَلَبِهِ. وَسَبَقَهُمْ رَجُلٌ نَاصِحٌ مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَب؛ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ سَاعِيًا إِلَيْهِ مُشْفِقًا عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ أَيْ: مِنْ هَذِهِ الْبَلْدَةِ. ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أَيْ: فِيمَا أَقُولُهُ لَكَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أَيْ: فَخَرَجَ مِنْ مَدِينَةِ مِصْرَ مِنْ فَوْرِهِ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقٍ وَلَا يَعْرِفُهُ، قَائِلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٢-٢٤]. يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خُرُوجِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مِنْ مِصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، أَيْ: يَتَلَفَّتُ، خَشْيَةَ أَنْ يُدْرِكَهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ، وَلَا إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ مِصْرَ قَبلهَا. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أَيْ: اتَّجَهَ لَهُ طَرِيقٌ يَذْهَبُ فِيهِ، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ: عَسَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الطَّرِيقُ مُوصلَة إِلَى المَقْصُود. وَكَذَا وَقع، فَقَد أَوْصَلَتْهُ إِلَى مَقْصُودٍ وَأَيُّ مَقْصُودٍ! ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وَكَانَتْ بِئْرًا يَسْتَقُونَ مِنْهَا، وَ(مَدْيَنُ) هِيَ المَدِينَةُ الَّتِي أَهْلَكَ اللهُ فِيهَا أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ، وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَقَدْ كَانَ هَلَاكُهُمْ قَبْلَ زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي أَحَدِ قَوْلَيِ العُلَمَاءِ. وَلَمَّا وَرَدَ الْمَاءَ الْمَذْكُورَ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أَي: تُكَفْكِفَان غَنَمَهُمَا أَنْ تَخْتَلِطَ بِغَنَمِ النَّاسِ.

وَعِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ أَنَّهُنَّ كُنَّ سَبْعَ بَنَاتٍ، وَهَذَا أَيْضًا مِن الغَلَط، وَلَعَلَّهُ كَانَ لَهُ سَبْعٌ، وَلَكِنْ إِنَّمَا كَانَ تَسْقِي اثْنَتَانِ مِنْهُنَّ، وَهَذَا الجَمْعُ مُمكِنٌ إِن كَانَ ذَاك مَحْفُوظًا، وَإِلَّا فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى

بِنْتَيْنِ، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أَي: لَا نَقْدِر عَلى وُرُودِ المَاءِ إِلَّا بَعْدَ صُدُورِ الرِّعَاءِ؛ لِضَعْفِنَا، وَسَبَبُ مُبَاشَرَتِنَا هَذِهِ الرَّعْيَة ضَعْف أَبِينَا وَكِبَرُهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ قَالَ المُفَسِّرُونَ: وَذَلِكَ أَنَّ الرِّعَاءَ كَانُوا إِذَا فَرَغُوا مِنْ وِرْدِهِمْ، وَضَعُوا عَلى فَم البِئْر صَخْرَة عَظِيمَة، فَتَجيء هَاتَانِ المَرْأَتَانِ فَيُشْرِعَانِ غَنَمَهُمَا فِي فَضْلِ أَغْنَامِ النَّاسِ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ، جَاءَ مُوسَى فَرفع تِلْكَ الصَّخْرَة وَحْدَهُ، ثُمَّ اسْتَقَى لَهُمَا وَسَقَى غَنَمَهُمَا، ثُمَّ رَدَّ الحَجَر كَمَا كَانَ. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ: وَكَانَ لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشَرَةٌ، وَإِنَّمَا اسْتَقَى ذَنُوبًا وَاحِدًا فَكَفَاهُمَا. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ﴾ قَالُوا: وَكَانَ ظِل شَجَرَةٍ مِنَ السَّمُرِ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ رَآهَا خَضْرَاءَ تَرِفُّ؛ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَارَ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَمْ يَأْكُلْ إِلَّا البَقْلَ وَوَرَق الشَّجَرِ، وَكَانَ حَافِيًا فَسَقَطَتْ نَعْلَا قَدَمَيْهِ مِنَ الحَفَاءِ -يَعني: جِلد أَخْمَص قَدَمَيْه- وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ -وَهُوَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خلقه- وَإِنَّ بَطْنه للاصِقٌ بِظَهْرِهِ مِنَ الجُوعِ، وَإِنَّ خُضْرَةَ البَقْلِ لَتُرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ، وَإِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَة. قَالَ عَطاء ابْن السَّائِب: لَمَّا قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أَسْمَعَ المَرْأَة.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ۝٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥-٢٨].

لَمَّا جَلَسَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي الظِّلِّ وَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سَمِعَتْهُ المَرْأَتَانِ فِيمَا قِيلَ، فَذَهَبَتَا إِلَى أَبِيهِمَا، فَيُقَال إِنَّه اسْتَنْكَرَ سُرْعَة رُجُوعهمَا، فَأَخبرتَاهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا، أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ فَتَدْعُوهُ، ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أَي: مَشْي الحَرَائِر. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صَرَّحَتْ لَهُ بِهَذَا لِئَلَّا يُوهِمَ كَلَامُهَا رِيبَةً، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ حَيَائِهَا وَصِيَانَتِهَا. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ وَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ،

وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ فِي خُرُوجِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ فِرَارًا مَنْ فِرَعَوْنِهَا. ﴿قَالَ﴾ لَهُ ذَلِكَ الشَّيْخُ ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: خَرَجْتَ مِنْ سُلْطَانِهِمْ فَلَسْتَ فِي دَوْلَتِهِمْ.

وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّيْخِ مَنْ هُوَ؟ فَقِيلَ هُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَهَذَا هُوَ المَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرِينَ وَمِمَّنْ نَصَّ عَلَيْهِ الحَسَنُ البَصْرِيُّ وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَجَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي حَدِيثٍ، وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ. وَقيل: **اسْمُهُ شُعَيْبٌ، وَكَانَ سَيِّد المَاءِ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِالنَّبِيِّ صَاحِبِ مَدْيَنَ**. وَقِيلَ: إِنَّهُ ابْنُ أَخِي شُعَيْبٍ، وَقِيلَ: ابْنُ عَمِّهِ. وَقِيلَ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ، وَقِيلَ: رَجُلٌ اسْمُهُ «يَثْرُونُ» هَكَذَا هُوَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ: يثرون كَاهِن مَدين. أَي: كَبيرُها وعَالِمُها.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَمَّا أَضَافَهُ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، بَشَّرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ نَجَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَتْ إِحْدَى البِنْتَيْنِ لِأَبِيهَا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أَيْ: لِرَعْيِ غَنَمِكَ، ثُمَّ مَدَحَتْهُ بِأَنَّهُ: قَوِيٌّ أَمِينٌ.

قَالَ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَشُرَيْحٌ الْقَاضِي وَأَبُو مَالك وَقَتَادَة وَمُحَمّد بن إِسْحَق وَغَيْرُ وَاحِدٍ: لَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، قَالَ لَهَا أَبُوهَا: وَمَا عِلْمُكِ بِهَذَا؟ فَقَالَتْ إِنَّهُ رَفَعَ صَخْرَةً لَا يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلَّا عَشرَةٌ، وَإِنَّهُ لَمَّا جِئْتُ مَعَهُ تَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ، فَقَالَ: كُونِي مِنْ وَرَائِي؛ فَإِذَا اخْتَلَفَ الطَّرِيقُ فَاحْذِفِي لِي بِحَصَاةٍ أَعْلَم بِهَا كَيْفَ الطَّرِيق!

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِصِهْرِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أَيْ: الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَ، فَأَيُّهُمَا قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ، وَاللهُ عَلَى مَقَالَتِنَا سَامِعٌ وَشَاهِدٌ، وَوَكِيلٌ عَلِيَّ وَعَلَيْكَ. وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَقْضِ مُوسَى إِلَّا أَكْمَلَ الْأَجَلَيْنِ وَأَتَمَّهُمَا، وَهُوَ الْعَشْرُ سِنِينَ كَوَامِلَ تَامَّةً.

رَوَى البُخَارِيُّ: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مَنْ أَهْلِ الحِيرَةِ: أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، حَتَّى أَقْدِمَ عَلَى حَبْرِ العَرَبِ فَأَسْأَلَهُ. فَقَدِمْتُ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا قَالَ فَعَلَ» [البخاري (٢٦٨٤)].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا

نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٢٩-٣٢]. تَقَدَّمَ أَنَّ مُوسَى قَضَى أَتَمَّ الْأَجَلَيْنِ وَأَكْمَلَهُمَا، وَقَدْ يُؤْخَذُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ أَيْ: مِنْ عِنْد صِهْرِهِ، زَاعِمًا -فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ- أَنَّهُ اشْتَاقَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَصَدَ زِيَارَتَهُمْ بِبِلَادِ مِصْرَ فِي صُورَةِ مُخْتَفٍ، فَلَمَّا سَارَ بِأَهْلِهِ وَمَعَهُ وِلْدَانٌ مِنْهُمْ وَغَنَمٌ قَدِ اسْتَفَادَهَا مُدَّةَ مُقَامِهِ. قَالُوا: وَاتَّفَقَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ بَارِدَةٍ، وتَاهُوا فِي طَرِيقِهِم فَلم يَهْتَدوا إِلَى السُّلُوكِ فِي الدَّرْبِ المَأْلُوفِ، وَجَعَلَ يُورِي زِنَادَهُ فَلَا يُورِي شَيْئًا، وَاشْتَدَّ الظَّلَامُ وَالبَرْدُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَبْصَرَ عَنْ بُعْد نَارًا تَأَجَّجُ فِي جَانِبِ الطُّورِ -وَهُوَ الجَبَلُ الغَرْبِيُّ مِنْهُ عَنْ يَمِينِهِ- فـ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، وَكَأَنَّهُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- رَآهَا دُونَهُمْ، لِأَنَّ هَذِهِ النَّار هِيَ نُور فِي الحَقِيقَة، وَلَا يصلح رُؤْيَتُهَا لِكُلِّ أَحَدٍ، ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أَيْ: لَعَلِّي أَسْتَعْلِمُ مِنْ عِنْدِهَا عَنِ الطَّرِيقِ. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَاهُوا عَنِ الطَّرِيقِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ وَمُظْلِمَةٍ، لِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٩-١٠].

فَدَلَّ عَلَى وُجُودِ الظَّلَامِ وَكَوْنِهِمْ تَاهُوا عَنِ الطَّرِيقِ، وَجَمَعَ الْكُلَّ فِي سُورَةِ النَّمْلِ فِي قَوْلِه: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]. وَقَدْ أَتَاهُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ وَأَيَّ خَبَرٍ! وَوَجَدَ عِنْدَهَا هُدًى وَأَيَّ هُدًى! وَاقْتَبَسَ مِنْهَا نُورًا وَأَيَّ نُورٍ!

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]. وَقَالَ فِي النَّمْلِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨] أَيْ: سُبْحَانَ اللهِ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيحكم مَا يُرِيد، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. وَقَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ

يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١١-١٦]. قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ: لَمَّا قَصَدَ مُوسَى إِلَى تِلْكَ النَّارِ الَّتِي رَآهَا فَانْتَهَى إِلَيْهَا، وَجَدَهَا تَأَجَّجُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ مِنَ الْعَوْسَجِ، وَكُلُّ مَا لِتِلْكَ النَّارِ فِي اضْطِرَامٍ، وَكُلُّ مَا لِخُضْرَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ فِي ازْدِيَادٍ. فَوَقَفَ مُتَعَجِّبًا، وَكَانَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ فِي لِحْفِ جَبَلٍ غَرْبِيٍّ مِنْهُ عَنْ يَمِينِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]. وَكَانَ مُوسَى فِي وَادٍ اسْمُهُ «طُوى» فَكَانَ مُوسَى مُسْتَقْبَلَ القِبْلَةِ، وَتِلْكَ الشَّجَرَةُ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الغَرْبِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوى، فَأُمِرَ أَوَّلًا بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَتَوْقِيرًا لِتِلْكَ البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ، وَلَا سِيَّمَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ المُبَارَكَةِ.

وَعِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ: أَنَّهُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ النُّورِ، مَهَابَةً لَهُ وَخَوْفًا عَلَى بَصَرِهِ.

ثُمَّ خَاطَبَهُ تَعَالَى كَمَا يَشَاءُ قَائِلًا لَهُ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] أَيْ: أَنا رَبُّ العَالَمِينَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي لَا تَصْلُحُ العِبَادَةُ وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ إِلَّا لَهُ. ثُمَّ أَخْبَرَهُ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارٍ، وَإِنَّمَا الدَّارُ البَاقِيَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ، الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهَا وَوُجُودِهَا، ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، أَيْ: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَحَضَّهُ وَحَثَّهُ عَلَى العَمَلِ لَهَا، وَمُجَانَبَةِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا مِمَّنْ عَصَى مَوْلَاهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ مُخَاطِبًا وَمُؤَانِسًا وَمُبَيِّنًا لَهُ أَنَّهُ القَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ [طه: ١٧]؛ أَيْ: أَما هَذِهِ عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا مُنْذُ صَحِبتهَا؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨]؛ أَيْ: بَلَى هَذِهِ عَصَايَ الَّتِي أَعْرِفُهَا وَأَتَحَقَّقُهَا. ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٩-٢٠]. وَهَذَا خَارِقٌ عَظِيمٌ وَبُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، وَأَنَّهُ الفَعَّالُ بِالِاخْتِيَارِ. وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ: أَنه سَأَلَ بُرهانًا صَادِقا عَلَى صِدْقِهِ عِنْدَ مَنْ يُكَذِّبُهُ مِنْ أَهْلِ مِصر، فَقَالَ لَهُ الربُّ عَزَّوَجَلَّ: مَا هَذِهِ الَّتِي فِي يَدِكَ؟ قَالَ: عَصَايَ، قَالَ: أَلْقِهَا إِلَى الْأَرْضِ، ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ

﴿تَسْعَىٰ﴾، فَهَرَبَ مُوسَى مِنْ قُدَّامِهَا، فَأَمَرَهُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَبْسُطَ يَدَهُ وَيَأْخُذَهَا بِذَنَبِهَا، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهَا ارْتَدَّتْ عَصًا فِي يَدِهِ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]. أَي: قد صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً لَهَا ضَخَامَةٌ هَائِلَةٌ وَأَنْيَابٌ تَصْطَكُّ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ فِي سُرْعَةِ حَرَكَةِ الجَانِّ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الحَيَّاتِ يُقَالُ لَهُ: الجَانُّ والجِنَّان، وَهُوَ لَطِيف، وَلَكِن سَرِيعُ الِاضْطِرَابِ وَالحَرَكَةِ جِدًّا، فَهَذِهِ جَمَعَتِ الضَّخَامَةَ وَالسُّرْعَةَ الشَّدِيدَةَ. فَلَمَّا عَايَنَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أَيْ: هَارِبًا مِنْهَا، لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ البَشَرِيَّة تَقْتَضِي ذَلِكَ، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيْ: وَلَمْ يلْتَفِت، فَنَادَاهُ رَبُّه قَائِلا لَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾، فَلَمَّا رَجَعَ، أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُمْسِكَهَا ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، يُقَالُ: إِنَّهُ هَابَهَا شَدِيدًا، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي كُمِّ مِدْرَعَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي وَسَطِ فَمها -وَعِندَ أهل الكِتاب: أَمْسَكَ بِذَنَبِهَا-، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهَا إِذْ هِيَ قَدْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ عَصًا ذَاتَ شُعْبَتَيْنِ، فَسُبْحَانَ القَدِيرِ العَظِيم، رَبِّ المَشْرِقَيْنِ ورَبِّ المَغْرِبَيْنِ! ثُمَّ أَمَرَهُ تَعَالَى بِإِدْخَالِ يَدِهِ فِي جَيْبِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِنَزْعِهَا فَإِذَا هِيَ تَتَلَأْلَأُ كَالقَمَرِ بَيَاضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، أَيْ: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا بَهَقٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]. قِيلَ: مَعْنَاهُ: إِذَا خِفْتَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى فُؤَادِكَ يَسْكُنْ جَأْشُكَ.

وَقَالَ فِي سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]. أَي: هَاتَانِ الْآيَتَانِ، وهُمَا: العَصَا وَاليَد، هُمَا البُرْهَانَانِ المُشَارُ إِلَيْهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، وَمَعَ ذَلِكَ سَبْعُ آيَاتٍ أُخَر. فَذَلِكَ تِسْعُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَهِيَ المَذْكُورَةُ فِي آخِرِ سُورَةِ (سُبْحَانَ)، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢].

وَهِيَ المَبْسُوطَةُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣]. كَمَا سَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣-٣٥].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي جَوَابِهِ لِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ حِينَ أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى عَدُوِّهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فِرَارًا مِنْ سَطْوَتِهِ وَظُلْمِهِ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ فِي قَتْلِ ذَلِكَ القِبْطِيِّ، وَلِهَذَا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أَيْ: اجْعَلْهُ مَعِي مُعِينًا وَرِدْءًا وَوَزِيرًا يُسَاعِدُنِي، وَيُعِينُنِي عَلَى أَدَاءِ رِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا وَأَبْلَغُ بَيَانًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُ إِلَى سُؤَالِهِ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أَيْ: بُرْهَانًا. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أَيْ: فَلَا يَنَالُونَ مِنْكُمَا مَكْرُوهًا بِسَبَبِ قِيَامِكُمَا بِآيَاتِنَا، وَقِيلَ: بِبَرَكَةِ آيَاتِنَا. ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

وَقَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٤-٢٨]. قِيلَ: إِنَّهُ أَصَابَهُ فِي لِسَانِهِ لُثْغَةٌ، بِسَبَبِ تِلْكَ الجَمْرَةِ الَّتِي وَضَعَهَا على لِسَانه، وَالَّتِي كَانَ فِرْعَوْنُ أَرَادَ اخْتِبَارَ عَقْلِهِ حِينَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ فَهَمَّ بِقَتْلِهِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ (آسِيَةُ) وَقَالَتْ: إِنَّهُ طِفْلٌ! فَاخْتَبَرَهُ بِوَضْعِ تَمْرَةٍ وَجَمْرَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ فَهَمَّ بِأَخْذِ التَّمْرَةِ فَصَرَفَ المَلَكُ يَدَهُ إِلَى الجَمْرَةِ، فَأَخَذَهَا فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ فَأَصَابَهُ لُثْغَةٌ بِسَبَبِهَا.

فَسَأَلَ زَوَالَ بَعْضِهَا بِمِقْدَارِ مَا يَفْهَمُونَ قَوْلَهُ، وَلَمْ يَسْأَلْ زَوَالَهَا بِالْكُلِّيَّةِ. قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: وَالرُّسُلُ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ بِحَسَبِ الحَاجَةِ، وَلِهَذَا بَقِيَتْ فِي لِسَانِهِ بَقِيَّةٌ. وَلِهَذَا قَالَ فِرْعَوْنُ -قَبَّحَهُ اللهُ- فِيمَا زَعَمَ إِنَّهُ يَعِيبُ بِهِ الكَلِيمَ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. أَيْ: يُفْصِحُ عَنْ مُرَادِهِ، وَيُعَبِّرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ وَفُؤَادِهِ.

ثُمَّ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩-٣٦]. أَيْ: قَدْ أَجَبْنَاكَ إِلَى جَمِيعِ مَا سَأَلْتَ، وَأَعْطَيْنَاكَ الَّذِي طَلَبْتَ. وَهَذَا مِنْ وَجَاهَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، حِينَ شَفَعَ أَنْ يُوحِيَ اللهُ إِلَى أَخِيهِ فَأَوْحَى إِلَيْهِ، وَهَذَا جَاهٌ عَظِيمٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٠-٢٢].

تَقْدِيرُ الكَلَامِ: فَأْتِيَاهُ فَقُولَا لَهُ ذَلِكَ، وَبَلِّغَاهُ مَا أُرْسِلْتُمَا بِهِ مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَفُكَّ أُسَارَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْضَتِهِ وَقَهْرِهِ وَسَطْوَتِهِ، وَيَتْرُكَهُمْ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ حَيْثُ شَاؤُوا، وَيَتَفَرَّغُونَ لِتَوْحِيدِهِ، وَدُعَائِهِ، وَالتَّضَرُّعِ لَدَيْهِ. فَتَكَبَّرَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ وَعَتَا وطَغَى، وَنظَرَ إِلَى مُوسَى بِعَين الازدِرَاء والتَّنَقُّصِ قَائِلًا لَهُ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾؟ أَيْ: أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِي مَنْزِلِنَا، وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ الدَّهْرِ؟ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي بُعِثَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ، خلافًا لِمَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ: مِنْ أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي

فَرَّ مِنْهُ مَاتَ فِي مُدَّةِ مُقَامِهِ بِمَدْيَنَ، وَأَنَّ الَّذِي بُعِثَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ آخَرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: وَقَتَلْتَ الرَّجُلَ القِبْطِيَّ، وَفَرَرْتَ مِنَّا وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أَيْ: قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ وَينزل عَلَيَّ. ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ مُجِيبًا لِفِرْعَوْنَ عَمَّا امْتَنَّ بِهِ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَيْ: وَهَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي ذَكَرْتَ -مِنْ أَنَّكَ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَأَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ- تُقَابِلُ مَا اسْتَخْدَمْتَ هَذَا الشَّعْبَ العَظِيمَ بِكَمَالِهِ، وَاسْتَعْبَدْتَهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَخِدْمَتِكَ وَأَشْغَالِكَ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]. يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى مِنَ المُقَاوَلَةِ وَالمُحَاجَّةِ وَالمُنَاظَرَةِ، وَمَا أَقَامَهُ الكَلِيمُ عَلَى فِرْعَوْنَ اللَّئِيمِ، مِنَ الحُجَّةِ العَقْلِيَّةِ المَعْنَوِيَّةِ ثُمَّ الحِسِّيَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ -قَبَّحَهُ اللهُ- أَظْهَرَ جَحْدَ الصَّانِعِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَزَعَمَ أَنَّهُ الإِلَهُ، ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وَهُوَ فِي هَذِهِ المَقَالَةِ مُعَانِدٌ، يَعْلَمُ أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ، الإِلَهُ الحَقُّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. وَلِهَذَا قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى سَبِيلِ الإِنْكَارِ لِرِسَالَتِهِ، وَالإِظْهَارِ أَنَّهُ مَا ثَمَّ رَبٌّ أَرْسَلَهُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟!، لِأَنَّهُمَا قَالَا لَهُ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمَا: وَمَنْ رَبُّ العَالَمِينَ؟! الَّذِي تَزْعُمَانِ أَنَّهُ أَرْسَلَكُمَا وَابْتَعَثَكُمَا؟ فَأَجَابَهُ مُوسَى قَائِلًا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يَعْنِي: رَبُّ العَالَمِين خَالِقُ هَذِهِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ المُشَاهَدَةِ، وَمَا بَينهمَا مِن المَخْلُوقَاتِ المُتَعَدِّدَةِ؛ مِنَ السَّحَابِ وَالرِّيَاحِ وَالمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَالحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ مُوقِنٍ أَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِأَنْفُسِهَا، وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ وَمُحْدِثٍ وَخَالِقٍ وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَالَمِينَ.

﴿قَالَ﴾ أَيْ: فِرْعَوْنُ. ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِنْ أُمَرَائِهِ وَمَرَازِبَتِهِ وَوُزَرَائِهِ، عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ والتَّنَقُّصِ لِمَا قَرَّرَهُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ يَعْنِي: كَلَامَهُ هَذَا! ﴿قَالَ﴾ مُوسَى مُخَاطِبًا لَهُ وَلَهُمْ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَالْقُرُونِ السَّالِفَةِ فِي الْآبَادِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ، وَلَا أَبوهُ وَلَا أُمُّه، وَلَا يَحْدُثُ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ، وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ وَخَلَقَهُ رَبُّ العَالَمِين.

وَهَذَانِ المَقَامَانِ هُمَا المَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَسْتَفِقْ فِرْعَوْنُ مِنْ رَقْدَتِهِ، وَلَا نَزَعَ عَنْ ضَلَالَتِهِ، بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَى طُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَكُفْرَانِهِ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُسَخِّرُ لِهَذِهِ الكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ، المُسَيِّرُ لِلْأَفْلَاكِ الدَّائِرَةِ، خَالِقُ الظَّلَامِ وَالضِّيَاءِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، خَالِقُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ، وَالكَوَاكِبِ السَّائِرَةِ، وَالثَّوَابِتِ الحَائِرَةِ، خَالِقُ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ، وَالنَّهَارِ بِضِيَائِهِ، وَالكُلُّ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ سَائِرُونَ، وَفِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، يَتَعَاقَبُونَ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ وَيَدُورُونَ. فَهُوَ تَعَالَى الخَالِقُ المَالِكُ المُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ.

فَلَمَّا قَامَتِ الحُجَجُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَانْقَطَعَتْ شُبَهُهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَوْلٌ سِوَى العِنَادِ، عَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ سُلْطَانِهِ وَجَاهِهِ وَسَطْوَتِهِ؛ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٣]. وَهَذَانِ هُمَا البُرْهَانَانِ اللَّذَانِ أَيَّدَهُ اللهُ بِهِمَا، وَهُمَا العَصَا وَاليَدُ، وَذَلِكَ مَقَامٌ أَظْهَرَ فِيهِ الخَارِقَ العَظِيمَ الَّذِي بَهَرَ بِهِ العُقُولَ وَالْأَبْصَارَ، حِينَ أَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، أَيْ: عَظِيمُ الشَّكْلِ، بَدِيعٌ فِي الضَّخَامَةِ وَالهَوْلِ وَالمَنْظَرِ العَظِيمِ الفَظِيعِ البَاهِرِ.

وَهَكَذَا لَمَّا أَدْخَلَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَاسْتَخْرَجَهَا، أَخْرَجَهَا وَهِيَ كَفِلْقَةِ القَمَرِ تَتَلَأْلَأُ نُورًا يُبْهِرُ الْأَبْصَارَ، فَإِذَا أَعَادَهَا إِلَى جَيْبِهِ رَجَعَتْ إِلَى صِفَتِهَا الْأُولَى، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْتَفِعْ فِرْعَوْنُ -لَعَنَهُ اللهُ- بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَظْهَرَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ سِحْرٌ، وَأَرَادَ

مُعَارَضَتَهُ بِالسَّحَرَةِ، فَأَرْسَلَ يَجْمَعُهُمْ مِنْ سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ وَمَنْ فِي رَعِيَّتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَدَوْلَتِهِ، كَمَا سَيَأْتِي بَسْطُهُ وَبَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ؛ مِنْ إِظْهَارِ اللهِ الحَقَّ المُبِينَ، وَالحُجَّةَ البَاهِرَةَ القَاطِعَةَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَأَهْلِ دَوْلَتِهِ وَمِلَّتِهِ، وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٠-٤٦].

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِمُوسَى فِيمَا كَلَّمَهُ بِهِ لَيْلَةَ أَوْحَى إِلَيْهِ، وَأَنْعَمَ بِالنُّبُوَّةِ عَلَيْهِ، وَكَلَّمَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ: قَدْ كُنْتُ مُشَاهِدًا لَكَ وَأَنْتَ فِي دَارِ فِرْعَوْنَ، وَأَنْتَ تَحْتَ كَنَفِي وَحِفْظِي وَلُطْفِي، ثُمَّ أَخْرَجْتُكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ مَدْيَنَ بِمَشِيئَتِي وَقُدْرَتِي وَتَدْبِيرِي، فَلَبِثْتَ فِيهَا سِنِين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أَيْ: مِنِّي لِذَلِكَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ تَقْدِيرِي وَتَسْيِيرِي، ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أَيْ: اصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي. ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ يَعْنِي: وَلَا تَفْتُرَا فِي ذِكْرِي إِذَا قَدِمْتُمَا عَلَيْهِ وَوَفَدْتُمَا إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ عَوْنٌ لَكُمَا عَلَى مُخَاطَبَتِهِ وَمُجَاوَبَتِهِ، وَأَدَاءِ النَّصِيحَةِ إِلَيْهِ وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِكُفْرِ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِ وَتَجَبُّرِهِ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ أَرْدَى خَلْقِهِ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ صَفْوَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُ لَهُمَا وَيَأْمُرُهُمَا أَنْ يَدْعُوَاهُ إِلَيْهِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بِرِفْقٍ وَلِينٍ، وَيُعَامِلَاهُ مُعَامَلَةَ مَنْ يَرْجُوَا أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَخْشَى. كَمَا قَالَ لِرَسُولِه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ أَعْذِرَا إِلَيْهِ، قُولا لَهُ: إِنَّ لَكَ رَبًّا وَلنَا مَعَادًا، وَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةً وَنَارًا. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: قُولَا لَهُ: إِنِّي إِلَى العَفْو وَالمَغْفِرَة أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى الغَضَبِ وَالعُقُوبَةِ. وقَالَ يَزِيد الرقاشِي عِنْد هَذِه الْآيَة: يا مَنْ يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيهِ؟!

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْن كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا وشَيْطَانًا مَرِيدًا، لَهُ سُلْطَانٌ فِي بِلَادِ مِصْرَ طَوِيلٌ عَرِيضٌ، وَجَاهٌ وَجُنُودٌ، وَعَسَاكِرُ وَسَطْوَةٌ، فَهَابَاهُ مِنْ حَيْثُ البَشَرِيَّة، وَخَافَا أَنْ يَسْطُوَ عَلَيْهِمَا فِي بَادِئِ الْأَمْرِ، فَثَبَّتَهُمَا تَعَالَى وَهُوَ العَلِيُّ الْأَعْلَى، فَقَالَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [هد: ٦٨]. يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَمَرَهُمَا أَنْ يَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ فَيَدْعُوَاهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَن يُرْسِلَ مَعَهُمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيُطْلِقَهُمْ مِنْ أَسْرِهِ وَقَهْرِهِ وَلَا يُعَذِّبهُم. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وَهُوَ البُرْهَانُ العَظِيمُ فِي العَصَا وَاليَدِ، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ تَقْيِيدٌ مُفِيدٌ بَلِيغٌ عَظِيمٌ.

ثُمَّ تَهَدَّدَاهُ وَتَوَعَّدَاهُ عَلَى التَّكْذِيبِ فَقَالَا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أَيْ: كَذَّبَ بِالحَقِّ بِقَلْبِهِ، وَتَوَلَّى عَنِ العَمَلِ بِقَالَبِهِ.

وَقَالَ اللهُ مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٥].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ: أَنَّهُ أَنْكَرَ إِثْبَاتَ الصَّانِعِ -تَعَالَى- قَائِلًا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي خَلَقَ الخَلْقَ وَقَدَّرَ لَهُمْ

أَعْمَالًا وَأَرْزَاقًا وَآجَالًا، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى مَا قَدَّرَهُ لَهُ، فَطَابَقَ عَمَلُهُ الوَجْه الَّذِي قَدَّرَهُ وَعَلِمَهُ؛ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَقَدَرِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أَيْ: قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الخَلَائِقَ إِلَيْهِ.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يَقُولُ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: فَإِذَا كَانَ رَبُّكَ هُوَ الخَالِقُ المُقَدِّرُ الهَادِي الخَلَائِقَ لِمَا قَدَّرَهُ، وَهُوَ بِهَذِهِ المَثَابَةِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ سِوَاهُ، فَلِمَ عَبَدَ الْأَوَّلُونَ غَيْرَهُ؟ وَأَشْرَكُوا بِهِ مِنَ الكَوَاكِبِ وَالْأَنْدَادِ مَا قَدْ عَلِمْتَ؟ فَهَلَّا اهْتَدَى إِلَى مَا ذَكَرْتَهُ القُرُونُ الْأُولَى؟!

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ أَيْ: هُمْ وَإِنْ عَبَدُوا غَيْرَهُ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِحُجَّةٍ لَكَ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا أَقُول لأَنَّهُم جَهَلَةٌ مِثْلُكَ، وَكُلُّ شَيء فَعَلُوهُ مُسْتَطَرٌ عَلَيْهِمْ فِي الزُّبُرِ مِنْ صَغِيرٍ وكَبِير، وَسَيَجْزِيهِم عَلَى ذَلِك رَبِّي عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، لِأَنَّ جَمِيعَ أَفْعَالِ العِبَادِ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ عَنهُ شيء وَلَا يَنْسَى رَبِّي شَيْئًا.

ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ عَظَمَةَ الرَّبِّ، وَقُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ، وَجَعْلَهُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالسَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَتَسْخِيرَهُ السَّحَابَ وَالْأَمْطَارَ لِرِزْقِ العِبَادِ وَدَوَابِّهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أَيْ: لِذَوِي العُقُولِ الصَّحِيحَةِ المُسْتَقِيمَةِ، وَالفِطَرِ الْقَوِيمَةِ غَيْرِ السَّقِيمَة، فَهُوَ تَعَالَى الخَالِقُ الرَّازِقُ. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وَلَمَّا ذَكَرَ إِحْيَاءَ الْأَرْضِ بِالمَطَرِ، وَاهْتِزَازَهَا بِإِخْرَاجِ نَبَاتِهَا فِيهِ؛ نَبَّهَ بِهِ عَلَى المَعَادِ فَقَالَ: ﴿مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْأَرْضِ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٦-٥٩]. يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شَقَاءِ فِرْعَوْنَ وَكَثْرَةِ جَهْلِهِ وَقِلَّةِ عَقْلِهِ فِي تَكْذِيبِهِ بِآيَاتِ اللهِ وَاسْتِكْبَارِهِ عَنِ اتِّبَاعِهَا، وَقَوْلِهِ لِمُوسَى: إِنَّ هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ سِحْرٌ، وَنَحْنُ نُعَارِضُكَ بِمِثْلِهِ. ثُمَّ طَلَبَ مِنْ مُوسَى أَنَّ يُوَاعِدَهُ إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ وَمَكَانٍ مَعْلُومٍ. وَكَانَ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ مَقَاصِدِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أَنْ يُظْهِرَ آيَاتِ اللهِ وَحُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ جَهْرَةً بِحَضْرَةِ النَّاسِ. وَلِهَذَا ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ مِنْ أَعْيَادِهِمْ وَمُجْتَمَعٍ لَهُمْ ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أَيْ: مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فِي وَقْتِ اشْتِدَادِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ، فَيَكُونُ الحَقُّ أَظْهَرَ وَأَجْلَى، وَلَمْ يَطْلُبْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَيْلًا فِي ظَلَامٍ، كَيْمَا يروج عَلَيْهِم محالا وَبَاطِلًا، بَلْ طَلَبَ أَنْ يَكُونَ نَهَارًا جَهْرَةً، لأَنَّهُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِن رَبِّهِ ويقينٍ بِأَنَّ اللهَ سَيُظْهِرُ كَلِمَتَهُ وَدِينَهُ، وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ القِبْطِ!

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٠-٦٤]. يُخْبِرُ تَعَالَى عَن فِرْعَوْن أَنهُ ذَهَبَ فَجَمَعَ مَنْ كَانَ بِبِلَادِهِ مِنَ السَّحَرَةِ، وَكَانَتْ بِلَادُ مِصْرَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَمْلُوءَةً سَحَرَةً فُضَلَاءَ فِي فَنِّهِمْ غَايَة، فَجَمَعُوا لَهُ مَنْ كُلِّ بَلَدٍ وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَاجْتَمَعَ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِيرٌ.

وَحَضَرَ فِرْعَوْنُ وَأُمَرَاؤُهُ وَأَهْلُ دَوْلَتِهِ وَأَهْلُ بَلَدِهِ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ. وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ نَادَى فِيهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا هَذَا المَوْقِفَ العَظِيمَ، فَخَرَجُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]. وَتَقَدَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى السَّحَرَةِ فَوَعَظَهُمْ، وَزَجَرَهُمْ عَنْ تَعَاطِي السِّحْرِ البَاطِلِ الَّذِي فِيهِ مُعَارَضَةٌ لِآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ فَقَالَ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: هَذَا كَلَامُ نَبِيٍّ وَلَيْسَ بِسَاحِرٍ، وَقَائِلٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: بَلْ هُوَ سَاحِرٌ! فَاللهُ أَعْلَمُ. وَأَسَرُّوا التَّنَاجِي بِهَذَا وَغَيْرِهِ.

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا وَأَخَاهُ هَارُونَ سَاحِرَانِ، عَلِيمَانِ، مُطْبِقَانِ مُتْقِنَانِ لِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ، وَمُرَادُهُمْ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا، وَيَصُولَا عَلَى المَلِكِ وَحَاشِيَتِهِ، وَيَسْتَأْصِلَاكُمْ عَنْ آخِرِكُمْ، وَيَسْتَأْمِرَا عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ، ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾، وَإِنَّمَا قَالُوا الكَلَامَ الْأَوَّلَ لِيَتَدَبَّرُوا وَيَتَوَاصَوْا، وَيَأْتُوا بِجَمِيعِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ المَكِيدَةِ وَالمَكْرِ وَالخَدِيعَةِ وَالسِّحْرِ وَالبُهْتَانِ. وَهَيْهَاتَ! كَذَبَتْ وَاللهِ الظُّنُونُ وَأَخْطَأَتِ الْآرَاءُ؛ أَنَّى يُعَارِضُ البُهْتَانُ وَالسِّحْرُ وَالهَذَيَانُ خَوَارِقَ الْعَادَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا الدَّيَّانُ عَلَى يَدَيْ عَبْدِهِ الكَلِيمِ وَرَسُولِهِ الكَرِيمِ المُؤَيَّدِ بِالبُرْهَانِ الَّذِي يُبْهِرُ الْأَبْصَارَ وَتَحَارُ فِيهِ العُقُولُ وَالْأَذْهَانُ؟!

وَقَوْلُهمْ: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ أَيْ: جَمِيعَ مَا عِنْدَكُمْ. ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ أَي: جُمْلَةً وَاحِدَةً. ثُمَّ حَضَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى التَّقَدُّمِ فِي هَذَا الْمَقَامِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ وَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

لَمَّا اصْطَفَّ السَّحَرَةُ وَوَقَفَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ تُجَاهَهُمْ، قَالُوا لَهُ: إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ قَبْلَنَا، وَإِمَّا أَنْ نُلْقِيَ قَبْلَكَ. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أَنْتُمْ.

وَكَانُوا قَدْ عَمَدُوا إِلَى حِبَالٍ وَعِصِيٍّ فَأَوْدَعُوهَا الزِّئْبَقَ وَغَيْرَهُ[1] مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي تَضْطَرِبُ

---

(١) فَائِدَة: هَذا القَوْلُ مَرْجُوح، وَالرَّاجِحُ أَنَّ هَذا كَانَ سِحْرًا لا حِيلَة؛ قَالَ الإِمَامُ ابنُ قَيِّم الجَوْزِيَّة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وَقَدْ قَالَ تَعَالى عَنْ سَحَرَةِ فِرْعَوْن إِنَّهُم: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَعْيُنَهُمْ سُحِرَتْ، وَذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِتَغْيِيرٍ حَصَلَ فِي المَرْئِيِّ، وَهُوَ الحِبَالُ وَالعِصِي، مِثْل أَنْ يَكُون السَّحَرَةُ اسْتَعَانَتْ بِأَرْوَاحٍ حَرَّكَتْهَا، وَهِيَ الشَّيَاطِينُ، فَظَنُّوا أَنها تَحَرَّكَتْ بِأَنْفُسِهَا، وَهَذا كَمَا إِذَا جَرَّ مَن لا يَرَاهُ حَصِيرًا أَو بِسَاطًا فَتَرى الحَصِيرَ وَالبِسَاطَ يَنْجَرُّ، وَلا تَرَى الجَارَّ لَه، مَع أَنَّهُ هُوَ الذي يَجُرُّهُ، فَهَكَذا حَالُ الحِبالُ والعِصِي التبَسَتْهَا الشَّيَاطينُ فَقَلَّبَتْهَا كَتَقَلُّبِ الحَيَّة فَظَنَّ الرَّائِي أَنَّها تَقَلَّبَتْ بِأَنْفُسِهَا، وَالشَّيَاطِينُ هُمُ الذينَ يُقَلِّبُونها. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ التَّغَيُّرُ حَدَثَ فِي الرَّائِي حَتَّى رَأَى الحِبَال وَالعِصِيَّ تَتَحَرَّكُ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي

بِسَبَبِهَا تِلْكَ الحِبَالُ وَالعِصِيُّ اضْطِرَابًا يُخَيَّلُ لِلرَّائِي أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا، وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ، وَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أَيْ: خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَتِنُوا بِسِحْرِهِمْ وَمُحَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِي مَا فِي يَدِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ وَقَالَ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١-٨٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢]. وَذَلِكَ أَن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا أَلْقَاهَا، صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً -فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ- ذَاتَ قَوَائِمَ وَعُنُقٍ عَظِيمٍ وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ، بِحَيْثُ إِنَّ النَّاسَ انْحَازُوا

أَنْفُسِها، وَلا رَيْبَ أَنَّ السَّاحِرَ يَفْعَلُ هَذا وَهَذا، فَتَارَةً يَتَصَرَّفُ فِي نَفْسِ الرَّائِي وَإِحْسَاسِهِ حَتَّى يُرِيهُ الشَّيءَ بِخِلافِ مَا هُوَ بِهِ، وَتَارَةً يَتَصَرَّفُ فِي المَرْئِي بِاسْتِعَانَتِهِ بِالأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ حَتَّى يَتَصَرَّف فِيهَا. وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ المُنْكِرُونَ مِن أَنَّهُم فَعَلوا فِي الحِبَال وَالعِصِيِّ مَا أَوْجَبَ حَرَكَتَهَا وَمَشْيَهَا مِثْلَ الزِّئْبَقِ وَغَيْرِهِ حَتَّى سَعَتْ، فَهَذا بَاطِلٌ مِن وُجُوهٍ كَثِيرة، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذلِكَ لَمْ يَكُنْ هَذا خَيَالًا بَل حَرَكَةً حَقِيقِيَّة، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ سَحْرًا لأَعْيُنِ النَّاسِ، وَلا يُسَمَّى ذَلِك سِحْرًا، بَلْ صِنَاعَة مِن الصِّنَاعَات المُشْتَرَكَة، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وَلَوْ كَانَتْ تَحَرَّكَتْ بِنَوْعِ حِيلَة -كَمَا يَقُولُهُ المُنْكِرُون- لَمْ يَكُنْ هَذا مِن السِّحْرِ فِي شَيْء، وَمِثْل هَذا لا يَخْفَى، وَأَيْضًا: لَوْ كَانَ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ -كَمَا قَالَ هَؤُلاءِ- لَكَانَ طَرِيق إِبْطَالِهَا إِخْراج مَا فِيها مِن الزِّئْبَق وَبَيان ذَلِك المُحَال، وَلَمْ يُحتَجْ إِلى إِلقَاء العَصَا لابْتِلاعِهَا، وَأَيْضًا: فَمِثْل هَذِهِ الحِيلَة لا يُحتَاج فِيهَا إِلى الاسْتِعَانَة بِالسَّحَرَة، بَلْ يَكْفِي فِيهَا حُذَّاق الصُّنَّاع، وَلا يُحتَاج فِي ذَلِكَ إِلى تَعْظِيم فِرْعَون لِلسَّحَرَة وَخُضُوعِهِ لَهُم وَوَعْدِهِم بِالتَّقْرِيب وَالأَجْر، وَأَيضًا: فَإِنهُ لا يُقَالُ فِي ذَلِك: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، فَإِنَّ الصِّنَاعَات يَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي تَعَلُّمِهَا وَتَعْلِيمِها، وَبِالجُمْلَة: فَبُطْلانُ هَذا أَظْهَرُ مِن أَن يُتَكَلَّفَ رَدُّهُ» [بدائع الفوائد].

مِنْهَا وَهَرَبُوا سِرَاعًا، وَتَأَخَّرُوا عَنْ مَكَانِهَا وَأَقْبَلَتْ هِيَ عَلَى مَا أَلْقَوْهُ مِنَ الحِبَالِ وَالعِصِيِّ، فَجَعَلَتْ تَلْقَفُهُ وَاحِدًا وَاحِدًا فِي أَسْرَعِ مَا يَكُونُ مِنَ الحَرَكَةِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا.

وَأَمَّا السَّحَرَةُ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مَا هَالَهُمْ وَحَيَّرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ، وَاطَّلَعُوا عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي خَلَدِهِمْ وَلَا بَالِهِمْ وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ صِنَاعَاتِهِم وأَشْغَالِهِم، فَعِنْدَ ذَلِك تَحَقَّقُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِسِحرٍ وَلَا شَعْوَذَةٍ وَلَا محَالٍ وَلَا خَيَالٍ وَلَا زُورٍ وَلَا بُهْتَانٍ وَلَا ضَلَالٍ، بَلْ حَقٌّ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الحَقُّ الَّذِي ابْتَعَثَ هَذَا المُؤَيَّدَ بِهِ بِالْحَقِّ. وَكَشَفَ اللهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةَ الغَفْلَةِ، وَأَنَارَهَا بِمَا خَلَقَ فِيهَا مِنَ الهُدَى وَأَزَاحَ عَنْهَا القَسْوَةَ، وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَخَرُّوا لَهُ سَاجِدِينَ، وَقَالُوا جَهْرَةً لِلْحَاضِرِينَ وَلَمْ يَخْشَوْا عُقُوبَةً وَلَا بَلْوَى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧١-٧٦].

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَزَّةَ وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَغَيْرُهُمْ: لَمَّا سَجَدَ السَّحَرَةُ رَأَوْا مَنَازِلَهُمْ وَقُصُورَهُمْ فِي الجَنَّةِ تُهَيَّأُ لَهُمْ، وَتُزَخْرَفُ لِقُدُومِهِمْ، وَلِهَذَا لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى تَهْوِيلِ فِرْعَوْنَ وَتَهْدِيدِهِ وَوَعِيدِهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَى هَؤُلَاءِ السَّحَرَةَ قَدْ أَسْلَمُوا وَأَشْهَرُوا ذِكْرَ مُوسَى وَهَارُونَ فِي النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الجَمِيلَةِ، أَفْزَعَهُ ذَلِكَ، وَرَأَى أَمْرًا بَهَرَهُ، وَأَعْمَى بَصِيرَتَهُ وَبَصَرَهُ.

وَكَانَ فِرْعَون فِيهِ كَيْدٌ وَمَكْرٌ وَخِدَاعٌ، وَصَنْعَةٌ بَلِيغَةٌ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لِلسَّحَرَةِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أَيْ: هَلَّا شَاوَرْتُمُونِي فِيمَا صَنَعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ الفَظِيعِ بِحَضْرَةِ رَعِيَّتِي؟! ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ وَأَبْرَقَ وَأَرْعَدَ، وَكَذَبَ فَأَبْعَدَ قَائِلًا: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ فَرْدٍ عَاقِلٍ مَا فِيهِ مِنَ الكُفْرِ وَالكَذِبِ وَالهَذَيَانِ، بَلْ لَا يَرُوجُ مثلهُ عَلَى الصِّبْيَانِ، فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ وَغَيْرِهِمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَرَهُ هَؤُلَاءِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرهُمُ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحْرَ؟! ثُمَّ هُوَ لَمْ يَجْمَعْهُمْ وَلَا عَلِمَ بِاجْتِمَاعِهِمْ حَتَّى كَانَ فِرْعَوْنُ هُوَ الَّذِي اسْتَدْعَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَوَادٍ سَحِيقٍ، وَمِنْ حَوَاضِرِ بِلَادِ مِصْرَ وَالْأَطْرَافِ، وَمِنَ المُدُنِ وَالْأَرْيَافِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ

مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٥-٨٢].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرٌۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩-٥١].

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ كَذَّبَ وَافْتَرَى وَكَفَرَ غَايَةَ الكُفْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وَأَتَى بِبُهْتَانٍ يَعْلَمُهُ العَالِمُونَ بَلِ العَالَمُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وَقَوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يَعْنِي: يَقْطَعُ اليَدَ اليُمْنَى وَالرِّجْلَ اليُسْرَى وَعَكْسَهُ، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: لَيَجْعَلَنَّهُم مُثلَةً وَنَكَالًا لِئَلَّا يَقْتَدِيَ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ رَعِيَّتِهِ وَأَهْلِ مِلَّتِهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. أَيْ: عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، لِأَنَّهَا أَعْلَى وَأَشْهَرُ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يَعْنِي: فِي الدُّنْيَا.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: ٧٢] أَيْ: لَنْ نُطِيعَكَ وَنَتْرُكَ مَا وَقَرَ فِي قُلُوبِنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ القَاطِعَاتِ، ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قِيلَ: مَعْطُوفٌ، وَقِيلَ: قَسَمٌ. ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أَيْ: فَافْعَلْ مَا قَدرْتَ عَلَيْهِ. ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أَيْ: إِنَّمَا حُكْمُكَ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِذَا انْتَقَلْنَا مِنْهَا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ صِرْنَا إِلَى حُكْمِ الَّذِي أَسْلَمْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَا رُسُلَهُ.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أَي: وَثَوَابُهُ خَيْرٌ مِمَّا وَعَدْتَنَا بِهِ مِنَ التَّقْرِيبِ وَالتَّرْغِيبِ، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أَيْ: وَأَدْوَمُ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ.

وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١] أَيْ: مَا اجْتَرَمْنَاهُ مِنَ المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ. ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: مِنَ القِبْطِ؛ بِمُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ.

وَقَالُوا لَهُ أَيْضًا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦] أَيْ: لَيْسَ لَنَا عِنْدَكَ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانُنَا بِمَا جَاءَنَا بِهِ رَسُولُنَا، وَاتِّبَاعُنَا آيَاتِ رَبِّنَا لما جاءتنا، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيْ: ثَبِّتْنَا عَلَى مَا ابْتُلِينَا بِهِ مِنْ عُقُوبَةِ هَذَا الجَبَّارِ العَنِيدِ، وَالسُّلْطَانِ الشَّدِيدِ، بَلِ الشَّيْطَانِ المَرِيدِ، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وَقَالُوا أَيْضًا يَعِظُونَهُ وَيُخَوِّفُونَهُ بَأْسَ رَبِّهِ العَظِيمِ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. يَقُولُونَ لَهُ: فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ! فَكَانَ مِنْهُمْ. ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥] أَي: المَنَازِلُ العَالِيَةُ. ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦]؛ فَاحْرِصْ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ! فَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْأَقْدَارُ الَّتِي لَا تُغَالَبُ وَلَا تُمَانَعُ، وَحُكْمُ العَلِيِّ العَظِيمِ؛ بِأَنَّ فِرْعَوْنَ -لَعَنَهُ اللهُ- مِنْ أَهْلِ الجَحِيمِ، لِيُبَاشِرَ العَذَابَ الْأَلِيمَ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ الحَمِيمُ، وَيُقَالُ لَهُ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ -وَهُوَ المَقْبُوحُ المَنْبُوحُ والذَّمِيمُ اللَّئِيمُ-: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

وَالظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ أَنَّ فِرْعَوْنَ -لَعَنَهُ اللهُ- صَلَبَهُمْ وَعَذَّبَهُمْ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: كَانُوا مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً؛ فَصَارُوا مِنْ آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً!

وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُمْ: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

فَصْلٌ: وَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنَ الْأَمْرِ العَظِيمِ، وَهُوَ الغَلَبُ الَّذِي غُلِبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنَ القِبْطِ فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ الهَائِلِ، وَأَسْلَمَ السَّحَرَةُ الَّذِينَ اسْتَنْصَرُوا بِهِم؛ لَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا وَبُعْدًا عَنِ الْحَقِّ. قَالَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ قَصَصِ مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩]. يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ المَلَأِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالكُبَرَاءُ، أَنَّهُمْ حَرَّضُوا مَلِكَهُمْ فِرْعَوْنَ عَلَى أَذِيَّةِ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَمُقَابَلَتِهِ بَدَلَ التَّصْدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ بِالْكُفْرِ وَالرَّدِّ والأَذَى.

قَالُوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؛ يَعْنُونَ -قَبَّحَهُمُ اللهُ- أَنَّ دَعْوَتَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالنَّهْيِ عَن عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ فَسَادٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِ القِبْطِ -لَعَنَهُم اللهُ-، وَقَرَأَ بَعْضُهُم: ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ﴾ أَيْ: وَعِبَادَتَكَ. وَيَحْتَمِلُ شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: وَيَذَرُ دِينَكَ، وتُقَوِّيهِ القِرَاءَةُ الأُخْرَى. وَالثَّانِي: وَيَذَرُ أَن يَعْبُدَكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِلَهٌ -لَعَنَهُ اللهُ-.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أَي: لِئَلَّا يَكْثُر مُقَاتِلَتهم. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أَي: غَالِبُون. ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ أَيْ: إِذَا هَمُّوا هُمْ بِأَذِيَّتِكُمْ وَالفَتْكِ بِكُمْ، فَاسْتَعِينُوا أَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ وَاصْبِرُوا عَلَى بَلِيَّتِكُمْ. ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي: فَكُونُوا أَنْتُم المُتَّقِينَ لِتَكونَ لَكُم العَاقِبَة، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

وَقَوْلهمْ: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أَيْ: قَدْ كَانَتِ الْأَبْنَاءُ تُقَتَّلُ قَبْلَ مَجِيئِكَ وَبَعْدَ مَجِيئِكَ إِلَيْنَا، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ حم الْمُؤْمِنِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]. وَكَانَ فِرْعَوْنُ المَلِكَ،

وَهَامَانُ الوَزِيرَ، وَكَانَ قَارُونُ إِسْرَائِيلِيًّا مِنْ قَوْمِ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَكَانَ ذَا مَالٍ جَزِيلٍ جِدًّا. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥].

وَهَذَا القَتْلُ لِلْغِلْمَانِ مِنْ بَعْدِ بِعْثَةِ مُوسَى إِنَّمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ وَالتَّقْلِيلِ لِمَلَأِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِئَلَّا تَكُونَ لَهُمْ شَوْكَةٌ يَمْتَنِعُونَ بِهَا أَوْ يَصُولُونَ عَلَى القِبْطِ بِسَبَبِهَا، وَكَانَتِ القِبْطُ مِنْهُمْ يَحْذَرُونَ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرُدَّ عَنْهُمْ قَدَرَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ؛ فَيَكُونُ. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. وَلِهَذَا يَقُولُ النَّاسُ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ: «صَارَ فِرْعَوْنُ مُذَكِّرًا!». وَهَذَا مِنْهُ؛ فَإِنَّ فِرْعَوْنَ فِي زَعْمِهِ خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُضِلَّهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] أَيْ: عُذْتُ بِاللهِ وَلَجَأْتُ إِلَيْهِ وَاسْتَجَرْتُ بِجَنَابِهِ مِن أَن يَسْطُو فِرْعَوْن وَغَيْرُه عَلَيَّ بِسُوء. وَقَوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أَيْ: جَبَّارٍ عَنِيدٍ لَا يَرْعَوِي وَلَا يَنْتَهِي، وَلَا يَخَافُ عَذَابَ اللهِ وَعِقَابَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ مَعَادًا وَلَا جَزَاءً. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨-٢٩].

وَهَذَا الرَّجُلُ هُوَ ابْنُ عَمِّ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ مِنْ قَوْمِهِ خَوْفًا مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ.

وَزَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا، وَهُوَ بَعِيدٌ وَمُخَالِفٌ لِسِيَاقِ الكَلَامِ لَفْظًا وَمَعْنًى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يُؤْمِنْ مِنَ القِبْطِ بِمُوسَى إِلَّا هَذَا، وَالَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ، وَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ، فَلَمَّا هَمَّ فِرْعَوْنُ -لَعَنَهُ اللهُ- بِقَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَزَمَ عَلَى ذَلِكَ وَشَاوَرَ مَلَأَهُ فِيهِ، خَافَ هَذَا المُؤْمِنُ عَلَى مُوسَى، فَتَلَطَّفَ فِي رَدِّ فِرْعَوْنَ بِكَلَامٍ جَمَعَ فِيهِ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب؛ فَقَالَ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى وَجْهِ الْمَشُورَةِ وَالرَّأْيِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**» [السلسلة الصحيحة (٤٩١)][1].

وَهَذَا مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ هَذَا المَقَام، فَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَا يَكُونُ أَشَدَّ جَوْرًا مِنْهُ، وَهَذَا الكَلَامُ لَا أَعْدَلَ مِنْهُ؛ لِأَنَّ فِيهِ عِصْمَةَ دَمِ نَبِيٍّ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَشَارَ لَهُمْ بِإِظْهَارِ إِيمَانِهِ، وَصَرَّحَ لَهُمْ بِمَا كَانَ يَكْتُمُهُ. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ**﴾ أَيْ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَالَ رَبِّيَ اللهُ! فَمِثْلُ هَذَا لَا يُقَابَل بِهَذَا، بَلْ بِالإِكْرَامِ وَالاحترَام، أَو المُوَادَعَة وَتَرْكِ الانْتِقَام. يَعْنِي: لأَنَّهُ ﴿**قَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ أَيْ: بِالخَوَارِقِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ، فَهَذَا إِنْ وَادَعْتُمُوهُ كُنْتُم فِي سَلامَة، لأَنَّهُ ﴿**إِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ**﴾ وَلَا يَضُرُّكُم ذَلِك، ﴿**وَإِن يَكُ صَادِقًا**﴾ وَقَدْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُ ﴿**يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ**﴾ أَيْ: وَأَنْتُمْ تُشْفِقُونَ أَنْ يَنَالكُمْ أَيْسَرُ جَزَاءٍ مِمَّا يَتَوَعَّدُكُمْ بِهِ، فَكَيْفَ بِكُمْ إِنَّ حَلَّ جَمِيعُهُ عَلَيْكُمْ؟! وَهَذَا الكَلَامُ فِي هَذَا المَقَامِ مِنْ أَعْلَى مَقَامَاتِ التَّلَطُّفِ وَالاِحْتِرَازِ وَالعَقْلِ التَّامِّ.

وَقَوله: ﴿**يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ يُحَذِّرُهُمْ أَنْ يُسْلَبُوا هَذَا المُلْكَ العَزِيزَ، فَإِنَّهُ مَا تَعَرَّضَتِ الدُّوَلُ لِلدِّينِ إِلَّا سُلِبُوا مُلْكَهُمْ وَذَلُّوا بَعْدَ عِزِّهِمْ. وَكَذَا وَقَعَ لِآلِ فِرْعَوْنَ، مَا زَالُوا فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ، وَمُخَالَفَةٍ وَمُعَانَدَةٍ لِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى حَتَّى أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ المُلْكِ وَالْأَمْلَاكِ وَالدُّورِ وَالقُصُورِ، وَالنِّعْمَةِ وَالحُبُورِ، ثُمَّ حُوِّلُوا إِلَى البَحْرِ مُهَانِينَ، وَنُقِلَتْ أَرْوَاحُهُمْ بَعْدَ العُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ. وَلِهَذَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ المُؤْمِنُ الصَّادِقُ، البَارُّ الرَّاشِدُ، التَّابِعُ

---

(١) قَالَ العَلامَة عَبد المُحْسِن بن حَمَد العَبَّاد البَدر: «وَهَذَا الحَدِيثُ لَا يُسْتفَادُ مِنْهُ مَشْرُوعِيَّةُ الكَلَام عَلَى أَخْطَاءِ الوُلَاةِ عَلَى المَنَابِرِ! لِأَنَّ هَذَا تَشْهِيرٌ وَإِيذَاءٌ، وَالإِنْسَانُ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يُنْصَحَ عَلَى المَنَابِرِ، وَأَنْ يُشَهَّرَ بِهِ عَلَى المَنَابِرِ، وَأَنْ يُتَكَلَّمَ مَعَهُ بِحَضْرَةِ النَّاسِ!» [شرح سنن أبي داود].

لِلْحَقِّ النَّاصِحُ لِقَوْمِهِ، الكَامِلُ العَقْلِ: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: عَالِينَ عَلَى النَّاسِ حَاكِمِينَ عَلَيْهِمْ، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟! أَيْ: لَوْ كُنْتُمْ أَضْعَافَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ العَدَدِ وَالعُدَّةِ، وَالقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ؛ لَمَا نَفَعَنَا ذَلِكَ، وَلَا رَدَّ عَنَّا بَأْسَ مَالِكِ المَمَالِكِ!

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أَيْ: فِي جَوَابِ هَذَا كُلِّهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أَيْ: مَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا مَا عِنْدِي، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وَكَذَبَ فِي كُلٍّ مِنْ هَذَيْنِ القَوْلَيْنِ وَهَاتَيْنِ المُقَدِّمَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يَتَحَقَّقُ فِي بَاطِنِهِ وَفِي نَفْسِهِ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا مَحَالَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ يُظْهِرُ خِلَافَهُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا وَعُتُوًّا وَكُفْرَانًا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٢-١٠٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ فَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى رَشَادٍ مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ كَانَ عَلَى سَفَهٍ وَضَلَالٍ وَخَبَلٍ وخَيَالٍ، وَكَانَ أَوَّلًا مِمَّنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَالْأَمْثَالَ، ثُمَّ دَعَا قَوْمَهُ الجَهَلَةَ الضُّلَّالَ إِلَى أَنِ اتَّبَعُوهُ وَطَاوَعُوهُ، وَصَدَّقُوهُ فِيمَا زَعَمَ مِنَ الكُفْرِ المُحَالِ فِي دَعْوَاهُ: أَنَّهُ رَبٌّ! تَعَالَى اللهُ ذُو الجَلَالِ!

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٠-٢٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦-٩٩]. وَالمَقْصُودُ: بَيَانُ كَذِبِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٠-٣٥]. يُحَذِّرُهُمْ وَلِيُّ اللهِ إِنْ كَذَّبُوا بِرَسُولِ اللهِ مُوسَى أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِم مِن النَّقَمَاتِ وَالمَثُلات، مِمَّا تَوَاتَر عِنْدَهُم وَعِندَ غَيرِهِم، مِمَّا حَلَّ بِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى زَمَانِهِم ذَلِك، مِمَّا أَقَامَ بِهِ الحُجَجَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً، فِي صِدْقِ مَا جَاءَت بِهِ الأَنْبِيَاء، بِمَا أَنْزَلَ مِنَ النِّقْمَةِ بِمُكَذِّبِيهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَمَا أَنْجَى اللهُ مَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَخَوَّفَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهُوَ يَوْمُ التَّنَادِ، أَيْ: حِينَ يُنَادِي النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حِينَ يُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ إِنْ قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ؛ ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠-١٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦].

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِّ﴾ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، أَيْ: يَوْمَ الفِرَارِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ يُحِلُّ اللهُ بِهِمُ الْبَأْسَ، فَيَوَدُّونَ الفِرَارَ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ؛ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣].

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ عَنْ نُبُوَّةِ يُوسُفَ فِي بِلَادِ مِصْرَ، ومَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى الخَلْقِ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، وَهَذَا مِنْ سُلَالَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، وَأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ أَحَدًا مِنْ بَرِيَّتِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، أَنَّ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ التَّكْذِيبَ بِالحَقِّ وَمُخَالَفَةَ الرُّسُلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أَيْ: وَكَذَّبْتُمْ فِي هَذَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أَيْ: يَرُدُّونَ حُجَجَ اللهِ وَبَرَاهِينَهُ وَدَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ عِنْدَهُمْ مِنَ اللهِ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ يَمْقُتُهُ اللهُ غَايَةَ المَقْتِ؛ أَيْ: يُبْغِضُ مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، وَمَنِ اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الخَلْقِ.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾؛ قُرِئَ بِالْإِضَافَةِ: ﴿قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾، وَبِالنَّعْتِ: ﴿قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ؛ أَيْ: هَكَذَا إِذَا خَالَفَتِ القُلُوبُ الحَقَّ -وَلَا تُخَالِفُهُ إِلَّا بِلَا بُرْهَانٍ-، فَإِنَّ اللهَ يَطْبَعُ عَلَيْهَا؛ أَيْ: يَخْتِمُ عَلَيْهَا بِمَا فِيهَا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. كَذَّبَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَاهُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، وَزَعَمَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ مَا كَذَّبَهُ وَافْتَرَاهُ؛ فِي قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أَيْ: طُرُقَهَا وَمَسَالِكَهَا، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾. وَيَحْتَمِلُ هَذَا مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا فِي قَوْلِهِ إِنَّ لِلْعَالَمِ رَبًّا غَيْرِي. وَالثَّانِي: فِي دَعْوَاهُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ.

وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ بِظَاهِرِ حَالِ فِرْعَوْنَ فَإِنَّهُ كَانَ يُنْكِرُ ظَاهِرًا إِثْبَاتَ الصَّانِعِ. وَالثَّانِي أَقْرَبُ إِلَى اللَّفْظِ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أَيْ: فَأَسْأَلَهُ هَلْ أَرْسَلَهُ أَمْ لَا؟ ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أَيْ: فِي دَعْوَاهُ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا كَانَ مَقْصُودُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ تَصْدِيقِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى

تَكْذِيبِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وَقُرِئَ: ﴿وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: يَقُولُ: إِلَّا فِي خَسَار، أَي: بَاطِل، لَا يَحْصُلُ لَهُ شَيْءٌ مِنْ مَقْصُودِهِ الَّذِي رَامَهُ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْبَشَرِ أَنْ يَتَوَصَّلُوا بِقُوَاهُمْ إِلَى نَيْلِ السَّمَاءِ أَبَدًا -أَعْنِي السَّمَاءَ الدُّنْيَا- فَكَيْفَ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ السَّمَاوَاتِ العُلَى، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الِارْتِفَاعِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ. وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذَا الصَّرْحَ -وَهُوَ القَصْرُ الَّذِي بَنَاهُ وَزِيرُهُ هَامَان لَهُ- لَمْ يُرَ بِنَاءٌ أَعْلَى مِنْهُ، وَأَنَّهُ كَانَ مَبْنِيًّا مِنَ الْآجُرِّ المَشْوِيِّ بِالنَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾.

وَعِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يُسَخَّرُونَ فِي ضَرْبِ اللَّبِنِ، وَكَانَ مِمَّا حَمَلُوا مِنَ التَّكَالِيفِ الفِرْعَوْنِيَّةِ أَنَّهُمْ لَا يُسَاعَدُونَ عَلَى شيءٍ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِيهِ، بَلْ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ تُرَابَهُ وَتِبْنَهُ وَمَاءَهُ، وَيُطْلَبُ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ قِسْطٌ مُعَيَّنٌ، إِنْ لَمْ يَفْعَلُوهُ ضُرِبُوا وَأُهِينُوا غَايَةَ الْإِهَانَةِ وَأُوذُوا غَايَةَ الْأَذِيَّةِ. وَلِهَذَا قَالُوا لِمُوسَى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فَوَعَدَهُمْ بِأَنَّ العَاقِبَةَ لَهُمْ عَلَى القِبْطِ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ.

وَلْنَرْجِعْ إِلَى نَصِيحَةِ المُؤْمِنِ وَمَوْعِظَتِهِ وَاحْتِجَاجِهِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠].

يَدْعُوهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ وَالحَقِّ، وَهِيَ مُتَابَعَةُ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ، ثُمَّ زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ الفَانِيَةِ المُنْقَضِيَةِ لَا مَحَالَةَ، وَرَغَّبَهُمْ فِي طَلَبِ الثَّوَابِ عِنْدَ اللهِ الَّذِي لَا يُضَيِّعُ عَمَلَ عَامِلٍ لَدَيْهِ، القَدِيرِ الَّذِي مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدَيْهِ، الَّذِي يُعْطِي عَلَى القَلِيلِ كَثِيرًا، وَمِنْ عَدْلِهِ لَا يُجَازِي عَلَى السَّيِّئَةِ إِلَّا مِثْلَهَا. وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ الَّتِي مَنْ وَافَاهَا مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ؛ فَلَهُ الجَنَّاتُ العَالِيَاتُ، وَالغُرَفُ الْآمِنَاتُ، وَالخَيْرَاتُ الكَثِيرَةُ الفَائِقَاتُ، وَالْأَرْزَاقُ الدَّائِمَةُ الَّتِي لَا تَبِيدُ، وَالخَيْرُ الَّذِي كُلُّ مَا لَهُمْ مِنْهُ فِي مَزِيدٍ.

ثُمَّ شَرَعَ فِي إِبْطَالِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِمَّا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠-٤٦].

كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ؛ فَيَكُونُ.

وَهُمْ يَدْعُونَهُ إِلَى عِبَادَةِ فِرْعَوْنَ الجَاهِلِ الضَّالِّ المَلْعُونِ!

وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ بُطْلَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَى اللهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ مِنْ نَفْعٍ وَلَا إِضْرَارٍ.

فَقَالَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أَيْ: لَا تَمْلِكُ تَصَرُّفًا وَلَا حُكْمًا فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ تَمْلِكُهُ يَوْمَ القَرَارِ؟!

وَأَمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ الخَالِقُ الرَّازِقُ لِلْأَبْرَارِ وَالفُجَّارِ، وَهُوَ الَّذِي أَحْيَا العِبَادَ، وَيُمِيتُهُمْ وَيَبْعَثُهُمْ، فَيُدْخِلُ طَائِعَهُمُ الجَنَّةَ، وَعَاصِيَهُمُ إِلى النَّار.

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ إِنْ هُمُ اسْتَمَرُّوا عَلَى العِنَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. قَالَ اللهُ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أَيْ: بِإِنْكَارِهِ سَلِمَ مِمَّا أَصَابَهُمْ مِنَ العُقُوبَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللهِ، وَمَكْرِهِمْ فِي صَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، مِمَّا أَظْهَرُوا لِلْعَامَّةِ مِنَ الخَيَالَاتِ والمُحَالاتِ الَّتِي لَبَّسُوا بِهَا عَلَى عَوَامِّهِمْ وَطَغَامِهِمْ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَحَاقَ﴾ أَيْ: أَحَاطَ. ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أَيْ: تُعْرَضُ أَرْوَاحُهُمْ فِي بَرْزَخِهِمْ صَبَاحًا وَمَسَاءً عَلَى النَّارِ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾. وَتَكَلَّمْنَا عَنْ دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى عَذَابِ القَبْرِ فِي التَّفْسِيرِ، وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الحُجَجِ عَلَيْهِمْ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ، وَإِزَاحَةِ الشُّبَه عَنْهُم، وَأخذ الحُجَّة عَلَيْهِم مِنْهُم، بِالتَّرْهِيبِ تَارَةً وَبالتَّرْغِيبِ أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ ابْتَلَى آلَ فِرْعَوْنَ -وَهُمْ قَوْمُهُ مِنَ القِبْطِ- بِالسِّنِينَ؛ وَهِيَ أَعْوَامُ الجَدْبِ الَّتِي لَا يُسْتَغَلُّ فِيهَا زَرْعٌ وَلَا يُنْتَفَعُ بِضَرْعٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ وَهِيَ قِلَّةُ الثِّمَارِ مِنَ الْأَشْجَارِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. أَيْ: فَلَمْ يَنْتَفِعُوا وَلَمْ يَرْتَدِعُوا، بَلْ تَمَرَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وَهُوَ الخِصْبُ وَنَحْوه، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي نَسْتَحِقُّهُ، وَهَذَا الَّذِي يَلِيقُ بِنَا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أَيْ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشُؤْمِهِمْ أَصَابَنَا؛ وَلَا يَقُولُونَ فِي الْأَوَّلِ: إِنَّهُ بِبَرَكَتِهِمْ وَحُسْنِ مُجَاوَرَتِهِمْ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُنْكِرَةٌ مُسْتَكْبِرَةٌ نَافِرَةٌ عَنِ الحَقِّ، إِذَا جَاءَ الشَّرُّ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ رَأَوْا خَيْرًا ادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: اللهُ يَجْزِيهِمْ عَلَى هَذَا أَوْفَرَ الجَزَاءِ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: مَهْمَا جِئْتَنَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ -وَهِيَ الخَوَارِقُ لِلْعَادَاتِ- فَلَسْنَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا نَتَّبِعُكَ وَلَا نُطِيعُكَ وَلَوْ جِئْتَنَا بِكُلِّ آيَةٍ.

وَهَكَذَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

أَمَّا الطُّوفَانُ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ كَثْرَةُ الْأَمْطَارِ الْمُتْلِفَةِ لِلزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ. وَبِهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالضَّحَّاكُ. **وَأَمَّا الجَرَادُ** فَمَعْرُوفٌ. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «غَزَوْنا مع النبيِّ ﷺ سَبْعَ غَزَواتٍ أوْ سِتًّا، كُنَّا نَأْكُلُ مَعهُ الجَرادَ» [البخاري (٥٤٩٥)].

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ أَهْلَكَ خَضْرَاءَهُمْ، فَلَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ زُرُوعًا وَلَا ثِمَارًا، وَلَا سَبَدًا وَلَا لَبَدًا.

وَأَمَّا الْقُمَّلُ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الحِنْطَةِ، وَعَنْهُ: أَنَّهُ الجَرَادُ الصِّغَارُ الَّذِي لَا أَجْنِحَةَ لَهُ. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالحَسَنُ: هُوَ دَوَابُّ سُودٌ صِغَارٌ. وَقَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هِيَ البَرَاغِيثُ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ أَنَّهَا الحَمْنَانُ. وَهُوَ صِغَارُ القِرْدَانِ فَوْقَ القَمْقَامَةِ، فَدَخَلَ مَعَهُمُ البُيُوتَ وَالفُرُشَ، فَلَمْ يَقِرَّ لَهُمْ قَرَارٌ، وَلَمْ يُمْكِنْهُمْ مَعَهُ الغَمْضُ وَلَا العَيْشُ. وَفَسَّرَهُ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ بِهَذَا القَمْلِ المَعْرُوفِ. وَقَرَأَهَا الحَسَنُ البَصْرِيُّ كَذَلِكَ بِالتَّخْفِيفِ. **وَأَمَّا الضَّفَادِعُ** فَمَعْرُوفَةٌ، لَبِسَتْهُمْ حَتَّى كَانَتْ تَسْقُطُ فِي أَطْعِمَاتِهِمْ وَأَوَانِيهِمْ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا فَتَحَ فَمَهُ لِطَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ، سَقَطَتْ فِي فِيهِ ضِفْدِعَةٌ مِنْ تِلْكَ الضَّفَادِعِ. **وَأَمَّا الدَّمُ** فَكَانَ قَدْ مُزِجَ مَاؤُهُمْ كُلُّهُ بِهِ، فَلَا يَسْتَقُونَ مِنَ النِّيلِ شَيْئًا إِلَّا وَجَدُوهُ دَمًا عَبِيطًا، وَلَا مِنْ نَهْرٍ وَلَا بِئْرٍ وَلَا شَيْءٍ إِلَّا كَانَ دَمًا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ.

هَذَا كُلُّهُ؛ وَلَمْ يَنَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بِالكُلِّيَّةِ! وَهَذَا مِنْ تَمَامِ المُعْجِزَةِ البَاهِرَةِ وَالحُجَّةِ القَاطِعَةِ؛ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ عَنْ فِعْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَنَالُهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَلَا يَحْصُلُ هَذَا لِأَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ وَفِي هَذَا أَدَلُّ دَلِيلٍ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦].

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى الضَّلَالِ وَالجَهْلِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ، مَعَ مَا أَيَّدَهُ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ العَظِيمَةِ البَاهِرَةِ، وَالحُجَجِ البَلِيغَةِ القَاهِرَةِ، الَّتِي أَرَاهُمُ اللهُ إِيَّاهَا عِيَانًا، وَجَعَلَهَا عَلَيْهِمْ دَلِيلًا وَبُرْهَانًا. وَكُلَّمَا شَاهَدُوا آيَةً وَعَايَنُوهَا، وَجَهِدَتْهُمْ وَأَضْنَكَتْهُمْ، حَلَفُوا وَعَاهَدُوا مُوسَى؛ لَئِنْ كَشَفَ عَنْهُمْ هَذِهِ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَيُرْسِلُنَّ مَعَهُ مَنْ هُوَ مِنْ حِزْبِهِ، فَكُلَّمَا رُفِعَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْآيَةُ عَادُوا إِلَى شَرٍّ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، وَأَعْرَضُوا عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الحَقِّ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ آيَةً أُخْرَى، هِيَ أَشَدُّ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَهَا وَأَقْوَى، فَيَقُولُونَ

وَيَكْذِبُونَ، وَيَعِدُونَ وَلَا يَفُونَ؛ ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فَيُكْشَفُ عَنْهُمْ ذَلِكَ العَذَابُ الوَبِيلُ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى جَهْلِهِمُ العَرِيضِ الطَّوِيلِ. هَذَا، وَالعَظِيمُ الحَلِيمُ القَدِيرُ يُنْظِرُهُمْ وَلَا يَعْجَلُ عَلَيْهِمْ، وَيُؤَخِّرُهُمْ وَيَتَقَدَّمُ بِالوَعِيدِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ -بَعْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ- أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا وَسَلَفًا لِمَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنَ الكَافِرِينَ، وَمَثَلًا لِمَنِ اتَّعَظَ بِهِمْ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ القَائِلِينَ، فِي سُورَةِ حم وَالكِتَابِ المُبِينِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٦].

يَذْكُرُ تَعَالَى إِرْسَالَهُ عَبْدَهُ الكَلِيمَ الكَرِيمَ إِلَى فِرْعَوْنَ الخَسِيسِ اللَّئِيمِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَيَّدَ رَسُولَهُ بِآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ تَسْتَحِقُّ أَن تُقَابَلَ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّصْدِيقِ، وَأَن يَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الكُفْرِ وَيَرْجِعُوا إِلَى الحَقِّ وَالصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، فَإِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ، وَبِهَا يَسْتَهْزِئُونَ، وَعَن سَبِيلِ اللهِ يَصُدُّون، وَعَنِ الحَقِّ يَنْصَرِفُونَ. فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ تَتْرَى يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَكُلُّ آيَةٍ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا الَّتِي تَتْلُوهَا؛ لِأَنَّ التَّوْكِيدَ أَبْلَغُ مِمَّا قَبْلَهُ، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ لَمْ يَكُنْ لَفْظُ السَّاحِرِ فِي زَمَانِهِمْ نَقْصًا وَلَا عَيْبًا؛ لِأَنَّ عُلَمَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ هُمُ السَّحَرَةُ؛ وَلِهَذَا خَاطَبُوهُ بِهِ فِي حَالِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، وَضَرَاعَتِهِمْ لَدَيْهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَجُّحِ فِرْعَوْنَ بِمُلْكِهِ وَعَظْمَةِ بَلَدِهِ وَحُسْنِهَا وَتَخَرُّقِ الْأَنْهَارِ فِيهَا، وَهِيَ الخُلْجَانُ الَّتِي يَكْسِرُونَهَا أَيَّامَ زِيَادَةِ النِّيلِ، ثُمَّ تَبَجَّحَ بِنَفْسِهِ وَحِلْيَتِهِ وَأَخَذَ يَتَنَقَّصُ رَسُولَ اللهِ مُوسَى

عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَزْدَرِيهِ بِكَوْنِهِ ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يَعْنِي: كَلَامَهُ، بِسَبَبِ مَا كَانَ فِي لِسَانِهِ مِنْ بَقِيَّةِ تِلْكَ اللُّثْغَةِ، الَّتِي هِيَ شَرَفٌ لَهُ وَكَمَالٌ وَجَمَالٌ، وَلَمْ تَكُنْ مَانِعَةً لَهُ أَنْ كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى وَأَوْحَى إِلَيْهِ، وَأَنْزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ التَّوْرَاةَ عَلَيْهِ. وَتَنَقَّصَهُ فِرْعَوْنُ -لَعَنَهُ اللهُ- بِكَوْنِهِ لَا أَسَاوِرَ فِي يَدَيْهِ وَلَا زِينَةَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ حِلْيَةِ النِّسَاءِ، لَا يَلِيقُ بِشَهَامَةِ الرِّجَالِ، فَكَيْفَ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ عَقْلًا، وَأَتَمُّ مَعْرِفَةً، وَأَعْلَى هِمَّةً، وَأَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْلَمُ بِمَا أَعَدَّ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي الْأُخْرَى!

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؛ لَا يَحْتَاجُ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ؛ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ أَنْ تُعَظِّمَهُ الْمَلَائِكَةُ؛ فَالمَلَائِكَةُ يُعَظِّمُونَ وَيَتَوَاضَعُونَ لِمَنْ هُوَ دُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَثِيرٍ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ» [صحيح الجامع (٦٢٩٧)].

فَكَيْفَ يَكُونُ تَوَاضُعُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ لِمُوسَى الكَلِيمِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ وَالتَّكْرِيمُ-؟ وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ شَهَادَتَهُمْ لَهُ بِالرِّسَالَةِ، فَقَدْ أُيِّدَ مِنَ المُعْجِزَاتِ بِمَا يَدُلُّ قَطْعًا لِذَوِي الْأَلْبَابِ وَلِمَنْ قَصَدَ إِلَى الحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَيَعْمَى عَمَّا جَاءَ بِهِ مِنَ البَيِّنَاتِ وَالحُجَجِ الوَاضِحَاتِ مَنْ نَظَرَ إِلَى القُشُورِ، وَتَرَكَ لُبَّ اللُّبَابِ، وَطَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ رَبُّ الْأَرْبَابِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ، كَمَا هُوَ حَالُ فِرْعَوْنَ القِبْطِيِّ العَمِيِّ الكَذَّابِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أَيْ: اسْتَخَفَّ عُقُولَهُمْ وَدَرَّجَهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ إِلَى أَنْ صَدَّقُوهُ فِي دَعْوَاهُ الرُّبُوبِيَّةَ -لَعَنَهُ اللهُ، وَقَبَّحَهُمْ- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أَيْ: أَغْضَبُونَا. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيْ: بِالغَرَقِ، وَالْإِهَانَةِ، وَسَلْبِ العِزِّ، وَالتَّبَدُّلِ بِالذُّلِّ، وبِالعَذَابِ بَعدَ النِّعْمَةِ، وَالهَوَانِ بَعْدَ الرَّفَاهِيَةِ، وَالنَّارِ بَعْدَ طِيبِ العَيْشِ -عِيَاذًا بِاللهِ العَظِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنْ ذَلِكَ-، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أَيْ: لِمَنِ اتَّبَعَهُمْ فِي الصِّفَاتِ، ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أَيْ: لِمَنِ اتَّعَظَ بِهِمْ وَخَافَ مِنْ وَبِيلِ مَصْرَعِهِمْ، مِمَّنْ بَلَغَهُ جَلِيَّةُ خَبَرِهِمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ

﴿وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٦-٤٢].

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ، وَادَّعَى مَلِكُهُمُ البَاطِلَ وَوَافَقُوهُ عَلَيْهِ وَأَطَاعُوهُ فِيهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ الرَّبِّ القَدِيرِ العَزِيزِ -الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ- عَلَيْهِمْ، فَانْتَقَمَ مِنْهُمْ أَشَدَّ الِانْتِقَامِ، وَأَغْرَقَهُ هُوَ وَجُنُودَهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُم دَيَّار، بَلْ كُلٌّ قَدْ غَرِقَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ لَعْنَةً بَيْنَ العَالَمِينَ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ.

ذِكْرُ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ:

لَمَّا تَمَادَى قِبْطُ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ مُتَابَعَةً لِمَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ، وَمُخَالَفَةً لِنَبِيِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بن عِمْرَان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أَقَامَ اللهُ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ الحُجَجَ العَظِيمَةَ القَاهِرَةَ، وَأَرَاهُمْ مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ مَا بَهَرَ الْأَبْصَارَ وَحَيَّرَ العُقُولَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرْعَوُونَ وَلَا يَنْتَهُونَ، وَلَا يَنْزِعُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ، وَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ. قِيلَ: ثَلَاثَةٌ: وَهُمُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ -وَلَا عِلْمَ لِأَهْلِ الكِتَابِ بِخَبَرِهَا-، وَمُؤْمِن آل فِرْعَوْن -الَّذِي تَقَدَّمَت حِكَايَةُ مَوْعِظَتِهِ وَمَشُورَتِهِ وَحُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ-، وَالرَّجُلُ النَّاصِحُ -الَّذِي جَاءَ يَسْعَى مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾-. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ.

وَمُرَادُهُ -ثَلَاثَةٌ- غَيْرُ السَّحَرَةِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْقِبْطِ. وَقِيلَ: بَلْ آمَنَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنَ القِبْطِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَالسَّحَرَةُ كُلُّهُمْ وَجَمِيعُ شَعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]. فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ عَائِدٌ عَلَى فِرْعَوْنَ لِأَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: عَلَى مُوسَى لِقُرْبِهِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي «التَّفْسِير».

وَإِيمَانُهُمْ كَانَ خُفْيَةً لِمَخَافَتِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَسَطْوَتِهِ، وَجَبَرُوتِهِ وَسُلْطَتِهِ، وَمِنْ مَلَئِهِمْ أَنْ يَنِمُّوا عَلَيْهِمْ إِلَيْهِ فَيَفْتِنَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ. قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ -وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا-: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ

﴿لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: جَبَّارٍ عَنِيدٍ مُسْتَعْلٍ بِغَيْرِ الحَقِّ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَشُئُونِهِ وَأَحْوَالِهِ. وَلَكِنَّهُ جُرْثُومَةٌ قَدْ حَانَ انْجِعَافُهَا، وَثَمَرَةٌ خَبِيثَةٌ قَدْ آنَ قِطَافُهَا، وَمُهْجَةٌ مَلْعُونَةٌ قَدْ حُتِمَ إِتْلَافُهَا. وَعند ذَلِك قَالَ مُوسَى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]. فَأَمرهمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، فَأْتَمَرُوا بِذَلِكَ فَجَعَلَ اللهُ لَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ فَرَجًا وَمَخْرَجًا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]؛ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَن يَتَّخِذَا لِقَوْمِهِمَا بُيُوتًا مُتَمَيِّزَةً فِيمَا بَيْنَهُمْ عَنْ بُيُوتِ القِبْطِ؛ لِيَكُونُوا عَلَى أُهْبَةِ الرَّحِيلِ إِذَا أُمِرُوا بِهِ، لِيَعْرِفَ بَعْضُهُمْ بُيُوتَ بَعْض. وَقوله: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قِيلَ: مَسَاجِدَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَثْرَةُ الصَّلَاةِ فِيهَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالرَّبِيعُ وَالضَّحَّاك وَغَيرهم. وَمَعْنَاهُ عَلَى هَذَا: الِاسْتِعَانَة عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضُّرِّ وَالشِّدَّةِ وَالضِّيقِ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وَ«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى» [صحيح سنن أبي داود (١٣١٩)].

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا حِينَئِذٍ يَقْدِرُونَ عَلَى إِظْهَارِ عِبَادَتِهِمْ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ وَمَعَابِدِهِمْ، فَأُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِم، عِوَضًا عَمَّا فَاتَهُم مِن إِظْهَارِ شَعَائِرِ الدِّينِ الحَقِّ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، الَّذِي اقْتَضَى حَالُهُمْ إِخْفَاءَهُ خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَالْمَعْنَى الأَوَّل أَقْوَى، لقَوْله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَإِنْ كَانَ لَا يُنَافِي الثَّانِيَ أَيْضًا، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أَيْ: مُتَقَابِلَةً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

هَذِهِ دَعْوَةٌ عَظِيمَةٌ دَعَا بِهَا كَلِيمُ اللهِ مُوسَى عَلَى عَدُوِّ اللهِ فِرْعَوْنَ، غَضَبًا -لِلَّهِ- عَلَيْهِ؛ لِتَكَبُّرِهِ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَصَدِّهِ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَمُعَانَدَتِهِ وَعُتُوِّهِ وَتَمَرُّدِهِ، وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى البَاطِلِ، وَمُكَابَرَتِهِ الحَقَّ الوَاضِحَ الجَلِيَّ الحِسِّيَّ وَالمَعْنَوِيَّ وَالبُرْهَانَ القَطْعِيَّ، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾

يَعْنِي: قَوْمَهُ مِنَ الْقِبْطِ، وَمَنْ كَانَ عَلَى مِلَّته ودَانَ بِدِينِهِ. ﴿زِينَةَ وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ أَيْ: وَهَذَا يَغْتَرُّ بِهِ مَنْ يُعَظِّمُ أَمْرَ الدُّنْيَا، فَيَحْسَبُ الجَاهِل أَنَّهُم عَلَى شَيءٍ. ولَكِن هَذِهِ الْأَمْوَال وَهَذِهِ الزِّينَة، مِنَ اللِّبَاسِ وَالمَرَاكِبِ الحَسَنَةِ الهَنِيَّةِ، وَالدُّورِ الْأَنِيقَةِ وَالقُصُورِ المَبْنِيَّةِ، وَالمَآكِلِ الشَّهِيَّةِ وَالمَنَاظِرِ البَهِيَّةِ، وَالمُلْكِ العَزِيزِ وَالتَّمْكِينِ، وَالجَاهِ العَرِيضِ فِي الدُّنْيَا لَا الدِّينِ!

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: أَيْ أَهْلِكْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ اطْبَعْ عَلَيْهَا. وَهَذِهِ دَعْوَةُ غَضَبٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ وَلِبَرَاهِينِهِ. فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى لَهُمَا، وَحَقَّقَهَا وَتَقَبَّلَهَا، كَمَا اسْتَجَابَ لِنُوحٍ فِي قَوْمِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِمُوسَى حِينَ دَعَا عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَأَمَّنَ أَخُوهُ هَارُونُ عَلَى دُعَائِهِ، فَنَزَلَ ذَلِكَ مَنْزِلَةَ الدَّاعِي أَيْضًا: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قَالَ المُفَسِّرُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ: اسْتَأْذَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرْعَوْنَ فِي الخُرُوجِ إِلَى عِيدٍ لَهُمْ، فَأَذِنَ لَهُمْ وَهُوَ كَارِهٌ، وَلَكِنَّهُمْ تَجَهَّزُوا لِلْخُرُوجِ وَتَأَهَّبُوا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ مَكِيدَةٌ بِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، لِيَتَخَلَّصُوا مِنْهُمْ وَيَخْرُجُوا عَنْهُمْ. وَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى - فِيمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الكِتَابِ- أَنْ يَسْتَعِيرُوا حُلِيًّا مِنْهُمْ، فَأَعَارُوهُمْ شَيْئًا كَثِيرًا، فَخَرَجُوا بِلَيْلٍ فَسَارُوا مُسْتَمِرِّينَ ذَاهِبِينَ مِنْ فَوْرِهِمْ، طَالِبِينَ بِلَادَ الشَّامِ. فَلَمَّا عَلِمَ بِذَهَابِهِمْ فِرْعَوْنُ حَنِقَ عَلَيْهِمْ كُلَّ الحَنَقِ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمْ، وَشَرَعَ فِي اسْتِحْثَاثِ جَيْشِهِ وَجَمْعِ جُنُودِهِ لِيَلْحَقَهُمْ وَيَمْحَقَهُمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٨].

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ: لَمَّا رَكِبَ فِرْعَوْنُ فِي جُنُودِهِ طَالِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقْفُو أَثَرَهُمْ، كَانَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمْرَمٍ. وَالمَقْصُودُ: أَنَّ فِرْعَوْنَ لَحِقَهُمْ بِالجُنُودِ، فَأَدْرَكَهُمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَتَرَاءَى الجَمْعَانِ، وَلَمْ يَبْقَ ثَمَّ رَيْبٌ وَلَا لَبْسٌ، وَعَايَنَ كُلٌّ مِنَ الفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ، وَتَحَقَّقَهُ وَرَآهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا المُقَاتَلَةُ وَالمُجَاوَلَةُ وَالمُحَامَاةُ، فَعِنْدَهَا قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى وَهُمْ خَائِفُونَ: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمُ اضْطُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى البَحْرِ، فَلَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ وَلَا مَحِيدٌ إِلَّا سُلُوكُهُ وَخَوْضُهُ، وَهَذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَالجِبَالُ عَنْ يَسْرَتِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ، وَهِيَ شَاهِقَةٌ مُنِيفَةٌ، وَفِرْعَوْنُ قَدْ غَالَقَهُمْ وَوَاجَهَهُمْ، وَعَايَنُوهُ فِي جُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ وَعَدَدِهِ وَعُدَدِهِ، وَهُمْ مِنْهُ فِي غَايَةِ الخَوْفِ وَالذُّعْرِ -لِمَا قَاسَوْا فِي سُلْطَانِهِ مِن الإِهَانَةِ وَالمَكْرِ- فَشَكَوْا إِلَى نَبِيِّ اللهِ مَا هُمْ فِيهِ مِمَّا قَدْ شَاهَدُوهُ وَعَايَنُوهُ. فَقَالَ لَهُم الرَّسُولُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: ﴿**كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾، وَكَانَ فِي السَّاقَةِ -مُؤَخَّرِ الجَيْشِ-، فَتَقَدَّمَ إِلَى المُقَدِّمَةِ، وَنَظَرَ إِلَى البَحْرِ وَهُوَ يَتَلَاطَمُ بِأَمْوَاجِهِ، وَيَتَزَايَدُ زَبَدُ أُجَاجِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: هَاهُنَا أُمِرْتُ! وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ، وَيُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مِنْ سَادَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمُ الكِبَارِ، وَقَدْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَهُ نَبِيًّا بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وَمَعَهُمْ أَيْضًا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَهُمْ وُقُوفٌ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ بِكَمَالِهِمْ عَلَيْهِمْ عُكُوفٌ.

وَيُقَالُ: إِنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ جَعَلَ يَقْتَحِمُ بِفَرَسِهِ مِرَارًا فِي البَحْرِ، هَلْ يُمْكِنُ سُلُوكُهُ؟ فَلَا يُمْكِنُ، وَيَقُولُ لِمُوسَى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَهَاهُنَا أُمِرْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ! فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ وَضَاقَ الحَالُ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ، وَاقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فِي جِدِّهِمْ، وَحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِمْ، وَغَضَبِهِمْ وَحَنَقِهِمْ، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ، وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى الحَلِيمُ العَظِيمُ القَدِيرُ، رَبُّ الْعَرْشِ الكَرِيمِ، إِلَى مُوسَى الْكَلِيمِ: ﴿**أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ**﴾، فَلَمَّا ضَرَبَهُ، يُقَالُ إِنَّهُ قَالَ لَهُ: انْفَلِقْ بِإِذْنِ اللهِ! قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ**﴾، وَهَكَذَا كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ قَائِمًا مِثْلَ الجِبَالِ مَكْفُوفًا بِالقُدْرَةِ العَظِيمَةِ الصَّادِرَةِ عَنِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ! فَيَكُونُ. وَأَمَرَ اللهُ رِيحَ الدَّبُورِ فَلَفَحَتْ حَالَ البَحْرِ -طِينَهُ- فَأَذْهَبَتْهُ حَتَّى صَارَ يَابِسًا لَا يَعْلَقُ فِي سَنَابِكِ الخُيُولِ وَالدَّوَابِّ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم**

﴿مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

وَالمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَمَّا آلَ أَمْرُ البَحْرِ إِلَى هَذِهِ الحَالِ بِإِذْنِ الرَّبِّ العَظِيمِ الشَّدِيدِ المِحَالِ، أُمِرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَجُوزَهُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَانْحَدَرُوا فِيهِ مُسْرِعِينَ، مُسْتَبْشِرِينَ، مُبَادِرِينَ، وَقَدْ شَاهَدُوا مِنَ الْأَمْرِ العَظِيمِ مَا يُحَيِّرُ النَّاظِرِينَ، وَيَهْدِي قُلُوبَ المُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا جَازُوهُ وَجَاوَزُوهُ، وَخَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ، وَانْفَصَلُوا عَنْهُ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ قُدُومِ أَوَّلِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ، وَوُفُودِهِمْ عَلَيْهِ، فَأَرَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَضْرِبَ البَحْرَ بِعَصَاهُ لِيَرْجِعَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ وُصُولٌ إِلَيْهِ، وَلَا سَبِيلٌ عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ القَدِيرُ ذُو الْجَلَالِ، أَنْ يَتْرُكَ البَحْرَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ.

كَمَا قَالَ -وَهُوَ الصَّادِقُ فِي المَقَالِ-: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞا مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ١٧-٣٣].

فَقَوله تَعَالَى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًا﴾ أَيْ: سَاكِنًا عَلَى هَيْئَتِهِ، لَا تُغَيِّرْهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ. فَلَمَّا تَرَكَهُ عَلَى هَيْئَتِهِ وَحَالَتِهِ، وَانْتَهَى فِرْعَوْنُ فَرَأَى مَا رَأَى وَعَايَنَ مَا عَايَنَ، هَالَهُ هَذَا المَنْظَرُ العَظِيمُ، وَتَحَقَّقَ مَا كَانَ يَتَحَقَّقُهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ رَبِّ العَرْشِ الكَرِيمِ، فَأَحْجَمَ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ، وَنَدِمَ فِي نَفْسِهِ عَلَى خُرُوجِهِ فِي طَلَبِهِمْ -وَالحَالَةُ هَذِهِ- حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، لَكِنَّهُ أَظْهَرَ لِجُنُودِهِ تَجَلُّدًا وَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ العِدَا، وَحَمَلَتْهُ النَّفْسُ الكَافِرَةُ وَالسَّجِيَّةُ الفَاجِرَةُ عَلَى أَنْ قَالَ لِمَنِ اسْتَخَفَّهُمْ فَأَطَاعُوهُ وَعَلَى بَاطِلِهِ تَابَعُوهُ: انْظُرُوا كَيْفَ انْحَسَرَ البَحْرُ لِي؛ لِأُدْرِكَ عَبِيدِي الْآبِقِينَ مِنْ يَدِي، الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِي وَبَلَدِي! وَجَعَلَ يُوري فِي نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ خَلْفَهُمْ، وَيَرْجُو أَنْ يَنْجُوَ -وَهَيْهَاتَ-، وَيُقْدِمُ تَارَةً، وَيُحْجِمُ تَارَاتٍ. فَذَكَرُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَبَدَّى فِي صُورَةِ فَارِسٍ رَاكِبٍ عَلَى رَمَكَةٍ حَائِلٍ، فَمَرَّ

بَيْنَ يَدَيْ فَحْلِ فِرْعَوْنَ -لَعَنَهُ اللهُ-، فَحَمْحَمَ إِلَيْهَا، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا، وَأَسْرَعَ جِبْرِيلُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاقْتَحَمَ البَحْرَ وَاسْتَبَقَ الجَوَادَ -وَقَدْ أَجَادَ-، فَبَادَرَ مُسْرِعًا -هَذَا وَفِرْعَوْنُ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا-، فَلَمَّا رَأَتْهُ الجُنُودُ قَدْ سَلَكَ البَحْرَ، اقْتَحَمُوا وَرَاءَهُ مُسْرِعِينَ، فَحَصَلُوا فِي البَحْرِ أَجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ أَبْصَعِينَ، حَتَّى هَمَّ أَوَّلُهُمْ بِالخُرُوجِ مِنْهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى كَلِيمَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ، أَنْ يَضْرِبَ البَحْرَ بِعَصَاهُ، فَضَرَبَهُ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمُ البَحْرُ كَمَا كَانَ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ!

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَيْ: فِي إِنْجَائِهِ أَوْلِيَاءَهُ -فَلَمْ يَغْرَقْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَإِغْرَاقِهِ أَعْدَاءَهُ فَلَمْ يَخْلُصْ مِنْهُمْ أَحَدٌ- آيَةٌ عَظِيمَةٌ وَبُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى العَظِيمَةِ، وَصِدْقِ رَسُولِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الكَرِيمَةِ، وَالمَنَاهِجِ المُسْتَقِيمَةِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢]. يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَيْفِيَّةِ غَرَقِ فِرْعَوْنَ زَعِيمِ كَفَرَةِ القِبْطِ، وَأَنَّهُ لَمَّا جَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَخْفِضُهُ تَارَةً وَتَرْفَعُهُ أُخْرَى، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنُودِهِ مَاذَا أَحَلَّ اللهُ بِهِ وَبِهِمْ مِنَ البَأْسِ العَظِيمِ وَالخَطْبِ الجَسِيمِ، لِيَكُونَ أَقَرَّ لِأَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَشْفَى لِنُفُوسِهِمْ. فَلَمَّا عَايَنَ فِرْعَوْنُ الهَلَكَةَ وَأُحِيطَ بِهِ، وَبَاشَرَ سَكَرَاتِ المَوْتِ أَنَابَ حِينَئِذٍ وَتَابَ، وَآمَنَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وَهَكَذَا دَعَا مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، أَنْ يُطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُشْدَدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيم، أَيْ: حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، وَيَكُونُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لَهُمَا -أَيْ: لِمُوسَى وهَارُون- حِينَ دَعَوا بِهَذَا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، فَهَذَا مِنْ إِجَابَةِ اللهِ تَعَالَى

دَعْوَةَ كَلِيمِهِ وَأَخِيهِ هَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ، قَالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فَقَالَ جِبريلُ: يَا مُحمَّدُ، فَلَو رَأَيْتَنِي وَأَنا آخُذُ مِن حَالِ البَحْرِ -أي: الطِّين- فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَن تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ» [صحيح سنن الترمذي (٣١٠٧)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، وَنَصٌّ عَلَى عَدَمِ قَبُولِهِ تَعَالَى مِنْهُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- لَوْ رُدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا كَانَ لَعَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ!

كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الكُفَّارِ إِذَا عَايَنُوا النَّارَ وَشَاهَدُوهَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. قَالَ اللهُ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: شَكَّ بَعْضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ لَا يَمُوتُ! فَأَمَرَ اللهُ البَحْرَ فَرَفَعَهُ عَلَى مُرْتَفَعٍ، قِيلَ: عَلَى وَجْهِ المَاءِ، وَقِيلَ: عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا مِنْ مَلَابِسِهِ، لِيَتَحَقَّقُوا بِذَلِكَ هَلَاكَهُ، وَيَعْلَمُوا قُدْرَةَ اللهِ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أَيْ: مُصَاحِبًا دِرْعَكَ المَعْرُوفَةَ بِكَ، ﴿لِتَكُونَ﴾ أَيْ: أَنْتَ.

آيَةً ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أَي: مِن بَنِي إِسْرَائِيل، وَدَلِيلًا عَلَى قُدْرَةِ اللهِ الَّذِي أَهْلَكَك؛ وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضُ السَّلَفِ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ: نُنَجِّيكَ مُصَاحِبًا دِرْعَكَ؛ لِيَكُونَ دِرْعُكَ عَلَامَةً لِمَنْ وَرَاءَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَأَنَّكَ هَلَكْتَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ كَانَ هَلَاكُهُ وَجُنُودِهِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ؛ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ، وَاليَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوا» [البخاري (٤٦٨٠)]. وَاللهُ أَعْلَم» [قصص الأنبياء من البداية والنهاية لابن كثير، بتصرُّف. وللاستزادة واستكمال قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، ونكولهم عن القتال، ودخولهم التيه، وسؤال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الرؤية، وقصة عبادتهم العجل، وقصة بقرة بني إسرائيل، وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضر، وقصة قارون، وغير ذلك، وقصص الأنبياء الآخرين، فليُرجع إلى الكتاب المذكور].

تفسير سورة عبس

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُخَاطِبُ بَعْضَ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ، وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ إِذْ أَقْبَلَ ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ -وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا- فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ عَلَيْهِ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُخَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ؛ طَمَعًا وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِ.

وَعَبَسَ فِي وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ أَيْ: يَحْصُلُ لَهُ زَكَاةٌ وَطَهَارَةٌ فِي نَفْسِهِ. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾؛ أَيْ: يَحْصُلُ لَهُ اتِّعَاظٌ وَانْزِجَارٌ عَنِ المَحَارِمِ. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ أَيْ: أَمَّا الغَنِيُّ فَأَنْتَ تَتَعَرَّضُ لَهُ لَعَلَّهُ يَهْتَدِي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ أَيْ: مَا أَنْتَ بِمُطَالَبٍ بِهِ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ زَكَاةٌ. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾؛ أَيْ: يَقْصِدُكَ وَيَؤُمُّكَ لِيَهْتَدِيَ بِمَا تَقُولُ لَهُ، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ أَيْ: تَتَشَاغَلُ. وَمِنْ هَاهُنَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَلَّا يَخُصَّ بِالْإِنْذَارِ أَحَدًا، بَلْ يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ، وَالفَقِيرِ وَالغَنِيِّ، وَالسَّادَةِ وَالعَبِيدِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالصِّغَارِ وَالكِبَارِ.

ثُمَّ اللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَهُ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ وَالحُجَّةُ الدَّامِغَةُ. وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُكَلِّمُ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فَكَانَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْرِمُهُ» [صحيح أسباب النزول للوادعي (٢٦٧)].

قَالَ قَتَادَةُ: وَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: رَأَيْتُهُ يَوْمَ القَادِسِيَّةِ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ وَمَعَهُ رَايَةٌ سَوْدَاء - يَعْنِي: ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ-. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أُنْزِلَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أُمِّ مَكْتومٍ الأَعْمَى، أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرْشِدني، وَعِندَ رَسولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِن عُظَمَاءِ المُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلى الآخَرِ، وَيَقُولُ: **أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا؟** فَيَقُولُ: لا، فَفي هَذا أُنْزِلَ» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٣١)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾؛ أَيْ: هَذِهِ السُّورَةُ، أَوِ الوَصِيَّةُ بِالمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِبْلَاغِ العِلْمِ بَيْنَ شَرِيفِهِمْ وَوَضِيعِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾؛ **يَعْنِي**: القُرْآنَ.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. وَيُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إلى الوَحْيِ؛ لِدَلَالَةِ الكَلَامِ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ أَيْ: هَذِهِ السُّورَةُ أَوِ العِظَةُ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ، بَلْ جَمِيعُ القُرْآنِ. ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾؛ أَيْ: مُعَظَّمَةٍ مُوَقَّرَةٍ.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾؛ أَيْ: عَالِيَةِ القَدْرِ. ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ أَيْ: مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ المَلَائِكَةُ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمُ القُرَّاءُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الصَّحِيحُ أَنَّ السَّفَرَةَ: المَلَائِكَةُ، وَالسَّفَرَةُ: **يَعْنِي**: بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: السَّفِيرُ: الَّذِي يَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الصُّلْحِ وَالخَيْرِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمَـــا أَدَعُ السِّـــفَارَةَ بَـــيْنَ قَـــوْمِي ... وَمَـــا أَمْشِـــي بِغَـــشٍّ إِنْ مَشَـــيْتُ

وَقَالَ البُخَارِيُّ: ﴿سَفَرَةٍ﴾: المَلَائِكَةُ. سَفَرَتْ: أَصْلَحَتْ بَيْنَهُمْ. وَجُعِلَتِ المَلَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللهِ وَتَأْدِيَتِهِ كَالسَّفِيرِ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ القَوْمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾؛ أَيْ: خَلْقُهُم كَرِيمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ، وَأَخْلَاقُهُم وَأَفْعَالُهُم بَارَّةٌ طَاهِرَةٌ كَامِلَةٌ. وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ القُرْآنِ أَنْ يَكُونَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ.

وعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**المَاهِرُ بِالقُرْآنِ مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرَةِ، والذي يَقْرَأُ القُرْآنَ ويَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وهو عليه شاقٌّ، له أَجْرانِ** -وَفي رِوَايَة:- **والذي يَقْرَأُ وَهو يَشْتَدُّ عَلَيهِ لَهُ أَجْرانِ**» [مسلم (٧٩٨)].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ وَالنُّشُورَ مِنْ بَنِي آدَمَ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: لُعِنَ الْإِنْسَانُ. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ. وَهَذَا لِجِنْسِ الْإِنْسَانِ الْمُكَذِّبِ؛ لِكَثْرَةِ تَكْذِيبِهِ بِلَا مُسْتَنَدٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الِاسْتِبْعَادِ وَعَدَمِ العِلْمِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ! وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ: أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَهُ كَافِرًا؟ أَيْ: مَا حَمَلَهُ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالمَعَادِ؟

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾: مَا أَلْعَنَهُ!، وَقَدْ حَكَاهُ البَغَوِيُّ عَنْ مُقَاتِلٍ وَالكَلْبِيِّ. ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى لَهُ كَيْفَ خَلَقَهُ مِنَ الشَّيْءِ الحَقِيرِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ كَمَا بَدَأَهُ، فَقَالَ: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ أَيْ: قَدَّرَ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ثُمَّ يَسَّرَ عَلَيْهِ خُرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؛ أَيْ: بَيَّنَّا لَهُ وَوَضَّحْنَاهُ وَسَهَّلْنَا عَلَيْهِ عَمَلَهُ. وَهَكَذَا قَالَ الحَسَنُ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: إِنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُ، ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُ ذَا قَبْرٍ. وَالعَرَبُ تَقُولُ: قَبَرْتُ الرَّجُلَ: إِذَا وَلِيَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَأَقْبَرَهُ اللهُ. وَعَضَبْتُ قَرْنَ الثَّوْرِ، وَأَعْضَبَهُ اللهُ، وَبَتَرْتُ ذَنَبَ البَعِيرِ، وَأَبْتَرَهُ اللهُ، وَطَرَدْتُ عَنِّي فُلَانًا، وَأَطْرَدَهُ اللهُ، أَيْ: جَعَلَهُ طَرِيدًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: بَعَثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: البَعْثُ وَالنُّشُورُ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ» [مسلم (٢٩٥٥)].

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: كَلَّا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ الكَافِرُ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَدَّى حَقَّ اللهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ يَقُولُ: لَمْ يُؤَدِّ مَا فُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ الفَرَائِضِ لِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قَالَ: لَا يَقْضِي أَحَدٌ أَبَدًا كُلَّ مَا افتُرِضَ عَلَيْهِ. وَحَكَاهُ البَغَوِيُّ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا.

وَلَمْ أَجِدْ لِلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهِ كَلامًا سِوَى هَذَا. وَالَّذِي يَقَعُ لِي فِي مَعْنَى ذَلِكَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْمَعْنَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: بَعَثَهُ. ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: لَا يَفْعَلُهُ الْآنَ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ، وَيَفْرُغَ القَدَرُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ أَنْ سيُوجَدُ مِنْهُمْ وَيُخْرَجُ إِلَى الدُّنْيَا، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ تَعَالَى كَوْنًا وَقَدَرًا، فَإِذَا تَنَاهَى ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ أَنْشَرَ اللهُ الخَلَائِقَ وَأَعَادَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ فِيهِ امْتِنَانٌ، وَفِيهِ اسْتِدْلَالٌ -بِإِحْيَاءِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الهَامِدَةِ- عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَامِ بَعْدَمَا كَانَتْ عِظَامًا بَالِيَةً وَتُرَابًا مُتَمَزِّقًا. ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾؛ أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾؛ أَيْ: أَسْكَنَّاهُ فِيهَا، فَدَخَلَ فِي تُخُومِهَا وَتَخَلَّلَ فِي أَجْزَاءِ الحَبِّ المُودَعِ فِيهَا، فَنَبَتَ وَارْتَفَعَ وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ فَالحَبُّ: كُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنَ الحُبُوبِ، وَالعِنَبُ: مَعْرُوفٌ، وَالقَضْبُ: هُوَ الفِصْفِصَةُ الَّتِي تَأْكُلُهَا الدَّوَابُّ رَطْبَة. وَيُقَالُ لَهَا: القَتُّ -أَيْضًا-، قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: القَضْبُ: العَلَفُ. ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ أُدْمٌ وَعَصِيرُهُ أُدْمٌ، وَيُسْتَصْبَحُ بِهِ، وَيُدَّهَنُ بِهِ. ﴿وَنَخْلًا﴾ يُؤْكَلُ بَلَحًا، وَبُسْرًا، وَرُطَبًا، وَتَمْرًا، وَنَيِّئًا، وَمَطْبُوخًا، وَيُعْتَصَرُ مِنْهُ رُبٌّ وَخَلٌّ. ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾؛ أَيْ: بَسَاتِين. قَالَ الحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿غُلْبًا﴾: نَخْلٌ غِلَاظٌ كِرَامٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: الحَدَائِقُ: كُلُّ مَا الْتَفَّ وَاجْتَمَعَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: ﴿غُلْبًا﴾: الشَّجَرُ الَّذِي يُسْتَظَلُّ بِهِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾؛ أَيْ: طِوَالٌ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿غُلْبًا﴾؛ أَيْ: غِلَاظُ الْأَوْسَاطِ. وَفِي رِوَايَةٍ: غِلَاظُ الرِّقَابِ؛ أَلَمْ تَرَ إِلَى الرَّجُلِ إِذَا كَانَ غَلِيظَ الرَّقَبَةِ قِيلَ: وَاللهِ إِنَّهُ لَأَغْلَبُ. وَأَنْشَدَ ابْنُ جَرِيرٍ لِلْفَرَزْدَقِ:

عَـــوَى فَأَثَـــارَ أَغْلَـــبَ ضَـــيْغَمِيًّا ... فَوَيْـــلَ ابْـــنِ المَرَاغَـــةِ مَـــا اسْـــتَثَارَا

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أَمَّا الفَاكِهَةُ: فَكُلُّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ مِن الثِّمَارِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الفَاكِهَةُ: كُلُّ مَا أُكِلَ رَطْبًا. وَالْأَبُّ: مَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ مِمَّا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَلَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: هُوَ الحَشِيشُ لِلْبَهَائِمِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو مَالِكٍ: الْأَبُّ: الكَلَأُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ، وَالحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَابْنِ زَيْدٍ: الْأَبُّ لِلْبَهَائِمِ كَالفَاكِهَةِ لِبَنِي آدَمَ. وَعَنْ عَطَاءٍ: كُلُّ شَيْءٍ نَبَتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَهُوَ أَبٌّ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كُلُّ شَيْءٍ أَنْبَتَتْهُ الْأَرْضُ سِوَى الفَاكِهَةِ فَهُوَ أَبٌّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَبُّ: الكَلَأُ وَالمَرْعَى. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وَرُوِيَ عَن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؛ إِنْ قلتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟!

وَرُوِيَ عَن عُمَر بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ قَالَ: قَدْ عَرَفْنَا الفَاكِهَة، فَمَا الأَبُّ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلى نَفْسِهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذا لَهُوَ التَّكَلُّفُ يَا عُمَرُ! وَفِي لَفْظٍ: إِنَّ هَذا لَهُوَ التَّكَلُّفُ؛ فَمَا عَلَيْكَ أَنْ لا تَدْرِيهِ؟!

وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ شَكْلَهُ وَجِنْسَهُ وَعَيْنَهُ، وَإِلَّا فَهُوَ وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾؛ أَيْ: عِيشَةً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ القِيَامَةِ، عَظَّمَهُ اللهُ، وحَذَّرَهُ عِبَادَهُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَعَلَّهُ اسْمٌ لِلنَّفْخَةِ فِي الصُّورِ. وَقَالَ البَغَوِيُّ: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ يَعْنِي: صَيْحَةَ القِيامَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأَنَّهَا تَصُخُّ الأَسْمَاعَ؛ أَيْ: تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِهَا حَتَّى تَكَادُ تَصُمُّهَا.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾؛ أَيْ: يَرَاهُمْ، وَيَفِرُّ مِنْهُمْ، وَيَبْتَعِدُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ الهَوْلَ عَظِيمٌ، وَالخَطْبَ جَلِيلٌ. قَالَ عِكْرِمَةُ: يَلْقَى الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ فَيَقُولُ لَهَا: يَا هَذِهِ، أَيَّ بَعْلٍ كُنْتُ لَكِ؟ فَتَقُولُ: نِعْمَ البَعْلُ كُنْتَ! وَتُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَتْ، فَيَقُولُ لَهَا: فَإِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكِ اليَوْمَ حَسَنَةً وَاحِدَةً تَهَبِينَهَا لِي؛ لَعَلِّي أَنْجُو مِمَّا تَرَيْنَ. فَتَقُولُ لَهُ: مَا أَيْسَرَ مَا طَلَبْتَ، وَلَكِنِّي لَا أُطِيقُ أَنْ أُعْطِيَكَ شَيْئًا؛ أَتَخَوَّفُ مِثْلَ الَّذِي تَخَافُ. قَالَ: وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَلْقَى ابْنَهُ فَيَتَعَلَّقُ بِهِ فَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ، أَيَّ وَالِدٍ كُنْتُ لَكَ؟ فَيُثْنِي بِخَيْرٍ. فَيَقُولُ لَهُ: يَا بُنَيَّ، إِنِّي احْتَجْتُ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ حَسَنَاتِكَ لَعَلِّي أَنْجُو بِهَا مِمَّا تَرَى! فَيَقُولُ وَلَدُهُ: يَا أَبَتِ، مَا أَيْسَرَ مَا طَلَبْتَ، وَلَكِنِّي أَتَخَوَّفُ مِثْلَ الَّذِي تَتَخَوَّفُ؛ فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعْطِيَكَ شَيْئًا، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾.

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ -فِي أَمْرِ الشَّفَاعَةِ-: أَنَّهُ إِذَا طُلِبَ إِلَى كُلٍّ مِنْ أُولِي العَزْمِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَ اللهِ فِي الخَلَائِقِ، يَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي[1]؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ

---

(١) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ -وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ- فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنا سَيِّدُ النَّاسِ يومَ القِيامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ويَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَلا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقولُ النَّاسُ: أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلا تَنْظُرُونَ مَن يَشْفَعُ لَكُمْ إِلى رَبِّكُمْ؟ فيقولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُم بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَيَقولونَ لَهُ: أَنْتَ أَبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، ونَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنا إِلى رَبِّكَ، أَلا تَرى إِلى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلا تَرى إِلى مَا قَدْ بَلَغَنا؟ فيقولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فيقولونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنا إِلى رَبِّكَ، أَلا تَرى إِلى ما نَحْنُ فِيهِ؟ فيقولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا على قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلى إِبْراهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْراهِيمَ فيقولونَ: يَا إِبْراهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وخَلِيلُهُ مِن أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنا إِلى رَبِّكَ، أَلا تَرى إِلى مَا نَحْنُ فِيهِ، فيقولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذِباتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلى مُوسى. فَيَأْتُونَ مُوسى فيقولونَ: يَا مُوسى أَنْتَ رَسولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسالَتِهِ وبِكَلامِهِ عَلى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنا إِلى رَبِّكَ، أَلا تَرى إِلى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فيقولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِها، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلى عِيسى ابْنِ مَرْيَمَ. فَيَأْتُونَ عِيسى، فيقولونَ: يَا عِيسى أَنْتَ رَسولُ اللهِ، وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنهُ، وكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنا إِلى رَبِّكَ، أَلا تَرى

﴿وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾. قَالَ قَتَادَةُ: الْأَحَبُّ فَالأَحَب، وَالْأَقْرَبُ فَالأَقْرَب؛ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ اليَوْم.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ أَيْ: هُوَ فِي شُغُل شَاغِلٍ عَنْ غَيْرِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا. فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: أَيُبْصِرُ أَوْ يَرَى بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ؟ قَالَ: يَا فُلَانَةُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٣٢)]. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَيْفَ بِالعَوْرَاتِ؟ قَالَ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾» [صحيح سنن النسائي (٢٠٨٢)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ أَيْ: يَكُونُ النَّاسُ هُنَالِكَ فَرِيقَيْنِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ أَيْ: مُسْتَنِيرَةٌ. ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ أَيْ: مَسْرُورَةٌ فَرِحَةٌ؛ مِنْ سُرُورِ قُلُوبِهِمْ قَدْ ظَهَرَ البِشْرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْجَنَّةِ.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ أَيْ: يَعْلُوهَا وَيَغْشَاهَا قَتَرَةٌ، أَيْ: سَوَادٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أَيْ: يَغْشَاهَا سَوَادُ الوُجُوهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾؛ أَيْ: الكَفَرَةُ قُلُوبُهُم، الفَجَرَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

❁ ❁ ❁

إلى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقولُ عِيسى: إنَّ رَبِّي قدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، ولَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إلى مُحَمَّدٍ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فيَقولونَ: يَا مُحَمَّدُ أنْتَ رَسولُ اللهِ وخَاتَمُ الأنْبِياءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ، ألَا تَرى إلى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأنْطَلِقُ فَآتي تَحْتَ العَرْشِ، فَأقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِن مَحامِدِهِ وحُسْنِ الثَّناءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأرْفَعُ رَأْسِي، فَأقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فيُقالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِن أُمَّتِكَ مَن لا حِسابَ عَلَيْهِم مِنَ البَابِ الأيْمَنِ مِن أبْوابِ الجَنَّةِ، وهُمْ شُرَكاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأبْوابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ مَا بيْنَ المِصْراعَيْنِ مِن مَصارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ -أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى-» [البخاري (٤٧١٢)].

تفسير سورة التكوير

(مكية)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٣٣)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾؛ يَعْنِي: أَظْلَمَتْ. وَعَنْهُ: ذَهَبَتْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: اضْمَحَلَّتْ وَذَهَبَتْ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَهَبَ ضَوْءُهَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: غُوِّرَتْ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيم: رُمِيَ بِهَا. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: أُلْقِيَتْ. وَعَنْهُ أَيْضًا: نُكِّسَتْ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ مِنَ القَوْلِ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ؛ أَنَّ التَّكْوِيرَ: جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ، وَمِنْهُ تَكْوِيرُ العِمَامَةِ؛ وَهُوَ لَفُّهَا عَلَى الرَّأْسِ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿كُوِّرَتْ﴾ أَيْ: جُمِعَ بَعْضُهَا إِلى بَعْض، ثُمَّ لُفَّتْ فَرُمِيَ بِهَا، وَإِذَا فُعِلَ بِهَا ذَلِكَ ذَهَبَ ضَوْؤُهَا.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الشَّمْسُ وَالقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ» [البخاري (٣٢٠٠)].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾؛ أَيْ: انْتَثَرَتْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، وَأَصْلُ الِانْكِدَارِ: الِانْصِبَابُ. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالرَّبِيعُ بْنُ خُثَيم، وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ، وَالضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾؛ أَيْ: تَنَاثَرَتْ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَغَيَّرَتْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾؛ أَيْ: زَالَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا وَنُسِفَتْ، فَتَرَكَتِ الْأَرْضَ قَاعًا صَفْصَفًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ: عِشَارُ الْإِبِلِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُرِكَتْ وَسُيِّبَتْ. وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَالضَّحَّاكُ: أَهْمَلَهَا أَهْلُهَا. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيم: لَمْ تُحْلَبْ وَلَمْ تُصَرَّ، تَخَلَّى مِنْهَا أَرْبَابُهَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تُرِكَتْ لَا رَاعِيَ لَهَا. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا كُلِّهِ مُتَقَارِبٌ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ العِشَارَ مِنَ الْإِبِلِ -وَهِيَ: خِيَارُهَا وَالحَوَامِلُ مِنْهَا الَّتِي قَدْ وَصَلت فِي حَمْلِهَا إِلَى الشَّهْرِ العَاشِرِ، وَاحِدَتُهَا عُشَراء، وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ اسْمُهَا حَتَّى تَضَعَ- قَدِ اشْتَغَلَ النَّاسُ عَنْهَا وَعَنْ كَفَالَتِهَا وَالِانْتِفَاعِ بِهَا، بَعْدَمَا كَانُوا أَرْغَبَ شَيْءٍ فِيهَا؛ بِمَا دَهَمَهُم مِنَ الْأَمْرِ العَظِيمِ المُفْظِعِ الهَائِلِ، وَهُوَ أَمْرُ القِيَامَةِ، وَانْعِقَادُ أَسْبَابِهِ، وَوُقُوعِ مُقَدِّمَاتِهِ. وَقِيلَ: بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَرَاهَا أَصْحَابُهَا كَذَلِكَ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾؛ أَيْ: جُمِعَتْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الذُّبَابُ. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيم، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ هَذِهِ الخَلَائِقَ مُوَافِيَةً فَيَقْضِي اللهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: حَشْرُهَا: مَوْتُهَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَشْرُ البَهَائِمِ: مَوْتُهَا، وَحَشْرُ كُلِّ شَيْءٍ المَوْتُ، غَيْرَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَإِنَّهُمَا يُوقَفَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ.

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيم قَالَ: أَتَى عَلَيْهَا أَمْرُ اللهِ. وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ: اخْتَلَطَتْ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوْلَى قَوْلُ مَنْ قَالَ: ﴿حُشِرَتْ﴾: جُمِعَتْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: ١٩]؛ أَيْ: مَجْمُوعَةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ رُوِيَ عَنْ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِن اليَهُودِ: أَيْنَ جَهَنَّم؟ قَالَ: البَحْرُ. فَقَالَ: مَا أَرَاهُ إِلا صَادِقًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ مُخَفَّفَة. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهَا الدَّبُور فَتُسَعِّرُهَا، وَتَصِيرُ نَارًا تَأَجَّجُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ بْنُ مُسْلِمٍ: ﴿سُجِّرَتْ﴾ أُوقِدَتْ. وَقَالَ الحَسَنُ: يَبِسَتْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ: غَاضَ مَاؤُهَا فَذَهَبَ وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا قَطْرَة. وَقَالَ الضَّحَّاكُ أَيْضًا: فُجِّرَتْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فُتِحَتْ وَسُيِّرَتْ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيم: فَاضَتْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؛ أَيْ: جُمِعَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَى نَظِيرِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. وَرُوِيَ أَنَّهُ سُئِلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؟ فَقَالَ: يُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَيُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ السُّوءِ مَعَ الرَّجُلِ السُّوءِ فِي النَّارِ، فَذَلِكَ تَزْوِيجُ الْأَنْفُسِ.

وَرُوِيَ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ للنَّاسِ: مَا تَقُولُونَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؟ فَسَكَتُوا. قَالَ: وَلَكِنْ هُوَ الرَّجُلُ يُزَوَّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَالرَّجُلُ يُزَوَّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ذَلِكَ حِينَ يَكُونُ النَّاسُ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: الأَمْثَالُ مِن النَّاسِ جُمِعَ بَيْنَهُمْ. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيم، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

قَوْلٌ آخَرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَسِيلُ وَادٍ مَنْ أَصْلِ العَرْشِ - مِنْ مَاءٍ- فِيمَا بَيْنَ الصَّيْحَتَيْنِ، وَمِقْدَارُ مَا بَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ عَامًا، فَيَنْبُتُ مِنْهُ كُلُّ خَلْقٍ بَلِيَ، مِن: إِنْسَانٍ، أَوْ طَيْرٍ، أَوْ دَابَّةٍ، وَلَوْ مَرَّ عَلَيْهِمْ مَارٌّ قَدْ عَرَفَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ لَعَرَفَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ قَدْ نَبَتُوا، ثُمَّ تُرسَل الْأَرْوَاحُ فَتُزَوَّجُ الْأَجْسَادُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وَكَذَا قَالَ أَبُو العَالِيَةِ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ أَيْضًا؛ أَيْ: زُوِّجَتْ بِالْأَبْدَانِ. وَقِيلَ: زُوِّجَ المُؤْمِنُونَ بِالحُورِ العِينِ، وَزُوِّجَ الكَافِرُونَ بِالشَّيَاطِينِ. حَكَاهُ القُرْطُبِيُّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ وَالمَوْءُودَةُ: هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَدُسُّونَهَا فِي التُّرَابِ؛ كَرَاهِيَةَ البَنَاتِ، فَيَوْمَ القِيَامَةِ تُسْأَلُ المَوْءُودَةُ عَلَى أَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟! لِيَكُونَ ذَلِكَ تَهْدِيدًا لِقَاتِلِهَا، فَإِذَا سُئِلَ المَظْلُومُ، فَمَا ظَنُّ الظَّالِمِ إِذًا؟! وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ: سَأَلَتْ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الضُّحَى: سَأَلَتْ. أَيْ: طَالَبَتْ بِدَمِهَا. وَعَنِ السُّدِّيِّ، وَقَتَادَةَ، مِثْلُهُ.

وَعَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ -أُخْتِ عُكَّاشَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «حَضَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أُنَاسٍ وَهُوَ يَقُولُ: **لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ؛ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ، وَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا**. ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنِ العَزْلِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **ذَاكَ الوَأْدُ الخَفِيُّ**. زَادَ عُبَيْدُ اللهِ، فِي حَدِيثِهِ عَنِ المُقْرِئِ: وَهِيَ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾» [مسلم (١٤٤٢)].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَطْفَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الجَنَّةِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ فَقَدْ كَذَبَ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ قَالَ: هِيَ المَدْفُونَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ صَحِيفَتَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: صَحِيفَتُكَ يَا ابْنَ آدَمَ، تُمْلِي فِيهَا، ثُمَّ تُطْوَى، ثُمَّ تُنْشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُمْلِي فِي صَحِيفَتِهِ![1].

---

(١) صَحَائِفُ الأَعْمَالِ تُحْصَى، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِي ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظالَمُوا، يَا عِبادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَن هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَن أَطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبادِي، كُلُّكُمْ عارٍ إِلا مَن كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ، وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنكُمْ؛ مَا زَادَ ذلكَ فِي مُلْكِي شَيئًا، يَا عِبادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِن مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَن وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ!» [مسلم (٢٥٧٧)]. وعَنْ مَعْمَرٍ قَالَ: «تَلَا الحَسَنُ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]. قَالَ: فَقَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ! بُسِطَتْ لَكَ صَحِيفَةٌ، وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ، أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِكَ؛ فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، فَاعْمَلْ بِمَا شِئْتَ أَقْلِلْ أَوْ أَكْثِرْ، حَتَّى إِذَا مُتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ، فَجُعِلَتْ فِي عُنُقِكَ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ حَتَّى تَخْرُجَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤] قَدْ عَدَلَ وَاللهِ عَلَيْكَ؛ مِنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ!» [جامع البيان].

وَرَحِمَ اللهُ العلامة حَافِظ بن أَحْمَد الحَكَمي إِذْ يَقولُ فِي خَاتِمَةِ (السُّبُل السَّوِيَّة) -وَهِيَ خَاتِمَة رَائِعَة-:

وَبَـــادِرَنْ بِالتَّوْبَـــةِ النَّصُـــوحِ ... قَبْـــلَ احْتِضَـــارٍ وَانْتِـــزَاعِ الـــرُّوحِ
لا تَحْتَقِـــرْ شَـــيْئًا مِـــنَ المَـــآثِمِ ... وَإِنَّمَـــا الأَعْمَـــالُ بِـــالخَوَاتِمِ
وَمَـــنْ لِقَـــاءَ اللهِ قَـــدْ أَحَبَّـــا ... كَـــانَ لَـــهُ اللهُ أَشَـــدَّ حُبَّـــا
وَعَكْسُـــهُ الكَـــارِهُ فَـــاللهَ اسْـــأَلِ ... رَحْمَتَـــهُ فَضْـــلًا وَلا تَتَّـــكِلِ
وَالمَـــوْتَ فَـــاذْكُرْهُ وَمَـــا وَرَاءَهْ ... فَمِنْـــهُ مَـــا لِأَحَـــدٍ بَـــرَاءَهْ
وَإِنَّـــهُ لَلْفَيْصَـــلُ الـــذِي بِـــهِ ... يَنْكَشِـــفُ الحَـــالُ فَـــلَا يَشْـــتَبِهِ
وَيَعْلَـــمُ العَبْـــدُ الـــذِي عَلَيْـــهِ ... يَقْـــدُمُ مَـــعْ مَـــا صَـــائِرٌ إِلَيْـــهِ
يَتْبَعُـــهُ أَهْـــلٌ وَمَـــالٌ وَعَمَـــلْ ... فَيَرْجِـــعُ اثْنَـــانِ وَيَبْقَـــى وَالعَمَـــلْ

للاستماع

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اجْتُذِبَتْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كُشِفَتْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تَنْكَشِطُ فَتَذْهَبُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: أُحْمِيَتْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أُوقِدَتْ. قَالَ: وَإِنَّمَا يُسَعِّرُهَا غَضَبُ اللهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ خُثَيم، أَيْ: قُرِّبَتْ إِلى أَهْلِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ هَذَا هُوَ الجَوَابُ؛ أَيْ: إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ؛ حِينَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَأُحْضِرَ ذَلِكَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾؛ قَالَ عُمَرُ -لَمَّا بَلَغَ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾-: لِهَذَا أُجْرِيَ الحَدِيثُ!

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ الفَجْرَ، فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾، وَكَانَ لا يَحْنِي رَجُلٌ مِنَّا ظَهْرَهُ حَتَّى يَسْتَتِمَّ سَاجِدًا» [مسلم (٤٧٥)].

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ قَالَ: هِيَ النُّجُومُ، تَخْنِسُ بِالنَّهَارِ، وَتَكْنِسُ بِاللَّيْلِ. وَعَنْهُ: أَنَّهَا النُّجُومُ. وَكَذَا رُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ: أَنَّهَا النُّجُومُ.

وَعَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: هِيَ النُّجُومُ الدَّرَارِي، الَّتِي تَجْرِي تَسْتَقْبِلُ المَشْرِق.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: إِنَّمَا قِيلَ لِلنُّجُومِ: الخُنَّسُ؛ أَيْ: فِي حَالِ طُلُوعِهَا، ثُمَّ هِيَ جَوَارٍ فِي فَلَكِهَا، وَفِي حَالِ غَيْبُوبَتِهَا يُقَالُ لَهَا: كُنَّس؛ مِنْ قَوْلِ العَرَبِ: أَوَى الظَّبْيُ إِلَى كِنَاسِهِ: إِذَا تَغَيَّبَ فِيهِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ: بَقَرُ الوَحْشِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: البَقَرُ الوَحْشُ تَكْنُسُ إِلَى الظِّلِّ. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: هِيَ الظِّبَاءُ. وَكَذَا قَالَ سَعِيدٌ أَيْضًا، وَمُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ. وَقَالَ أَبُو الشَّعْثَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ: هِيَ الظِّبَاءُ وَالبَقَرُ.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ، وَمُجَاهِدٍ: أَنَّهُمَا تَذَاكَرَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِمُجَاهِدٍ: قُلْ فِيهَا بِمَا سَمِعْتَ. قَالَ: فَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُنَّا نَسْمَعُ فِيهَا شَيْئًا، وَنَاسٌ يَقُولُونَ: إِنَّهَا النُّجُومُ. قَالَ: فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: قُلْ فِيهَا بِمَا سَمِعْتَ. قَالَ: فَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّهَا بَقَرُ الوَحْشِ حِينَ تَكْنُسُ فِي حُجْرتها.

وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي المُرَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ هَلْ هُوَ النُّجُومُ، أَوِ الظِّبَاءُ وَبَقَرُ الوَحْشِ؟ قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الجَمِيعُ مُرَادًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: إِقْبَالُهُ بِظَلَامِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عَسۡعَسَ﴾ أَظْلَمَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إِذَا نَشَأَ. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: إِذَا غَشِيَ النَّاسَ. وَكَذَا قَالَ عَطِيَّةُ العَوْفِيُّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إِذَا أَدْبَرَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَكَذَا قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَيْ: إِذَا ذَهَبَ فَتَوَلَّى.

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَرَجَ حِينَ ثَوَّبَ المُثَوِّبُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُونَ عَنِ الوِتْرِ، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؟ هَذا حِينَ أَدْبَرَ حَسَنٌ.

[وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ قَالَ: هَذا حِينُ وِتْرٍ حَسَنٌ]. وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إِذَا أَدْبَرَ. قَالَ لِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛ أَيْ: أَضَاءَ، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ أَيْضًا:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسَا ... وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

أَيْ: أَدْبَرَ. وَعِنْدِي أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إِذَا أَقْبَلَ، وَإِنْ كَانَ يَصِحُّ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِدْبَارِ، لَكِنَّ الْإِقْبَالَ هَاهُنَا أَنْسَبُ؛ كَأَنَّهُ أَقْسَمَ تَعَالَى بِاللَّيْلِ وَظَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ، وَبِالفَجْرِ وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢]، وَقَالَ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١-٢]، وَقَالَ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ: إِنَّ لَفْظَةَ ﴿عَسْعَسَ﴾ تُسْتَعْمَلُ فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ عَلَى وَجْهِ الِاشْتِرَاكِ، فَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ كُلٌّ مِنْهُمَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: إِذَا طَلَعَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا أَضَاءَ وَأَقْبَلَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِذَا نَشَأَ. وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: يَعْنِي: وَضَوْءُ النَّهَارِ إِذَا أَقْبَلَ وَتَبَيَّنَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ يَعْنِي: إِنَّ هَذا الْقُرْآنَ لَتَبْلِيغُ رَسُولٍ كَرِيمٍ؛ أَيْ: مَلَكٌ شَرِيفٌ، حَسَنَ الخَلْقِ، بَهِيُّ الْمَنْظَرِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالشَّعْبِيُّ، وَمَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُهُمْ.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥-٦]؛ أَيْ: شَدِيدُ الخَلْقِ، شَدِيدُ البَطْشِ وَالفِعْلِ.

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ أَيْ: لَهُ مَكَانَةٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ.

قَالَ أَبُو صَالِحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قَالَ: جِبْرِيلُ يَدْخُلُ فِي سَبْعِينَ حِجَابًا مِن نُورٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أَيْ: لَهُ وَجَاهَةٌ، وَهُوَ مَسْمُوعُ القَوْلِ، مُطَاعٌ فِي المَلَأِ الْأَعْلَى.

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أَيْ: فِي السَّمَوَاتِ؛ يَعْنِي: لَيْسَ هُوَ مِنْ أَفْنَاءِ المَلَائِكَةِ، بَلْ هُوَ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ، مُعْتَنًى بِهِ، انْتُخِبَ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ العَظِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمِينٍ﴾ وَصْفٌ لِجِبْرِيلَ بِالْأَمَانَةِ.

وَهَذَا عَظِيمٌ جِدًّا؛ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ يُزَكِّي عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ المَلَكِيَّ جِبْرِيلَ[1]، كَمَا زَكَّى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ البَشَرِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[2].

---

(١) «فَهَذا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُهُ، وَأَنَّهُ كَرِيمٌ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ ذُو قُوَّةٍ وَمَكَانَةٍ عِنْدَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ مُطَاعٌ فِي السَّمَاوَاتِ، وَأَنَّهُ أَمِينٌ عَلَى الوَحْيِ» [ابن قَيِّم الجوزية].

(٢) «وَزَكَّاهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَذلِكَ؛ فَزَكَّى جَلَّوَعَلَا عَقْلَهُ فَقَالَ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، وَزَكَّى فُؤَادَهُ فَقَالَ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، وَزَكَّى بَصَرَهُ فَقَالَ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وَزَكَّى لِسَانَهُ فَقَالَ:

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ، وَمَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَمَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ: المُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾؛ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾؛ يَعْنِي: وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ[1] الَّذِي يَأْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا؛ لَهُ سِتُّمِائَة جَنَاحٍ.

﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾؛ أَيْ: البَيِّنُ، وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْأَوْلَى الَّتِي كَانَتْ بِالبَطْحَاء، وَهِيَ المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٥-١٠].

وَالظَّاهِرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الرُّؤْيَةَ وَهِيَ الْأُولَى، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ وَهِيَ المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٦]، فَتِلْكَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ فِي سُورَةِ (النَّجْمِ)، وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾؛ أَيْ: وَمَا مُحَمَّدٌ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ بِضَنِينٍ؛ أَيْ: بِبَخِيلٍ، بَلْ يَبْذُلُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ. وَمِنْهُم مَن قَرَأَ بِالظَّاء؛ أَيْ: بِمُتَّهَم.

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَينة: ظَنِينٌ وَضَنِينٌ سَوَاءٌ؛ أَيْ: مَا هُوَ بِكَاذِبٍ، وَمَا هُوَ بِفَاجِرٍ. وَالظَّنِينُ: المُتَّهَمُ، وَالضَّنِينُ: البَخِيلُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ القُرْآنُ غَيْبًا، فَأَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ؛ فَمَا ضَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ، بَلْ بَلَّغَهُ وَنَشَرَهُ وَبَذَلَهُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وَاخْتَارَ ابنُ جَرِيرٍ قِرَاءَةَ الضَّادِ. قُلْتُ: وَكِلَاهُمَا مُتَوَاتِرٌ، وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ كَمَا تَقَدَّمَ.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، وَزَكَّى أُذُنَهُ فَقَالَ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾ [التوبة: ٦١]، وَزَكَّى أَخْلَاقَهُ فَقَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]».

(١) عَنْ أُمِّ المُؤْمِنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَد ذُكِر لَهَا هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، قَالَتْ: «أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَن ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ» [مسلم (١٧٧)].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾؛ أَيْ: وَمَا هَذَا القُرْآنُ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ؛ أَيْ: لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ، وَلَا يُرِيدُهُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ. كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟ أَيْ: فَأَيْنَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، مَعَ ظُهُورِهِ وَوُضُوحِهِ، وَبَيَانِ كَوْنِهِ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قَالَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِوَفْدِ بَنِي حَنِيفَةَ حِينَ قَدِمُوا مُسْلِمِينَ، وَأَمَرَهُمْ فَتَلَوْا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ قُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ -الكَذَّاب- الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الهَذَيَانِ وَالرَّكَاكَةِ، فَقَالَ: وَيْحَكُمْ! أَيْنَ يُذهَبُ بِعُقُولِكُمْ؟ وَاللهِ إِنَّ هَذَا الكَلَامَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِلٍّ، أَيْ: مِنْ إِلَهٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؛ أَيْ: عَنْ كِتَابِ اللهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أَيْ: هَذَا القُرْآنُ؛ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَّعِظُونَ.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾؛ أَيْ: مَنْ أَرَادَ الهِدَايَةَ فَعَلَيْهِ بِهَذَا القُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ مَنْجَاةٌ لَهُ وَهِدَايَةٌ، وَلَا هِدَايَةَ فِيمَا سِوَاهُ.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أَيْ: لَيْسَتِ المَشِيئَةُ مَوْكُولَةً إِلَيْكُمْ فَمَنْ شَاءَ اهْتَدَى وَمَنْ شَاءَ ضَلَّ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى رَبِّ العَالَمِينَ.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الانفطار

(مكية)

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ مُعَاذٌ فَصَلَّى العِشَاءَ الْآخِرَةَ فَطَوَّلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَتَّانٌ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾» [صحيح سنن النسائي (٩٩٦)][1].

وَتَقَدَّمَ فِي (التَّكْوِيرِ) قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٣٣)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

---

(١) عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ مُعَاذ يُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ العِشَاءَ الآخِرَة، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ، فَرَجعَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَصَلَّى بِهِم، وَصَلَّى فَتًى مِن قَوْمِهِ مِن بَنِي سَلمَة يُقَال لَهُ: سليم، فَلمَّا طَالَ عَلى الفَتَى انْصَرَفَ فَصَلَّى فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ وَخَرَجَ، وَأَخَذَ بِخِطَامِ بَعِيرِهِ وَانْطَلَقَ، فَلَمَّا صَلَّى مُعَاذ، ذُكِرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّ هَذا بِهِ لَنِفَاقٌ! لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالذي صَنَعَ، وَقَالَ الفَتَى: وَأَنا لأُخبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالذي صَنَعَ. فَغَدَوْا عَلى رَسُول الله ﷺ، فَأَخْبَرهُ مُعَاذ بالَّذي صَنَعَ الفَتَى، فَقَالَ الفَتَى: يَا رَسُولَ اللهِ، يُطِيلُ المُكْثَ عِنْدَكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُطِيلُ عَلَيْنا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذ؟!**، وَقَالَ للفَتى: **كَيْفَ تَصْنَعُ أَنْتَ يَا ابنَ أَخي إِذا صَلَّيتَ؟** قَالَ: أَقْرَأُ بِفَاتِحَةِ الكِتابِ، وَأَسْأَلُ الله الجَنَّةَ وَأَعوذُ بِهِ مِنَ النَّارِ، وَإِنِّي لا أَدْري مَا دَنْدَنَتُكَ وَدَنْدَنَةُ مُعاذ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنِّي وَمُعَاذ حَوْلَ هَاتَيْنِ** -أَوْ: **نَحْوَ ذَا**-. قَالَ: فَقَالَ الفَتَى: وَلَكِن سَيَعْلَمُ مُعَاذ إِذا قَدِمَ القَومُ! - وَقَدْ خبروا أَنَّ العَدوَّ قَدْ أَتَوْا- قَالَ: فَقَدِموا، فَاسْتُشْهِدَ الفَتى، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ لِمُعَاذ: **مَا فَعَلَ خَصْمِي وَخَصْمُكَ؟** قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! صَدَقَ اللهَ، وَكَذَبْتُ، اسْتُشْهِدَ» [إسناده جيد، الألباني، صفة صلاة النبي ﷺ].

وَفِي رِوَايَة: «فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ العِشَاءَ ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فأَمَّهُمْ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ، فَقَالوا لَهُ: أَنَافَقْتَ يَا فُلان؟، قَالَ: لا واللهِ، وَلَآتِيَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ فَلأُخْبِرَنَّهُ. فَأَتى رَسولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ، نَعْمَلُ بالنَّهارِ، وإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ العِشَاءَ، ثُمَّ أَتى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فَأَقْبَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ عَلى مُعَاذٍ فَقَالَ: **يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ اقْرَأْ بِكَذا وَاقْرَأْ بِكَذا**» [مسلم (٤٦٥)].

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؛ أَيْ: انْشَقَّتْ. كَمَا قَالَ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]. ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾؛ أَيْ: تَسَاقَطَتْ. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: فَجَّرَ اللهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ.

وَقَالَ الحَسَنُ: فَجَّرَ اللهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ فَذَهَبَ مَاؤُهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: اخْتَلَطَ عَذْبُهَا بِمَالِحِهَا. وَقَالَ الكَلْبِيُّ: مُلِئَتْ. ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُحِثَتْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تُبْعْثَر؛ تُحَرَّكُ فَيَخْرُجُ مَنْ فِيهَا. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾؛ أَيْ: إِذَا كَانَ هَذَا؛ حَصَل هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ هَذَا تَهْدِيدٌ، لا كَمَا يَتَوَهمُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ إِرْشَادٌ إِلَى الجَوَابِ حَيْثُ قَالَ: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: غَرَّهُ كَرَمُهُ!

بَلِ المَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ -أَيِ: العَظِيمِ- حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ؟!

وَرَوَى ابنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فَقَالَ عُمَرُ: الجَهْلُ!

وَرَوَى أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ -وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ-: غَرَّهُ وَاللهِ جَهْلُهُ!

قَالَ: ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالرَّبِيعِ بْنِ خُثَيم، وَالحَسَنِ، مِثْلُ ذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ شَيءٌ، مَا غَرَّ ابْنَ آدَمَ غَيْرَ هَذا العَدو: الشَّيْطَان.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾؛ أَيْ: مَا غَرَّكَ بِالرَّبِّ الكَرِيمِ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾؛ أَيْ: جَعَلَكَ سَوِيًا مُسْتَقِيمًا مُعْتَدِلَ القَامَةِ مُنْتَصِبَهَا، فِي أَحْسَنِ الهَيْئَاتِ وَالأَشْكَالِ.

وعَنْ بُسْرِ بْنِ جِحَاشٍ القُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟! حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ** -أَيْ: شَكْوَى- **فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ!**» [السلسلة الصحيحة (١٠٩٩)].

وَقَوْلُهُ: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فِي أَيِّ شَبَهِ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ خَالٍ أَوْ عَمٍّ.

وَعَن مَالِكِ بنِ الحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ -جَلَّ ذِكْرُهُ- أَنْ يَخْلُقَ**

النَّسَمَةَ، فَجَامَعَ الرَّجُلُ المَرْأَةَ؛ طَارَ مَاؤُهُ فِي كُلِّ عِرْقٍ وَعَصَبٍ مِنْهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ السَّابِعِ؛ أَحْضَرَ اللهُ لَهُ كُلَّ عِرْقٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾» [السلسلة الصحيحة (٣٣٣٠)]. وَهَذَا الحَدِيثُ يُعَدُّ فَيْصَلًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ مِن بَنِي فَزَارَةَ إلى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: إنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَا، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: هَلْ لَكَ مِن إبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِن أَوْرَقَ؟ قَالَ: إنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: وَهَذا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ!» [مسلم (١٥٠٠)].

وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ إِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ قِرْدٍ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ خِنْزِيرٍ. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ: إِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ كَلْبٍ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ حِمَارٍ، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةِ خِنْزِيرٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَادِرٌ -وَاللهِ- رَبُّنَا عَلَى ذَلِكَ. وَمَعْنَى هَذَا القَوْلِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ: أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النُّطْفَةِ عَلَى شَكْلٍ قَبِيحٍ مِن الحَيوانَاتِ المُنْكَرَةِ الخَلْقِ، وَلَكِنْ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ وَحِلْمِهِ يَخْلُقُهُ عَلَى شَكْلٍ حَسَنٍ مُسْتَقِيمٍ مُعْتَدِلٍ تَامٍّ، حَسَنِ المَنْظَرِ وَالهَيْئَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾؛ أَيْ: بَلْ إِنَّمَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى مُوَاجَهَةِ الكَرِيمِ وَمُقَابَلَتِهِ بِالمَعَاصِي؛ تَكْذِيبٌ فِي قُلُوبِكُمْ بِالمَعَادِ وَالجَزَاءِ وَالْحِسَابِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ يَعْنِي: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَمَلَائِكَةً حَفَظَةً كِرَامًا(١)؛ فَلَا تُقَابِلُوهُمْ بِالقَبَائِحِ، فَإِنَّهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَيْكُمْ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٞ لِّنَفْسٖ شَيْـٔٗاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ يُبْتَلَى بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلَّا أَمَرَ اللهُ الحَفَظَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَهُ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهو صَحِيحٌ مَا دَامَ مَحْبُوسًا فِي وِثَاقِي»، وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، قَالَ اللهُ لِلْكِرَامِ الكَاتِبِينَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ حَتَّى أَقْبِضَهُ أَوْ أُعَافِيَهُ» [إرواء الغليل، تحت (٥٦٠)].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَصِيرُ الْأَبْرَارُ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَهُمُ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِالمَعَاصِي. ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الفُجَّارُ مِنَ الجَحِيمِ وَالعَذَابِ المُقِيمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أَيْ: يَوْمَ الحِسَابِ وَالجَزَاءِ وَالقِيَامَةِ.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾؛ أَيْ: لَا يَغِيبُونَ عَنِ العَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، وَلَا يُجَابُونَ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ مِنَ المَوْتِ أَوِ الرَّاحَةِ -وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا-.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ يَوْمِ القِيَامَةِ، ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾؛ أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى نَفْعِ أَحَدٍ وَلَا خَلَاصِهِ مِمَّا هُوَ فِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا أُنْزِلَتْ هذِهِ الآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دَعَا رَسولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وخَصَّ، فَقَالَ: **يَا بَنِي كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عبدِ مَنافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا**» [مسلم (٢٠٤)].

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وَكَقَوْلِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وَالْأَمْرُ -وَاللهِ- اليَوْمَ لِلَّهِ، وَلَكِنَّهُ يَوْمَئِذٍ لَا يُنَازِعُهُ أَحَدٌ.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة المطففين

(مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ، كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ» [صحيح سنن ابن ماجه (١٨٢٢)].

وَرَوَى ابنُ أَبي حَاتم عَنْ هِلَالِ بْنِ طَلْقٍ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ فَقُلْتُ: مَنْ أَحْسَنُ النَّاسِ هَيْئَةً وَأَوْفَاهُم كَيْلًا؟ أَهْلُ مَكَّةَ أَوِ المَدِينَة؟ قَالَ: حُقَّ لَهُمْ، أَمَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

وَالمُرَادُ بِالتَّطْفِيفِ هَاهُنَا: البَخْسُ فِي المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ، إِمَّا بِالِازْدِيَادِ إِنِ اقْتَضَى مِنَ النَّاسِ، وَإِمَّا بِالنُّقْصَانِ إِنْ قَضَاهُم. وَلِهَذَا فَسَّرَ تَعَالَى المُطَفِّفِينَ -الَّذِينَ وَعَدَهُمْ بِالخَسَارِ وَالهَلَاكِ وَهُوَ الوَيْلُ- بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أَيْ: مِنَ النَّاسِ، ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾؛ أَيْ: يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِالوَافِي وَالزَّائِدِ، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾؛ أَيْ: يُنْقِصُونَ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالوَفَاءِ فِي الكَيْلِ وَالمِيزَانِ، فَقَالَ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وَقَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]، وَأَهْلَكَ اللهُ قَوْمَ شُعَيْبٍ ودَمَّرَهُم عَلَى مَا كَانُوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ فِي المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ[1].

---

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤-٨٥]، وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسٌ بِخَمْسٍ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا خَمْسٌ بِخَمْسٍ؟ قَالَ: مَا نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ إِلا سَلَّطَ عَلَيْهِم عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلا فَشَا فِيهِم الفَقْرُ، وَلا ظَهَرَتْ فِيهِم الفَاحِشَةُ إِلا فَشَا فِيهِم المَوْتُ، وَلا مَنَعوا الزَّكَاةَ إِلا حُبِسَ عَنْهُم القَطْرُ، وَلا طَفَّفوا المِكْيَالَ إِلا حُبِسَ عَنْهُم

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أَيْ: أَمَا يَخَافُ أُولَئِكَ مِنَ البَعْثِ وَالقِيَامِ بَيْنَ يَدَي مَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ؟ فِي يَوْمٍ عَظِيمِ الهَوْلِ، كَثِيرِ الفَزَعِ، جَلِيلِ الخَطْبِ، مَنْ خَسِرَ فِيهِ أُدْخِلَ نَارًا حَامِيَةً!

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أَيْ: يَقُومُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، فِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ حَرِجٍ ضَيِّقٍ ضَنْكٍ عَلَى المُجْرِمِ، وَيَغْشَاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا تَعْجِزُ القُوَى وَالحَوَاسُّ عَنْهُ. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ**» [البخاري (٤٩٣٨)].

وعَنِ المِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ الكِنْدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَومَ القِيامَةِ مِنَ الخَلْقِ، حتَّى تَكُونَ منهمْ كَمِقْدارِ مِيلٍ. قَالَ: فَيَكونُ النَّاسُ عَلى قَدْرِ أعْمالِهِمْ في العَرَقِ؛ فَمِنْهُمْ مَن يَكونُ إلى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَن يَكونُ إلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُمْ مَن يَكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومِنْهُمْ مَن يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلْجَامًا. قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بيَدِهِ إلى فِيهِ**» [مسلم (٢٨٦٤)].

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِاللهِ «**مِنْ ضِيقِ المَقَامِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» [صحيح سنن أبي داود (٧٦٦)].

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِي وَابْنِ مَاجَهْ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَفْتَتِحُ قِيَامَ اللَّيْلِ: «**يُكَبِّرُ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُسَبِّحُ عَشْرًا، وَيُهَلِّلُ عَشْرًا، وَيَسْتَغْفِرُ عَشْرًا، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي، أَعُوذُ بِاللهِ مِن ضِيقِ المَقَامِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» [صحيح سنن النسائي (١٦١٦)].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

النَّبَاتُ وَأْخِذُوا بِالسِّنِينَ» [صحيح الترغيب والترهيب (٧٦٥)]. «وَالْإِنْصَاف: أَنْ تَكْتَالَ لِمُنَازِعِك بِالصَّاعِ الَّذِي تَكْتَال بِهِ لِنَفْسِك؛ فَإِنَّ فِي كُلِّ شَيْء وَفَاءً وَتَطْفِيفًا!» [ابن قيِّم الجوزية].

يَقُولُ تَعَالَى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾؛ أَيْ: إِنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ لَفِي سِجِّينٍ - فِعِّيلٌ مِنَ السِّجنِ، وَهُوَ الضِّيقُ- كَمَا يُقَالُ: فِسِّيقٌ وَشِرِّيبٌ وَخِمِّيرٌ وَسِكِّيرٌ، وَنَحْو ذَلِكَ. وَلِهَذا عَظَّمَ أَمْرَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟!؛ أَيْ: هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَسِجْنٌ مُقِيمٌ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ.

ثُمَّ قَدْ قَالَ قَائِلُونَ: هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ؛ وَفِي حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي رُوحِ الكَافِرِ: «**اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى**»(١).

---

(١) عَن البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِن الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنا إلى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، وَكَأَنَّ عَلى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلى السَّمَاءِ، وَيَنْظُرُ إلى الأَرْضِ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ وَيَخْفِضُهُ، ثَلاثًا، فَقَالَ: **اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِن عَذَابِ القَبْرِ**، مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاثًا، ثُمَّ قَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِي أَعُوذُ بِكَ مِن عَذَابِ القَبْرِ**، ثَلاثًا، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِن الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِن الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيهِ مَلائِكَةٌ مِن السَّمَاءِ، بِيضُ الوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُم كَفَنٌ مِن أَكْفَانِ الجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ عَلَيهِ السَّلامُ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، -وَفِي رِوَايَةٍ: المُطْمَئِنَّةُ-، اخْرُجِي إِلى مَغْفِرَةٍ مِن اللهِ وَرِضْوانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِن فِيِّ السِّقاءِ، فَيَأْخُذُهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِن أَهْلِ بَابٍ إِلا وَهُم يَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِن قِبَلِهِمْ-، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلى مَلأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ ابنُ فُلانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُم، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، ﴿**وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ**﴾ فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوهُ إِلى الأَرْضِ، فَإِنِي وَعَدْتُهُم: أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُم وَفِيهَا أُعِيدُهُم وَمِنْهَا أُخْرِجُهُم تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَيُرَدُّ إِلى الأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَيأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَن رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُم؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولانِ لَهُ: وَمَا عِلمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَن نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلى المُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ**﴾، فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإِسْلامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِن الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِن الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلى الجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِن رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: يُمَثَّلُ لَهُ- رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالذي يَسُرُّكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوانٍ مِن اللهِ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، هَذا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ،

وَالصَّحِيحُ أَنَّ (سِجِّينًا) مَأْخُوذٌ مِنَ السِّجْنِ، وَهُوَ الضِّيقُ، فَإِنَّ المَخْلُوقَاتِ كُلُّ مَا تَسَافَلَ مِنْهَا ضَاقَ، وَكُلُّ مَا تَعَالَى مِنْهَا اتَّسَعَ، فَإِنَّ الْأَفْلَاكَ السَّبْعَةَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْسَعُ وَأَعْلَى مِنَ الَّذِي دُونَهُ، وَكَذَلِكَ الْأَرَضُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ أَوْسَعُ مِنَ الَّتِي دُونَهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ السُّفُولُ المُطْلَقُ وَالمَحَلُّ الْأَضْيَقُ إِلَى المَرْكَزِ فِي وَسَطِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ.

فَيَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْت؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلا كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِن الجَنَّةِ، وَبَابٌ مِن النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذا مَنْزِلُكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذا، فَإِذا رَأَى مَا فِي الجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيامَ السَّاعَةِ، كَيْمَا أَرْجِعَ إِلى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ.

قَالَ: وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ -وَفِي رِوَايَةٍ: الفَاجِرَ-، إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِن الآخِرَةِ، وَإِقْبَالٍ مِن الدُّنْيَا، نَزَلَ إِلَيهِ مِن السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ، سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ مِن النَّارِ، فَيَجْلِسُونَ مِنهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلى سَخَطٍ مِن اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الكَثِيرُ الشُّعبِ مِن الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَتَقْطَعُ مَعَهَا العُرُوقَ وَالعَصَبَ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِن أَهْلِ بَابٍ إِلا وَهُم يَدْعُونَ اللهَ أَلا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِن قِبَلِهِمْ، فَيَأْخُذها، فَإِذا أَخَذَها، لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلى مَلَأٍ مِن المَلائِكَةِ إِلا قَالوا: مَا هَذا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولونَ: فُلانُ ابنُ فُلانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ التي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ**﴾ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلى، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوا عَبْدِي إِلى الأَرْضِ فَإِنِي وَعَدْتُهُمْ: أَنِي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ مِن السَّمَاءِ طَرْحًا حَتَّى تَقَعَ فِي جَسَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِ أَصْحَابِهِ إِذا وَلَّوْا عَنْهُ. وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهارِ، فَيَنْتَهِرانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَن رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ: فَمَا تَقُولُ فِي هَذا الرَّجُلِ الذي بُعِثَ فِيكُم؟ فَلا يَهْتَدِي لاسْمِهِ، فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ؟! فَيَقُولُ: هَاه هَاه لا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولونَ ذَاك! قَالَ: فَيُقَالُ: لا دَرَيْتَ، وَلا تَلَوْتَ، فَيُنادِي مُنَادٍ مِن السَّمَاءِ أَن: كَذَبَ، فَأَفْرِشُوا لَهُ مِن النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِن حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيهِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَيُمَثَّلُ لَهُ- رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالذي يَسُوؤُكَ، هَذا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ، مَن أَنْت؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ! فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلا كُنْتَ بَطِيئًا عَن طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا إِلى مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ! لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ بِهَا تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيءٍ إِلا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِن النَّارِ، ويُمَهَّدُ مِن فُرُشِ النَّارِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ» [الألباني، أحكام الجنائز].

وَلَمَّا كَانَ مَصِيرُ الفُجَّارِ إِلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ أَسْفَلُ السَّافِلِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥-٦]، قَالَ هَاهُنَا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾، وَهُوَ يَجْمَعُ الضِّيقَ وَالسُّفُولَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ لَيْسَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ المَصِيرِ إِلَى سِجِّينٍ؛ أَيْ: مَرْقُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، لَا يُزَادُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ أَحَدٌ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيْلٌ﴾؛ أَيْ: الهَلَاكُ وَالدَّمَارُ، كَمَا يُقَالُ: وَيْلٌ لِفُلَانٍ، وَفِي الحَدِيثِ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكذِبُ لِيُضحِكَ بِهِ القَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ» [صحيح سنن أبي داود (٤٩٩٠)].

﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أَيْ: إِذَا صَارُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللهُ مِنَ السَّجْنِ وَالعَذَابِ المُهِينِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا (لِلْمُكَذِّبِينَ) الفُجَّارِ الكَفَرَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أَيْ: لَا يُصَدِّقُونَ بِوُقُوعِهِ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ، وَيَسْتَبْعِدُونَ أَمْرَهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ أَيْ: مُعْتَدٍ فِي أَفْعَالِهِ؛ مِنْ تَعَاطِي الحَرَامِ وَالمُجَاوَزَةِ فِي تَنَاوُلِ المُبَاحِ. وَالْأَثِيمِ فِي أَقْوَالِهِ؛ إِنْ حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أَيْ: إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللهِ مِنَ الرَّسُولِ؛ يُكَذِّبُ بِهِ، وَيَظُنُّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا أَنَّ هَذَا القُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الرَّيْنِ الَّذِي قَدْ لَبِسَ قُلُوبَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾. وَالرَّيْنُ يَعْتَرِي قُلُوبَ الكَافِرِينَ، وَالغَيْمُ لِلْأَبْرَارِ، وَالغَيْنُ لِلْمُقَرَّبِينَ[1].

---

(١) عَنْ عَلِي بنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «مَا مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ إِلا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ القَمَرِ؛ بَيْنَمَا القَمَرُ يُضِيءُ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ، إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاء» [صحيح الجامع (٥٦٨٢)]. وَعَن الأَغَرِّ المُزَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِن هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِن عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلبَهُ، وَهوَ الرَّانُ الَّذي ذَكَرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [صحيح الجامع (١٦٧٠)].

وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ، حَتَّى يَعْمَى القَلْبُ، فَيَمُوتُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدُ ابنُ جَبْرٍ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ أَيْ: لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنزِلٌ وَنُزُلٌ سِجِّينٌ، ثُمَّ هُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ ذَلِكَ مَحْجُوبُونَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ. قَالَ الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّافِعِيُّ: وَفِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَئِذٍ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي غَايَةِ الحُسْنِ، وَهُوَ اسْتِدْلالٌ بِمَفْهُومِ هَذِهِ الآيَةِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مَنْطُوقُ قَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَكَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ المُتَوَاتِرَةُ فِي رُؤْيَةِ المُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ عَزَّوَجَلَّ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ؛ رُؤْيَةً بِالأَبْصَارِ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ، وَفِي رَوْضَاتِ الجِنَانِ الفَاخِرَةِ. وَقَدْ رَوَى ابنُ جَرِيرٍ عَنِ الحَسَنِ قَالَ: يُكْشَفُ الحِجَابُ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ المُؤْمِنُونَ وَالكَافِرُونَ، ثُمَّ يُحْجَبُ عَنْهُ الكَافِرُونَ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ المُؤْمِنُونَ كُلَّ يَوْمٍ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً -أَوْ كَلامًا هَذَا مَعْنَاهُ-.

قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾؛ أَيْ: ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الحِرْمَانِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَهْلِ النِّيرَانِ، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، وَالتَّصْغِيرِ وَالتَّحْقِيرِ.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ -وَهُمْ بِخِلَافِ الفُجَّارِ- ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾؛ أَيْ: مَصِيرُهُمْ إِلَى عِلِّيِّينَ، وَهُوَ بِخِلَافِ سِجِّينٍ. سَأَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا عَنْ ﴿سِجِّين﴾، قَالَ: هِيَ الأَرْضُ السَّابِعَةُ،

رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» [مسلم (٢٧٠٢)].

وَفِيهَا أَرْوَاحُ الكُفَّارِ. وَسَأَلَهُ عَنْ ﴿عِلِّيِّين﴾، فَقَالَ: هِيَ السَّمَاءُ السَّابِعَةُ، وَفِيهَا أَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ.

وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّهَا السَّمَاءُ السَّابِعَةُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾؛ يَعْنِي: الجَنَّةَ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: أَعْمَالُهُمْ فِي السَّمَاءِ عِنْدَ اللهِ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ.

وَالظَّاهِرُ: أَنَّ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ العُلُوِّ، وَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ وَارْتَفَعَ عَظُمَ وَاتَّسَعَ؛ وَلِهَذَا قَالَ مُعَظِّمًا أَمْرَهُ وَمُفَخِّمًا شَأْنَهُ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؟! ثُمَّ قَالَ مُؤَكِّدًا لِمَا كَتَبَ لَهُمْ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وَهُمُ المَلَائِكَةُ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَشْهَدُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾؛ أَيْ: يَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا فَضْلٌ عَمِيمٌ. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الحِجَالِ. ﴿يَنظُرُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: يَنْظُرُونَ فِي مُلكهم وَمَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الخَيْرِ وَالفَضْلِ الَّذِي لَا يَنْقَضِي وَلَا يَبِيدُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ؛ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وَهَذَا مُقابِلٌ لِمَا وُصِفَ بِهِ أُولَئِكَ الفُجَّارُ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، فَذَكَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يُبَاحُونَ النَّظَرَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَهُمْ عَلَى سُرُرِهِمْ وَفُرُشِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أَيْ: تَعْرِفُ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أَيْ: صِفَةَ التَّرَافَةِ وَالحِشْمَةِ وَالسُّرُورِ وَالدَّعَةِ وَالرِّيَاسَةِ؛ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ العَظِيمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾؛ أَيْ: يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرٍ مِنَ الجَنَّةِ. وَالرَّحِيقُ: مِنْ أَسْمَاءِ الخَمْرِ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾؛ أَيْ: خَلْطُهُ مِسْكٌ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: طَيَّبَ اللهُ لَهُمُ الخَمْرَ، فَكَانَ آخِرُ شَيْءٍ جُعِلَ فِيهَا مِسْكٌ، خُتِم بِمِسْكٍ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَالحَسَنُ: عَاقِبَتُهُ مِسْكٌ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قَالَ: شَرَابٌ أَبْيَضُ مِثْلُ الفِضَّةِ، يَخْتِمُونَ بِهِ شَرَابَهُمْ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا أَدْخَلَ أُصْبُعَهُ فِيهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا، لَمْ يَبْقَ ذُو رُوحٍ إِلَّا وَجَدَ طِيبَهَا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: طِيبُهُ مِسْكٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾؛ أَيْ: وَفِي مِثْلِ هَذَا الحَالِ فَلْيَتَفَاخَرِ المُتَفَاخِرُونَ، وَلْيَتَبَاهَى وَيُكَاثِرْ وَيَسْتَبِقْ إِلَى مِثْلِهِ المُسْتَبِقُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾؛ أَيْ: وَمِزَاجُ هَذَا الرَّحِيقِ المَوْصُوفِ ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾؛ أَيْ: مِنْ شَرَابٍ يُقَالُ لَهُ: تَسْنِيمٌ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَعْلَاهُ. قَالَهُ أَبُو

صَالِحٍ وَالضَّحَّاكُ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أَيْ: يَشْرَبُهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا، وتُمزَجُ لِأَصْحَابِ اليَمِينِ مَزجًا. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَسْرُوقٌ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَيْ: يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أَيْ: وَإِذَا مَرُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِمْ، أَيْ: مُحْتَقِرِينَ لَهُمْ. ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾؛ أَيْ: وَإِذَا انقَلَبَ ؛ أَيْ: رَجَعَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، انْقَلَبُوا إِلَيْهَا فَاكِهِينَ؛ أَيْ: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، وَمَعَ هَذَا مَا شَكَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ، بَلِ اشْتَغَلُوا بِالْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ يَحْتَقِرُونَهُمْ وَيَحْسُدُونَهُمْ. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾؛ أَيْ: لِكَوْنِهِمْ عَلَى غَيْرِ دِينِهِمْ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾؛ أَيْ: وَمَا بُعِث هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ حَافِظِينَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، وَلَا كُلِّفُوا بِهِمْ! فَلِمَ اشْتَغَلُوا بِهِمْ وَجَعَلُوهُمْ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١].

وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾؛ يَعْنِي: يَوْمَ القِيَامَةِ؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾؛ أَيْ: فِي مُقَابَلَةِ مَا ضَحِكَ بِهِمْ أُولَئِكَ. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾؛ أَيْ: إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فِي مُقَابَلَةِ مَنْ زَعَمَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ، لَيْسُوا بِضَالِّينَ، بَلْ هُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ، يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؟؛ أَيْ: هَلْ جُوزِيَ الكُفَّارُ عَلَى مَا كَانُوا يُقَابِلُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّنَقُّصِ أَمْ لَا؟ يَعْنِي: قَدْ جُوزُوا أَوْفَرَ الجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الانشقاق

(مكية)

عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ العَتَمَةَ فَقَرَأَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، فَسَجَدَ، فَقُلْتُ: ما هذِه؟ قَالَ: سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي القَاسِمِ ﷺ، فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُهَا حَتَّى أَلْقَاهُ» [البخاري (٧٦٨)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾؛ أَيْ: اسْتَمَعَتْ لِرَبِّهَا وَأَطَاعَتْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ مِنَ الِانْشِقَاقِ، ﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أَيْ: وَحُقَّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ أَمْرَهُ؛ لِأَنَّهُ العَظِيمُ الَّذِي لَا يُمانَع وَلَا يُغَالَبُ، بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾؛ أَيْ: بُسِطَتْ وَفُرِشَتْ وَوُسِّعَتْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾؛ أَيْ: أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ، وَتَخَلَّتْ مِنْهُمْ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدٌ، وَقَتَادَةُ. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾؛ أَيْ: إِنَّكَ سَاعٍ إِلَى رَبِّكَ سَعْيًا، وَعَامِلٌ عَمَلًا، ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ثُمَّ إِنَّكَ سَتَلْقَى مَا عَمِلتَ مِن خَيْرٍ أَو شَرٍّ.

وَيَشْهَدُ لَهُ: مَا وَرَدَ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحِبَّ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ» [صحيح الجامع (٤٣٥٥)]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعِيدُ الضَّمِيرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّكَ﴾؛ أَيْ: فَمُلَاقٍ رَبَّكَ، وَمَعْنَاهُ: فَيُجَازِيكَ بِعَمَلِكَ وَيُكَافِئُكَ عَلَى سَعْيِكَ. وَعَلَى هَذَا فَكِلَا القَوْلَيْنِ مُتَلَازِمٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ يَقُولُ: تَعْمَلُ عَمَلًا تَلْقَى اللهَ بِهِ، خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ كَدْحَكَ -يَا ابْنَ آدَمَ- لَضَعِيفٌ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكُونَ كَدْحُهُ فِي

طَاعَةِ اللهِ فَلْيَفْعَلْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؛ أَيْ: سَهْلًا بِلَا تَعْسِيرٍ؛ أَيْ: لَا يُحَقَّقُ عَلَيْهِ جَمِيعُ دَقَائِقِ أَعْمَالِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ حُوسِبَ كَذَلِكَ يَهْلَك لا مَحَالَةَ.

وَكَانَتْ أُمُّ المُؤمِنِينَ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لا تَسْمَعُ شَيْئًا لا تَعْرِفُهُ إلا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، قَالَتْ: وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَن حُوسِبَ يومَ القِيامَةِ عُذِّبَ. فَقُلتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقالَ: لَيْسَ ذَاكِ الحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ العَرْضُ، مَن نُوقِشَ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ عُذِّبَ» [مسلم (٢٨٧٦)].

وَعَن أُمِّ المُؤمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ: «اللهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا»، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، مَا الحِسَابُ اليَسِيرُ؟ قَالَ: «أَنْ يَنظُرَ فِي كِتابِهِ فَيَتَجاوَزَ عَنْهُ؛ إِنَّهُ مَن نُوقِشَ الحِسَابَ يَومَئِذٍ يَا عَائِشَةُ هَلَكَ، وَكُلُّ مَا يُصِيبُ المُؤمِنَ يُكَفِّرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةُ تَشُوكُهُ» [الألباني، أصل صفة الصلاة].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أَيْ: وَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ فِي الجَنَّةِ. قَالَهُ قَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، ﴿مَسْرُورًا﴾؛ أَيْ: فَرِحًا مُغتَبِطًا بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾؛ أَيْ: بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، تُثْنى يَدُهُ إِلَى وَرَائِهِ وَيُعْطَى كِتَابَهُ بِهَا كَذَلِكَ، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾؛ أَيْ: خَسَارًا وَهَلَاكًا، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾؛ أَيْ: فَرِحًا لَا يُفَكِّرُ فِي العَوَاقِبِ، وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الفَرَحُ اليَسِيرُ الحُزْنَ الطَّوِيلَ. ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾؛ أَيْ: كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى اللهِ وَلَا يُعِيدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا. وَالحَوْرُ: هُوَ الرُّجُوعُ. قَالَ اللهُ: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾؛ يعني: بَلَى سَيُعِيدُهُ اللهُ كَمَا بَدَأَهُ، وَيُجَازِيهِ عَلَى أَعْمَالِهِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، فَإِنَّهُ ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾؛ أَيْ: عَلِيمًا خَبِيرًا.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾

رُوِي عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وعُبادَة بْنِ الصَّامِتِ، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِهم، أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿ٱلشَّفَقِ﴾: الحُمْرَةُ. وَرَوَى عَبْدُ الرَزَّاقِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: ﴿ٱلشَّفَقِ﴾: البَيَاضُ. فَالشَّفَقُ هُوَ: حُمْرَةُ الأُفُقِ إمَّا قَبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ -كَمَا قَالَهُ مُجَاهِد-، وَإِمَّا بَعْدَ غُرُوبِهَا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ.

قَالَ الخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: الشَّفَقُ: الحُمْرَةُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ العِشَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا ذَهَبَ قِيلَ: غَابَ الشَّفَقُ. وَقَالَ الجَوْهَرِيُّ: الشَّفَقُ: بَقِيَّةُ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحُمْرَتها فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى قَرِيبٍ مِنَ العَتَمَة. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ: الشَّفَقُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَقْتُ الظُّهْرِ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ وَكَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ كَطُولِهِ مَا لَمْ يَحْضُرِ العَصْرُ، وَوَقْتُ العَصْرِ مَا لَمْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ، وَوَقْتُ صَلاةِ المَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ، وَوَقْتُ صَلاةِ العِشَاءِ إِلى نِصْفِ اللَّيْلِ الأَوْسَطِ، وَوَقْتُ صَلاةِ الصُّبْحِ مِن طُلُوعِ الفَجْرِ مَا لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَأَمْسِكْ عَنِ الصَّلاةِ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ**» [مسلم (٦١٢)]. فَفِي هَذَا كُلِّهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ﴿ٱلشَّفَقِ﴾ هُوَ كَمَا قَالَهُ الجَوْهَرِيُّ وَالخَلِيلُ.

وَلَكِنْ صَحَّ عَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ هُوَ النَّهَارُ كُلُّهُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: الشَّفَقُ: الشَّمْسُ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا قَرْنُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾؛ أَيْ: جَمَعَ. كَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِالضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَقْسَمَ اللهُ بِالنَّهَارِ مُدْبِرًا، وَبِاللَّيْلِ مُقْبِلًا. وَقَالَ: وَقَالَ آخَرُونَ: الشَّفَقُ: اسْمٌ لِلْحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ. وَقَالُوا: هُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾؛ وَمَا جَمَعَ. قَالَ قَتَادَةُ: وَمَا جَمَعَ مِنْ نَجْمٍ وَدَابَّةٍ. وَقَالَ عِكْرِمَة: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يَقُولُ: مَا سَاقَ مِنْ ظُلْمَةٍ؛ إِذَا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَأْوَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا اجْتَمَعَ وَاسْتَوَى. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَسْرُوقٌ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ: إِذَا اسْتَوَى. وَقَالَ الحَسَنُ: إِذَا اجْتَمَعَ، إِذَا امْتَلَأَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا اسْتَدَارَ. وَمَعْنَى كَلَامِهِمْ: أَنَّهُ إِذَا تَكَامَلَ نُورُهُ وَأَبْدَرَ، جَعَلَهُ مُقَابِلًا لِلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾؛ رَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: حَالًا بَعْدَ حَالٍ -قَالَ هَذا نَبِيُّكُمْ ﷺ-. وهُوَ مُحتَمِلٌ أَنْ يَكُونَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَسْنَدَ هَذَا التَّفْسِيرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَأَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ هَذَا مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ (نَبِيُّكُم) مَرْفُوعًا عَلَى الفَاعِلِيَّةِ مِنْ (قَالَ)، وَهُوَ الْأَظْهَرُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

كَمَا قَالَ أَنَسٌ: «اصْبِرُوا؛ فَإِنَّه **لا يَأْتي عَلَيْكُم زَمَانٌ إِلا الذي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ. سَمِعْتُهُ مِن نَبِيِّكُمْ** ﷺ» [البخاري (٧٠٦٨)].

وَرَوَى ابنُ جَرِيرٍ عَن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قَالَ: **يَعْنِي**: نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ: حَالًا بَعْدَ حَالٍ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، ومُرَّة الطَّيِّب، وَمُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَالضَّحَّاكُ، وَمَسْرُوقٌ، وَأَبُو صَالِحٍ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ. قَالَ: هَذا نَبِيُّكُمْ ﷺ؛ **يَعْنِي**: المُرَادُ بـ(هَذا) نَبِيُّكُم ﷺ. فَيَكُونُ مَرْفُوعًا عَلى أَنَّ (هَذا) وَ(نَبِيُّكُم) يكونَانِ مُبتَدَأً وَخَبَرًا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَلَعَلَّ هَذَا قَدْ يَكُونُ هُوَ المُتَبَادَرُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الرُّوَاةِ. كَمَا رَوَى أَبو دَاود الطَّيَالِسِيُّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا المَعْنَى قِرَاءَةُ عُمَرَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَامَّةِ أَهْلِ مَكَّةَ وَالكُوفَة: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بِفَتْحِ التَّاءِ وَالبَاءِ. وَعَنِ الشَّعْبِيِّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قالَ: لَتَرْكَبَنَّ يَا مُحَمَّدُ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ. وَهَكَذَا رُوِي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمَسْرُوقٍ، وَأَبِي العَالِيَةِ. قُلْتُ: يَعْنُونَ لَيلَةَ الإِسْراء.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ مَنْزِلًا عَلَى مَنْزِلٍ، وَيُقَالُ: أَمْرًا بَعْدَ أَمْرٍ، وَحَالًا بَعْدَ حَالٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾؛ أَعْمَال مَنْ قَبْلَكُمْ مَنْزِلًا بَعْدَ مَنْزِلٍ. قُلْتُ: كَأَنَّهُ أَرَادَ مَعْنَى الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِراعًا بِذِراعٍ، وَبَاعًا بِباعٍ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُم دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ دَخَلْتُم، وَحتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُم ضَاجَعَ أُمَّهُ بِالطَّرِيقِ لَفَعَلْتُم**» [السلسلة الصحيحة (١٣٤٨)]. وَهَذا مُحْتَمَلٌ.

وَعَن مَكْحُول فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قالَ: فِي كُلِّ عِشْرِينَ سَنَة تُحْدِثُونَ أَمْرًا لَمْ تَكُونُوا عَلَيْهِ. وَقَالَ عَبْدُاللهِ بنُ مَسْعُود: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: السَّمَاءُ تَتَشَقَّقُ ثُمَّ تَحْمَرُّ، ثُمَّ تَكُونُ لَوْنًا بَعْدَ لَوْنٍ. وَقَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيْر: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قَالَ: قَوْمٌ كَانُوا فِي الدُّنْيَا خَسِيسٌ أَمْرُهُمْ، فَارْتَفَعُوا فِي الْآخِرَةِ، وَآخَرُونَ كَانُوا أَشْرَافًا فِي الدُّنْيَا، فَاتَّضَعُوا فِي الْآخِرَةِ.

وقَالَ عِكْرَمَةُ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حَالًا بَعدَ حَالٍ؛ فَطِيمًا بَعدَمَا كَانَ رَضِيعًا، وَشَيْخًا بَعدَمَا كَانَ شَابًا. وقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾؛ يَقُولُ: حَالًا بَعدَ حَالٍ؛ رَخَاءً بَعدَ شِدَّةٍ، وَشِدَّةً بَعدَ رَخَاءٍ، وَغِنىً بَعدَ فَقْرٍ، وَفَقرًا بَعْدَ غِنًى، وَصِحَّةً بَعدَ سَقَمٍ، وسَقَمًا بَعدَ صِحَّةٍ. ثُمَّ قَالَ ابنُ جَرِيرٍ بَعْدَ مَا حَكَى أَقْوَالَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ القُرَّاءِ وَالمُفَسِّرِينَ: وَالصَّوَابُ مِنَ التَّأْوِيلِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: لَتَرْكَبَنَّ أَنْتَ -يَا مُحَمَّدُ- حَالًا بَعْدَ حَالٍ وَأَمْرًا بَعْدَ أَمْرٍ مِنَ الشَّدَائِدِ. وَالمُرَادُ بِذَلِكَ -وَإِنْ كَانَ الخِطَابُ مُوَجَّهًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ- جَمِيعَ النَّاسِ، وَأَنَّهُمْ يَلْقَوْنَ مِنْ شَدَائِدِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ أَحْوَالًا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩﴾؛ أَيْ: فَمَاذَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ؟ وَمَا لَهُمْ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ وَكَلَامُهُ -وَهُوَ هَذَا القُرْآن- لَا يَسْجُدُونَ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا؟! وَقَوْلُهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾؛ أَيْ: مِنْ سَجِيَّتِهِمُ التَّكْذِيبُ وَالعِنَادُ وَالمُخَالَفَةُ لِلْحَقِّ. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿يُوعُونَ﴾؛ يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِم. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أَيْ: فَأَخْبِرْهُمْ -يَا مُحَمَّدُ- بِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ يَعْنِي: لَكِنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أَيْ: بِقُلُوبِهِم. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أَيْ: بِجَوَارِحِهِم. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرُ مَنْقُوصٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ: غَيْرُ مَحْسُوبٍ. وَحَاصِلُ قَوْلِهِمَا أَنَّهُ: غَيْرُ مَقْطُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عَلَيْهِمْ. وَهَذَا القَوْلُ الْآخِرُ عَنْ بَعْضِهِمْ قَدْ أَنْكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ المِنَّةُ عَلَى أَهْلِ الجَنَّةِ فِي كُلِّ حَالٍ وَآنٍ وَلَحْظَةٍ، وَإِنَّمَا دَخَلُوهَا بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ لَا بِأَعْمَالِهِمْ[1]، فَلَهُ عَلَيْهِمُ المِنَّةُ دَائِمًا سَرْمَدًا، وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ أَبَدًا؛ وَلِهَذَا يُلْهَمُونَ تَسْبِيحَهُ وَتَحْمِيدَهُ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

❁ ❁ ❁

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ. قَالوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لا، وَلَا أَنا، إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ؛ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ» [البخاري (٥٦٧٣)].

تفسير سورة البروج
(مكية)

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالعَصْرِ بِـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ وَنَحْوِهِمَا مِنَ السُّوَرِ» [صحيح سنن أبي داود (٨٠٥)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾؛ يُقْسِمُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَبُرُوجِهَا، وَهِيَ: النُّجُومُ والكَوَاكِبُ العِظَامُ. كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. وَقِيلَ: هِيَ البُرُوجُ الَّتِي فِيهَا الحَرَسُ. وَالقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَر. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الكَوَاكِبُ العِظَامُ هِيَ قُصُورٌ لِلْحَرَسِ، فَيَجْتَمِعُ القَوْلَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾: النُّجُومُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا: البُرُوجُ الَّتِي فِيهَا الحَرَسُ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ رَافِعٍ: ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾ قُصُورٌ فِي السَّمَاءِ. وَقَالَ المِنْهَال بْنُ عَمْرٍو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾: ذَاتِ الخَلْقِ الحَسَن. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا: مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ، وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ بُرْجًا، تَسِيرُ الشَّمْسُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا شَهْرًا، وَيَسِيرُ القَمَرُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنهَا يَوْمَيْنِ وثُلُثًا، فَذَلِكَ ثَمانِيَة وعِشْرُون مَنْزِلًا، ويَسْتَسِرُّ لَيْلَتَيْن.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اليَوْمُ المَوْعُودُ يَوْمُ القِيَامَةِ، وَاليَوْمُ المَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، وَمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْهُ، فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللهَ بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ، وَلَا يَسْتَعِيذُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعَاذَهُ اللهُ مِنْهُ» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٣٩)].

وَقَدْ رُوِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: اليَوْمُ المَوْعُودُ يَوْمُ القِيَامَةِ. وَكَذَلِكَ قَالَ الحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَلَمْ أَرَهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، وَلِلَّهِ الحَمْدُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الشَّاهِدُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالمَشْهُودُ يَوْمُ القِيَامَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وَعَنْ شِبَاكٍ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ عَنْ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قَالَ: سَأَلْتَ أَحَدًا قَبْلِي؟ قَالَ: نَعَمْ، سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ وَابْنَ الزُّبَيْرِ، فَقَالا: يَوْمَ الذَّبْحِ وَيَوْمَ الجُمُعَةِ. فَقَالَ: لا، وَلَكِنَّ الشَّاهِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وَالمَشْهُودُ يَومُ القِيامَة، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. وَهَكَذَا قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ.

وَعَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ: ﴿وَمَشْهُودٍ﴾؛ يَوْمُ القِيَامَة. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالضَّحَّاكُ: الشَّاهِدُ: ابْنُ آدَمَ، وَالمَشْهُودُ: يَوْمُ القِيَامَةِ. وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَيْضًا: الشَّاهِدُ: مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالمَشْهُودُ: يَوْمُ الجُمُعَةِ. وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: الشَّاهِدُ: اللهُ، وَالمَشْهُودُ: يَوْم القِيَامَة. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الشَّاهِدُ: الإِنْسَان. والمَشْهُودُ: يَوْم الجُمُعَة. وَعَنْهُ أيضًا قَالَ: الشَّاهِدُ: يَوْمُ عَرَفَة، وَالمَشْهُودُ: يَوْمُ القِيَامَة.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: يَوْمُ الذَّبْحِ، وَيَوْمُ عَرَفَةَ، يَعْنِي؛ الشَّاهِدَ وَالمَشْهُودَ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: المَشْهُودُ يَوْمُ الجُمُعَةِ. وَرَوَوْا فِي ذَلِكَ: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلِيَّ يَوْم الجُمُعَةِ؛ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ تَشْهَدُهُ المَلائِكَةُ، وَإِنَّ أَحَدًا لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إلا عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلاتُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا**. قَالَ: قُلْتُ: وَبَعْدَ المَوْتِ؟ قَالَ: **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم السَّلامُ، فَنَبِيُّ اللهِ حَيٌّ يُرْزَقُ**» [صحيح الترغيب (١٦٧٢)].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: الشَّاهِدُ: اللهُ، وَتَلَا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وَالمَشْهُودُ: نَحْنُ. حَكَاهُ البَغَوِيُّ، وَقَالَ: الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، وَالمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾؛ أَيْ: لُعِنَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ.

وَالأُخْدُودُ: الحُفَرُ فِي الأَرْضِ[1]، وَهَذَا خَبَرٌ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الكُفَّارِ عَمَدوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ

(١) «الشَّقُّ العَظِيمُ المُسْتَطِيلُ فِي الْأَرْضِ كَالخَنْدَقِ، وَجَمْعُهُ: أَخَادِيدُ» [القرطبي].

المُؤْمِنِينَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَهَرُوهُمْ وَأَرَادُوهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ، فَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُخْدُودًا وَأَجَّجُوا فيه نَارًا، وَأَعَدُّوا لَهَا وَقُودًا يُسَعِّرُونَهَا بِهِ، ثُمَّ أَرَادُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ، فَقَذَفُوهُمْ فِيهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾؛ أَيْ: مُشَاهِدُون لِمَا يُفعَلُ بِأولئِكَ المُؤْمِنين.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ أَيْ: وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانُهُمْ بِاللهِ.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ الَّذِي لَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِجَنَابِهِ المَنِيعِ.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾؛ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ -وَإِنْ كَانَ قَدْ قَدَّر عَلَى عِبَادِهِ هَؤُلَاءِ هَذَا الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ بِأَيْدِي الكُفَّارِ بِقَدَرِه-، فَهُوَ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وَإِنْ خَفِيَ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن تَمَامِ الصِّفَةِ: أَنَّهُ المَالِكُ لِجَمِيعِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أَيْ: لَا يَغِيبُ عَنْهُ شيءٌ فِي جَمِيعِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي أَهْلِ هَذِهِ القِصَّةِ، مَنْ هُمْ؟!

فَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّهُمْ أَهْلُ فَارِسٍ حِينَ أَرَادَ مَلِكُهُمْ تَحْلِيلَ تَزْوِيجِ المَحَارِمِ، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِ عُلَمَاؤُهُمْ، فَعَمَدَ إِلَى حَفْرِ أُخْدُودٍ فَقَذَفَ فِيهِ مَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَاسْتَمَرَّ فِيهِمْ تَحْلِيلُ المَحَارِمِ إِلَى اليَوْمِ.

وَعَنْهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا بِاليَمَنِ اقْتَتَلَ مُؤْمِنُوهُمْ وَمُشْرِكُوهُمْ، فَغَلَبَ مُؤْمِنُوهُمْ عَلَى كُفَّارِهِمْ، ثُمَّ اقْتَتَلُوا فَغَلَبَ الكُفَّارُ المُؤْمِنِينَ، فَخَدُّوا لَهُمُ الْأَخَادِيدَ، وَأَحْرَقُوهُمْ فِيهَا.

وَعَنْهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الحَبَشَةِ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَاسٌ مَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، خَدُّوا أُخْدُودًا فِي الأَرْضِ، ثُمَّ أَوْقَدُوا فِيهِ نَارًا، ثُمَّ أَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ الأُخْدُودِ رِجَالًا وَنِسَاءً، فَعُرِضُوا عَلَيْهَا، وَزَعَمُوا أَنَّهُ دَانْيَالُ وَأَصْحَابُهُ.

وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَعَنْ صُهَيْبِ بنِ سِنَان الرُّومِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَن كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَما هُوَ كَذلِكَ إِذْ أَتَى عَلى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: اليَومَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِن أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِه الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضى النَّاسُ، فَأَتى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ اليَومَ أَفْضَلُ مِنِّي؛ قَدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ.

وَكَانَ الغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُداوِي النَّاسَ مِن سَائِرِ الأَدْواءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتى المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَن رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلى الغُلام، فَجِيءَ بالغُلامِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ! فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا؛ إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ عَلى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبى، فَدَعَا بِالمِئْشارِ، فَوَضَعَ المِئْشارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

ثُمَّ جِيءَ بجَلِيسِ المَلِكِ فقِيلَ لهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبى، فَوَضَعَ المِئْشارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِه حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

ثُمَّ جِيءَ بالغُلامِ فقِيلَ لهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبى، فَدَفَعَهُ إِلى نَفَرٍ مِن أَصْحابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلى جَبَلِ كَذا وَكَذا، فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَإِذا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ، وَإِلا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلى المَلِكِ، فَقَالَ لهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحابُكَ؟ قَالَ: كَفانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلى نَفَرٍ مِن أَصْحابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فَإِنْ

رَجَعَ عَن دِينِهِ، وَإِلا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلى المَلِكِ، فَقَالَ لهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحابُكَ؟ قَالَ: كَفانِيهِمُ اللهُ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حتَّى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِن كِنانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارْمِنِي؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلكَ قَتَلْتَنِي.

فجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِن كِنانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قالَ: باسْمِ اللهِ، رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ.

فَأُتِيَ المَلِكُ فقِيلَ له: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ واللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ؛ قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بالأُخْدُودِ فِي أَفْواهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرانَ، وَقَالَ: مَن لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَها صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي؛ فَإِنَّكِ عَلى الحَقِّ» [مسلم (٣٠٠٥)].

هَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي آخِرِ «الصَّحِيحِ»، وقَدْ جَوَّدَهُ الإمامُ أَبُو عِيسى التِّرْمِذِيُّ، فَرَوَاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى العَصْرَ هَمَسَ -وَالهَمْسُ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ تَحَرُّكُ شَفَتَيْهِ كَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ-، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ يَا رَسُولَ اللهِ إِذَا صَلَّيْتَ العَصْرَ هَمَسْتَ؟ قَالَ: «إِنَّ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، كَانَ أُعْجِبَ بِأُمَّتِهِ، فَقَالَ: مَنْ يَقُومُ لِهَؤُلَاءِ؟ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ خَيِّرْهُمْ بَيْنَ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَبَيْنَ أَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، فَاخْتَارُوا النِّقْمَةَ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ المَوْتَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٤٠)].

قَالَ: وَكَانَ إذا حَدَّثَ بِهذا الحَدِيثِ، حَدَّثَ بِهذا الحَدِيثِ الآخَرِ، قَالَ: «كَانَ مِلِكٌ مِنَ المُلُوكِ وَكَانَ لِذلِكَ المَلِكِ كَاهِنٌ يَكْهَنُ لَهُ، فَقَالَ الكَاهِنُ: انْظُرُوا لي غُلامًا فَهِمًا -أَوْ قَالَ: فَطِنًا- لَقِنًا فَأُعَلِّمَهُ عِلْمِي هَذا، فَذَكَرَ القِصَّةَ بِتَمَامِهَا، وَقَالَ فِي آخِرِهِ: يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا

﴿نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ قَالَ: فَأَمَّا الغُلَامُ فَإِنَّهُ دُفِنَ، قَالَ: فَيُذْكَرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ وَإِصْبَعُهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٤٠)].

وَهَذَا السِّيَاقُ لَيْسَ فِيهِ صَرَاحَة أَنَّ سِيَاقَ هَذِهِ القِصَّةِ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ شَيْخُنَا الحَافِظُ أَبُو الحَجَّاجِ المِزِّي: فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ صُهَيب الرُّومِيِّ، فَإِنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ أَخْبَارِ النَّصَارَى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وعَن السُّدي قَالَ: كَانَتِ الأُخْدُودُ ثَلَاثَة: خَدٌّ بِالعِرَاقِ، وخَدٌّ بِالشَّامِ، وخَدٌّ بِاليَمَنِ.

وَعَنْ مُقَاتِلٍ قَالَ: كَانَتِ الأُخْدُودُ ثَلَاثَة: وَاحِدَةٌ بِنَجْرَانَ بِاليَمَنِ، وَالأُخْرَى بِالشَّامِ، وَالأُخْرَى بِفَارِسَ، أَمَّا الَّتِي بِالشَّامِ فَهُوَ أَنْطَنَانُوسُ الرُّومِيُّ، وَأَمَّا الَّتِي بِفَارِسَ فَهُوَ بُخْتُنَصَّرُ، وَأَمَّا الَّتِي بِأَرْضِ العَرَبِ فَهُوَ يُوسُفُ ذُو نُوَاسٍ. فَأَمَّا الَّتِي بِفَارِسَ وَالشَّامِ فَلَمْ يُنْزِلِ اللهُ فِيهِمْ قُرْآنًا، وَأَنْزَلَ فِي الَّتِي كَانَتْ بِنَجْرَانَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أَيْ: حَرَّقُوا بِالنَّارِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ أَبْزَى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾؛ أَيْ: لَمْ يُقْلِعُوا عَمَّا فَعَلُوا وَيَنْدَمُوا عَلَى مَا أَسْلَفُوا.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ. قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الكَرَمِ وَالجُودِ؛ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالمَغْفِرَةِ!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ أَنَّ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بِخِلَافِ مَا أَعَدَّ لأَعْدَائِهِ مِن الحَرِيقِ وَالجَحِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أَيْ: إِنَّ بَطْشَهُ وَانتِقَامَهُ مِن أَعْدَائِهِ -الذين كَذَّبوا رُسُلَهُ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ- لَشَدِيدٌ عَظِيمٌ قَوِيٌّ، فَإِنَّهُ تَعَالَى ذُو القُوَّةِ المَتِين، الذي مَا شَاءَ كَانَ كَمَا يَشَاءُ فِي مِثْلِ

لَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ أَيْ: مِنْ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ يُبْدِئُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ كَمَا بَدَأَهُ، بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾؛ أَيْ: يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وخَضَعَ لَدَيْهِ، وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ. وَ﴿ٱلْوَدُودُ﴾؛ قَالَ ابنُ عبَّاسٍ وغَيْرُهُ: هُوَ الحَبِيبُ.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أَيْ: صَاحِبُ العَرْشِ العَظِيمِ العَالِي عَلَى جَمِيعِ الخَلَائِقِ. وَ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ فِيهِ قِرَاءَتَانِ: الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ. وَالجَرُّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ، وَكِلَاهُمَا مَعْنًى صَحِيحٌ.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ أَيْ: مَهْمَا أَرَادَ فِعْلَهُ؛ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لِعَظَمَتِهِ وَقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، كَمَا رُوِينَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ -وَهُوَ فِي مَرَضِ المَوْتِ-: هَلْ نَظَرَ إِلَيْكَ الطَّبِيبُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: قَالَ لِي: إِنِّي فَعَّالٌ لِمَا أُرِيدُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾؛ أَيْ: هَلْ بَلَغَكَ مَا أَحَلَّ اللهُ بِهِمْ مِنَ البَأْسِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي لَمْ يَرُدَّهَا عَنْهُمْ أَحَدٌ؟ وَهَذا تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أَيْ: إِذَا أَخَذَ الظَّالِمَ أَخَذَهُ أَخْذًا أَلِيمًا شَدِيدًا، أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾؛ أَيْ: هُمْ فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ وَكُفْرٍ وَعِنَادٍ.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾؛ أَيْ: هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ، قَاهِرٌ لَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يُعْجِزُونَهُ.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾؛ أَيْ: عَظِيمٌ كَرِيمٌ.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾؛ أَيْ: هُوَ فِي المَلَإِ الأَعْلَى مَحْفُوظٌ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الطارق

(مكية)

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالعَصْرِ بِـ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ وَنَحْوِهِمَا مِنَ السُّوَرِ» [صحيح سنن أبي داود (٨٠٥)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

يُقْسِمُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ، ولِهَذا قَالَ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا سُمِّيَ النَّجْمُ طَارِقًا؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُرَى بِاللَّيْلِ وَيَخْتَفِي بِالنَّهَارِ. وَيُؤَيِّدُهُ مَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا. أَيْ: يَأْتِيهِمْ فَجْأَةً بِاللَّيْلِ(١).

وفي الحَدِيثِ الْآخَرِ المُشْتَمِلِ عَلَى الدُّعَاءِ: «**إِلا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يا رَحْمَنُ**»(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: المُضِيءُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَثْقُبُ الشَّيَاطِينَ إِذَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ مُضِيءٌ وَمُحْرِقٌ لِلشَّيْطَانِ.

---

(١) عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَهى رَسولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَراتِهِمْ» [مسلم (٧١٥)]. وَفِي رِوَايَة: «أَتَى ابْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امْرَأَتَهُ، وَامْرَأَةٌ تُمَشِّطُهَا، فَأَشَارَ بِالسَّيْفِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا» [السلسلة الصحيحة (٣٠٨٥)].

(٢) عَنْ عَبدِالرَّحمنِ بنِ خَنْبَش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَتِ الشَّيَاطِينُ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الأَوْدِيَةِ، وتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الجِبَالِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِن نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يَحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَرُعِبَ، -قَالَ جَعْفَرٌ: أَحْسَبُهُ قَالَ: جَعَلَ يَتَأَخَّرُ-. قَالَ: وَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ! قُلْ**. قَالَ: مَا **أَقُولُ**؟ قَالَ: **قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِن شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِن شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ، وَمِن شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَمِن شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ!**، فَطُفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ، وَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ» [السلسلة الصحيحة (٢٩٩٥)].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾؛ أَيْ: كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا مِنَ اللهِ حَافِظٌ يَحْرُسُهَا مِنَ الآفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تَنْبِيهٌ لِلإِنْسَانِ عَلَى ضَعْفِ أَصْلِهِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ، وَإِرْشَادٌ لَهُ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِالمَعَادِ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى البَدَاءَةِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى!، كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾؛ يَعْنِي: المَنِيُّ؛ يَخْرُجُ دَفقًا مِنَ الرَّجُلِ وَمِنَ المَرْأَةِ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا الوَلَدُ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، يَعْنِي: صُلْبَ الرَّجُلِ وَتَرَائِبَ المَرْأَةِ، وَهُوَ صَدْرُهَا. وقالَ ابنُ عبَّاس: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾؛ صُلْبِ الرَّجُلِ، وَتَرَائِبِ المَرْأَةِ -أَصْفَر رَقِيق- لَا يَكُونُ الوَلَدُ إِلَّا مِنْهُمَا.

وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَير، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ والسُّدِّي، وَغَيْرُهُمْ. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَال: هَذِهِ التَّرَائِبُ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَرِيبَةُ المَرْأَةِ: مَوْضِعُ القِلَادَةِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَير. وقَالَ ابنُ عَبَّاس أَيْضًا: التَّرَائِبُ: بَيْنَ ثَدْيَيْهَا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: التَّرَائِبُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ إِلَى الصَّدْرِ. وَعَنْهُ أَيْضًا: التَّرَائِبُ أَسْفَلُ مِنَ التَّرَاقِي. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: فَوْقَ الثَّدْيَيْنِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَير: التَّرَائِبُ أَرْبَعَةُ أَضْلَاعٍ مِنْ هَذَا الجَانِبِ الْأَسْفَلِ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ: التَّرَائِبُ بَيْنَ الثَّدْيَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالعَيْنَيْنِ. وَعَنْ قَتَادَةَ: مِنْ بَيْنِ صُلْبِهِ وَنَحْرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى رَجْعِ هَذَا المَاءِ الدَّافِقِ إِلَى مَقَرِّهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ﴿لَقَادِرٌ﴾ عَلَى ذَلِكَ. قالَهُ مُجاهِد، وَعِكْرِمَةُ، وَغَيْرُهُمَا.

وَالقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّهُ عَلَى رَجْعِ هَذَا الإِنْسَانِ المَخْلُوقِ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، أَيْ: إِعَادَتُهُ وَبَعْثُهُ إِلَى الدَّارِ الآخِرَةِ لَقَادِرٌ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى البَدْءِ قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَذَا الدَّلِيلَ فِي القُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، وَهَذَا القَوْلُ -الثَّانِي- قَالَ بِهِ الضَّحَّاكُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ أَيْ: يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ. أَيْ: تَظْهَرُ وَتَبْدُو، وَيَبْقَى السِّرُّ عَلَانِيَةً وَالمَكْنُونُ مَشْهُورًا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الغادِرَ يُنْصَبُ له لِواءٌ يومَ القِيامَةِ، فيُقالُ: هذِه غَدْرَةُ فُلانِ بنِ فُلانٍ» [البخاري (٦١٧٨)]. وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَومَ القِيامَةِ» [مسلم (١٧٣٨)](١).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أَيْ: الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿مِن قُوَّةٍ﴾؛ أَيْ: فِي نَفْسِهِ. ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾؛ أَيْ: مِنْ خَارِجٍ مِنْهُ؛ أَيْ: لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ أَحَدٌ ذَلِك.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلرَّجْعِ﴾: المَطَرُ. وَعَنْهُ: هُوَ السَّحَابُ فِيهِ المَطَرُ. وَعَنْهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ تُمْطِرُ ثُمَّ تُمْطِرُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَرْجِعُ رِزْقَ العِبَادِ كُلَّ عَامٍ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا وَهَلَكَتْ مَوَاشِيهِمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: تَرْجِعُ نُجُومُهَا وَشَمْسُهَا وَقَمَرُهَا، يَأْتِينَ مِنْ هَاهُنَا.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ انْصِدَاعُهَا عَنِ النَّبَاتِ. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيرٍ وَعِكْرِمَةُ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَقٌّ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ آخَر: حُكْمٌ عَدْلٌ. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾؛ أَيْ: بَلْ هُوَ حَقٌّ جِدٌّ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بِهِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أَيْ: يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى خِلَافِ القُرْآنِ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾؛ أَيْ: «أُجَازِيهِمْ جَزَاءَ كَيْدِهِمْ. وَقِيلَ: هُوَ مَا أَوْقَعَ اللهُ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ القَتْلِ وَالأَسْرِ. وَقِيلَ: كَيْدُ اللهِ: اسْتِدْرَاجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» [القرطبي]. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أَيْ: أَنْظِرْهُمْ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾؛ أَيْ: قَلِيلًا. أَيْ: وَسَتَرَى مَاذَا أُحِل بِهِمْ مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالعُقُوبَةِ وَالهَلَاكِ، كَمَا قَالَ تَعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

❁ ❁ ❁

(١) وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يومَ القِيامَةِ، وإنَّا قدْ بايَعْنا هذا الرَّجُلَ على بَيْعِ اللهِ ورَسولِهِ، وإنِّي لا أعْلَمُ غَدْرًا أعْظَمَ مِن أنْ يُبايِعَ رَجُلٌ على بَيْعِ اللهِ ورَسولِهِ ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ القِتالُ» [البخاري (٧١١١)]. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يومَ القِيامَةِ، يُرْفَعُ له بقَدْرِ غَدْرِهِ، ألا ولا غادِرَ أعْظَمُ غَدْرًا مِن أمِيرِ عامَّةٍ» [مسلم (١٧٣٨)].

تفسير سورة الأعلى

(مكية)

الدَّليلُ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّة مَا رَوَاهُ البُخاريُّ: عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَجَعَلَا يُقْرِئَانِنَا القُرْآنَ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ، وَبِلَالٌ، وَسَعْدٌ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ، حَتَّى رَأَيْتُ الوَلَائِدَ وَالصِّبْيَانَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللهِ قَدْ جَاءَ، فَمَا جَاءَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا» [البخاري (٤٩٤١)].

وعَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّى مُعاذُ بنُ جَبَلٍ الأَنْصارِيُّ لأَصْحابِهِ العِشَاءَ. فَطَوَّلَ عَلَيْهِم، فانْصَرَفَ رَجُلٌ مِنَّا، فَصَلَّى. فَأُخْبِرَ مُعاذٌ عَنْهُ فَقالَ: إنَّه مُنافِقٌ، فَلَمَّا بَلَغَ ذلكَ الرَّجُلَ، دَخَلَ على رَسولِ اللهِ ﷺ فأخْبَرَهُ مَا قَالَ مُعاذٌ، فَقالَ لَهُ النبيُّ ﷺ: **أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فَتَّانًا يا مُعاذُ؟ إذا أَمَمْتَ النَّاسَ فاقْرَأْ بـ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾**» [مسلم (٤٦٥)].

وَعَنْ جَابِرِ بنِ سَمُرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَقْرَأُ في الظُّهْرِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وفي الصُّبْحِ بأَطْوَلَ مِن ذلكَ» [مسلم (٤٦٠)].

وعَنْ النُّعْمَان بنِ بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ في العِيدَيْنِ وفي الجُمُعَةِ بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾. قَالَ: وإذا اجْتَمع العِيدُ والجُمُعَةُ في يَومٍ واحِدٍ، يَقْرَأُ بهما أَيْضًا في الصَّلاتَيْنِ» [مسلم (٨٧٨)].

وعَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يقرأ في الوترِ بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ يَقُولُ إذا سَلَّمَ: **سُبحَانَ المَلِكِ القُدُّوس** -ثَلاثًا-، ويَرْفَعُ صَوْتَهُ بالثَّالِثَة» [صحيح سنن النسائي (١٧٣٢)].

وعَنْ أُمِّ المُؤمِنين عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها سُئِلَتْ: «بِأَيِّ شيءٍ كَانَ يُوتِرُ رَسُول اللهِ ﷺ؟ قَالَت: كَانَ يَقْرأُ في الأُولى بِـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَفي الثَّانِيَة بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَفي الثَّالِثَة

بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمُعوِّذَتَيْنِ» [صحيح سنن الترمذي (٤٦٣)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» [صحيح الجامع (٤٧٦٦)]. وَعَنْ عَبْدِ خَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا قَرَأَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى. وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ أَيْ: خَلَقَ الخَلِيقَةَ وَسَوَّى كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي أَحْسَنِ الهَيْئَاتِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هَدَى الْإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ، وَهَدَى الأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا. وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِفِرْعَوْنَ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]؛ أَيْ: قَدَّرَ قَدَرًا، وَهَدَى الخَلَائِقَ إِلَيْهِ. كَمَا ثَبَتَ فِي الحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: قَالَ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلى المَاءِ**» [مسلم (٢٦٥٣)].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾؛ أَيْ: مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِ النَّبَاتَاتِ وَالزُّرُوعِ. ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَشِيمًا مُتَغَيِّرًا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَابْنِ زَيْدٍ، نَحْوُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾؛ أَيْ: يَا مُحَمَّدُ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَوَعْدٌ مِنْهُ لَهُ، بِأَنَّهُ سَيُقْرِئُهُ قِرَاءَةً لَا يَنْسَاهَا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابن جَرِير. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَنْسَى شَيْئًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ. وَقِيلَ: المُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ طَلَبٌ، وَجَعَلُوا مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى هَذَا ما يَقَعُ مِن النَّسْخِ، أَيْ: لَا تَنْسَى مَا نُقْرِئُكَ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ رَفْعَهُ؛ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾؛ أَيْ: يَعْلَمُ مَا يَجْهَرُ بِهِ العِبَادُ وَمَا يُخْفُونَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ أَيْ: نُسَهِّلُ عَلَيْكَ أَفْعَالَ الخَيْرِ وَأَقْوَالَهُ، وَنُشَرِّعُ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمْحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ وَلَا

عُسْر. وَقَوْلُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أَيْ: ذَكِّر حَيْثُ تَنْفَعُ التَّذْكِرَةُ.

وَمِنْ هَاهُنَا يُؤْخَذُ الْأَدَبُ فِي نَشْرِ العِلْمِ، فَلَا يَضَعُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، كَمَا رُوِيَ عَن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّث قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ». ورُوِيَ عَن عَلِي بن أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».

وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾؛ أَيْ: سَيَتَّعِظُ بِمَا تُبَلِّغُهُ -يَا مُحَمَّدُ- مَنْ قَلْبُهُ يَخْشَى اللهَ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾؛ أَيْ: لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ وَلَا يَحْيَا حَيَاةً تَنْفَعُهُ، بَلْ هِيَ مُضِرَّةٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ بِسَبَبِهَا يَشْعُرُ مَا يُعَاقَبُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ العَذَابِ وَأَنْوَاعِ النَّكَالِ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُها، فإنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ، ولكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ** -أَوْ قَالَ: **بِخَطاياهُمْ**-، **فَأَماتَهُمْ إماتَةً حتَّى إذا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلى أَنْهارِ الجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِم، فَيَنْبُتُونَ نَباتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**» [مسلم (١٨٥)]. «**أَلَمْ تَرَوْها كَيفَ تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟**» [مسلم (١٨٤)]. قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: كَأَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالبادِيَةِ!

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ أَهْلِ النَّارِ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ فِي هَذَا المَعْنَى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أَيْ: طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَابَعَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾؛ أَيْ: أَقَامَ الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا؛ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ وَامْتِثَالًا لِشَرْعِ اللهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ أَبُو الْأَحْوَصِ: إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ سَائِلٌ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ، فَلْيُقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ صَلَاتِهِ زَكَاتَهُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾. وَعَن

أَبي العَالِيَة أَنَّهُ قَرَأَ الآيَتَيْنِ وَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ المَدِينَةِ لَا يَرَوْنَ صَدَقَةً أَفْضَلَ مِنهَا ومِنْ سِقَايَة المَاءِ. وعَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِالعَزِيزِ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِإِخْرَاجِ صَدَقَةِ الفِطْرِ، وَيَتْلُو الْآيَتَيْن.

وَقَالَ قَتَادَةُ: زَكَّى مَالَهُ وَأَرْضَى خَالِقَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أَيْ: تُقَدِّمُونَهَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَتُبَدُّونَهَا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَصَلَاحُكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ. ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ أَيْ: ثَوَابُ اللهِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَنِيَّةٌ فَانِيَةٌ، وَالآخِرَة شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ، فَكَيْفَ يُؤْثِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى، وَيَهْتَمُّ بِمَا يَزُولُ عَنْهُ قَرِيبًا، وَيَتْرُكُ الِاهْتِمَامَ بِدَارِ البَقَاءِ وَالخُلْدِ؟! وَيُرْوَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ**» [منكر، السلسلة الضعيفة (٦٦٩٤)].

وَرَوى ابْنُ جَرِير، عَنْ عَرْفَجَة الثَّقَفِي قَالَ: اسْتَقْرَأْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ - فَلَمَّا بَلَغَ- ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تَرَكَ القِرَاءَةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: آثَرْنَا الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ، فَسَكَتَ القَوْمُ، فَقَالَ: آثَرْنَا الدُّنْيَا لِأَنَّا رَأَيْنَا زِينَتَهَا وَنِسَاءَهَا وَطَعَامَهَا وَشَرَابَهَا، وزُوِيَت عَنَّا الآخِرَة فَاخْتَرْنَا هَذَا العَاجِلَ وَتَرَكْنَا الآجِل. وَهَذَا مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّوَاضُعِ وَالهَضْمِ، أَوْ هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الجِنْسِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَن طَلَبَ الدُّنْيا أَضَرَّ بالآخِرةِ، ومَن طَلَبَ الآخِرةَ أَضَرَّ بالدُّنْيا؛ فأَضِرُّوا بالفَانِي لِلبَاقِي**» [السلسلة الصحيحة (٣٢٨٧)].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾؛ هَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالى فِي سُورَةِ النَّجْم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم]. الآيَاتِ إِلَى آخِرِهِنَّ. وَقَالَ أَبُو العَالِيَة: قِصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الصُّحُفِ الأُولَى. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أَيْ: مَضْمُونُ هَذَا الكَلَام، ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾. وَهَذَا اخْتِيَارٌ حَسَنٌ قَوِيٌّ. وَقَدْ رُوِي عَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ نَحْوهُ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

تفسير سورة الغاشية

(مكية)

عَنْ النُّعْمَان بن بَشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ في العِيدَيْنِ وفي الجُمُعَةِ بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾. قالَ: وإذا اجْتَمع العِيدُ والجُمُعَةُ في يَومٍ واحِدٍ، يَقْرَأُ بِهما أَيْضًا في الصَّلاتَيْنِ» [مسلم (٨٧٨)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾: مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ القِيَامَةِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ؛ لِأَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ وتَعُمُّهُم. وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾؛ أَيْ: ذَلِيلَةٌ. قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَخْشَعُ وَلَا يَنْفَعُهَا عَمَلُهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾؛ أَيْ: قَدْ عَمِلَتْ عَمَلًا كَثِيرًا وَنَصِبَتْ فِيهِ وَصَلِيَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً. ورُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ بِدَيْرِ رَاهِبٍ، فَنَادَاهُ: يَا رَاهِبُ، يَا رَاهِبُ، فَأَشْرَفَ.

فَجَعَلَ عُمَرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَبْكِي. فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا يُبْكِيكَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: ذَكَرْتُ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فَذَاكَ الَّذِي أَبْكَانِي.

وَقَالَ البُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ النَّصَارَى. وَعَنْ عِكْرِمَةَ، وَالسُّدِّي: ﴿عَامِلَةٌ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالمَعَاصِي، ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ فِي النَّارِ بِالعَذَابِ وَالأَغْلَالِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾؛ أَيْ: حَارَّةً شَدِيدَةَ الحَرِّ. ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾؛ أَيْ: قَدِ انْتَهَى حَرُّهَا وَغَلَيَانُهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: شَجَرٌ مِنْ نَارٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الزَّقُّومُ. وَعَنْهُ: أَنَّهَا الحِجَارَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَأَبُو الجَوْزَاءِ، وَقَتَادَةُ: هُوَ الشِّبْرِقُ. قَالَ قَتَادَةُ: قُرَيْشٌ تُسَمِّيهِ فِي الرَّبِيعِ (الشِّبْرِقُ)، وَفِي الصَّيْفِ (الضَّرِيعُ). قَالَ عِكْرِمَةُ: وَهُوَ شَجَرَةٌ ذَاتُ شَوْكٍ لَاطِئَةٌ بِالْأَرْضِ.

وَقَالَ البُخَارِيُّ: قَالَ مُجَاهِدٌ: الضَّرِيعُ نَبْتٌ يُقَالُ لَهُ: الشِّبْرِقُ، يُسَمِّيهِ أَهْلُ الحِجَازِ: الضَّرِيعَ إِذَا

يَبِسَ، وَهُوَ سُمٌّ. وعَنْ قَتَادَةَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ مِنْ شَرِّ الطَّعَامِ وَأَبْشَعِهِ وَأَخْبَثِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾؛ يَعْنِي: لَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودٌ، وَلَا يَنْدَفِعُ بِهِ مَحْذُورٌ.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ، ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ، فَقَالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أَيْ: يَوْمَ القِيَامَةِ. ﴿نَّاعِمَةٌ﴾؛ أَيْ: يُعْرَفُ النَّعِيمُ فِيهَا، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ بِسَعْيِهَا. وَقَالَ سُفْيَانُ: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهَا[1]. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾؛ أَيْ: رَفِيعَةٍ بَهِيَّةٍ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾؛ أَيْ: لَا يُسْمَعُ فِي الجَنَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا كَلِمَة لَغْوٍ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾؛ أَيْ: سَارِحَةٌ. وَهَذِهِ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الإِثْبَاتِ، وَلَيْسَ المُرَادُ بِهَا عَيْنًا وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هَذَا جِنْسٌ. يَعْنِي: فِيهَا عُيُونٌ جَارِيَاتٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن آمَنَ باللهِ وبِرَسولِهِ، وأَقامَ الصَّلاةَ، وصَامَ رَمَضانَ؛ كَانَ حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ في سَبيلِ اللهِ أوْ جَلَسَ في أَرْضِهِ الَّتي وُلِدَ فِيهَا، فَقَالوا: يَا رَسولَ اللهِ، أفَلا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: إنَّ في الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَبيلِ اللهِ، مَا بيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلى الجَنَّةِ -أُرَاهُ- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهَارُ الجَنَّةِ» [البخاري (٢٧٩٠)].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾؛ أَيْ: عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ كَثِيرَةُ الفُرُشِ، مُرْتَفِعَةُ السُّمْكِ، عَلَيْهَا الحُورُ العِينُ. قَالُوا: فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ اللهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى تِلْكَ السُّرُرِ العَالِيَةِ؛ تَوَاضَعَتْ لَهُ.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ يَعْنِي: أَوَانِي الشُّرْبِ مُعَدَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّمَارِقُ: الوَسَائِدُ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ، وَغَيْرُهُمْ.

---

(١) وَقَالَ ابْنُ جَرير: «لِعَمَلِهَا الذي عَمِلَتْ في الدُّنْيَا مِنْ طَاعَةِ رَبِّهَا رَاضِيَةٌ. وَقِيل: لِثَوَابِ سَعْيِهَا في الآخِرَةِ رَاضِيَةٌ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الزَّرَابِيُّ: البُسُطُ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَمَعْنَى ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾؛ أَيْ: هَاهُنَا وَهَاهُنَا لِمَنْ أَرَادَ الجُلُوسَ عَلَيْهَا.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟! فَإِنَّهَا خَلْقٌ عَجِيبٌ، وَتَرْكِيبُهَا غَرِيبٌ، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ القُوَّةِ وَالشِّدَّةِ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينُ لِلْحِمْلِ الثَّقِيلِ، وَتَنْقَادُ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ، وَتُؤْكَلُ، وَيُنْتَفَعُ بِوَبَرِهَا، وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا. وَنُبِّهُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ العَرَبَ غَالِبُ دَوَابِّهِمْ كَانَتِ الإِبِلُ. وَكَانَ شُرَيْحٌ القَاضِي يَقُولُ: اخْرُجُوا بِنَا حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ!

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾؟! أَيْ: كَيْفَ رَفَعَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنِ الأَرْضِ هَذَا الرَّفْعَ العَظِيمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾؟!؛ أَيْ: جُعِلَتْ مَنْصُوبَةً قَائِمَةً ثَابِتَةً رَاسِيَةً لِئَلَّا تَمِيدَ الأَرْضُ بِأَهْلِهَا، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ المَنَافِعِ وَالمَعَادِنِ.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؟!؛ أَيْ: كَيْفَ بُسِطَتْ وَمُدَّتْ وَمُهِّدَتْ، فَنَبَّهَ البَدَوِيَّ عَلَى الاِسْتِدْلَالِ بِمَا يُشَاهِدُهُ -مِنْ بَعِيرِهِ الَّذِي هُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ، وَالسَّمَاءِ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِهِ، وَالجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَهُ، وَالأَرْضِ الَّتِي تَحْتَهُ- عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ ذَلِكَ وَصَانِعِهِ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ العَظِيمُ الخَالِقُ المُتَصَرِّفُ المَالِكُ، وَأَنَّهُ الإِلَهُ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ سِوَاهُ. وَهَكَذَا أَقْسَمَ ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي سُؤَالِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسولَ اللهِ ﷺ عَن شَيءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِن أَهْلِ البَادِيَةِ العَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، ونَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِن أَهْلِ البَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: صَدَقَ، قَالَ: فَمَن خَلَقَ السَّماءَ؟ قَالَ: اللهُ، قَالَ: فَمَن خَلَقَ الأَرْضَ؟ قَالَ: اللهُ، قَالَ: فَمَن نَصَبَ هَذِهِ الجِبالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: اللهُ، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الجِبالَ، آللهُ

أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: وزَعَمَ رَسولُكَ أنَّ علينا خَمْسَ صَلَواتٍ في يَومِنا ولَيْلَتِنا، قَالَ: **صَدَقَ**، قَالَ: فَبِالَّذِي أرْسَلَكَ، آللهُ أمَرَكَ بهذا؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: وَزَعَمَ رَسولُكَ أنَّ علينا زَكاةً في أمْوالِنا، قَالَ: **صَدَقَ**، قَالَ: فَبالَّذِي أرْسَلَكَ، آللهُ أمَرَكَ بهذا؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: وزَعَمَ رَسولُكَ أنَّ علينا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضانَ في سَنَتِنا، قَالَ: **صَدَقَ**، قَالَ: فَبالَّذِي أرْسَلَكَ، آللهُ أمَرَكَ بهذا؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: وزَعَمَ رَسولُكَ أنَّ علينا حَجَّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: **صَدَقَ**، قَالَ: ثُمَّ ولَّى، قَالَ: وَالذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلا أنْقُصُ مِنْهُنَّ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: **لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ**» [مسلم (١٢)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾؛ **أَيْ**: فَذَكِّرْ -يَا مُحَمَّدُ- النَّاسَ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُهُمَا: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ. **أَيْ**: لَسْتَ تَخْلُقُ الإيمَانَ في قُلُوبِهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الإيمَانِ. وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَقولوا: لا إلَهَ إلا اللهُ، فَإذا قَالوا: لا إلَهَ إلا اللهُ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِماءَهُمْ وأَمْوالَهُمْ إلا بِحَقِّها، وَحِسابُهُمْ عَلى اللهِ**. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾» [مسلم (٢١)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ**﴾؛ **أَيْ**: تَوَلَّى عَنِ العَمَلِ بِأَرْكَانِهِ، وَكَفَرَ بِالحَقِّ بِجَنَانِهِ وَلِسَانِهِ. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ**﴾ [القيامة: ٣١-٣٢]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ**﴾. وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا مَنْ شَرَدَ عَلى اللهِ شِرادَ البَعِيرِ عَلى أَهْلِهِ**» [السلسلة الصحيحة (٢٠٤٣)][1].

وَقَوْلُهُ: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ**﴾؛ **أَيْ**: مَرْجِعَهُمْ وَمُنْقَلَبَهُمْ. ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم**﴾؛ **أَيْ**: نَحْنُ نُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَنُجَازِيهِمْ بِهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًا فَشَرٌّ.

❁ ❁ ❁

(١) وَعَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَدْخُلُنَّ الجَنَّةَ كُلُّكُمْ إلا مَنْ أَبَى وَشَرَدَ عَلَى اللهِ كَشُرُودِ البَعِيرِ، قالوا: وَمَنْ يَأْبى أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ؟ فَقَالَ: مَنْ أَطاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصانِي فَقَد أَبَى!**» [السلسلة الصحيحة (٢٠٤٤)].

تفسير سورة الفجر

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

أَمَّا ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ فَمَعْرُوفٌ، وَهُوَ: الصُّبْحُ. قَالَهُ عَلِيٌّ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالسُّدِّيُّ.

وَعَنْ مَسْرُوقٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ: المُرَادُ بِهِ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ خَاصَّةً، وَهُوَ خَاتِمَةُ اللَّيَالِي العَشْرِ. وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ الصَّلَاةُ الَّتِي تُفْعَلُ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَهُ عِكْرِمَةُ. وَقِيلَ: المُرَادُ بِهِ جَمِيعُ النَّهَارِ. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ وَاللَّيَالِي العَشْرُ: المُرَادُ بِهَا عَشْرُ ذِي الحِجَّةِ. كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الحَدِيثِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنهَا فِي هَذِهِ**، قَالوا: وَلا الجِهَادُ؟ قَالَ: **وَلا الجِهَادُ، إِلا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيءٍ**» [البخاري (٩٦٩)]. وَفِي رِوَايَةٍ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ** -يَعْنِي: عَشْرَ ذِي الحِجَّةِ- **قَالُوا: وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**» [صحيح سنن أبي داود (٢٤٣٨)].

وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ: العَشْرُ الأُوَلُ مِنَ المُحَرَّمِ. حَكَاهُ أَبو جَعْفَر ابن جَرِيرٍ وَلَمْ يَعْزُهُ إِلَى أَحَدٍ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هِيَ العَشْرُ الْأُوَلُ مِنْ رَمَضَانَ.

وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضا: هِيَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَان. وَالصَّحِيحُ القَوْلُ الْأَوَّلُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ الوَتْر يَوْمُ عَرَفَةَ لِكَوْنِهِ التَّاسِع، وَالشَّفْع يَوْمُ النَّحْرِ لِكَوْنِهِ العَاشِر. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك.

قَوْلٌ ثَانٍ: عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: الشَّفْع يَوْمُ عَرَفَة، وَالوَتْر لَيْلَةُ الْأَضْحَى.

قَوْلٌ ثَالِث: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْر: الشَّفْعُ قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾، وَالوَتْرُ قَوْلُهُ: ﴿**وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وَعَنْهُ: الشَّفْعُ أَوْسَطُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَالوَتْرُ آخِرُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.

وَفِي الحَدِيث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلا وَاحِدًا، مَن أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**». وَزَادَ هَمَّامٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّه وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» [مسلم (٢٦٧٧)].

قَوْلٌ رَابِعٌ: قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الخَلْقُ كُلُّهُمْ شَفْعٌ وَوِتْرٌ؛ أَقْسَمَ تَعَالَى بِخَلْقِهِ. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ مُجَاهِدٍ. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: اللهُ وِتْرٌ وَاحِدٌ، وَأَنْتُمْ شَفْعٌ. وَيُقَالُ: الشَّفْعُ صَلَاةُ الغَدَاةِ، وَالوَتْرُ: صَلَاةُ المَغْرِبِ.

قَوْلٌ خَامِسٌ: عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ شَفْعٌ؛ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَالبَرُّ وَالبَحْرُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ، وَنَحْو هَذَا. وَنَحَا مُجَاهِدٌ فِي هَذَا إِلى مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات: ٤٩]؛ **أَيْ**: لِتَعْلَمُوا أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ وَاحِدٌ.

قَوْلٌ سَادِسٌ: عَنِ الحَسَنِ: هُوَ العَدَدُ؛ مِنْهُ شَفْعٌ وَمِنْهُ وَتْرٌ.

قَوْلٌ سَابِعٌ: قَالَ أَبُو العَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُمَا: هِيَ الصَّلَاةُ؛ مِنْهَا شَفْعٌ كَالرُّبَاعِيَّةِ وَالثُّنَائِيَّةِ، وَمِنْهَا وَتْرٌ كَالمَغْرِبِ، فَإِنَّهَا ثَلَاثٌ، وَهِيَ وَتْرُ النَّهَارِ. وَكَذَلِكَ صَلَاةُ الوِتْرِ فِي آخِرِ التَّهَجُّدِ مِنَ اللَّيْلِ. وَلَمْ يَجْزِم ابْنُ جَرِيرٍ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ فِي الشَّفْعِ وَالوَتْرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: **أَيْ**: إِذَا ذَهَبَ. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: حَتَّى يُذْهِبَ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو العَالِيَةِ، وَقَتَادَةُ، وَمَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَابْنِ زَيْدٍ: إِذَا سَارَ.

وَهَذَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى مَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، **أَيْ**: ذَهَبَ. ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ المُرادُ إذا سَارَ، **أَيْ**: أَقْبَلَ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا أَنْسَبُ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿**وَٱلْفَجْرِ**﴾ فَإِنَّ الفَجْرَ هُوَ إِقْبَالُ النَّهَارِ وَإِدْبَارُ اللَّيْلِ، فَإِذَا حُمِلَ قَوْلُهُ: ﴿**وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾ عَلَى إِقْبَالِهِ كَانَ قَسَمًا بِإِقْبَالِ اللَّيْلِ وَإِدْبَارِ النَّهَارِ،

وَبِالعَكْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧-١٨].

وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾؛ أَيْ: يَجْرِي. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي: لَيْلَةَ جَمْعٍ. وَعَنْ مُحَمَّد بْنِ كَعْب القُرَظِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قَالَ: اسْرِ يَا سَارِ وَلَا تَبِيتَنَّ إِلَّا بِجَمْعٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾؛ أَيْ: لِذِي عَقْلٍ وَلُبٍّ وَدِينٍ وَحِجَا. وَإِنَّمَا سُمِّيَ العَقْلُ حِجْرًا؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ. وَمِنْهُ: حِجْرُ البَيْتِ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الطَّائِفَ مِنَ اللُّصُوقِ بِجِدَارِهِ الشَّامِيِّ. وَمِنْهُ: حَجَرَ الحَاكِمُ عَلَى فُلَانٍ: إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ، ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢]، كُلُّ هَذَا مِنْ قَبِيلٍ وَاحِدٍ، وَمَعْنًى مُتَقَارِبٍ، وَهَذَا القَسَمُ هُوَ بِأَوْقَاتِ العِبَادَةِ، وَبِنَفْسِ العِبَادَةِ مِنْ حَجٍّ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ القُرَبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ عِبَادُهُ المُتَّقُونَ المُطِيعُونَ لَهُ، الخَائِفُونَ مِنْهُ، المُتَوَاضِعُونَ لَدَيْهِ، الخَاشِعُونَ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ.

وَلَمَّا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ وَعِبَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُتَمَرِّدِينَ عُتَاةً جَبَّارِينَ، خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ مُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ، جَاحِدِينَ لِكُتُبِهِ؛ فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ وعِبَرًا، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾؟

وَهَؤُلَاءِ عَادٌ الأُولَى، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ. وَهُمُ الَّذِينَ بَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ هُودًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ، وَأَهْلَكَهُمْ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ قِصَّتَهُمْ فِي القُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، لِيَعْتَبِرَ بِمَصْرَعِهِمُ المُؤْمِنُونَ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ؛ زِيَادَةُ تَعْرِيفٍ بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بُيُوتَ الشَّعْرِ الَّتِي تُرْفَعُ بِالأَعْمِدَةِ الشِّدَادِ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ خِلْقَةً وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا، وَلِهَذَا ذَكَّرَهُم هُودٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وَقَالَ

تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾؛ أَيْ: القَبِيلَةُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي بِلَادِهِمْ، لِقُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ وَعِظَمِ تَرْكِيبِهِمْ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِرَمَ﴾: أُمَّةٌ قَدِيمَةٌ. يَعْنِي: عَادًا الأُولَى. كَمَا قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ، والسُّدِّيُّ: إِنَّ (إِرَمَ) بَيْتُ مَمْلَكَةِ عَادٍ. وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالكَلْبِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ كَانُوا أَهْلَ عَمُودٍ لَا يُقِيمُونَ؛ أَيْ: سَيَّارَة، يَنْتَجِعُونَ الغُيُوثَ، وَيَنْتَقِلُون إِلى الكَلَأ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلى مَنَازِلِهِم.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أَعَادَ ابْنُ زَيْدٍ الضَّمِيرَ عَلَى العِمَادِ؛ لِارْتِفَاعِهَا، وَقَالَ: بَنَوْا عُمُدًا بِالأَحْقَافِ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ. وَأَمَّا قَتَادَةُ وَابْنُ جَرِيرٍ فَأَعَادَا الضَّمِيرَ عَلَى القَبِيلَةِ. أَيْ: لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُ تِلْكَ القَبِيلَةِ فِي البِلَادِ. يَعْنِي: فِي زَمَانِهِمْ.

وَهَذَا القَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ وَمَنْ ذَهَبَ مَذْهَبَهُ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ أَرَادَ ذَلِكَ لَقَالَ: الَّتِي لَمْ يُعْمَلْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾. قُلْتُ: فَعَلَى كُلِّ قَوْلٍ سَوَاءٌ كَانَتِ العِمَادُ أَبْنِيَةً بَنَوْهَا، أَوْ أَعْمِدَةً بُيُوتِهِمْ لِلْبَدْوِ، أَوْ سِلَاحًا يُقَاتِلُونَ بِهِ، أَوْ طُول الوَاحِدِ مِنْهُمْ؛ فَهُمْ قَبِيلَةٌ وَأُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ، وَهُمُ المَذْكُورُونَ فِي القُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، المَقْرُونُونَ بِثَمُودَ كَمَا هَاهُنَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ مَدِينَة؛ إِمَّا دِمَشْقُ، كَمَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ وَعِكْرِمَةَ، أَوِ إِسْكَنْدَرِيَّةُ، كَمَا رُوِي عَنِ القُرَظِي، أَوْ غَيْرُهُمَا، فَفِيهِ نَظَرٌ، فَإِنَّهُ كَيْفَ يَلْتَئِمُ الكَلَامُ عَلَى هَذَا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ إِنْ جَعَلَ ذَلِكَ بَدَلًا أَوْ عَطْفَ بَيَانٍ؟!، فَإِنَّهُ لَا يَتَّسِقُ الكَلَامُ حِينَئِذٍ. ثُمَّ المُرَادُ إِنَّمَا هُوَ الإِخْبَارُ عَنْ إِهْلَاكِ القَبِيلَةِ المُسَمَّاةِ بِعَادٍ، وَمَا أَحَلَّ اللهُ بِهِمْ مِنْ بَأْسِهِ الَّذِي لَا يُرَد، لَا أَنَّ المُرَادَ الإِخْبَارُ عَنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيم.

وَإِنَّمَا نَبَّهْتُ عَلَى ذَلِكَ لِئَلَّا يُغْتَرَّ بِكَثِيرٍ مِمَّا ذَكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ، مِنْ ذِكْرِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ قُصُورُهَا وَدُورُهَا وَبَسَاتِينُهَا، وَأَنَّ حَصْبَاءَهَا لَآلِئُ وَجَوَاهِر، وَتُرَابُهَا بَنَادِقُ المِسْكِ، وَأَنْهَارُهَا سَارِحَةٌ، وَثِمَارُهَا سَاقِطَةٌ، وَدُورُهَا لَا

أَنِيسَ بِهَا، وَسُورُهَا وَأَبْوَابُهَا تَصفر، لَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيب. وَأَنَّهَا تَنْتَقِلُ فَتَارَة تَكُونُ بِأَرْضِ الشَّام، وَتَارَة بِاليَمَنِ، وَتَارَة بِالعِرَاقِ، وَتَارَة بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ البِلَادِ. فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ خُرَافَاتِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ، مِنْ وَضْعِ بَعْضِ زَنَادِقَتِهِمْ، لِيَخْتَبِرُوا بِذَلِكَ عُقُولَ الجَهَلَةِ مِنَ النَّاسِ أَنْ تُصَدِّقَهُمْ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ.

وَهَذَا مِمَّا يُقْطَعُ بِعَدَمِ صِحَّتِهِ. وَهَذَا قَرِيبٌ مِمَّا يُخْبِرُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الجَهَلَةِ وَالطَّامِعِينَ وَالمُتَحَيِّلِينَ، مِنْ وُجُودِ مَطَالِبَ تَحْتَ الأَرْضِ، فِيهَا قَنَاطِيرُ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَأَلْوَانِ الجَوَاهِرِ وَاليَوَاقِيتِ وَاللَّآلِئِ وَالإِكْسِيرِ الكَبِيرِ، لَكِنْ عَلَيْهَا مَوَانِعُ تَمْنَعُ مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهَا وَالأَخْذِ مِنْهَا، فَيَحْتَالُونَ عَلَى أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ وَالضَّعَفَةِ وَالسُّفَهَاءِ، فَيَأْكُلُونَهَا بِالبَاطِلِ فِي صَرْفِهَا فِي بَخَاخِيرَ وَعَقَاقِيرَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الهَذَيَانَاتِ، ويَطْنُزُون بِهِمْ. وَالَّذِي يُجْزَمُ بِهِ أَنَّ فِي الأَرْضِ دَفَائِنَ جَاهِلِيَّة وَإِسْلَامِيَّة وَكُنُوزًا كَثِيرَة، مَنْ ظَفَرَ بِشَيْءٍ مِنْهَا أَمْكَنَهُ تَحْوِيلُهُ، فَأَمَّا عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي زَعَمُوهَا فَكَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ وَبُهْتٌ، وَلَمْ يَصِحَّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَقُولُونَ إِلَّا عَنْ نَقْلِهِمْ أَوْ نَقْلِ مَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الهَادِي لِلصَّوَابِ.

وقولُ ابْنِ جَرِيرٍ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ قَبِيلَةً أَوْ بَلْدَةً كَانَتْ عَادٌ تَسْكُنُهَا، فَلِذَلِكَ لَمْ تُصرَف، فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ المُرَادَ مِنَ السِّيَاقِ إِنَّمَا هُوَ الإِخْبَارُ عَنِ القَبِيلَةِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾؛ يَعْنِي: يَقْطَعُونَ الصَّخْرَ بِالوَادِي.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْحِتُونَهَا وَيَخْرِقُونَهَا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَمِنْهُ يُقَالُ: اجْتَابَ الثَّوْبَ: إِذَا فَتَحَهُ. وَمِنْهُ: الجَيْبُ أَيْضًا. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

وَأَنْشَدَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَاهُنَا قَوْلَ الشَّاعِرِ:

أَلا كُلُّ شَيْءٍ -مَا خَلَا اللهَ- بَائِدٌ ... كَمَا بَادَ حَيٌّ مِنْ شَنِيفٍ وَمَارِدِ

هُمُ ضَرَبُوا فِي كُلِّ صَمَّاءَ صَعْدَةٍ ... بِأَيْدٍ شِدَادٍ أَيِّدَاتِ السَّوَاعِدِ

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانُوا عَرَبًا، وَكَانَ مَنْزِلُهُمْ بِوَادِي القُرَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الأَوْتَادُ: الجُنُودُ الَّذِينَ يَشُدُّونَ لَهُ أَمْرَهُ. وَيُقَالُ: كَانَ فِرْعَوْنُ يُوتِدُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي أَوْتَادٍ مِنْ حَدِيدٍ يُعَلِّقُهُمْ بِهَا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ يُوتِدُ

النَّاسَ بِالأَوْتَادِ. وَهَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالحَسَنُ، وَالسُّدِّيُّ.

قَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ يَرْبِطُ الرَّجُلَ، كُلُّ قَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِهِ فِي وَتِدٍ ثُمَّ يُرْسِلُ عَلَيْهِ صَخْرَةً عَظِيمَةً فَتَشْدَخُهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنَا أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَطَالٌّ وَمَلَاعِبُ -يُلْعَبُ لَهُ تَحْتَهَا- مِنْ أَوْتَادٍ وَحِبَالٍ.

وَعَنْ أَبِي رَافِعٍ: قِيلَ لِفِرْعَوْنَ ﴿ذِي ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ لِأَنَّهُ ضَرَبَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى ظَهْرِهَا رَحًى عَظِيمَةً حَتَّى مَاتَتْ(١).

[وَسَيَأْتِي ذِكْرُ قِصَّةِ هُود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلى عَاد، وقِصَّة صَالِح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلى ثَمُود؛ فِي نِهَايَةِ تَفْسِيرِ هذِهِ السُّورَة. وَقَد تقدَّمَ ذِكْرُ قِصَّة مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلى فِرْعَوْن فِي سُورَة النَّازِعَات].

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾؛ أَيْ: تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ بِالْإِفْسَادِ وَالْأَذِيَّةِ لِلنَّاسِ.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ أَيْ: أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ، وَأَحَلَّ بِهِمْ عُقُوبَةً لَا يَرُدُّهَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَسْمَعُ وَيَرَى. يَعْنِي: يَرْصُدُ خَلْقَهُ فِيمَا يَعْمَلُونَ، وَيُجَازِي كُلًّا بِسَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى، وَسَيُعْرَضُ الخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ، وَيُقَابِلُ كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ. وَهُوَ المُنَزَّهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالجَوْرِ.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الإِنْسَانِ فِي اعْتِقَادِهِ إِذَا وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ لِيَخْتَبِرَهُ فِي ذَلِكَ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِكْرَامٌ لَهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ فِرْعَوْنَ أَوْتَدَ لامرَأَتِهِ أربعَةَ أَوْتادٍ فِي يَدَيْها ورِجْلَيْها، فَكَانَ إذا تَفَرَّقُوا عَنْها ظَلَّلَتْهَا المَلائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَكُشِفَ لَهَا عَن بَيْتِهَا فِي الجَنَّةِ» [السلسلة الصحيحة (٢٥٠٨)].

﴿وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ وَكَذَلِكَ فِي الجَانِبِ الآخَرِ إِذَا ابْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ وَضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ، يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِهَانَةٌ لَهُ. قَالَ اللهُ: ﴿كَلَّا﴾؛ أَيْ: لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا، فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي المَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَإِنَّمَا المَدَارُ فِي ذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ فِي كُلٍّ مِنَ الحَالَيْنِ، إِذَا كَانَ غَنِيًّا بِأَنْ يَشْكُرَ اللهَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا بِأَنْ يَصْبِرَ(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فِيهِ أَمْرٌ بِالْإِكْرَامِ لَهُ، وَفِي الحَدِيثِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ». وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ الوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ. [صحيح سنن أبي داود (٥١٥٠)].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾؛ يَعْنِي: لَا تَأْمُرُونَ بِالإِحْسَانِ إِلَى الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ، وَلَا يَحُثُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي ذَلِكَ. ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾؛ يَعْنِي: المِيرَاثَ. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾؛ أَيْ: مِنْ أَيِّ جِهَةٍ حَصَلَ لَكُمْ مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أَيْ: كَثِيرًا. زَادَ بَعْضُهُمْ: فَاحِشًا.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الأَهْوَالِ العَظِيمَةِ، فَقَالَ: ﴿كَلَّآ﴾؛ أَيْ: حَقًّا.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾؛ أَيْ: وُطِّئَتْ وَمُهِّدَتْ وَسُوِّيَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ، وَقَامَ

---

(١) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُم أَخْلاقَكُم كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُم أَرزَاقَكُم، وَإِنَّ اللهَ يُعطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلَّا مَن أَحَبَّ، فَمَن ضَنَّ بِالمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَخَافَ العَدوَّ أَنْ يُجَاهِدَهُ، وَهَابَ الليلَ أَنْ يُكَابِدَهُ، فَلْيُكْثِر مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ، وَلَا إِلهَ إِلا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ» [السلسلة الصحيحة (٢٧١٤)]. وَعَنْ صُهَيْب بنِ سِنَان الرُّومِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [مسلم (٢٩٩٩)].

الخَلَائِقُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّهِمْ؛ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ يَعْنِي: لِفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الإِطْلَاقِ مُحَمَّد ﷺ، بَعْدَمَا يَسْأَلُونَ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَاكُمْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ النَّوْبَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ: «**أَنَا لَهَا**» [البخاري (٧٥١٠)].

فَيَذْهَبُ فَيَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَصْلِ القَضَاءِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ أَوَّلُ الشَّفَاعَاتِ، وَهِيَ المَقَامُ المَحْمُودُ(١)، فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَصْلِ القَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ. ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾؛ وَالمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا صُفُوفًا.

﴿وَجِاْۓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾؛ عَنْ عَبْدِالله بنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤْتى بجَهَنَّمَ يومَئذٍ لَهَا سَبْعُونَ ألْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبْعُونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها**» [مسلم (٢٨٤٢)].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أَيْ: عَمَلَهُ وَمَا كَانَ أَسْلَفَهُ فِي قَدِيمِ دَهْرِهِ وَحَدِيثِهِ. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أَيْ: وَكَيْفَ تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى؟!

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾؛ يَعْنِي: يَنْدَمُ عَلَى مَا كَانَ سَلَفَ مِنْهُ مِنَ المَعَاصِي -إِنْ كَانَ عَاصِيًا- وَيَوَدُّ لَوْ كَانَ ازْدَادَ مِنَ الطَّاعَاتِ -إِنْ كَانَ طَائِعًا- كَمَا جَاءَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَمِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْم وُلِدَ إِلَى يَوْم يَمُوت هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَحَقَرَهُ ذَلِكَ اليَوْمَ، وَلَوَدَّ أَنَّهُ رُدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنَ الْأَجْرِ

---

(١) كَمَا فِي الحَدِيث: «**إِذا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فيَقولونَ: اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ، فيَقولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ علَيْكُم بإبْراهِيمَ فإنَّه خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إبْراهِيمَ، فيَقولُ: لَسْتُ لَهَا، ولَكِنْ علَيْكُم بمُوسى فإنَّه كَلِيمُ اللهِ، فَيَأْتُونَ مُوسى فيَقولُ: لَسْتُ لَهَا، ولَكِنْ علَيْكُم بعِيسى فإنَّه رُوحُ اللهِ وكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسى، فيَقولُ: لَسْتُ لَهَا، ولَكِنْ علَيْكُم بمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فأقُولُ: أَنَا لَهَا، فأسْتَأْذِنُ علَى رَبِّي، فيُؤْذَنُ لِي، ويُلْهِمُنِي مَحامِدَ أحْمَدُهُ بِهَا لا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بتِلْكَ المَحامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**» [جزء من حديث الشفاعة، البخاري (٧٥١٠)]، وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَجْمَعُ اللهُ الخَلْقَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَبِكَ وَإِلَيْكَ، وَالمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ البَيْتِ**» [الألباني، تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم (٧٨٩)]. قَالَ حُذَيْفَةُ: فَذَلِكَ المَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي يَغْبِطُهُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ.

وَالثَّوَابِ» [صحيح الترغيب (٣٥٩٧)][1].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ أَيْ: لَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ تَعْذِيبِ اللهِ مَنْ عَصَاهُ. ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ أَيْ: وَلَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ قَبْضًا وَوَثْقًا مِنَ الزَّبَانِيَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ. هَذَا فِي حَقِّ المُجْرِمِينَ مِنَ الخَلَائِقِ وَالظَّالِمِينَ.

فَأَمَّا النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ المُطْمَئِنَّةُ -وَهِيَ السَّاكِنَةُ الثَّابِتَةُ الدَّائِرَةُ مَعَ الحَقِّ- فَيُقَالُ لَهَا: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ أَيْ: إِلَى جِوَارِهِ وَثَوَابِهِ وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ.

﴿رَاضِيَةً﴾؛ أَيْ: فِي نَفْسِهَا. ﴿مَّرْضِيَّةً﴾؛ أَيْ: قَدْ رَضِيَتْ عَنِ اللهِ وَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾؛ أَيْ: فِي جُمْلَتِهِمْ. ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾؛ وَهَذَا يُقَالُ لَهَا عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، وَفِي يَوْمِ القِيَامَةِ أَيْضًا، كَمَا أَنَّ المَلَائِكَةَ يُبَشِّرُونَ المُؤْمِنَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ قَبْرِهِ، فَكَذَلِكَ هَاهُنَا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فَيَمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَرَوَى الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَعَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ: نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُقَالُ لِلْأَرْوَاحِ المُطْمَئِنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ يَعْنِي: صَاحِبُكِ -وَهُوَ بَدَنُهَا الَّذِي كَانَتْ تعمرُهُ فِي الدُّنْيَا- ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالكَلْبِيُّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَهُوَ غَرِيبٌ، وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]؛ أَيْ: إِلَى حُكْمِهِ وَالوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

❁ ❁ ❁

(١) «فالعَبْدُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ اللهِ وَاشْتَغَلَ بِالمَعَاصِي ضَاعَتْ عَلَيْهِ أَيَّامُ حَيَاتِهِ الحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يَجِدُ غِبَّ إِضَاعَتِهَا يَوْمَ يَقُولُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] ... وَسِرُّ المَسْأَلَةِ أَنَّ عُمُرَ الإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ، وَلَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِإِقْبَالِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَالتَّنَعُّمِ بِحُبِّهِ وَذِكْرِهِ، وَإِيثَارِ مَرْضَاتِهِ» [ابن قيِّم الجوزية].

فَصْلٌ: ذِكْرُ قِصَّةِ عَاد، وقِصَّةِ ثَمود

قِصَّةُ هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى عَاد

«كَانَ من قَبيلَة يُقَال لَهُم: عَاد. وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ -وَهِيَ جِبَالُ الرَّمْلِ- وَكَانَت باليمن بَين عُمان وَحَضرمَوْت، بِأَرْضٍ مُطِلَّةٍ عَلَى البَحْرِ يُقَالُ لَهَا: الشَّحْرُ، وَاسْمُ وَادِيهِمْ: مُغِيثٌ. وَكَانُوا كَثِيرًا مَا يَسْكُنُونَ الخِيَامَ ذَوَاتِ الْأَعْمِدَةِ الضِّخَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أَيْ: عَادِ إِرَمَ، وَهُم عَادٌ الأولى. وَأما عَادٌ الثَّانِيَة؛ فَمُتَأَخِّرة كَمَا سَيَأْتِي بَيَان ذَلِك فِي مَوْضِعه. وَالمَقْصُودُ أَنَّ عَادًا -وَهُمْ عَادُ الْأُولَى- كَانُوا أَوَّلَ مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ بَعْدَ الطُّوفَانِ؛ فَبَعَثَ اللهُ فِيهِمْ أَخَاهُمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قَوْمِ نُوحٍ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّةِ نُوحٍ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ

أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۖ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ «قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ» بَعْدَ قِصَّةِ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاء بَعْدَ قِصَّةِ قَوْمِ نُوحٍ أَيْضا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ حم فُصِّلت: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَحْقَاف: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى فِي الذَّارِيَاتِ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢]. وَقَالَ تَعَالَى فِي النَّجْم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ اقْتَرَبَتْ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٢].

وَقَالَ فِي الحَاقَّة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨]. وَقَالَ فِي سُورَةِ الْفَجْرِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ (عَاد) فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ وَإِبْرَاهِيمَ وَالفُرْقَان وَالعَنْكَبُوت وَفِي سُورَةِ ص، وَفِي سُورَةِ ق. وَلْنَذْكُرْ مَضْمُونَ القِصَّةِ مَجْمُوعًا مِنْ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ، مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُمْ أَوَّلُ الأُمَمِ الَّذِين عَبَدُوا الْأَصْنَامَ بَعْدَ الطُّوفَانِ. وَذَلِكَ بَيِّنٌ فِي قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] أَيْ: جَعَلَهُمْ أَشَدَّ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فِي الخِلْقَةِ وَالشِّدَّةِ وَالبَطْشِ. وَقَالَ فِي المُؤْمِنُونَ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، وَهُمْ قَوْمُ هُودٍ عَلَى الصَّحِيحِ. وَزَعَمَ آخَرُونَ: أَنَّهُمْ ثَمُودُ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ [المؤمنون: ٤١]، قَالُوا: وَقَوْمُ صَالِحٍ هُمُ الَّذِينَ أُهْلِكُوا بِالصَّيْحَةِ، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ لَا يَمْنَعُ مِن اجْتِمَاعِ الصَّيْحَةِ وَالرِّيحِ العَاتِيَةِ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا فِي قِصَّةِ أَهْلِ مَدْيَنَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ فَإِنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعٌ مِنَ العُقُوبَاتِ. ثُمَّ لَا خِلَافَ أَنَّ عَادًا قَبْلَ ثَمُودَ. وَالمَقْصُود: أَن عادًا كَانُوا جُفَاةً كَافِرِينَ، عُتَاةً مُتَمَرِّدِينَ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَأَرْسَلَ اللهُ فِيهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى إِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَتَنَقَّصُوهُ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَرَغَّبَهُمْ فِي طَاعَتِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ، وَوَعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ ذَلِكَ عُقُوبَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] أَيْ: هَذَا الأَمْر الذي تَدْعُونا إِلَيْهِ سَفَهٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا نَحن عَلَيْهِ من عبَادَة هَذِه الأَصْنَامِ الَّتِي يُرتَجَى مِنْهَا النَّصْر وَالرِّزْق، وَمَعَ هَذَا نَظُن أَنَّكَ تَكْذِبُ فِي دَعْواك أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، أَي: لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا تَظُنُّون وَلَا كَمَا تَعْتَقِدُونَ. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] وَالبَلَاغُ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الكَذِبِ فِي أَصْلِ الْمُبَلَّغِ، وَعَدَمِ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَالنَّقْصِ مِنْهُ، وَيَسْتَلْزِم أَدَاءَهُ بِعِبَارَةٍ فَصِيحَةٍ وَجِيزَةٍ جَامِعَةٍ مَانِعَةٍ لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا اخْتِلَافَ وَلَا اضْطِرَابَ. وَهُوَ مَعَ هَذَا البَلَاغِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فِي غَايَةِ النُّصْحِ لِقَوْمِهِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ وَالحِرْصِ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، لَا يَبْتَغِي مِنْهُمْ أَجْرًا وَلَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ جُعْلا؛ بَلْ هُوَ مُخْلِصٌ لله عَزَّوَجَلَّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالنُّصْحِ لِخَلْقِهِ، لَا يَطْلُبُ أَجْرَهُ إِلَّا مِنَ الَّذِي أَرْسَلَهُ، فَإِنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ وَأَمْرُهُ إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١] أَيْ: أَمَا لَكُمْ عَقْلٌ تُمَيِّزُونَ بِهِ وَتَفْهَمُونَ أَنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى الحَقِّ المُبِينِ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ فِطَرُكُمُ الَّتِي خُلِقْتُمْ عَلَيْهَا، وَهُوَ دِينُ الحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ نُوحًا وَأَهْلَكَ مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْخَلْقِ.

وَهَا أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَلَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَلَيْهِ، بَلْ أَبْتَغِي ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ مَالِك الضُّرِّ وَالنَّفْعِ. وَلِهَذَا

قَالَ مُؤْمِنُ «يس»: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢١-٢٢]، وَقَالَ قَوْمُ هُود لَهُ فِيمَا قَالُوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]، يَقُولُونَ: مَا جِئْتَنَا بِخَارِقٍ يَشْهَدُ لَكَ بِصِدْقِ ماجئت بِهِ، وَمَا نَحْنُ بِالَّذِينِ نَتْرُكُ عِبَادَةَ أَصْنَامِنَا عَنْ مُجَرَّدِ قَوْلِكَ؛ بِلَا دَلِيلٍ أَقَمْتَهُ وَلَا بُرْهَانٍ نَصَبْتَهُ، وَمَا نَظُنُّ إِلَّا أَنَّكَ مَجْنُونٌ فِيمَا تَزْعُمه. وَعِنْدَنَا أَنه إِنَّمَا أَصَابَك هَذَا لأن بَعْضَ آلِهَتِنَا غَضِبَ عَلَيْكَ فَأَصَابَكَ فِي عَقْلِكَ فَاعْتَرَاكَ جُنُونٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ. وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وَهَذَا تحدٍّ مِنْهُ لَهُم، وتبرُّؤٌ من آلِهَتهم وتَنقُّصٌ مِنْهُ لَهَا، وَبَيَان أَنَّهَا لَا تَنْفَع شَيْئا وَلَا تَضُر، وَأَنَّهَا جَمَادٌ حُكْمُهَا حُكْمُهُ وَفِعْلُهَا فِعْلُهُ، فَإِن كَانَت كَمَا تَزْعُمُونَ من أَنَّهَا تَنْصُر وَتَنْفَع وَتَضُرُّ فَهَا أَنا بريءٌ مِنْهَا، لَاعِنٌ لَهَا، فَكِيدُونِي ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ أَنْتُم جَمِيعًا بِجَمِيعِ مَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَصِلُوا إِلَيْهِ وَتَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً وَلَا طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ فَإِنِّي لَا أُبَالِي بِكُمْ وَلَا أُفَكِّرُ فِيكُمْ، وَلَا أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ. ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] أَيْ: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللهِ وَمُتَأَيِّدٌ بِهِ، وَواثقٌ بِجَنَابِهِ الذي لَا يَضيع مَنْ لاذَ بِهِ وَاسْتَنَدَ إِلَيْهِ، فَلَسْتُ أُبَالي مَخْلُوقًا سِوَاهُ، وَلَسْتُ أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا أَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ. وَهَذَا وَحْدَهُ بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ هُودًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّهُمْ عَلَى جَهْلٍ وَضَلَالٍ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بِسُوءٍ وَلَا نَالُوا مِنْهُ مَكْرُوهًا، فَدَلَّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَبُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَفَسَادِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ.

وَهَذَا الدَّلِيلُ بِعَيْنِهِ قَدِ اسْتَدَلَّ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وَهَكَذَا قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ

يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٥]، اسْتَبْعَدُوا أَنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسُولًا بَشَرِيًّا.

وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ أَدْلَى بِهَا كَثِيرٌ مِنْ جَهَلَةِ الْكَفَرَةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]، وَلِهَذَا قَالَ لَهُم هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] أَيْ: لَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ؛ فَإِنَّ اللهَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٩]، اسْتَبْعَدوا المِيعَاد وَأَنْكَروا قِيَامَ الأَجْسَادِ بَعْدَ صَيْرُورَتِها تُرَابًا وَعِظَامًا، وَقَالُوا: هَيْهَات هَيْهَات، أَي: بعيدٌ بعيدٌ هَذَا الوَعْد، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أَيْ: يَمُوتُ قَوْمٌ وَيَحْيَا آخَرُونَ.

وَهَذَا هُوَ اعْتِقَادُ الدَّهْرِيَّةِ، كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الجَهَلَةِ مِنَ الزَّنَادِقَةِ: أَرْحَامٌ تدْفَعُ وَأَرْضٌ تَبْلَعُ. وَأَمَّا الدورِيَّةُ فَهُمُ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ بَعْدَ كُلِّ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَهَذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَكُفْرٌ وَجَهْلٌ وَضَلَالٌ، وَأَقْوَالٌ بَاطِلَةٌ وَخَيَالٌ فَاسِدٌ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا دَلِيلٍ، يَسْتَمِيلُ عَقْلَ الفَجَرَةِ الكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ

﴿إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا وَعَظَهُمْ بِهِ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، يَقُولُ لَهُمْ: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ بِنَاءً عَظِيمًا هَائِلًا كَالْقُصُورِ وَنَحْوِهَا، تَعْبَثُونَ بِبِنَائِهَا لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ فِيهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْخِيَامَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨] فَعَادُ إِرَمَ هُمْ عَادٌ الْأُولَى الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَعْمِدَةَ الَّتِي تَحْمِلُ الْخِيَامَ. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ «إِرَمَ» مَدِينَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَهِيَ تنْتَقل فِي الْبِلَاد، فقد غلط وَأَخْطَأَ، وَقَالَ مَا لا دَلِيل عَلَيْهِ.

وَقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قِيلَ: هِيَ القُصُورُ، وَقِيلَ: بُرُوجُ الحَمَامِ، وَقِيلَ: مَآخذ المَاء. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أَيْ: رَجَاءَ مِنْكُمْ أَنْ تُعَمِّرُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ أَعْمَارًا طَوِيلَةً ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠-١٣٥]، وَقَالُوا لَهُ مِمَّا قَالُوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] أَيْ: أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، وَنُخَالِف آبَاءَنَا وَأَسْلَافَنَا وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ؟ فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا جِئْتَ بِهِ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فَإِنَّا لَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا نَتَّبِعُكَ وَلَا نُصَدِّقُكَ. كَمَا قَالُوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨]. أَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ فَتْحِ الخَاءِ ﴿خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فَالمُرَادُ بِهِ اخْتِلَاقُ الْأَوَّلِينَ، أَيْ: إِنَّ هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَّا اخْتِلَاق مِنْك، أَخَذته مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ.

هَكَذَا فَسَّرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنِ. وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ ضَمِّ الخَاءِ وَاللَّامِ ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فَالمُرَادُ بِهِ الدِّينُ؛ أَيْ: إِنْ هَذَا الدِّينَ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ إِلَّا دِينُ الأوَّلين، الْآبَاء والأجداد من الأسلاف، وَلَنْ نَتَحَوَّلَ عَنْهُ وَلَن نَتَغَيَّر، وَلَا نَزَالُ مُتَمَسِّكِينَ بِهِ. وَيُنَاسِبُ كِلَا القِرَاءَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ قَوْلهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

قَالَ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]، أَي: قَدْ

استَحْقَقْتُم بِهَذِهِ المَقَالَةِ الرِّجْسَ وَالغَضَبَ مِنَ اللهِ، أَتُعَارِضُونَ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بِعِبَادَةِ أَصْنَامٍ أَنْتُمْ نَحَتُّمُوهَا وَسَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُم اصْطَلَحْتُمْ عَلَيْهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ؟ ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أَيْ: لَمْ يُنَزِّلْ عَلَى مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ دَلِيلا وَلَا بُرْهَانًا. وَإِذْ أَبَيْتُمْ قَبُولَ الحَقِّ وَتَمَادَيْتُمْ فِي البَاطِلِ، وَسَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَنْهَيْتُكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ أَمْ لَا، فَانْتَظِرُوا الْآنَ عَذَابَ اللهِ الوَاقِعَ بِكُمْ، وَبَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ وَنَكَالَهُ الَّذِي لَا يُصَدُّ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢-٢٥].

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى خَبَرَ إِهْلَاكِهِمْ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٨-٦٠]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩-١٤٠].

وَأما تَفْصِيل إِهْلاكهم فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، كَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا ابْتَدَأَهُمُ الْعَذَابُ، أَنَّهُمْ كَانُوا مُمْحِلِينَ مُسْنِتِينَ -مُمْحِلين: الشِّدَّة وَانْقِطَاع المَطَر. مُسْنِتِين: أَصَابَتْهُم السَّنَة

وَهِيَ الجَدْب وَالقَحط-، فَطَلَبُوا السُّقْيَا فَرَأَوْا عَارِضًا فِي السَّمَاءِ وَظَنُّوهُ سُقْيَا رَحْمَةٍ، فَإِذَا هُوَ سُقْيَا عَذَابٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ**﴾ أَيْ: مِنْ وُقُوعِ الْعَذَابِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ**﴾ [الأحقاف: ٢٢] وَمِثْلُهَا فِي الْأَعْرَافِ.

وَقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ وَغَيْرُهُمْ هَاهُنَا خَبَرًا: قَالوا: فَلَمَّا أَبَوْا إِلَّا الكُفْرَ بِالله عَزَّوَجَلَّ، أَمْسَكَ عَنْهُم القَطْرَ ثَلَاثَ سِنِينَ، حَتَّى جَهَدَهُمْ ذَلِكَ. وَكَانَ النَّاس إِذا جَهَدَهُمْ أَمْرٌ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فَطَلَبُوا مِنَ اللهِ الفَرَجَ مِنْهُ إِنَّمَا يَطْلُبُونَهُ بِحَرَمِهِ وَمَكَانِ بَيْتِهِ. وَكَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَبَعَثَ عَادٌ وَفْدًا قَرِيبًا مِن سَبْعِينَ رَجُلا لِيَسْتَسْقُوا لَهُمْ عِنْدَ الحَرَمِ، وأَمِيرُ وَفْدِهم رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: قَيْل.

فَمَرُّوا بِمُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ بِظَاهِرِ مَكَّةَ، فَنَزَلُوا عَلَيْهِ فَأَقَامُوا عِنْدَهُ شَهْرًا، يَشْرَبونَ الخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِم جَارِيَتَانِ يُقَال لَهُمَا: الجَرَادَتَان، وَكَانُوا قَدْ وَصَلُوا إِلَيْهِ فِي شَهْرٍ. فَلَمَّا طَالَ مُقَامُهُمْ عِنْدَهُ، وَأَخَذَتْهُ شَفَقَةٌ عَلَى قَوْمِهِ، وَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالِانْصِرَافِ، عَمِلَ شِعْرًا يُعَرِّضُ لَهُم فِيهِ بِالِانْصِرَافِ، وَأَمَرَ الجَرَادَتَيْنِ أَنْ تُغَنِّيَهُمْ بِهِ، فَقَالَ:

أَلَا يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللهَ يُصْبِحَنَا غَمَامَا

فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادًا ... قَدِ اَمْسَوْا لَا يُبِينُونَ اَلكَلَامَا

مِنَ العَطَشِ اَلشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ اَلكَبِيرَ وَلَا اَلغُلَامَا

وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمُ بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمُ أَيَامَى

وَإِنَّ اَلوَحْشَ يَأْتِيهِمْ جِهَارًا ... وَلَا يَخْشَى لِعَادِيٍّ سِهَامَا

وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اِشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارُكُمُ وَلَيْلُكُمُ تَمَامَا

فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ ... وَلَا لُقُّوا اَلتَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَنَبَّهَ القَوْمُ لِمَا جَاءُوا لَهُ، فَنَهَضُوا إِلَى الحَرَمِ وَدَعَوْا لِقَوْمِهِم، فَدَعَا دَاعِيهم وَهُوَ: قَيْلُ بنُ عَنز، فَأَنْشَأَ اللهُ سَحَابَات ثَلَاثًا: بَيْضَاءَ وَحَمْرَاءَ وَسَوْدَاءَ، ثُمَّ نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاء: اخْتَر لِنَفْسِكَ أَو لِقَوْمِكَ مِنْ هَذَا السَّحَابِ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ السَّحَابَةَ السَّوْدَاءَ فَإِنَّهَا أَكْثَرُ السَّحَابِ مَاءً، فَنَادَاهُ مُنَادٍ: اخْتَرْتَ رَمَادًا رِمْدِدًا، لَا تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا، لَا وَالِدًا يترك وَلَا وَلَدًا إِلَّا جَعَلَتْهُ هَمِدًا إِلَّا بَنِي اللوذِيَّة الهمَدا.

وَهُم بَطْنٌ مِنْ عَادٍ كَانُوا مُقِيمِينَ بِمَكَّةَ، فَلَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ قَوْمَهُمْ. وَمَنْ بَقِيَ مِنْ أَنْسَابِهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ هُمْ عَادٌ الْآخِرَةُ. وَسَاقَ اللهُ السَّحَابَةَ السَّوْدَاءَ الَّتِي اخْتَارَهَا قَيْلُ بن عَنز بِمَا فِيهَا مِنَ النِّقْمَةِ إِلَى عَادٍ حَتَّى تَخرجَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَادٍ يُقَالُ لَهُ المُغِيثُ، فَلَمَّا رَأَوْهَا اسْتَبْشَرُوا، وَقَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا، فَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿**بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا**﴾ أَي: تُهْلِكُ كُل شَيءٍ أُمِرَتْ بِهِ.

فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَبْصَرَ مَا فِيهَا وَعَرَفَ أنها رِيحٌ فِيمَا يَذْكُرُونَ امْرَأَةٌ مِنْ عَادٍ يُقَالُ لَهَا «مَهْدٌ»، فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ مَا فِيهَا صَاحَتْ ثُمَّ صُعِقَتْ. فَلَمَّا أَفَاقَتْ قَالُوا مَا رَأَيْتِ يَا مَهْد؟ قَالَت: رَأَيْتُ رِيحًا فِيهَا شبهُ النَّارِ أَمَامَهَا رِجَالٌ يَقُودُونَهَا، فَسَخَّرَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوما، وَالحُسُومُ: الدَّائِمَةُ، فَلَمْ تَدَعْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدِيثًا فِي مُسْنَدِهِ يُشْبِهُ هَذِهِ القِصَّةَ فَقَالَ: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الحُبَابِ، حَدَّثَنِي أَبُو الْمُنْذِرِ سَلَامُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّحْوِيُّ، حَدَّثَنَا عَاصِم ابْن أَبِي النَّجُودِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنِ الحَارِثِ البَكْرِيِّ، قَالَ: خَرَجْتُ أَشْكُو العَلَاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ، فَإِذَا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٌ بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَ اللهِ إِنَّ لِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَاجَةً، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتُهَا فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَإِذَا المَسْجِدُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَةٌ سَوْدَاءُ تَخْفِقُ، وَإِذا بِلَال مُتَقَلِّدٌ السَّيْفَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرَو بْنَ العَاصِ وَجْهًا. قَالَ: فَجَلَسْتُ، قَالَ: فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ -أَوْ قَالَ رَحْلَهُ- فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ فَقَالَ: «**هَلْ كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي تَمِيم شَيْء**»؟ فَقُلْتُ: نَعَم. وَكَانَت لَنَا الدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ وَمَرَرْتُ بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَسَأَلَتْنِي أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَيْك وَهَاهِيَ بِالبَابِ، فَأَذِنَ لَهَا فَدَخَلَتْ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بني تَمِيم حَاجِزًا، فَاجْعَلْ الدَّهْنَاء فَإِنَّهَا كَانَتْ لَنَا، قَالَ: فَحَمِيَت العَجُوزُ وَاسْتَوْفَزَتْ وَقَالَت: يَا رَسُولَ الله، فَإِلَى أَيْنَ يضْطَر مُضْطَرُّكَ؟ قَالَ: فَقلتُ: إِنَّ مَثَلِي مَا قَالَ الْأَوَّلُ: «مِعْزًى حَمَلَتْ حَتْفَهَا!» حَمَلْتُ هَذِه الأَمَة وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خَصْمًا، أَعُوذُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدِ عَادٍ!

قَالَ: «**هِيهِ، وَمَا وَافِدُ عَادٍ؟**» وَهُوَ أَعْلَمُ بِالحَدِيثِ مِني وَلَكِنْ يَسْتَطْعِمُهُ.

قُلْتُ: إِنَّ عَادًا قَحَطُوا فَبَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: قَيْلٌ، فَمَرَّ بِمُعَاوِيَةَ ابْن بَكْرٍ فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا يَسْقِيهِ الخَمْرَ وَتُغَنِّيهِ جَارِيَتَانِ يُقَالُ لَهُمَا الجَرَادَتَانِ، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْرُ خَرَجَ إِلَى جِبَالِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِئْ إِلَى مَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، وَلَا إِلَى أَسِيرٍ فَأُفَادِيَهُ، اللَّهُمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْتَ تَسْقِيهِ. فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِيَ: مِنْهَا اخْتَرْ. فَأَوْمَأَ إِلَى سَحَابَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ فَنُودِيَ مِنْهَا: خُذْهَا رَمَادًا رِمْدِدًا، لَا تُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا. قَالَ: فَمَا بَلَغَنِي أَنَّهُ بَعَثَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا كَقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي خَاتَمِي هَذَا مِنَ الرِّيحِ حَتَّى هَلَكُوا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ**﴾ قَالَ أَبُو وَائِلٍ: وَصَدَقَ، وَكَانَتِ المَرْأَة وَالرَّجُل إِذَا بَعَثُوا وَافِدًا لَهُمْ قَالُوا: لَا تَكُنْ كَوَافِدِ عَادٍ. وَهَكَذَا أَوْرَدَ هَذَا الحَدِيثَ وَهَذِهِ القِصَّةَ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ القِصَّةِ غَيرِ وَاحِدٍ من المُفَسِّرِينَ كَابن جَرِير وَغَيره. [انظر: صحيح سنن الترمذي (٣٢٧٣)].

وَقَدْ يَكُونُ هَذَا السِّيَاقُ لِإِهْلَاكِ عَادِ الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْن إِسْحَاق وَغَيرهُ ذِكْرٌ لِمَكَّةَ، وَلَمْ تُبْنَ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، حِينَ أَسْكَنَ فِيهَا هَاجَرَ وَابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَعَادُ الْأُولَى قَبْلَ الخَلِيلِ، وَفِيهِ ذِكْرُ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ وَشِعْرُهُ، وَهُوَ مِنَ الشِّعْرِ المُتَأَخِّرِ عَنْ زَمَانِ عَادِ الأُولَى، وَلَا يُشْبِهُ كَلَامَ المُتَقَدِّمِينَ. وَفِيهِ أَنَّ فِي تِلْكَ السَّحَابَةِ شَرَرُ نَارٍ، وَعَادُ الْأُولَى إِنَّمَا أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ: هِيَ البَارِدَة، وَالعَاتِيَة: الشَّدِيدة الهُبُوبِ. ﴿**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا**﴾ [الحاقة: ٧] **أَيْ**: كَوَامِلَ مُتَتَابِعَاتٍ.

﴿**فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾ [الحاقة: ٧] شَبَّهَهُم بِأَعْجَازِ النَّخْلِ الَّتِي لَا رُؤُوسَ لَهَا، وَذَلِكَ لِأَن الرِّيح كَانَت تَجيء إِلَى أَحَدِهِمْ فَتَحْمِلُهُ فَتَرْفَعُهُ فِي الهَوَاءِ؛ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَخُهُ فَيَبْقَى جُثَّةً بِلَا رَأْسٍ، كَمَا قَالَ: ﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ**﴾ [القمر: ١٩] **أَيْ**: فِي يَوْمِ نَحْسٍ عَلَيْهِمْ، مُسْتَمِرٌّ عَذَابُهُ عَلَيْهِمْ. ﴿**تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ**﴾ [القمر: ٢٠].

وَمَنْ قَالَ إِنَّ اليَوْمَ النَّحْسَ المُسْتَمِرَّ هُوَ يَوْمُ الْأَرْبِعَاءِ وَتَشَاءَمَ بِهِ لِهَذَا الفَهْمِ، فَقَدْ أَخْطَأَ وَخَالَفَ القُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ**﴾ [فصلت: ١٦]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا ثَمَانِيَة أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ، فَلَوْ كَانَتْ نَحِسَاتٍ فِي أَنْفُسِهَا لَكَانَتْ جَمِيعُ الْأَيَّامِ السَّبْعَةِ

المُنْدَرِجَةِ فِيهَا مَشْؤُومَةً، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ، وَإِنَّمَا المُرَادُ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ، أَيْ: عَلَيْهِمْ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] أَيِ: الَّتِي لَا تُنْتِجُ خَيْرًا، فَإِنَّ الرِّيحَ المُفردة لَا تُثِيرُ سَحَابًا وَلَا تُلَقِّحُ شَجَرًا، بَلْ هِيَ عَقِيمٌ لَا نَتِيجَةَ خَيْرٍ لَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أَيْ: كَالشَّيْءِ البَالِي الفَانِي الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِهِ بِالكُلِّيَّةِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنِ الحَكَمِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» [البخاري (١٠٣٥)، مسلم (٩٠٠)].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] فَالظَّاهِرُ أَنَّ عَادًا هَذِهِ هِيَ عَادٌ الْأُولَى؛ فَإِنَّ سِيَاقَهَا شَبِيهٌ بِسِيَاقِ قَوْمِ هُودٍ -وَهُمُ الْأُولَى-، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ القِصَّةِ هُمْ عَادٌ الثَّانِيَةُ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا ذَكَرْنَا وَمَا سَيَأْتِي مِنَ الحَدِيثِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ فَإِنَّ عَادًا لَمَّا رَأَوْا هَذَا العَارِضَ وَهُوَ النَّاشِئ فِي الجَوِّ كَالسَّحَابِ ظَنُّوهُ سَحَابَ مَطَرٍ، فَإِذَا هُوَ سَحَابُ عَذَابٍ. اعْتَقَدُوهُ رَحْمَةً فَإِذَا هُوَ نِقْمَة، رَجَوْا فِيهِ الخَيْرَ فَنَالُوا مِنْهُ غَايَةَ الشَّرِّ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أَيْ: مِنَ العَذَابِ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ يُحْتَمَلُ أَنَّ ذَلِكَ العَذَابَ هُوَ مَا أَصَابَهُمْ مِن الرِّيحِ الصَّرْصَرِ، العَاتِيَةِ، البَارِدَةِ، الشَّدِيدَةِ الهُبوب، الَّتِي اسْتَمَرَّتْ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ بِأَيَّامِهَا الثَّمَانِيَةِ فَلَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، بَلْ تَتَبَّعَتْهُمْ حَتَّى كَانَتْ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ كُهُوفَ الجِبَالِ وَالغِيرَانِ فَتَلُفُّهُمْ وَتُخْرِجُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ، وَتُدَمِّرُ عَلَيْهِمُ البُيُوتَ المُحْكَمَةَ وَالقُصُورَ المُشَيَّدة، فَكَمَا مَنَّوا بِشِدَّتهم وَبِقُوَّتهم وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّة؟! سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَقْدَرُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ الرِّيحُ العَقِيمُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ هَذِهِ الرِّيحَ أَثَارَتْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ سَحَابَةً، ظَنَّ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ أَنَّهَا سَحَابَةٌ فِيهَا رَحْمَةٌ بِهِمْ وَغِيَاثٌ لِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ شَرَرًا وَنَارًا. كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ.

وَيَكُونُ هَذَا كَمَا أَصَابَ أَصْحَابَ الظُّلَّةِ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ، وَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ الرِّيحِ البَارِدَةِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ العَذَابِ بِالْأَشْيَاءِ المُخْتَلِفَةِ المُتَضَادَّةِ، مَعَ الصَّيْحَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ ﴿**قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهُمْ رَأَوْا عَارِضًا، وَالمَفْهُومُ مِنْهُ لُغَةً: السَّحَابُ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ البَكْرِيِّ إِنْ جَعَلْنَاهُ مُفَسِّرًا لِهَذِهِ القِصَّةِ. وَأَصْرَحُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النبيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ، قَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ ما أُرْسِلَتْ بِه**، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ، تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذا مَطَرَتْ، سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: **لَعَلَّهُ يَا عائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**» [مسلم (٨٩٩)].

طَرِيقٌ أُخْرَى: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا، حتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَواتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ، قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأى غَيْمًا، أَوْ رِيحًا، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقالَتْ: يَا رَسولَ اللهِ، أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةَ؟ قَالَتْ: فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ، فَقَالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**» [مسلم (٨٩٩)].

فَهَذَا الحَدِيثُ كَالصَّرِيحِ فِي تَغَايُرِ القِصَّتَيْنِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوَّلًا.

فَعَلَى هَذَا تَكُونُ القِصَّةُ المَذْكُورَةُ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ خَبَرًا عَنْ قَوْمِ عَادٍ الثَّانِيَةِ وَتَكُونُ بَقِيَّةُ السِّيَاقَاتِ فِي القُرْآنِ خَبَرًا عَنْ عَادِ الْأُولَى، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ» [قصص الأنبياء من البداية والنهاية لابن كثير، بتصرُّف].

قِصَّةُ صَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ثَمُود

«وَهُم قَبِيلَةٌ مَشْهُورَة، يُقَال لَهُم: ثَمُود، بِاسْمِ جَدِّهِمْ ثَمُودَ أَخِي جَدِيسٍ. وَكَانُوا عَرَبًا مِنَ العَارِبَةِ يَسْكُنُونَ الحِجْرَ الَّذِي بَيْنَ الحِجَازِ وَتَبُوكَ. وَقَدْ مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوك بِمن مَعَه مِن الْمُسْلِمين. وَكَانُوا بَعْدَ قَوْمِ عَادٍ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ كَأُولَئِكَ.

فَبَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ وَهُوَ عبد الله وَرَسُوله: صَالِح، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَخْلَعُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

فَآمَنَتْ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَكَفَرَ جُمْهُورُهُمْ، وَنَالُوا مِنْهُ بِالمَقَالِ وَالفِعَالِ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، وَقَتَلُوا النَّاقَةَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ

خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۖ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦١-٦٨].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤]. وَقَالَ سبحانه وتعالى فِي سُورَةِ سُبْحَانَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَة النَّمْل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ حم السَّجْدَةِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [السجدة: ١٧-١٨].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ اقْتَرَبَتْ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ فِي كِتَابِهِ بَيْنَ ذِكْرِ عَادٍ وَثَمُودَ، كَمَا فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ وَإِبْرَاهِيمَ وَالْفُرْقَانِ، وَسُورَةِ ص، وَسُورَةِ ق، وَالنَّجْمِ وَالفَجْرِ.

وَيُقَال: إِن هَاتين الأمَّتين لا يعرف خَبرهُمَا أَهْلُ الكِتَابِ، وَلَيْسَ لَهُمَا ذِكْرٌ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَاةِ. وَلَكِنْ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَ عَنْهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٨-٩] الْآيَةَ.

والظَّاهِرُ: أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ هَاتَانِ الْأُمَّتَانِ مِنَ العَرَبِ لَمْ يَضْبِطُوا خَبَرَهُمَا جَيِّدًا، وَلَا اعْتَنَوْا بِحِفْظِهِ، وَإِنْ كَانَ خَبَرُهُمَا كَانَ مَشْهُورًا فِي زَمَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالمَقْصُودُ الْآنَ: ذِكْرُ قِصَّتِهِمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَكَيْفَ نَجَّى اللهُ نَبِيَّهُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ آمَنَ بِهِ، وَكَيْفَ قَطَعَ دَابِرَ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِكُفْرِهِمْ وعُتُوِّهِم وَمُخَالَفَتِهِم رَسُولهم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقد قَدَّمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا عَرَبًا، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ وَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ

نَبِيُّهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤] أَيْ: إِنَّمَا جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ لِتَعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَتَعْمَلُوا بِخِلَافِ عَمَلِهِمْ. وَأَبَاحَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَرْضَ تَبْنُونَ فِي سُهُولِهَا الْقُصُور، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] أَيْ: حَاذِقِينَ فِي صَنْعَتِهَا وَإِتْقَانِهَا وَإِحْكَامِهَا. فَقَابِلُوا نِعْمَةَ اللهِ بِالشُّكْرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِيَّاكُمْ وَمُخَالَفَتَهُ وَالعُدُولَ عَنْ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ عَاقِبَةَ ذَلِكَ وَخِيمَةٌ.

وَلِهَذَا وَعَظَهم بِقَوْلِهِ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨] أَيْ: مُتَرَاكِمٌ كَثِيرٌ حَسَنٌ بَهِيٌّ نَاضِجٌ. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ۝١٤٩ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٩-١٥٢].

وَقَالَ لَهُمْ أَيْضًا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] أَيْ: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَأَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَجَعَلَكُمْ عُمَّارَهَا. أَيْ: أَعْطَاكُمُوهَا بِمَا فِيهَا مِنَ الزروع وَالثِّمَار، فَهُوَ الخَالِق الرَّزَّاق، وَهُوَ الذى يسْتَحق العِبَادَة وَحده لَا مَا سِوَاهُ.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: أَقْلِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ وَأَقْبِلُوا عَلَى عِبَادَتِهِ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ مِنْكُمْ وَيَتَجَاوَزُ عَنْكُمْ ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] أَيْ: قَدْ كُنَّا نَرْجُو أَنْ يَكُونَ عَقْلُكَ كَامِلًا قَبْلَ هَذِهِ المَقَالَةِ، وَهِيَ دُعَاؤُكَ إِيَّانَا إِلَى إِفْرَادِ العِبَادَة، وَتَرْكِ مَا كُنَّا نَعْبُدُهُ مِنَ الْأَنْدَادِ، وَالعُدُولِ عَنْ دِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وَهَذَا تَلَطُّفٌ مِنْهُ لَهُمْ فِي العِبَارَةِ وَلِين جَانِب، وَحُسْنُ تَأَتٍّ فِي الدَّعْوَةِ لَهُمْ إِلَى الخَيْر. أَي: فَمَا ظَنُّكُم إِن كَانَ الْأَمْرُ كَمَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ؟! مَاذَا عُذْرُكُمْ عِنْدَ اللهِ؟! وَمَاذَا يُخَلِّصُكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونَ مِنِّي أَنْ أَتْرُكَ دُعَاءَكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ؟! وَأَنَا لَا يُمْكِنُنِي هَذَا لِأَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيَّ، وَلَوْ تَرَكْتُهُ لَمَا قَدرَ أَحَدٌ مِنْكُمْ وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ أَنْ يُجِيرَنِي مِنْهُ وَلَا يَنْصُرنِي.

فَأَنَا لَا أَزَالُ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

وَقَالُوا لَهُ أَيْضًا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أَيْ: مِنَ المَسْحُورِينَ، يَعْنُونَ: مَسْحُورًا لَا تَدْرِي مَا تَقُولُ فِي دُعَائِكَ إِيَّانَا إِلَى إِفْرَادِ العِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَخَلْعِ مَا سِوَاهُ مِنَ الأنداد. وَهَذَا القَوْل عَلَيْهِ الجُمْهُور، وَهُوَ أَن المُرَاد بـ: ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: المَسْحُورين. وَهُو أَظْهَرُ؛ لِقَوْلِهِمْ بَعْدَ هَذَا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. وَقَوْلِهِمْ: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِخَارِقٍ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ.

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦]، كَمَا قَالَ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وَقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ أَنَّ ثَمُودَ اجْتَمَعُوا يَوْمًا فِي نَادِيهِمْ، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَالِحٌ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، وَذَكَّرَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ وَوَعَظَهُمْ وَأَمَرَهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: إِنْ أَنْتَ أَخْرَجْتَ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَة - وَأَشَارُوا إِلَى صَخْرَةٍ هُنَاكَ- نَاقَةً، مِنْ صِفَتِهَا كَيْت وَكَيْت -وَذَكَروا أَوْصَافًا سَموهَا وَنَعَتُوهَا وَتَعَنَّتُوا فِيهَا، وَأَنْ تَكُونَ عُشَرَاءَ طَوِيلَةً، مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وَكَذَا-.

فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَالِحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَجَبْتُكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي طَلَبْتُمْ، أَتُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ وَتُصَدِّقُونِي فِيمَا أُرْسِلْتُ بِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَأَخَذَ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ قَامَ إِلَى مُصَلَّاهُ فَصَلَّى لله عَزَّوَجَلَّ مَا قُدِّرَ لَهُ، ثُمَّ دَعَا رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا. فَأَمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ تِلْكَ الصَّخْرَة أَن تَنْفَطِرَ عَن نَاقَةٍ عَظِيمَة عُشَرَاء، عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ الذي طَلَبُوا، وَعَلَى الصِّفَةِ الَّتِي نَعَتُوا.

فَلَمَّا عَايَنُوهَا كَذَلِكَ رَأَوْا أَمْرًا وَمَنْظَرًا هَائِلًا، وَقُدْرَةً بَاهِرَةً وَدَلِيلًا قَاطِعًا وَبُرْهَانًا سَاطِعًا، فَآمَنَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَاسْتَمَرَّ أَكْثَرُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أَيْ: جَحَدُوا بِهَا وَلَمْ يَتَّبِعُوا الحَقَّ بِسَبَبِهَا، أَيْ: أَكْثَرُهُمْ.

وَكَانَ رَئِيسُ الَّذِينَ آمَنُوا: جُنْدَعَ بن عَمْرو. وَكَانَ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ. وَهَمَّ بَقِيَّةُ الْأَشْرَافِ بِالْإِسْلَامِ فَصَدَّهُمْ ذُؤَابُ بْنُ عَمْرو بْنِ لَبِيدٍ، وَالحُبَابُ صَاحِبُ أَوْثَانِهِمْ، وَرَبَابُ بْنُ صَمْعَر. وَدَعَا جُنْدَع ابن عَمِّهِ شِهَابَ بْنَ خَلِيفَةَ وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَهَمَّ بِالإِسْلام، فَنَهَاهُ أُولَئِكَ، فَمَالَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يُقَال لَهُ مِهْرَشُ بنُ غَنْمَةَ ابْن الدُّمَيْلِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو ... إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَوْا شِهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلُّهُمُ جَمِيعًا ... فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ وَلَوْ أَجَابَا
لَأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا ... وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ الغُوَاةَ مِنْ آلِ حُجْرٍ ... تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمُ رَبَابَا

وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] أَضَافَهَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِضَافَةَ تَشْرِيفٍ وَتَعْظِيمٍ، كَقَوْلِهِ: بَيْتُ اللهِ، وَعَبْدُ اللهِ. ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود: ٦٤] أَيْ: دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]. فَاتَّفَقَ الحَالُ عَلَى أَنْ تَبْقَى هَذِهِ النَّاقَةُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، تَرْعَى حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَتَرِدُ المَاءَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَكَانَتْ إِذَا وَرَدَتِ المَاءَ تَشْرَبُ مَاءَ البِئْرِ يَوْمَهَا ذَلِكَ، فَكَانُوا يَرْفَعُونَ حَاجَتَهُمْ مِنَ المَاءِ فِي يَوْمِهِمْ لِغَدِهِمْ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: ٢٧] أَي: اخْتِبَارًا لَهُمْ أَيُؤْمِنُونَ بِهَا أَمْ يَكْفُرُونَ؟ وَاللهُ أَعلمُ بِمَا يَفْعَلُونَ. ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ [القمر: ٢٧] أَيْ: انْتَظِرْ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] عَلَى أَذَاهُمْ؛ فَسَيَأْتِيكَ الخَبَرُ عَلَى جَلِيَّةٍ. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ لَبَنِهَا كِفَايَتَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِم هَذَا الحَال اجْتَمَعَ مَلَؤُهم، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَعْقِرُوا هَذِهِ النَّاقَةَ، لِيَسْتَرِيحُوا مِنْهَا وَيَتَوَفَّر عَلَيْهِمْ مَاؤُهُمْ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى قَتْلَهَا مِنْهُمْ رَئِيسهُمْ: قُدَار، وَكَانَ أَحْمَرَ أَزْرَقَ أَصْهَب. وَكَانَ فِعْلُهُ ذَلِكَ بِاتِّفَاقِ جَمِيعِهم، فَلِهَذَا نُسِبَ الفِعْلُ إِلَيْهِم كُلهم.

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِير وَغَيرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ المُفَسِّرِينَ: أَنَّ امْرَأَتَيْنِ مِنْ ثَمُودَ اسْم إِحْدَاهمَا «صَدُوق»، وَكَانَتْ ذَاتَ حَسَبٍ وَمَالٍ، وَكَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ فَفَارَقَتْهُ، فَدَعَتِ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَال لَهُ «مِصْدَعْ»، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا إِنْ هُوَ عَقَرَ النَّاقَةَ.

وَاسْمُ الْأُخْرَى «عُنَيْزَةُ»، وَتُكَنَّى أُم غَنمة، وَكَانَتْ عَجُوزًا كَافِرَةً، لَهَا بَنَاتٌ مِنْ زَوْجِهَا ذُؤَابِ بْنِ عَمْرٍو أَحَدِ الرُّؤَسَاءِ، فَعَرَضَتْ بَنَاتَهَا الْأَرْبَع عَلَى قُدَارٍ، إِنْ هُوَ عَقَرَ النَّاقَةَ فَلَهُ أَيُّ بَنَاتِهَا شَاءَ، فَانْتُدِبَ هَذَانِ الشَّابَّانِ لِعَقْرِهَا وَسَعَوْا فِي قَوْمِهِمْ بِذَلِكَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ سَبْعَةٌ آخَرُونَ فَصَارُوا تِسْعَةً.

وَهُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وَسَعَوْا فِي بَقِيَّةِ القَبِيلَةِ وَحَسَّنُوا لَهُمْ عَقْرَهَا، فَأَجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَاوَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ.

فَانْطَلَقُوا يَرْصُدُونَ النَّاقَةَ، فَلَمَّا صَدَرَتْ مِنْ وِرْدِهَا كَمَنَ لَهَا «مِصْدَعْ»، فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ انتَظَمَ عَظم سَاقِهَا، وَجَاء النِّسَاء يَحضُضْن الْقَبِيلَةِ فِي قَتْلِهَا، وَحَسَرْنَ عَنْ وُجُوهِهِنَّ تَرْغِيبًا لَهُم فِي ذَلِك، فَابْتَدَرَهُمْ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ، فَشَدَّ عَلَيْهَا بِالسَّيْفِ فَكَشَفَ عَنْ عُرْقُوبِهَا فَخَرَّتْ سَاقِطَةً إِلَى الْأَرْضِ. وَرَغَتْ رَغَاةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً تُحَذِّرُ وَلَدَهَا، ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَّتِهَا فَنَحَرَهَا، وَانْطَلَقَ سَقْبُهَا -وَهُوَ فَصِيلُهَا- فَصَعِدَ جَبَلا مَنِيعًا، وَرَغَا -ثَلَاثًا-.

وقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢٩-٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٢-١٣]. أَيِ: احْذَرُوهَا. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

وعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ زَمْعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الذي عَقَرَها، فَقَالَ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾: انْبَعَثَ بها رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ في رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ» [مسلم (٢٨٥٥)]. عَارِمٌ: أَيْ شَهْمٌ. عَزِيزٌ: أَيْ رَئِيسٌ. مَنِيعٌ: أَيْ مُطَاعٌ فِي قَوْمِهِ.

وَعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ: «أَلا أُحَدِّثُكُمْ بِأَشْقَى النَّاسِ، رَجُلَيْنِ؟ أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الذي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالذي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلى هَذِهِ -يَعْنِي: قَرْنَهُ-، حَتَّى يَبُلَّ مِنْهَا هَذِهِ -يَعْنِي: لِحْيَتَهُ-» [صحيح الجامع (٢٨٥٩)].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فَجَمَعُوا فِي كَلَامِهِمْ هَذَا بَيْنَ كُفْرٍ بَلِيغٍ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّهُمْ خَالَفُوا اللهَ وَرَسُولَهُ فِي ارْتِكَابِهِمُ النَّهْيَ الْأَكِيدَ فِي عَقْرِ النَّاقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لَهُمْ آيَةً.

وَمِنْهَا: أَنَّهُمُ اسْتَعْجَلُوا وُقُوعَ العَذَابِ بِهِمْ فَاسْتَحَقُّوهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الشَّرْطُ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هود: ٦٤]، وَفِي آيَةٍ: ﴿عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٦]، وَفِي الْأُخْرَى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣] وَالكُلُّ حَقٌّ. وَالثَّانِي: اسْتِعْجَالُهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ الَّذِي قَدْ قَامَ الدَّلِيلُ القَاطِعُ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ عِلْمًا جَازِمًا، وَلَكِنْ حَمَلَهُمُ الكُفْرُ وَالضَّلَالُ وَالعِنَادُ عَلَى اسْتِبْعَادِ الحَقِّ وَوُقُوعِ العَذَابِ بِهِمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٥]، وَذَكَرُوا -كَمَا مَرَّ بَعْضُهُ- أَنَّهُمْ لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَطَا عَلَيْهَا: قُدَارُ -لَعَنَهُ اللهُ-؛ فَعَرْقَبَهَا فَسَقَطَت إِلَى الأَرْضِ، ثُمَّ ابتَدَروهَا بِأَسْيَافِهِم يُقَطِّعُونَهَا، فَلَمَّا عَايَنَ ذَلِكَ سَقْبُهَا -وَهُوَ وَلَدُهَا- شَرَدَ عَنْهُمْ، فَعَلَا أَعْلَى الجَبَلِ هُنَاكَ، وَرَغَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

فَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ أَي: غَير يَوْمِهِم ذَلِكَ، فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ أَيْضًا فِي هَذَا الوَعْدِ الْأَكِيدِ. بَلْ لَمَّا أَمْسَوْا هَمُّوا بِقَتْلِهِ وَأَرَادُوا -فِيمَا يَزْعُمُونَ- أَنْ يُلْحِقُوهُ بِالنَّاقَةِ.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] أَيْ: لَنَكْبِسَنَّهُ فِي دَارِهِ مَعَ أَهْلِهِ فَلَنَقْتُلَنَّهُ، ثُمَّ

نَجْحَدَنَّ قَتْلَهُ وَلَنُنْكِرَنَّ ذَلِكَ إِنْ طَالَبَنَا أَوْلِيَاؤُهُ بِدَمِهِ. وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ الَّذِينَ قَصَدُوا قَتْلَ صَالِحٍ حِجَارَةً رَضَخَتْهُمْ؛ فَأَهْلَكَهُم سَلَفًا وَتَعْجِيلًا قَبْلَ قَوْمِهِمْ، وَأَصْبَحَتْ ثَمُودُ يَوْمَ الخَمِيسِ -وَهُوَ اليَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّظِرَةِ- وَوُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ، كَمَا أَنْذَرَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا أَمْسَوْا نَادَوْا بِأَجْمَعِهِمْ: أَلَا قَدْ مَضَى يَوْمٌ مِنَ الأَجَلِ!

ثُمَّ أَصْبَحُوا فِي اليَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّأْجِيلِ -وَهُوَ يَوْمُ الجُمُعَةِ- وَوُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةٌ، فَلَمَّا أَمْسَوْا نَادَوْا: أَلَا قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مِنَ الأَجَلِ!

ثُمَّ أَصْبَحُوا فِي اليَوْمِ الثَّالِث من أَيَّامِ المَتَاعِ -وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ- وَوُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ، فَلَمَّا أَمْسَوْا نَادَوْا: أَلَا قَدْ مَضَى الْأَجَلُ!

فَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةَ يَوْمِ الأَحَدِ تَحَنطوا وَتَأَهبوا وَقَعدوا يَنْتَظِرون مَاذَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالنِّقْمَةِ، لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يُفْعَلُ بِهِمْ؟! وَلَا مِنْ أَيِّ جِهَةٍ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ؟!

فَلَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَرَجْفَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَفَاضَتِ الْأَرْوَاحُ وَزَهَقَتِ النُّفُوسُ، وَسَكَنَتِ الحَرَكَاتُ، وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ، وَحُقَّتِ الحَقَائِقُ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِم جَاثِمين، جُثَثًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا وَلَا حِرَاكَ بِهَا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧-٦٨]. قَوْلُهُ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ٦٨] أَيْ: لَمْ يُقِيمُوا فِيهَا فِي سعَةٍ وَرِزْقٍ وَغِنَاءٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، إِخْبَارٌ عَن صَالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ خَاطَبَ قَوْمَهُ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ -وَقَدْ أَخَذَ فِي الذَّهَابِ عَنْ مَحِلَّتِهِمْ إِلَى غَيْرِهَا- قَائِلًا لَهُمْ: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ

﴿لَكُمْ﴾ أَيْ: جَهدْتُ فِي هِدَايَتِكُمْ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَنِي، وَحَرصْتُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِي وَفِعْلِي وَنِيَّتِي.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أَيْ: لَمْ تَكُنْ سَجَايَاكُمْ تَقْبَلُ الحَقَّ وَلَا تُرِيدُهُ، فَلِهَذَا صِرْتُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ الْأَلِيمِ، المُسْتَمِرِّ بِكُمُ المُتَّصِلِ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَيْسَ لِي فِيكُمْ حِيلَةٌ وَلَا لِي بِالدَّفْعِ عَنْكُمْ يَدَانِ.

وَالَّذِي وَجَبَ عَلَيَّ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَالنُّصْحِ لَكُمْ قَدْ فَعَلْتُهُ وَبَذَلْتُهُ لَكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

وَهَكَذَا خَاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ قَلِيبِ بَدْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ: وَقَفَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَأَمَرَ بِالرَّحِيلِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَقَالَ: «**يَا أَهْلَ القَلِيبِ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ تُخَاطِبُ أَقْوَامًا قَدْ جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَ**» [انظر: البخاري (٣٩٧٦)، مسلم (٢٨٧٤)].

ذِكْرُ مُرُورِ النَّبِيِّ ﷺ بِوَادِي الحِجْرِ مِنْ أَرْضِ ثَمُودَ عَامَ تَبُوك:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ عَلى الحِجْرِ، أَرْضِ ثَمُودَ، فاسْتَقَوْا مِن آبارِها، وَعَجَنُوا بِهِ العَجِينَ، فأمَرَهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُهَرِيقُوا ما اسْتَقَوْا، وَيَعْلِفُوا الإبِلَ العَجِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ البِئْرِ الَّتي كانَتْ تَرِدُها النَّاقَةُ» [مسلم (٢٩٨١)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا مَرَّ النبيُّ ﷺ بالحِجْرِ قَالَ: **لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ ما أصابَهُمْ، إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وأَسْرَعَ السَّيْرَ حتَّى أَجَازَ الوَادِيَ» [البخاري (٤٤١٩)].

وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ قَوْمَ صَالِحٍ كَانَتْ أَعْمَارُهُمْ طَوِيلَةً، فَكَانُوا يَنْحِتُونَ البُيُوتَ مِنَ المَدَرِ فَتَخْرَبُ قَبْلَ مَوْتِ الوَاحِدِ مِنْهُمْ، فَنَحَتُوا لَهُمْ بُيُوتًا فِي الجِبَالِ. وَذُكِرَ أَنَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلُوهُ آيَةً، فَأَخْرَجَ اللهُ لَهُمُ النَّاقَةَ مِنَ الصَّخْرَةِ، أَمَرَهُمْ بِهَا وَبِالوَلَدِ الَّذِي كَانَ فِي جَوْفِهَا، وَحَذَّرَهُمْ بَأْسَ اللهِ إِنْ هُمْ نَالُوهَا بِسُوءٍ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ سَيَعْقِرُونَهَا وَيَكُونُ سَبَبُ هَلَاكِهِمْ ذَلِكَ. وَذَكَرَ لَهُمْ صِفَةَ عَاقِرِهَا وَأَنَّهُ أَحْمَرُ أَزْرَقُ أَصْهَبُ. فَبَعَثُوا القَوَابِلَ فِي البَلَدِ مَتَى وَجَدُوا مَوْلُودًا بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَقْتُلْنَهُ، فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ دَهْرًا طَوِيلًا. وَانْقَرَضَ جِيلٌ وَأَتَى جِيلٌ آخَرُ.

فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَعْصَارِ خَطَبَ رَئِيسٌ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ عَلَى ابْنِهِ بِنْتَ آخَرَ مثله فِي الرِّيَاسَةِ، فَزَوَّجَهُ، فَوُلِدَ بَيْنَهُمَا عَاقِرُ النَّاقَةِ، وَهُوَ قُدَار. فَلَمْ تَتَمَكَّنِ القَوَابِلُ مِنْ قَتْلِهِ لِشَرَفِ أَبَوَيْهِ وَجَدَّيْهِ فِيهِمْ، فَنَشَأَ نَشْأَةً سَرِيعَةً، فَكَانَ يَشِبُّ فِي الجُمُعَةِ كَمَا يَشِبُّ غَيْرُهُ فِي شَهْرٍ، حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ خَرَجَ مُطَاعًا فِيهِمْ رَئِيسًا بَيْنَهُمْ. فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ عَقْرَ النَّاقَةِ وَاتَّبَعَهُ عَلَى ذَلِكَ ثَمَانِيَةٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَهُمُ التِّسْعَةُ الَّذِينَ أَرَادُوا قَتْلَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَلَمَّا وَقَعَ مِنْهُم عَقْرُ النَّاقَة، بَلَغَهُ ذَلِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَاءَهُمْ بَاكِيًا عَلَيْهَا، فَتَلَقَّوْهُ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا لَمْ يَقع مِن مَلَأٍ مِنَّا. وَإِنَّمَا فَعَلَ هَذَا هَؤُلَاءِ الْأَحْدَاثُ فِينَا. فَيُقَال إِنَّه أَمَرَهم بِاسْتِدْرَاكِ وَلَدِهَا حَتَّى يُحْسِنُوا إِلَيْهِ عِوَضًا عَنْهَا، فَذَهَبُوا وَرَاءَهُ فَصَعِدَ جَبَلًا هُنَاكَ، فَلَمَّا تَصَاعَدُوا وَرَاءَهُ تَعَالَى الجَبَلُ حَتَّى ارْتَفَعَ فَلَا يَنَالُهُ الطَّيْرُ، وَبَكَى (الفَصِيلُ) حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ.

ثُمَّ اسْتَقْبَلَ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَغَا ثَلَاثًا، فَعِنْدَهَا قَالَ صَالِحٌ: ﴿**تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾، وَأَخبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يُصْبِحُونَ مِنْ غَدِهِمْ صُفْرًا ثُمَّ تَحْمَرُّ وُجُوهُهُمْ فِي الثَّانِي وَفِي اليَوْمِ الثَّالِثِ تَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ. فَلَمَّا كَانَ فِي اليَوْمِ الرَّابِعِ أَتَتْهُم صَيْحَة فِيهَا صَوت كل صَاعِقَة، فَأَخَذتهم فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ.

وَفِي بَعْضِ هَذَا السِّيَاقِ نَظَرٌ وَمُخَالَفَةٌ لِظَاهِرِ مَا يُفْهَمُ مِنَ القُرْآنِ فِي شَأْنِهِمْ وَقِصَّتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا. وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ» [قصص الأنبياء من البداية والنهاية لابن كثير، بتصرُّف].

تفسير سورة البلد

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[1] هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِمَكَّةَ أُمِّ القُرَى فِي حَالِ كَوْنِ السَّاكِنِ فِيهَا حَالًّا؛ لِيُنَبِّهَ عَلَى عَظَمَةِ قَدْرِهَا فِي حَالِ إِحْرَامِ أَهْلِهَا.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾؛ ﴿لَآ﴾ رَدٌّ عَلَيْهِمْ -أَيْ: المُشْرِكِينَ- ﴿أُقْسِمُ بِهَٰذَا

---

(١) «هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ يَتَبَادَرُ مِن ظَاهِرِهَا أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ لا يُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ الَّذِي هو مَكَّة المُكَرَّمَة، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾، وَالجَوَاب مِنْ أَرْبَعَة وُجُوه: الأَوَّلُ: وعَلَيْهِ الجُمْهُورُ، أَنَّ ﴿لَآ﴾ هُنا صِلَةٌ عَلى عَادَةِ العَرَبِ؛ فَإِنَّها رُبَّما لَفَظَتْ (لا) مِن غَيْرِ قَصْدِ مَعْناها الأَصْلِيِّ، بَلْ لِمُجَرَّدِ تَقْوِيَةِ الكَلامِ وتَوْكِيدِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾، يَعْنِي: أَنْ تَتْبَعَنِي. وقَوْلُهُ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أَيْ: لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ. وقَوْلُهُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: فَوَرَبِّكَ. وقَوْلُهُ :﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾، أَيْ: وَالسَّيِّئَةُ. وَكَقَوْلِ امْرِئِ القَيْسِ: (فَلا وَأَبِيكِ ابْنَةَ العَامِرِيِّ، لا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّي أَفِرْ) يَعْنِي: وَأَبِيكِ. وَأَنْشَدَ الفَرَّاءُ قَوْلَ الشَّاعِرِ: (مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ دِينَهُمُ، والأَطْيَبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلا عُمَرُ) يَعْنِي: وعُمَرُ. الوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ ﴿لَآ﴾ نَفْيٌ لِكَلامِ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَقَوْلُهُ: ﴿أُقْسِمُ﴾ إِثْباتٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَهَذا القَوْلُ وَإِنْ قَالَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ العُلَماءِ فَلَيْسَ بِوَجِيهٍ عِنْدِي لِقَوْلِهِ تَعالى فِي سُورَةِ القِيامَةِ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ الإِثْباتَ المُؤْتَنَفَ بَعْدَ النَّفْيِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُقْسِمُ﴾، واللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. الوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّهَا حَرْفُ نَفْيٍ أَيْضًا، ووَجْهُهُ أَنَّ إِنْشاءَ القَسَمِ يَتَضَمَّنُ الإِخْبارَ عَنْ تَعْظِيمِ المُقْسَمِ بِهِ، فَهو نَفْيٌ لِذَلِكَ الخَبَرِ الضِّمْنِيِّ عَلى سَبِيلِ الكِنايَةِ، وَالمُرادُ أَنَّهُ لا يُعَظَّمُ بِالقَسَمِ بَلْ هو نَفْسُهُ عَظِيمٌ أَقْسَمَ بِهِ أَو لا. وَهَذا القَوْلُ لا يَخْلُو عِنْدِي مِن بُعْدٍ. الوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّ اللَّامَ لامُ الِابْتِداءِ أُشْبِعَتْ فَتْحَتُها، وَالعَرَبُ رُبَّما أَشْبَعَتِ الفَتْحَةَ بِأَلِفٍ والكَسْرَةَ بِياءٍ والضَّمَّةَ بِواوٍ. فَمِثالُهُ فِي الفَتْحَةِ قَوْلُ عَبْدِ يَغُوثَ بْنِ وَقَّاصٍ الحَارِثِيِّ: (وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ، كَأَنْ لَمْ تَرا قَبْلِي أَسِيرًا يَمانِيًا) فَالأَصْلُ (كَأَنْ لَمْ تَرَ)، ولَكِنَّ الفَتْحَةَ أُشْبِعَتْ. وَمِثالُ إِشْباعِ الكَسْرَةِ بِالياءِ قَوْلُ قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ: (أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْباءُ تَنْمِي، بِمَا لاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيادٍ) فَالأَصْلُ (يَأْتِكَ) لِمَكانِ الجازِمِ. وَمِثالُ إِشْباعِ الضَّمَّةِ بِالواوِ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (اللهُ أَعْلَمُ أَنَّا فِي تَلَفُّتِنا، يَوْمَ الفِراقِ إِلى إِخْوانِنا صُوَرُ . وَإِنَّنِي حَيْثُما يَثْنِي الهَوى بَصَرِي، مِن حَيْثُمَا سَلَكُوا أَدْنُو فَأَنْظُورُ) يَعْنِي (فَأَنْظُرُ)، ويَدُلُّ لِهَذا الوَجْهِ قِراءَةُ قُنْبُلٍ: ﴿لَأُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ بِلامِ الِابْتِداءِ، وَهو مَرْوِيٌّ عَنِ البَزِّيِّ والحَسَنِ، والعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى» [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، بتصرُّف].

﴿ٱلْبَلَدِ﴾. وَقَالَ ابنُ عَبَّاس: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾؛ يَعْنِي: مَكَّةَ.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ قَالَ: أَنْتَ -يَا مُحَمَّدُ- يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُقَاتِلَ بِهِ. وَكَذَا رُوِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَير، وَأَبِي صَالِحٍ، وَعَطِيَّةَ، وَالضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَابْنِ زَيْدٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا أَصَبْتَ فِيهِ فَهُوَ حَلَالٌ لَكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَنْتَ بِهِ مِنْ غَيْرِ حَرَج وَلَا إِثْمٍ. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: أَحَلَّهَا اللهُ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

وَهَذَا المَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ قَدْ وَرَد بِهِ الحَدِيثُ المُتَّفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ؛ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قَالَ يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**إِنَّ هَذا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَومَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ، فَهُو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلى يَومِ القِيامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لي إِلا سَاعَةً مِن نَهَارٍ، فَهُو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلى يَومِ القِيامَةِ، لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلا مَن عَرَّفَهَا، وَلا يُخْتَلى خَلاهُ**، فَقَالَ العَبَّاسُ: يَا رَسولَ اللهِ، إِلا الإِذْخِرَ؛ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ ولِبُيُوتِهِمْ، قَالَ: **إِلا الإِذْخِرَ**» [البخاري (٣١٨٩)، مسلم (١٣٥٣) بنحوه].

وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «**إِنْ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْها النَّاسُ، لا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتالِ رَسولِ اللهِ ﷺ فِيهَا، فَقُولوا لَهُ: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ. وَإِنَّمَا أَذِنَ لي فِيهَا سَاعَةً مِن نَهارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُها اليَوْمَ كَحُرْمَتِها بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**» [البخاري (٤٢٩٥)].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الوَالِدُ: الَّذِي يَلِدُ، وَمَا وَلَدَ: العَاقِرُ الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ، وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي بِالوَالِدِ: آدَمَ، وَمَا وَلَدَ: وَلَدَهُ.

وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَأَصْحَابُهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَقْسَمَ بِأُمِّ القُرَى وَهِيَ المَسَاكِنُ أَقْسَمَ بَعْدَهُ بِالسَّاكِنِ، وَهُوَ آدَمُ أَبُو البَشَرِ وَوَلَدُهُ، وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيُّ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ وَذُرِّيَّتُهُ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ عَامٌّ فِي كُلِّ وَالِدٍ وَوَلَدِهِ. وَهُوَ مُحْتَمَلٌ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وخَيْثَمة، وَالضَّحَّاكِ، وَغَيْرِهِمْ: يَعْنِي: مُنْتَصِبًا.

زَادَ ابْنُ عَبَّاس فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: مُنْتَصِبًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

وَالكَبَدُ: الِاسْتِوَاءُ وَالِاسْتِقَامَةُ. وَمَعْنَى هَذَا القَوْل: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا، كَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٧]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فِى كَبَدٍ﴾، قَالَ: فِي شِدَّةِ خَلْقٍ، أَلَمْ تَرَ إِلَيْهِ...وَذَكَرَ مَوْلِدَهُ وَنَبَاتَ أَسْنَانِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فِى كَبَدٍ﴾ نُطْفَةٌ، ثُمَّ عَلَقَةٌ، ثُمَّ مُضْغَةٌ يَتَكَبَّدُ فِي الخَلْقِ، كَقَوْلِهِ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وَأَرْضَعَتْهُ كُرْهًا، وَمَعِيشَتُهُ كُرْهٌ، فَهُوَ يُكَابِدُ ذَلِكَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ فِي شِدَّةٍ وطَلَب مَعِيشَةٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: فِي شِدَّةٍ وَطُولٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي مَشَقَّةٍ. وَرُوِيَ عَن الحَسَن: يُكَابِدُ مَضَايِق الدُّنْيَا وَشَدَائِد الآخِرَة.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: آدَمُ خُلِقَ فِي السَّمَاءِ، فَسُمي ذَلِكَ الكَبَد. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ: مُكَابَدَةُ الْأُمُورِ وَمَشَاقِّهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: يَعْنِي: أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَأْخُذُ مَالَهُ؟!

وَقَالَ قَتَادَةُ: ابْنُ آدَمَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يُسْأَلَ عَنْ هَذَا المَالِ: مَنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ؟ وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قَالَ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾؛ أَيْ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: أَنْفَقْتُ مَالًا لُبَدًا، أَيْ: كَثِيرًا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُهُمْ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ: أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾؛ أَيْ: يُبْصِرُ بِهِمَا. ﴿وَلِسَانًا﴾؛ أَيْ: يَنْطِقُ بِهِ، فَيُعَبِّر عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى الكَلَامِ وَأَكْلِ الطَّعَامِ، وَجَمَالًا لِوَجْهِهِ وَفَمِهِ.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؛ الطَّرِيقَيْن. وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الخَيْرُ وَالشَّرُّ. وَكَذَا رُوِي عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَأَبِي وَائِلٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَعَطَاءٍ الخُرَاسَانِيِّ فِي

آخَرِينَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؛ قَالَ: الثَّدْيَيْنِ. وَرُوِيَ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيم، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي حَازِمٍ مِثْلُ ذَلِكَ.

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: وَالصَّوَابُ القَوْلُ الْأَوَّلُ. وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣].

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ قَالَ: جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: هُوَ سَبْعُونَ دَرَجَةً فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: عَقَبَةٌ فِي جَهَنَّمَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّهَا قُحْمَةٌ شَدِيدَةٌ فَاقْتَحِمُوهَا بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ اقْتِحَامِهَا، فَقَالَ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾؛ أَيْ: أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي فِيهَا النَّجَاةُ وَالخَيْرُ؟! ثُمَّ بَيَّنَهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْها إِرْبًا مِنهُ مِنَ النَّارِ**» [مسلم (١٥٠٩)]. وَفِي رِوَايَة: «**مَن أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حتَّى يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**» [مسلم (١٥٠٩)].

وَفِي رِوَايَة: عَنْ سَعِيدِ ابْنِ مَرْجَانَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا؛ اسْتَنْقَذَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ**» [مسلم (١٥٠٩)]. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ حِينَ سَمِعْتُ الحَدِيثَ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَذَكَرْتُهُ لِعَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ، فَأَعْتَقَ عَبْدًا لَهُ قَدْ أَعْطَاهُ بِهِ ابْنُ جَعْفَرٍ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ أَوْ أَلْفَ دِينَارٍ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِيُذْكَرَ اللهُ فِيهِ؛ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ، وَمَنْ أَعْتَقَ نَفْسًا مُسْلِمَةً؛ كَانَتْ فِدْيَتَهُ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ؛ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ**» [هداية الرواة (٣٣١٩)].

وَعَنْ مَالِك بن عَمْرو القُشَيْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً؛ فَهِيَ فِدَاؤُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ثُمَّ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ؛ فَأَبْعَدَهُ اللهُ**» [صحيح الترغيب (٢٤٩٦)].

وَعَن البَراءِ بن عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: عَلِّمْني عَمَلًا يُدخِلُني الجَنَّةَ، قَالَ: **لَئِن كُنتَ أَقصرتَ الخُطْبَةَ لَقَد أَعرَضْتَ المَسْأَلَةَ: أَعتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقبَةَ، قَالَ: أَوَلَيسَا وَاحِدًا؟! قَالَ: لا، عِتقُ النَّسَمةِ أَنْ تُفرَدَ بِعِتقِها، وَفَكُّ الرَّقبةِ أَن تُعينَ فِي ثَمنِها، وَالمِنحةُ الوَكُوفُ، وَالفَيءُ عَلى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمِ الجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمآنَ، وَأْمُرْ بِالمَعرُوفِ، وَانْهَ عنِ المُنكَرِ، فَإِن لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إلا مِن خَيْرٍ**» [هداية الرواة (٣٣١٨)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذِي مَجَاعَةٍ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

والسَّغَب: هُوَ الجُوعُ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِي: فِي يَوْمٍ الطَّعَامُ فِيهِ عَزِيزٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي يَوْمٍ يُشْتَهَى فِيهِ الطَّعَامُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**يَتِيمًا**﴾؛ أَيْ: أَطْعَمَ فِي مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ يَتِيمًا، ﴿**ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾؛ أَيْ: ذَا قَرَابَةٍ مِنْهُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالحَسَنُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ.

كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ؛ عَنْ سَلْمَان بن عَامِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ**» [صحيح الجامع (٣٨٥٨)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾؛ أَيْ: فَقِيرًا مُدْقِعًا لَاصِقًا بِالتُّرَابِ، وَهُوَ الدَّقْعَاءُ أَيْضًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿**ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾: هُوَ المَطْرُوحُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي لَا بَيْتَ لَهُ، وَلَا شَيْءَ يَقِيهِ مِنَ التُّرَابِ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: هُوَ البَعِيدُ التُّرْبَةِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: يَعْنِي الغَرِيبَ عَنْ وَطَنِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الفَقِيرُ المَدْيُونُ المُحْتَاجُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الَّذِي لَا أَحَدَ لَهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدٌ، وَقَتَادَةُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: هُوَ ذُو العِيَالِ. وَكُلُّ هَذِهِ قَرِيبَةُ المَعْنَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أَيْ: ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذِهِ الأَوْصَافِ الجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ، مُحْتَسِبٌ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، وَقَالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾؛ أَيْ: كَانَ مِنَ المُؤْمِنِينَ العَامِلِينَ صَالِحًا، المُتَوَاصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى النَّاسِ، وَعَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» [صحيح سنن أبي داود (٤٩٤١)]، وَفِي الحَدِيثِ الْآخَرِ عَنْ جَرِيرِ بنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَرْحَمُ اللهُ مَن لا يَرْحَمُ النَّاسَ» [البخاري (٧٣٧٦)]، وَفِي لَفْظٍ: «مَن لا يَرْحَمِ النَّاسَ، لا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» [مسلم (٢٣١٩)]، وَعَنْ عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَن لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، ويَعْرِف حَقَّ كَبِيرِنَا؛ فَلَيْسَ مِنَّا» [صحيح سنن أبي داود (٤٩٤٣)].

وَقَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ أَيْ: المُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؛ أَيْ: أَصْحَابُ الشِّمَالِ.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾؛ أَيْ: مُطْبَقَةٌ عَلَيْهِمْ، فَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا، وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيُّ، وَعَطِيَّةُ العَوْفِيُّ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾؛ أَيْ: مُطْبَقَةٌ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَصَدَ البَابَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ: أَيْ: أَغْلَقَهُ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: حَيْطٌ لَا بَابَ لَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُطْبَقَةٌ فَلَا ضَوْءَ فِيهَا وَلَا فُرَجَ، وَلَا خُرُوجَ مِنْهَا آخِرَ الْأَبَدِ.

تفسير سورة الشمس

(مكية)

عَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَقْبَلَ رَجُلٌ بناضِحَيْنِ وقدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فوافَقَ مُعاذًا يُصَلِّي، فتَرَكَ ناضِحَهُ وأَقْبَلَ إلى مُعاذٍ، فقَرَأَ بسُورَةِ البَقَرَةِ -أَوِ النِّساءِ- فانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وبَلَغَهُ أنَّ مُعاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتى النَّبيَّ ﷺ، فَشَكا إلَيْهِ مُعاذًا، فقالَ النبيُّ ﷺ: **يَا مُعاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ** -أَوْ: **أَفاتِنٌ**- ثَلاثَ مِرارٍ: **فَلَوْلا صَلَّيْتَ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، فإنَّه يُصَلِّي وراءَكَ الكَبِيرُ والضَّعِيفُ وذُو الحاجَةِ**» [البخاري (٧٠٥)]. وَفِي رِوَايَة: «أَنَّ مُعَاذَ بنَ جَبَل كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتي قَوْمَهُ فيُصَلِّي بهِمُ الصَّلاةَ، فَقَرَأَ بهِمُ البَقَرَةَ، قالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذلكَ مُعاذًا، فَقَالَ: إنَّه مُنافِقٌ، فَبَلَغَ ذلكَ الرَّجُلَ، فَأَتى النَّبيَّ ﷺ فَقالَ: يَا رَسولَ اللهِ، إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بأَيْدِينا، ونَسْقِي بنَواضِحِنا، وَإنَّ مُعاذًا صَلَّى بِنَا البَارِحَةَ، فَقَرَأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنافِقٌ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **يَا مُعاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟!** -ثَلاثًا- **اقْرَأْ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، ونَحْوَها**» [البخاري (٦١٠٦)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾؛ أَيْ: وَضَوْئِهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ النَّهَارُ كُلُّهُ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: أَقْسَمَ اللهُ بِالشَّمْسِ وَنَهَارِهَا؛ لِأَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ الظَّاهِرِ هُوَ النَّهَارُ.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: تَبِعَهَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَتْلُو النَّهَارَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ لَيْلَةَ الهِلَالِ، إِذَا سَقَطَتِ الشَّمْسُ رُؤِيَ الهِلَالُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ يَتْلُوهَا فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ، ثُمَّ هِيَ تَتْلُوهُ. وَهُوَ يَتَقَدَّمُهَا فِي النِّصْفِ الْأَخِيرِ مِنَ الشَّهْرِ. وَقَالَ زَيْد بنُ أَسْلَم: إِذَا تَلَاهَا لَيْلَةَ القَدْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَضَاءَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا غَشِيَهَا النَّهَارُ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ يَتَأَوَّلُ ذَلِكَ بِمَعْنَى: وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّا الظُّلْمَة، لِدَلَالَةِ الكَلَامِ عَلَيْهَا.

قُلْتُ: وَلَوْ أَنَّ هَذَا القَائِلَ تَأَوَّلَ ذَلِكَ بِمَعْنَى ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ أَيْ: البَسِيطَةُ؛ لَكَانَ أَوْلَى، وَلَصَحَّ تَأْوِيلُهُ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ فَكَانَ أَجْوَد وَأَقْوَى، وَاللهُ أَعْلَم.

وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ إِنَّهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢]. وَأَمَّا ابْنُ جَرِيرٍ فَاخْتَارَ عَوْدَ الضَّمِيرِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى الشَّمْسِ، لِجَرَيَانِ ذِكْرِهَا. وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾؛ يَعْنِي: إِذَا يَغْشَى الشَّمْسَ حِينَ تَغِيبُ، فَتُظْلِمُ الْآفَاقُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» هَاهُنَا مَصْدَرِيَّةٌ، بِمَعْنَى: وَالسَّمَاءِ وَبِنَائِهَا. وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى «مَنْ»، يَعْنِي: وَالسَّمَاءِ وَبَانِيهَا. وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ. وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ، وَالبِنَاءُ هُوَ الرَّفْعُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾؛ أَيْ: بِقُوَّةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٨]. وَهَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿طَحَىٰهَا﴾: دَحَاهَا. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ: خَلَقَ فِيهَا. وَقَالَ أَيْضًا: قَسَمَهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، وَالثَّوْرِيُّ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَابْنُ زَيْدٍ: بَسَطَهَا. وَهَذَا أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ، وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُ مِنَ المُفَسِّرِينَ، وَهُوَ المَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ، قَالَ الجَوْهَرِيُّ: طَحَوْتُهُ مِثْلُ دَحَوْتُهُ، أَيْ: بَسَطْتُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾؛ أَيْ: خَلَقَهَا سَوِيَّةً مُسْتَقِيمَةً عَلَى الفِطْرَةِ القَوِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِن مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدانِهِ، أَوْ يُنَصِّرانِهِ، أَوْ يُمَجِّسانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ؟**» [البخاري (٤٧٧٥)، مسلم (٢٦٥٨)]. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنَفاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّياطِينُ فَاجْتالَتْهُمْ عَن دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِم مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**» [مسلم (٢٨٦٥)].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ أَيْ: فَأَرْشَدَهَا إِلَى فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا؛ أَيْ: بَيَّنَ ذَلِكَ لَهَا، وَهَدَاهَا إِلَى مَا قَدَّرَ لَهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيَّنَ لَهَا الخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِد، وَقَتَادَة، والضَّحاك، والثَّوْرِي. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلْهَمَهَا الخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ فِيهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّئَلِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الحُصَيْنِ: «أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ اليَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ. قَالَ فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يَدِهِ فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللهُ، إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ اليَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: **لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾**» [مسلم (٢٦٥٠)]، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُمَا قَالَا: «فَفِيمَ نَعْمَلُ أَوْ فِيمَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: **مَنْ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى لِإِحْدَى المَنْزِلَتَيْنِ أَلْهَمَهُ لَهَا**» [تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم (١٧٤)]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا**﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ -أَيْ: بِطَاعَةِ اللهِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ- وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ وَالرَّذَائِلِ. وَيُرْوَى نَحْوُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَكَقَوْلِهِ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ**﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]. ﴿**وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾؛ أَيْ: دَسَّسَهَا؛ أَيْ: أَخْمَلَهَا وَوَضَعَ مِنْهَا بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا عَنِ الهُدَى، حَتَّى رَكِبَ المَعَاصِيَ وَتَرَكَ طَاعَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى اللهُ نَفْسَهُ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّى اللهُ نَفْسَهُ، كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ، وَالبُخْلِ، وَالهَرَمِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**» [مسلم (٢٧٢٢)]، قَالَ زَيْد: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَاهُنَّ وَنَحْنُ نُعَلِّمُكُمُوهُنَّ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ۝١٥﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾؛ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ، بِسَبَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالبَغْيِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾؛ أَيْ: بِأَجْمَعِهَا. وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا. فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ تَكْذِيبًا فِي قُلُوبِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ مِنَ الهُدَى وَاليَقِينِ.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾؛ أَيْ: أَشْقَى القَبِيلَةِ، وَهُوَ قُدَار بْنُ سَالِفٍ عَاقِرُ النَّاقَةِ، وَهُوَ أُحَيْمِرُ ثَمُودَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَزِيزًا فِيهِمْ، شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ، نَسِيبًا رَئِيسًا مُطَاعًا، كَمَا وَرَدَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الذي عَقَرَها، فَقالَ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾: انْبَعَثَ بِهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ» [البخاري (٤٩٤٢)، مسلم (٢٨٥٥)].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ يَعْنِي: صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أَيْ: احْذَرُوا نَاقَةَ اللهِ أَنْ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ، ﴿وَسُقْيَىٰهَا﴾ أَيْ: لَا تَعْتَدُوا عَلَيْهَا فِي سُقْيَاهَا، فَإِنَّ لَهَا شِرْب يَوْمٍ وَلَكُمْ شِرْب يَوْمٍ مَعْلُومٍ. قَالَ اللهُ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾؛ أَيْ: كَذَّبُوهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ عَقَرُوا النَّاقَةَ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ مِنَ الصَّخْرَةِ آيَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ أَيْ: غَضِبَ عَلَيْهِمْ، فَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أَيْ: فَجَعَلَ العُقُوبَةَ نَازِلَةً عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ. قَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنَا أَنَّ أُحَيْمِرَ ثَمُودَ لَمْ يَعْقِرِ النَّاقَةَ حَتَّى تَابَعَهُ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، وَذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ، فَلَمَّا اشْتَرَكَ القَوْمُ فِي عَقْرِهَا دَمْدَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾، وَقُرِئَ: ﴿فلَا يَخَافُ﴾. ﴿عُقْبَىٰهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَخَافُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَةً. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالحَسَنُ، وَبَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ المُزَنِيُّ، وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا﴾؛ أَيْ: لَمْ يَخَفِ الَّذِي عَقَرَهَا عَاقِبَةَ مَا صَنَعَ. وَالقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى؛ لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

تفسير سورة الليل

(مكية)

عَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّى مُعاذُ بنُ جَبَلٍ الأنْصارِيُّ لأَصْحابِهِ العِشاءَ. فَطَوَّلَ عَلَيْهِم، فانْصَرَفَ رَجُلٌ مِنَّا، فَصَلَّى. فَأُخْبِرَ مُعاذٌ عَنْهُ فَقالَ: إنَّه مُنافِقٌ، فَلَمَّا بَلَغَ ذلكَ الرَّجُلَ، دَخَلَ على رَسولِ اللهِ ﷺ فأخْبَرَهُ مَا قالَ مُعاذٌ، فَقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: أتُرِيدُ أنْ تَكُونَ فَتَّانًا يَا مُعاذُ؟ إذَا أَمَمْتَ النَّاسَ فاقْرَأْ بـ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾» [مسلم (٤٦٥)][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾

عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: «قَدِمْتُ الشَّأْمَ فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَأَتَيْتُ قَوْمًا فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِي، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَقُلْتُ: إِنِّي دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُيَسِّرَ لِي جَلِيسًا صالحًا، فَيَسَّرَكَ لِي، قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ، قَالَ: أَوَلَيْسَ عِنْدَكُمْ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ -صَاحِبُ النَّعْلَيْنِ وَالوِسَادِ وَالمِطْهَرَةِ-، وَفِيكُمُ الَّذِي أَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ -يعني عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ-، أَوَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ سِرِّ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ يَقْرَأُ عَبْدُاللهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَٱلذَّكَرِ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾. قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فِيهِ إِلَى فِيَّ» [البخاري (٣٧٤٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «قَدِمَ أَصْحابُ عبدِاللهِ عَلَى أَبِي الدَّرْداءِ فَطَلَبَهُمْ فَوَجَدَهُمْ، فَقالَ: أَيُّكُمْ يَقْرَأُ على قِراءَةِ عبدِاللهِ؟ قَالَ: كُلُّنا، قَالَ: فَأَيُّكُمْ أَحْفَظُ؟ فَأَشَارُوا إِلى عَلْقَمَةَ، قَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ: ﴿وَٱلَّيْلِ

---

(١) وَعَنْ جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النبيُّ ﷺ يَقْرَأُ في الظُّهْرِ بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، وفي العَصْرِ نَحْوَ ذلكَ، وفي الصُّبْحِ أَطْوَلَ مِن ذَلِكَ» [مسلم (٤٥٩)].

﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟ قَالَ عَلْقَمَةُ: ﴿وَٱلذَّكَرِ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، قَالَ: أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَكَذا، وهَؤُلاءِ يُرِيدُونِي عَلَى أنْ أقْرَأَ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، وَاللهِ لا أُتابِعُهُمْ» [البخاري (٤٩٤٤)].

هَذَا لَفْظُ البُخَارِيِّ: هَكَذَا قَرَأَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ -وَرَفَعَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ-، وَأَمَّا الجُمْهُورُ فَقَرَؤُوا ذَلِكَ كَمَا هُوَ مُثبت فِي المُصْحَفِ الْإِمَام العُثْمَانِي فِي سَائِرِ الآفَاق: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[1].

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؛ أَقْسَمَ تَعَالَى بِـ﴿ٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؛ أَيْ: إِذَا غَشِيَ الخَلِيقَةَ بِظَلَامِهِ. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ أَيْ: بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقِهِ. ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ: ٨]، وكَقَوْلِهِ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وَلَمَّا كَانَ القَسَمُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ المُتَضَادَّةِ كَانَ المُقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْضًا مُتَضَادًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾؛ أَيْ: أَعْمَالُ العِبَادِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مُتَضَادَّةٌ أَيْضًا وَمُتَخَالِفَةٌ، فَمِنْ فَاعِلٍ خَيْرًا وَمِنْ فَاعِلٍ شَرًّا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾؛ أَيْ: أَعْطَى مَا أُمِرَ بِإِخْرَاجِهِ، وَاتَّقَى اللهَ فِي أُمُورِهِ.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أَيْ: بِالمُجَازَاةِ عَلَى ذَلِكَ. قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ خُصَيف: بِالثَّوَابِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: أَيْ: بِالخَلَفِ.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، وَالضَّحَّاكُ: أَيْ: بِـ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

---

(١) قَالَ شَيْخُ الإِسْلام أَحْمَد ابنُ تَيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَأَمَّا القِرَاءَةُ الشَّاذَّةُ الخَارِجَةُ عَنْ رَسْمِ المُصْحَفِ العُثْمَانِيِّ مِثْلَ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَٱلذَّكَرِ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ كَمَا قَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَمِثْلَ قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ﴾ وَكَقِرَاءَتِهِ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذِهِ إِذَا ثَبَتَتْ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُقْرَأَ بِهَا فِي الصَّلَاةِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ هُمَا رِوَايَتَانِ مَشْهُورَتَانِ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد وَرِوَايَتَانِ عَنْ مَالِكٍ. إِحْدَاهُمَا: يَجُوزُ ذَلِكَ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ كَانُوا يَقْرَءُونَ بِهَذِهِ الحُرُوفِ فِي الصَّلَاةِ. وَالثَّانِيَةُ: لَا يَجُوزُ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ القِرَاءَاتِ لَمْ تَثْبُتْ مُتَوَاتِرَةً عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنْ ثَبَتَتْ فَإِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِالعَرْضَةِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ؛ عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُعَارِضُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً، فَلَمَّا كَانَ العَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ عَارَضَهُ بِهِ مَرَّتَيْنِ، والعَرْضَةُ الْآخِرَةُ هِيَ قِرَاءَةُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَغَيْرِهِ. وَهِيَ الَّتِي أَمَرَ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ بِكِتَابَتِهَا فِي المَصَاحِفِ، وَكَتَبَهَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ فِي صُحُفٍ أُمِرَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ بِكِتَابَتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ عُثْمَانُ فِي خِلَافَتِهِ بِكِتَابَتِهَا فِي المَصَاحِفِ وَإِرْسَالِهَا إِلَى الْأَمْصَارِ وَجَمْعِ النَّاسِ عَلَيْهَا، بِاتِّفَاقِ مِنْ الصَّحَابَةِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ» [مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩٤-٣٩٥)].

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ عِكْرِمَةَ: أَيْ: بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصَّوْمُ. وَقَالَ مَرَّة: وَصَدَقَةُ الفِطْرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي لِلْخَيْرِ.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: يَعْنِي لِلْجَنَّةِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مِنْ ثَوَابِ الحَسَنَةِ الحَسَنَةُ بَعْدَهَا، وَمِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾؛ أَيْ: بِمَا عِنْدَهُ، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ: بَخِلَ بِمَالِهِ، وَاسْتَغْنَى عَنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أَيْ: بِالجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾؛ أَيْ: لِطَرِيقِ الشَّرِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُجازي مَنْ قَصَدَ الخَيْرَ بِالتَّوْفِيقِ لَهُ، وَمَنْ قَصَدَ الشَّرَّ بِالخِذْلَانِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرٍ مُقدَّر، وَالْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ.

رَوَى البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**. قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ، فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ؟ قَالَ: **أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ**. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ**﴾» [البخاري (٤٦٦٥)].

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «قَالوا: يَا رَسولَ اللهِ، أَرأيتَ مَا نَعْمَلُ، أَمْرًا قَدْ فُرِغَ مِنهُ أَمْ أَمْرٌ نَسْتَأنِفُه؟ قَالَ: **بَلْ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنهُ**. قَالوا: فَكَيفَ العَمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **كُلٌّ امرِئٍ مُهَيَّأٌ لِمَا خُلِقَ لهُ**»

[السلسلة الصحيحة (٢٠٣٣)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا طَلَعَتْ شَمسٌ قَطُّ إلا بُعِثَ بجَنبَتَيها مَلَكانِ يُنادِيَانِ، يُسمِعانِ أَهلَ الأَرضِ إلا الثَّقَلَينِ: يا أَيُّها النَّاسُ، هَلُمُّوا إلى رَبِّكُم؛ فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى، وَلا آبَتْ شَمسٌ قَطُّ إلا بُعِثَ بِجَنبَتَيها مَلَكانِ يُنادِيانِ، يُسمِعانِ أَهلَ الأَرضِ إلا الثَّقَلَينِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنفِقًا خَلَفًا، وأَعْطِ مُمسِكًا مَالًا تَلَفًا» [السلسلة الصحيحة (٤٤٣)].

وَرَواهُ ابنُ جَرير بالشَّطْرِ الثَّاني مِنهُ وَزَاد: وَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ القُرْآنَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -ثُمَّ ذَكَرَ- عَنْ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ يُعْتِقُ عَلَى الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ، فَكَانَ يُعْتِقُ عَجَائِزَ وَنِسَاءً إِذَا أَسْلَمْنَ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: أَيْ بُنَيَّ، أَرَاكَ تَعْتِقُ أُنَاسًا ضُعَفَاءَ، فَلَوْ أَنَّكَ تَعْتِقُ رِجَالًا جُلَداء يَقُومُونَ مَعَكَ وَيَمْنَعُونَكَ وَيَدْفَعُونَ عَنْكَ؟! فَقَالَ: أَيْ أَبَتِ، إِنَّمَا أُرِيدُ -أَظُنُّهُ قَالَ- مَا عِنْدَ اللهِ: قَالَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِي أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ أُنْزِلَتْ فِيهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ: إِذَا مَاتَ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِذَا تَرَدَّى فِي النَّارِ.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾؛ أَيْ: نُبَيِّنُ الحَلالَ والحَرَامَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: مَنْ سَلك طَرِيقَ الهُدَى وَصَلَ إِلَى اللهِ. وَجَعَلَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ أَيْ: الجَمِيعُ مِلْكُنَا وَأَنَا المُتَصَرِّفُ فِيهِمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ: تَوَهَّجُ.

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَخْطُبُ يَقُولُ: **أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**. فَمَا زَالَ يَقُولُهَا، حَتَّى لَوْ كَانَ فِي مَقَامِي هَذا سَمِعَهُ أَهْلُ السُّوقِ، وحَتَّى سَقَطَت خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ» [هداية الرواة (٥٦١٥)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا يَومَ القِيامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتانِ يَغْلِي مِنهُمَا دِماغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ والقُمْقُمُ**» [البخاري (٦٥٦٢)].

وَفِي رِوَايَة: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا مَن لَهُ نَعْلانِ وشِراكَانِ مِن نارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِماغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ، مَا يَرى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنهُ عَذابًا وإِنَّه لأَهْوَنُهُمْ عَذابًا**» [مسلم (٢١٣)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى**﴾؛ أَيْ: لَا يَدْخُلُهَا دُخُولًا يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ إِلَّا الْأَشْقَى.

ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ: ﴿**ٱلَّذِى كَذَّبَ**﴾؛ أَيْ: بِقَلْبِهِ. ﴿**وَتَوَلَّىٰ**﴾؛ أَيْ: عَنِ العَمَلِ بِجَوَارِحِهِ وأَرْكَانِهِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلا مَن أَبَى، قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَن يَأْبى؟ قَالَ: مَن أَطاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فَقَدْ أَبى**» [البخاري (٧٢٨٠)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى**﴾؛ أَيْ: وسَيُزَحْزَح عَنِ النَّارِ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الْأَتْقَى.

ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿**ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ**﴾؛ أَيْ: يَصْرِفُ مَالَهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ؛ لِيُزَكِّيَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَمَا وَهَبَهُ اللهُ -مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا-.

﴿**وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ**﴾؛ أَيْ: لَيْسَ بَذْلُهُ مَالَهُ فِي مُكَافَأَةِ مَنْ أَسْدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا فَهُوَ يُعْطِي فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا دَفَعَهُ ذَلِكَ ﴿**ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ**﴾؛ أَيْ: طَمَعًا فِي أَنْ يَحْصُلَ لَهُ رُؤْيَتُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾؛ أَيْ: وَلَسَوْفَ يَرْضَى مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَى الإِجْمَاعَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ. وَلَا شَكَّ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهَا، وَأَوْلَى الْأُمَّةِ بِعُمُومِهَا، فَإِنَّ لَفْظَهَا لَفْظ العُمُوم، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ**﴾.

وَلَكِنَّهُ مُقَدَّمُ الْأُمَّةِ وَسَابِقُهُمْ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ وَسَائِرِ الْأَوْصَافِ الحَمِيدَةِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا تَقِيًّا كَرِيمًا جَوَادًا بَذَّالًا لِأَمْوَالِهِ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ، وَنُصْرَةِ رَسُولِ اللهِ، فَكَمْ مِنْ دَرَاهِمَ وَدَنَانِيرَ بَذَلَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الكَرِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عِنْدَهُ مِنَّةٌ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكَافِئَهُ بِهَا، وَلَكِنْ كَانَ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ عَلَى السَّادَاتِ وَالرُّؤَسَاءِ مِنْ سَائِرِ القَبَائِلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ -وَهُوَ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، يَوْمَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ-: أَمَا وَاللهِ لَوْلَا يَدٌ لَكَ كَانَتْ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ.

وَكَانَ الصِّدِّيقُ قَدْ أَغْلَظَ لَهُ فِي المَقَالَةِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُهُ مَعَ سَادَاتِ العَرَبِ وَرُؤَسَاءِ القَبَائِلِ، فَكَيْفَ بِمَنْ عَدَاهُمْ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوابِ الجَنَّةِ: يا عَبْدَ اللهِ هَذا خَيْرٌ. فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الجِهادِ دُعِيَ مِنْ بابِ الجِهادِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيامِ دُعِيَ مِنْ بابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّدَقَةِ**. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ كُلِّها؟ قالَ: **نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**» [البخاري (١٨٩٧)، مسلم (١٠٢٧)].

تفسير سورة الضحى

(مكية)

عَنْ جُنْدب بْنِ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اشْتكى رَسولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ -أَوْ ثَلاثًا-، فَجاءَتِ امْرَأَةٌ فَقالَتْ: يا مُحَمَّدُ، إنِّي لَأَرْجُو أنْ يَكونَ شَيطانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ -أوْ ثَلاثَةٍ- فأنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾» [البخاري (٤٩٥٠)، مسلم (١٧٩٧)].

وَفي رِوايَة عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَبْطَأَ جِبْرِيلُ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقالَ المُشْرِكُونَ: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّدٌ، فأنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾» [مسلم (١٧٩٧)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾؛ هَذَا قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالضُّحَى وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الضِّيَاء. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ أَيْ: سَكَنَ فَأَظْلَمَ وادْلَهَمَّ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ.

وَذَلِكَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا. كَمَا قَالَ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢]، وَقَالَ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أَيْ: مَا تَرَكَكَ. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أَيْ: وَمَا أَبْغَضَكَ. ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أَيْ: وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ.

وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْظَمَهُمْ لَهَا اطِّرَاحًا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِ. وَلَمَّا خُيِّرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ عُمرِهِ بَيْنَ الخُلْدِ فِي الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ الجَنَّة

وَبَيْنَ الصَّيْرُورَةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ اخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ[1].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَأَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ، جَعَلْتُ أَمْسَحُ جَنْبَهُ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا آذَنْتَنَا حَتَّى نَبْسُطَ لَكَ عَلَى الحَصِيرِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا وَالدُّنْيَا؟ إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**» [السلسلة الصحيحة (٤٣٨)][2].

وَقَوْلُهُ: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ**﴾؛ أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ حَتَّى يُرْضِيَهُ فِي أُمَّتِهِ، وَفِيمَا أعدَّه لَهُ مِنَ الكَرَامَةِ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ نَهْرُ الكَوْثَرِ الَّذِي حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّفِ، وَطِينُهُ مِنْ مِسْكٍ أَذْفَرَ كَمَا سَيَأْتِي. وَعَن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: عُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَنْزًا كَنْزًا، فَسُرَّ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ**﴾ فَأَعْطَاهُ فِي الجَنَّةِ أَلْفَ أَلْفَ قَصْرٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالخَدَمِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِهِ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، ومثلُ هَذَا مَا يُقَالُ إِلَّا عَنْ تَوْقِيفٍ. وَفِي رِوَايَةٍ عَن ابنِ عبَّاس؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عُرِضَ عليَّ ما هو مَفْتُوحٌ لأُمَّتي بَعْدِي، فَسَرَّنِي، فأنزلَ اللهُ تَعَالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ أَعْطَاهُ اللهُ في الجَنَّةِ أَلْفَ قَصْرٍ من لُؤْلُؤٍ، تُرابُها المِسْكُ، في كُلِّ قَصْرٍ مَا يَنبغي لهُ**» [السلسلة الصحيحة (٢٧٩٠)]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ رِضَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَلَّا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ النَّارَ. وَقَالَ الحَسَنُ: يَعْنِي بِذَلِكَ الشَّفَاعَةَ. وَهَكَذَا قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ البَاقِرُ.

---

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**. فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خُلَّةَ الإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**» [البخاري (٣٩٠٤)].

(٢) وَفِي رِوَايَةٍ عَن ابنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «دَخَلَ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! لَوْ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِن هَذا؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **يَا عُمَر! مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي؟! وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا؛ إِلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاستَظَلَّ تَحتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِن نَهَار، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**» [السلسلة الصحيحة (٤٣٩)].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى -يُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تُوفِّيَ وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ وَلَهُ مِنَ العُمرِ سِتُّ سِنِينَ. ثُمَّ كَانَ فِي كَفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَمَانِ سِنِينَ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ. ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ وَيُوَقِّرُهُ وَيَكُفُّ عَنْهُ أَذَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَن ابْتَعَثَهُ اللهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمرِهِ، هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ وحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، إِلَى أَنْ تُوفي أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ وجُهَّالُهُم، فَاخْتَارَ اللهُ لَهُ الهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِلَى بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، كَمَا أَجْرَى اللهُ سُنَّتَهُ عَلَى الوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ آوَوْهُ ونَصَرُوهُ وَحَاطُوهُ وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللهِ لَهُ وَكِلَاءَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾؛ أَيْ: كُنْتَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ، فَأَغْنَاكَ اللهُ عَمَّنْ سِوَاهُ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ مَقَامَي الفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالغَنِيِّ الشَّاكِرِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قَالَ: كَانَتْ هَذِهِ مَنَازِلَ الرَّسُولِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» [البخاري (٦٤٤٦)، مسلم (١٠٥١)]. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَن أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**» [مسلم (١٠٥٤)]. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾؛ أَيْ: كَمَا كُنْتَ يَتِيمًا فَآوَاكَ اللهُ فَلَا تَقْهَرِ اليَتِيمَ؛ أَيْ: لَا تُذِلَّهُ وَتَنْهَرْهُ وَتُهِنْهُ، وَلَكِنْ أحسِنْ إِلَيْهِ، وَتَلَطَّفْ بِهِ. قَالَ قَتَادَةُ: كُنْ لِلْيَتِيمِ كَالْأَبِ الرَّحِيمِ! ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾؛ أَيْ: وَكَمَا كُنْتَ ضَالًّا فَهَدَاكَ اللهُ، فَلَا تَنْهَرِ السَّائِلَ فِي العِلْمِ المُسْتَرْشِدَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَيْ: فَلَا تَكُنْ جَبَّارًا، وَلَا مُتَكَبِّرًا، وَلَا فَحَّاشًا، وَلَا فَظًّا عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ عِبَادِ اللهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي: رُدَّ المِسْكِينَ بِرَحْمَةٍ وَلِينٍ.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؛ أَيْ: وَكَمَا كُنْتَ عَائِلًا فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللهُ، فَحَدِّثْ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ، كَمَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ المَأْثُورِ؛ عَنِ ابنِ مَسْعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ: «ربَّنا أَصْلِحْ بَيْنَنَا، وَاهْدِنا سُبُلَ السَّلام، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَاصْرِفْ عَنَّا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، مُثْنِينَ بِهَا، قَائِلِينَ بِهَا، وَأَتْمِمْهَا عَلَيْنَا» [صحيح الأدب المفرد (٢٤٩)]. وَعَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: كَانَ المُسْلِمُونَ يَرَوْنَ أَنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ أَنْ يُحَدَّثَ بِهَا. وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ، لَمْ يَشْكُرِ الكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ. وَالجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالفُرْقَةُ عَذَابٌ**» [صحيح الترغيب (٩٧٦)]. وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ أَتَاهُ المُهَاجِرُونَ فَقَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأَيْنا قَوْمًا أَبْذَلَ مِن كَثِيرٍ وَلا أَحْسَنَ مُواسَاةً مِن قَلِيلٍ مِن قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِم؛ لَقَد كَفَوْنا المُؤْنَةَ، وأَشْرَكُونَا فِي المَهْنَإِ، حَتَّى لَقَد خِفْنا أَن يَذْهَبوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا، مَا دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ، وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ**» [صحيح سنن الترمذي (٢٤٨٧)]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ**» [صحيح سنن أبي داود (٤٨١١)]. وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أُبْلِيَ بَلَاءً فَذَكَرَهُ، فَقَد شَكَرَهُ، وإِنْ كَتَمَهُ فَقَد كَفَرَهُ**» [صحيح سنن أبي داود (٤٨١٤)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن أُعطِيَ عَطاءً فوَجَدَ فلْيَجْزِ بِهِ، فَإِن لَمْ يَجِدْ فلْيُثْنِ بِهِ، فَمَن أَثْنى بِهِ فَقَد شَكَرَه، وَمَن كَتَمَه فَقَد كَفَرَه**» [صحيح سنن أبي داود (٤٨١٣)][1]. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي النُّبُوَّةَ الَّتِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: القُرْآنُ. وَعَنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ فَحَدِّث إِخْوَانَكَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: مَا جَاءَكَ مِن اللهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ مِنَ النُّبُوَّةِ فَحَدِّثْ بِهَا وَاذْكُرْهَا وَادْعُ إِلَيْهَا. وَقَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ سِرًّا إِلَى مَنْ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَافْتُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى.

❁ ❁ ❁

(١) وَعَنْ عَبدِاللهِ بنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِؤُونَهُ فَادعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**» [صحيح سنن أبي داود (١٦٧٢)].

تفسير سورة الشرح

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ يَعْنِي: أَمَا شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، أَيْ: نَوَّرْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ فَسِيحًا رَحِيبًا وَاسِعًا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وَكَمَا شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ كَذَلِكَ جَعَلَ شَرْعَهُ فَسِيحًا وَاسِعًا سَمْحًا سَهْلًا لَا حَرَجَ فِيهِ وَلَا إِصْرَ وَلَا ضِيقَ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ شَرْحُ صَدْرِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ كَمَا وَرَدَ مِنْ رِوَايَةِ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ[1].

---

(١) قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ إِسْماعيل البُخَاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ: حَدَّثَنَا هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ، إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَدَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ. فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ. فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ، قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا، ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ وَاقِعًا(١)، وَلَكِنْ لَا مُنَافَاةَ، فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ شَرْحِ صَدْرِهِ الَّذِي فُعِل بِصَدْرِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنَ الشَّرْحِ المَعْنَوِيِّ أَيْضًا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؛ بِمَعْنَى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَأَلْتُ ربِّي مَسْأَلَةً وَوددْتُ أَنِّي لمْ أَسْأَلْهُ، قُلْتُ: يا رَبِّ! كانَتْ قَبْلي رُسُلٌ، مِنهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّياحَ، ومِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي المَوْتَى،**

قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ ممَّن يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهَرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي» [البخاري (٣٨٨٧)].

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أتاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمانِ، فأخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَن قَلْبِهِ، فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ مِنهُ عَلَقَةً، فَقالَ: هَذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ، وَجاءَ الغِلْمانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ -يَعْنِي: ظِئْرَهُ- فَقالوا: إنَّ مُحَمَّدًا قدْ قُتِلَ! فاسْتَقْبَلُوهُ وَهو مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ المِخْيَطِ في صَدْرِهِ» [مسلم (١٦٢)].

وَكَلَّمْتَ مُوسَى، قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلا فَأَغْنَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ بَلَى يَا رَب! فَوَدِدْتُ أَنْ لَمْ أَسْأَلْهُ» [السلسلة الصحيحة (٢٥٣٨)].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الْإِنْقَاضُ: الصَّوْتُ. وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَيْ: أَثْقَلَكَ حَمْلُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرتَ مَعِي: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: رَفَعَ اللهُ ذِكرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

وَحَكَى الْبَغَوِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: الْأَذَانُ. يَعْنِي: ذِكْرَهُ فِيهِ، وَأَوْرَدَ مِنْ شِعْرِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:

أَغَــرُّ عَلَيْــهِ لِلنُّبُــوَّةِ خَــاتَمٌ ... مِــنَ اللهِ مِــنْ نُــورٍ يَلُــوحُ وَيُشْــهَدُ

وَضَــمَّ الإِلَــهُ اسْــمَ النَّبِــيِّ إِلَــى اسْــمِهِ ... إِذَا قَــالَ فِــي الخَمْــسِ المُــؤَذِّنُ: أَشْــهَدُ

وَشَــقَّ لَــهُ مِــنِ اسْــمِهِ لِيُجِلَّــهُ ... فَــذُو العَــرْشِ مَحْمُــودٌ وَهَــذا مُحَمَّــدُ

وَقَالَ آخَرُونَ: رَفَعَ اللهُ ذِكْرَهُ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ وَنَوَّهَ بِهِ، حِينَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَأْمُرُوا أُمَمَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ، ثُمَّ شَهَّرَ ذِكْرَهُ فِي أُمَّتِهِ فَلَا يُذكر اللهُ إِلَّا ذُكِرَ مَعَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يوجَدُ الْيُسْرُ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ. وعَنِ الحَسَنِ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ: لَا يَغْلِبُ عُسْرٌ وَاحِدٌ يُسْرَيْنِ اثْنَيْنِ.

وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ الْعُسْرَ مُعَرَّفٌ فِي الحَالَيْنِ، فَهُوَ مُفْرَدٌ، وَالْيُسْرُ مُنَكَّرٌ فَتَعَدَّدَ. فَالْعُسْرُ الْأَوَّلُ عَيْنُ الثَّانِي، وَالْيُسْرُ تَعَدَّدَ.

وَفِي الحَدِيث؛ قَالَ ﷺ: «يَا فَتَى أَلَا أَهَبُ لَكَ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ الخَلَائِقَ لَوْ أَرَادُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُرِدْكَ اللهُ بِهِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» [الألباني، تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم (٣١٥)].

وَمِمَّا يُرْوَى عَنِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

صَبْراً جَمِيلاً مَا أَقْرَبَ الفَرَجَا ... مَنْ رَاقَبَ اللهَ فِي الأُمُورِ نَجَا

مَنْ صَدَّقَ اللهَ لَمْ يَنَلْهُ أَذَى ... وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وَقَالَ آخَرُ:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الفَتَى ... ذَرْعًا وَعِنْدَ اللهِ مِنْهَا المَخْرَجُ

ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا ... فُرِجَتْ وَكَانَ يَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾؛ أَيْ: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عَلَائِقَهَا، فَانْصَبْ فِي العِبَادَةِ، وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطًا فَارِغَ البَالِ، وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النِّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ.

وَمِن هَذَا القَبِيل قَوْله ﷺ: «**لا صَلاةَ بحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلا هُوَ يُدافِعُهُ الأَخْبَثانِ**» [مسلم (٥٦٠)]، وَقَوْله ﷺ: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ العَشَاءُ، فَابْدَءُوا بِالعَشَاءِ**» [البخاري (٥٤٦٥)].

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَقُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَانْصَبْ لِرَبِّكَ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَانْصَبْ فِي حَاجَتِكَ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِذَا فَرَغْتَ مِنَ الفَرَائِضِ فَانْصَبْ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ. وَعَنِ ابْنِ عِيَاضٍ نَحْوُهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ بَعْدَ فَرَاغِكَ مِنَ الصَّلَاةِ وَأَنْتَ جَالِسٌ. وَقَالَ ابنُ عَبَّاس: ﴿فَٱنصَبْ﴾: **يَعْنِي**: فِي الدُّعَاءِ.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَم، وَالضَّحَّاكُ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾؛ أَيْ: مِنَ الجِهَادِ. ﴿فَٱنصَبْ﴾؛ أَيْ: فِي العِبَادَةِ.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ: اجْعَلْ نِيَّتَكَ وَرَغْبَتَكَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

تفسير سورة التين
(مكية)

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي العِشَاءِ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فَما سَمِعْتُ أحَدًا أحْسَنَ صَوْتًا أوْ قِراءَةً مِنهُ» [البخاري (٧٥٤٦)، مسلم (٤٦٤)]، وَفِي رِوَايَة: «أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ فِي سَفَرٍ فَقَرَأَ فِي العِشاءِ فِي إحْدى الرَّكْعَتَيْنِ بـ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾» [البخاري (٧٦٧)، مسلم (٤٦٤)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ هَاهُنَا عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ فَقِيلَ: المُرَادُ بِـ﴿ٱلتِّينِ﴾ مَسْجِدُ دِمَشْقَ. وَقِيلَ: هِيَ نَفْسُهَا. وَقِيلَ: الجَبَلُ الَّذِي عِنْدَهَا. وَقَالَ القُرْطُبِيُّ: هُوَ مَسْجِدُ أَصْحَابِ الكَهْفِ. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ مَسْجِدُ نُوحٍ الَّذِي عَلَى الجُودِيِّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ تِينِكُمْ هَذَا. ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ: هُوَ مَسْجِدُ بَيْتِ المَقْدِسِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ: هُوَ هَذَا الزَّيْتُونُ الَّذِي تَعْصِرُونَ[1]. ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُوَ الجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾؛ يَعْنِي: مَكَّةَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالحُسْنُ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِي، وَابْنُ زَيْدٍ، وَكَعْبُ الْأَحْبَارِ. وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: هَذِهِ مَحَالُّ ثَلَاثَةٌ، بَعَثَ اللهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا مِنْ أُولِي العَزْمِ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ الكِبَارِ، **فَالْأَوَّلُ**: مَحَلَّةُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَهِيَ بَيْتُ المَقْدِسِ الَّتِي بَعَثَ اللهُ فِيهَا

---

(١) قَالَ الإمَامُ ابنُ جَرير الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَالصَّوابُ مِن القَولِ فِي ذَلِكَ عِندَنا قَوْلُ مَن قَالَ: ﴿ٱلتِّينِ﴾ هُوَ التِّينُ الذي يُؤْكَلُ، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ هُوَ الزَّيْتونُ الذي يُعصَرُ مِنهُ الزَّيتُ. لأنَّ ذَلِكَ هُوَ المَعْرُوفُ عِندَ العَرَبِ، ولا يُعرَفُ جَبَلٌ يُسَمَّى تِينًا، وَلا جَبَلٌ يُقَالُ لَهُ: زَيْتونٌ. إلا أن يَقولَ قَائِلٌ: أَقْسَمَ رَبُّنا جَلَّ ثَناؤُهُ بِالتِّينِ وَالزَّيْتونِ، وَالمُرادُ مِن الكَلامِ: القَسَمُ بِمَنَابِتِ التِّينِ وَمَنَابِتِ الزَّيْتونِ. فَيَكُون ذَلِكَ مَذْهَبًا، وَإِن لَمْ يَكُنْ عَلى صِحَّةِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَذلِك دَلالَةٌ فِي ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ، وَلا مِن قَوْلِ مَن لا يَجُوزُ خِلافُهُ؛ لأنَّ دِمَشْقَ بِهَا مَنَابِتُ التِّينِ، وَبَيت المَقْدِسِ مَنَابِتُ الزَّيْتونِ» [جامع البيان عن تأويل آي القرآن].

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ. **وَالثَّانِي**: طُورُ سِينِينَ، وَهُوَ طُورُ سَيْنَاءَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ. **وَالثَّالِثُ**: مَكَّةُ، وَهُوَ البَلَدُ الْأَمِينُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ فِيهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

قَالُوا: وَفِي آخِرِ التَّوْرَاةِ ذِكْرُ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ الثَّلَاثَةِ: جَاءَ اللهُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ -يَعْنِي الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ-، وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعِيرَ -يَعْنِي بَيْتَ المَقْدِسِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ مِنْهُ عِيسَى-، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ -يَعْنِي جِبَالَ مَكَّةَ الَّتِي أَرْسَلَ اللهُ مِنْهَا مُحَمَّدًا-، فَذَكَرَهُمْ عَلَى التَّرْتِيبِ الوُجُودِيِّ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِمْ فِي الزَّمَانِ، وَلِهَذَا أَقْسَمَ بِالْأَشْرَفِ، ثُمَّ الْأَشْرَفِ مِنْهُ، ثُمَّ بِالْأَشْرَفِ مِنْهُمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ هَذَا هُوَ المُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَشَكْلٍ، مُنْتَصِبَ القَامَةِ، سَوِيَّ الْأَعْضَاءِ حَسَنَهَا. ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ**﴾؛ أَيْ: إِلَى النَّارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو العَالِيَةِ، وَالحَسَنُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ.

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الحُسْنِ وَالنَّضَارَةِ مَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يُطِعِ اللهَ وَيَتَّبِعِ الرُّسُلَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ**﴾؛ أَيْ: إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ. رُوِي هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةَ -حَتَّى قَالَ عِكْرِمَةُ: مَنْ جَمَعَ القُرْآنَ لَمْ يُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ. وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ-. وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ المُرَادُ لَمَا حَسُنَ اسْتِثْنَاءُ المُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الهَرَمَ قَدْ يُصِيبُ بَعْضَهُمْ، وَإِنَّمَا المُرَادُ مَا ذَكَرْنَاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿**وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ [العصر: ١-٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ أَيْ: غَيْرُ مَقْطُوعٍ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ**﴾؛ أَيْ: يَا ابْنَ آدَمَ. ﴿**بَعْدُ بِٱلدِّينِ**﴾؛ أَيْ: بِالجَزَاءِ فِي المَعَادِ وَقَدْ عَلِمْتَ البَدْأَةَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى البَدْأَةِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الرَّجْعَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، فَأَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالمَعَادِ وَقَدْ عَرَفْتَ هَذَا؟! وَعَنْ مَنْصُورٍ قَالَ: قُلْتُ لِمُجَاهِدٍ: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ**﴾ عَنَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ؟ قَالَ: مَعَاذَ اللهِ! عَنَى بِهِ الْإِنْسَانَ. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿**أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ**﴾؛ أَيْ: أَمَا هُوَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ؟، الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَمِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُقِيمَ القِيَامَةَ فَيُنْصِفَ المَظْلُومَ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ ظَلَمَهُ.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة اقرأ

(مكية، وهي أول شيء نزل من القرآن)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرى رُؤْيا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءُ، فَكانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ، قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهْلِهِ ويَتَزَوَّدُ لِذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِها، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُو في غَارِ حِراءٍ؛ فَجَاءَهُ المَلَكُ؛ فَقالَ: ﴿ٱقْرَأْ﴾، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَا أَنَا بِقارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي. فَقالَ: ﴿ٱقْرَأْ﴾، قُلتُ: مَا أَنَا بِقارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي. فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ﴾، قُلتُ: مَا أَنَا بِقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجُهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي. فَقالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوادِرُهُ، حتَّى دَخَلَ على خَدِيجَةَ، فَقالَ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لي! لَقَدْ خَشِيتُ على نَفْسِي، فَأَخْبَرَها الخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ فَواللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَواللهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوائِبِ الحَقِّ.

فانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حتَّى أتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بنَ نَوْفَلٍ، وَهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيها، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العَرَبِيَّ، ويَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فَقالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابْنِ أخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذا تَرَى؟ فأخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذا النَّامُوسُ الذي أُنْزِلَ على مُوسَى، لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا، ذَكَرَ حَرْفًا، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!

قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إلا أُوذِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وفتر الوَحْيُ فَتْرَةً، حَتَّى حَزِنَ رَسولُ اللهِ ﷺ» [البخاري (٤٩٥٣)، مسلم (١٦٠)].

فَأَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الكَرِيمَاتُ المُبَارَكَاتُ، وهُنَّ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِمَ اللهُ بِهَا العِبَادَ، وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِم.

وَفِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقَةٍ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى أَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم، فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالعِلْمِ، وَهُوَ القَدْرُ الَّذِي امْتَازَ بِهِ أَبُو البَرِيَّةِ آدَمُ عَلَى المَلَائِكَةِ، وَالعِلْمُ تَارَةً يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي اللِّسَانِ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي الكِتَابَةِ بِالبَنَانِ، ذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهُمَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وَفِي الْأَثَرِ: «قَيِّدُوا العِلْمَ بِالكِتَابِ» [السلسلة الصحيحة (٢٠٢٦)].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ ذُو فَرَحٍ وَأَشَرٍ وَبَطَرٍ وَطُغْيَانٍ؛ إِذَا رَأَى نَفْسَهُ قَدِ اسْتَغْنَى وَكَثُرَ مَالُهُ. ثُمَّ تَهَدَّدَهُ وَتَوَعَّدَهُ وَوَعَظَهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ أَيْ: إِلَى اللهِ المَصِيرُ وَالمَرْجِعُ، وَسَيُحَاسِبُكَ عَلَى مَالِكَ: مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ؟ وَفِيمَ صَرَفْتَهُ؟

وَعَنْ عَوْنٍ قَالَ: قَالَ ابنُ مَسْعودٍ: «مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: صَاحِبُ العِلْمِ، وَصَاحِبُ الدُّنْيَا، وَلا يَسْتَوِيَانِ؛ أَمَّا صَاحِبُ العِلْمِ؛ فَيَزْدَادُ رِضًى للرَّحمنِ، وأَمَّا صَاحِبُ الدُّنْيَا؛ فَيَتَمَادَى فِي الطُّغْيَانِ. ثُمَّ قَرَأَ عَبدُاللهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، قَالَ: وَقَالَ الآخرُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾» [صحيح منقطع، هداية الرواة (٢٥٢)]. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: «مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي العِلْمِ لَا يَشْبَعُ مِنْهُ، وَمَنْهُومٌ فِي الدُّنْيَا لَا يَشْبَعُ مِنْهَا» [هداية الرواة (٢٥١)].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ -لَعَنَهُ اللهُ-، تَوَعَّدَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ البَيْتِ، فَوَعَظَهُ اللهُ تَعَالَى بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا، فَقَالَ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أَيْ: فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ، ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ بِقَوْلِهِ، وَأَنْتَ تَزْجُرُهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صِلَاتِهِ!

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؟ أَيْ: أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا المُهْتَدِي أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَسَيُجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَتَمَّ الجَزَاءِ؟!

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمُتَهَدِّدًا: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾؛ أَيْ: لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الشِّقَاقِ وَالعِنَادِ. ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾؛ أَيْ: لنَسِمَنَّها سَوَادًا يَوْمَ القِيَامَةِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾؛ يَعْنِي: نَاصِيَةَ أَبِي جَهْلٍ كَاذِبَةً فِي مَقَالِهَا خَاطِئَةً فِي فِعَالِهَا.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾؛ أَيْ: قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ، أَيْ: لِيَدْعُهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ وَهُمْ مَلَائِكَةُ العَذَابِ؛ حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغلِبُ: أَحِزْبُنا أَوْ حِزْبُهُ!

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: **لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ**» [البخاري (٤٩٥٨)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ -أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ-. قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي -زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ-. قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ. قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ -لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ- ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يَعْنِي: أَبَا جَهْلٍ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾» [مسلم (٢٧٩٧)].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ المَقامِ، فمَرَّ بِهِ أَبو جَهْلِ بنِ هِشام، فَقالَ: يَا مُحمَّدُ، أَلَمْ أَنْهَك عَن هَذا؟ وتَوَعَّدَهُ، فأَغْلَظَ لَهُ رَسولُ اللهِ وانْتَهَرَهُ، فَقَالَ: يَا مُحمَّدُ، بأيِّ شَيءٍ تُهَدِّدُني؟، أَمَا واللهِ إنِّي لَأَكثَرُ هَذا الوَادي نَادِيًا، فأَنزَلَ اللهُ: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ**﴾، فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لأَخَذَتْهُ زَبانِيَةُ العَذَابِ مِن سَاعَتِهِ» [السلسلة الصحيحة (٢٧٥)].

وعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ أَبو جَهْلٍ: إن رَأيتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِندَ الكَعْبَةِ لآتينَّهُ حتَّى أَطَأَ عَلَى عُنقِهِ. قَالَ: فَقالَ: **لَوْ فَعَلَ لأَخَذَتْهُ المَلائِكَةُ عيانًا، وَلَوْ أنَّ اليَهودَ تَمَنَّوا المَوتَ لَمَاتوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُم مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذينَ يُباهِلونَ رَسولَ اللهِ ﷺ لَرَجَعوا لا يَجِدونَ مَالًا وَلا أَهْلًا**» [السلسلة الصحيحة (٣٢٩٦)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**كَلَّا لَا تُطِعْهُ**﴾؛ **يَعْنِي**: يَا مُحَمَّدُ، لَا تُطِعْهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ المُدَاوَمَةِ عَلَى العِبَادَةِ وَكَثْرَتِهَا، وَصَلِّ حَيْثُ شِئْتَ وَلَا تُبَالِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ، وَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، ﴿**وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩**﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**» [مسلم (٤٨٢)].

وعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي ﴿**إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ**﴾، وَ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ**﴾» [مسلم (٥٧٨)].

تفسير سورة القدر

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ القُرْآنَ لَيْلَةَ القَدْرِ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ المُبَارَكَةُ الَّتِي قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وَهِيَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَان، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ العِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسْبِ الوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً على رسول الله ﷺ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعَظِّما لِشَأْنِ لَيْلَةِ القَدْرِ -الَّتِي اخْتَصَّهَا بِإِنْزَالِ القُرْآنِ العَظِيمِ فِيهَا- فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

عَنْ مُجَاهِدٍ: لَيلةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. قَالَ: عَمَلُهَا؛ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. وَعَنْهُ أَيْضًا: لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ -لَيْسَ فِي تِلْكَ الشُّهُورِ لَيْلَةُ القَدْرِ-.

وَهَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ، وَالشَّافِعِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ المُلَائِيُّ: عَمَلٌ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَلْفِ شَهْرٍ.

وَهَذَا القَوْلُ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ -لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ القَدْرِ- هُوَ اختيارُ ابن جَرِيرٍ.

وَهُوَ الصَّوَابُ لَا مَا عَدَاهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﷺ: «**رِباطُ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ خَيْرٌ مِن صِيامِ شَهْرٍ وقِيامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرى عَلَيهِ عَمَلُهُ الذي كَانَ يَعْمَلُهُ، وأُجْرِيَ عَلَيهِ رِزْقُهُ، وأَمِنَ الفَتَّانَ**» [مسلم (١٩١٣)].

وَكَمَا جَاءَ فِي قَاصِدِ الجُمُعَةِ: «**مَن غَسَّلَ يومَ الجُمُعَةِ واغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابتكرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَب، وَدَنا مِنَ الإمَامِ فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ؛ أَجْرُ صِيامِهَا وَقِيَامِهَا**» [صحيح سنن أبي داود (٣٤٥)].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَعَانِي المُشَابِهَةِ لِذَلِكَ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتاكُم رَمَضانُ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُم صِيَامَهُ، تُفَتَّحُ فيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتُغَلَّقُ فيهِ أَبْوَابُ الجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فيهِ مَرَدَةُ الشَّياطِينِ، للهِ فيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِن أَلفِ شَهرٍ، مَن حُرِمَ خَيرَها فَقَد حُرِمَ**» [صحيح سنن النسائي (٢١٠٥)].

وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ تَعْدِلُ عِبَادَتُهَا عِبَادَةَ أَلْفِ شَهْرٍ، ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» [البخاري (١٩٠١)، مسلم (٧٦٠)].

وَقَوْلُهُ: ﴿**تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم**﴾؛ أَيْ: يَكْثُرُ تَنَزُّلُ المَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا، وَالمَلَائِكَةُ يَتَنَزَّلُونَ مَعَ تَنَزُّلِ البَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ، كَمَا يَتَنَزَّلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ القُرْآنِ وَيُحِيطُونَ بِحِلَقِ الذِّكْرِ، وَيَضَعُونَ أَجْنِحَتَهُمْ لِطَالِبِ العِلْمِ -بِصِدْقٍ- تَعْظِيمًا لَهُ.

وَأَمَّا ﴿**ٱلرُّوحُ**﴾، فَقِيلَ: المُرَادُ بِهِ هَاهُنَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العَامِّ. وَقِيلَ: هُمْ ضَرْبٌ مِنَ المَلَائِكَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**مِّن كُلِّ أَمْرٍ**﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. وَعَنْ مُجَاهِد قَالَ: هِيَ سَالِمَةٌ، لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا سُوءًا أَوْ يَعْمَلَ فِيهَا أَذًى.

وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: تُقْضَى فِيهَا الْأُمُورُ، وَتُقَدَّرُ الْآجَالُ وَالْأَرْزَاقُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾ [الدخان: ٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿**سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ**﴾ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: تَسْلِيمُ المَلَائِكَةِ لَيْلَةَ القَدْرِ عَلَى أَهْلِ المَسَاجِدِ، حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْلَةُ القَدْرِ لَيْلَةُ سَابِعَةٍ، أَوْ تَاسِعَةٍ وَعِشْرِينَ، إِنَّ المَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الأَرْضِ أَكْثَرُ مِن عَدَدِ الحَصَى**» [السلسلة الصحيحة (٢٢٠٥)].

وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿**سَلَٰمٌ هِيَ**﴾ **يَعْنِي**: هِيَ خَيْرٌ كُلُّهَا، لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ إِلَى مَطْلَعِ الفَجْرِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْلَةُ القَدْرِ لَيْلَةٌ سَمحَةٌ، طَلقَةٌ، لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ، تُصْبِحُ الشَّمْسُ صَبِيحَتَهَا ضَعِيفَةً حَمْرَاءَ**» [صحيح الجامع (٥٤٧٥)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي كُنْتُ أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، ثُمَّ نُسِّيتُهَا، وَهِيَ فِي العَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ لَيْلَتِهَا، وَهِيَ لَيْلَةٌ طَلْقَةٌ بَلْجَةٌ، لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ**. وَزَادَ الزِّيَادِيُّ: كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا يَفْضَحُ كَوَاكِبَهَا، وَقَالَا: لَا يَخْرُجُ شَيْطَانُهَا حَتَّى يُضِيءَ فَجْرُهَا» [الألباني، صحيح ابن خزيمة (٢١٩٠)].

أَمَّا وَقْتُهَا؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِن رَمَضانَ وَيَقولُ: **تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ**» [البخاري (٢٠٢٠)].

فَقِيلَ: لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ؛ لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ: حَدِّثْنِي ما سَمِعْتَ مِنَ النبيِّ ﷺ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ، قالَ: «اعْتَكَفَ رَسولُ اللهِ ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ مِن رَمَضانَ واعْتَكَفْنا معهُ، فأتاهُ جِبْرِيلُ فَقالَ: إنَّ الذي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فاعْتَكَفَ العَشْرَ الأوْسَطَ، فاعْتَكَفْنا مَعَهُ، فأتاهُ جِبْرِيلُ فَقالَ: إنَّ الذي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَقامَ النبيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِن رَمَضانَ فَقالَ: **مَن كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النبيِّ ﷺ، فَلْيَرْجِعْ، فإنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، وإنِّي نُسِّيتُها، وَإِنَّهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، فِي وِتْرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ**، وَكَانَ سَقْفُ المَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيئًا، فَجَاءَتْ قَزَعَةٌ، فَأُمْطِرْنا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ حتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ والمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ وأَرْنَبَتِهِ؛ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ» [البخاري (٨١٣)].

وَفِي لَفْظٍ: «**إِنِّي اعْتَكَفْتُ العَشْرَ الأَوَّلَ، أَلْتَمِسُ هذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ العَشْرَ الأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ، فقِيلَ لِي: إنَّها فِي العَشْرِ الأواخِرِ، فمَن أَحَبَّ مِنكُم أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ**، فاعْتَكَفَ النَّاسُ مَعَهُ، قَالَ: **وإنِّي أُرِيتُها لَيْلَةَ وِتْرٍ، وإنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَها فِي طِينٍ وَماءٍ**، فأصْبَحَ مِن لَيْلَةِ إحْدَى وَعِشْرِينَ، وَقَدْ قامَ إلى الصُّبْحِ، فَمَطَرَتِ السَّماءُ، فَوَكَفَ المَسْجِدُ، فأبْصَرْتُ الطِّينَ وَالمَاءَ، فَخَرَجَ حِينَ فَرَغَ مِن صَلاةِ الصُّبْحِ، وَجَبِينُهُ وَرَوْثَةُ أَنْفِهِ فِيهِمَا الطِّينُ والمَاءُ، وإذا هِيَ لَيْلَةُ إحْدَى وَعِشْرِينَ مِنَ العَشْرِ الأواخِرِ» [مسلم (١١٦٧)].

وَقِيلَ: لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ؛ لِحَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، ثُمَّ أُنْسِيتُهَا، وَأَرَانِي صُبْحَهَا أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ**، قَالَ: فَمُطِرْنَا لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَانْصَرَفَ، وَإِنَّ أَثَرَ المَاءِ وَالطِّينِ عَلَى جَبْهَتِهِ وَأَنْفِهِ» [مسلم (١١٦٨)].

وَقِيلَ: تَكُونُ لَيْلَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ؛ لِمَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ

رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**التَمِسُوها في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِن رَمَضانَ؛ لَيْلَةَ القَدْرِ، في تَاسِعَةٍ تَبْقى، في سَابِعَةٍ تَبْقى، في خَامِسَةٍ تَبْقى**» [البخاري (٢٠٢١)]. فَسَّره كَثِيرُونَ بِلَيَالِي الْأَوْتَارِ، وَهُوَ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ.

وَحَمَلَهُ آخَرُونَ عَلَى الْأَشْفَاعِ كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ؛ لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ: «إِنَّ أَخاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يقولُ: مَن يَقُمِ الحَوْلَ يُصِبْ لَيْلَةَ القَدْرِ؟ فَقالَ: رَحِمَهُ اللهُ؛ أَرَادَ أَنْ لا يَتَّكِلَ النَّاسُ، أَما إِنَّه قَدْ عَلِمَ أَنَّها في رَمَضانَ، وَأَنَّها في العَشْرِ الأواخِرِ، وَأَنَّها لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، ثُمَّ حَلَفَ -لا يَسْتَثْنِي- أَنَّها لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، فَقُلْتُ: بأَيِّ شَيءٍ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبا المُنْذِرِ؟ قالَ: بالعَلامَةِ -أَوْ بالآيَةِ- الَّتي أَخْبَرَنا رَسولُ اللهِ ﷺ؛ أَنَّها تَطْلُعُ يَومَئِذٍ لا شُعَاعَ لَهَا» [مسلم (٧٦٢)].

وَفِي لَفْظٍ: «وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُها، وَأَكْثَرُ عِلْمِي هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتي أَمَرَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقِيامِهَا؛ هِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ».

وَفِي البَابِ عَنْ مُعَاوِيَةَ، وَابْنِ عُمَرَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ؛ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ. وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَهُوَ الجَادَّةُ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَيْضًا.

وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ فِي لَيْلَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ؛ فَقَدْ ذُكِرَت لَيْلَةُ القَدْرِ عِنْدَ أبي بكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: «مَا أَنا مُلْتَمِسُهَا -لِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ- إِلَّا في العَشْرِ الأَوَاخِرِ، فَإِني سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **التَمِسُوهَا في تِسْعٍ يَبْقَيْنَ، أَوْ سَبْعٍ يَبْقَيْنَ، أَوْ في خَمْسٍ يَبْقَينَ، أَوْ في ثَلاثٍ، أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ**» [صحيح سنن الترمذي (٧٩٤)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْلَةُ القَدْرِ لَيْلَةُ سَابِعَةٍ أَوْ تَاسِعَةٍ وَعِشْرِينَ، إِنَّ المَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الحَصَى**» [صحيح الجامع (٥٤٧٣)].

وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ**» [صحيح سنن الترمذي (٧٩٤)].

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ: صَدَرَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ جَوَابًا لِلسَّائِلِ إِذا قِيلَ لَهُ: أَلْتَمِسُ لَيْلَةَ القَدْرِ فِي اللَّيْلَةِ الفُلَانِيَّةِ؟ يَقُولُ: «نَعَمْ».

وَإِنَّمَا لَيْلَةُ القَدْرِ لَيْلَةٌ مُعَيَّنَة: لَا تَنْتَقِلُ. نَقَلَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْهُ بِمَعْنَاهُ.

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي قِلابَة أَنَّهُ قَالَ: لَيْلَةُ القَدْرِ تَنْتَقِلُ فِي العَشْرِ الْأَوَاخِرِ.

وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ نَصَّ عَلَيْهِ مَالِكٌ، وَالثَّوْرِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ، وَأَبُو ثَوْرٍ، وَالمُزَنِيُّ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ خُزَيْمَة، وَغَيْرُهُمْ. وَهُوَ مَحْكِيٌّ عَنِ الشَّافِعِيِّ -نَقَلَهُ القَاضِي عَنْهُ- وَهُوَ الْأَشْبَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ يُسْتَأْنَسُ لِهَذَا القَوْلِ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أُرُوا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي المَنَامِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ**» [البخاري (٢٠١٥)، مسلم (١١٦٥)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**» [البخاري (٢٠١٧)].

وَيُحْتَجُّ لِلشَّافِعِيِّ أَنَّهَا لَا تَنْتَقِلُ، وَأَنَّهَا مُعَيَّنَةٌ مِنَ الشَّهْرِ، بِمَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجَ النبيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنا بلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاحى رَجُلانِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَقالَ: **خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاحى فُلانٌ وفُلانٌ، فَرُفِعَتْ وعَسَى أنْ يَكونَ خَيْرًا لَكُمْ، فالتَمِسُوها في التَّاسِعَةِ، والسَّابِعَةِ، والخَامِسَةِ**» [البخاري (٢٠٢٣)].

وَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ: أَنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ مُعَيَّنَةً مُسْتَمِرَّةَ التَّعْيِينِ، لَمَا حَصَلَ لَهُمُ العِلْمُ بِعَيْنِهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ، إِذْ لَوْ كَانَتْ تَنْتَقِلُ لَمَا عَلِمُوا تَعيُّنها إِلَّا ذَلِكَ العَامِ فَقَطْ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ لِيُعْلِمَهُمْ بِهَا تِلْكَ السَّنَةَ فَقَط.

وَقَوْلُهُ: «**فَتَلاحى فُلانٌ وفُلانٌ فَرُفِعَتْ**» فِيهِ اسْتِئْنَاسٌ لِمَا يُقَالُ: إِنَّ المُمَارَاةَ تَقْطَعُ الفَائِدَةَ وَالعِلْمَ النَّافِعَ. وَقَوْلُهُ: «**فَرُفِعَتْ**» أَيْ: رُفِعَ عِلْمُ تَعيُّنِهَا لَكُمْ، لَا أَنَّهَا رُفِعَتْ بِالكُلِّيَّةِ مِنَ الوُجُودِ، كَمَا يَقُولُهُ الجَهَلَةُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ بَعْدَ هَذَا: «**فالتَمِسُوها في التَّاسِعَةِ، والسَّابِعَةِ، والخَامِسَةِ**».

وَقَوْلُهُ: «**وعَسَى أنْ يَكونَ خَيْرًا لَكُمْ**» **يَعْنِي**: عَدَمُ تَعْيِينِهَا لَكُمْ، فَإِنَّهَا إِذَا كَانَتْ مُبْهَمَةً اجْتَهَدْ طُلَابُهَا فِي ابْتِغَائِهَا فِي جَمِيعِ مَحَالِّ رَجَائِهَا، فَكَانَ أَكْثَرَ لِلْعِبَادَةِ، بِخِلَافِ مَا إِذَا عَلِمُوا عَيْنَهَا فَإِنَّهَا كَانَتِ الهِمَمُ تَتَقَاصَرُ عَلَى قِيَامِهَا فَقَطْ.

وَإِنَّمَا اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ إِبْهَامَهَا لِتَعُمَّ العِبَادَةُ جَمِيعَ الشَّهْرِ فِي ابْتِغَائِهَا، وَيَكُونُ الِاجْتِهَادُ فِي العَشْرِ الْأَوَاخِرِ أَكْثَرَ.

وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْعَل ذَلِك؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النبيَّ ﷺ: «كانَ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ مِن رَمَضانَ حتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أزْواجُهُ مِن بَعْدِهِ» [البخاري (٢٠٢٦)، مسلم (١١٧٢)].

وعَن ابنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ مِن رَمَضانَ» [البخاري (٢٠٢٥)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ، إذا دَخَلَ العَشْرُ، أَحْيا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَرَ» [مسلم (١١٧٤)]، وَفِي لَفْظ: «كَانَ النبيُّ ﷺ إذا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وأَحْيا لَيْلَهُ، وأَيْقَظَ أَهْلَهُ» [البخاري (٢٠٢٤)].

وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي العَشْرِ الأواخِرِ مَا لا يَجْتَهِدُ فِي غَيرِهِ» [مسلم (١١٧٥)].

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهَا: «وَشَدَّ المِئْزَرَ». وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ: اعْتِزَالُ النِّسَاءِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنِ الْأَمْرَيْنِ.

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ جَمِيعَ لَيَالِي العَشْرِ فِي تَطَلُّبِ لَيْلَةِ القَدْرِ عَلَى السَّوَاءِ، لَا يَتَرَجَّحُ مِنْهَا لَيْلَةٌ عَلَى أُخْرَى: رَأَيْتُهُ فِي شَرْحِ الرَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالمُسْتَحَبُّ الْإِكْثَارُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَكْثَرُ، وَفِي العَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْهُ، ثُمَّ فِي أَوْتَارِهِ أَكْثَرُ.

وَالمُسْتَحَبُّ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ: «**اللَّهُمَّ، إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي**»؛ لِمَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ علمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةَ القَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: **قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي**» [صحيح سنن الترمذي (٣٥١٣)].

وَفِي لَفْظ أَنَّها قَالَت: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ؛ مَا أَدْعُو؟ قَالَ: **تَقولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي**» [صحيح سنن ابن ماجه (٣١١٩)].

تفسير سورة البينة

(مدنية)

عَنْ أَنَس بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قَالَ: وَسَمَّانِي؟! قَالَ: نَعَمْ. فَبَكَى» [البخاري (٣٨٠٩)، مسلم (٧٩٩)].

وَفِي رِوَايَة: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القُرْآنَ، قَالَ أُبَيٌّ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟! قَالَ: اللهُ سَمَّاكَ لي. فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي. قَالَ قَتادَةُ: فَأُنْبِئْتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾» [البخاري (٤٩٦٠)].

وَفِي لَفْظ: «أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ لِأُبَيِّ بنِ كَعْبٍ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ القُرْآنَ. قَالَ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَقَدْ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ!! قالَ: نَعَمْ. فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ» [البخاري (٤٩٦١)].

حَدِيثٌ آخَرُ؛ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالى أَمَرَنِي أَنْ أَعْرِضَ القُرآنَ عَلَيكَ. قَالَ: وَسَمَّانِي لَكَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟! قَالَ: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا﴾ هَكَذا قَرَأَهَا أُبَيٌّ.

وَفِي رِوَايَةٍ زَادَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا المُنْذِرِ: فَفَرِحْتَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: وَمَا يَمْنَعُنِي، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾» [السلسلة الصحيحة تحت (٢٩٠٨)].

وَفِي التِّرمِذي: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، فَقَرَأَ فيهَا: ﴿إِنَّ ذَات الدِّين عِندَ اللهِ الحَنِيفِيَّةُ المُسلِمةُ، لا اليَهودِيَّةُ وَلا النَّصرَانِيَّةُ، مَن يَعْمَل خَيرًا فَلَنْ يُكفَرَه﴾، وَقَرَأَ عَلَيْه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لابنِ آدَمَ وَادِيًا مِن مَالٍ لابْتَغَى إِليه ثَانِيًا، وَلَوْ لَهُ ثَانِيًا لابْتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابن آدَمَ إلا التُّرَاب، وَيَتوبُ اللهُ عَلَى مَن تَاب﴾» [صحيح سنن الترمذي (٣٧٩٣)].

وَإِنَّمَا قَرَأَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ السُّورَةَ تَثْبِيتًا لَهُ، وَزِيَادَةً لِإِيمَانِه؛ فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَنْكَرَ عَلَى إِنْسَانٍ، وَهُوَ: عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، قِرَاءَةَ شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ عَلَى خِلَافِ مَا أَقْرَأَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَرَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَقْرَأَهُمَا، وَقَالَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا: «أَصَبْتَ».

قَالَ أُبَيُّ بنُ كَعْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ في المَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِراءَةً أَنْكَرْتُها عَلَيْه، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِراءَةً سِوى قِراءَةِ صَاحِبِه، فَلَمَّا قَضَيْنا الصَّلاةَ دَخَلْنا جَمِيعًا على رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إنَّ هَذا قَرَأَ قِراءَةً أَنْكَرْتُها عَلَيْه، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِراءَةِ صَاحِبِه، فَأَمَرَهُمَا رَسولُ اللهِ ﷺ، فَقَرَآ، فَحَسَّنَ النَّبيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ في نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ -وَلا إذْ كُنْتُ في الجَاهِلِيَّة-، فَلَمَّا رَأى رَسُول اللهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي، ضَرَبَ في صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا وَكَأَنَّما أَنْظُرُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَرَقًا، فَقالَ لِي: **يَا أُبَيُّ، أُرْسِلَ إلَيَّ: أَنِ اقْرَأِ القُرْآنَ عَلى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إلَيْهِ: أَنْ هَوِّنْ عَلى أُمَّتِي، فَرَدَّ إلَيَّ الثَّانِيَةَ: اقْرَأْهُ عَلى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إلَيْهِ: أَنْ هَوِّنْ عَلى أُمَّتِي، فَرَدَّ إلَيَّ الثَّالِثَةَ: اقْرَأْهُ عَلى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيها، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَومٍ يَرْغَبُ إلَيَّ الخَلْقُ كُلُّهُمْ، حتَّى إبْراهِيمُ** ﷺ» [مسلم (٨٢٠)].

فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الكَرِيمَةُ، وَفِيهَا: ﴿**رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾ قَرَأَهَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِرَاءَةَ إبْلَاغٍ وَتَثْبِيتٍ وَإِنْذَارٍ، لَا قِرَاءَةَ تَعَلُّمٍ وَاسْتِذْكَارٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئِلَةِ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ: أَوَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا؟**» قَالَ: لَا. قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ، ومُطَوَّفٌ بِهِ**»[1].

---

(١) قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ إِسْماعيل البُخَاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «حدثني عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ: حدَّثنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أخبَرَنا مَعْمَرٌ قالَ: أخبَرَني الزُّهْرِيُّ، قالَ: أخبرَني عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْر: عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ -يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ- قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ، حَتَّى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بِالغَمِيمِ، فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ**. فَوَاللهِ ما شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إذا هُمْ بِقَتَرَةِ الجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إذا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ. فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، خَلَأَتِ القَصْوَاءُ. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**. ثُمَّ قالَ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ اللهِ إلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا**. ثُمَّ زَجَرَها فَوَثَبَتْ. قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ على ثَمَدٍ قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلْبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللهِ ما زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، مَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ. فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ،**

وَلَكِنَّا جِئنا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ: فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلى أَمْرِي هَذا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ. فقالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُم ما تَقُولُ. فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا. فَقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنا أَنْ تُخْبِرَنا عَنْهُ بِشَيْءٍ. وَقالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ ما سَمِعْتَهُ يَقُولُ. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذا وَكَذَا. فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقالَ: أَيْ قَوْمِ، أَلَسْتُمْ بِالوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى. قالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى. قالَ: فَإِنَّ هَذا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوها وَدَعُونِي آتِيهِ. قَالُوا: ائتِهِ. فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟! وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لأَرَى أَشْوَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ. فَقالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: امْصَصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟! فَقالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بها لأَجَبْتُكَ. قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّما تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ المِغْفَرُ، فَكُلَّما أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عن لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. فَقالَ: أَيْ غُدَرُ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟! -وَكَانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَمَّا الإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا المَالَ فَلَسْتُ مِنهُ فِي شَيْءٍ**- ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللهِ ما تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بها وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذا أَمَرَهُمِ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلى وَضُوئِهِ، وَإِذا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَما يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلى أَصْحَابِهِ فَقالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لقد وَفَدْتُ عَلى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ -ﷺ- مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بها وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ على وَضُوئِهِ، وَإِذا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَما يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا. فَقالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ. فَقَالُوا: ائتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هَذا فُلَانٌ، وَهو مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوها لَهُ.** فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! ما يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ. فَلَمَّا رَجَعَ إِلى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، يُقالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقالَ: دَعُونِي آتِيهِ. فَقالُوا: ائتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجِرٌ.** فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هو يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ، عَن عِكْرِمَةَ: أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ.** قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا. فَدَعا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.** قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ ما أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقالَ المُسْلِمُونَ: وَاللهِ لا نَكْتُبُها إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.** ثُمَّ قَالَ: **هَذا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.** فَقالَ

سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ.** -قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: **لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**- فقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنا وَبَيْنَ البَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ.** فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ. فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟! فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فقالَ سُهَيْلٌ: هَذا يا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ، أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ.** قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لا أُصَالِحُكَ عَلى شَيْءٍ أَبَدًا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **فَأَجِزْهُ لِي.** قَالَ: مَا أَنا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قَالَ: **بَلَى فَافْعَلْ.** قَالَ: مَا أَنا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟! أَلا تَرَوْنَ ما قَدْ لَقِيتُ؟! وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ. قَالَ: فَقالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: **بَلَى.** قُلْتُ: أَلَسْنا عَلى الحَقِّ وَعَدُوُّنا عَلى البَاطِلِ؟ قَالَ: **بَلَى.** قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنا إِذًا؟! قَالَ: **إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُو نَاصِرِي.** قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟! قالَ: **بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟.** قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: **فَإِنَّكَ آتِيهِ، وَمُطَوِّفٌ بِهِ.** قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: أَلَيْسَ هَذا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟! قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنا عَلى الحَقِّ وَعَدُوُّنا عَلى البَاطِلِ؟! قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنا إِذًا؟! قَالَ: أَيُّها الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهو نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلى الحَقِّ. قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟! قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ. -قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذلِكَ أَعْمَالًا- قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: **قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا.** قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقالتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ**﴾ [الممتحنة: ١٠] فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إلى المَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ -رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ- وهو مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجا بِهِ حَتَّى بَلَغا ذا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لأَرَى سَيْفَكَ هَذا يا فُلَانُ جَيِّدًا. فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ. فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ. فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: **لَقَدْ رَأَى هَذا ذُعْرًا.** فَلَمَّا انْتَهَى إِلى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ. فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ: فَقالَ: يا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **وَيْلُ أُمِّهِ، مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ.** فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ

فَلَمَّا رَجَعُوا مِنَ الحُدَيْبِيَةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سُورَةَ «الفَتْحِ»، دَعَا عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ وَقَرَأَهَا عَلَيْهِ، وَفِيهَا قَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أَمَّا أَهْلُ الكِتَابِ فَهُمُ: اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَالمُشْرِكُونَ: عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ مِنَ العَرَبِ وَمِنَ العَجَمِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَمْ يَكُونُوا ﴿مُنفَكِّينَ﴾؛ يَعْنِي: مُنْتَهِينَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾؛ أَيْ: هَذَا القُرْآنُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

ثُمَّ فَسَّرَ البَيِّنَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾؛ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ، وَمَا يَتْلُوهُ مِنَ القُرْآنِ العَظِيمِ الَّذِي هُوَ مُكْتَتَبٌ فِي المَلَأِ الْأَعْلَى فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦].

عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ، قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ: فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ. فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦] وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ» [البخاري (٢٧٣١)].

وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيْ: فِي الصُّحُفِ المُطَهَّرَةِ كُتُبٌ مِنَ اللهِ.

﴿قَيِّمَةٌ﴾؛ عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ، لَيْسَ فِيهَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يَذْكُرُ القُرْآنَ بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ الثَّنَاءِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ مُسْتَقِيمَةٌ مُعْتَدِلَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]؛ يَعْنِي بِذَلِكَ: أَهْلَ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا، بَعْدَمَا أَقَامَ اللهُ عَلَيْهِمُ الحُجَجَ وَالبَيِّنَاتِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ كُتُبِهِمْ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا.

كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ المَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: «افتَرَقَتِ اليَهودُ عَلى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ فَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ: لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ وَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعونَ فِي النَّار. قِيلَ: يَا رَسولَ اللهِ، مَن هُم؟ قَالَ: الجَمَاعَة» [صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٤١)].

وَفِي لَفْظٍ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلى بَنِي إِسْرَائِيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِن كَانَ مِنهُم مَن أَتَى أُمَّهُ عَلانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَن يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل تَفَرَّقَت عَلى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُم فِي النَّارِ إِلا مِلَّةً وَاحِدةً، قَالوا: مَن هِيَ يَا رَسولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنا عَلَيهِ وَأَصْحَابِي» [صحيح سنن الترمذي (٢٦٤١)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ أَيْ: مُتَحَنِّفِينَ عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ الحَنِيفِ فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ»[1].

---

(١) قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] يَقُولُ اللهُ تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّهُ ﷺ سَيِّدَ المُرْسَلِينَ أَنْ يُخْبِرَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الهِدَايَةِ إِلَى صِرَاطِهِ المُسْتَقِيمِ، الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أَيْ: قَائِمًا ثَابِتًا. ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وَهِيَ أَشْرَفُ عِبَادَاتِ البَدَنِ، ﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الفُقَرَاءِ وَالمَحَاوِيجِ، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾؛ أَيْ: المِلَّةُ القَائِمَةُ العَادِلَةُ. أَو: الْأُمَّةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُعْتَدِلَةُ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ -كَالزُّهْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ- بِهَذِهِ الْآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَةٌ فِي الْإِيمَانِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٣٠]، وَقَوْله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحَجّ: ٧٨]، وَقَوْله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۦٓۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠-١٢٣]. وَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ ﷺ أُمِرَ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِيَّةِ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا، وَأُكْمِلَتْ لَهُ إِكْمَالًا تَامًّا لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الكَمَالِ؛ وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَصَاحِبَ المَقَامِ المَحْمُودِ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ الخَلْقُ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَعَنْ عَبْدِالرَّحمن بنِ أَبْزَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ: (كَانَ يُعَلِّمُنا إذا أَصْبَحَ أَحَدُنَا أَنْ يَقول: **أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلامِ، وَكَلِمَةِ الإِخْلاصِ، وَدِينِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِلَّةِ أَبِينا إِبْراهيمَ، حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ**) [السلسلة الصحيحة (٢٩٨٩)]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَ: (**الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**) [صحيح الأدب المفرد (٢٢٠)]. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (دَعَانِي رَسولُ اللهِ ﷺ وَالحَبَشَةُ يَلْعَبونَ بِحِرَابِهِم فِي المَسْجِدِ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ لي: **يَا حُمَيْرَاء! أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَيْهِم؟** فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ فَطَأْطَأَ لِي مَنْكِبَيْهِ لأَنْظُرَ إِليهِم، فَوَضَعْتُ ذَقني عَلَى عَاتِقِهِ وَأَسْنَدتُ وَجْهِي إِلى خَدِّهِ فَنَظَرْتُ مِن بَيْنِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ وَهُو يَقولُ: **دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ**. فَجَعَلَ يَقولُ: **يَا عَائِشَةُ! مَا شَبِعْتِ؟** فَأَقولُ: لا، لأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ، حَتَّى شَبِعْتُ. وَفِي رِوَايَة: حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ قَالَ: **حَسْبُكِ؟** قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: **فَاذْهَبِي**. وَفِي أُخْرَى: قَالَتْ: مَا بِي حُبُّ النَّظَرِ إِلَيْهِم وَلَكِن أَحْبَبْتُ أَن يَبْلُغَ النِّسَاءَ مَقَامُهُ لي وَمَكَانِي مِنْهُ، وَأَنَا جَارِيَة، فَاقْدِرُوا قَدْرَ الجَارِيَةِ العَرِبَةِ الحَدِيثَةِ السِّنِّ الحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهْو. قَالَت: فَطَلَعَ عُمَرُ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهَا وَالصِّبْيَان، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **رَأَيْتُ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ فَرُّوا مِن عُمَر**. قَالَتْ عَائِشَة: قَالَ ﷺ يَوْمَئِذٍ: **لِتَعْلَمَ يَهودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**) [السلسلة الصحيحة، تحت (٢٩٢٤)]»

[ابن كثير، بتصرُّف].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِ الفُجَّارِ مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الكِتَابِ، وَالمُشْرِكِينَ المُخَالِفِينَ لَكُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ وَأَنْبِيَاءِ اللهِ المُرْسَلَةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أَيْ: مَاكِثِينَ، لَا يَحُولُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾؛ أَيْ: شَرُّ الْخَلِيقَةِ الَّتِي بَرَأَهَا اللهُ وَذَرَأَهَا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَبْرَارِ -الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَبْدَانِهِمْ- بِأَنَّهُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَطَائِفَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ عَلَى تَفْضِيلِ المُؤْمِنِينَ مِنَ البَرِيَّةِ عَلَى المَلَائِكَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أَيْ: يَوْمَ القِيَامَةِ. ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾؛ أَيْ: بِلَا انْفِصَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ وَلَا فَرَاغٍ.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ وَمَقَامُ رِضَاهُ عَنْهُمْ أَعْلَى مِمَّا أُوتُوهُ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ، ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ فِيمَا مَنَحَهُمْ مِنَ الفَضْلِ العَمِيمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾؛ أَيْ: هَذَا الجَزَاءُ حَاصِلٌ لِمَنْ خَشِيَ اللهَ وَاتَّقَاهُ حَقَّ تَقْوَاهُ، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ.

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلَةً؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: رَجلٌ مُمْسِكٌ بِرَأسِ فَرَسِهِ -أَوْ قَالَ: فَرَسٍ- فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يُقتَلَ. قَالَ: فَأُخْبِرُكُمْ بِالذي يَلِيهِ؟ فَقُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسولَ اللهِ. قَالَ: امْرُؤٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ يُقِيمُ الصَّلاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْتَزِلُ النَّاسَ، قَالَ: فَأُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةً؟ قُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسولَ اللهِ. قَالَ: الذي يَسْأَلُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَلا يُعْطِي بِهِ**» [السلسلة الصحيحة (٢٥٥)].

تفسير سورة الزلزلة

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[1]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ أَيْ: تَحَرَّكَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ يَعْنِي: أَلْقَتْ مَا فِيهَا مِنَ المَوْتَى. قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣-٤].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا، أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، فَيَجِيءُ القَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ القَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا» [مسلم (١٠١٣)].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾؛ أَيْ: اسْتَنْكَرَ أَمْرَهَا بَعْدَمَا كَانَتْ قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً وَهُوَ مُسْتَقِرٌّ عَلَى ظَهْرِهَا. أَيْ: تَقَلَّبَتِ الحَالُ، فَصَارَتْ مُتَحَرِّكَةً مُضْطَرِبَةً، قَدْ جَاءَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا قَدْ أُعِدَّ لَهَا مِنَ الزِّلْزَالِ الَّذِي لَا مَحِيدَ لَهَا عَنْهُ، ثُمَّ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَحِينَئِذٍ اسْتَنْكَرَ النَّاسُ أَمْرَهَا وَتَبَدَّلَتِ ﴿الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾؛ أَيْ: تُحَدِّثُ بِمَا عَمِلَ العَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قَالَ البُخَارِيُّ: أَوْحَى لَهَا وَأَوْحَى إِلَيْهَا، وَوَحَى لَهَا وَوَحَى إِلَيْهَا: وَاحِدٌ.

وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾؛ أَيْ: أَوْحَى إِلَيْهَا. وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مُضَمَّنٌ بِمَعْنَى أَذِنَ لَهَا.

---

(١) عَنْ مُعَاذ بن عَبد الله الجُهَنِيِّ: أَنَّ رَجُلًا مِن جُهَيْنَةَ أَخْبَرَهُ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ فِي الرَّكْعَتَيْنِ كِلْتَيْهِما، فَلا أَدْرِي أَنَسِيَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَمْ قَرَأَ ذَلِكَ عَمْدًا؟!» [صحيح سنن أبي داود (٨١٦)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قَالَ: قَالَ لَهَا رَبُّهَا: قُولِي؛ فَقَالَتْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾؛ أَيْ: أَمَرَهَا. وَقَالَ القُرَظِي: أَمَرَهَا أَنْ تَنْشَقَّ عَنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أَيْ: يَرْجِعُونَ عَنْ مَوَاقِفِ الحِسَابِ. ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أَيْ: أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا، مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، مَأْمُورٍ بِهِ إِلَى الجَنَّةِ، وَمَأْمُورٍ بِهِ إِلَى النَّارِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَتَصَدَّعُونَ أَشْتَاتًا فَلَا يَجْتَمِعُونَ آخِرَ مَا عَلَيْهِم. وَقَالَ السُّدِّي: ﴿أَشْتَاتًا﴾: فِرَقًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أَيْ: لِيُعْلَمُوا وَيُجَازوا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِن صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّهَا، إلا إِذا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفائِحُ مِن نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وجَبِينُهُ وظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَومٍ كَانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ العِبادِ، فَيَرى سَبِيلَهُ؛ إِمَّا إِلى الجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلى النَّارِ.

قِيلَ: يَا رَسولَ اللهِ، فَالإِبِلُ؟ قَالَ: وَلا صَاحِبُ إِبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها -ومِنْ حَقِّها حَلَبُها يَومَ وِرْدِها- إلا إِذا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لا يَفْقِدُ مِنْها فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ؛ إِمَّا إِلى الجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلى النَّارِ.

قِيلَ: يَا رَسولَ اللهِ، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: وَلا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلا غَنَمٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها، إلا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، لا يَفْقِدُ مِنْها شَيئًا، لَيْسَ فِيها عَقْصَاءُ، وَلا جَلْحَاءُ، وَلا عَضْبَاءُ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِها وتَطَؤُهُ بِأَظْلافِها، كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ أُولاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْراهَا، فِي يَومٍ كَانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرى سَبِيلَهُ؛ إِمَّا إِلى الجَنَّةِ، وإِمَّا إِلى النَّارِ.

قِيلَ: يَا رَسولَ اللهِ، فَالْخَيْلُ؟ قَالَ: الخَيْلُ ثَلاثَةٌ: هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ؛ فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وِزْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَها رِيَاءً وفَخْرًا ونِواءً عَلى أَهْلِ الإِسْلامِ، فَهِي لَهُ وِزْرٌ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَها فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي ظُهُورِها وَلا رِقابِها، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَها فِي سَبِيلِ اللهِ لأَهْلِ الإِسْلامِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ، فَمَا أَكَلَتْ مِن ذَلِكَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ

مِن شَيءٍ، إلا كُتِبَ لَهُ عَدَدَ مَا أكَلَتْ حَسَناتٌ، وكُتِبَ لَهُ عَدَدَ أرْواثِها وأَبْوالِها حَسَناتٌ، وَلا تَقْطَعُ طِوَلَها فاسْتَنَّتْ شَرَفًا أوْ شَرَفَيْنِ، إلا كَتَبَ اللهُ لَهُ عَدَدَ آثارِها وَأَرْوَاثِها حَسَناتٍ، وَلا مَرَّ بِهَا صَاحِبُها عَلى نَهْرٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلا يُرِيدُ أنْ يَسْقِيَها؛ إلا كَتَبَ اللهُ لَهُ عَدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَناتٍ.

قِيلَ: يَا رَسولَ اللهِ، فَالحُمُرُ؟ قَالَ: مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الحُمُرِ شَيءٌ، إلا هَذِهِ الآيَةُ الفَاذَّةُ الجَامِعَةُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾» [مسلم (٩٨٧)].

وَرُوِيَ عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قَالَ: حَسْبِي، لَا أُبَالِي أَلَّا أَسْمَعَ غَيْرَهَا!

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» [البخاري (٦٥٦٣)].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» [مسلم (٢٦٢٦)].

وَعَنْ أَبِي جُرَيٍّ الهُجَيْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيتُ رَسولَ اللهِ ﷺ فَقُلتُ: يَا رَسولَ اللهِ، إنَّا قَوْمٌ مِن أَهْلِ البَادِيَةِ، فَعَلِّمْنا شَيئًا يَنفَعُنا اللهُ بِهِ، قَالَ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا؛ وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ من دَلْوِكَ في إناءِ المُسْتَسْقِي، ولَوْ أنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إليهِ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَتَسْبِيلَ الإزارِ؛ فَإِنَّهُ مِن الخُيَلاءِ، وَالخُيَلاءُ لا يُحِبُّهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ امرُؤٌ سَبَّكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ، فَلا تَسُبَّهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ، فَإِنَّ أَجْرَهُ لَكَ، وَوَبَالُهُ عَلَى مَن قَالَهُ» [السلسلة الصحيحة (١٣٥٢)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يا نِساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها، وَلَوْ فِرْسِنَ شاةٍ» [البخاري (٢٥٦٦)، مسلم (١٠٣٠)]؛ يَعْنِي: ظِلْفَهَا، وَفِي الحَدِيثِ الْآخَرِ: «رُدُّوا السَّائِلَ، وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ» [صحيح سنن النسائي (٢٥٦٤)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، اسْتَتِرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الجَائِعِ مَسَدَّهَا مِنَ الشَّبْعَانِ» [صحيح الترغيب (٨٦٥)]. وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا عَائِشَةُ، إِيَّاكِ وَمُحَقِّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا» [صحيح الترغيب (٢٤٧٢)].

وَعَنْ أَبِي أَيوبِ الأَنْصارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ: كُنْتُ كَتَمْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْلا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ، يَغْفِرُ لَهُمْ**» [مسلم (٢٧٤٨)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا**، -وَزَادَ فِي رِوَايَة: **وأَبْشِرُوا**- **وَاعْلَمُوا أَنَّه لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنكُم بِعَمَلِهِ. قَالوا: يَا رَسولَ اللهِ، وَلا أَنْتَ؟ قَالَ: وَلا أَنا، إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» [مسلم (٢٨١٦)].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**﴾، وَذَلِكَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ [الإنسان: ٨] كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْجَرونَ عَلَى الشَّيْءِ القَلِيلِ الَّذِي أَعْطَوْهُ، فَيَجِيءُ المِسْكِينُ إِلَى أَبْوَابِهِمْ فَيَسْتَقِلُّونَ أَنْ يُعْطُوهُ التَّمْرَةَ وَالكِسْرَةَ والجَوْزَةَ وَنَحْو ذَلِكَ، فَيَرُدُّونَهُ وَيَقُولُونَ: مَا هَذَا بِشَيْءٍ. إِنَّمَا نُؤجَر عَلَى مَا نُعْطِي وَنَحْنُ نُحِبُّهُ.

وَكَانَ آخَرُونَ يَرَونَ أَنَّهُمْ لَا يُلَامُونَ عَلَى الذَّنْبِ اليَسِيرِ: الكَذْبَةِ وَالنَّظْرَةِ وَالغِيبَةِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا وَعدَ اللهُ النَّارَ عَلَى الكَبَائِرِ. فَرَغَّبَهُمْ فِي القَلِيلِ مِنَ الخَيْرِ أَنْ يَعْمَلُوهُ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكْثُرَ، وَحَذَّرَهُمُ اليَسِيرَ مِنَ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكْثُرَ، فَنَزَلَتْ: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ **يَعْنِي**: وَزْنَ أَصْغَرِ النَّمْلِ. ﴿**خَيْرًا يَرَهُۥ**﴾ **يَعْنِي**: فِي كِتَابِهِ، وَيَسُرُّهُ ذَلِكَ.

قَالَ: يَكْتُبُ لِكُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. وَبِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ضَاعَفَ اللهُ حَسَنَاتِ المُؤْمِنِينَ أَيْضًا، بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرٌ، وَيَمْحُو عَنْهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، فَمَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، دَخَلَ الجَنَّةَ.

وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ. وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ القَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، وَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا**» [صحيح الترغيب (٢٤٧٠)].

تفسير سورة العاديات

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِالخَيْلِ إِذَا أُجْرِيَتْ فِي سَبِيلِهِ فَعَدَت، وضَبَحَت؛ وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنَ الفَرَسِ حِينَ تَعْدُو.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾؛ يَعْنِي: اصْطِكَاكَ نِعَالِهَا لِلصَّخْرِ فَتَقْدَحُ مِنْهُ النَّارَ.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾؛ يَعْنِي: الْإِغَارَةَ وَقْتَ الصَّبَاحِ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغِيرُ صَبَاحًا وَيَتَسَمَّعُ أَذَانًا، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا وَإِلَّا أَغَارَ(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾؛ يَعْنِي: غُبَارًا فِي مَكَانِ مُعْتَرَكِ الخُيُولِ.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ أَيْ: تَوَسَّطْنَ ذَلِكَ المَكَانَ كُلَّهُنَّ جُمَعَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُود: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ قَالَ: الْإِبِلُ.

وَقَالَ عَلِيٌّ: هِيَ الْإِبِلُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ الخَيْلُ. فَبَلَغَ عَلِيًّا قَولُ ابْن عَبَّاسٍ، فَقَالَ: مَا كَانَتْ لَنَا خَيْلٌ يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي سَرِيَّةٍ بُعِثَتْ.

ورُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ ابْن عَبَّاسٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا فِي الحِجْر جَالِسًا، جَاءَنِي رَجُلٌ فَسَأَلَنِي عَنْ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ فَقُلْتُ لَهُ: الخَيْلُ حِينَ تُغِيرُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى اللَّيْلِ،

---

(١) عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إذا غَزَا بِنَا قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ ويَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذانًا أَغَارَ عَلَيْهِم، قَالَ: فَخَرَجْنا إلى خَيْبَرَ، فَانْتَهَيْنا إلَيْهِم لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذانًا رَكِبَ، وَرَكِبْتُ خَلْفَ أَبِي طَلْحَةَ، وَإِنَّ قَدَمِي لَتَمَسُّ قَدَمَ النبيِّ ﷺ، قَالَ: فَخَرَجُوا إلَيْنا بمَكاتِلِهِمْ ومَساحِيهِمْ، فَلَمَّا رَأَوُا النَّبِيَّ ﷺ، قَالوا: مُحَمَّدٌ وَاللهِ، مُحَمَّدٌ وَالخَمِيسُ، قَالَ: فَلَمَّا رَآهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ قَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذا نَزَلْنا بسَاحَةِ قَوْمٍ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾**» [البخاري (٦١٠)].

فَيَصْنَعُونَ طَعَامَهُمْ، وَيُورُونَ نَارَهُمْ. فَانْفَتَلَ عَنِّي فَذَهَبَ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ عِنْدَ سِقَايَةِ زَمْزَمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ فَقَالَ: سَأَلْتَ عَنْهَا أَحَدًا قَبْلِي؟ قَالَ: نَعَمْ، سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ: الخَيْلُ حِينَ تُغِيرُ فِي سَبِيلِ اللهِ. قَالَ: اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي. فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى رَأْسِهِ قَالَ: تُفْتِي النَّاسَ بِمَا لَا عِلْمَ لَكَ، وَاللهِ لَئِنْ كَانَ أَوَّل غَزْوَةٍ فِي الْإِسْلَامِ بَدْرٌ، وَمَا كَانَ مَعَنَا إِلَّا فَرَسَان: فَرَسٌ لِلزُّبَيْرِ وَفَرَسٌ لِلْمِقْدَادِ، فَكَيْفَ تَكُونُ العَادِيَاتُ ضَبْحًا؟! إِنَّمَا ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى المُزْدَلِفَةِ، وَمِنَ المُزْدَلِفَةِ إِلَى مِنًى. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَنَزَعْتُ عَنْ قَوْلِي وَرَجَعْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: إِنَّمَا ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى المُزْدَلِفَةِ، فَإِذَا أَوَوْا إِلَى المُزْدَلِفَةِ أَوْرُوا النِّيرَانَ. وَقَدْ قَالَ بِقَوْلِ عَلِيٍّ -إِنَّهَا الْإِبِلُ- جَمَاعَة. مِنْهُمْ: إِبْرَاهِيمُ، وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ.

وَقَالَ بِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ آخَرُونَ، مِنْهُمْ: مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٌ: مَا ضَبَحَتْ دَابَّةٌ قَطُّ، إِلَّا فَرَسٌ أَوْ كَلْبٌ.

وعَنْ عَطَاءٍ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَصِفُ الضَّبْحَ: أُحْ أُحْ.

وَقَالَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾؛ يَعْنِي: بِحَوَافِرِهَا. وَقِيلَ: أَسْعَرْنَ الحَرْبَ بَيْنَ رُكْبَانِهِنَّ. قَالَهُ قَتَادَةُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾؛ يَعْنِي: مَكْرَ الرِّجَالِ. وَقِيلَ: هُوَ إِيقَادُ النَّارِ إِذَا رَجَعُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ اللَّيْلِ. وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ: نِيرَانُ القَبَائِلِ.

وَقَالَ مَنْ فَسَّرَهَا بِالخَيْلِ: هُوَ إِيقَادُ النَّارِ بِالمُزْدَلِفَةِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ؛ أَنَّهَا الخَيْلُ حِينَ تَقْدَحُ بِحَوَافِرِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: يَعْنِي: إِغَارَةَ الخَيْلِ صُبْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ. وَقَالَ مَنْ فَسَّرَهَا بِالْإِبِلِ: هُوَ الدَّفْعُ صُبْحًا مِنَ المُزْدَلِفَةِ إِلَى مِنًى.

وَقَالُوا كُلُّهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ هُوَ المَكَانُ الَّذِي إِذَا حَلَّتْ فِيهِ أَثَارَتْ بِهِ الغُبَارَ، إِمَّا فِي حَجٍّ أَوْ غَزْوٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكَ: يَعْنِي: جَمْعَ الكُفَّارِ مِنَ العَدُوِّ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ: فَوَسَطْنَ بِذَلِكَ المَكَانِ جَمِيعُهُنَّ، وَيَكُونُ ﴿جَمْعًا﴾ مَنْصُوبًا عَلَى الحَالِ المُؤَكِّدَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ هَذَا هُوَ المُقْسَمُ عَلَيْهِ، بِمَعْنَى: إِنَّهُ لِنِعَمِ رَبِّهِ لَجَحُودٌ كَفُورٌ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخعِي، وَأَبُو الجَوْزَاءِ، وَأَبُو العَالِيَةِ، وَأَبُو الضُّحَى، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ زَيْدٍ: الكَنُودُ: الكَفُورُ. قَالَ الحَسَنُ: هُوَ الَّذِي يَعُدُّ المَصَائِبَ، وَيَنْسَى نِعَمَ رَبِّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: وَإِنَّ اللهَ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْإِنْسَانِ. قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ: وَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى كَوْنِهِ كَنُودًا لَشَهِيدٌ. أَيْ: بِلِسَانِ حَالِهِ، أَيْ: ظَاهِرٌ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾؛ أَيْ: وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ -وَهُوَ: المَالُ- لَشَدِيدٌ.

وَفِيهِ مَذْهَبَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ المَعْنَى: وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ المَحَبَّةِ لِلْمَالِ.

وَالثَّانِي: وَإِنَّهُ لَحَرِيصٌ بَخِيلٌ؛ مِنْ مَحَبَّةِ المَالِ. وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُزَهِّدًا فِي الدُّنْيَا، ومُرَغِّبًا فِي الْآخِرَةِ، وَمُنَبِّهًا عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ هَذِهِ الحَالِ وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾؛ أَيْ: أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي: أُبْرِزَ وَأُظْهِرَ مَا كَانُوا يُسِرُّونَ فِي نُفُوسِهِمْ.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾؛ أَيْ: لَعَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَيَعْمَلُونَ، ومُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الجَزَاءِ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة القارعة

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؛ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ القِيَامَةِ، كَالحَاقَّةِ، وَالطَّامَّةِ، وَالصَّاخَّةِ، وَالغَاشِيَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ مُعَظِّمًا أَمْرَهَا وَمُهَوِّلًا لِشَأْنِهَا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾؛ أَيْ: فِي انْتِشَارِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، وَذَهَابِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ؛ مِنْ حَيْرَتِهِمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ كَأَنَّهُمْ فَرَاشٌ مَبْثُوثٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾؛ يَعْنِي: قَدْ صَارَتْ كَأَنَّهَا الصُّوفُ المَنْفُوشُ الَّذِي قَدْ شَرَعَ فِي الذَّهَابِ وَالتَّمَزُّقِ. قَالَ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَة، وَعَطَاءٌ الخُرَاسَانِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿ٱلْعِهْنِ﴾؛ الصُّوفُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا يَؤُولُ إِلَيْهِ عَمَلُ العَامِلِينَ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الكَرَامَةِ أَوِ الإِهَانَةِ بِحَسْبِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾؛ أَيْ: رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ يَعْنِي: فِي الجَنَّةِ. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أَيْ: رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: فَهُوَ سَاقِطٌ هَاوٍ بِأُمِّ رَأْسِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وعَبَّرَ عَنْهُ بِأُمِّهِ -يَعْنِي: دِمَاغَهُ- رُوِيَ نَحْو هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَقَتَادَةَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَهْوِي فِي النَّارِ عَلَى رَأْسِهِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ: يَهْوُونَ فِي النَّارِ عَلَى رُءُوسِهِمْ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، وَيَصِيرُ فِي المَعَادِ إِلَيْهَا ﴿هَاوِيَةٌ﴾ وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْهَاوِيَةِ أُمُّهُ؛ لأَنَّهُ لا مَأْوَى لَهُ غَيْرَهَا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الهَاوِيَةُ: النَّارُ، هِيَ أُمُّهُ وَمَأْوَاهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا، وَقَرَأَ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: هِيَ النَّارُ، وَهِيَ مَأْوَاهُمْ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْهَاوِيَةِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا حُضِرَ المُؤمِنُ أَتَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَريرَةٍ بَيْضَاء، فَيَقُولُون: اخْرُجي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ، إِلَى رَوْح الله وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْر غَضْبَان، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَب رِيح المِسْكِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاء، فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هذِهِ الرِّيح الَّتي جَاءَتكمْ مِنَ الأَرْض! فَيَأْتُونَ بِهَ أَرْوَاحَ المُؤمِنينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائبِهِ يَقْدُمُ عَلَيْهِ. فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلانٌ، مَاذَا فَعَلَ فُلانٌ؟ فَيَقُولُون: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّه الهَاوِيَةِ. وإِنَّ الكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلائكَةُ العَذَاب بِمسْحٍ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلى عَذَاب اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ ريحٍ جِيفَةٍ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الأَرْض، فَيَقُولون: مَا أَنْتَنَ هذِهِ الرِّيح! حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الكُفَّارِ» [السلسلة الصحيحة (١٣٠٩)].

وَقَوْلُهُ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾؛ أَيْ: حَارَّةٌ شَدِيدَةُ الحَرِّ، قَوِيَّةُ اللَّهِيبِ وَالسَّعِيرِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نارُكُمْ هذِه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن حَرِّ جَهَنَّمَ. قَالوا: واللهِ إِنْ كانَتْ لَكافِيَةً يَا رَسولَ اللهِ! قَالَ: فإِنَّها فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا» [البخاري (٣٢٦٥)، مسلم (٢٨٤٣)].

وَزَادَ فِي رِوَايَة: «وضُربَتْ بالبَحْرِ مرَّتَيْنِ، وَلَوْلا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنفَعَةً لأَحَدٍ» [صحيح الترغيب (٣٦٦٦)]. وَفِي رِوَايَةٍ لِلبَيْهَقي، قَالَ ﷺ: «تَحْسَبونَ أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ مِثْلَ نَاركُم هَذِه! هِيَ أَشَدُّ سَوَادًا مِن القَارِ، هِيَ جُزْءٌ مِن بِضْعَةٍ وسِتِّينَ جُزءًا مِنْهَا» [صحيح الترغيب (٣٦٦٦)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «هَذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ» [صحيح الجامع (٧٠٠٦)]. وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنِ النُّعْمانِ بنِ بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا يَومَ القِيامَةِ، لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ، يَغْلِي مِنْها دِماغُهُ» [البخاري (٦٥٦١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فأبْرِدُوا بالصَّلاةِ، فإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِن فَيْحِ جَهَنَّمَ. واشْتَكَتِ النَّارُ إِلى رَبِّها، فَقالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ؛ نَفَسٍ فِي الشِّتاءِ ونَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهو أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، وأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ» [البخاري (٥٣٦)].

تفسير سورة التكاثر

(مكية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَشْغَلَكُمْ حُبُّ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا وَزَهْرَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَابْتِغَائِهَا، وَتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمُ المَوْتُ وَزُرْتُمُ المَقَابِرَ وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ[1].

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِن ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكونَ لَهُ وَادِيانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إلا التُّرابُ، ويَتُوبُ اللهُ عَلى مَن تَابَ. وَقَالَ لَنَا أَبو الوَلِيدِ: حَدَّثَنا حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، عَن ثابِتٍ، عَن أَنَسٍ، عَن أُبَيٍّ، قَالَ: كُنَّا نَرَى هَذا مِنَ القُرْآنِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾» [البخاري (٦٤٣٩)].

وَعَنْ عَبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهو يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قَالَ: **يَقولُ ابنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ -يا ابْنَ آدَمَ- مِن مَالِكَ إلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!**» [مسلم (٢٩٥٨)].

---

(١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأُمَمِ**، فَقَالوا: يَا رَسولَ اللهِ، وَمَا دَاءُ الأُمَمِ؟ قَالَ: **الأَشَرُ وَالبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَاجُشُ -فِي الدُّنْيَا- وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، حَتَّى يَكونَ البَغْيُ**» [السلسلة الصحيحة (٦٨٠)]. وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الفَقْرَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّكاثُرَ، وَمَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الخَطَأَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّعَمُّدَ**» [السلسلة الصحيحة (٢٢١٦)]. وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا شَابٌّ مِنَ الثَّنِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: رَمَيْنَاهُ- بِأَبْصَارِنَا، قُلْنَا: لَوْ أَنَّ هَذَا الشَّابَّ جَعَلَ شَبَابَهُ وَنَشَاطَهُ وَقُوَّتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ! قَالَ: فَسَمِعَ مَقَالَتَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**وَمَا سَبِيلُ اللهِ إِلَّا مَنْ قُتِلَ؟! مَنْ سَعَى عَلَى وَالِدَيْهِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى التَّكَاثُرِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ** -وَفِي رِوَايَةٍ: **الطَّاغُوتِ**-» [السلسلة الصحيحة (٣٢٤٨)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَقولُ العَبْدُ: مَالِي، مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِن مَالِهِ ثَلاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهو ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**» [مسلم (٢٩٥٩)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنانِ ويَبْقى مَعَهُ وَاحِدٌ؛ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، ويَبْقَى عَمَلُهُ**» [البخاري (٦٥١٤)، مسلم (٢٩٦٠)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَكْبَرُ ابنُ آدَمَ ويَكْبَرُ مَعَهُ اثْنانِ: حُبُّ المَالِ، وَطُولُ العُمُرِ**» [البخاري (٦٤٢١)][1].

وَذَكَرَ الحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ -وَاسْمُهُ الضَّحَّاكُ- أَنَّهُ رَأَى فِي يَدِ رَجُلٍ دِرْهَمًا فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا الدِّرْهَمُ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لِي. فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ لَكَ إِذَا أَنْفَقْتَهُ فِي أَجْرٍ أَوِ ابْتِغَاءِ شُكْرٍ. ثُمَّ أَنْشَدَ الْأَحْنَفُ مُتَمَثِّلًا قَوْلَ الشَّاعِرِ:

أَنْـــتَ لِلْمَـــالِ إِذَا أَمْسَـــكْتَهُ ... فَـــإِذَا أَنْفَقْتَـــهُ فَالمَـــالُ لَـــكْ

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ كَانُوا يَقُولُونَ نَحْنُ أَكْثَرُ مَنْ بَنِي فُلَانٍ وَنَحْنُ أَعَدُّ مَنْ بَنِي فُلَانٍ، وَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ يَتَسَاقَطُونَ إِلَى آخِرِهِمْ، وَاللهِ مَا زَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى صَارُوا مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ كُلهم.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾؛ أَيْ: صِرْتُمْ إِلَيْهَا وَدُفِنْتُمْ فِيهَا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ يَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**لا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**. قَالَ: قُلتَ: طَهُورٌ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ -أَوْ: تَثُورُ- عَلَى شَيخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **فَنَعَمْ إِذَنْ**» [البخاري (٣٦١٦)].

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، فَقَرَأَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فَلَبِثَ هُنَيْهَةً، فَقَالَ: يَا مَيْمُونُ، مَا أَرَى المَقَابِرَ إِلَّا زِيَارَةً، وَمَا لِلزَّائِرِ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ -هُو ابنُ أَبِي حَاتِم-: **يَعْنِي**: أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ إِلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ.

---

(١) وَفِي رِوَايَة: «**يَهْرَمُ ابنُ آدَمَ وتَشِبُّ مِنهُ اثْنَتانِ: الحِرْصُ عَلى المَالِ، والحِرْصُ عَلى العُمُرِ**» [مسلم (١٠٤٧)]. وَفِي أُخْرى: «**يَهْرَمُ ابنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ: الحِرْصُ وَالأَمَلُ**» [صحيح الجامع (٨١٧٣)].

وَهَكَذَا ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ سَمِعَ رَجُلًا يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فَقَالَ: بُعِثَ اليَوْمَ ورَبِّ الكَعْبَةِ! أَيْ: إِنَّ الزَّائِرَ سَيَرْحَلُ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ يَعْنِي: الكُفَّارَ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ يَعْنِي: أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾؛ أَيْ: لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ العِلْمِ لَمَا أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ -عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ- حَتَّى صِرْتُمْ إِلَى المَقَابِرِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ هَذَا تَفْسِيرُ الوَعِيدِ المُتَقَدِّمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَوعَّدَهم بِهَذَا الحَالِ، وَهِيَ رُؤْيَةُ النَّارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أَيْ: ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعَمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ؟!

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ في سَاعَةٍ لا يَخرُجُ فِيهَا وَلا يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ، فَأَتَاهُ أَبو بَكْرٍ، فَقَالَ: **مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟** فَقَالَ: خَرَجْتُ أَلْقَى رَسولَ اللهِ ﷺ، وَأَنْظُرُ في وَجْهِهِ، وَالتَّسْلِيمَ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: **مَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَرُ؟** قَالَ: الجُوعُ يَا رَسولَ اللهِ. قَالَ: **وَأَنَا قَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ ذَلِكَ**. فَانطَلَقوا إِلى مَنْزِلِ أَبِي الهَيْثَمِ بنِ التَّيِّهانِ الأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَدَمٌ، فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَالوا لامْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكِ؟ فَقَالَتْ: انْطَلَقَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا المَاءَ، وَلَمْ يَلْبَثوا أَنْ جَاءَ أَبو الهَيْثَمِ بِقِرْبَةٍ يَزْعَبُهَا فَوَضَعَها، ثُمَّ جَاءَ يَلْتَزِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَفْدِيهِ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِم إِلى حَدِيقَتِهِ، فَبَسَطَ لَهُم بِسَاطًا، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلى نَخْلَةٍ، فَجَاءَ بِقِنْوٍ فَوضَعَه. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَفَلا تَنَقَّيْتَ لَنَا مِن رُطَبِه؟** فَقَالَ: يَا رَسولَ اللهِ، إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا -أَوْ قَالَ: تَخَيَّروا- مِن رُطَبِه وبُسْرِه، فَأَكَلوا وَشَرِبوا مِن ذَلِكَ المَاءِ، فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **هَذا -وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ- مِن النَّعيمِ الَّذي تُسْأَلونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ**. فَانْطَلَقَ أَبو الهَيْثَمِ لِيَصْنَعَ لَهُم طَعَامًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لا تَذْبَحَنَّ ذَاتَ دَرٍّ**. فَذَبَحَ لَهُم عَنَاقًا أَو جَدْيًا، فَأَتَاهُم بِهَا فَأَكَلوا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَلْ لَكَ خَادِمٌ؟** قَالَ: لا، قَالَ: **فَإِذا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنا**. فَأُتِيَ

النَّبيُّ ﷺ برَأْسَيْنِ لَيْسَ معهُمَا ثَالِثٌ، فَأَتاهُ أَبو الهَيْثَم، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **اخْتَرْ مِنْهُمَا**، فَقالَ: يَا نَبيَّ اللهِ، اخْتَرْ لي، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **إِنَّ المُسْتَشارَ مُؤْتَمَنٌ، خُذْ هَذا؛ فإِنِّي رأَيْتُهُ يُصلِّي، وَاسْتَوْصِ بِهِ مَعْروفًا**. فَانْطَلَقَ أَبو الهَيْثَم إِلى امْرَأَتِهِ فَأَخْبَرَهَا بِقَوْلِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقالَتِ امْرَأَتُهُ: مَا أَنْتَ بِبَالِغٍ مَا قَالَ فِيهِ النَّبيُّ ﷺ إِلا أَنْ تُعْتِقَهُ، قَالَ: هُوَ عَتِيقٌ. فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبيًّا وَلا خَلِيفَةً إِلا وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِطانَةٌ لا تَأْلُوهُ خَبَالًا، وَمَن يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ**»

[صحيح سنن الترمذي (٢٨٢٢)].

وَعِنْدَ مُسْلِم: «خَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ -أَوْ لَيْلَةٍ- فَإِذا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقالَ: **ما أَخْرَجَكُما مِن بُيُوتِكُما هذِهِ السَّاعَةَ؟** قَالا: الجُوعُ يَا رَسولَ اللهِ، قَالَ: **وَأَنا -والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- لَأَخْرَجَنِي الَّذي أَخْرَجَكُما، قُومُوا**، فَقامُوا مَعَهُ، فَأَتى رَجُلًا مِنَ الأَنْصارِ فَإِذا هو لَيْسَ في بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ، قالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقالَ لَها رَسولُ اللهِ ﷺ: **أَيْنَ فُلانٌ؟** قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنا مِنَ المَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصارِيُّ، فَنَظَرَ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ وَصاحِبَيْهِ، ثُمَّ قالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ؛ مَا أَحَدٌ اليَومَ أَكْرَمَ أَضْيافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقالَ: كُلُوا مِن هذِه، وَأَخَذَ المُدْيَةَ، فَقالَ لَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ: **إِيَّاكَ والحَلُوبَ**، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: **والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذا النَّعِيمِ يَومَ القِيامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِن بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حتَّى أَصابَكُمْ هَذا النَّعِيمُ**» [مسلم (٢٠٣٨)].

وعَنْ أَبِي عَسِيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مَوْلَى رَسولِ اللهِ ﷺ- قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلًا فَمَرَّ بِي فَدَعَانِي، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ مَرَّ بِأَبِي بَكْرٍ فَدَعَاهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، ثُمَّ مَرَّ بِعُمَرَ فَدَعَاهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا لِبَعْضِ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لِصَاحِبِ الْحَائِطِ: **أَطْعِمْنَا بُسْرًا**، فَجَاءَ بِعِذْقٍ فَوَضَعَهُ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ بَارِدٍ فَشَرِبَ، فَقَالَ: **لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيامَةِ**. قَالَ: فَأَخَذَ عُمَر العِذْقَ فَضَرَبَ فِيهِ الْأَرْضَ حَتَّى تَنَاثَرَ الْبُسْرُ قِبَلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَمَسْؤُولونَ عَنْ هَذَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ؛ خِرْقَةٍ لَفَّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ، أَوْ كِسْرَةٍ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ، أَوْ حُجْرٍ يَتَدَخَّلُ فِيهِ مَنِ الحَرِّ وَالقُرِّ**» [هداية الرواة (٤١٨٢)].

وَعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ: ﴿**ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ**﴾

قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ؛ التَّمْرُ وَالمَاءُ؟ قَالَ: **أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ**» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٥٦)].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ خُبَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمِّهِ قَالَ: «كُنَّا فِي مَجْلِسٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُنَا: نَرَاكَ اليَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَقَالَ: **أَجَلْ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ**، ثُمَّ أَفَاضَ القَوْمُ فِي ذِكْرِ الغِنَى، فَقَالَ: **لَا بَأْسَ بِالغِنَى لِمَنِ اتَّقَى، وَالصِّحَّةُ لِمَنِ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الغِنَى، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ**» [صحيح سنن ابن ماجه (١٧٥٤)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسأَلُ عَنهُ يومَ القِيَامَةِ** -يَعْنِي: العَبْدَ- **مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ؟!**» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٥٨)].

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: حَتَّى عَنْ شَرْبَةِ عَسَلٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَنْ كُلِّ لَذَّةٍ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: نَعِيمُ الغَدَاءِ وَالعَشَاءِ، وَقَالَ أَبُو قِلابَة: مِنَ النَّعِيمِ أَكْلُ العَسَلِ وَالسَّمْنِ بِالخُبْزِ النَّقِيِّ. وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ هَذَا أَشْمَلُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿**ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ**﴾؛ قَالَ: النَّعِيمُ: صِحَّةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ، يَسْأَلُ اللهُ العِبَادَ فِيمَا اسْتَعْمَلُوهَا، وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**» [البخاري (٦٤١٢)]. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهُمْ مُقَصِّرُونَ فِي شُكْرِ هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ، لَا يَقُومُونَ بِوَاجِبِهِمَا، وَمَنْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ، فَهُوَ مَغْبُونٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ للعَبْدِ: «**أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لكَ الخَيْلَ والإِبِلَ، وَأَذَرَكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟! فيَقولُ: بَلى، قَالَ: فيَقولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فيَقولُ: لا، فيَقولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**» [مسلم (٢٩٦٨)].

وَفِي رِوايَة: «**يُؤتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَل لَكَ سَمْعًا؟ وَبَصَرًا؟ وَمَالًا؟ وَوَلَدًا؟ وَسَخَّرتُ لَكَ الأَنْعامَ؟ وَالحَرْثَ؟ وَتَرَكتُكَ تَرْأَسُ وَتَربعُ؟ فَكُنتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاقِيَّ يَومَكَ هَذا؟ فيقولُ: لا، فَيَقُولُ لَهُ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسيتَني**» [صحيح سنن الترمذي (٢٤٢٨)].

تفسير سورة العصر

(مكية)

ذَكَرُوا أَنَّ عَمْرَو بْنَ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَقِيَ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب لَعَنَهُ اللهُ، فَقَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ: مَاذَا أُنْزِلَ عَلَى صَاحِبِكُمْ فِي هَذِهِ المُدَّةِ؟ قَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ سُورَةٌ وَجِيزَةٌ بَلِيغَةٌ. فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟

فَقَالَ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فَفَكَّرَ مُسَيْلِمَةُ هُنَيْهَة ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ مِثْلُهَا. فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: (يَا وَبْر يَا وَبْر، إِنَّمَا أَنْتِ أُذُنَانِ وَصَدْر، وَسَائِرُكِ حَقْرٌ نَقْر). ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُو؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: وَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ تَكْذِبُ! وَالوَبْر: دُوَيْبَّةٌ تُشْبِهُ الهِرَّ، أَعْظَمُ شَيْءٍ فِيهِ أُذُنَاهُ، وَصَدْرُهُ وَبَاقِيهِ دَمِيمٌ. فَأَرَادَ مُسَيْلِمَةُ أَنْ يُرَكِّبَ مِنْ هَذَا الهَذَيَانِ مَا يُعَارِضُ بِهِ القُرْآنَ![1].

---

(١) وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِير قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]: «وَأَمَّا مُسَيْلِمَة فَمَنْ شَاهَدَهُ مِنْ ذَوِي البَصَائِرِ، عَلِمَ أَمْرَهُ لَا مَحَالَةَ، بِأَقْوَالِهِ الرَّكِيكَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِفَصِيحَةٍ، وَأَفْعَالِهِ غَيْرِ الحَسَنَةِ بَلِ القَبِيحَةِ، وَقُرْآنِهِ الَّذِي يُخَلِّدُ بِهِ فِي النَّارِ يَوْمَ الحَسْرَةِ وَالفَضِيحَةِ، وَكَمْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَبَيْنَ عُلاكِ مُسَيْلِمَةَ -قَبَّحَهُ اللهُ وَلَعَنَهُ-: (يَا ضُفْدَعُ بِنْتَ الضُّفْدَعَيْنِ، نَقِّي كَمَا تُنَقِّينَ، لَا المَاءُ تُكَدِّرِينَ، وَلَا الشَّارِبُ تَمْنَعِينَ). وَقَوْلُهُ -قُبِّح وَلُعِنَ-: (لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَى الحُبْلَى، إِذْ أَخْرَجَ مِنْهَا نَسَمة تَسْعَى، مِنْ بَيْنِ صِفَاق وحَشَى). وَقَوْلُهُ -خَلَّدهُ اللهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَدْ فَعَلَ-: (الفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الفِيلُ؟ لَهُ خُرْطُومٌ طَوِيلٌ). وَقَوْلُهُ -أَبْعَدَهُ اللهُ مِنْ رَحْمَتِهِ-: (وَالعَاجِنَاتِ عَجْنًا، وَالخَابِزَاتِ خَبْزًا، وَاللَّاقِمَاتِ لَقْمًا، إِهَالَةً وَسَمْنًا، إِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ). إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الهَذَيَانَاتِ وَالخُرَافَاتِ الَّتِي يَأْنَفُ الصِّبْيَانُ أَنْ يَتَلَفَّظُوا بِهَا -إِلَّا عَلَى وَجْهِ السُّخْرِيَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ-؛ وَلِهَذَا أَرْغَمَ اللهُ أَنْفَهُ، وَشَرِبَ يَوْمَ (حَدِيقَةِ المَوْتِ) حَتْفَهُ. ومَزَّقَ شَمْلَهُ. وَلَعَنَهُ صَحْبهُ وَأَهْلهُ. وَقَدِمُوا عَلَى الصِّدِّيقِ تَائِبِينَ، وَجَاءُوا فِي دِينِ اللهِ رَاغِبِينَ، فَسَأَلَهُمُ الصِّدِّيقُ -خَلِيفَةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَقْرَءُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ قُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ -لَعَنَهُ اللهُ-، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُعْفِيَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَقْرَءُوا شَيْئًا مِنْهُ لِيُسْمِعَهُ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ النَّاسِ، فَيَعْرِفُوا فَضْلَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ. فَقَرَءُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَأَشْبَاهَهُ، فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ لَهُمُ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَيْحَكُمْ! أَيْنَ كَانَ يُذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ؟! وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِلٍّ!».

وَعَنْ أَبِي مَدِينَةَ الدَّارِمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا التَقَيَا؛ لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ثُمَّ يُسَلِّمَ أَحَدُهُما عَلَى الآخَرِ» [السلسلة الصحيحة (٢٦٤٨)]. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ؛ لَوَسِعَتْهُمْ!

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

﴿ٱلْعَصْرِ﴾؛ الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ العَشِيُّ. وَالمَشْهُورُ الْأَوَّلُ. فَأَقْسَمَ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾؛ أَيْ: فِي خَسَارَةٍ وَهَلَاكٍ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فَاسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ عَنِ الخُسْرَانِ؛ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وَهُوَ أَدَاءُ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكُ المُحَرَّمَاتِ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾؛ أَيْ: عَلَى المَصَائِبِ وَالْأَقْدَارِ، وَأَذَى مَنْ يُؤْذِي مِمَّنْ يَأْمُرُونَهُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُ عَنِ المُنْكَرِ[1].

❁ ❁ ❁

(١) قَالَ الإِمَامُ ابنُ قَيِّم الجَوْزِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ قَالَ الشَّافِعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُم فِي هَذِه السُّورَة لَكَفَتْهُم). وَبَيَان ذَلِك: أَنَّ المَرَاتِبَ أَرْبَعَة، وَبِاسْتِكْمَالِهَا يَحْصُلُ للشَّخْصِ غَايَة كَمَالِه: أَحَدُهَا: مَعْرِفَةُ الحَقِّ. الثَّانِيَة: عَمَلُهُ بِهِ. الثَّالِثَة: تَعْلِيمُهُ مَن لَا يُحْسِنُهُ. الرَّابِعَة: صَبْرُهُ عَلَى تَعَلُّمِه، وَالعَمَل بِهِ، وَتَعْلِيمِه. فَذَكَر تَعَالَى المَرَاتِبَ الأَرْبَعَة فِي هَذِه السُّورَة؛ فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِه السُّورَة بِالعَصْرِ؛ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ فِي ﴿خُسْرٍ﴾، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وَهُم الَّذِينَ عَرَفُوا الحَقَّ وَصَدَّقُوا بِه، فَهَذِهِ مَرْتَبَة. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَهُم الَّذِينَ عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا مِن الحَقِّ، فَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ أُخْرَى. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وَصَّى بِهِ بَعْضُهُم بَعْضًا؛ تَعْلِيمًا وَإِرْشَادًا، فَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ ثَالِثَة. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ صَبَرُوا عَلَى الحَقِّ وَوَصَّى بَعْضُهُم بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالثَّبَات، فَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ رَابِعَة. وَهَذا نِهَايَةُ الكَمَال؛ فَإِنَّ الكَمَالَ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ كَامِلا فِي نَفْسِهِ مُكَمِّلا لِغَيْرِه، وَكَمَالُهُ بِإِصْلاحِ قُوَّتَيْهِ العِلْمِيَّةِ وَالعَمَلِيَّة، فَصَلاحُ القُوَّةُ العِلْمِيَّةُ بِالإِيمَان، وَصَلاحُ القُوَّةُ العَمَلِيَّةُ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَتَكْمِيلُهُ غَيْرَهُ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاهُ، وَصَبْرِهِ عَلَيْهِ، وَتَوْصِيَتِهِ بِالصَّبْرِ عَلَى العِلْمِ وَالعَمَل. فَهذِهِ السُّورَةُ -عَلَى اخْتِصَارِهَا- هِيَ مِنْ أَجْمَعِ سُوَرِ القُرآنِ للخَيْرِ بِحَذَافِيرِه، وَالحَمْدُ للهِ الذي جَعَلَ كِتَابَهُ كَافِيًا مِن كُلِّ مَا سِواهُ، شَافِيًا مِن كُلِّ دَاءٍ، هَادِيًا إِلى كُلِّ خَيْر» [مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة].

تفسير سورة الهمزة

(مكية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

الهَمَّازُ: بِالقَوْلِ، وَاللَّمَّازُ: بِالفِعْلِ. **يَعْنِي**: يَزْدَرِي النَّاسَ وَيَنْتَقِصُ بِهِمْ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ**﴾ [القلم: ١١](١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿**هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾، طَعَّانٍ مِعْيَابٍ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: الهُمَزة؛ يَهْمِزُهُ فِي وَجْهه، وَاللُّمَزَة؛ مِنْ خَلْفِهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَهْمِزُهُ وَيَلْمِزُهُ بِلِسَانِهِ وَعَيْنِهِ، وَيَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَطْعَنُ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الهُمَزَة: بِاليَدِ وَالعَيْنِ، واللُّمَزَة: بِاللِّسَانِ. وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُمَزَة لُحُومُ النَّاسِ. ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: المُرَادُ بِذَلِكَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ(٢). وَقِيلَ غَيْرُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ عَامَّةٌ.

---

(١) قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَقَوْلُهُ: ﴿**هَمَّازٍ**﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقَتَادَةُ: **يَعْنِي**: الِاغْتِيَاب. ﴿**مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ**﴾ **يَعْنِي**: الَّذِي يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَيُحَرِّشُ بَيْنَهُمْ وَيَنْقُلُ الحَدِيثَ لِفَسَادِ ذَاتِ البَيْنِ -وَهِيَ الحَالِقَةُ-. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (مَرَّ النبيُّ ﷺ بقَبْرَيْنِ، فقالَ: **إنَّهُما لَيُعَذَّبانِ، وَما يُعَذَّبانِ في كَبِيرٍ، أمَّا أحَدُهُما فَكانَ لا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وأمَّا الآخَرُ فَكانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ**. ثُمَّ أخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّها نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ في كُلِّ قَبْرٍ واحِدَةً، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذا؟ قالَ: **لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُما ما لَمْ يَيْبَسا**) [البخاري (٢١٨)]. وَعَن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**) [البخاري (٦٠٥٦)]. وَفِي لَفْظ: (**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**) [مسلم (١٠٥)]. وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيد الأَنْصَارِيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخِيارِكُمْ؟ قالوا: بَلَى، قَالَ: الذينَ إذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ، أَفَلا أُخْبِرُكُمْ بِشِرارِكُمْ؟ قالوا: بَلَى، قَالَ: المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، البَاغُونَ البُرَآءَ العَنَت**) [صحيح الأدب المفرد (٢٤٦)]» [بتصرُّف].

(٢) قَالَ الحَافِظُ ابنُ جَرِير الطَّبَرِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِير قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ**﴾ [البقرة: ٢٠٤]: «وَهَذا نَعْتٌ مِن اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ للمُنَافِقِين، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعجِبُك يَا مُحَمَّدُ ظَاهِرُ قَوْلِهِ وَعَلانِيَتُهُ، وَيَسْتَشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَام؛ جَدِلٌ بِالبَاطِلِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَن نزَلَت فيهِ هَذِهِ الآيةُ؛ فَقَال بَعْضُهُم: نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ بنِ شَرِيقٍ، قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَزَعَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ الإِسْلامَ، وَحَلَفَ أَنَّهُ مَا قَدِم إلا لِذلك، ثُمَّ خَرَجَ فَأَفْسَدَ أَمْوَالًا مِن أَمْوَالِ المُسْلِمين...عَن السُّدِيِّ: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى**

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ أَيْ: جَمَعَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَأَحْصَى عَدَدَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]. قَالَهُ السُّدِّيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: أَلْهَاهُ مَالُهُ بِالنَّهَارِ، هَذَا إِلَى هَذَا، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ، نَامَ كَأَنَّهُ جِيفَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾؛ أَيْ: يَظُنُّ أَنَّ جَمْعَهُ المَالَ يُخَلِّدُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؟!

﴿كَلَّا﴾؛ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، وَلَا كَمَا حَسِبَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾؛ أَيْ: لَيُلْقَيَنَّ هَذَا الَّذِي جَمَعَ مَالًا فَعَدَّدَهُ ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وَهِيَ -اسْمُ صِفَةٍ- مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ؛ لِأَنَّهَا تُحَطِّمُ مَنْ فِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ قَالَ ثَابِتٌ البُنَانِيُّ: تَحْرِقُهُمْ إِلَى الْأَفْئِدَةِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، ثُمَّ يَقُولُ: لَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمُ العَذَابُ، ثُمَّ يَبْكِي. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: تَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ فُؤَادَهُ حَذْوَ حَلْقِهِ تَرْجِعُ عَلَى جَسَدِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾؛ أَيْ: مُطْبَقَةٌ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ البَلَدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قَالَ عَطِيَّةُ العَوْفِيُّ: عَمَدٍ مِنْ حَدِيدٍ. وَقَالَ السُّدِّي: مِنْ نَارٍ. وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾؛ يَعْنِي: الْأَبْوَابُ هِيَ المُمَدَّدَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ بِعَمَدٍ مُمَدَّةٍ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَدْخَلَهُمْ فِي عَمَدٍ؛ فَمُدَّتْ عَلَيْهِمْ بِعِمَادٍ، وَفِي أَعْنَاقِهِمُ السَّلَاسِلُ؛ فَسُدَّتْ بِهَا الْأَبْوَابَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ بِعَمَدٍ فِي النَّارِ.

وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾؛ يَعْنِي: القُيُودَ الطِّوَالَ.

❁ ❁ ❁

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ بنِ شَرِيقٍ الثَّقَفِيِّ، وَهو حَلِيفٌ لِبَنِي زُهْرَةَ، وَأَقْبَلَ إلى النَّبِيِّ ﷺ بِالمَدِينَةِ، فَأَظْهَرَ لَهُ الإِسْلامَ، فَأَعْجَبَ النَّبِيَّ ﷺ ذَلِكَ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنَّمَا جِئْتُ أُرِيدُ الإِسْلامَ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي صَادِقٌ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾. ثُمَّ خَرَجَ مِن عِندِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِزَرْعٍ لِقَوْمٍ مِن المُسْلِمين وَحُمُرٍ، فَأَحرَقَ الزَّرْعَ، وَعَقَرَ الحُمُرَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾...وَفِيهِ نَزَلَ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. وَنَزَلَتْ فيهِ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾».

تفسير سورة الفيل

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي امْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ؛ فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الفِيلِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَدْمِ الكَعْبَةِ وَمَحْوِ أَثَرِهَا مِنَ الوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللهُ، وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ، وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ، وَأَضَلَّ عَمَلَهُمْ، وَرَدَّهُم بِشَرِّ خَيْبَةٍ. وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَى، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِرْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِمَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ العَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ؛ أَيْ: لَمْ نَنْصُرْكُمْ -يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ- عَلَى الحَبَشَةِ لِخَيْرِيَّتِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِيَانَةً لِلْبَيْتِ العَتِيقِ الَّذِي سَنُشَرِّفُهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُوَقِّرُهُ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ:

قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَاس -وَكَانَ آخِرَ مُلُوكِ حِمْيَرَ، وَكَانَ مُشْرِكًا- هُوَ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دَوْس ذُو ثَعْلَبَانِ، فَذَهَبَ فَاسْتَغَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ -وَكَانَ نَصْرَانِيًّا- فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ؛ لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرْيَاطَ وَأَبْرَهَةَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا اليَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلَبُوا المُلْكَ مِنْ حِمْيَرَ، وَهَلَكَ ذُو نُوَاسٍ غَرِيقًا فِي البَحْرِ.

وَاسْتَقَلَّ الحَبَشَةُ بِمُلْكِ اليَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الْأَمِيرَانِ: أَرْيَاطُ وَأَبْرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافَّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اصْطِدَامِ الجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنْ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزُ إِلَيْكَ، فَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ، اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالمُلْكِ. فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فَتَبَارَزَا، وَخَلْفَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاةٌ، فَحَمَلَ أَرْيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ

عَتَوْدَة مَوْلَى أَبْرَهَةَ عَلَى أَرِيَاطَ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ أَبْرَهَةُ جَرِيحًا، فَدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرَأَ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْبِيرِ جَيْشِ الحَبَشَةِ بِاليَمَنِ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يَلُومُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلِفُ لَيَطَأَنَّ بِلَادَهُ وَيَجُزَّنَّ نَاصِيَتَهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةُ يَتَرَقَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدَايَا وَتُحَفٍ، وَبِجِرَابٍ فِيهَا مِنْ تُرَابِ اليَمَنِ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأَ المَلِكُ عَلَى هَذَا الجِرَابِ فَيَبَرُّ قَسَمَهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ. فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَقَرَّهُ عَلَى عَمَلِهِ.

وَأَرْسَلَ أَبْرَهَةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَنِيسَةً بِأَرْضِ اليَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلُهَا. فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيعَةِ البِنَاءِ، عَالِيَةِ الفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةِ الْأَرْجَاءِ. سَمَّتْهَا العَرَبُ القُلَّيس؛ لِارْتِفَاعِهَا؛ لِأَنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلَنْسُوَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنَ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا. وَعَزَمَ أَبْرَهَةُ الأَشْرَمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ العَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحَج إِلَى الكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ العَرَبُ العَدْنَانِيَّةُ وَالقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا. فَأَحْدَثَ فِيهَا، وَكَرَّ رَاجِعًا.

فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةُ ذَلِكَ الحَدَثَ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهَة، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ، وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجَرًا.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجَّجُوا فِيهَا نَارًا، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ فَأَحْرَقَتْهُ، وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ. فَتَأَهَّبَ أَبْرَهَةُ لِذَلِكَ، وَصَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمْرَم؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الجُثَّةِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الحَبَشَةِ لِذَلِكَ -وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَةُ أَفْيَالٍ. وَقِيلَ: اثْنَا عَشَرَ فِيلًا. وَقِيلَ غَيْرُهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ- يَعْنِي: لِيَهْدِمَ بِهِ الكَعْبَةَ، بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوضَعَ فِي عُنُقِ الفِيلِ، ثُمَّ يُزْجَرَ لِيُلْقِيَ الحَائِطُ جُمْلَةً وَاحِدَةً. فَلَمَّا سَمِعَتِ العَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ المُحَاجَبَةُ دُونَ البَيْتِ، وَرَدُّ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ اليَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ: ذُو نَفْر. فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ

مِنْ سَائِرِ العَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللهِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ. فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهَةَ، فَهَزَمَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ كَرَامَةِ البَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ، وَأُسِرَ (ذُو نَفْر) فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ. ثُمَّ مَضَى لِوَجْهِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمٍ، عَرَض لَهُ (نُفَيل بْنُ حَبيب الخَثْعَمي) فِي قَوْمِهِ - شَهْرَانُ وَنَاهِسُ- فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ، وَأُسِرَ (نُفَيل بْنُ حَبِيبٍ)، فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الحِجَازِ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ، خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا (ثَقِيفٌ) وَصَانَعُوهُ؛ خِيفَةً عَلَى بَيْتِهِم الَّذِي عِنْدَهُمْ: الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ.

فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ (أَبَا رِغَال) دَلِيلًا. فَلَمَّا انْتَهَى أَبْرَهَةُ إِلَى المُغَمَّس -وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ- نَزَلَ بِهِ وَأَغَارَ جَيْشُهُ عَلَى سَرْحِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا، فَأَخَذُوهُ. وَكَانَ فِي السَّرْحِ مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ. وَكَانَ الَّذِي أَغَارَ عَلَى السَّرْحِ بِأَمْرِ أَبْرَهَةَ أَمِيرُ المُقَدِّمَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الْأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُودٍ. فَهَجَاهُ بَعْضُ العَرَبِ -فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ- وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ حُنَاطَةَ الحِمْيَرِيَّ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ، وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ المَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدوه عَنِ البَيْتِ.

فَجَاءَ حُنَاطَةُ فَدُلَّ عَلَى عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: وَاللهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللهِ الحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ. فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَاذْهَبْ مَعِي إِلَيْهِ. فَذَهَبَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ، وَكَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ رَجُلًا جَمِيلًا حَسَنَ المَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى البِسَاطِ، وَقَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لِلتُّرْجُمَانِ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ المَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي. فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئتُ لِهَدْمِهِ لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ. قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي! قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ المُطَّلِبِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ العَرَبِ فَعَرَضُوا عَلَى أَبْرَهَةَ ثُلُثَ أَمْوَالِ تِهَامَةَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنِ البَيْتِ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ، وَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ المُطَّلِبِ إِبِلَهُ، وَرَجَعَ عَبْدُ المُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحَصُّنِ فِي رُؤُوسِ الجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ

مَعَرَّةِ الجَيْشِ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، وَقَالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الكَعْبَةِ:

لا هُـــمَّ إنَّ المَـــرْءَ يَمْـــ ـــنَعُ رَحْلَـــهُ فَـــامْنَعْ حِلَالَـــكْ
لا يَغْلِـــبَنَّ صَـــلِيبُهُمْ وَمِحَـــالُهُمْ غَـــدْوًا مِحَالَـــكْ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَرْسَلَ عَبْدُ المُطَّلِبِ حَلْقَةَ البَابِ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى رُؤُوسِ الجِبَالِ. وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَ البَيْتِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَة، لَعَلَّ بَعْضَ الجَيْشِ يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقٍّ، فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَهَيَّأَ فِيلَهُ -وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا- وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ، وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللهِ الحَرَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الفِيلُ.

وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أَصْعَدَ فِي الجَبَلِ. وَضَرَبُوا الفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى! فَضَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بِالطَّبَرْزِينِ وَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقِّهِ فَبَزَغُوهُ بِهَا لِيَقُومَ، فَأَبَى؛ فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى اليَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى المَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ البَحْرِ أَمْثَالَ الخَطَاطِيفِ وَالبَلَسَانِ. مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الحُمُّصِ وَالعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ. وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ. هَذَا وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الحِجَازِ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ بِأَصْحَابِ الفِيلِ مِنَ النِّقْمَةِ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ يَقُولُ:

أَيْـــنَ المَفَـــرُّ؟! وَالإِلَـــهُ الطَّالِـــبْ وَالأَشْـــرَمُ المَغْلُـــوبُ غَيْـــرُ الغَالِـــبْ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ نُفَيْلٌ فِي ذَلِكَ أَيْضًا:

أَلا حُيِّيـــتِ عَنَّـــا يَـــا رُدَيْنَـــا نَعِمْنَـــاكُمْ مَـــعَ الإِصْـــبَاحِ عَيْنَـــا
رُدينَـــةُ لَـــوْ رَأَيْـــتِ -وَلَا تَرَيْـــهِ- لَـــدَى جَنْـــبِ المُحَصَّـــبِ مَـــا رَأَيْنَـــا
إِذًا لَعَـــذَرْتِنِي وَحَمِـــدْتِ أَمْـــرِي وَلَـــمْ تَأْسَـــيْ عَلَـــى مَـــا فَـــاتَ بَيْنَـــا
حَمِـــدْتُ اللهَ إِذْ أَبْصَـــرْتُ طَيْـــرًا وَخِفْـــتُ حِجَـــارَةً تُلْقَـــى عَلَينَـــا
فَكُـــلُّ القَـــوْمِ يَسْـــأَلُ عَـــنْ نُفَيْـــلٍ كَـــأَنَّ عَلَـــيَّ لِلْحُبْشَـــانِ دَيْنَـــا!

وَذَكَرَ الوَاقِدِيُّ أَنَّهُمْ لَمَّا تَعَبَّؤُوا لِدُخُولِ الحَرَمِ وَهَيَّؤُوا الفِيلَ، جَعَلُوا لَا يَصْرِفُونَهُ إِلَى جِهَةٍ مِنْ سَائِرِ الجِهَاتِ إِلَّا ذَهَبَ فِيهَا، فَإِذَا وَجَّهُوهُ إِلَى الحَرَمِ رَبَضَ وَصَاحَ. وَجَعَلَ أَبْرَهَةُ يَحْمِلُ عَلَى سَائِسِ الفِيلِ -وَكَانَ اسْمُهُ: أُنَيْسًا- وَيَنْهَرُهُ وَيَضْرِبُهُ لِيَقْهَرَ الفِيلَ عَلَى دُخُولِ الحَرَمِ. وَطَالَ الفَصْلُ فِي ذَلِكَ. هَذَا وَعَبْدُ المُطَّلِبِ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ -مِنْهُمُ المُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ، وَعَمْرُو بْنُ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرٍو الثَّقَفِيُّ- عَلَى حِرَاءَ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا الحَبَشَةُ يَصْنَعُونَ، وَمَاذَا يَلْقونَ مِنْ أَمْرِ الفِيلِ، وَهُوَ العَجَبُ العُجَابُ!

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: جَاءُوا بِفِيلَيْنِ؛ فَأَمَّا مَحْمُودٌ فَرَبَضَ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَشَجُعَ فَحُصِبَ! وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه: كَانَ مَعَهُمْ فِيلَةٌ، فَأَمَّا مَحْمُودٌ -وَهُوَ فِيلُ المَلِكِ- فَرَبَضَ لِيَقْتَدِيَ بِهِ بَقِيَّةُ الفِيلَةِ، وَكَانَ فِيهَا فِيلٌ تَشَجَّعَ فَحُصِبَ، فَهَرَبَتْ بَقِيَّةُ الفِيلَةِ.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَار، وَغَيْرُهُ: لَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ العَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ مِمَّنْ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا، حَتَّى مَاتَ بِبِلَادِ خَثْعَم. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَيَهْلَكُونَ عَلَى كُلِّ مَنْهَلٍ، وَأُصِيبَ أَبْرَهَةُ فِي جَسَدِهِ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمُلَةً أُنْمُلة، حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابُوا مَالًا جَزِيلًا مِنْ أَسْلَابِهِمْ وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، وَأَنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ أَصَابَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الذَّهَبِ مَا مَلَأَ حُفْرَةً. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَة: أَنَّهُ حُدِّثَ أَنَّ أَوَّلَ مَا رُؤِيَتِ الحَصْبَةُ والجُدَرِيُّ بِأَرْضِ العَرَبِ ذَلِكَ العَامَ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَا رُؤِيَ بِهِ مَرَائِرِ الشَّجَرِ الحَرْمَل، وَالحَنْظَلِ والعُشر ذَلِكَ العَامُ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ مِنْ طَرِيقٍ جَيِّدٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ فِيمَا يَعُدُّ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِ؛ مَا رَدَّ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الحَبَشَةِ، لِبَقَاءِ أَمْرِهِمْ وَمُدَّتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾، ﴿**لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ**﴾ أَيْ: لِئَلَّا يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ

حَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا. لِمَا أَرَادَ اللهُ بِهِمْ مِنَ الخَيْرِ لَوْ قَبِلُوهُ!

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْأَبَابِيلُ: الجَمَاعَاتُ. وَلَمْ تَتَكَلَّمِ العَرَبُ بِوَاحِدَةٍ. قَالَ: وَأَمَّا السِّجِّيلُ، فَأَخْبَرَنِي يُونُسُ النَّحْوِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّهُ عِنْدَ العَرَبِ: الشَّدِيدُ الصَّلْبُ. قَالَ: وَذَكَرَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ أَنَّهُمَا كَلِمَتَانِ بِالفَارِسِيَّةِ، جَعَلَتْهُمَا العَرَبُ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ سَنْج وَجِل يَعْنِي بِالسَّنْجِ: الحَجَرَ، وَالجِل: الطِّين. يَقُولُ: الحِجَارَةُ مِنْ هَذَيْنَ الجِنْسَيْنِ: الحَجَرِ وَالطِّينِ. قَالَ: وَالعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ الَّذِي لَمْ يُقْضَبْ، وَاحِدَتُهُ عَصْفَةٌ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُود: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: الفِرَقُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ: ﴿أَبَابِيل﴾ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ، وَقَتَادَةُ: الْأَبَابِيلُ: الكَثِيرَةُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَبَابِيل﴾: شَتَّى مُتَتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْأَبَابِيلُ: المُخْتَلِفَةُ، تَأْتِي مِنْ هَاهُنَا، وَمِنْ هَاهُنَا، أَتَتْهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

وَقَالَ الكِسَائِيُّ: وَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ النَّحْوِيِّينَ يَقُولُ: وَاحِدُ الْأَبَابِيلِ: إِبِّيل.

وَرَوَى ابنُ جَرِيرٍ عَنْ إِسْحَاقَ بن عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ؛ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ هِيَ الأَقَاطِيعُ كَالإِبِلِ المُؤَبَّلَةِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْرِ، وَأَكُفٌّ كَأَكُفِّ الكِلَابِ. وَعَنْ عِكْرِمَةَ: كَانَتْ طَيْرًا خُضْرًا خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، لَهَا رُءُوسُ كَرُءُوسِ السِّبَاعِ. وَعَنْ عُبَيْد ابنِ عُمَيْرٍ: هِيَ طَيْرٌ سُودٌ بَحْرِيَّةٌ، فِي مِنْقَارِهَا وَأَظَافِيرِهَا الحِجَارَةُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَتْ طَيْرًا خُضْرًا لَهَا مَنَاقِيرُ صُفْرٌ، تَخْتَلِفُ عَلَيْهِمْ.

وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُهْلِكَ أَصْحَابَ الفِيلِ، بَعَثَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أُنْشِئَتْ مِنَ البَحْرِ أَمْثَالَ الخَطَاطِيفِ. كُلُّ طَيْرٍ مِنْهَا تَحْمِلُ ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ مُجَزَّعَةٍ؛ حَجَرَيْنِ فِي رِجْلَيْهِ وَحَجَرًا فِي مِنْقَارِهِ. قَالَ: فَجَاءَتْ حَتَّى صَفَّتْ عَلَى رُءُوسِهِمْ، ثُمَّ صَاحَتْ وَأَلْقَتْ مَا فِي أَرْجُلِهَا وَمَنَاقِيرِهَا، فَمَا يَقَعُ حَجَرٌ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ إِلَّا خَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ، وَلَا يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ إِلَّا وَخَرَجَ مِنَ الجَانِبِ الْآخَرِ. وَبَعَثَ اللهُ رِيحًا شَدِيدَةً فَضَرَبَتِ الحِجَارَةَ فَزَادَتْهَا شِدَّةً فَأُهْلِكُوا جَمِيعًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي: التِّبْنَ الَّذِي تُسَمِّيهِ العَامَّةُ هَبُورًا. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ سَعِيدٍ: وَرَقُ الحِنْطَةِ. وَعَنْهُ أَيْضًا: العَصْفُ: التِّبْنُ. وَالمَأْكُولُ: القَصِيلُ يُجَزُّ

لِلدَّوَابِّ. وَكَذَلِكَ قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: العَصْفُ: القِشْرَةُ الَّتِي عَلَى الحَبَّةِ، كَالغِلَافِ عَلَى الحِنْطَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: العَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ وَوَرَقُ البَقْلِ إِذَا أَكَلَتْهُ البَهَائِمُ فَرَاثَتْهُ، فَصَارَ دَرِينًا. وَالمَعْنَى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ، وَرَدَّهُمْ بِكَيْدِهِمْ وَغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَأَهْلَكَ عَامَّتَهُمْ، وَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ جَرِيحٌ، كَمَا جَرَى لِمَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، فَإِنَّهُ انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ حِينَ وَصَلَ إِلَى بَلَدِهِ صَنْعَاءَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا جَرَى لَهُمْ، ثُمَّ مَاتَ.

ثُمَّ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ شَيْئًا مِنْ أَشْعَارِ العَرَبِ فِيمَا كَانَ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الفِيلِ، فَمِنْ ذَلِكَ شِعْرُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزِّبَعْرِيِّ:

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا ... كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تُخْلَقِ الشِّعْرَى لَيَالِيَ حُرِّمَتْ ... إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلْ أَمِيرَ الجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى؟ ... فَلَسَوْفَ يُنْبِي الجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
سِتُّونَ أَلْفًا لَمْ يَؤُوبُوا أَرْضَهُمْ ... بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الإِيَابِ سَقِيمُهَا
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ ... وَاللهُ مِنْ فَوْقِ العِبَادِ يُقِيمُهَا

وَفِي الحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا أَطَلَّ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ عَلَى الثَّنِيَّةِ الَّتِي تَهْبِطُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ، بَرَكَتْ نَاقَتُهُ، فَزَجَرُوهَا فَأَلَحَّت، فَقَالُوا: خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، أَيْ: حَرَنَتْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيها حُرُماتِ اللهِ إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاها، ثُمَّ زَجَرَها فَوَثَبَتْ**» [البخاري (٢٧٣١)].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فإِنَّها لا تَحِلُّ لأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وإِنَّها أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن نَهارٍ، وإِنَّها لا تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي، فلا يُنَفَّرُ صَيْدُها، ولا يُخْتَلى شَوْكُها، ولا تَحِلُّ ساقِطَتُها إلا لِمُنْشِدٍ، ومَن قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهو بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يُفْدى وإِمَّا أَنْ يُقِيدَ**، فَقَالَ العَبَّاسُ: إلا الإِذْخِرَ، فإِنَّا نَجْعَلُهُ لِقُبُورِنا وبُيُوتِنا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إلا الإِذْخِرَ**. فَقَامَ أَبو شَاهٍ -رَجُلٌ مِن أَهْلِ اليَمَنِ- فَقَالَ: اكْتُبُوا لي يا رَسولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اكْتُبُوا لأَبِي شَاهٍ**» [البخاري (٢٤٣٤)، مسلم (١٣٥٥) نحوه].

تفسير سورة قريش

(مكية)

عَنْ أُمِّ هَانِئٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فَضَّلَ اللهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ: فَضَّلَهُم بِأَنَّهُم عَبَدوا اللهَ عَشْرَ سِنينَ لا يَعْبُدُهُ إلا قُرَشِيٌّ، وَفَضَّلَهُم بِأَنَّهُ نَصَرَهُم يَوْمَ الفِيلِ وَهُم مُشْرِكونَ، وَفَضَّلَهُم بِأَنَّهُ نَزَلَت فِيهِم سُورَةٌ مِن القُرآنِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِم غَيْرُهُم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، وَفَضَّلَهُم بِأَنَّ فِيهِم النُّبُوَّةَ، وَالخِلافَةَ، وَالحِجَابَةَ، وَالسِّقَايَةَ» [السلسلة الصحيحة (١٩٤٤)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

هَذِهِ السُّورَةُ مَفْصُولَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي المُصْحَفِ الإِمَامِ، كَتَبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وَإِنْ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا قَبْلَهَا. كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ؛ لِأَنَّ المَعْنَى عِنْدَهُمَا: حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾؛ أَيْ: لِائْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي بَلَدِهِمْ آمِنِينَ.

وَقِيلَ: المُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْلَفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ إِلَى اليَمَنِ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي المَتَاجِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ آمِنِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ؛ لِعَظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ؛ لِكَوْنِهِمْ سُكَّانَ حَرَمِ اللهِ، فَمَنْ عَرَفهم احْتَرَمَهُمْ، بَلْ مَنْ ضَوَى إِلَيْهِمْ وَسَارَ مَعَهُمْ أَمِنَ بِهِمْ.

هَذَا حَالُهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ فِي شِتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ.

وَأَمَّا فِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي البَلَدِ، فَكَمَا قَالَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَمُفَسِّرٌ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الصَّوَابُ أَنَّ (اللَّامَ) لَامُ التَّعَجُّبِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: اعْجَبُوا لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ وَنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ.

قَالَ: وَذَلِكَ لِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّهُمَا سُورَتَانِ مُنْفَصِلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ.

ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ العَظِيمَةِ فَقَالَ: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾؛ أَيْ: فَلْيُوَحِّدُوهُ بِالعِبَادَةِ، كَمَا جَعَلَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا وَبَيْتًا مُحَرَّمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾؛ أَيْ: هُوَ رَبُّ البَيْتِ، وَهُوَ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أَيْ: تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْنِ وَالرُّخْصِ، فَلْيُفْرِدُوهُ بِالعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يَعْبُدُوا مِنْ دُونِهِ صَنَمًا وَلَا نِدًّا وَلَا وَثَنًا.

وَلِهَذَا مَنِ اسْتَجَابَ لِهَذَا الْأَمْرِ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ أَمْنِ الدُّنْيَا وَأَمْنِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ عَصَاهُ سَلَبَهُمَا مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

تفسير سورة الماعون

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَرَأَيْتَ -يَا مُحَمَّدُ- الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ؟ وَهُوَ: المَعَادُ وَالجَزَاءُ وَالثَّوَابُ. ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أَيْ: هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ اليَتِيمَ وَيَظْلِمُهُ حَقَّهُ، وَلَا يُطْعِمُهُ وَلَا يُحْسِنُ إِلَيْهِ. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧-١٨]. يَعْنِي: الفَقِيرَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يَقُومُ بِأَوَدِهِ وَكِفَايَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي: المُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي العَلَانِيَةِ وَلَا يُصَلُّونَ فِي السِّرِّ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَقَدِ التَزَمُوا بِهَا، ثُمَّ هُمْ عَنْهَا سَاهُونَ:

إِمَّا عَنْ فِعْلِهَا بِالكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي الوَقْتِ المُقَدَّرِ لَهَا شَرْعًا؛ فَيُخْرِجُهَا عَنْ وَقْتِهَا بِالكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَهُ مَسْرُوقٌ، وَأَبُو الضُّحَى. وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ: وَالحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ! وَإِمَّا عَنْ وَقْتِهَا الْأَوَّلِ فَيُؤَخِّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِبًا. وَإِمَّا عَنْ أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الوَجْهِ المَأْمُورِ بِهِ. وَإِمَّا عَنِ الخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّدَبُّرِ لِمَعَانِيهَا. فَاللَّفْظُ يَشْمَلُ هَذا كُلَّهُ، وَلِكُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قِسْطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ. وَمَنِ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ نَصِيبُهُ مِنْهَا، وَكَمُلَ لَهُ النِّفَاقُ العَمَلِيُّ.

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «تِلْكَ صَلَاةُ المُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا» [مسلم (٦٢٢)].

فَهَذَا أَخَّرَ صَلَاةَ العَصْرِ الَّتِي هِيَ الوُسْطَى -كَمَا ثَبَتَ بِهِ النَّصُّ- إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا، وَهُوَ وَقْتُ كَرَاهَةٍ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَنَقَرَهَا نَقْرَ الغُرَابِ، لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَا خَشَعَ فِيهَا أَيْضًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: «لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا

إِلَّا قَلِيلًا». وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى القِيَامِ إِلَيْهَا مُرَاءَاةَ النَّاسِ، لا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، فَهُوَ إِذًا لَمْ يُصَلِّ بِالكُلِّيَّةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ؛ سَمَّعَ اللهُ بِهِ مَا سَمَّعَ خَلْقَهُ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ» [صحيح الترغيب (٢٥)]. وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لِلَّهِ فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، أَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ رِيَاءً[1]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾؛ أَيْ: لَا أَحْسَنُوا عِبَادَةَ رَبِّهِمْ وَلَا أَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ -حَتَّى وَلَا بِإِعَارَةِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَيُسْتَعَانُ بِهِ مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِمْ-. فَهَؤُلَاءِ لِمَنْعِ الزَّكَاةِ وَأَنْوَاعِ القُرُبات أَوْلَى وَأَوْلَى. قَالَ عَلِيٌّ: المَاعُونُ: الزَّكَاةُ. وَكَذَا رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ. وَبِهِ يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ الحَنَفِيَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وعِكْرِمة، وَمُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَعَطِيَّةُ العَوْفِيُّ، وَالزُّهْرِيُّ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: إِنْ صَلَّى رَاءَى، وَإِنْ فَاتَتْهُ لَمْ يَأْسَ عَلَيْهَا، وَيَمْنَعُ زَكَاةَ مَالِهِ. وَفِي لَفْظٍ: صَدَقَةَ مَالِهِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هُمُ المُنَافِقُونَ؛ ظَهَرَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّوْهَا، وَخَفِيَت الزَّكَاةُ فَمَنَعُوهَا.

وَعَنْ عَبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ المَاعُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَارِيَةَ الدَّلْوِ، وَالقِدْرِ» [صحيح سنن أبي داود (١٦٥٧)]. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: مَتَاعَ البَيْتِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخعي وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهَا العَارِيَّةُ لِلْأَمْتِعَةِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: رَأْسُ المَاعُونِ زَكَاةُ المَالِ، وَأَدْنَاهُ المُنْخُلُ وَالدَّلْوُ وَالْإِبْرَةُ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عِكْرِمَةُ حَسَنٌ؛ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَتَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ. وَهُوَ تَرْكُ المُعَاوَنَةِ بِمَالٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ. وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قَالَ: المَعْرُوفُ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ» [البخاري (٦٠٢١)، مسلم (١٠٠٥)]. وَعَنِ الزُّهْرِيِّ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قَالَ: بِلِسَانِ قُرَيْشٍ: المَالُ.

❁ ❁ ❁

(١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ» [مسلم (٢٦٤٢)].

تفسير سورة الكوثر

(مدنية، وقيل: مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا. فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ**. فَقَرَأَ: ﴿**بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ**﴾ ثُمَّ قَالَ: **أَتَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ؟** فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَد النُّجُومِ. فَيُخْتَلَجُ العَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ**» [مسلم (٤٠٠)].

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ القُرَّاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَكَثِيرٌ مِنَ الفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ البَسْمَلَةَ مِنَ السُّورَةِ، وَأَنَّهَا مُنَزَّلَةٌ مَعَهَا. وَقَدْ وَرَدَ فِي صِفَةِ الحَوْضِ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّهُ يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ السَّمَاءِ عَنْ نَهْرِ الكَوْثَرِ، وَأَنَّ عَلَيْهِ آنِيَةً عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ.

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا آنِيَةُ الحَوْضِ؟ قَالَ: **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِن عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلا فِي اللَّيْلَةِ المُظْلِمَةِ المُصْحِيَةِ، آنِيَةُ الجَنَّةِ مَن شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الجَنَّةِ، مَن شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ**» [مسلم (٢٣٠٠)].

فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ**﴾ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّهُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ. وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُعْطِيتُ الكَوْثَرَ، فَإِذا هُوَ نَهرٌ يَجْرِي، وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا، فَإِذا حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلى تُرْبَتِهِ، فَإِذا هُوَ مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ، وَإِذا حَصَاهُ اللُّؤْلُؤُ**» [السلسلة الصحيحة (٢٥١٣)]. وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذا أَنَا بِنَهرٍ حَافَتَاهُ خِيامُ اللُّؤْلُؤِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلى مَا يَجْرِي فِيهِ المَاءُ، فَإِذا مِسْكٌ أَذْفَرُ، فَقُلْتُ: مَا هَذا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذا الكَوْثَرُ الذي أَعْطَاكَهُ اللهُ**» [صحيح الجامع (٣٣٦٥)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلى السَّمَاءِ، قَالَ: **أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَذا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذا الكَوْثَرُ**» [البخاري (٤٩٦٤)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، مَضَى بِهِ جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: «..فَإِذا هُوَ بنَهَرٍ آخَرَ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِن لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ يَدَهُ فَإِذا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ، قَالَ: **مَا هَذا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذا الكَوْثَرُ الذي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ**» [البخاري (٧٥١٧)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَا أَنا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذْ عَرَضَ لِي نَهْرٌ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، قُلْتُ لِلمَلَكِ: مَا هَذا؟ قَالَ: هَذا الكَوْثَرُ الَّذي أَعْطَاكَهُ اللهُ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ إِلى طِينَةٍ فَاسْتَخْرَجَ مِسْكًا، ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ المُنْتَهَى فَرَأَيْتُ عِنْدَهَا نُورًا عَظِيمًا**» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٦٠)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سُئِلَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَا الكَوْثَرُ؟ قَالَ: **نَهرٌ أَعْطَانِيه اللهُ** -يَعْنِي: في الجَنَّة-؛ **أَشَدُّ بَيَاضًا مِن اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِن العَسَلِ؛ فِيهِ طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الجُزُرِ**، قَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذِهِ لَنَاعِمَةٌ! قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **آكِلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا**» [هداية الرواة (٥٥٦٧)].

وَرَوَى البُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ: سَأَلْتُهَا -يَعْنِي: عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ**﴾ قَالَتْ: «نَهرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ، شَاطِئاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ» [البخاري (٤٩٦٥)].

ثُمَّ رَوَى البُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي الكَوْثَرِ: «هُوَ الخَيْرُ الذي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. قَالَ أَبو بِشْرٍ: قُلتُ لِسَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ: فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّه نَهرٌ فِي الجَنَّةِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: النَّهَرُ الذي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخَيْرِ الذي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ» [البخاري (٤٩٦٦)].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿**ٱلْكَوْثَرَ**﴾: الخَيْرُ الكَثِيرُ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَعُمُّ النَّهْرَ وَغَيْرَهُ؛ لِأَنَّ الكَوْثَرَ مِنَ الكَثْرَةِ، وَهُوَ الخَيْرُ الكَثِيرُ، وَمِنْ ذَلِكَ: النَّهْرُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَمُحَارِبُ بْنُ دِثَار، وَالحُسْنُ بْنُ أَبِي الحَسَنِ البَصْرِيُّ.

حَتَّى قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الخَيْرُ الكَثِيرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ النُّبُوَّةُ وَالقُرْآنُ، وَثَوَابُ الْآخِرَةِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ فَسَّرَهُ بِالنَّهْرِ أَيْضًا، فَقَد رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَتَاهُ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ، يَجْرِي عَلَى اليَاقُوتِ وَالدُّرِّ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ. وَكَذَا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِن ذَهَبٍ، ومَجْرَاهُ عَلى الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ**» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٦١)]. وَأَحَادِيثُ الكَوْثَرِ قَدْ تَوَاتَرَت مِنْ طُرُقٍ تُفِيدُ القَطْعَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ أَحَادِيثُ الحَوْضِ، وَلْنَذْكُرْهَا هَاهُنَا[1].

---

(١) قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي الحَوْضِ المُحَمَّدِيِّ -سَقَانَا اللهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَة- مِنَ الأَحَادِيثِ المَشْهُورَةِ المُتَعَدِّدَةِ مِنَ الطُّرُقِ المَأْثُورَةِ الكَثِيرَةِ المُتَضَافِرَةِ، وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ كَثِيرٍ مِنَ المُبْتَدِعَةِ المُكَابِرَةِ القَائِلِينَ بِجُحُودِهِ المُنْكِرِينَ لِوُجُودِهِ، وَأَخْلِقْ بِهِمْ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وُرُودِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ كَذَّبَ بِكَرَامَةٍ لَمْ يَنَلْهَا! وَلَو اطَّلَعَ المُنْكِرُ لِلْحَوْضِ عَلَى مَا سَنُورِدُهُ مِنَ الأَحَادِيثِ قَبْلَ مَقَالَتِهِ لَمْ يَقُلْهَا. بَعْضُ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ الذينَ صَدَّقُوا بِالحَوْضِ وَآمَنُوا بِكَوْنِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرَوَوْا الأَحَادِيثَ فِيهِ؛ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِن الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم، مِنْهُم أُبَيُّ بنُ كَعْب، وَجَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِاللهِ، وَجُنْدُبُ بنُ عَبدِاللهِ البَجَلِي، وَزَيْدُ بنُ أَرْقَمْ، وَسَلْمَان الفَارِسِي، وَحَارِثَةُ بْنُ وَهْبٍ، وَحُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ، وَحُذَيْفَةُ بنُ اليَمَانِ، وَسَمُرَةُ بنُ جُنْدب، وَسَهْلُ بنُ سَعْد، وَعَبْدُاللهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ عَبْدٍ السُّلَمِيُّ، وَعُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ الجُهَنِيُّ، وَالنَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ، وَأَبُو أُمَامَةَ البَاهِلِيُّ، وَأَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ، وَأَبُو بَكْرَةَ، وَأَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ، وَأَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيُّ، وَأَسْمَاءُ بِنْت أَبِي بَكْرٍ، وَعَائِشَةُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَعَادَ عَلَيْنَا مِن بَرَكَاتِهِم، وَامْرَأَةُ حَمْزَةَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُمْ مِنْ بَنِي النَّجَار...عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (**إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كما بيْنَ أيْلَةَ وصَنْعاءَ مِنَ اليَمَنِ، وإنَّ فيه مِنَ الأباريقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ**) [البخاري (٦٥٨٠)]. وَعَنْ ثَوْبَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: (**إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لأَهْلِ اليَمَنِ، أَضْرِبُ بِعَصَايَ حتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِم. فَسُئِلَ عَن عَرْضِهِ فَقالَ: مِن مَقامِي إلى عَمَّانَ، وَسُئِلَ عن شَرابِهِ فَقالَ: أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلى مِنَ العَسَلِ، يَغُتُّ فيه مِيزابانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الجَنَّةِ، أَحَدُهُما مِن ذَهَبٍ، والآخَرُ مِن وَرِقٍ**) [مسلم (٢٣٠١)]. وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**إِنَّ حَوضِي مِن عَدَن إلى عَمَّانَ البَلْقاءِ، مَاؤُهُ أَشدُّ بَياضًا مِن اللَّبنِ، وأحْلى مِن العَسلِ، أَكَاوِيبُهُ عَددُ النُّجومِ، مَن شَرِبَ مِنهُ شَرْبةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَها أَبدًا، أَوَّلُ النَّاسِ وُرودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ المُهَاجِرين: الشُّعْثُ رُؤُوسًا، الدُّنْسُ ثِيابًا، الذين لا يَنْكِحُونَ المُنَعَّمَاتِ، وَلا تُفتَحُ لَهُم السُّدَدُ، الذين يُعطُونَ الحَقَّ الذي عَلَيْهِم، وَلا يُعْطَوْنَ الذي لَهُم**) [صحيح الجامع (٢٠٦٠)]. وَعَنْ جُنْدب بن عَبدِاللهِ البَجَلِي وَعَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وجَابِر بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: (**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ**) [صحيح الجامع (١٤٦٩)]. وَعَنْ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**إِنَّ حَوْضِي لأَبْعَدُ مِن أَيْلَةَ مِن عَدَن، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنِّي لأَذُودُ عنه الرِّجالَ كما يَذُودُ الرَّجُلُ الإبِلَ الغَرِيبَةَ عن حَوْضِهِ قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وتَعْرِفُنا؟ قالَ: نَعَمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن آثارِ**

الوُضُوءِ ليستْ لأحَدٍ غيرِكُمْ) [مسلم (٢٤٨)]. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: (ما أَنْتُمْ بِجُزْءٍ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ جُزْءٍ مِمَّنْ يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْض مِن أُمَّتي. قُلْتُ لِزَيْدٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: سَبْعَمِائَةٍ أَوْ ثَمَانمِائَة) [السلسلة الصحيحة، تحت (١٢٣)]. وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أنا فَرَطُكُمْ على الحَوْضِ، فمَن وَرَدَهُ شَرِبَ منه، ومَن شَرِبَ منه لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوامٌ أعْرِفُهُمْ ويَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحالُ بَيْنِي وبيْنَهُمْ. قالَ أبو حازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمانُ بنُ أبِي عَيَّاشٍ وأنا أُحَدِّثُهُمْ هذا، فقالَ: هَكَذا سَمِعْتَ سَهْلًا؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قالَ: وأنا أشْهَدُ علَى أبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فيه قالَ: إنَّهُمْ مِنِّي، فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدْرِي ما بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فأقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَن بَدَّلَ بَعْدِي) [البخاري (٧٠٥٠)]. وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَمَّا أفاءَ اللهُ على رَسولِهِ ﷺ يومَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ في النَّاسِ في المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، ولَمْ يُعْطِ الأنْصارَ شيئًا، فَكَأنَّهُمْ وجَدُوا إذْ لَمْ يُصِبْهُمْ ما أصابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقالَ: يا مَعْشَرَ الأنْصارِ، ألَمْ أجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَداكُمُ اللهُ بي؟ وكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فألَّفَكُمُ اللهُ بي؟ وعالَةً فأغْناكُمُ اللهُ بي؟ كُلَّما قالَ شيئًا قالوا: اللهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: ما يَمْنَعُكُمْ أنْ تُجِيبُوا رَسولَ اللهِ ﷺ؟ قالَ: كُلَّما قالَ شيئًا، قالوا: اللهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: لو شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنا كَذا وكَذا، أتَرْضَوْنَ أنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعِيرِ، وتَذْهَبُونَ بالنَّبِيِّ ﷺ إلى رِحالِكُمْ؟ لَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصارِ، ولَوْ سَلَكَ النَّاسُ وادِيًا وشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وادِيَ الأنْصارِ وشِعْبَها، الأنْصارُ شِعارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ، إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أثَرَةً، فاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِي على الحَوْضِ) [البخاري (٤٣٣٠)]. وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (أَنا آخذٌ بِحُجَزِكُم عَن النَّارِ؛ أقول: إيَّاكُم وَجَهنَّمَ! إيَّاكُم وَالحُدودَ! فَإذا مُتُّ فَأنا فَرَطُكُمْ وَمَوْعِدُكُم عَلى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَ أفْلَحَ. وَيَأْتِي قَوْمٌ فيُؤخَذُ بِهِم ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُول: يَا رَبِّ أُمَّتِي! فَيُقَالُ: لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِم) [السلسلة الصحيحة (٣٠٨٧)]. وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَواءٌ، وَماؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ، فمَن شَرِبَ منه فلا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا) [مسلم (٢٢٩٢)]. وَعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إنَّ أَمامَكُمْ حَوْضًا كما بيْنَ جَرْباءَ وَأَذْرُحَ، فيهِ أَبارِيقُ كَنُجُومِ السَّماءِ، مَن وَرَدَهُ فَشَرِبَ مِنهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَها أَبَدًا) [مسلم (٢٢٩٩)]. وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا، فَصَلَّى على أهْلِ أُحُدٍ صَلاتَهُ على المَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إلى المِنْبَرِ فَقالَ: (إنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وأنا شَهِيدٌ علَيْكُم، وإنِّي لَأَنْظُرُ إلى حَوْضِي الآنَ، وإنِّي أُعْطِيتُ مَفاتِيحَ خَزائِنِ الأرْضِ، أوْ مَفاتِيحَ الأرْضِ، وإنِّي واللهِ ما أخافُ علَيْكُم أنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، ولَكِنِّي أخافُ علَيْكُم أنْ تَنافَسُوا فِيها) [البخاري (٤٠٨٥)]. وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إنَّ اللهَ وَعَدَنِي أَن يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِي سَبعينَ ألفًا بغيرِ حِسابٍ. فقال يَزيدُ بنُ الأخْنَسِ: وَاللهِ مَا أولئك في أمَّتِك إلا كالذُّبابِ الأصهَبِ في الذُّبابِ. فَقَالَ رسولُ اللهِ: قَدْ وَعَدَنِي سَبْعِين ألفًا، مَعَ كُلِّ ألفٍ سَبْعون ألفًا وَزَادَنِي ثَلاثَ حَثَيَاتٍ. قَالَ: فَمَا سِعَةُ حَوضِك يا نبيَّ اللهِ؟ قال: كَمَا بَيْنَ عَدَن إلى عَمَّانَ وَأَوْسَعُ وَأَوْسَعُ -يُشيرُ بيدِه- قَالَ: فيهِ مَثعبانِ مِن ذَهبٍ وَفِضةٍ. قَالَ: فَمَا مَاءُ حَوضِك يا نبيَّ اللهِ؟ قَالَ: أَشدُّ بياضًا مِن اللَّبنِ، وَأَحْلى مَذاقُهُ مِن العَسَلِ، أَطْيَبُ رَائِحَةً مِن المِسْكِ، مَن شَرِبَ مِنهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أبدًا، وَلَمْ يُسوَّدْ وَجهُه أبدًا) [صحيح الترغيب (٣٦١٤)]. وَعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أنَّه دَخَل على عُبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ، فَحدَّثني فلانٌ -سمَّاهُ مسلِمٌ وَكانَ في السِّماطِ- فلمَّا رآهُ عبيدُ اللهِ قالَ: إنَّ محمَّدِيَّكم هذا الدَّحداحُ، ففَهِمَها الشَّيخُ، فَقالَ: مَا كُنتُ أَحسبُ أنِّي أبقى في قومٍ يعيِّروني بصُحبةِ محمَّدٍ ﷺ، فقالَ لَهُ عبيدُ اللهِ: إنَّ صحبةَ محمَّدٍ ﷺ لَكَ زَينٌ غيرُ شَينٍ، ثمَّ قالَ: إنَّما بَعثتُ إليْكَ لأسألَكَ عنِ الحَوْضِ، سمعتَ رسولَ اللهِ ﷺ يذْكرُ فيهِ شيئًا؟ فقالَ أبو

وَهَكَذَا رُوِي عَنْ أَنَسٍ، وَأَبِي العَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٍ، وَغَيْرِ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ الكَوْثَرَ: نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: هُوَ حَوْضٌ فِي الجَنَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾؛ أَيْ: كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الخَيْرَ الكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ -وَمِن ذلكَ: النَّهرُ الَّذِي تَقَدَّمَ صِفَتُهُ- فَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ صَلَاتَكَ المَكْتُوبَةَ، وَالنَّافِلَةَ، وَنَحْرَكَ؛ فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَانْحَرْ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٌ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالحَسَنُ: يَعْنِي بِذَلِكَ: نَحْرَ البُدْن وَنَحْوِهَا. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَهَذَا بِخِلَافِ مَا كَانَ المُشْرِكُونَ عَلَيْهِ مِنَ السُّجُودِ لِغَيْرِ اللهِ، وَالذَّبْحِ عَلَى غَيْرِ اسْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

بَرزة: نعَم لا مرَّةً، ولا ثِنتين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا خَمسًا، فَمَن كذَّبَ بِهِ فَلا سَقاهُ اللهُ مِنْهُ، ثمَّ خَرجَ مُغضبًا) [صحيح سنن أبي داود (٤٧٤٩)]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (**ما بيْنَ بَيْتي ومِنْبَري رَوْضَةٌ مِن رياضِ الجَنَّةِ، ومِنْبَري عَلى حَوْضِي**) [البخاري (٧٣٣٥)]. وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**إنِّي على الحَوْضِ حتَّى أنْظُرَ مَن يَرِدُ عَلَيَّ مِنكُمْ، وسَيُؤْخَذُ ناسٌ دُونِي، فأقُولُ: يا رَبِّ مِنِّي ومِنْ أُمَّتِي، فيُقالُ: هلْ شَعَرْتَ ما عَمِلُوا بَعْدَكَ، واللهِ ما بَرِحُوا يَرْجِعُونَ على أعْقابِهِمْ**. فكانَ ابنُ أبِي مُلَيْكَةَ يقولُ: اللَّهُمَّ إنّا نَعُوذُ بكَ أنْ نَرْجِعَ على أعْقابِنا أوْ نُفْتَنَ عن دِينِنا) [البخاري (٦٥٩٣)]. وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِي ﷺ قَالَتْ: (كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الحَوْضَ، وَلَمْ أَسْمَعْ ذلكَ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا كانَ يَوْمًا مِن ذلكَ، والجارِيَةُ تَمْشُطُنِي، فَسَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: أيُّها النَّاسُ، فَقُلْتُ لِلْجارِيَةِ: اسْتَأْخِرِي عَنِّي، قالَتْ: إنَّما دَعا الرِّجالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّساءَ، فَقُلْتُ: إنِّي مِنَ النَّاسِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **إنِّي لَكُمْ فَرَطٌ على الحَوْضِ، فَإيَّايَ لا يَأْتِيَنَّ أحَدُكُمْ فيُذَبُّ عَنِّي كما يُذَبُّ البَعِيرُ الضَّالُّ، فأقُولُ: فِيمَ هذا؟ فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدْرِي ما أحْدَثُوا بَعْدَكَ، فأقُولُ: سُحْقًا**) [مسلم (٢٢٩٥)]. اخْتِلافُ تَحْدِيدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِحَجْمِ الحَوْضِ طُولًا وَعَرضًا لاخْتِلافِ المُخَاطَبِينَ فَحَدَّدَ لِكُلٍّ بِالأَمْكِنَةِ التي يَعْرِفُ؛ قَالَ القُرْطُبِيُّ: وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ فِي تَحْدِيدِ الحَوْضِ تَارَةً بِجَرْبَاءَ وَأَذْرُحَ، وَتَارَةً بما بَيْنَ الكَعْبَةِ إِلَى كَذَا وَتَارَةً بِغَيْرِ ذَلِكَ اضْطِرابًا، قَالَ: وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذلك، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَدَّثَ أَصْحَابَهُ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَة، فَخَاطَبَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ القَوْمَ بِمَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْأَمَاكِنِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ تَحْدِيدُهُ بِشَهْرٍ فِي شَهْرٍ، قَالَ: وَلَا يَخْطُرُ فِي بَالِكَ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، بَلْ فِي الْأَرْضِ المُبَدَّلَةِ، وَهِيَ أَرْضٌ بَيْضَاءُ كَالفِضَّةِ، لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ، وَلَمْ يُظْلَمْ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدٌ قَطُّ، تُطَهَّرُ لِنُزُولِ الجَبَّارِ جَلَّجَلَالُهُ لِفَصْلِ القَضَاءِ» [النهاية في الفتن والملاحم، باختصار وتصرُّف].

وَقِيلَ: المُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ وَضْعُ الْيَدِ اليُمْنَى عَلَى اليُسْرَى تَحْتَ النَّحْرِ. يُرْوَى هَذَا عَنْ عَلِيٍّ، وَلَا يَصِحُّ. وَعَنِ الشَّعْبِيِّ مِثْلُهُ. وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ البَاقِرِ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ يَعْنِي: ارْفَعِ اليَدَيْنِ عِنْدَ افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ. وَقِيلَ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ أَيْ: اسْتَقْبِلْ بِنَحْرِكَ القِبْلَةَ. ذَكَرَ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَعَنْ عَطَاءٍ الخُرَاسَانِيِّ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ أَيْ: ارْفَعْ صُلْبَكَ بَعْدَ الرُّكُوعِ وَاعْتَدِلْ، وَأَبْرِزْ نَحْرَكَ، يَعْنِي بِهِ الِاعْتِدَالَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ غَرِيبَةٌ جِدًّا، وَالصَّحِيحُ القَوْلُ الْأَوَّلُ؛ أَنَّ المُرَادَ بِالنَّحْرِ: ذَبْحُ المَنَاسِكِ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي العِيدَ ثُمَّ يَنْحَرُ نُسُكَهُ وَيَقُولُ: «**مَن صَلَّى صَلاتَنا، ونَسَكَ نُسُكَنا، فقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ، وَمَن نَسَكَ قَبْلَ الصَّلاةِ -فإنَّهُ قَبْلَ الصَّلاةِ- وَلا نُسُكَ لَهُ.** فَقَالَ أبو بُرْدَةَ بنُ نِيارٍ خَالُ البَراءِ: يَا رَسولَ اللهِ، فإنِّي نَسَكْتُ شَاتِي قَبْلَ الصَّلاةِ، وعَرَفْتُ أنَّ اليومَ يَوْمُ أكْلٍ وشُرْبٍ، وأَحْبَبْتُ أنْ تَكُونَ شَاتِي أوَّلَ ما يُذْبَحُ في بَيْتِي، فَذَبَحْتُ شَاتِي وَتَغَدَّيْتُ قَبْلَ أنْ آتِيَ الصَّلاةَ، قَالَ: **شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ**. قَالَ: يَا رَسولَ اللهِ، فَإِنَّ عِنْدَنا عَنَاقًا لَنَا جَذَعَةً هِيَ أَحَبُّ إلَيَّ مِن شَاتَيْنِ، أَفَتَجْزِي عَنِّي؟ قَالَ: **نَعَمْ، وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ**» [البخاري (٩٥٥)].

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَاجْعَلْ صَلَاتَكَ كُلَّهَا لِرَبِّكَ خَالِصًا دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْآلِهَةِ، وَكَذَلِكَ نَحْرَكَ اجْعَلْهُ لَهُ دُونَ الْأَوْثَانِ؛ شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكَ مِنَ الكَرَامَةِ وَالخَيْرِ الَّذِي لَا كِفَاء لَهُ، وَخَصَّكَ بِهِ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِي غَايَةِ الحُسْنِ، وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَى هَذَا المَعْنَى: مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ، وَعَطَاءٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ أَيْ: إِنَّ مُبْغِضَكَ -يَا مُحَمَّدُ- وَمُبْغِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالحَقِّ وَالبُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالنُّورِ المُبِينِ؛ هُوَ الْأَبْتَرُ الْأَقَلُّ الْأَذَلُّ المُنْقَطِعُ ذِكْرُهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي العَاصِ بْنِ وَائِلٍ[1].

---

(١) عَنْ خَبَّاب بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ لِي عَلَى العَاصِ بن وَائِلٍ دَيْنٌ، فأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي: لَنْ أَقْضِيَكَ حتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي لَنْ أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ حتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: وإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِن بَعْدِ المَوْتِ! فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذا رَجَعْتُ إِلى مالٍ وَوَلَدٍ. قالَ وَكِيعٌ: كَذا قالَ الأَعْمَشُ، قَالَ: فَنَزَلَتْ هذِه الآيَةُ: ﴿**أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا**﴾» [مسلم (٢٧٩٥)].

وَعَنْ يَزِيد بْنِ رُومَان قَالَ: كَانَ العَاصُ بْنُ وَائِلٍ إِذَا ذُكِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقولُ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَبْتَرُ لَا عَقِبَ لَهُ، فَإِذَا هَلَكَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ.

فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ.

وَقَالَ شِمْر بْنُ عَطِيَّةَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيط(١).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَعِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ(٢) وَجَمَاعَةٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ.

---

(١) عَنْ عَبْدِالله بن مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنا النبيُّ ﷺ سَاجِدٌ، وَحَوْلَهُ ناسٌ مِن قُرَيْشٍ، جاءَ عُقْبَةُ بنُ أبِي مُعَيْطٍ بسَلى جَزُورٍ، فَقَذَفَهُ على ظَهْرِ النبيِّ ﷺ، فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجاءَتْ فَاطِمَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فأخَذَتْهُ مِن ظَهْرِه، وَدَعَتْ على مَن صَنَعَ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: **اللَّهُمَّ عَلَيْكَ المَلَأَ مِن قُرَيْشٍ: أَبا جَهْلِ بنَ هِشامٍ، وعُتْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ، وشَيْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ، وأُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ أوْ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ** - شُعْبَةُ الشَّاكُّ- فَرَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَومَ بَدْرٍ، فَأُلْقُوا في بِئْرٍ -غَيْرَ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ أوْ أُبَيٍّ تَقَطَّعَتْ أوْصالُهُ فَلَمْ يُلْقَ في البِئْرِ-» [البخاري (٣٨٥٤)]. وَعَنْ عُرْوَة بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ: أخْبِرْنِي بأَشَدِّ ما صَنَعَ المُشْرِكُونَ برَسولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: بيْنا رَسولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بفِناءِ الكَعْبَةِ، إذْ أقْبَلَ عُقْبَةُ بنُ أبِي مُعَيْطٍ فأخَذَ بمَنْكِبِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَلَوَى ثَوْبَهُ في عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فأقْبَلَ أبو بَكْرٍ فأخَذَ بمَنْكِبِهِ ودَفَعَ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾» [البخاري (٤٨١٥)].

(٢) عَنْ جَابِر بنِ عَبْدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن لِكَعْبِ بنِ الأشْرَفِ؛ فَإنَّهُ قدْ آذى اللهَ ورَسولَهُ؟** فَقامَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ فَقالَ: يَا رَسولَ اللهِ، أتُحِبُّ أنْ أقْتُلَهُ؟ قالَ: **نَعَمْ**، قالَ: فَأْذَنْ لي أنْ أقُولَ شيئًا، قالَ: **قُلْ**. فأتاهُ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ فقالَ: إنَّ هَذا الرَّجُلَ قدْ سَألَنا صَدَقَةً، وإنَّه قدْ عَنَّانا، وَإنِّي قدْ أتَيْتُكَ أسْتَسْلِفُكَ، قَالَ: وأيْضًا واللهِ لَتَمَلُّنَّهُ، قالَ: إنَّا قَدِ اتَّبَعْناهُ، فَلا نُحِبُّ أنْ نَدَعَهُ حتَّى نَنْظُرَ إلى أيِّ شَيءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقدْ أرَدْنا أنْ تُسْلِفَنا وَسْقًا أوْ وَسْقَيْنِ، فقالَ: نَعَم، ارْهَنُوني، قَالوا: أيَّ شَيءٍ تُرِيدُ؟ قَالَ: ارْهَنُوني نِساءَكُمْ، قَالوا: كَيفَ نَرْهَنُكَ نِساءَنا وأنْتَ أجْمَلُ العَرَبِ؟! قَالَ: فارْهَنُوني أبْناءَكُمْ، قَالوا: كَيفَ نَرْهَنُكَ أبْناءَنا، فيُسَبُّ أحَدُهُمْ، فيُقالُ: رُهِنَ بوَسْقٍ أوْ وَسْقَيْنِ؟! هَذا عَارٌ عَلَيْنا، ولَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ -قالَ سُفْيانُ: يَعْنِي: السِّلاحَ- فَواعَدَهُ أنْ يَأْتِيَهُ، فَجاءَهُ لَيْلًا وَمَعَهُ أبو نائِلَةَ، وَهُو أخُو كَعْبٍ مِنَ الرَّضاعَةِ، فَدَعاهُمْ إلى الحِصْنِ، فَنَزَلَ إلَيهِم، فَقالَتْ لَهُ امْرَأتُهُ: أيْنَ تَخْرُجُ هذِه السَّاعَةَ؟ فَقالَ: إنَّما هُو مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ، وأخِي أبو نائِلَةَ -وقالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قالَتْ: أسْمَعُ صَوْتًا كَأنَّهُ يَقْطُرُ منه الدَّمُ، قالَ: إنَّما هو أخِي مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ، ورَضِيعِي أبو نائِلَةَ؛ إنَّ الكَرِيمَ لو دُعِيَ إلى طَعْنَةٍ بلَيْلٍ لَأجابَ- قالَ عَمْرٌو: جَاءَ مَعَهُ برَجُلَيْنِ، فَقَالَ: إذا مَا جَاءَ فإنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأشَمُّهُ، فإذا رَأيْتُمُونِي اسْتَمْكَنْتُ مِن رَأْسِهِ، فَدُونَكُمْ فاضْرِبُوهُ -وقالَ مَرَّةً: ثُمَّ أُشِمُّكُمْ- فَنَزَلَ إلَيهِم مُتَوَشِّحًا وَهُو يَنْفَحُ مِنهُ رِيحُ الطِّيبِ، فَقالَ: مَا رَأَيْتُ كَاليَومِ رِيحًا، أيْ: أطْيَبَ. وَقالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قالَ: عِندِي أعْطَرُ نِساءِ العَرَبِ وأكْمَلُ العَرَبِ، قالَ عَمْرٌو: فَقالَ: أتَأْذَنُ لي أنْ أشَمَّ رَأْسَكَ؟ قالَ: نَعَمْ، فَشَمَّهُ، ثُمَّ أشَمَّ أصْحابَهُ، ثُمَّ قالَ: أتَأْذَنُ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنهُ، قَالَ: دُونَكُمْ، فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ أتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فأخْبَرُوهُ» [البخاري (٤٠٣٧) باختصار].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بنُ الأَشْرَفِ مَكَّةَ؛ أَتَوْهُ فَقَالوا: نَحْنُ أَهْلُ السِّقَايَةِ وَالسِّدَانَةِ، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهلِ يَثْرِبَ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذا الصُّنَيْبِيرُ المُنبَتِرُ مِن قَوْمِهِ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، وَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾» [صحيح الموارد (١٤٤٨)].

وَعَنْ عَطَاءٍ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لَهَبٍ، وَذَلِكَ حِينَ مَاتَ ابْنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَهَبَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَالَ: بُتِرَ مُحَمَّدٌ اللَّيْلَةَ. فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ. وَعَنْهُ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾؛ يَعْنِي: عَدُوَّكَ.

وَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِمَّنْ ذُكِرَ، وَغَيْرِهِم.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْأَبْتَرُ: الفَرْدُ. وَقَالَ السُّدِّي: كَانُوا إِذَا مَاتَ ذُكُورُ الرَّجُلِ قَالُوا: بُتِرَ.

فَلَمَّا مَاتَ أَبْنَاءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: بُتِرَ مُحَمَّدٌ. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1].

وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْأَبْتَرَ الَّذِي إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، فَتَوَهَّمُوا لِجَهْلِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ يَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ، وَحَاشَا وَكَلَّا؛ بَلْ قَدْ أَبْقَى اللهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَأَوْجَبَ شَرْعَهُ عَلَى رِقَابِ العِبَادِ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْآبَادِ، إِلَى يَوْمِ الحَشْرِ وَالمَعَادِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ.

❁ ❁ ❁

(١) قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ أَحْمَدُ ابنُ تَيْمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «قَالَ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ فَمَنْ شَنَأَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَلَهُ مِنْ ذَلِكَ نَصِيبٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ بِالمَسْجِدِ أَقْوَامًا يَجْلِسُونَ وَيَجْلِسُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَنْ جَلَسَ لِلنَّاسِ جَلَسَ النَّاسُ إِلَيْهِ؛ لَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَبْقَوْنَ وَيَبْقَى ذِكْرُهُمْ وَأَهْلَ البِدْعَةِ يَمُوتُونَ وَيَمُوتُ ذِكْرُهُمْ. وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ البِدْعَةِ شَنَؤُوا بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَأَبْتَرَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَالَّذِينَ أَعْلَنُوا مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَصَارَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، فَإِنَّ مَا أَكْرَمَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلِلْمُؤْمِنِينَ المُتَابِعِينَ نَصِيبٌ بِقَدْرِ إِيمَانِهِمْ. فَمَا كَانَ مِنْ خَصَائِصِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ فَلَمْ يُشَارِكْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ ثَوَابِ الإِيمَانِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ نَصِيبٌ بِقَدْرِ ذَلِكَ» [مجموع الفتاوى].

تفسير سورة الكافرون

(مكية)

ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِهَذِهِ السُّورَةِ، وَبِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فِي رَكْعَتَيِ الطَّوَافِ [مسلم (١٢١٨)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الفَجْرِ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾» [مسلم (٧٢٦)].

وَعَنْ عَبْدِاللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَمَقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِشْرِينَ مَرَّةً يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾» [السلسلة الصحيحة، تحت (٣٣٢٨)][1]. وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا؛ فَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ بـ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾» [صحيح سنن الترمذي (٤١٧)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ تَعْدِلُ رُبُعَ القُرآنِ» [السلسلة الصحيحة (٥٨٦)][2].

وَعَنْ نَوْفَلِ بنِ فَرْوَةَ الأَشْجَعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَمَجِيءُ مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: جِئْتُ لِتُعَلِّمَنِي شَيْئًا أَقُولُهُ عِنْدَ مَنَامِي. قَالَ: اقْرَأْ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ» [صحيح الموارد (٢٠٠٥)]. وَفِي لَفْظٍ: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ مِنَ اللَّيْلِ فَاقْرَأْ...» [صحيح الجامع (٢٩٢)].

وَعَنْ خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَرَأَ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ حَتَّى يَخْتِمَهَا» [صحيح الجامع (٤٦٤٨)].

---

(١) وَعَنْ عَبْدِالله بنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا أُحْصِي مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ بـ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾» [صحيح سنن الترمذي (٤٣١)].

(٢) وَعَنْ عَبْدِالرحمنِ بنِ أَبْزَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الوِتْرِ بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ يَقُولُ إِذَا سَلَّمَ: سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثَلاثًا-، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالثَّالِثَةِ» [صحيح سنن النسائي (١٧٣٢)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ البَرَاءَةِ مِنَ العَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ المُشْرِكُونَ، وَهِيَ آمِرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ شَمِلَ كُلَّ كَافِرٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ المُوَاجَهِينَ بِهَذَا الخِطَابِ هُمْ كفارُ قُرَيْشٍ.

وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ سَنَةً، وَيَعْبُدُونَ مَعْبُودَهُ سَنَةً، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ فِيهَا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِهِمْ بِالكُلِّيَّةِ، فَقَالَ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ يَعْنِي: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؛ وَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. فَـ (مَا) هَاهُنَا بِمَعْنَى (مَنْ).

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾؛ أَيْ: وَلَا أَعْبُدُ عِبَادَتَكُمْ، أَيْ: لَا أَسْلُكُهَا وَلَا أَقْتَدِي بِهَا، وَإِنَّمَا أَعْبُدُ اللهَ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؛ أَيْ: لَا تَقْتَدُونَ بِأَوَامِرِ اللهِ وَشَرْعِهِ فِي عِبَادَتِهِ، بَلْ قَدِ اخْتَرَعْتُمْ شَيْئًا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي جَمِيعِ مَا هُمْ فِيهِ، فَإِنَّ العَابِدَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْبُودٍ يَعْبُدُهُ، وَعِبَادَةٍ يَسْلُكُهَا إِلَيْهِ، فَالرَّسُولُ وَأَتْبَاعُهُ يَعْبُدُونَ اللهَ بِمَا شَرَعَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ).

أَيْ: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، وَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَالمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ عِبَادَةً لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

وَقَالَ البُخَارِيُّ: يُقَالُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكُفْرُ، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الْإِسْلَامُ.

وَلَمْ يَقُلْ: (دِينِي) لِأَنَّ الْآيَاتِ بِالنُّونِ، فَحذفَ اليَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وَ﴿يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الْآنَ، وَلَا أُجِيبُكُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِي، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

وَنَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦-٧]، وَحَكَاهُ بَعْضُهُمْ -كَابْنِ الجَوْزِيِّ، وَغَيْرِهِ- عَنِ ابْنِ قُتَيْبَةَ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَوَّلُهَا: مَا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا.

الثَّانِي: مَا حَكَاهُ البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ المُرَادَ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فِي المَاضِي، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فِي المُسْتَقْبَلِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ ذَلِكَ تَأْكِيدٌ مَحْضٌ.

وَثَمَّ قَوْلٌ رَابِعٌ، نَصَرَهُ أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ، وَهُوَ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نَفْيُ الفِعْلِ؛ لِأَنَّهَا جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ نَفْيُ قَبُولِهِ لِذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ بِالجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ آكَدُ فَكَأَنَّهُ نَفَى الفِعْلَ وَكَوْنَهُ قَابِلًا لِذَلِكَ.

وَمَعْنَاهُ: نَفْيُ الوُقُوعِ وَنَفْيُ الْإِمْكَانِ الشَّرْعِيِّ أَيْضًا. وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ أَيْضًا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِاللهِ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ عَلَى أَنَّ الكُفْرَ كُلَّهُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ فَوَرَّثَ اليَهُودُ مِنَ النَّصَارَى، وَبِالعَكْسِ؛ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نَسَبٌ أَوْ سَبَبٌ يُتَوَارَثُ بِهِ؛ لِأَنَّ الْأَدْيَانَ -مَا عَدَا الْإِسْلَامِ- كُلَّهَا كَالشَّيْءِ الوَاحِدِ فِي البُطْلَانِ.

وَذَهَبَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَمَنْ وَافَقَهُ إِلَى عَدَمِ تَوْرِيثِ النَّصَارَى مِنَ اليَهُودِ وَبِالعَكْسِ؛ لِحَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى**» [إرواء الغليل (١٧١٩)].

تفسير سورة النصر
(مدنية)

عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: «تَعْلَمُ -وَفِي رِوَايَة: تَدْرِي- آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ القُرْآنِ نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾. قَالَ: صَدَقْتَ» [مسلم (٣٠٢٤)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ دَعَا رَسولُ اللهِ ﷺ فَاطِمَةَ، قَالَ: نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، فَبَكَتْ، قَالَ: لا تَبْكِي؛ فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لاحِقٌ بِي، فَضَحِكَتْ، فَرَآهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيْتِ ثُمَّ ضَحِكْتِ! قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيهِ نَفْسُهُ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: لا تَبْكِي؛ فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لاحِقٌ بِي، فَضَحِكْتُ، وَ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وَجَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ؛ هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَالإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ» [هداية الرواة (٥٩١٥)][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

رَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْياخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذا مَعَنا وَلَنَا أَبْناءٌ مِثْلُهُ؟! فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّه مَن قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ

(١) وَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنَّ أَزْوَاجُ النبيِّ ﷺ عِنْدَهُ، لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ واحِدَةً، فأَقْبَلَتْ فاطِمَةُ تَمْشِي، ما تُخْطِئُ مِشْيَتُها مِن مِشْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا، فَلَمَّا رَآها رَحَّبَ بها، فَقالَ: مَرْحَبًا بابْنَتِي. ثُمَّ أَجْلَسَها عَن يَمِينِهِ، أَوْ عَن شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأى جَزَعَها سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلتُ لَهَا: خَصَّكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن بَيْنِ نِسائِهِ بالسِّرارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، سَأَلْتُهَا مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: ما كُنْتُ أُفْشِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرَّهُ، قالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكِ، بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الحَقِّ، لَمَا حَدَّثْتِنِي مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقالَتْ: أَمَّا الآنَ، فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي المَرَّةِ الأُولى، فأَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعارِضُهُ القُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّه عَارَضَهُ الآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لا أُرَى الأَجَلَ إِلا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنا لَكِ. قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكائِي الذي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ فَقالَ: يَا فاطِمَةُ! أَمَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِساءِ المُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِساءِ هذِهِ الأُمَّةِ! قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الذي رَأَيْتِ» [مسلم (٢٤٥٠)].

يَومٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّه دَعَانِي يَومَئِذٍ إلا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فَقالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ ونَسْتَغْفِرَهُ إذا نُصِرْنا وفُتِحَ عَلَيْنا، وسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقالَ لِي: أَكَذاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟

قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إلا مَا تَقُولُ» [البخاري (٤٩٧٠)].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى خَتَمَهَا، وقَالَ: **النَّاسُ حَيِّزٌ، وَأَنَا وَأَصْحَابِي حَيِّزٌ**. وَقَالَ: **لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**. فَقَالَ لَهُ مَرْوان: كَذَبْتَ -وَعِنْدَهُ رَافِعُ بْنُ خَدِيج وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ قَاعِدَانِ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ- فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لَوْ شَاءَ هَذَانِ لَحَدَّثَاكَ، وَلَكِنَّ هَذَا يَخَافُ أَنْ تَنْزِعَهُ عَنْ عِرَافَةِ قَوْمِهِ وَهَذَا يَخْشَى أَنْ تَنْزِعَهُ عَنِ الصَّدَقَةِ فَسَكَتا. فَرَفَعَ مَرْوَانُ عَلَيْهِ الدِّرَّةَ لِيَضْرِبَهُ، فَلَمَّا رَأَيَا ذَلِكَ قَالَا: صَدَقَ» [إرواء الغليل، تحت (١١٨٧)].

وَهَذَا الَّذِي أَنْكَرَهُ مَرْوَانُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ لَيْسَ بِمُنْكَرٍ، فَقَدْ ثَبَتَ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ الفَتْحِ: «**لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ؛ ولَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانْفِرُوا**» [البخاري (٢٨٢٥)، مسلم (١٨٦٤)].

فَالَّذِي فَسَّرَ بِهِ بَعْضُ الصَّحَابَةِ مِنْ جُلَسَاءِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَمَرَنَا إِذَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْنَا المَدَائِنَ وَالحُصُونَ أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَشْكُرَهُ وَنُسَبِّحَهُ -**يَعْنِي**: نُصَلِّي لَهُ وَنَسْتَغْفِرهُ- مَعْنى مَلِيحٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ ثَبَتَ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَقْتَ الضُّحَى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ، فَقَالَ قَائِلُونَ: هِيَ صَلَاةُ الضُّحَى. وَأُجِيبُوا بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُوَاظِبُ عَلَيْهَا، فَكَيْفَ صَلَّاهَا ذَلِكَ اليَوْمَ وَقَدْ كَانَ مُسَافِرًا لَمْ يَنْوِ الْإِقَامَةَ بِمَكَّةَ؟ وَلِهَذَا أَقَامَ فِيهَا إِلَى آخِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ قَرِيبًا مِنْ تِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا يَقْصُرُ الصَّلَاةَ وَيُفْطِرُ هُوَ وَجَمِيعُ الجَيْشِ، وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ عَشَرَةِ آلَافٍ.

قَالَ هَؤُلَاءِ: وَإِنَّمَا كَانَتْ صَلَاةُ الفَتْحِ، قَالُوا: فَيُسْتَحَبُّ لِأَمِيرِ الجَيْشِ إِذَا فَتَحَ بَلَدًا أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ أَوَّلَ مَا يَدْخُلُه ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ.

وَهَكَذَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَوْمَ فَتَحَ المَدَائِنَ. ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: يُصَلِّيهَا كُلَّهَا بِتَسْلِيمَةٍ وَاحِدَةٍ. وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ يُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ(١).

وَأَمَّا مَا فَسَّرَ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ: نُعِي فِيهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ نَفْسُهُ الكَرِيمَة، وأُعْلِمَ: أَنَّكَ إِذَا فَتَحْتَ مَكَّةَ -وَهِيَ قَرْيَتُكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ- وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَقَدْ فَرَغَ شُغْلُنَا بِكَ فِي الدُّنْيَا، فَتَهَيَّأْ لِلْقُدُومِ عَلَيْنَا وَالوُفُودِ إِلَيْنَا، فَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ: نُعِيَت لِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ قَطُّ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ،

---

(١) عَنْ أُمِّ هَانِئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهُ لَمَّا كَانَ عَامُ الفَتْحِ أَتَتْ رَسولَ اللهِ ﷺ وهُو بأَعْلى مَكَّةَ، قَامَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى غُسْلِهِ، فَسَتَرَتْ عَلَيْهِ فَاطِمَةُ، ثُمَّ أَخَذَ ثَوْبَهُ فالْتَحَفَ بِهِ، ثُمَّ صَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعاتٍ سُبْحَةَ الضُّحَى» [مسلم (٣٣٦)]؛ فَائِدَة: «مَا وَقَعَ فِي مُعْظَم نُسَخ صَحِيح مُسْلم بِلَفْظ (ثَمَانَ رَكَعات) خِلافُ الصَّوَاب، فَالصَّوَاب مَا وَقَعَ فِي نُسْخَةِ (شَرْحِ الأَبِيِّ) بِلَفْظ: (ثَمَانِيَ رَكَعَات) بِإِثْبَاتِ اليَاءِ، فَتَنبَّه، وَلا تَكُنْ مِن الغَافِلِين، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَم. وَقَوْلُهَا: (سُبْحَةَ الضُّحَى)؛ هِيَ النَّافِلَة، سُمِّيَتْ بِذلِكَ للتَّسْبِيحِ الذي فِيها. وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (هَذَا اللَّفْظُ فِيهِ فَائِدَةٌ لَطِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّ صَلَاةَ الضُّحَى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ وَمَوْضِعُ الدَّلَالَةِ كَوْنُهَا قَالَتْ: "سُبْحَةَ الضُّحَى" وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ هَذَا سُنَّةٌ مُقَرَّرَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَصَلَّاهَا بِنِيَّةِ الضُّحَى، بِخِلَافِ الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: "صَلَّى ثَمَانِ رَكَعَاتٍ وَذَلِكَ ضُحًى" فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ خِلَافَ الصَّوَابِ، فَيَقُولُ: لَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الضُّحَى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ! وَيَزْعُمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي هَذَا الوَقْتِ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ بِسَبَبِ فَتْحِ مَكَّةَ، لَا لِكَوْنِهَا الضُّحَى، فَهَذَا الخَيَالُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ هَذَا القَائِلُ فِي هَذا اللَّفْظِ لايَتَأَتَّى لَهُ فِي قَوْلِهَا: "سُبْحَةَ الضُّحَى"، وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا يَحْتَجُّونَ بِهَذَا الحَدِيثِ عَلَى إِثْبَاتِ الضُّحَى ثَمَانِي رَكَعاتٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ). وَهو تَحْقِيقٌ نَفِيسٌ. الفَوَائِد: ٨ - (وَمِنْهَا): اسْتِحْبَابُ صَلاة الضُّحَى، وَقَدْ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي صَلاتِهِ ﷺ يَوْمَ الفَتْحِ، هَلْ هِيَ الشُّكْرُ للفَتْحِ، أَمْ هِيَ صَلاةُ الضُّحَى؟ فَمِنْهُم مَن قَالَ: إِنَّهَا صَلاةُ الفَتْحِ، وَمِنْهُم مَن قَالَ: إِنَّهَا صَلاةُ الضُّحَى، وَالصَّحِيحُ أَنها صَلاةُ الضُّحَى؛ لِقَوْلِ أُمِّ هَانِئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي هَذِهِ الرِّوَايَة: (سُبْحَةَ الضُّحَى). وَرَوَى ابْنُ عَبدِ البَرِّ فِي (التَّمْهِيد) عَنْ أُمِّ هَانِئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعاتٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: صَلاةُ الضُّحَى)، فَهَذِهِ أَصْرَحُ فِي أَنَّ تِلْكَ الصَّلاةَ كَانَتْ صَلاة الضُّحَى. ٩ - (وَمِنْهَا): أَنَّ صَلاةَ الضُّحَى تَكُونُ ثَمَانِيَ رَكَعاتٍ، وَالمُسْتَحَبُّ فِيهَا أَنْ يُسَلِّمَ مِن كُلِّ رَكْعَتَيْن، لِمَا أَخْرَجَهُ أَبو دَاود فِي (سُنَنِه) عَنْ أُمِّ هَانِئ بنت أَبِي طَالِب: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ يَوْمَ الفَتْحِ صَلَّى سُبْحَةَ الضُّحَى ثَمَانِيَ رَكَعاتٍ، يُسَلِّم مِن كُلِّ رَكْعَتَيْن)، لَكِن فِي إِسْنَادِهِ عِياض بن عَبد اللهِ، لَكِن يُؤَيِّدُهُ حَدِيث: (صَلاةُ اللَّيلِ والنَّهارِ مَثنى مَثنى)، وَهوَ وَإِنْ اخْتُلِفَ فِيهِ إِلا أَنَّ الأَرْجَحَ أَنَّهُ صَحِيح، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّواب، وإِليهِ المَرْجِعُ وَالمَآب» [الإتيوبي، البحر المحيط الثجاج، بتصرُّف].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ: **جَاءَ الفَتْحُ، وَجَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَجَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا أَهْلُ الْيَمَنِ؟ قَالَ: قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهم، لَيِّنَةٌ قُلُوبُهم، الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالفِقْهُ يَمَانٍ**»

[السلسلة الصحيحة، تحت (٣٣٦٩)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وسُجُودِهِ: **سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ**» [البخاري (٤٩٦٨)، مسلم (٤٨٤)].

وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ مِن قَوْلِ: **سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إلَيْهِ**. قَالَتْ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِن قَوْلِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إلَيْهِ؟ فَقالَ: **خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرى عَلامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذا رَأَيْتُها أَكْثَرْتُ مِن قَوْلِ: (سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إلَيْهِ)، فقَدْ رَأَيْتُها؛ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾**» [مسلم (٤٨٤)].

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ أَن يَمُوتَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: **(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتوبُ إِلَيْكَ)**. قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرَاكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتوبُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أُمِرْتُ بِأَمْرٍ، فَقَرَأَ: **﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾**»

[السلسلة الصحيحة، تحت (٣١٥٧)].

وَقَدْ كَتَبْنَا حَدِيثَ كَفَّارَةِ المَجْلِسِ مِنْ جَمِيعِ طُرُقِهِ وَأَلْفَاظِهِ فِي جُزْءٍ مُفْرَدٍ، فَيُكْتَبُ هَاهُنَا[1].

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ) إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**» [صحيح سنن الترمذي (٣٤٣٣)]. وَعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ بِأَخَرَةٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ المَجْلِسِ: **(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)** فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى؟ قَالَ: **كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي المَجْلِسِ**» [صحيح سنن أبي داود (٤٨٥٩)]. وَعَن ابنِ مَسْعُودٍ وابنِ عَمْرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**كَفَّارَةُ المَجْلِسِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: (سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)**» [صحيح الجامع (٤٤٨٧)]. وَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا، أَوْ صَلَّى صَلاةً تَكَلَّمَ بِكَلِماتٍ، فَسَأَلَتْهُ عَائِشَةُ عَنِ الكَلِماتِ؟ فَقَالَ: إِنْ تَكَلَّمَ بِخَيْرٍ، كَانَ طَابِعًا عَلَيْهِن إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ: **(سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)**» [السلسلة الصحيحة (٣١٦٤)].

وَعَنْ عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ**﴾ كَانَ يُكثِرُ إِذَا قَرَأَهَا وَرَكَعَ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ -ثلاثًا-» [السلسلة الصحيحة، تحت (٢٠٨٤)].

وَالمُرَادُ بِالفَتْحِ هَاهُنَا: فَتْحُ مَكَّةَ قَوْلًا وَاحِدًا، فَإِنَّ أَحْيَاءَ العَرَبِ كَانَتْ تَتَلَوَّم بِإِسْلَامِهَا فَتْحَ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنْ ظَهَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَهُوَ نَبِيٌّ. فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَلَمْ تَمْضِ سَنَتَانِ حَتَّى اسْتَوْسَقَتْ جَزِيرَةُ العَرَبِ إِيمَانًا، وَلَمْ يَبْقَ فِي سَائِرِ قَبَائِلِ العَرَبِ إِلَّا مُظْهِرٌ لِلْإِسْلَامِ، وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ: أَلَا تَلْقَاهُ فَتَسْأَلَهُ؟ قَالَ: فَلَقِيتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنا الرُّكْبانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ؟! مَا لِلنَّاسِ؟! ما هَذا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ -أَوْ: أَوْحَى اللهُ- بِكَذا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الكَلَامَ، وَكَأَنَّما يُغْرَى فِي صَدْرِي، وَكانَتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهِم الفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فهو نَبِيٌّ صَادِقٌ. فَلَمَّا كانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قالَ: جِئْتُكُمْ واللهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا. فَقَالَ: **صَلُّوا صَلَاةَ** كَذا **فِي حِينِ** كَذا، **وَصَلُّوا صَلَاةَ** كَذا **فِي حِينِ** كَذا، **فَإِذا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا**. فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي؛ لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصَتْ عَنِّي، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الحَيِّ: أَلَا تُغَطُّوا عَنَّا اسْتَ قَارِئِكُمْ؟! فاشْتَرَوْا فَقَطَعُوا لِي قَمِيصًا، فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ القَمِيصِ» [البخاري (٤٣٠٢)].

وَقَدْ حَرَّرْنَا غَزْوَةَ الفَتْحِ فِي كِتَابِنَا: السِّيرَة[1]، فَمَنْ أَرَادَ فَلْيُرَاجِعْهُ هُنَاكَ، وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

❁ ❁ ❁

(١) كتاب: الفصول في سيرة الرسول ﷺ.

غَزْوَةُ الفَتْحِ الأَعْظَمِ وَكَانَتْ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ

«وَقَدْ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر].

وَكَانَ سَبَبُ الفَتْحِ بَعْدَ هُدْنَةِ الحُدَيْبِيَةِ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ جَمِيعًا قَالَا: كَانَ فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ، فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ وَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ. وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ وَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ.

فَمَكَثُوا فِي تِلْكَ الهُدْنَةِ نَحْوَ السَّبْعَةِ أَوِ الثَّمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ إِنَّ بَنِي بَكْرٍ وَثَبُوا عَلَى خُزَاعَةَ لَيْلًا، بِمَاءٍ يُقَالُ لَهُ: الوَتِيرُ. وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدٌ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ. فَأَعَانُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ، وَقَاتَلُوهُمْ مَعَهُمْ، لِلضَّغْنِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ رَكِبَ عِنْدَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ خُزَاعَةَ وَبَنِي بَكْرٍ بِالوَتِيرِ، حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُ الخَبَرَ، وَقَدْ قَالَ أَبْيَاتَ شِعْرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْشَدَهُ إِيَّاهَا:

لَاهُمَّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا ... حِلْفَ أَبِيهِ وَأَبِينَا الْأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُمُ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ رَسُولَ اللهِ نَصْرًا أَعْتَدَا ... وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا ... إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا ... إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ المَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُؤَكَّدَا ... وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رُصَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا ... فَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالوَتِيرِ هُجَّدَا ... وَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ. فَمَا بَرِحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى مَرَّتْ بِنَا عَنَانَةٌ فِي

السَّمَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ. وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِالجِهَازِ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبَرَهُ، حَتَّى يَبْغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ السَّبَبُ الَّذِي هَاجَهُمْ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي الحَضْرَمِيِّ، اسْمُهُ مَالِكُ بْنُ عَبَّادٍ، مِنْ حُلَفَاءِ الْأَسْوَدِ بْنِ رَزْنٍ خَرَجَ تَاجِرًا، فَلَمَّا تَوَسَّطَ أَرْضَ خُزَاعَةَ، عَدَوْا عَلَيْهِ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا مَالَهُ، فَعَدَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي خُزَاعَةَ فَقَتَلُوهُ، فَعَدَتْ خُزَاعَةُ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ عَلَى بَنِي الْأَسْوَدِ بْنِ رَزْنٍ الدُّئَلِيِّ -وَهُمْ مَنْخَرُ بَنِي كِنَانَةَ وَأَشْرَافُهُمْ، سَلْمَى وَكُلْثُومٌ وَذُؤَيْبٌ- فَقَتَلُوهُمْ بِعَرَفَةَ عِنْدَ أَنْصَابِ الحَرَمِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الدُّئَلِ قَالَ: كَانَ بَنُو الْأَسْوَدِ بْنِ رَزْنٍ يُودَوْنَ فِي الجَاهِلِيَّةِ دِيَتَيْنِ دِيَتَيْنِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَبَيْنَا بَنُو بَكْرٍ وَخُزَاعَةُ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ حَجَزَ بَيْنَهُمُ الْإِسْلَامُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وَدَخَلَ بَنُو بَكْرٍ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ، وَدَخَلَتْ خُزَاعَةُ فِي عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتِ الهُدْنَةُ، اغْتَنَمَهَا بَنُو الدُّئَلِ مِنْ بَنِي بَكْرٍ، وَأَرَادُوا أَنْ يُصِيبُوا مِنْ خُزَاعَةَ ثَأْرًا بِأُولَئِكَ النَّفَرِ، فَخَرَجَ نَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدُّئَلِيُّ فِي قَوْمِهِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُهُمْ وَقَائِدُهُمْ، وَلَيْسَ كُلُّ بَنِي بَكْرٍ تَابَعَهُ، فَبَيَّتَ خُزَاعَةَ وَهُمْ عَلَى الوَتِيرِ -مَاءٍ لَهُمْ- فَأَصَابُوا رَجُلًا مِنْهُمْ، وَتَحَاوَزُوا، وَاقْتَتَلُوا، وَرَفَدَتْ قُرَيْشٌ بَنِي بَكْرٍ بِالسِّلَاحِ، وَقَاتَلَ مَعَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ قَاتَلَ بِاللَّيْلِ مُسْتَخْفِيًا، حَتَّى حَازُوا خُزَاعَةَ إِلَى الْحَرَمِ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِ، قَالَتْ بَنُو بَكْرٍ: يَا نَوْفَلُ، إِنَّا قَدْ دَخَلْنَا الحَرَمَ! إِلَهَكَ إِلَهَكَ.

فَقَالَ كَلِمَةً عَظِيمَةً: لَا إِلَهَ اليَوْمَ، يَا بَنِي بَكْرٍ أَصِيبُوا ثَأْرَكُمْ، فَلَعَمْرِي إِنَّكُمْ لَتَسْرِقُونَ فِي الحَرَمِ، أَفَلَا تُصِيبُونَ ثَأْرَكُمْ فِيهِ؟! وَلَجَأَتْ خُزَاعَةُ إِلَى دَارِ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ بِمَكَّةَ، وَإِلَى دَارِ مَوْلًى لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: رَافِعٌ. وَقَدْ قَالَ الْأَخْزَرُ بْنُ لُعْطٍ الدُّئَلِيُّ فِي ذَلِكَ:

أَلَا هَلْ أَتَى قُصْوَى الْأَحَابِيشِ أَنَّنَا ... رَدَدْنَا بَنِي كَعْبٍ بِأَفْوَقَ نَاصِلِ
حَبَسْنَاهُمُ فِي دَارَةِ العَبْدِ رَافِعٍ ... وَعِنْدَ بُدَيْلٍ مَحْبِسًا غَيْرَ طَائِلِ
بِدَارِ الذَّلِيلِ الْآخِذِ الضَّيْمَ بَعْدَمَا ... شَفَيْنَا النُّفُوسَ مِنْهُمُ بِالمَنَاصِلِ
حَبَسْنَاهُمُ حَتَّى إِذَا طَالَ يَوْمُهُمْ ... نَفَحْنَا لَهُمْ مِنْ كُلِّ شِعْبٍ بِوَابِلِ
نُذَبِّحُهُمْ ذَبْحَ التُّيُوسِ كَأَنَّنَا ... أُسُودٌ تَبَارَى فِيهِمُ بِالقَوَاصِلِ
هُمُ ظَلَمُونَا وَاعْتَدَوْا فِي مَسِيرِهِمْ ... وَكَانُوا لَدَى الْأَنْصَابِ أَوَّلَ قَاتِلِ
كَأَنَّهُمُ بِالجِزْعِ إِذْ يَطْرُدُونَهُمْ ... قَفَا ثَوْرَ حَفَّانُ النَّعَامِ الجَوَافِلِ

قَالَ: فَأَجَابَهُ بُدَيْلُ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ سَلَمَةَ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: بُدَيْلُ بْنُ أُمِّ أَصْرَمَ، فَقَالَ:

تَعَاقَدَ قَوْمٌ يَفْخَرُونَ وَلَمْ نَدَعْ ... لَهُمْ سَيِّدًا يَنْدُوهُمُ غَيْرَ نَافِلِ
أَمِنْ خِيفَةِ القَوْمِ الأُلَى تَزْدَرِيهِمُ ... تُجِيزُ الوَتِيرَ خَائِفًا غَيْرَ آيِلِ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَحْنُ نَحْبُو حِبَاءَنَا ... لِعَقْلٍ وَلَا يُحْبَى لَنَا فِي المَعَاقِلِ
وَنَحْنُ صَبَحْنَا بِالتَّلَاعَةِ دَارَكُمْ ... بِأَسْيَافِنَا يَسْبِقْنَ لَوْمَ العَوَاذِلِ
وَنَحْنُ مَنَعْنَا بَيْنَ بِيضٍ وَعَتْوَدٍ ... إِلَى خِيفِ رَضْوَى مِنْ مَجَرِّ القَنَابِلِ
وَيَوْمَ الغَمِيمِ قَدْ تَكَفَّتَ سَاعِيًا ... عُبَيْسٌ فَجَعْنَاهُ بِجَلْدٍ حُلَاحِلِ
أَأَنْ أَجْمَرَتْ فِي بَيْتِهَا أُمُّ بَعْضِكُمْ ... بِجُعْمُوسِهَا تَنْزُونَ إِنْ لَمْ نُقَاتِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ مَا إِنْ قَتَلْتُمُ ... وَلَكِنْ تَرَكْنَا أَمْرَكُمْ فِي بَلَابِلِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: كَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ يَشُدُّ فِي العَقْدِ وَيَزِيدُ فِي المُدَّةِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ خَرَجَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا أُصِيبَ مِنْهُمْ، وَمُظَاهَرَةِ قُرَيْشٍ بَنِي بَكْرٍ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ، حَتَّى لَقُوا أَبَا سُفْيَانَ بِعُسْفَانَ، قَدْ بَعَثَتْهُ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَشُدُّ العَقْدَ، وَيَزِيدُ فِي المُدَّةِ، وَقَدْ رَهِبُوا لِلَّذِي صَنَعُوا، فَلَمَّا لَقِيَ أَبُو سُفْيَانَ بُدَيْلًا قَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا بُدَيْلُ؟ - وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ-، فَقَالَ: سِرْتُ فِي خُزَاعَةَ فِي هَذَا السَّاحِلِ وَفِي بَطْنِ هَذَا الوَادِي.

قَالَ: فَعَمَدَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَبْرَكِ رَاحِلَتِهِ فَأَخَذَ مِنْ بَعْرِهَا فَفَتَّهُ، فَرَأَى فِيهِ النَّوَى، فَقَالَ: أَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جَاءَ بُدَيْلٌ مُحَمَّدًا. ثُمَّ خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَوَتْهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، مَا أَدْرِي أَرَغِبْتِ بِي عَنْ هَذَا الفِرَاشِ أَوْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟ فَقَالَتْ: هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِهِ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَكِ بَعْدِي شَرٌّ. ثُمَّ خَرَجَ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا [ضعيف، الألباني، انظر: فقه السيرة (٣٧٣)]، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَكَلَّمَهُ أَنْ يُكَلِّمَ لَهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. ثُمَّ أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟! فَوَاللهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ لَكُمْ إِلَّا الذَّرَّ لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ. ثُمَّ خَرَجَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعِنْدَهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهَا حَسَنٌ، غُلَامٌ يَدِبُّ بَيْنَ يَدَيْهِمَا، فَقَالَ: يَا

عَلِيُّ، إِنَّكَ أَمَسُّ القَوْمِ بِي رَحِمًا، وَأَقْرَبَهُمْ مِنِّي قَرَابَةً، وَقَدْ جِئْتُ فِي حَاجَةٍ، فَلَا أَرْجِعَنَّ كَمَا جِئْتُ خَائِبًا، فَاشْفَعْ لِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ: وَيْحَكَ أَبَا سُفْيَانَ! وَاللهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ. فَالتَفَتَ إِلَى فَاطِمَةَ فَقَالَ: يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ، هَلْ لَكِ أَنْ تَأْمُرِي بُنَيَّكِ هَذَا فَيُجِيرُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَكُونُ سَيِّدَ العَرَبِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ؟ فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا بَلَغَ بُنَيَّ ذَلِكَ أَنْ يُجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَا يُجِيرُ أَحَدٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَبَا الحَسَنِ إِنِّي أَرَى الْأُمُورَ قَدِ اشْتَدَّتْ عَلَيَّ، فَانْصَحْنِي؟ قَالَ: وَاللهِ مَا أَعْلَمُ شَيْئًا يُغْنِي عَنْكَ، وَلَكِنَّكَ سَيِّدُ بَنِي كِنَانَةَ، فَقُمْ فَأَجِرْ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ الحَقْ بِأَرْضِكَ. فَقَالَ: أَوَ تَرَى ذَلِكَ مُغْنِيًا عَنِّي شَيْئًا؟ قَالَ: لَا وَاللهِ مَا أَظُنُّ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ لَكَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ.

ثُمَّ رَكِبَ بَعِيرَهُ فَانْطَلَقَ، فَلَمَّا أَنْ قَدِمَ عَلَى قُرَيْشٍ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: جِئْتُ مُحَمَّدًا فَكَلَّمْتُهُ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ جِئْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ، فَوَاللهِ مَا وَجَدْتُ فِيهِ خَيْرًا، ثُمَّ جِئْتُ عُمَرَ فَوَجَدْتُهُ أَعْدَى العَدُوِّ، ثُمَّ جِئْتُ عَلِيًّا فَوَجَدْتُهُ أَلْيَنَ القَوْمِ، وَقَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِأَمْرٍ صَنَعْتُهُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي هَلْ يُغْنِي عَنَّا شَيْئًا أَمْ لَا؟ قَالُوا: بِمَاذَا أَمَرَكَ؟ قَالَ: أَمَرَنِي أَنْ أُجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ فَفَعَلْتُ. قَالُوا: هَلْ أَجَازَ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: لَا. قَالُوا: وَيْحَكَ! مَا زَادَكَ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ لَعِبَ بِكَ، فَمَا يُغْنِي عَنَّا مَا قُلْتَ. فَقَالَ: لَا وَاللهِ مَا وَجَدْتُ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَقَدْ رَوَى البَيْهَقِيُّ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَتْ بَنُو كَعْبٍ:

لَاهُمَّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا

فَانْصُرْ رَسُولَ اللهِ نَصْرًا أَعْتَدَا ... وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا

وَقَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ: ثُمَّ إِنَّ بَنِي نُفَاثَةَ مِنْ بَنِي الدُّئِلِ أَغَارُوا عَلَى بَنِي كَعْبٍ، وَهُمْ فِي المُدَّةِ الَّتِي بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، وَكَانَتْ بَنُو كَعْبٍ فِي صُلْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ بَنُو نُفَاثَةَ فِي صُلْحِ قُرَيْشٍ، فَأَعَانَتْ بَنُو بَكْرٍ بَنِي نُفَاثَةَ، وَأَعَانَتْهُمْ قُرَيْشٌ بِالسِّلَاحِ وَالرَّقِيقِ، وَاعْتَزَلَتْهُمْ بَنُو مُدْلِجٍ، وَوَفَوْا بِالعَهْدِ الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا عَلَيْهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَفِي بَنِي الدُّئِلِ رَجُلَانِ هُمَا سَيِّدَاهُمْ، سَلْمُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَكُلْثُومُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ مِمَّنْ أَعَانَهُمْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ عُثْمَانَ، وَسُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، فَأَغَارَتْ بَنُو الدُّئِلِ عَلَى بَنِي عَمْرٍو، وَعَامَّتُهُمْ -زَعَمُوا- نِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ

وَضُعَفَاءُ الرِّجَالِ فَأَلْجَئُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ إِلَى دَارِ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ بِمَكَّةَ، فَخَرَجَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ حَتَّى أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ الَّذِي أَصَابَهُمْ، وَمَا كَانَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ارْجِعُوا فَتَفَرَّقُوا فِي الْبُلْدَانِ. وَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَخَوَّفَ الَّذِي كَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اشْدُدِ العَقْدَ، وَزِدْنَا فِي الْمُدَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَلِذَلِكَ قَدِمْتَ؟ هَلْ كَانَ مِنْ حَدَثٍ قِبَلَكُمْ؟ فَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ، نَحْنُ عَلَى عَهْدِنَا وَصُلْحِنَا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، لَا نُغَيِّرُ وَلَا نُبَدِّلُ.

فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: جَدِّدِ العَقْدَ، وَزِدْنَا فِي المُدَّةِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: جِوَارِي فِي جِوَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُ الذَّرَّ تُقَاتِلُكُمْ لَأَعَنْتُهَا عَلَيْكُمْ. ثُمَّ خَرَجَ فَأَتَى عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا كَانَ مِنْ حِلْفِنَا جَدِيدًا فَأَخْلَقَهُ اللهُ، وَمَا كَانَ مِنْهُ مَتِينًا فَقَطَعَهُ اللهُ، وَمَا كَانَ مِنْهُ مَقْطُوعًا فَلَا وَصَلَهُ اللهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: جُزِيتَ مِنْ ذِي رَحِمٍ شَرًّا. ثُمَّ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ فَكَلَّمَهُ، فَقَالَ عُثْمَانُ: جِوَارِي فِي جِوَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. ثُمَّ اتَّبَعَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ يُكَلِّمُهُمْ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ: عَقْدُنَا فِي عَقْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا يَئِسَ مِمَّا عِنْدَهُمْ، دَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ لَهَا: فَأْمُرِي أَحَدَ ابْنَيْكِ. فَقَالَتْ: إِنَّهُمَا صَبِيَّانِ، وَلَيْسَ مِثْلُهُمَا يُجِيرُ. قَالَ: فَكَلِّمِي عَلِيًّا فَقَالَتْ: أَنْتَ فَكَلِّمْهُ، فَكَلَّمَ عَلِيًّا، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْتَاتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِجِوَارٍ، وَأَنْتَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَأَكْبَرُهَا وَأَمْنَعُهَا، فَأَجِرْ بَيْنَ عَشِيرَتِكَ.

قَالَ: صَدَقْتَ، وَأَنَا كَذَلِكَ. فَخَرَجَ فَصَاحَ: أَلَا إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا وَاللهِ مَا أَظُنُّ أَنْ يُخْفِرَنِي أَحَدٌ. ثُمَّ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا وَاللهِ مَا أَظُنُّ أَنْ يُخْفِرَنِي أَحَدٌ وَلَا يَرُدَّ جِوَارِي. فَقَالَ: أَنْتَ تَقُولُ يَا أَبَا حَنْظَلَةَ؟!

فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى ذَلِكَ، فَزَعَمُوا -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ حِينَ أَدْبَرَ أَبُو سُفْيَانَ: اللَّهُمَّ خُذْ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، فَلَا يَرَوْنَا إِلَّا بَغْتَةً، وَلَا يَسْمَعُوا بِنَا إِلَّا فَجْأَةً. وَقَدِمَ أَبُو سُفْيَانَ مَكَّةَ، فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: مَا وَرَاءَكَ؟ هَلْ جِئْتَ بِكِتَابٍ مِنْ مُحَمَّدٍ أَوْ عَهْدٍ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ، لَقَدْ أَبَى

عَلَيَّ، وَقَدْ تَتَبَّعْتُ أَصْحَابَهُ، فَمَا رَأَيْتُ قَوْمًا لِمَلِكٍ عَلَيْهِمْ أَطْوَعَ مِنْهُمْ لَهُ، غَيْرَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْ قَالَ لِي: لِمَ تَلْتَمِسُ جِوَارَ النَّاسِ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَلَا تُجِيرُ أَنْتَ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِكَ، وَأَنْتَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَأَكْبَرُهَا وَأَحَقُّهَا أَنْ لَا يُخْفَرَ جِوَارُهُ؟ فَقُمْتُ بِالجِوَارِ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدٍ، فَذَكَرْتُ لَهُ أَنِّي قَدْ أَجَرْتَ بَيْنَ النَّاسِ، وَقُلْتُ: مَا أَظُنُّ أَنْ تُخْفِرَنِي. فَقَالَ: أَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا حَنْظَلَةَ؟! فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: رَضِيتَ بِغَيْرِ رِضًا، وَجِئْتَنَا بِمَا لَا يُغْنِي عَنَّا وَلَا عَنْكَ شَيْئًا، وَإِنَّمَا لَعِبَ بِكَ عَلِيٌّ، لَعَمْرُ اللهِ مَا جِوَارُكَ بِجَائِزٍ، وَإِنَّ إِخْفَارَكَ عَلَيْهِمْ لَهَيِّنٌ.

ثُمَّ دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَحَدَّثَهَا الحَدِيثَ فَقَالَتْ: قَبَّحَكَ اللهُ مِنْ وَافِدِ قَوْمٍ، فَمَا جِئْتَ بِخَيْرٍ.

قَالَ: وَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ سَحَابًا فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَ لَتَبِضُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ.

فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ بَعْدَمَا خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ، ثُمَّ أَخَذَ فِي الجِهَازِ، وَأَمَرَ عَائِشَةَ أَنْ تُجَهِّزَهُ وَتُخْفِيَ ذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى المَسْجِدِ أَوْ إِلَى بَعْضِ حَاجَاتِهِ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَائِشَةَ، فَوَجَدَ عِنْدَهَا حِنْطَةً تُنْسَفُ وَتُنَقَّى، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ، لِمَاذَا تَصْنَعِينَ هَذَا الطَّعَامَ؟ فَسَكَتَتْ، فَقَالَ: أَيُرِيدُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَغْزُوَ؟ فَصَمَتَتْ، فَقَالَ: يُرِيدُ بَنِي الْأَصْفَرِ؟ -وَهُمُ الرُّومُ- فَصَمَتَتْ قَالَ: فَلَعَلَّهُ يُرِيدُ أَهْلَ نَجْدٍ؟ فَصَمَتَتْ قَالَ: فَلَعَلَّهُ يُرِيدُ قُرَيْشًا؟ فَصَمَتَتْ قَالَ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ مَخْرَجًا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَلَعَلَّكَ تُرِيدُ بَنِي الْأَصْفَرِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَتُرِيدُ أَهْلَ نَجْدٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَلَعَلَّكَ تُرِيدُ قُرَيْشًا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مُدَّةٌ؟ قَالَ: أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا صَنَعُوا بِبَنِي كَعْبٍ؟ قَالَ: وَأَذَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ بِالغَزْوِ، وَكَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَأَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى الكِتَابِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، وَهِيَ تُغَرْبِلُ حِنْطَةً، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالجِهَازِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ فَتَجَهَّزْ، قَالَ: وَإِلَى أَيْنَ؟ قَالَتْ: مَا سَمَّى لَنَا شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ أَمَرَنَا بِالجِهَازِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ سَائِرٌ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَ بِالجِدِّ وَالتَّهَيُّؤِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ خُذِ العُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى نَبْغَتَهَا فِي بِلَادِهَا، فَتَجَهَّزَ النَّاسُ، فَقَالَ حَسَّانُ يُحَرِّضُ النَّاسَ، وَيَذْكُرُ مُصَابَ خُزَاعَةَ:

عَنَــانِي وَلَــمْ أَشْــهَدْ بِبَطْحَــاءِ مَكَّــةَ ... رِجَــالُ بَنِــي كَعْــبٍ تُحَــزُّ رِقَابُهَــا
بِأَيْــدِي رِجَــالٍ لَــمْ يَسُــلُّوا سُــيُوفَهُمْ ... وَقَتْلَــى كَثِيــرٌ لَــمْ تُجَــنَّ ثِيَابُهَــا
أَلَا لَيْــتَ شِــعْرِي هَــلْ تَنَــالَنَّ نُصْــرَتِي ... سُــهَيْلَ بْــنَ عَمْــرٍو حَرُّهَــا وَعِقَابُهَــا
وَصَــفْوَانُ عَــوْدٌ حُــزَّ مِــنْ شُــفْرِ اسْــتِهِ ... فَهَــذَا أَوَانُ الحَــرْبِ شُــدَّ عِصَــابُهَا
فَــلَا تَأْمَنَنَّــا يَــا بْــنَ أُمِّ مُجَالِــدٍ ... إِذَا احْتُلِبَــتْ صِــرْفًا وَأَعْصَــلَ نَابُهَــا
وَلَا تَجْزَعُــوا مِنَّــا فَــإِنَّ سُــيُوفَنَا ... لَهَــا وَقْعَــةٌ بِــالْمَوْتِ يُفْــتَحُ بَابُهَــا

قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَائِنَا قَالُوا: لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ، كَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ، يُخْبِرُهُمْ بِالَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَمْرِ فِي السَّيْرِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَعْطَاهُ امْرَأَةً -زَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ أَنَّهَا مِنْ مُزَيْنَةَ، وَزَعَمَ لِي غَيْرُهُ أَنَّهَا سَارَةُ، مَوْلَاةٌ لِبَعْضِ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ- وَجَعَلَ لَهَا جُعْلًا عَلَى أَنْ تُبَلِّغَهُ قُرَيْشًا، فَجَعَلَتْهُ فِي رَأْسِهَا، ثُمَّ فَتَلَتْ عَلَيْهِ قُرُونَهَا ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ، وَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ الخَبَر مِنَ السَّمَاءِ بِمَا صَنَعَ حَاطِبٌ، فَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ فَقَالَ: أَدْرِكَا امْرَأَةً قَدْ كَتَبَ مَعَهَا حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ بِكِتَابٍ إِلَى قُرَيْشٍ، يُحَذِّرُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعْنَا لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ. فَخَرَجَا حَتَّى أَدْرَكَاهَا بِالخَلِيقَةِ خَلِيقَةِ بَنِي أَبِي أَحْمَدَ، فَاسْتَنْزَلَاهَا، فَالتَمَسَاهُ فِي رَحْلِهَا فَلَمْ يَجِدَا فِيهِ شَيْئًا، فَقَالَ لَهَا عَلِيٌّ: إِنِّي أَحْلِفُ بِاللهِ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا كُذِبْنَا، وَلَتُخْرِجِنَّ لَنَا هَذَا الكِتَابَ أَوْ لَنَكْشِفَنَّكِ. فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ مِنْهُ قَالَتْ: أَعْرِضْ. فَأَعْرَضَ، فَحَلَّتْ قُرُونَ رَأْسِهَا، فَاسْتَخْرَجَتِ الكِتَابَ مِنْهَا فَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِ، فَأَتَى بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاطِبًا فَقَالَ: يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَمُؤْمِنٌ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، مَا غَيَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ، وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً لَيْسَ لِي فِي القَوْمِ مِنْ أَصْلٍ وَلَا عَشِيرَةٍ، وَكَانَ لِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَلَدٌ وَأَهْلٌ فَصَانَعْتُهُمْ عَلَيْهِمْ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي فَلْأَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ نَافَقَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ، لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ إِلَى أَصْحَابِ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي حَاطِبٍ: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ**

عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ١-٩].

هَكَذَا أَوْرَدَ ابْنُ إِسْحَاقَ هَذِهِ القِصَّةَ مُرْسَلَةً، وَقَدْ ذَكَرَ السُّهَيْلِيُّ أَنَّهُ كَانَ فِي كِتَابِ حَاطِبٍ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ يَسِيرُ كَالسَّيْلِ، وَأُقْسِمُ بِاللهِ لَوْ سَارَ إِلَيْكُمْ وَحْدَهُ لَنَصَرَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ. قَالَ: وَفِي (تَفْسِيرِ ابْنِ سَلَّامٍ) أَنَّ حَاطِبًا كَتَبَ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ نَفَرَ، فَإِمَّا إِلَيْكُمْ وَإِمَّا إِلَى غَيْرِكُمْ، فَعَلَيْكُمُ الحَذَرَ.

وَقَدْ قَالَ البُخَارِيُّ: ثَنَا قُتَيْبَةُ، ثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، أَخْبَرَنِي الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ، سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالمِقْدَادُ فَقَالَ: **انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا**. فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ. فَقَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ. قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ المُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **يَا حَاطِبُ، مَا**

هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ -يَقُولُ: كُنْتُ حَلِيفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا- وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ. فَقَالَ: **إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**. فَأَنْزَلَ اللهُ السُّورَةَ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ**﴾ [انظر: البخاري (٤٢٧٤)].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ثَنَا حُجَيْنٌ وَيُونُسُ قَالَا: حَدَّثَنَا لَيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ، أَنَّ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَرَادَ غَزْوَهُمْ، فَدُلَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى المَرْأَةِ الَّتِي مَعَهَا الكِتَابُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَأَخَذَ كِتَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا، وَقَالَ: **يَا حَاطِبُ أَفَعَلْتَ**؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَفْعَلْهُ غِشًّا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا نِفَاقًا، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ مُظْهِرٌ رَسُولَهُ، وَمُتِمٌّ لَهُ أَمْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ عَرِيرًا بَيْنَ ظَهْرَيْهِمْ، وَكَانَتْ وَالِدَتِي مَعَهُمْ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ هَذَا عِنْدَهُمْ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَلَا أَضْرِبُ رَأْسَ هَذَا؟ فَقَالَ: **أَتَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**. [انظر: صحيح الموارد (١٨٦٧)].

فَصْلٌ: مِيقَاتُ خُرُوجِ النَّبِيِّ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ لِسَفَرِهِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ أَبَا رُهْمٍ كُلْثُومَ بْنَ حُصَيْنِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ خَلَفٍ الغِفَارِيَّ، وَخَرَجَ لِعَشْرٍ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَصَامَ وَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالكَدِيدِ، بَيْنَ عُسْفَانَ وَأَمَجَ أَفْطَرَ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى نَزَلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنَ المُسْلِمِينَ -وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: كَانَ مَعَهُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا. وَكَذَا قَالَ الزُّهْرِيُّ وَمُوسَى بْنُ عُقْبَةَ-،

فَسَبَّعَتْ سُلَيْمٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: أَلَّفَتْ سُلَيْمٌ، وَأَلَّفَتْ مُزَيْنَةُ، وَفِي كُلِّ القَبَائِلِ عَدَدٌ وَإِسْلَامٌ، وَأَوْعَبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ المُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَقَالَ البُخَارِيُّ: ثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، ثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَافَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ عُسْفَانَ، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ فَشَرِبَ نَهَارًا لِيَرَاهُ النَّاسُ، فَأَفْطَرَ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ. قَالَ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: صَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي السَّفَرِ، وَأَفْطَرَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ. [انظر: البخاري (١٩٤٨)، مسلم (١١١٣)].

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: ثَنَا وُهَيْبٌ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ صَائِمًا حَتَّى أَتَى كُرَاعَ الغَمِيمِ، وَالنَّاسُ مَعَهُ مُشَاةً وَرُكْبَانًا، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ النَّاسَ قَدِ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الصَّوْمُ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ كَيْفَ فَعَلْتَ.

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ فَرَفَعَهُ، فَشَرِبَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ، فَصَامَ بَعْضُ النَّاسِ وَأَفْطَرَ البَعْضُ، حَتَّى أُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ بَعْضَهُمْ صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أُولَئِكَ العُصَاةُ**. [انظر: مسلم (١١١٤)].

فَصْلٌ فِي إِسْلَامِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيِّ أَخِي أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، وَهِجْرَتِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدُوهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: لَقِيَهُ بِالجحْفَةِ مُهَاجِرًا بِعِيَالِهِ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مُقِيمًا بِمَكَّةَ عَلَى سِقَايَتِهِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْهُ رَاضٍ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ قَدْ لَقِيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيْضًا بِنِيقِ العُقَابِ فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، وَالتَمَسَا الدُّخُولَ عَلَيْهِ، فَكَلَّمَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ فِيهِمَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ عَمِّكَ، وَابْنُ عَمَّتِكَ، وَصِهْرُكَ. قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا، أَمَّا ابْنُ عَمِّي فَهَتَكَ عِرْضِي، وَأَمَّا ابْنُ عَمَّتِي فَهُوَ الَّذِي قَالَ لِي بِمَكَّةَ مَا قَالَ.

قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِمَا الخَبَرُ بِذَلِكَ وَمَعَ أَبِي سُفْيَانَ بُنَيٌّ لَهُ، فَقَالَ: وَاللهِ لَيَأْذَنَنَّ لِي أَوْ لَآخُذَنَّ بِيَدِ بُنَيَّ هَذَا، ثُمَّ لَنَذْهَبَنَّ فِي الْأَرْضِ حَتَّى نَمُوتَ عَطَشًا وَجُوعًا.

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ رَقَّ لَهُمَا، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلَا عَلَيْهِ فَأَسْلَمَا. [انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٤١)].

وَأَنْشَدَ أَبُو سُفْيَانَ قَوْلَهُ فِي إِسْلَامِهِ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مَضَى مِنْهُ:

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً ... لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكَالْمُدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... فَهَذَا أَوَانِي حِينَ أُهْدَى وَأَهْتَدِي
هَدَانِيَ هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَنَالَنِي ... مَعَ اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ
أَصُدُّ وَأَنْأَى جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ ... وَأُدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدِ
هُمُ مَا هُمُ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَوَاهُمُ ... وَإِنْ كَانَ ذَا رَأْيٍ يُلَمْ وَيُفَنَّدِ
أُرِيدُ لِأُرْضِيهِمْ وَلَسْتُ بِلَائِطٍ ... مَعَ القَوْمِ مَا لَمْ أُهْدَ فِي كُلِّ مَقْعَدِ
فَقُلْ لِثَقِيفٍ لَا أُرِيدُ قِتَالَهَا ... وَقُلْ لِثَقِيفٍ تِلْكَ غَيْرِيَ أَوْعِدِي
فَمَا كُنْتُ فِي الجَيْشِ الَّذِي نَالَ عَامِرًا ... وَمَا كَانَ عَنْ جَرًّا لِسَانِي وَلَا يَدِي
قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ... نَزَائِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدُدِ

فَصْلٌ نُزُولُ النَّبِيِّ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ:

وَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مَرِّ الظَّهْرَانِ، نَزَلَ فِيهِ فَأَقَامَ، كَمَا رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ، عَنِ اللَّيْثِ، وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الطَّاهِرِ، عَنِ ابْنِ وَهْبٍ كِلَاهُمَا، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ نَجْتَنِي الكَبَاثَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ فَإِنَّهُ أَطْيَبُ**. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكُنْتَ تَرْعَى الغَنَمَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا؟!** [انظر: البخاري (٣٤٠٦)، مسلم (٢٠٥٠)].

وَقَالَ البَيْهَقِيُّ: عَنِ الحَاكِمِ، عَنِ الْأَصَمِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِالجَبَّارِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ، عَنْ سِنَانِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ أَبِي الوَلِيدِ سَعِيدِ بْنِ مِينَا قَالَ: لَمَّا فَرَغَ أَهْلُ مُؤْتَةَ وَرَجَعُوا، أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالمَسِيرِ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَرِّ الظَّهْرَانِ نَزَلَ بِالعقبَةِ، فَأَرْسَلَ الجُنَاةَ يَجْتَنُونَ الكَبَاثَ، فَقُلْتُ لِسَعِيدٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: ثَمَرُ الْأَرَاكِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِيمَنْ يَجْتَنِي. قَالَ: فَجَعَلَ

أَحَدُهُمْ إِذَا أَصَابَ حَبَّةً طَيِّبَةً قَذَفَهَا فِي فِيهِ، وَكَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى دِقَّةِ سَاقَيِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَرْقَى فِي الشَّجَرَةِ فَيَضْحَكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **تَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ.** [انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٩٢)].

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ مَا اجْتَنَى مِنْ شَيْءٍ جَاءَ بِهِ وَخِيَارُهُ فِيهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ:

هَـــذَا جَنَـــايَ وَخِيَـــارُهُ فِيـــهْ إِذْ كُـــلُّ جَـــانٍ يَـــدُهُ إِلَـــى فِيـــهْ

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَنَسٍ قَالَ: أَنَفَجْنَا أَرْنَبًا وَنَحْنُ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، فَسَعَى القَوْمُ فَلَغِبُوا، فَأَدْرَكْتُهَا فَأَخَذْتُهَا، فَأَتَيْتُ بِهَا أَبَا طَلْحَةَ فَذَبَحَهَا، وَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِوَرِكِهَا أَوْ فَخِذَيْهَا فَقَبِلَهُ. [انظر: البخاري (٥٥٣٥)].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ، وَقَدْ عُمِّيَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ قُرَيْشٍ، فَلَا يَأْتِيهِمْ خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا يَدْرُونَ مَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعِلٌ، وَخَرَجَ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ، يَتَحَسَّسُونَ الْأَخْبَارَ، وَيَنْظُرُونَ هَلْ يَجِدُونَ خَبَرًا أَوْ يَسْمَعُونَ بِهِ. وَذَكَرَ ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ عُيُونًا خَيْلًا يَقْتَصُّونَ العُيُونَ، وَخُزَاعَةُ لَا تَدَعُ أَحَدًا يَمْضِي وَرَاءَهَا، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ أَخَذَتْهُمْ خَيْلُ الْمُسْلِمِينَ، وَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ يَجَأُ فِي عُنُقِهِ، حَتَّى أَجَارَهُ العَبَّاسُ بْنُ عَبدِالمُطَّلِبِ، وَكَانَ صَاحِبًا لِأَبِي سُفْيَانَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ العَبَّاسُ حِينَ نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ: قُلْتُ: وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ، وَاللهِ لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ عنْوَةَ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ فَيَسْتَأْمِنُوهُ، إِنَّهُ لَهَلَاكُ قُرَيْشٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ. قَالَ: فَجَلَسْتُ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ البَيْضَاءِ، فَخَرَجْتُ عَلَيْهَا حَتَّى جِئْتُ الْأَرَاكَ، فَقُلْتُ: لَعَلِّي أَجِدُ بَعْضَ الحَطَّابَةِ، أَوْ صَاحِبَ لَبَنٍ، أَوْ ذَا حَاجَةٍ يَأْتِي مَكَّةَ فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لِيَخْرُجُوا إِلَيْهِ فَيَسْتَأْمِنُوهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِمْ عنْوَةً. قَالَ: فَوَاللهِ إِنِّي لَأَسِيرُ عَلَيْهَا وَأَلْتَمِسُ مَا خَرَجْتُ لَهُ، إِذْ سَمِعْتُ كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ وَبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ، وَأَبُو سُفْيَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ نِيرَانًا قَطُّ وَلَا عَسْكَرًا! قَالَ: يَقُولُ بُدَيْلٌ: هَذِهِ وَاللهِ خُزَاعَةُ حَمَشَتْهَا الحَرْبُ. قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ: خُزَاعَةُ أَذَلُّ وَأَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرَانُهَا وَعَسْكَرُهَا. قَالَ: فَعَرَفْتُ صَوْتَهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَنْظَلَةَ.

فَعَرِفَ صَوْتِي، فَقَالَ: أَبُو الفَضْلِ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: مَا لَكَ، فَدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ، وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ وَاللهِ. قَالَ: فَمَا الحِيلَةُ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ لَئِنْ ظَفِرَ بِكَ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، فَارْكَبْ فِي عَجُزِ هَذِهِ البَغْلَةِ حَتَّى آتِيَ بِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَسْتَأْمِنُهُ لَكَ. قَالَ: فَرَكِبَ خَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبَاهُ -وَقَالَ عُرْوَةُ: بَلْ ذَهَبَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْلَمَا، وَجَعَلَ يَسْتَخْبِرُهُمَا عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَمُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: بَلْ دَخَلُوا مَعَ العَبَّاسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ-.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ: فَجِئْتُ بِهِ كُلَّمَا مَرَرْتُ بِنَارٍ مِنْ نِيرَانِ المُسْلِمِينَ قَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَإِذَا رَأَوْا بَغْلَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَا عَلَيْهَا قَالُوا: عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. حَتَّى مَرَرْتُ بِنَارِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ وَقَامَ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَى أَبَا سُفْيَانَ عَلَى عَجُزِ الدَّابَّةِ قَالَ: أَبُو سُفْيَانَ عَدُوُّ اللهِ! الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ. وَزَعَمَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عُمَرَ وَجَأَ فِي رَقَبَةِ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَرَادَ قَتْلَهُ فَمَنَعَهُ مِنْهُ العَبَّاسُ.

وَهَكَذَا ذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ عُيُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخَذُوهُمْ بِأَزِمَّةِ جِمَالِهِمْ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: وَفْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَلَقِيَهُمُ العَبَّاسُ، فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَحَادَثَهُمْ عَامَّةَ اللَّيْلِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَشَهِدُوا، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَشَهِدَ حَكِيمٌ وَبُدَيْلٌ، وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا أَعْلَمُ ذَلِكَ. ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ الصُّبْحِ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يُؤَمِّنَ قُرَيْشًا، فَقَالَ: مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ -وَكَانَتْ بِأَعْلَى مَكَّةَ- وَمَنْ دَخَلَ دَارَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ فَهُوَ آمِنٌ -وَكَانَتْ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ- وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.

قَالَ العَبَّاسُ: ثُمَّ خَرَجَ عُمَرُ يَشْتَدُّ نَحْوَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَكَضَتِ البَغْلَةُ، فَسَبَقَتْهُ بِمَا تَسْبِقُ الدَّابَّةُ البَطِيئَةُ الرَّجُلَ البَطِيءَ، قَالَ: فَاقْتَحَمْتُ عَنِ البَغْلَةِ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ قَدْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ، فَدَعْنِي فَلْأَضْرِبْ عُنُقَهُ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ إِنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ. ثُمَّ جَلَسْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذْتُ بِرَأْسِهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا يُنَاجِيهِ اللَّيْلَةَ دُونِي رَجُلٌ. فَلَمَّا أَكْثَرَ عُمَرُ فِي شَأْنِهِ. قَالَ: قُلْتُ: مَهْلًا يَا عُمَرُ، فَوَاللهِ أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ مَا قُلْتَ هَذَا، وَلَكِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ. فَقَالَ: مَهْلًا

يَا عَبَّاسُ، فَوَاللهِ لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ**. قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي، فَبَاتَ عِنْدِي، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَوْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: **وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**؟ فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، وَاللهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِّي شَيْئًا بَعْدُ. قَالَ: **وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**؟ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، أَمَّا هَذِهِ وَاللهِ فَإِنَّ فِي النَّفْسِ مِنْهَا حَتَّى الْآنَ شَيْئًا. فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: وَيْحَكَ! أَسْلِمْ وَاشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ. قَالَ: فَشَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ فَأَسْلَمَ. قَالَ العَبَّاسُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا. قَالَ: **نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ** -زَادَ عُرْوَةُ: وَمَنْ دَخَلَ دَارَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ فَهُوَ آمِنٌ. وَهَكَذَا قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ- **وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ**. فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَنْصَرِفَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الجَبَلِ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا**.

قَالَ العَبَّاسُ: فَخَرَجْتُ بِأَبِي سُفْيَانَ حَتَّى حَبَسْتُهُ بِمَضِيقِ الوَادِي حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَحْبِسَهُ. قَالَ: وَمَرَّتِ القَبَائِلُ عَلَى رَايَاتِهَا، كُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ قَالَ: يَا عَبَّاسُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَأَقُولُ: سُلَيْمٌ. فَيَقُولُ: مَا لِي وَلِسُلَيْمٍ. ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ القَبِيلَةُ فَيَقُولُ: يَا عَبَّاسُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَأَقُولُ: مُزَيْنَةُ. فَيَقُولُ: مَا لِي وَلِمُزَيْنَةَ. حَتَّى نَفِدَتِ القَبَائِلُ، مَا تَمُرُّ بِهِ قَبِيلَةٌ إِلَّا سَأَلَنِي عَنْهَا، فَإِذَا أَخْبَرْتُهُ قَالَ: مَا لِي وَلِبَنِي فُلَانٍ.

حَتَّى مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَتِهِ الخَضْرَاءِ وَفِيهَا المُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، لَا يُرَى مِنْهُمْ إِلَّا الحَدَقُ مِنَ الحَدِيدِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! يَا عَبَّاسُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: قُلْتُ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. قَالَ: مَا لِأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ مِنْ قِبَلٍ وَلَا طَاقَةٍ، وَاللهِ يَا أَبَا الفَضْلِ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الغَدَاةَ عَظِيمًا. قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ، قَالَ: فَنِعْمَ إِذَنْ. قَالَ: قُلْتُ: النَّجَاءَ إِلَى قَوْمِكَ. حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ فِيمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ. فَقَامَتْ إِلَيْهِ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، فَأَخَذَتْ بِشَارِبِهِ فَقَالَتْ: اقْتُلُوا

الحَمِيتَ الدَّسِمَ الْأَحْمَسَ، قُبِّحَ مِنْ طَلِيعَةِ قَوْمٍ. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَيْلَكُمْ لَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ. قَالُوا: قَاتَلَكَ اللهُ، وَمَا تُغْنِي عَنَّا دَارُكَ؟ قَالَ: وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ. فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دَوْرِهِمْ وَإِلَى المَسْجِدِ. [انظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٤١)].

وَذَكَرَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا مَرَّ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ لَهُ: إِنِّي لَأَرَى وُجُوهًا كَثِيرَةً لَا أَعْرِفُهَا، لَقَدْ كَثُرَتْ هَذِهِ الوُجُوهُ عَلَيَّ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا وَقَوْمُكَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ صَدَّقُونِي إِذْ كَذَّبْتُمُونِي، وَنَصَرُونِي إِذْ أَخْرَجْتُمُونِي. ثُمَّ شَكَى إِلَيْهِ قَوْلَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ حِينَ مَرَّ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، اليَوْمُ يَوْمُ المَلْحَمَةِ، اليَوْمُ تُسْتَحَلُّ الحُرْمَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **كَذَبَ سَعْدٌ، بَلْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فِيهِ الكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ**. [انظر: البخاري (٤٢٨٠)].

وَذَكَرَ عُرْوَةُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ لَمَّا أَصْبَحَ صَبِيحَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ عِنْدَ العَبَّاسِ، وَرَأَى النَّاسَ يُحَشْحِشُونَ لِلصَّلَاةِ، وَيَنْتَشِرُونَ فِي اسْتِعْمَالِ الطَّهَارَةِ خَافَ وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ: مَا بَالُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ سَمِعُوا النِّدَاءَ، فَهُمْ يَنْتَشِرُونَ لِلصَّلَاةِ.

فَلَمَّا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَرَآهُمْ يَرْكَعُونَ بِرُكُوعِهِ، وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ قَالَ: يَا عَبَّاسُ، مَا يَأْمُرُهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا فَعَلُوهُ! قَالَ: نَعَمْ، وَاللهِ لَوْ أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لَأَطَاعُوهُ. وَذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّهُ لَمَّا تَوَضَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلُوا يَتَكَفَّفُونَ، فَقَالَ: يَا عَبَّاسُ، مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ وَلَا مُلْكَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ.

صِفَةُ دُخُولِهِ ﷺ مَكَّةَ:

ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ وَعَلَى رَأْسِهِ المِغْفَرُ، فَلَمَّا نَزَعَهُ، جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ. فَقَالَ: **اقْتُلُوهُ**. قَالَ مَالِكٌ: وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ -فِيمَا نَرَى وَاللهُ أَعْلَمُ- مُحْرِمًا. [انظر: البخاري (٤٢٨٦)].

وَرَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ قُتَيْبَةَ وَيَحْيَى بْنِ يَحْيَى، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ الدُّهْنِيِّ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ غَيْرِ إِحْرَامٍ. [انظر: مسلم (١٣٥٨)].

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ، عَنْ مُسَاوِرٍ الوَرَّاقِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ، عَنْ

أَبِيهِ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ حَرَقَانِيَّةٌ سَوْدَاءُ قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ. [انظر: صحيح سنن النسائي (٥٣٥٨)].

وَرَوَى أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ آدَمَ، عَنْ شَرِيكٍ الْقَاضِي، عَنْ عَمَّارٍ الدُّهْنِيِّ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ لِوَاءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ دَخَلَ مَكَّةَ أَبْيَضَ. [انظر: السلسلة الصحيحة (٢١٠٠)].

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: ثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، ثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ «الْفَتْحِ» يُرَجِّعُ. وَقَالَ: لَوْلَا أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلِي لَرَجَّعْتُ كَمَا رَجَّعَ. [انظر: البخاري (٤٢٨١)].

وَرَوَى الحَافِظُ البَيْهَقِيُّ: عَنْ أَنَسٍ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ وَذَقْنُهُ عَلَى رَحْلِهِ مُتَخَشِّعًا.

وَرَوَى كَذَلِك: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الفَتْحِ، فَأَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ، فَقَالَ: **هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ**. [انظر: السلسلة الصحيحة (١٨٧٦)].

وَهَذَا التَّوَاضُعُ فِي هَذَا المَوْطِنِ عِنْدَ دُخُولِهِ ﷺ مَكَّةَ، فِي مِثْلِ هَذَا الجَيْشِ الكَثِيفِ العَرَمْرَمِ، بِخِلَافِ مَا اعْتَمَدَهُ سُفَهَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حِينَ أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ المَقْدِسِ وَهُمْ سُجُودٌ، أَيْ: رُكَّعٌ، يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: ثَنَا الهَيْثَمُ بْنُ خَارِجَةَ، ثَنَا حَفْصُ بْنُ مَيْسَرَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنْ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَامَ الفَتْحِ مِنْ كَدَاءٍ الَّتِي بِأَعْلَى مَكَّةَ. وَتَابَعَهُ أَبُو أُسَامَةَ وَوُهَيْبٌ: فِي كَدَاءٍ. [انظر: البخاري (٤٢٩٠)]. حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، ثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ مِنْ كَدَاءٍ. [انظر: البخاري (٤٢٩١)]. وَهُوَ أَصَحُّ.

إِنْ أَرَادَ أَنَّ المُرْسَلَ أَصَحُّ مِنَ المُسْنَدِ المُتَقَدِّمِ انْتَظَمَ الكَلَامُ، وَإِلَّا فَكَدَاءٌ بِالمَدِّ هِيَ المَذْكُورَةُ فِي الرِّوَايَتَيْنِ، وَهِيَ فِي أَعْلَى مَكَّةَ، وَكُدًى مَقْصُورًا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، وَهَذَا هُوَ المَشْهُورُ وَالْأَنْسَبُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ، وَدَخَلَ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَسْفَلِهَا مِنْ كُدًى. وَهُوَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ». فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَى البَيْهَقِيُّ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ رَأَى النِّسَاءَ يُلَطِّمْنَ وُجُوهَ الخَيْلِ، فَتَبَسَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ قَالَ حَسَّانُ؟ فَأَنْشَدَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَدِمْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَتَفَيْ كَدَاءُ

يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُسْرَجَاتٍ ... يُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ادْخُلُوهَا مِنْ حَيْثُ قَالَ حَسَّانُ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدَّتِهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: لَمَّا وَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذِي طُوًى، قَالَ أَبُو قُحَافَةَ لِابْنَةٍ لَهُ مِنْ أَصْغَرِ وَلَدِهِ: أَيْ بُنَيَّةُ، اظْهَرِي بِي عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ. قَالَتْ: وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ. قَالَتْ: فَأَشْرَفَتْ بِهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ، مَاذَا تَرَيْنَ؟ قَالَتْ: أَرَى سَوَادًا مُجْتَمِعًا. قَالَ: تِلْكَ الخَيْلُ. قَالَتْ: وَأَرَى رَجُلًا يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ السَّوَادِ مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا. قَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ ذَلِكَ الوَازِعُ. يَعْنِي الَّذِي يَأْمُرُ الخَيْلَ وَيَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا. ثُمَّ قَالَتْ: قَدْ وَاللهِ انْتَشَرَ السَّوَادُ. فَقَالَ قَدْ وَاللهِ إِذَنْ دَفَعَتِ الخَيْلُ، فَأَسْرِعِي بِي إِلَى بَيْتِي. فَانْحَطَّتْ بِهِ، وَتَلَقَّاهُ الخَيْلُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ بَيْتَهُ. قَالَتْ: وَفِي عُنُقِ الجَارِيَةِ طَوْقٌ مِنْ وَرَقٍ، فَتَلَقَّاهَا رَجُلٌ فَيَقْتَطِعُهُ مِنْ عُنُقِهَا. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ وَدَخَلَ المَسْجِدَ، أَتَى أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَقُودُهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: **هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ؟** قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ. قَالَ: فَقَالَتْ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: **أَسْلِمْ**. فَأَسْلَمَ. قَالَتْ: وَدَخَلَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ رَأْسُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **غَيِّرُوا هَذَا مِنْ شَعْرِهِ**. ثُمَّ قَامَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ بِيَدِ أُخْتِهِ، وَقَالَ: أَنْشُدُ اللهَ وَالْإِسْلَامَ طَوْقَ أُخْتِي. فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، قَالَتْ فَقَالَ: أَيْ أُخَيَّةُ، احْتَسِبِي طَوْقَكِ، فَوَاللهِ إِنَّ الْأَمَانَةَ فِي النَّاسِ اليَوْمَ لَقَلِيلٌ. [انظر: الصحيح المسند للوادعي (١٥٢٧)]. يَعْنِي الصِّدِّيقُ ذَلِكَ اليَوْمَ عَلَى التَّعْيِينِ، لِأَنَّ الجَيْشَ فِيهِ كَثْرَةٌ، وَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَلْوِي عَلَى أَحَدٍ مَعَ انْتِشَارِ النَّاسِ، وَلَعَلَّ الَّذِي أَخَذَهُ تَأَوَّلَ أَنَّهُ مِنْ حَرْبِيٍّ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى الحَافِظُ البَيْهَقِيُّ: عَنْ جَابِرٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَخَذَ بِيَدِ أَبِي قُحَافَةَ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا وَقَفَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: غَيِّرُوهُ وَلَا تُقَرِّبُوهُ سَوَادًا. قَالَ: ابْنُ وَهْبٍ وَأَخْبَرَنِي عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَنَّأَ أَبَا بَكْرٍ بِإِسْلَامِ أَبِيهِ.

وَرَوَى البُخَارِيُّ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّهُ قَالَ زَمَنَ الفَتْحِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ تَنْزِلُ غَدًا؟ فَقَالَ: **وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ؟** ثُمَّ قَالَ: **لَا يَرِثُ المُؤْمِنُ الكَافِرَ وَلَا الكَافِرُ المُؤْمِنَ**. [انظر: البخاري (٤٢٨٢)].

ثُمَّ رَوَى البُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **مَنْزِلُنَا -إِنْ شَاءَ اللهُ، إِذَا فَتَحَ اللهُ- الخَيْفُ، حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الكُفْرِ**. [انظر: البخاري (٤٢٨٤)].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَعِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَسُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو كَانُوا قَدْ جَمَعُوا نَاسًا بِالخَنْدَمَةِ لِيُقَاتِلُوا.

وَكَانَ حِمَاسُ بْنُ قَيْسِ بْنِ خَالِدٍ، أَخُو بَنِي بَكْرٍ يُعِدُّ سِلَاحًا قَبْلَ قُدُومِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيُصْلِحُ مِنْهُ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: لِمَاذَا تُعِدُّ مَا أَرَى؟ قَالَ: لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أَرَى يَقُومُ لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ. قَالَ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُخْدِمَكِ بَعْضَهُمْ. ثُمَّ قَالَ:

إِنْ يُقْبِلُوا اليَوْمَ فَمَا لِي عِلَّهْ ... هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَّهْ
وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

قَالَ: ثُمَّ شَهِدَ الخَنْدَمَةَ مَعَ صَفْوَانَ وَعِكْرِمَةَ وَسُهَيْلٍ، فَلَمَّا لَقِيَهُمُ المُسْلِمُونَ مِنْ أَصْحَابِ خَالِدٍ، نَاوَشُوهُمْ شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ، فَقُتِلَ كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ، أَحَدُ بَنِي مُحَارِبِ بْنِ فِهْرٍ، وَخُنَيْسُ بْنُ خَالِدِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ أَصْرَمَ، حَلِيفُ بَنِي مُنْقِذٍ، وَكَانَا فِي جَيْشِ خَالِدٍ فَشَذَّا عَنْهُ، فَسَلَكَا غَيْرَ طَرِيقِهِ، فَقُتِلَا جَمِيعًا، وَكَانَ قَبْلَ كُرْزٍ قُتِلَ خُنَيْسٌ. قَالَا: وَقُتِلَ مِنْ خَيْلِ خَالِدٍ أَيْضًا سَلَمَةُ بْنُ المَيْلَاءِ الجُهَنِيُّ، وَأُصِيبَ مِنَ المُشْرِكِينَ قَرِيبٌ مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ، ثُمَّ انْهَزَمُوا، فَخَرَجَ حِمَاسٌ مُنْهَزِمًا حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، ثُمَّ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: أَغْلِقِي عَلَيَّ بَابِي. قَالَتْ: فَأَيْنَ مَا كُنْتَ تَقُولُ؟ فَقَالَ:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ ... إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ
وَأَبُو يَزِيدَ قَائِمٌ كَالمُوتَمَهْ ... وَاسْتَقْبَلَتْهُمْ بِالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهْ
لَهُمْ نَهِيتٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَهْ ... لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَتُرْوَى هَذِهِ الْأَبْيَاتُ لِلرَّعَّاشِ الهُذَلِيِّ.

قَالَ: وَكَانَ شِعَارُ المُهَاجِرِينَ يَوْمَ الفَتْحِ وَحُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ: يَا بَنِي عَبْدِالرَّحْمَنِ. وَشِعَارُ

الخَزْرَج: يَا بَنِي عَبْدِالله. وَشِعَارُ الْأَوْسِ: يَا بَنِي عُبَيْدِالله.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَهِدَ إِلَى أُمَرَائِهِ أَنْ لَا يُقَاتِلُوا إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ أَهْدَرَ دَمَ نَفَرٍ سَمَّاهُمْ، وَإِنْ وُجِدُوا تَحْتَ أَسْتَارِ الكَعْبَةِ، وَهُمْ: عَبْدُالله بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، كَانَ قَدْ أَسْلَمَ وَكَتَبَ الوَحْيَ ثُمَّ ارْتَدَّ، فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ، وَقَدْ أَهْدَرَ دَمَهُ فَرَّ إِلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ أَخَاهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَلَمَّا جَاءَ بِهِ لِيَسْتَأْمِنَ لَهُ، صَمَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: **نَعَمْ**. فَلَمَّا انْصَرَفَ مَعَ عُثْمَانَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ حَوْلَهُ: **أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حِينَ رَآنِي قَدْ صَمَتُّ فَيَقْتُلَهُ**. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، **هَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا**؟ فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ لَا يَقْتُلُ بِالْإِشَارَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: **إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ**. [انظر: صحيح سنن أبي داود (٤٣٥٩)].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَوَلَّاهُ عُمَرُ بَعْضَ أَعْمَالِهِ، ثُمَّ وَلَّاهُ عُثْمَانُ.

قُلْتُ: وَمَاتَ وَهُوَ سَاجِدٌ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، أَوْ بَعْدَ انْقِضَاءِ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَعَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ، رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمِ بْنِ غَالِبٍ -قُلْتُ: وَيُقَالُ: إِنَّ اسْمَهُ عَبْدُ العُزَّى بْنُ خَطَلٍ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ، ثُمَّ لَمَّا أَسْلَمَ سُمِّيَ عَبْدَالله- وَلَمَّا أَسْلَمَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُصَدِّقًا وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ مَعَهُ مَوْلًى لَهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِ غَضْبَةً فَقَتَلَهُ، ثُمَّ ارْتَدَّ مُشْرِكًا وَكَانَ لَهُ قَيْنَتَانِ، فَرْتَنَى وَصَاحِبَتُهَا، فَكَانَتَا تُغَنِّيَانِ بِهِجَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، فَلِهَذَا أَهْدَرَ دَمَهُ وَدَمَ قَيْنَتَيْهِ، فَقُتِلَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ، اشْتَرَكَ فِي قَتْلِهِ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ المَخْزُومِيُّ، وَقُتِلَتْ إِحْدَى قَيْنَتَيْهِ وَاسْتُؤْمِنَ لِلْأُخْرَى.

قَالَ: وَالحُوَيْرِثُ بْنُ نُقَيْذِ بْنِ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ بْنِ قُصَيٍّ، وَكَانَ مِمَنْ يُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَلَمَّا تَحَمَّلَ العَبَّاسُ بِفَاطِمَةَ وَأُمِّ كُلْثُومٍ لِيَذْهَبَ بِهِمَا إِلَى المَدِينَةِ يُلْحِقُهُمَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَوَّلَ الهِجْرَةِ، نَخَسَ بِهِمَا الحُوَيْرِثُ هَذَا الجَمَلَ الَّذِي هُمَا عَلَيْهِ، فَسَقَطَتَا إِلَى الْأَرْضِ، فَلَمَّا أُهْدِرَ دَمُهُ قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

قَالَ: وَمِقْيَسُ بْنُ صُبَابَةَ، لِأَنَّهُ قَتَلَ -قَاتِلَ أَخِيهِ خَطَأً- بَعْدَمَا أَخَذَ الدِّيَةَ، ثُمَّ ارْتَدَّ مُشْرِكًا، قَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ يُقَالُ لَهُ: نُمَيْلَةُ بْنُ عَبْدِالله.

قَالَ: وَسَارَةُ مَوْلَاةٌ لِبَنِي عَبْدِالمُطَّلِبِ وَلِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ

وَهِيَ بِمَكَّةَ.

قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهَا الَّتِي تَحَمَّلَتِ الكِتَابَ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَكَأَنَّهَا عُفِيَ عَنْهَا أَوْ هَرَبَتْ ثُمَّ أُهْدِرَ دَمُهَا. وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَهَرَبَتْ حَتَّى اسْتُؤْمِنَ لَهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَّنَهَا، فَعَاشَتْ إِلَى زَمَنِ عُمَرَ فَأَوْطَأَهَا رَجُلٌ فَرَسًا فَمَاتَتْ. وَذَكَرَ السُّهَيْلِيُّ أَنَّ فَرْتَنَى أَسْلَمَتْ أَيْضًا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَمَّا عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، فَهَرَبَ إِلَى اليَمَنِ، وَأَسْلَمَتِ امْرَأَتُهُ أُمُّ حَكِيمٍ بِنْتُ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَاسْتَأْمَنَتْ لَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَّنَهُ، فَذَهَبَتْ فِي طَلَبِهِ، حَتَّى أَتَتْ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ.

وَرَوَى البَيْهَقِيُّ: عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْم فَتْحِ مَكَّةَ آمَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وَقَالَ: **اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ**. وَهُمْ عِكْرِمَةُ ابْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ خَطَلٍ، وَمِقْيَسُ بْنُ صُبَابَةَ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ.

فَأَمَّا عَبْدُاللهِ بْنُ خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ، فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا، وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ، فَقَتَلَهُ، وَأَمَّا مِقْيَسٌ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ، وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ البَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ قَاصِفٌ، فَقَالَ أَهْلُ السَّفِينَةِ لِأَهْلِ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا. فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنْجِ فِي البَحْرِ إِلَّا الإِخْلَاصُ فَإِنَّهُ لَا يُنْجِي فِي البَرِّ غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ، أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا. فَجَاءَ فَأَسْلَمَ.

وَأَمَّا عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى البَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَايِعْ عَبْدَاللهِ. فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَأْبَى، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: **أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حِينَ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ؟** فَقَالُوا: مَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَا فِي نَفْسِكَ، هَلَّا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟ فَقَالَ: **إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ**. [انظر: صحيح سنن النسائي (٤٠٧٨)].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ أَبِي مُرَّةَ مَوْلَى عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ أُمَّ هَانِئٍ ابْنَةَ أَبِي طَالِبٍ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَعْلَى مَكَّةَ فَرَّ إِلَيَّ رَجُلَانِ مِنْ أَحْمَائِي مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: هُمَا الحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ عِنْدَ هُبَيْرَةَ بْنِ أَبِي وَهْبٍ المَخْزُومِيِّ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: وَاللهِ لَأَقْتُلُهُمَا. فَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِمَا بَابَ بَيْتِي، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِأَعْلَى مَكَّةَ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ مِنْ جَفْنَةٍ، إِنَّ فِيهَا لَأَثَرَ العَجِينِ، وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا اغْتَسَلَ أَخَذَ ثَوْبَهُ فَتَوَشَّحَ بِهِ، ثُمَّ صَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مِنَ الضُّحَى، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيَّ، فَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِأُمِّ هَانِئٍ، مَا جَاءَ بِكِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَ الرَّجُلَيْنِ وَخَبَرَ عَلِيٍّ فَقَالَ: **قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ** فَلَا يَقْتُلُهُمَا. [انظر: السلسلة الصحيحة (٢٠٤٩)].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي ثَوْرٍ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ، خَرَجَ حَتَّى جَاءَ البَيْتَ فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ، يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِحْجَنٍ فِي يَدِهِ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الكَعْبَةِ، فَفُتِحَتْ لَهُ فَدَخَلَهَا فَوَجَدَ فِيهَا حَمَامَةً مِنْ عِيدَانٍ، فَكَسَرَهَا بِيَدِهِ ثُمَّ طَرَحَهَا، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بَابِ الكَعْبَةِ وَقَدِ اسْتَكَفَّ لَهُ النَّاسُ فِي المَسْجِدِ. [انظر: صحيح سنن أبي داود (١٨٧٩)، صحيح سنن ابن ماجه (٢٤٠٢)].

وَقَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى زَمْزَمَ فَاطَّلَعَ فِيهَا وَدَعَا بِمَاءٍ فَشَرِبَ مِنْهَا وَتَوَضَّأَ، وَالنَّاسُ يَبْتَدِرُونَ وَضُوءَهُ، وَالمُشْرِكُونَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا مَلِكًا قَطُّ وَلَا سَمِعْنَا بِهِ -يَعْنِي مِثْلَ هَذَا-. وَأَخَّرَ المَقَامَ إِلَى مَقَامِهِ اليَوْمَ وَكَانَ مُلْصَقًا بِالبَيْتِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى بَابِ الكَعْبَةِ فَقَالَ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا كُلُّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعَى فَهُوَ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إِلَّا سِدَانَةَ البَيْتِ وَسِقَايَةَ الحَاجِّ، أَلَا وَقَتِيلُ الخَطَأِ شِبْهِ العَمْدِ بِالسَّوْطِ وَالعَصَا فَفِيهِ الدِّيَةُ مُغَلَّظَةً، مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، أَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا** [انظر: صحيح سنن أبي داود (٤٥٤٧)]، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالْآبَاءِ،

النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]. ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ. [انظر: السلسلة الضعيفة (١١٦٣)].

ثُمَّ جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمِفْتَاحُ الكَعْبَةِ فِي يَدِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْمَعْ لَنَا الحِجَابَةَ مَعَ السِّقَايَةِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟ فَدُعِيَ لَهُ فَقَالَ: هَاكَ مِفْتَاحُكَ يَا عُثْمَانُ، اليَوْمُ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، أَنْبَأَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ فِي الكَعْبَةِ صُوَرٌ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَنْ يَمْحُوَهَا، فَبَلَّ عُمَرُ ثَوْبًا وَمَحَاهَا بِهِ، فَدَخَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا فِيهَا مِنْهَا شَيْءٌ. [انظر: السلسلة الصحيحة (٣١١٥)].

وَقَالَ البُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْلِ، ثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِاللهِ -هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ- قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ، وَحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾. [انظر: البخاري (٤٢٨٧)].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ شَيْبَانَ بْنِ فَرُّوخٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ رَبَاحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فِي حَدِيثِ فَتْحِ مَكَّةَ قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الحَجَرِ فَاسْتَلَمَهُ، وَطَافَ بِالبَيْتِ، وَأَتَى إِلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ، وَفِي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْسٌ، وَهُوَ آخِذٌ بِسِيَتِهَا، فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ، جَعَلَ يَطْعُنُ فِي عَيْنِهِ وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا، فَعَلَا عَلَيْهِ، حَتَّى نَظَرَ إِلَى البَيْتِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَجَعَلَ يَحْمَدُ اللهَ وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ. [انظر: مسلم (١٧٨٠)].

وَقَالَ البُخَارِيُّ: ثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، ثَنَا عَبْدُالصَّمَدِ، ثَنَا أَبِي، ثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أَبَى أَنْ يَدْخُلَ البَيْتَ وَفِيهِ الْآلِهَةُ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأَخْرَجَ صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلام وَفِي أَيْدِيهِمَا مِنَ الْأَزْلَامِ، فَقَالَ: **قَاتَلَهُمُ اللهُ، لَقَدْ**

عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ. ثُمَّ دَخَلَ البَيْتَ، فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي البَيْتِ، وَخَرَجَ وَلَمْ يُصَلِّ. [انظر: البخاري (٤٢٨٨)، صحيح سنن أبي داود (٢٠٢٧)].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ثَنَا عَبْدُالصَّمَدِ، ثَنَا هَمَّامٌ، ثَنَا عَطَاءٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الكَعْبَةَ وَفِيهَا سِتُّ سَوَارٍ، فَقَامَ إِلَى كُلِّ سَارِيَةٍ، وَدَعَا وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ. [انظر: مسلم (١٣٣١)].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، ثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الحَارِثِ، أَنَّ بُكَيْرًا حَدَّثَهُ عَنْ كُرَيْبٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ دَخَلَ البَيْتَ وَجَدَ فِيهِ صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَصُورَةَ مَرْيَمَ، فَقَالَ: أَمَّا هُمْ فَقَدْ سَمِعُوا أَنَّ المَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ، هَذَا إِبْرَاهِيمُ مُصَوَّرًا، فَمَا بَالُهُ يَسْتَقْسِمُ؟!

قَالَ البُخَارِيُّ: وَقَالَ اللَّيْثُ: ثَنَا يُونُسُ، أَخْبَرَنِي نَافِعٌ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ يَوْمَ الفَتْحِ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، مُرْدِفًا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَمَعَهُ بِلَالٌ، وَمَعَهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، مِنَ الحَجَبَةِ، حَتَّى أَنَاخَ فِي المَسْجِدِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِفْتَاحِ الكَعْبَةِ، فَدَخَلَ وَمَعَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَبِلَالٌ وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، فَمَكَثَ فِيهِ نَهَارًا طَوِيلًا، ثُمَّ خَرَجَ فَاسْتَبَقَ النَّاسُ، فَكَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ، فَوَجَدَ بِلَالًا وَرَاءَ البَابِ قَائِمًا، فَسَأَلَهُ: أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَأَشَارَ لَهُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ. قَالَ عَبْدُاللهِ: فَنَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَهُ كَمْ صَلَّى مِنْ سَجْدَةٍ. [انظر: البخاري (٢٩٨٨)].

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ هُشَيْمٍ، ثَنَا غَيْرُ وَاحِدٍ وَابْنُ عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ البَيْتَ وَمَعَهُ الفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، وَبِلَالٌ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَجَافَ عَلَيْهِمُ البَابَ، فَمَكَثَ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ خَرَجَ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِيتُ مِنْهُمْ بِلَالًا، فَقُلْتُ: أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: هَاهُنَا بَيْنَ الْأُسْطُوَانَتَيْنِ. [انظر: البخاري (٤٦٨)].

قُلْتُ: وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَغَيْرِهِ، أَنَّهُ ﷺ صَلَّى فِي الكَعْبَةِ تِلْقَاءَ وَجْهَةِ بَابِهَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، فَجَعَلَ عَمُودَيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَمُودًا عَنْ يَسَارِهِ، وَثَلَاثَةَ أَعْمِدَةٍ وَرَاءَهُ، وَكَانَ البَيْتُ يَوْمَئِذٍ عَلَى سِتَّةِ أَعْمِدَةٍ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الحَائِطِ الغَرْبِيِّ مِقْدَارَ ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ. [انظر: البخاري (٥٠٥)].

وَقَالَ البُخَارِيُّ: ثَنَا إِسْحَاقُ، ثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي حَسَنُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ**

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ، لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا، إِلَّا لِمُنْشِدٍ. فَقَالَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ: إِلَّا الْإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ لِلَقَيْنِ وَالبُيُوتِ. فَسَكَتَ ثُمَّ قَالَ: **إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ حَلَالٌ.** [انظر: البخاري (٤٣١٣)].

وَبِهَذَا الحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ اسْتَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ مَكَّةَ فُتِحَتْ عَنْوَةً، وَلِلْوَقْعَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الخَنْدَمَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ وَقَدْ قُتِلَ فِيهَا قَرِيبٌ مِنْ عِشْرِينَ نَفْسًا مِنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ العُلَمَاءِ. وَالمَشْهُورُ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فُتِحَتْ صُلْحًا، لِأَنَّهَا لَمْ تُقْسَمْ، وَلِقَوْلِهِ ﷺ لَيْلَةَ الفَتْحِ: **مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الحَرَمَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.** وَمَوْضِعُ تَقْرِيرِ هَذِهِ المَسْأَلَةِ فِي كِتَابِ «الْأَحْكَامِ الكَبِيرِ» إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَقَالَ البُخَارِيُّ: ثَنَا سَعِيدُ بْنُ شُرَحْبِيلَ، ثَنَا اللَّيْثُ، عَنِ المقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ العَدَوِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ، وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ، أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الغَدَ مِنْ يَوْمِ الفَتْحِ، سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، إِنَّهُ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ. وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ.** فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ: مَاذَا قَالَ لَكَ عَمْرٌو؟ قَالَ: قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ، إِنَّ الحَرَمَ لَا يُعِيذُ عَاصِيًا وَلَا فَارًّا بِدَمٍ، وَلَا فَارًّا بِخَرْبَةٍ. [انظر: البخاري (٤٢٩٥)].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيُّ، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ العَدَوِيِّ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ عَمْرُو بْنُ الزُّبَيْرِ مَكَّةَ لِقِتَالِ أَخِيهِ عَبْدِاللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، جِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا، إِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ مِنْ يَوْمِ الفَتْحِ، عَدَتْ خُزَاعَةُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَتَلُوهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِينَا خَطِيبًا فَقَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ مِنْ حَرَامِ اللهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ فِيهَا شَجَرًا، لَمْ تَحْلِلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي، وَلَمْ**

تُحْلِلْ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ، غَضَبًا عَلَى أَهْلِهَا، أَلَا ثُمَّ قَدْ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ، فَمَنْ قَالَ لَكُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَاتَلَ فِيهَا. فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يُحِلَّهَا لَكُمْ. يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ، ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ القَتْلِ فَلَقَدْ كَثُرَ أَنْ يَقَع، لَئِنْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَنَّهُ، فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، إِنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ، وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ. ثُمَّ وَدَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قَتَلَتْهُ خُزَاعَةُ، فَقَالَ عَمْرٌو لِأَبِي شُرَيْحٍ: انْصَرِفْ أَيُّهَا الشَّيْخُ، فَنَحْنُ أَعْلَمُ بِحُرْمَتِهَا مِنْكَ، إِنَّهَا لَا تَمْنَعُ سَافِكَ دَمٍ، وَلَا خَالِعَ طَاعَةٍ، وَلَا مَانِعَ جِزْيَةٍ. فَقَالَ أَبُو شُرَيْحٍ: إِنِّي كُنْتُ شَاهِدًا، وَكُنْتَ غَائِبًا، وَقَدْ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُبَلِّغَ شَاهِدُنَا غَائِبَنَا، وَقَدْ أَبْلَغْتُكَ، فَأَنْتَ وَشَأْنُكَ. [انظر: إرواء الغليل، تحت (٢٢٢٠)]. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَلَغَنِي أَنَّ أَوَّلَ قَتِيلٍ وَدَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الفَتْحِ جُنَيْدِبُ بْنُ الْأَكْوَعِ، قَتَلَتْهُ بَنُو كَعْبٍ، فَوَدَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِائَةِ نَاقَةٍ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَيَزِيدَ بْنِ هَارُونَ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدٍ، كُلُّهُمْ عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ، عَنِ الحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْبَرْصَاءِ الخُزَاعِيِّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: **لَا تُغْزَى هَذِهِ بَعْدَ اليَوْمِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.** [انظر: السلسلة الصحيحة (٢٤٢٧)].

قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ نَهْيًا، فَلَا إِشْكَالَ، وَإِنْ كَانَ نَفْيًا، فَقَالَ البَيْهَقِيُّ: مَعْنَاهُ عَلَى كُفْرِ أَهْلِهَا. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مُطِيعٍ، عَنْ أَبِيهِ مُطِيعِ بْنِ الْأَسْوَدِ العَدَوِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: **لَا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْرًا بَعْدَ اليَوْمِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.** وَالكَلَامُ عَلَيْهِ كَالْأَوَّلِ سَوَاء. [انظر: مسلم (١٧٨٢)].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ وَدَخَلَهَا، قَامَ عَلَى الصَّفَا يَدْعُو وَقَدْ أَحْدَقَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ، فَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: أَتُرَوْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ أَرْضَهُ وَبَلَدَهُ يُقِيمُ بِهَا؟ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ قَالَ: **مَاذَا قُلْتُمْ؟** قَالُوا: لَا شَيْءَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى أَخْبَرُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَعَاذَ اللهِ، المَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ.**

وَهَذَا الَّذِي عَلَّقَهُ ابْنُ هِشَامٍ قَدْ أَسْنَدَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي «مُسْنَدِهِ» فَقَالَ: ثَنَا بَهْزٌ وَهَاشِمٌ، قَالَا: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ المُغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ، وَقَالَ هَاشِمٌ: حَدَّثَنِي ثَابِتٌ البُنَانِيُّ، ثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ رَبَاحٍ،

قَالَ: وَفَدَتْ وُفُودٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ أَنَا فِيهِمْ وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، فَجَعَلَ بَعْضُنَا يَصْنَعُ لِبَعْضٍ الطَّعَامَ. قَالَ: وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ مَا يَدْعُونَا -قَالَ هَاشِمٌ: يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُونَا- إِلَى رَحْلِهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: أَلَا أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوهُمْ إِلَى رَحْلِي؟ قَالَ: فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ، وَلَقِيتُ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ العِشَاءِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، الدَّعْوَةُ عِنْدِي اللَّيْلَةَ. قَالَ: أَسَبَقْتَنِي؟! -قَالَ هَاشِمٌ: قُلْتُ: نَعَمْ- قَالَ: فَدَعَوْتُهُمْ فَهُمْ عِنْدِي. قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَلَّا أُعْلِمُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالَ: فَذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ. قَالَ: أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَخَلَ مَكَّةَ. قَالَ: فَبَعَثَ الزُّبَيْرَ عَلَى إِحْدَى المُجَنِّبَتَيْنِ، وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى المُجَنِّبَةِ الْأُخْرَى، وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الحُسَّرِ، وَأَخَذُوا بَطْنَ الوَادِي، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كَتِيبَتِهِ. قَالَ: وَقَدْ وَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشَهَا قَالَ: قَالُوا: نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ، وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَاهُ الَّذِي سُئِلْنَا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَنَظَرَ فَرَآنِي فَقَالَ: **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ**. فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: **اهْتِفْ لِي بِالْأَنْصَارِ، وَلَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِيٌّ**. فَهَتَفْتُ بِهِمْ، فَجَاءُوا فَأَطَافُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَتَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ؟** ثُمَّ قَالَ بِيَدَيْهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى: احْصُدُوهُمْ حَصْدًا حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَانْطَلَقْنَا، فَمَا يَشَاءُ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ مِنْهُمْ مَا شَاءَ، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا مِنْهُمْ شَيْئًا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ اليَوْمِ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**. قَالَ: فَغَلَّقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ. قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الحَجَرِ فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالبَيْتِ. قَالَ: وَفِي يَدِهِ قَوْسٌ، آخِذٌ بِسِيَةِ القَوْسِ. قَالَ: فَأَتَى فِي طَوَافِهِ عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ البَيْتِ يَعْبُدُونَهُ. قَالَ: فَجَعَلَ يَطْعَنُ بِهَا فِي عَيْنِهِ وَيَقُولُ: **جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ**. قَالَ: ثُمَّ أَتَى الصَّفَا فَعَلَاهُ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى البَيْتِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَذْكُرُ اللهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَذْكُرَهُ وَيَدْعُوهُ. قَالَ: وَالْأَنْصَارُ تَحْتَهُ. قَالَ: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَاءَ الوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَمْ يَخْفَ عَلَيْنَا، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَقْضِيَ. قَالَ هَاشِمٌ: فَلَمَّا قَضَى الوَحْيُ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: **يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَقُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ؟** قَالُوا: قُلْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: **فَمَا اسْمِي إِذًا؟! كَلَّا، إِنِّي عَبْدُاللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، فَالمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**. قَالَ: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ

وَيَقُولُونَ: وَاللهِ مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بِاللهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ**. [انظر: مسلم (١٧٨٠)].

وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي -يَعْنِي بَعْضَ أَهْلِ العِلْمِ- أَنَّ فَضَالَةَ بْنَ عُمَيْرِ بْنِ المُلَوَّحِ، يَعْنِي اللَّيْثِيَّ، أَرَادَ قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَطُوفُ بِالبَيْتِ عَامَ الفَتْحِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفَضَالَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَضَالَةُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: مَاذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟ قَالَ: لَا شَيْءَ، كُنْتُ أَذْكُرُ اللهَ. قَالَ: فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ. ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَسَكَنَ قَلْبُهُ، فَكَانَ فَضَالَةُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي حَتَّى مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ. قَالَ فَضَالَةُ: فَرَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي، فَمَرَرْتُ بِامْرَأَةٍ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ: هَلُمَّ إِلَى الحَدِيثِ. فَقَالَ: لَا. وَانْبَعَثَ فَضَالَةُ يَقُولُ:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الحَدِيثِ فَقُلْتُ لَا ... يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ وَالْإِسْلَامُ
أَوَمَا رَأَيْتِ مُحَمَّدًا وَقَبِيلَهُ ... بِالفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرُ الْأَصْنَامُ
لَرَأَيْتِ دِينَ اللهِ أَضْحَى بَيِّنًا ... وَالشِّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: خَرَجَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ يُرِيدُ جُدَّةَ لِيَرْكَبَ مِنْهَا إِلَى اليَمَنِ، فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَقَدْ خَرَجَ هَارِبًا مِنْكَ لِيَقْذِفَ نَفْسَهُ فِي البَحْرِ، فَأَمِّنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ. فَقَالَ: هُوَ آمِنٌ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَعْطِنِي آيَةً يَعْرِفُ بِهَا أَمَانَكَ. فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِمَامَتَهُ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا مَكَّةَ، فَخَرَجَ بِهَا عُمَيْرٌ حَتَّى أَدْرَكَهُ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَرْكَبَ فِي البَحْرِ، فَقَالَ: يَا صَفْوَانُ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، اللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ أَنْ تُهْلِكَهَا، هَذَا أَمَانٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ جِئْتُكَ بِهِ. قَالَ: وَيْلَكَ! اعْزُبْ عَنِّي فَلَا تُكَلِّمْنِي. قَالَ: أَيْ صَفْوَانُ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، أَفْضَلُ النَّاسِ وَأَبَرُّ النَّاسِ وَأَحْلَمُ النَّاسِ وَخَيْرُ النَّاسِ ابْنُ عَمِّكَ، عِزُّهُ عِزُّكَ وَشَرَفُهُ شَرَفُكَ وَمُلْكُهُ مُلْكُكَ. قَالَ: إِنِّي أَخَافُهُ عَلَى نَفْسِي. قَالَ: هُوَ أَحْلَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَكْرَمُ. فَرَجَعَ مَعَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ صَفْوَانُ: إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّكَ قَدْ أَمَّنْتَنِي. قَالَ: صَدَقَ. قَالَ: فَاجْعَلْنِي بِالخِيَارِ فِيهِ شَهْرَيْنِ. قَالَ: أَنْتَ بِالخِيَارِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

ثُمَّ حَكَى ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ فَاخِتَةَ بِنْتَ الوَلِيدِ امْرَأَةَ صَفْوَانَ، وَأُمَّ حَكِيمٍ بِنْتَ

الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ امْرَأَةَ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ أَسْلَمَتَا، وَقَدْ ذَهَبَتْ وَرَاءَهُ إِلَى اليَمَنِ، فَاسْتَرْجَعَتْهُ فَأَسْلَمَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا أَقَرَّهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَهُمَا بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: رَمَى حَسَّانُ ابْنَ الزِّبَعْرَى وَهُوَ بِنَجْرَانَ بِبَيْتٍ وَاحِدٍ مَا زَادَ عَلَيْهِ:

لَا تَعْدَمَنْ رَجُلًا أَحَلَّكَ بُغْضُهُ ... نَجْرَانَ فِي عَيْشٍ أَحَذَّ لَئِيمِ

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ الزِّبَعْرَى، خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَ، وَقَالَ حِينَ أَسْلَمَ:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أُبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْـ ... ـغَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ
آمَنَ اللَّحْمُ وَالعِظَامُ لِرَبِّي ... ثُمَّ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ
إِنَّنِي عَنْكَ زَاجِرٌ ثُمَّ حَيًّا ... مِنْ لُؤَيٍّ وَكُلُّهُمْ مَغْرُورُ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى أَيْضًا حِينَ أَسْلَمَ:

مَنَعَ الرُّقَادَ بَلَابِلٌ وَهُمُومُ ... وَاللَّيْلُ مُعْتَلِجُ الرِّوَاقِ بَهِيمُ
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامَنِي ... فِيهِ فَبِتُّ كَأَنَّنِي مَحْمُومُ
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَى أَوْصَالِهَا ... عَيْرَانَةٌ سُرُحُ اليَدَيْنِ غَشُومُ
إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي ... أَسْدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمُ
أَيَّامَ تَأْمُرُنِي بِأَغْوَى خُطَّةٍ ... سَهْمٌ وَتَأْمُرَنِي بِهَا مَخْزُومُ
وَأَمُدُّ أَسْبَابَ الرَّدَى وَيَقُودُنِي ... أَمْرُ الغُوَاةِ وَأَمْرُهُمْ مَشْئُومُ
فَاليَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... قَلْبِي وَمُخْطِئُ هَذِهِ مَحْرُومُ
مَضَتِ العَدَاوَةُ وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا ... وَدَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومُ
فَاغْفِرْ فِدًى لَكَ وَالِدَايَ كِلَاهُمَا ... زَلَلِي فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومُ
وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ المَلِيكِ عَلَامَةٌ ... نُورٌ أَغَرُّ وَخَاتَمٌ مَخْتُومُ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ ... شَرَفًا وَبُرْهَانُ الْإِلَهِ عَظِيمُ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقٌ ... حَقٌّ وَأَنَّكَ فِي العِبَادِ جَسِيمُ
وَاللهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفًى ... مُسْتَقْبَلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمُ
قَرْمٌ عَلَا بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ ... فَرْعٌ تَمَكَّنَ فِي الذُّرَا وَأُرُومُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لَهُ. قُلْتُ: كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ مِنْ أَكْبَرِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَمِنَ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ اسْتَعْمَلُوا قُوَاهُمْ فِي هِجَاءِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالقِيَامِ بِنَصْرِهِ وَالذَّبِّ عَنْهُ.

فَصْلٌ مَا قِيلَ مِنَ الشِّعْرِ يَوْمَ الفَتْحِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ جَمِيعُ مَنْ شَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَشَرَةَ آلَافٍ، مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ سَبْعُمِائَةٍ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: أَلْفٌ. وَمِنْ بَنِي غِفَارٍ أَرْبَعُمِائَةٍ، وَمِنْ أَسْلَمَ أَرْبَعُمِائَةٍ، وَمِنْ مُزَيْنَةَ أَلْفٌ وَثَلَاثَةُ نَفَرٍ، وَسَائِرُهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ وَحُلَفَائِهِمْ وَطَوَائِفِ العَرَبِ مِنْ تَمِيمٍ وَقَيْسٍ وَأَسَدٍ. وَقَالَ عُرْوَةُ وَالزُّهْرِيُّ وَمُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ الفَتْحِ الَّذِينَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا. فَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِمَّا قِيلَ مِنَ الشِّعْرِ فِي يَوْمِ الفَتْحِ قَوْلُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالجِوَاءُ ... إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ

دِيَارٌ مِنْ بَنِي الحَسْحَاسِ قَفْرٌ ... تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ ... خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ

فَدَعْ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لِطَيْفٍ ... يُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ العِشَاءُ

لِشَعْثَاءَ الَّتِي قَدْ تَيَّمَتْهُ ... فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ

كَأَنَّ خَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ ... يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا ... فَهُنَّ لَطَيِّبِ الرَّاحِ الفِدَاءُ

نُوَلِّيهَا المَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا ... إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ... وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ

يُنَازِعْنَ الْأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الفَتْحُ وَانْكَشَفَ الغِطَاءُ

وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وَقَـــالَ اللهُ قَـــدْ أَرْسَـــلْتُ عَبْـــدًا ... يَقُـــولُ الحَـــقَّ إِنْ نَفَـــعَ الـــبَلَاءُ
شَـــهِدْتُ بِـــهِ فَقُومُـــوا صَـــدِّقُوهُ ... فَقُلْـــتُمْ لَا نَقُـــومُ وَلَا نَشَـــاءُ
وَقَـــالَ اللهُ قَـــدْ سَـــيَّرْتُ جُنْـــدًا ... هُـــمُ الْأَنْصَـــارُ عُرْضَـــتُهَا اللِّقَـــاءُ
لَنَـــا فِـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مِـــنْ مَعَـــدٍّ ... سِـــبَابٌ أَوْ قِتَـــالٌ أَوْ هِجَـــاءُ
فَـــنُحْكِمُ بِـــالقَوَافِي مَـــنْ هَجَانَـــا ... وَنَضْـــرِبُ حِـــينَ تَخْـــتَلِطُ الـــدِّمَاءُ
أَلَا أَبْلِـــغْ أَبَـــا سُـــفْيَانَ عَنِّـــي ... مُغَلْغَلَـــةً فَقَـــدْ بَـــرِحَ الخَفَـــاءُ
بِـــأَنَّ سُـــيُوفَنَا تَرَكَتْـــكَ عَبْـــدًا ... وَعَبْـــدَ الـــدَّارِ سَـــادَتُهَا الْإِمَـــاءُ
هَجَـــوْتَ مُحَمَّـــدًا فَأَجَبْـــتُ عَنْـــهُ ... وَعِنْـــدَ اللهِ فِـــي ذَاكَ الجَـــزَاءُ
أَتَهْجُـــوهُ وَلَسْـــتَ لَـــهُ بِكُـــفْءٍ ... فَشَـــرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَـــا الفِـــدَاءُ
هَجَـــوْتَ مُبَارَكًـــا بَـــرًّا حَنِيفًـــا ... أَمِـــينَ اللهِ شَـــيْمَتُهُ الوَفَـــاءُ
أَمَـــنْ يَهْجُـــو رَسُـــولَ اللهِ مِـــنْكُمْ ... وَيَمْدَحُـــهُ وَيَنْصُـــرُهُ سَـــوَاءُ
فَـــإِنَّ أَبِـــي وَوَالِـــدَهُ وَعِرْضِـــي ... لِعِـــرْضِ مُحَمَّـــدٍ مِـــنْكُمْ وِقَـــاءُ
لِسَـــانِي صَـــارِمٌ لَا عَيْـــبَ فِيـــهِ ... وَبَحْـــرِي لَا تُكَـــدِّرُهُ الـــدِّلَاءُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَالَهَا حَسَّانُ قَبْلَ الفَتْحِ.

قُلْتُ: وَالَّذِي قَالَهُ مُتَوَجِّهٌ، لِمَا فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ القَصِيدَةِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَأَبُو سُفْيَانَ المَذْكُورُ فِي البَيْتِ هُوَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِب.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَلَغَنِي عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ النِّسَاءَ يُلَطِّمْنَ الخَيْلَ بِالخُمُرِ، تَبَسَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ فِي فَتْحِ مَكَّةَ:

مِنَّـــا بِمَكْـــةَ يَـــوْمَ فَـــتْحِ مُحَمَّـــدٍ ... أَلْـــفٌ تَسِـــيلُ بِـــهِ البِطَـــاحُ مُسَـــوَّمُ
نَصَـــرُوا الرَّسُـــولَ وَشَـــاهَدُوا آيَاتِـــهِ ... وَشِـــعَارُهُمْ يَـــوْمَ اللِّقَـــاءِ مُقَـــدَّمُ
فِـــي مَنْـــزِلٍ ثَبَتَـــتْ بِـــهِ أَقْـــدَامُهُمْ ... ضَـــنْكٍ كَـــأَنَّ الهَـــامَ فِيـــهِ الحَنْـــتَمُ
جَـــرَّتْ سَـــنَابِكَهَا بِنَجْـــدٍ قَبْلَهَـــا ... حَتَّـــى اسْـــتَقَامَ لَهَـــا الحِجَـــازُ الْأَدْهَـــمُ
اللهُ مَكَّنَـــهُ لَـــهُ وَأَذَلَّـــهُ ... حُكْـــمُ السُّـــيُوفِ لَنَـــا وَجَـــدٌّ مِـــزْحَمُ
عَـــوْدُ الرِّيَاسَـــةِ شَـــامِخٌ عِرْنِينُـــهُ ... مُتَطَلِّـــعٌ ثُغَـــرَ المَكَـــارِمِ خِضْـــرِمُ

وَذَكَرَ ابْنُ هِشَامٍ فِي سَبَبِ إِسْلَامِ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ، أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَعْبُدُ صَنَمًا مِنْ حِجَارَةٍ يُقَالُ لَهُ: ضِمَارٌ. فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ أَوْصَاهُ بِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا يَخْدِمُهُ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ جَوْفِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

قُلْ لِلْقَبَائِلِ مِنْ سُلَيْم كُلِّهَا ... أَوْدَى ضِمَارُ وَعَاشَ أَهْلُ المَسْجِدِ
إِنَّ الَّذِي وَرِثَ النُّبُوَّةَ وَالهُدَى ... بَعْدَ ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ قُرَيْشٍ مُهْتَدِي
أَوْدَى ضِمَارُ وَكَانَ يُعْبَدُ مَرَّةً ... قَبْلَ الكِتَابِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

قَالَ: فَحَرَّقَ عَبَّاسٌ ضِمَارًا، ثُمَّ لَحِقَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَ[1].

بَعْثُهُ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بَعْدَ الفَتْحِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ مِنْ كِنَانَةَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي حَكِيمُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ حُنَيْفٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ دَاعِيًا، وَلَمْ يَبْعَثْهُ مُقَاتِلًا، وَمَعَهُ قَبَائِلُ مِنَ العَرَبِ، سُلَيْمُ بْنُ مَنْصُورٍ وَمُدْلِجُ بْنُ مُرَّةَ، فَوَطِئُوا بَنِي جَذِيمَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ، فَلَمَّا رَآهُ القَوْمُ أَخَذُوا السِّلَاحَ، فَقَالَ خَالِدٌ: ضَعُوا السِّلَاحَ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا.

---

(١) وَمِمَّا يُرْوَى مِن شِعْرِهِ فِي مَدْحِ النَّبِيِّ ﷺ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الَّذِي تَهْوِي بِهِ ... وَجْنَاءُ مُجْمَرَةُ المَنَاسِمِ عِرْمِسُ
إِمَّا أَتَيْتَ عَلَى النَّبِيِّ فَقُلْ لَهُ ... حَقًّا عَلَيْكَ إِذَا اطْمَأَنَّ المَجْلِسُ
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ وَمَنْ مَشَى ... فَوْقَ التُّرَابِ إِذَا تُعَدُّ الأَنْفُسُ

وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ أَيْضًا:

يَا خَاتَمَ النُّبَّاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ ... بِالحَقِّ كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَا
إِنَّ الإِلَهَ بَنَى عَلَيْكَ مَحَبَّةً ... فِي خَلْقِهِ وَمُحَمَّدًا سَمَّاكَا
ثُمَّ الَّذِينَ وَفَوْا بِمَا عَاهَدْتَهُمْ ... جُنْدٌ بَعَثْتَ عَلَيْهِمُ الضَّحَّاكَا
رَجُلًا بِهِ ذَرَبُ السِّلَاحِ كَأَنَّهُ ... لَمَّا تَكَنَّفَهُ العَدُوُّ يَرَاكَا
يَغْشَى ذَوِي النَّسَبِ القَرِيبِ وَإِنَّمَا ... يَبْغِي رِضَا الرَّحْمَنِ ثُمَّ رِضَاكَا
أُنْبِيكَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَكَرَّهُ ... تَحْتَ العَجَاجَةِ يَدْمَغُ الإِشْرَاكَا
طَوْرًا يُعَانِقُ بِاليَدَيْنِ وَتَارَةً ... يَفْرِي الجَمَاجِمَ صَارِمًا بَتَّاكَا
يَغْشَى بِهِ هَامَ الكُمَاةِ وَلَوْ تَرَى ... مِنْهُ الَّذِي عَايَنْتَ كَانَ شِفَاكَا
وَبَنُو سُلَيْمٍ مُعْنِقُونَ أَمَامَهُ ... ضَرْبًا وَطَعْنًا فِي العَدُوِّ دِرَاكَا
يَمْشُونَ تَحْتَ لِوَائِهِ وَكَأَنَّهُمْ ... أُسْدُ العَرِينِ أَرَدْنَ ثَمَّ عِرَاكَا
مَا يَرْتَجُونَ مِنَ القَرِيبِ قَرَابَةً ... إِلَّا لِطَاعَةِ رَبِّهِمْ وَهَوَاكَا
هَذِي مَشَاهِدُنَا الَّتِي كَانَتْ لَنَا ... مَعْرُوفَةً وَوَلِيُّنَا مَوْلَاكَا

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ منْ بَنِي جَذِيمَةَ قَالَ: لَمَّا أَمَرَنَا خَالِدٌ أَنْ نَضَعَ السِّلَاحَ، قَالَ رَجُلٌ مِنَّا -يُقَالُ لَهُ: جَحْدَمٌ-: وَيْلَكُم يَا بَنِي جَذِيمَةَ، إِنَّهُ خَالِدٌ، وَاللهِ مَا بَعْدَ وَضْعِ السِّلَاحِ إِلَّا الْإِسَارُ، وَمَا بَعْدَ الْإِسَارِ إِلَّا ضَرْبُ الْأَعْنَاقِ، وَاللهِ لَا أَضَعُ سِلَاحِي أَبَدًا.

قَالَ: فَأَخَذَهُ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالُوا: يَا جَحْدَمُ، أَتُرِيدُ أَنْ تَسْفِكَ دِمَاءَنَا؟ إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا، وَوُضِعَتِ الحَرْبُ، وَأَمِنَ النَّاسُ!

فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى نَزَعُوا سِلَاحَهُ، وَوَضَعَ القَوْمُ سِلَاحَهُمْ لِقَوْلِ خَالِدٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي حَكِيمُ بْنُ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ: فَلَمَّا وَضَعُوا السِّلَاحَ أَمَرَ بِهِمْ خَالِدٌ عِنْدَ ذَلِكَ، فَكُتِّفُوا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى السَّيْفِ، فَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَى الخَبَرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ**.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُ انْفَلَتَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الخَبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَدْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ رَجُلٌ أَبْيَضُ رَبْعَةٌ، فَنَهَمَهُ خَالِدٌ، فَسَكَتَ عَنْهُ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ طَوِيلٌ مُضْطَرِبٌ، فَرَاجَعَهُ فَاشْتَدَّتْ مُرَاجَعَتُهُمَا، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أَمَّا الْأَوَّلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَابْنِي عَبْدُاللهِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي حَكِيمُ بْنُ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، قَالَ: ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، اخْرُجْ إِلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِهِمْ، وَاجْعَلْ أَمْرَ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْكَ. فَخَرَجَ عَلِيٌّ حَتَّى جَاءَهُمْ وَمَعَهُ مَالٌ قَدْ بَعَثَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَدَى لَهُمُ الدِّمَاءَ وَمَا أُصِيبَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَدِي مِيلَغَةَ الكَلْبِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنْ دَمٍ وَلَا مَالٍ إِلَّا وَدَاهُ، بَقِيَتْ مَعَهُ بَقِيَّةٌ مِنَ المَالِ، فَقَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ حِينَ فَرَغَ مِنْهُمْ: هَلْ بَقِيَ لَكُمْ دَمٌ أَوْ مَالٌ لَمْ يُودَ لَكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنِّي أُعْطِيكُمْ هَذِهِ البَقِيَّةَ مِنْ هَذَا المَالِ احْتِيَاطًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّا لَا نَعْلَمُ وَلَا تَعْلَمُونَ. فَفَعَلَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتَ.

ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ قَائِمًا شَاهِرًا يَدَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُرَى مَا تَحْتَ مَنْكِبَيْهِ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ**. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ قَالَ بَعْضُ مَنْ يَعْذُرُ خَالِدًا: إِنَّهُ قَالَ: مَا قَاتَلْتُ حَتَّى أَمَرَنِي بِذَلِكَ عَبْدُاللهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تُقَاتِلَهُمْ لِامْتِنَاعِهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَالَ أَبُو عَمْرٍو المَدِينِيُّ: لَمَّا أَتَاهُمْ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ قَالُوا: صَبَأْنَا صَبَأْنَا. وَهَذِهِ مُرْسَلَاتٌ وَمُنْقَطِعَاتٌ.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُالرَّزَّاقِ، ثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي -أَحْسَبُهُ قَالَ- جَذِيمَةَ.

فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا. وَجَعَلَ خَالِدٌ بِهِمْ أَسْرًا وَقَتْلًا. قَالَ: وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرًا، حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ يَوْمًا أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ.

قَالَ: فَقَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ صَنِيعَ خَالِدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَفَعَ يَدَيْهِ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**. مَرَّتَيْنِ. [انظر: البخاري (٤٣٣٩)].

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا، وَفِيهِمْ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَسْتُ مِنْهُمْ، إِنِّي عَشِقْتُ امْرَأَةً فَلَحِقْتُهَا، فَدَعُونِي أَنْظُرْ إِلَيْهَا نَظْرَةً، ثُمَّ اصْنَعُوا بِي مَا بَدَا لَكُمْ. قَالَ: فَإِذَا امْرَأَةٌ أَدْمَاءُ طَوِيلَةٌ، فَقَالَ لَهَا: اسْلَمِي حُبَيْشُ قَبْلَ نَفَادِ العَيْشْ. ثُمَّ ذَكَرَ البَيْتَيْنِ بِمَعْنَاهُمَا:

أَرَيْتُكِ إِذْ طَالَبْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُمْ ... بِحَلْيَةَ أَوْ أَلْفَيْتُكُمْ بِالخَوَانِقِ

أَلَمْ يَكُ أَهْلًا أَنْ يُنَوَّلَ عَاشِقٌ ... تَكَلَّفَ إِدْلَاجَ السُّرَى وَالوَدَائِقِ

قَالَتْ: نَعَمْ فَدَيْتُكَ. وَأَنْتَ فَحُيِّيتَ عَشْرا، وَتِسْعًا وِتْرا، وَثَمَانِيًا تَتْرَى. قَالَ: فَقَدَّمُوهُ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَجَاءَتِ المَرْأَةُ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ، فَشَهِقَتْ شَهْقَةً أَوْ شَهْقَتَيْنِ ثُمَّ مَاتَتْ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: **أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ؟** [انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٩٤)].

بَعْثُ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ لِهَدْمِ العُزَّى:

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانَ هَدْمُهَا لِخَمْسٍ بَقِينَ مِنْ رَمَضَانَ عَامَئِذٍ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى العُزَّى، وَكَانَتْ بَيْتًا بِنَخْلَةَ يُعَظِّمُهُ قُرَيْشٌ وَكِنَانَةُ وَمُضَرُ، وَكَانَ سَدَنَتُهَا وَحُجَّابُهَا مِنْ بَنِي شَيْبَانَ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ حُلَفَاءُ بَنِي هَاشِمٍ، فَلَمَّا سَمِعَ حَاجِبُهَا السُّلَمِيُّ بِمَسِيرِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ إِلَيْهَا عَلَّقَ سَيْفَهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ اشْتَدَّ فِي الجَبَلِ الَّذِي هِيَ فِيهِ وَهُوَ يَقُولُ:

أَيَــا عُــزَّ شُــدِّي شَــدَّةً لَا شَــوَى لَهَــا ... عَلَــى خَالِــدٍ أَلْقِــي القِنَــاعَ وَشَــمِّرِي

أَيَــا عُــزَّ إِنْ لَــمْ تَقْتُلِــي المَــرْءَ خَالِــدًا ... فَبُــوئِي بِــإِثْمٍ عَاجِــلٍ أَوْ تَنَصَّــرِي

قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَى خَالِدٌ إِلَيْهَا هَدَمَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَقَدْ رَوَى الوَاقِدِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَهَا خَالِدٌ لِخَمْسٍ بَقِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَهَدَمَهَا، وَرَجَعَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَ شَيْئًا. فَأَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ، فَلَمَّا رَجَعَ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ البَيْتِ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تُوَلْوِلُ، فَعَلَاهَا بِالسَّيْفِ وَجَعَلَ يَقُولُ:

يَــا عُــزَّ كُفْرَانَــكِ لَا سُــبْحَانَكِ ... إِنِّــي رَأَيْــتُ اللهَ قَــدْ أَهَانَــكِ

ثُمَّ خَرَّبَ ذَلِكَ البَيْتَ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ، وَأَخَذَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **تِلْكَ العُزَّى** وَلَا تُعْبَدُ أَبَدًا. [انظر: الصحيح المسند للوادعي (٥٣٥)].

وَقَالَ البَيْهَقِيُّ: أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الفَقِيهُ، أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ، أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، عَنِ ابْنِ فُضَيْلٍ، عَنِ الوَلِيدِ بْنِ جُمَيْعٍ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا العُزَّى، فَأَتَاهَا، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ وَهَدَمَ البَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: **ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا**. فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ السَّدَنَةُ -وَهُمْ حُجَّابُهَا-، أَمْعَنُوا هَرَبًا فِي الجَبَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى خَبِّلِيهِ، يَا عَزَّى عَوِّرِيهِ، وَإِلَّا فَمُوتِي بِرَغْمٍ. قَالَ: فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا وَوَجْهِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: **تِلْكَ العُزَّى**» [البداية والنهاية لابن كثير، بتصرُّف].

تفسير سورة تبَّت

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾

رَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي عَدِيٍّ -لِبُطُونِ قُرَيْشٍ- حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ!، فَجَاءَ أَبو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ ﷺ: أَرَأَيْتَكُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عليْكُم؛ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوم، أَلِهَذا جَمَعْتَنا؟! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾» [البخاري (٤٧٧٠)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفا، فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهْ، فَقَالوا: مَن هَذا الذي يَهْتِفُ؟ قَالوا: مُحَمَّدٌ، فاجْتَمَعُوا إلَيْهِ، فَقَالَ: يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي عبدِمَنافٍ، يَا بَنِي عَبْدِالمُطَّلِبِ، فَاجْتَمَعُوا إلَيْهِ، فقالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بسَفْحِ هَذا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالوا: مَا جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ: فَقَالَ أَبو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، أَمَا جَمَعْتَنَا إلا لِهَذا؟!، ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ هذِه السُّورَةُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ﴾. كَذا قَرَأَ الْأَعْمَشُ إلى آخِرِ السُّورَةِ» [مسلم (٢٠٨)].

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؛ الْأَوَّلُ: دُعَاءٌ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي: خَبَرٌ عَنْهُ. فَأَبُو لَهَبٍ هَذَا هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاسْمُهُ: عَبْدُالعُزَّى بْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو عُتْبَةَ.

وَإِنَّمَا سُمِّيَ (أَبَا لَهَبٍ) لِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْأَذِيَّةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَالبُغْضَةِ لَهُ وَالِازْدِرَاءِ بِهِ وَالتَّنَقُّصِ لَهُ وَلِدِينِهِ.

رَوَى الإِمَامُ أَحْمَد: عَنْ رَبِيعَة بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مِنْ بَنِي الدِّيل، وَكَانَ جَاهِلِيًّا فَأَسْلَمَ- قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ (ذِي المَجَازِ) وَهُوَ يَقُولُ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا!** وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الوَجْهِ أَحولُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ، يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ. يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا: هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ» [صحيح السيرة النبوية للألباني، ص (١٤٢-١٤٣)].

وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي -لَمَعَ أَبِي- رَجُلٌ شَابٌّ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتْبَعُ القَبَائِلَ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ وَضِيءٌ ذُو جُمَّة. يَقِفُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى القَبِيلَةِ فَيَقُولُ: **يَا بَنِي فُلَانٍ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، آمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُصَدِّقُونِي وَتَمْنَعُونِي حَتَّى أُنَفِّذَ عَنِ اللهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ.** وَإِذَا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ قَالَ الْآخَرُ مِنْ خَلْفِهِ: يَا بَنِي فُلَانٍ، هَذَا يُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَسْلُخُوا اللَّاتَ وَالعُزَّى، وَحُلَفَاءَكُمْ مِنَ الجِنِّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ أُقَيْش، إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ البِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تَسْمَعُوا لَهُ وَلَا تَتَّبِعُوهُ. فَقُلْتُ لِأَبِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾؛ **أَيْ**: خَسِرَتْ وَخَابَتْ، وَضَلَّ عَمَلُهُ وَسَعْيُهُ، ﴿**وَتَبَّ**﴾؛ **أَيْ**: وَقَدْ تَبَّ؛ تَحَقَّقَت خَسَارَتهُ وَهَلَاكهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ**﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: ﴿**وَمَا كَسَبَ**﴾؛ **يَعْنِي**: وَلَدَهُ. وَرُوِي عَنْ عَائِشَة، وَمُجَاهِدٍ، وَعَطَاءٍ، وَالحَسَنِ، وَابْنِ سِيرِينَ، مِثْلَهُ. وَذُكِرَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِيمَانِ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: إِذَا كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا، فَإِنِّي أَفْتَدِي نَفْسِي يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ العَذَابِ بِمَالِي وَوَلَدِي، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ**﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿**سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾؛ **أَيْ**: ذَاتَ شَرَرٍ وَلَهِيبٍ وَإِحْرَاقٍ شَدِيدٍ.

﴿**وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ**﴾ وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ سَادَاتِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، وَهِيَ: أُمُّ جَمِيلٍ، وَاسْمُهَا أَرْوَى بنتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ. وَكَانَتْ عَوْنًا لِزَوْجِهَا عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ وَعِنَادِهِ؛ فَلِهَذَا تَكُونُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَونًا عَلَيْهِ فِي عَذَابِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ**﴾؛ **يَعْنِي**: تَحْمِلُ الحَطَبَ فَتُلْقِيهِ عَلَى زَوْجِهَا، لِيَزْدَادَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ، وَهِيَ مُهَيَّأَة لِذَلِكَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾؛ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعُرْوَةُ: مِنْ مَسَدِ النَّارِ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالثَّوْرِيِّ، وَالسُّدِّيِّ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ كَانَتْ تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطِيَّةَ الجَدَلِيِّ، وَالضَّحَّاكِ، وَابْنِ زَيْدٍ: كَانَتْ تَضَعُ الشَّوْكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقِيلَ: كَانَتْ تُعَيِّرُ النَّبِيَّ ﷺ بِالفَقْرِ، وَكَانَتْ تَحْتَطِبُ، فَعُيِّرَتْ بِذَلِكَ. كَذَا حَكَاهُ، وَلَمْ يَعْزُهُ إِلَى أَحَدٍ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقَالَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ: كَانَتْ لَهَا قِلَادَةٌ فَاخِرَةٌ فَقَالَتْ: لَأُنْفِقَنَّهَا فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ، يَعْنِي: فَأَعْقَبَهَا اللهُ بِهَا حَبْلًا فِي جِيدِهَا مِنْ مَسَدِ النَّارِ.

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: المَسَدُّ: اللِّيفُ. وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: المَسَدُّ: سِلْسِلَةٌ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا.

وَعَنِ الثَّوْرِيِّ: هِيَ قِلَادَةٌ مِنْ نَارٍ، طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا. وَقَالَ الجَوْهَرِيُّ: المَسَدُ: اللِّيفُ. وَالمَسَد أَيْضًا: حَبْلٌ مِنْ لِيفٍ أَوْ خُوصٍ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ أَوْ أَوْبَارِهَا، وَمَسَدْتُ الحَبْلَ أَمْسُدُهُ مَسْدًا: إِذَا أَجَدْتُ فَتْلَهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أَيْ: طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَلَا تَرَى أَنَّ العَرَبَ يُسَمَّوْنَ البَكْرَةَ مَسَدًا؟

وَرُوِيَ عَنْ أَسْمَاء بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، أَقْبَلَتِ العَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ، وَلَهَا وَلْوَلَةٌ، وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ، وَهِيَ تَقُولُ: (مُذَمَّمًا أَبَيْنَا، وَدِينَهُ قَلَيْنَا، وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا)[1]، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي. وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]. فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي؟ فَقَالَ: لَا وَرَبِّ هَذَا البَيْتِ؛ مَا هَجَاكِ. فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي ابْنَةُ سَيِّدِهَا.

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ ولَعْنَهُمْ؟! يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، ويَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وأنا مُحَمَّدٌ!» [البخاري (٣٥٣٣)].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ**﴾ جَاءَتِ امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ إِلى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ. فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا امرَأَةٌ بَذِيئَةٌ، وَأَخَافُ أَن تُؤْذِيَكَ، فَلَوْ قُمْتَ! قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي**. فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ! إِنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، قَالَ: لَا، وَمَا يَقُولُ الشِّعْرَ، قَالَتْ: أَنْتَ عِنْدِي مُصَدَّقٌ، وَانصَرَفَت، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَمْ تَرَكَ؟! قَالَ: **لَا، لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ يَسْتُرُنِي مِنْهَا بِجَنَاحَيْه**» [صحيح الموارد (١٧٦٢)].

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾؛ **أَيْ**: فِي عُنُقِهَا حَبْلٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ تُرفَع بِهِ إِلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ يُرْمَى بِهَا إِلَى أَسْفَلِهَا، ثُمَّ كَذَلِكَ دَائِمًا.

قَالَ العُلَمَاءُ: وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّهُ مُنْذُ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾؛ فَأَخْبَرَ عَنْهُمَا بِالشَّقَاءِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ، ولَمْ يُقَيِّضْ لَهُمَا أَنْ يُؤْمِنَا، وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، لَا مُسِرًّا وَلَا مُعْلِنًا، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ البَاهِرَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ الظَّاهِرَةِ!

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الإخلاص

(مكية)

ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِهَا: عَنْ أُبَيٍّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ**﴾» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٦٤)].

فِي فَضْلِهَا: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **سَلُوهُ: لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟** فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**» [البخاري (٧٣٧٥)، مسلم (٨١٣)].

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُم في مَسْجِدِ قُبَاءَ، فَكَانَ كُلَّمَا افتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ لَهُم في الصَّلاةِ افْتَتَحَ بِـ ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ حتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ بِسُورَةٍ أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ في كُلِّ رَكْعَةٍ. فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالوا: إنَّكَ تَقْرَأُ بِهَذِهِ السُّورةِ، ثُمَّ لا تَرَى أنَّها تُجْزِيكَ حتَّى تَقْرَأَ بِسُورَةٍ أُخْرَى، فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا، وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِسُورَةٍ أُخْرَى، قَالَ: مَا أَنا بِتَارِكِها، إنْ أَحْبَبْتُمْ أَن أَؤُمَّكُم بِهَا فَعَلْتُ، وَإِن كَرِهْتُم تَرَكْتُكُم. وَكَانوا يَرَوْنَهُ أَفْضَلَهُم، وَكَرِهُوا أَن يَؤُمَّهُم غَيْرُهُ. فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَروهُ الخَبَرَ. فَقَالَ: **يَا فُلانُ، مَا يَمْنَعُكَ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ أَنْ تَقْرَأَ هَذِهِ السُّورةَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟** فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحِبُّهَا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ**» [صحيح سنن الترمذي (٢٩٠١)].

فِي كَوْنِهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **وَالذي نَفْسِي بيَدِهِ، إِنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**» [البخاري (٦٦٤٣)].

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قَالوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**» [البخاري (٦٦٤٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْشُدُوا؛ فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عليكُم ثُلُثَ القُرْآنِ،**

فَحَشَدَ مَن حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فَقالَ بَعْضُنا لِبَعْضٍ: إنِّي أُرَى هَذا خَبَرٌ جاءَهُ مِنَ السَّماءِ، فَذاكَ الذي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقالَ: **إنِّي قُلتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عليْكُم ثُلُثَ القُرْآنِ، ألا إنَّها تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**» [مسلم (٨١٢)].

فِي كَوْنِ قِرَاءَتِهَا تُوجِبُ الجَنَّةَ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، فَقَالَ: **وَجَبَتْ**، فَسَأَلْتُهُ: مَاذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: **الجَنَّةُ**، قَالَ أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَرَدتُ أَن أَذْهَبَ إِلى الرَّجُلِ فَأُبشِّرَهُ، ثُمَّ فَرِقْتُ أَنْ يَفُوتَنِي الغَدَاءُ مَعَ رَسُولِ اللهِ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلى الرَّجُلِ، فَوَجَدتُهُ قَدْ ذَهَبَ» [صحيح الترغيب (١٤٧٨)].

فِي تَكْرَارِ قِرَاءَتِهَا وفَضْلِهَا مَعَ المُعَوِّذَتَيْنِ: عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ خُبَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَصَابَنَا طَشٌّ وَظُلْمَةٌ، فَانْتَظَرْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ بِنَا، فَخَرَجَ فَأَخَذَ بِيَدِي، فَقَالَ: **قُلْ**. فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ **وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا، يَكْفِيكَ كُلَّ شَيءٍ**» [صحيح سنن النسائي (٥٤٤٣)].

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الجَنَّةِ**. فَقَالَ عُمَرُ: إِذَنْ نَسْتَكْثِرُ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ ﷺ: **اللهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ**» [السلسلة الصحيحة (٥٨٩)].

فِي الدُّعَاءِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الأَسْمَاءِ: عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو وَهوَ يَقولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفوًا أَحَدٌ)، قَالَ: فَقَالَ: **وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**» [صحيح سنن الترمذي (٣٤٧٥)].

فِي الِاسْتِشْفَاءِ بِهَا مَعَ المُعَوِّذَتَيْنِ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِما، فَقَرَأَ فِيهِما: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، وَ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ**﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِن جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ ووَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِن جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ» [البخاري (٥٠١٧)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِهَا. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَمَّا قَالَتِ اليَهُودُ: نَحْنُ نَعْبُدُ عُزيرَ ابْنَ اللهِ. وَقَالَتِ النَّصَارَى: نَحْنُ نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ اللهِ. وَقَالَتِ المَجُوسُ: نَحْنُ نَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ. وَقَالَتِ المُشْرِكُونَ: نَحْنُ نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ؛ أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ **يَعْنِي**: هُوَ الوَاحِدُ الْأَحَدُ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ، وَلَا نَدِيدَ وَلَا شَبِيهَ وَلَا عَدِيلَ، وَلَا يُطلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِثْبَاتِ إِلَّا عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ الكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: **يَعْنِي**: الَّذِي يَصْمُدُ الخَلَائِقُ إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيضًا: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظْمَتِهِ، وَالحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ. وعَنْ أَبِي وَائِلٍ: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السَّيِّدُ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾؛ السَّيِّدُ. وَقَالَ الحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُوَ البَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ. وَقَالَ الحَسَنُ أَيْضًا: الحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. كَأَنَّهُ جَعَلَ مَا بَعْدَهُ تَفْسِيرًا لَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَهُوَ تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ بُرَيْدَة، وَعِكْرِمَةُ أَيضًا، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَعَطِيَّةُ العوفِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾؛ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: هُوَ الَّذِي لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَلَا يَشْرَبُ الشَّرَابَ. وَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ بُرَيدة أَيْضًا: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ.

رَوَى ذَلِكَ كُلَّهُ وَحَكَاهُ: ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالبَيْهَقِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ، وَكَذَا أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ سَاقَ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِأَسَانِيدِهِ. وَقَدْ قَالَ الحَافِظُ أَبُو القَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ فِي كِتَابِ (السُّنَّةِ) لَهُ بَعْدَ إِيرَادِهِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: وَكُلُّ هَذِهِ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ صِفَاتُ رَبِّنَا عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ الَّذِي يُصْمَدُ

إِلَيْهِ فِي الحَوَائِجِ، وَهُوَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ، وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَهُوَ البَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ. وَقَالَ البَيْهَقِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ أَيْ: لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ يَعْنِي: لَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ أَيْ: هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَظِيرٌ يُسَامِيهِ، أَوْ قَرِيبٌ يُدَانِيهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ» [مسلم (٢٨٠٤)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُئًا أَحَدٌ» [البخاري (٤٩٧٤)].

تفسير سورتي المعوذتين

(مدنيتان)

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلْتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ، قُلتُ: يَا أَبا المُنْذِرِ، إنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذا وَكَذا، فَقَالَ أُبَيٌّ: سَأَلْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ فَقالَ لِي: قِيلَ لِي فَقُلْتُ، قَالَ: فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ» [البخاري (٤٩٧٧)][1].

وَهَذَا مَشْهُورٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ القُرَّاءِ وَالفُقَهَاءِ: أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ لَا يَكْتُبُ المُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ، فَلَعَلَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُمَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَتَوَاتَرْ عِنْدَهُ، ثُمَّ لَعَلَّهُ قَدْ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ الجَمَاعَةِ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَتَبُوهُمَا فِي المَصَاحِفِ الْأَئِمَّةِ، وَنَفَّذُوهَا إِلَى سَائِرِ الْآفَاقِ كَذَلِكَ، وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟!**؛ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ**﴾» [مسلم (٨١٤)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنا أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَقْبٍ مِن تِلْكَ النِّقَابِ، إِذْ قَالَ: **أَلا تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ؟**، فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: **أَلا تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ؟**، فَأَجْلَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْكَبَ مَرْكَبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: **أَلا تَرْكَبُ يَا عُقْبَةُ؟** فَأَشْفَقْتُ أَنْ يَكُونَ مَعْصِيَةً، فَنَزَلَ، وَرَكِبْتُ هُنَيْهَةً وَنَزلتُ، وَرَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: **أَلا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ مِن خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ؟** فَأَقْرَأَنِي: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ**﴾،

---

(١) قَالَ الإِمَامُ ابنُ قَيِّم الجَوْزِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «قُلْتُ: مَفْعُولُ القَوْلِ مَحْذُوفٌ، وَتَقْدِيرُهُ: (قِيلَ لِي: قُلْ)، أَوْ: قِيلَ لِي هَذا اللَّفْظُ، فَقُلْتُ كَمَا قِيلَ لِي. وَتَحْتَ هَذا مِنَ السِّرِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ لَهُ فِي القُرْآنِ إِلا بَلَاغُهُ، لا أَنَّهُ هُوَ أَنْشَأَهُ مِن قِبَلِ نَفْسِهِ، بَلْ هُوَ المُبَلِّغُ لَهُ عَنِ اللهِ. وَقَدْ قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾ فَكَانَ مُقْتَضَى البَلاغِ التَّام أَنْ يَقُول: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾ كَمَا قَالَ اللهُ. وَهَذا هُوَ المَعْنَى الذي أَشَارَ إِلَيْهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: (قِيلَ لِي فَقُلْتُ) أَيْ: فَلَسْتُ مُبْتَدِئًا، بَلْ أَنَا مُبَلِّغٌ، أَقُولُ كَمَا يُقَالُ لِي، وَأُبَلِّغُ كَلامَ رَبِّي كَمَا أَنْزَلَهُ إِلَيَّ. فَصَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ؛ لَقَدْ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الأَمَانَةَ، وَقَالَ كَمَا قِيلَ لَهُ، فَكَفَانَا وَشَفَانَا مِن المُعْتَزِلَةِ وَالجَهْمِيَّةِ وَإِخْوَانِهِم مِمَّنْ يَقُول: هَذا القُرآنُ العَرَبِيُّ وَهَذا النَّظْمُ كَلامُهُ ابْتَدَأَ هُوَ بِهِ! فَفِي هَذا الحَدِيثِ أَبْيَن الرَّدِّ لِهَذا القَوْل، وَأَنَّهُ ﷺ بَلَّغَ القَوْلَ الذي أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ عَلَى وَجْهِهِ وَلَفْظِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ: (قُلْ) قَالَ هُوَ: (قُلْ)؛ لأَنَّهُ مُبَلِّغٌ مَحْضٌ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا البَلاغ» [بدائع الفوائد].

فَأُقِيمَتِ الصَّلاةُ، فَتَقَدَّمَ، فَقَرَأَ بهمَا، ثُمَّ مَرَّ بِي، فَقَالَ: **كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَة بنَ عَامِرٍ؟ اقْرَأْ بهمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَقُمْتَ**» [صحيح سنن النسائي (٥٤٥٢)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ» [صحيح سنن أبي داود (١٥٢٣)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْرَأْ بِالمُعَوِّذَتَيْنِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا**» [صحيح الجامع (١١٦٠)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أُهْدِيَتْ للنبيِّ ﷺ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ، فَرَكِبَها، وَأَخَذَ عُقْبَةُ يَقُودُها بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لعُقبةَ: **اقرَأْ**، قَالَ: وَمَا أَقرَأُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **اقْرَأْ**: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾، فَأَعَادَهَا عَلَيَّ حَتَّى قَرَأْتُهَا، فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، قَالَ: **لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا، فَمَا قُمْتَ** -يَعْنِي: تُصَلِّي- **بِمِثْلِها**» [صحيح سنن النسائي (٥٤٤٨)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا عُقْبَةُ؟ أَلا أُعلِّمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**، و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، يَا عُقْبَةُ! اقْرَأْ بهمَا كُلَّمَا نمتَ وَقُمتَ، مَا سَأَلَ سَائِلٌ، وَلا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**» [صحيح الجامع (٧٩٤٨)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ بِهِمَا فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ» [صحيح سنن النسائي (٥٤٥٠)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «اتَّبَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهوَ رَاكِبٌ، فَوَضَعْتُ يَدي عَلَى قَدمِهِ، فَقُلتُ: أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللهِ سُورَةَ هُودٍ وَسُورَةَ يُوسُف، فَقَالَ: **لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ مِن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**، و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**» [صحيح سنن النسائي (٩٥٢)].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا ابنَ عَابِسٍ! أَلا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ المُتَعَوِّذُونَ؟** قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**، و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ**» [السلسلة الصحيحة (١١٠٤)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْرَأْ يَا جَابِرُ**. قُلْتُ: وَمَاذا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسولَ اللهِ؟ قَالَ: **اقْرَأْ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾**، وَ**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقَرَأْتُهُمَا، فَقَالَ: اقْرَأْ بِهِمَا، وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا**» [صحيح سنن النسائي (٥٤٥٦)].

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ، وَيَنْفُثُ فِي كَفَّيْهِ، وَيَمْسَحُ بِهِمَا رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ.

وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذا اشْتكى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالمُعَوِّذاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِها» [البخاري (٥٠١٦)].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِن الجَانِّ وَعَينِ الإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتْ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ؛ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا» [صحيح سنن الترمذي (٢٠٥٨)].

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ﴿الْفَلَقِ﴾: الصُّبْحُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ. وعَنْ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ، وزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، مِثْلَ هَذَا.

قَالَ القُرَظِيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضا: ﴿الْفَلَقِ﴾؛ الخَلْقِ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِنَ الخَلْقِ كُلِّهِ. وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: بَيْتٌ فِي جَهَنَّمَ، إِذَا فُتِحَ صَاحَ جَمِيعُ أَهْلِ النَّارِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ آبَائِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿الْفَلَقِ﴾؛ جُبٌّ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، عَلَيْهِ غِطَاءٌ، فَإِذَا كُشِفَ عَنْهُ خَرَجَتْ مِنهُ نَارٌ تَصِيحُ مِنْهُ جَهَنَّمُ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ.

وَكَذَا رُوِي عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ. وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِيُّ: ﴿الْفَلَقِ﴾؛ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ القَوْلُ الْأَوَّلُ، أَنَّهُ فَلَقُ الصُّبْحِ. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ البُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾؛ أَيْ: مِنْ شَرِّ جَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ. وَقَالَ ثَابِتٌ البُنَانِيُّ، وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ: جَهَنَّمُ وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ مِمَّا خَلَقَ.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿غَاسِقٍ﴾؛ اللَّيْلُ، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾؛ غُرُوبُ الشَّمْسِ. حَكَاهُ البُخَارِيُّ عَنْهُ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وخُصَيْف، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: إِنَّهُ اللَّيْلُ إِذَا أَقْبَلَ بِظَلامِهِ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ. وَعَنْ عَطِيَّةَ وَقَتَادَةَ: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ اللَّيْلُ؛ إِذَا ذَهَبَ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: الكَوْكَبُ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَتِ العَرَبُ تَقُولُ: الغَاسِقُ: سُقُوطُ الثُّرَيَّا، وَكَانَتْ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ تَكْثُرُ عِنْدَ وُقُوعِهَا، وَتَرْتَفِعُ عِنْدَ طُلُوعِهَا. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ القَمَرُ.

قُلْتُ: وَعُمْدَةُ أَصْحَابِ هَذَا القَوْلِ مَا وَرَدَ عَنْ أُمِّ المُؤْمنينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِي، فَنَظَرَ إِلى القَمَرِ، فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ! اسْتَعِيذِي بِاللهِ: ﴿مِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؛ هَذا غَاسِقٌ إِذَا وَقَب**» [هداية الرواة (٢٤٠٩)].

وَفِي لَفْظٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلى القَمَرِ، فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ، اسْتَعيذي بِاللهِ مِن شَرِّ هَذا، فَإِنَّ هَذا هُوَ الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ**» [صحيح سنن الترمذي (٣٣٦٦)].

قَالَ أَصْحَابُ القَوْلِ الْأَوَّلِ -وَهُوَ أَنَّهُ اللَّيْلُ إِذَا وَلَجَ-: هَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَنَا؛ لِأَنَّ القَمَرَ آيَةُ اللَّيْلِ، وَلَا يُوجَدُ لَهُ سُلْطَانٌ إِلَّا فِيهِ، وَكَذَلِكَ النُّجُومُ لَا تُضِيءُ إِلَّا فِي اللَّيْلِ، فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَاهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ: **يَعْنِي**: السَّوَاحِرَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا رَقَيْنَ وَنَفَثْنَ فِي العُقَدِ.

وَعَنْ طَاوُس قَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَقْرَبُ إِلى الشِّرْكِ مِنْ رُقْيَةِ الحَيَّةِ وَالمَجَانِينِ.

وَفِي الحَدِيثِ: «أَنَّ جِبْرِيلَ أَتى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِن كُلِّ شَيءٍ يُؤْذِيكَ، مِن شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**» [مسلم (٢١٨٦)].

وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ مِنْ شَكْوَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ سُحِرَ، ثُمَّ عَافَاهُ اللهُ تَعَالَى وَشَفَاهُ، وَرَدَّ كَيْدَ السَّحَرَةِ الحُسَّادِ مِنَ اليَهُودِ فِي رُؤُوسِهِمْ، وَجَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي تَدْبِيرِهِمْ، وَفَضَحَهُمْ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَمْ يُعَاتِبْهُ

رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، بَلْ كَفَى اللهُ وَشَفَى وَعَافَى.

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ يَدْخُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ يَأْمَنُهُ، فَعَقَدَ لَهُ عُقَدًا، فَوَضَعَهُ فِي بِئْرِ رَجُلٍ مِن الأَنْصَارِ، فَاشْتَكَى لِذَلِكَ أَيَّامًا -وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ-، فَأَتَاهُ مَلَكَانِ يَعُودَانِهِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَتَدْرِي مَا وَجَعُهُ؟ قَالَ: فُلانٌ الَّذِي كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ عَقَدَ لَهُ عُقَدًا، فَأَلْقَاهُ فِي بِئْرِ فُلانٍ الأَنْصَارِيِّ، فَلَوْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَجُلًا وَأَخَذَ مِنْهُ العُقَدَ، لَوَجَدَ المَاءَ قَدْ اصْفَرَّ، فَأَتَاهُ جِبرِيلُ فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِن اليَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلانٍ، قَالَ: فَبَعَثَ رَجُلًا -وَفِي طَرِيقٍ أُخْرَى: فَبَعَثَ عَلِيًّا- فَوَجَدَ المَاءَ قَد اصْفَرَّ، فَأَخَذَ العُقَدَ فَجَاءَ بِهَا، فَأَمَرَهُ أَنْ يَحِلَّ العُقَدَ وَيَقْرَأَ آيَةً، فَحَلَّهَا، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحِلُّ، فَجَعَلَ كُلَّمَا حَلَّ عُقْدَةً وَجَدَ لِذَلِكَ خِفَّةً فَبَرأَ -وَفِي الطَّرِيقِ الأُخْرَى: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ كَأَنَّمَا نُشِطَ مِن عِقالٍ-، وَكَانَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ يَدْخُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ شَيْئًا مِنْهُ، وَلَمْ يُعَاتِبْهُ قَطُّ حَتَّى مَاتَ» [السلسلة الصحيحة (٢٧٦١)].

وَرَوَى البُخَارِيُّ فِي «كِتَابِ الطِّبِّ» مِنْ صَحِيحِهِ: عَنْ أُمِّ المُؤْمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُحِرَ، حتَّى كَانَ يَرَى أَنَّه يَأْتِي النِّساءَ وَلا يَأْتِيهِنَّ -قَالَ سُفْيانُ: وَهَذا أَشَدُّ مَا يَكونُ مِنَ السِّحْرِ، إذا كانَ كَذا-، فَقالَ: **يَا عَائِشَةُ، أَعَلِمْتِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُما عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقالَ الذي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَن طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بنُ أَعْصَمَ** -رَجُلٌ من بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ كَانَ مُنافِقًا- **قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشاطَةٍ، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوانَ**، قَالَتْ: فَأَتى النَّبِيُّ ﷺ البِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ، فَقالَ: **هذِهِ البِئْرُ الَّتِي أُرِيتُها، وَكَأَنَّ مَاءَها نُقاعَةُ الحِنَّاءِ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّياطِينِ، قَالَ: فاسْتُخْرِجَ**، قَالَتْ: فَقُلتُ: أَفَلا؟ -أيْ: تَنَشَّرْتَ- فَقالَ: **أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا**» [البخاري (٥٧٦٥)].

تفسير سورة الناس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

هَذِهِ ثَلَاثُ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ؛ الرُّبُوبِيَّةُ، وَالمُلْكُ، وَالْإِلَهِيَّةُ: فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَمْلُوكَةٌ، عَبِيدٌ لَهُ، فَأَمَرَ المُسْتَعِيذَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالمُتَّصِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ المُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوهُ جُهْدًا فِي الخَبَالِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ: «**مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ، إِلا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ**، قَالوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ **قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلا يَأْمُرُنِي إِلا بِخَيْرٍ**. -وفي رواية-: **وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ المَلائِكَةِ**» [مسلم (٢٨١٤)].

وَعَنْ أُمِّ المُؤْمنين صَفِيَّة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «أَنَّها جَاءَتْ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكافِهِ فِي المَسْجِدِ فِي العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ ساعَةً، ثُمَّ قامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقامَ النبيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُها، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلانِ مِنَ الأنْصارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النبيُّ ﷺ: **عَلَى رِسْلِكُما، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**، فَقَالا: سُبْحانَ اللهِ يَا رَسولَ اللهِ!، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ الشَّيْطانَ يَبْلُغُ مِنَ الإنْسانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا**» [البخاري (٢٠٣٥)].

وَفِي رِوَايَة قَالَتْ: «كَانَ النبيُّ ﷺ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا، فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ، فَقامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ، فَمَرَّ رَجُلانِ مِنَ الأنْصارِ، فَلَمَّا رَأَيا النبيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّها صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**. فَقَالا: سُبْحانَ اللهِ يا رَسولَ اللهِ!

قَالَ: **إِنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنَ الإنْسانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُما شَرًّا، أَوْ قَالَ: شَيْئًا**» [مسلم (٢١٧٥)].

وَعَنْ عَاصِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا تَمِيمَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَدِيفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَعَثَرَت دَابَّتُهُ، فَقُلتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ: **لا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ البَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِن قُلْ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبابِ**» [صحيح سنن أبي داود (٤٩٨٢)].

وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ القَلْبَ مَتَى ذَكَرَ اللهَ تَصَاغَرَ الشَّيْطَانُ وغُلِبَ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ تَعَاظَمَ وَغَلَبَ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُم إِذَا كَانَ فِي الصَّلاةِ جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَأَبَسَّ بِهِ كَمَا يُبِسُّ الرَّجُلُ بِدَابَّتِهِ، فَإِذَا سَكَنَ لَهُ؛ أَضْرَطَ بَيْنَ أَلْيَتَيهِ؛ لِيَفتِنَه عَن صَلاتِه، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُم شَيئًا مِن ذَلِكَ، فَلا يَنصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا لا يَشُكُّ فِيهِ**» [تخريج المسند لشاكر].

وَفِي رِوَايَة: «**إِنَّ أَحَدَكُم إِذَا كَانَ فِي المَسْجِدِ جَاءَهُ الشَّيْطانُ فَأَبَسَّ بِهِ كَمَا يَأبِسُ الرَّجُلُ بِدابَّتِه، فَإِذا سَكَنَ لَهُ زَنَقَهُ أَوْ أَلجَمَهُ**» [الصحيح المسند للوادعي].

قَالَ أَبُو هُرَيرة: وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ ذَلِكَ، أَمَّا المَزْنُوقُ فَتَرَاهُ مَائِلًا -كَذَا- لَا يَذْكُرُ اللهَ، وَأَمَّا المُلْجَمُ فَفَاتِحٌ فَاهُ لَا يَذْكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿**ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ**﴾ قَالَ: الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللهُ خَنَس. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ.

وَقَالَ المُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ: ذُكِرَ لِي أَنَّ الشَّيْطَانَ -أَوِ: الوَسْوَاسَ- يَنْفُثُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ الحُزْنِ وَعِنْدَ الفَرَحِ، فَإِذَا ذَكَرَ الله خَنَسَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿**ٱلْوَسْوَاسِ**﴾ قَالَ: هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْمُرُ، فَإِذَا أُطِيعَ خَنَسَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ**﴾ هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بِبَنِي آدَمَ -كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ- أَوْ يَعُمُّ بَنِي آدَمَ وَالجِنَّ؟

فِيهِ قَوْلَانِ، وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِيبًا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدِ اسْتَعْمَلَ فِيهِمْ ﴿**بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ**﴾. فَلَا بِدْعَ فِي إِطْلَاقِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَهُمْ فَقَالَ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؟ وَهَذَا يُقَوِّي القَوْلَ الثَّانِيَ.

وَقِيلَ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ -يَعْرِضُ بِالشَّيْءِ- لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ**» [صحيح سنن أبي داود (٥١١٢)].

❁ ❁ ❁

وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين

وَرَضِيَ اللهُ عَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِين

حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل

مِن فَضَائِلِ حِفْظِ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَتَعَلُّمِهَا وَتَبْلِيغِهَا

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثمَّ بلَّغَهَا عَنِّي، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» [صحيح سنن ابن ماجه (١٩٤)].

وَفِي رِوَايَة: قَالَ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ امرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَن هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ..» [صحيح سنن ابن ماجه (١٨٨)].

وَفِي رِوَايَة: قَالَ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ..» [صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٨)].

وَفِي رِوَايَة: قَالَ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ امرأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٧)].

وَفِي رِوَايَة: قَالَ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْر فَقيه، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَن هُوَ أَفْقَهُ مِنهُ، ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ العَمَلِ للهِ، وَالنُّصْحُ لأَئِمَّةِ المُسْلِمينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُم تَحُوطُ مَنْ وَرَاءَهُم» [صحيح الجامع (٦٧٦٦)].

وَقَالَ ﷺ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ، فإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَن هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنهُ» [البخاري (٦٧)].

وَقَالَ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» [البخاري (٣٤٦١)]؛ «فَحَدِيث: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً) يُحْمَلُ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ تَعْلِيمِ الغَيْرِ وَنَشْرِ العِلْمِ فِي حُدُودِ مَا يَعْلَم الإِنْسَان، وَلا يتَجَاوَزُ ذَلِكَ، فَالذي يُحْسِن كَيْفِيَّة الطَّهَارَة عَلَيْهِ أَن يُبَلِّغَهَا وَلَهُ الأَجْر، وَالذي يُحْسِن كِتَاب الصَّلاةِ عَلَيهِ أَن يُبَلِّغهُ للنَّاس وَيُبَيِّنَهُ لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلى بَيَانِه، وَهَكذا بَقِيَّةُ الأَحْكَام، وَلكن لا يَجُوز لَهُ أَنْ يَتَجَاوز حُدودَ مَا يَعْلَم فَيَقَع فِي المَحْظُور الذي قَال اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهِ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾» [زيد بن محمد بن هادي].

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ ما بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أصابَ أَرْضًا، فَكانَتْ مِنْها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْها أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْها وسَقَوْا ورَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْها أُخْرى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا

تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلِكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ» [مسلم (٢٢٨٢)]؛ «قَالَ القُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ: ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ مَثَلًا بِالغَيْثِ العَامِّ الَّذِي يَأْتِي فِي حَالِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَكَذَا كَانَ النَّاسُ قَبْلَ مَبْعَثِهِ، فَكَمَا أَنَّ الغَيْثَ يُحْيِي البَلَدَ المَيِّتَ، فَكَذَا عُلُومُ الدِّينِ تُحْيِي القَلْبَ المَيِّتَ.

ثُمَّ شَبَّهَ السَّامِعِينَ لَهُ بِالْأَرْضِ المُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَنْزِلُ بِهَا الغَيْثُ:

فَمِنْهُمُ العَالِمُ العَامِلُ المُعَلِّمُ. فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ شَرِبَتْ فَانْتَفَعَتْ فِي نَفْسِهَا وَأَنْبَتَتْ فَنَفَعَتْ غَيْرَهَا.

وَمِنْهُمُ الجَامِعُ لِلْعِلْمِ المُسْتَغْرِقِ لِزَمَانِهِ فِيهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِنَوَافِلِهِ أَوْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِيمَا جَمَعَ لَكِنَّهُ أَدَّاهُ لِغَيْرِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الَّتِي يَسْتَقِرُّ فِيهَا المَاءُ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِ، وَهُوَ المُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ العِلْمَ فَلَا يَحْفَظُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَنْقُلُهُ لِغَيْرِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ السَّبْخَةِ أَوِ المَلْسَاءِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ المَاءَ أَوْ تُفْسِدُهُ عَلَى غَيْرِهَا.

وَإِنَّمَا جَمَعَ فِي المَثَلِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ المَحْمُودَتَيْنِ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي الِانْتِفَاعِ بِهِمَا، وَأَفْرَدَ الطَّائِفَةَ الثَّالِثَةَ المَذْمُومَةَ لِعَدَمِ النَّفْعِ بِهَا. وَاللهُ أَعْلَمُ» [ابن حجر].

وَقَالَ ﷺ: **«مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنا قَاسِمٌ، وَاللهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلى أَمْرِ اللهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»** [البخاري (٧١)]؛ «فَالتَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ يَكُونُ عَن طَرِيقِ الكِتَابِ، وَيكُونُ عَن طَرِيقِ السُّنَّة، فَالتَّفَقُّهُ فِي السُّنَّة مِن الدَّلائِل عَلى أَن الله أَرَادَ بِالعَبْدِ خَيْرًا، كَمَا أَنَّ التَّفَقُّهَ فِي القُرْآنِ يَدُلُّ عَلى ذَلك، وَالأَدِلَّةُ فِي هَذا كَثِيرة -وَالحَمْدُ لله-» [ابن باز].

وَقَالَ ﷺ: **«مَن سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَن فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثوا العِلْمَ، فَمَن أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»** [صحيح سنن الترمذي (٢٦٨٢)].

وقد تكفل الله تعالى بحفظ الأحاديث النبوية كما تكفل بحفظ الآيات القرآنية؛ «لأن تكفُّله بحفظ القرآن يستلزم تكفُّله بحفظ بيانه وهو السُّنة، وحفظ لسانه وهو العربية، إذ المقصود بقاء الحجة قائمة والهداية باقية بحيث ينالها من يطلبها؛ لأن محمدًا خاتم الأنبياء وشريعته خاتمة الشرائع.

بل دلَّ على ذلك قوله: ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ**﴾ [القيامة: ١٩]، فحفظ الله السُّنة في صدور الصحابة والتابعين حتى كُتِبَت ودُوِّنَت، وكان التزام كتابتها في العهد النبوي شاقًّا جدًّا؛ لأنها تشمل جميعَ أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله وما يقوله غيره بحضرته أو يفعله وغير ذلك، والمقصود الشرعي منها معانيها -ليست كالقرآن المقصود لفظه ومعناه؛ لأنه كلام الله بلفظه ومعناه، ومعجز بلفظه ومعناه، ومُتَعبَّد بتلاوته بلفظه بدون أدنى تغيير-.

لاجَرَمَ خفَّف الله عنهم واكتفى من تبليغ السنة غالبًا بأنْ يَطَّلِعَ عليها بعضُ الصحابة، ويكمل الله تعالى حفظها وتبليغها بقدرته التي لا يعجزها شيء. فالشأن في هذا الأمر: هو العلم بأن النبي ﷺ قد بلَّغ ما أُمِر به، التبليغ الذي رضيه الله منه، وأن ذلك مظنَّة بلوغه إلى من يحفظه من الأمة ويبلغه عند الحاجة ويبقى موجودًا بين الأمة.

وتكفُّلُ اللهِ تعالى بحفظ دينه يجعل تلك المظنَّة مئِنَّة، فتمَّ الحفظُ كما أراد الله تعالى...ومن طالع تراجم أئمة الحديث من التابعين فمَنْ بَعْدَهم، وتدبر ما آتاهم الله تعالى من قوَّة الحفظ والفهم والرغبة الأكيدة في الجد والتشمير لحفظ السُّنة وحياطتها؛ بان له ما يحيِّر عقلَه، وعَلِم أن ذلك ثمرة تكفُّلِ الله تعالى بحفظ دينه!» [المعلمي، الأنوار الكاشفة].

وَقَالَ ﷺ: «**يَحْمِلُ هَذا العِلْمَ مِن كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**» [لا يقل عن درجة الحسن لغيره، ربيع بن هادي، الذريعة].

وأهل الأحاديث النبوية هم العدول الذين يحملون هذا العلم، وهم أهل النبي ﷺ؛ كما قيل:

أَهْــلُ الْحَــدِيثِ هُــمُ أَهْــلُ النَّبِــيِّ وَإِنْ لَــمْ يَصْــحَبُوا نَفْسَــهُ؛ أَنْفَاسَــهُ صَــحِبُوا

«لِأَنَّ الحَدِيثَ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْرِفَةِ أُصُولِ التَّوْحِيدِ، وَبَيَانِ مَا جَاءَ مِنْ وُجُوهِ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ، وِصِفَاتِ رَبِّ العَالَمِينَ -تَعَالَى عَنْ مَقَالَاتِ المُلْحِدِين-، وَالْإِخْبَارِ عَنْ صِفَاتِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَمَا

أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى فِيهِمَا لِلْمُتَّقِينَ وَالفُجَّارِ، وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي الْأَرَضِينَ وَالسَّمَوَاتِ مِنْ صُنُوفِ العَجَائِبِ وَعَظِيمِ الْآيَاتِ، وَذِكْرِ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ، وَنَعْتِ الصَّافِّينَ وَالمُسَبِّحِينَ.

وَفِي الحَدِيثِ قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَخْبَارُ الزُّهَّادِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَمَوَاعِظُ البُلَغَاءِ، وَكَلَامُ الفُقَهَاءِ، وَسِيَرُ مُلُوكِ العَرَبِ وَالعَجَمِ، وَأَقَاصِيصُ المُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْأُمَمِ، وَشَرْحُ مَغَازِي الرَّسُولِ ﷺ وَسَرَايَاهُ، وَجُمَلُ أَحْكَامِهِ وَقَضَايَاهُ، وَخُطَبُهُ وَعِظَاتُهُ، وَأَعْلَامُهُ وَمُعْجِزَاتُهُ، وَعِدَّةُ أَزْوَاجِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأَصْهَارِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَذِكْرُ فَضَائِلِهِمْ وَمَآثِرِهِمْ، وَشَرْحُ أَخْبَارِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ، وَمَبْلَغُ أَعْمَارِهِمْ، وَبَيَانُ أَنْسَابِهِمْ.

وَفِيهِ تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ، وَمَا فِيهِ مِنَ النَّبَإِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ، وَأَقَاوِيلُ الصَّحَابَةِ فِي الْأَحْكَامِ المَحْفُوظَةِ عَنْهُمْ، وَتَسْمِيَةُ مَنْ ذَهَبَ إِلَى قَوْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ الخَالِفِينَ وَالفُقَهَاءِ المُجْتَهِدِينَ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى أَهْلَهُ أَرْكَانَ الشَّرِيعَةِ، وَهَدَمَ بِهِمْ كُلَّ بِدْعَةٍ شَنِيعَةٍ، فَهُمْ أُمَنَاءُ اللهِ مِنْ خَلِيقَتِهِ، وَالوَاسِطَةُ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وَالمُجْتَهِدُونَ فِي حَفِظِ مِلَّتِهِ، أَنْوَارُهُمْ زَاهِرَةٌ، وَفَضَائِلُهُمْ سَائِرَةٌ، وَآيَاتُهُمْ بَاهِرَةٌ، وَمَذَاهِبُهُمْ ظَاهِرَةٌ، وَحُجَجُهُمْ قَاهِرَةٌ.

وَكُلُّ فِئَةٍ تَتَحَيَّزُ إِلَى هَوًى تَرْجِعُ إِلَيْهِ، أَوْ تَسْتَحْسِنُ رَأْيًا تَعْكُفُ عَلَيْهِ، سِوَى أَصْحَابِ الحَدِيثِ، فَإِنَّ الكِتَابَ عُدَّتُهُمْ، وَالسُّنَّةُ حُجَّتُهُمْ، وَالرَّسُولُ فِئَتُهُمْ، وَإِلَيْهِ نِسْبَتُهُمْ، لَا يُعَرِّجُونَ عَلَى الْأَهْوَاءِ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى الْآرَاءِ.

يُقْبَلُ مِنْهُمْ مَا رَوَوْا عَنِ الرَّسُولِ، وَهُمُ المَأْمُونُونَ عَلَيْهِ وَالعُدُولُ، حَفَظَةُ الدِّينِ وَخَزَنَتُهُ، وَأَوْعِيَةُ العِلْمِ وَحَمَلَتُهُ، إِذَا اخْتُلِفَ فِي حَدِيثٍ كَانَ إِلَيْهِمُ الرُّجُوعُ، فَمَا حَكَمُوا بِهِ فَهُوَ المَقْبُولُ المَسْمُوعُ.

وَمِنْهُمْ كُلُّ عَالِمٍ فَقِيهٌ، وَإِمَامٌ رَفِيعٌ نَبِيهٌ، وَزَاهِدٌ فِي قَبِيلَةٍ، وَمَخْصُوصٌ بِفَضِيلَةٍ، وَقَارِئٌ مُتْقِنٌ، وَخَطِيبٌ مُحْسِنٌ.

وَهُمُ الجُمْهُورُ العَظِيمُ، وَسَبِيلُهُمُ السَّبِيلُ المُسْتَقِيمُ، وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ بِاعْتِقَادِهِمْ يَتَظَاهَرُ، وَعَلَى الْإِفْصَاحِ بِغَيْرِ مَذَاهِبِهِمْ لَا يَتَجَاسَرُ.

مَنْ كَادَهُمْ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ عَانَدَهُمْ خَذَلَهُ اللهُ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا يُفْلِحُ مَنِ اعْتَزَلَهُمْ.

المُحْتَاطُ لِدِينِهِ إِلَى إِرْشَادِهِمْ فَقِيرٌ، وَبَصَرُ النَّاظِرِ بِالسُّوءِ إِلَيْهِمْ حَسِيرٌ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»[1].

وَلَقَدْ أَجَادَ العَلامَةُ حَافِظُ بنُ أَحْمَد الحَكَمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في وَصِيَّتِهِ بِالسُّنَّة وَالحَدِيث إِذْ يَقُولُ:

ارْوِ الْحَـــدِيثَ ولازِم أَهْلَـــهُ فهُـــمُ الْـــ ... ـــنـاجُونَ نَصًّـــا صـــريحًا للرّســـولِ نُمِـــي
ســـامِتْ مَنـــابِرَهُمْ واحْمِـــلْ محـــابِرَهُمْ ... والْـــزَمْ أكـــابِرَهُم في كـــلِّ مُـــزْدَحَمِ
اسْـــلُكْ مَنـــارَهُمُو والْـــزَمْ شِـــعارَهُمُ ... واحْطُـــطْ رِحَالَـــكَ إنْ تَنْـــزِلْ بِسُـــوحِهِمِ
هُـــمُ العُـــدولُ لِحَمْـــلِ العِلـــمِ كَيْـــفَ وَهُـــمْ ... أُولُـــو المكـــارِمِ والأَخْـــلاقِ والشِّـــيَمِ
هُـــمُ الأفاضِـــلُ حـــازُوا خَيْـــرَ مَنْقَبَـــةٍ ... هُـــمُ الأُولَـى بِهِـــمُ الـــدِّينُ الحَنيـفُ حُمِـي
هُـــمُ الجهابِـــذَةُ الأَعْـــلامُ تعـــرِفُهُمْ ... بـــينَ الأنـــامِ بِســـيمَاهُمْ وَوَسْـــمِهِمِ
هُـــمْ ناصِـــرُو الـــدِّينِ والحـــامُونَ حَوْزَتَـــهُ ... مِـــنَ العَـــدُوِّ بِجـــيشٍ غَيـــرِ مُنْهَـــزِمِ
هُـــمُ البُـــدورُ ولكـــنْ لا أُفُـــولَ لَهُـــمْ ... بَـــلِ الشُّـــموسُ وَقَـــدْ فَـــاقُوا بِنُـــورِهِمِ
لَـــمْ يَبْـــقَ للشَّـــمْسِ مِـــن نُـــورٍ إِذَا أَفَلَـــتْ ... وَنُـــورُهُم مُشْـــرِقٌ مِـــنْ بَعْـــدِ رِمْســـهِمِ
لَهُـــمْ مَقـــامٌ رَفيـــعٌ لـــيْسَ يُدْرِكُـــهُ ... مِـــنَ العِبـــادِ سِـــوَى السَّـــاعِي كَسَـــعْيِهِمِ
أَبْلِـــغْ بِحُجَّـــتِهِمْ أَرْجِـــحْ بِكِفَّـــتِهِمْ ... في الفَضْـــلِ إِنْ قِسْـــتَهُمْ وَزْنًـــا بِغَيْـــرِهِمِ
كفـــاهُمُو شَـــرَفًا أَنْ أصـــبحُوا خَلَفًـــا ... لِسَـــيِّدِ الحُنَفَـــا في دينِـــهِ القِـــيَمِ
يُحْيُـــونَ سُـــنَّتَهُ مِـــنْ بَعْـــدِهِ فَلَهُـــمْ ... أَوْلَـــى بِـــهِ مِـــنْ جَميـــعِ الخَلْـــقِ كُلِّهِـــمِ
يَـــرْوُونَ عَنـــهُ أحاديـــثَ الشَّـــريعةِ لا ... يَـــأْلُونَ حِفْظًـــا لَهـــا بالصَّـــدْرِ والقَلَـــمِ
يَنْفُـــونَ عَنهـــا انْتِحَـــالَ المُبْطِلِـــينَ وتَحْـــ ... ـــريـفَ الغُـــلاةِ وتَأْويـــلَ الغَـــوِي اللَّـــئِمِ
أَدَّوا مَقالَتَـــهُ نُصْـــحًا لأُمَّتِـــهِ ... صـــانَوْا رِوايَتَهـــا عـــنْ كُـــلِّ مُـــتَّهَمِ
لَـــمْ يُلْهِهِـــمْ قَـــطُّ مِـــن مـــالٍ ولا خَـــوَلٍ ... ولا ابْتِيـــاعٍ ولا حَـــرْثٍ ولا نَعَـــمِ
هَـــذا هُـــوَ المَجـــدُ لا مُلْـــكٌ ولا نَسَـــبٌ ... كَـــلَّا ولا الجمـــعُ لِلأمـــوالِ والخَـــدَمِ
فكُـــلُّ مَجْـــدٍ وَضِـــيعٌ عِنـــد مَجْـــدِهِمُو ... وكـــلُّ مُلْـــكٍ فَخُـــدَّامٌ لِمُلْكِهِـــمِ
والأَمْـــنُ والنُّـــورُ والفَـــوْزُ العظـــيمُ لَهُـــمْ ... يَـــوْمَ القِيامَـــةِ والبُشْـــرَى لِحِـــزْبِهِمِ

(١) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

فـــإنْ أرَدْتَ رُقِيًّـــا نَحـــوَ رُتْبَـــتِهِم ... ورُمْـــتَ مَجْـــدًا رفِيعًـــا مِثْـــلَ مَجْـــدِهِم

فاعْمِـدْ إلَـى سُـلَّمِ التقـوَى الـذِي نَصَـبُوا ... واصْـــعَدْ بِعَـــزْمٍ وَجِـــدَّ مِثْـــلَ جِـــدِّهِم

واعْكُـفْ عَلـى السُّـنَّةِ المُثْلـى كَمـا عَكَفُـوا ... حِفْظًـا مـعَ الكَشْـفِ عـن تَفْسِـيرِها وَدُم

واقْـــرَأْ كِتابًـــا يُفِيـــدُ الاصْـــطِلاحَ بِـــهِ ... تَـدْرِي الصَّـحيحَ مِـن الموْصـوفِ بالسَّـقَمِ

فهْـــيَ المَحَجَّـــةُ فاسْـــلُكْ غيـــرَ مُنْحَـــرِفٍ ... وَهـــيَ الحَنِيفِيَّـــةُ السَّـــمْحاءُ فاعْتَصِـــمِ

وَحْـــيٌ مِـــنَ اللهِ كـــالقُرْآنِ شـــاهِدُهُ ... في سُـــورةِ الـــنَّجْمِ فاحْفَظْـــهُ ولا تَهِـــمِ

خَيـــرُ الكَـــلامِ ومِـــنْ خَيـــرِ الأنَـــامِ بَـــدَا ... مِـــن خَيـــرِ قَلْـــبٍ بـــهِ قـــدْ فَـــاهَ خَيـــرُ فَـــمِ

وَهْـــيَ البَيـــانُ لأسْـــرارِ الكِتـــابِ فبِالْـــ ... إعْـــراضِ عَـــنْ حُكْمِهـــا كُـــنْ غَيـــرَ مُتَّسِـــمِ

حَكِّـــمْ نَبِيَّـــكَ وانْقَـــدْ وارْضَ سُـــنَّتَهُ ... مَـــعَ اليَقـــينِ وحَـــوْلَ الشَّـــكِّ لا تَحُـــمِ

واعْضُـــضْ عَلَيهـــا وجانِـــبْ كُـــلَّ مُحْدَثَـــةٍ ... وقُـــلْ لِـــذِي بِدْعَـــةٍ يَـــدْعُوكَ لا نَعَـــمِ

فَمَـــا لِـــذِي ريبَـــةٍ في نفسِـــهِ حَـــرَجٌ ... مِمَّـــا قَضَـــى قَـــطُّ في الإيمـــانِ مِـــنْ قَسَـــمِ

﴿فَـلا وَرَبِّـكَ﴾ أقْـوَى زاجِـرًا لأُوْلِـي الْـ ... ـألْبـــابِ والمُلْحِـــدُ الزِّنْـــدِيقُ في صَـــمَمِ

للاستماع

الأَرْبَعُونَ في مَبَانِي الإِسلامِ وَقَوَاعِدِ الأَحْكَامِ

«الأَرْبَعُونَ النَّوَوِيَّة»

-بتصرُّف-

لِلعلامة أَبِيْ زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ شَرَفٍ النَّوَوِيّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

(ت ٦٧٦ هـ)

مَعَ زِيَادَةِ ابْنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِيّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

(ت ٧٩٥ هـ)

الحَدِيثُ الأَوَّلُ[1]

عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، أَبِي حَفْصٍ -عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ إِمَامَا المُحَدِّثِينَ: أَبُو عَبْدِ اللهِ، مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ المُغِيرَةِ بْنِ بَرْدِزْبَهْ البُخَارِيُّ، وَأَبُو الحُسَيْنِ، مُسْلِمُ بْنُ الحَجَّاجِ بْنِ مُسْلِمٍ القُشَيْرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي صَحِيحَيْهِمَا -اللَّذَيْنِ هُمَا أَصَحُّ الكُتُبِ المُصَنَّفَةِ-.

الحَدِيثُ الثَّانِي

عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ -فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ-. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟

قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ.

---

(١) «فكتابُ (الأربعينَ في مباني الإسلام وقَواعِدِ الأَحْكَام) للعلَّامةِ يَحيى بن شَرَفٍ النَّوويِّ، المُشْتَهِرُ بِنِسْبَتِهِ إليه؛ مِنَ المُخْتَصَرات الجَامِعةِ، والدَّوَاوين النَّافعة، الحَاوِيةِ أُمَّاتِ الأَحاديثِ النَّبويَّة. أَسَّسه مَبْنِيًّا عَلى مَجْلس (الأَحَادِيث الكُلِّيَّة) الذي أَملاهُ أَبو عَمرٍو ابن الصَّلاح، فَضمَّنَها كِتابَهُ وَزَادَ عَليهَا زِيَادَةً حَسَنةً، وَكانَت عِدَّة أَحَاديث المَجْلِس المَذْكُور سِتَّةً وَعِشْرِينَ حَديثًا، فَبَلَغَتْ مَع تَتِمَّة النَّوَويِّ اثْنَين وَأَرْبَعينَ حَدِيثا، ثُمَّ زَادَ عَليهَا العَلَّامة عَبْد الرَّحمَن بنُ أَحْمَدَ بن رَجَبٍ الدِّمَشْقِيُّ ثَمَانِيَةَ أَحاديثَ، فَتمَّت خَمْسِينَ حَدِيثًا» [الزيادة الرجبية على الأربعين النووية].

قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الثَّالِثُ

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الرَّابِعُ

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ -وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ-: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ. ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا.

وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الخَامِسُ

عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ -أُمِّ عَبْدِ اللهِ، عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ».

الحَدِيثُ السَّادِسُ

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ، النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ. وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي

يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ. أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ السَّابِعُ

عَنْ أَبِي رُقَيَّةَ، تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ.

قُلْنَا: لِمَنْ؟

قَالَ: لِلهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الثَّامِنُ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ.

فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ التَّاسِعُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَخْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ العَاشِرُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ، يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ!

وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ.

فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الحَادِي عَشَرَ

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ، الحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -سِبْطِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَيْحَانَتِهِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

الحَدِيثُ الثَّانِي عَشَرَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُ.

الحَدِيثُ الثَّالِثَ عَشَرَ

عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَادِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الرَّابِعَ عَشَرَ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الخَامِسَ عَشَرَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ.

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ السَّادِسَ عَشَرَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَاراً، قَالَ: لَا تَغْضَبْ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الحَدِيثُ السَّابِعَ عَشَرَ

عَنْ أَبِي يَعْلَى، شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الثَّامِنَ عَشَرَ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

الحَدِيثُ التَّاسِعَ عَشَرَ

عَنْ أَبِي العَبَّاسِ، عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ:

احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ.

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ.

وَاعْلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ.

وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ.

رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وَفِي رِوَايَةٍ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ: «احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ. وَاعْلَمْ: أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. وَاعْلَمْ: أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً».

الحَدِيثُ العِشْرُونَ

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو الأَنْصَارِيِّ البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الحَدِيثُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي عَمْرٍو -وَقِيلَ: أَبِي عَمْرَةَ-، سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلاً لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً غَيْرَكَ، قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ، جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ المَكْتُوبَاتِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتُ الحَلَالَ، وَحَرَّمْتُ الحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا؛ أَأَدْخُلُ الجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَمَعْنَى: «حَرَّمْتُ الحَرَامَ»: اجْتَنَبْتُهُ. وَمَعْنَى: «أَحْلَلْتُ الحَلَالَ»: فَعَلْتُهُ مُعْتَقِداً حِلَّهُ.

الحَدِيثُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي مَالِكٍ، الحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ. وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ. وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ عز وجل أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي،

فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ.

يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ.

قَالَ: أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟! إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً. وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ. وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ. وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ. وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ. وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ. وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، البِرُّ: مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ. وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ -وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ-» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رُوِّينَاهُ فِي «مُسْنَدَيِ الإِمَامَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَالدَّارِمِيِّ» بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

الحَدِيثُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي نَجِيحٍ، العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ؛ فَأَوْصِنَا. قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيراً؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

الحَدِيثُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ -وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ-: تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

الحَدِيثُ الثَّلاثُون

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ -جُرْثُومِ بْنِ نَاشِرٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ -رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ- فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ، وَغَيْرُهُ.

الحَدِيثُ الحَادِي والثلاثون

عَنْ أَبِي العَبَّاسِ، سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَغَيْرُهُ، بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ.

الحَدِيثُ الثَّانِي والثلاثون

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَالدَّارَقُطْنِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، مُسْنَداً. وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي «المُوَطَّأِ» عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلاً، فَأَسْقَطَ أَبَا سَعِيدٍ. وَلَهُ طُرُقٌ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضاً.

الحَدِيثُ الثَّالِثُ والثلاثون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ وَدِمَاءَهُمْ، لَكِنِ البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي، وَاليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ هَكَذَا، وَبَعْضُهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

الحَدِيثُ الرَّابِعُ والثلاثون

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الخَامِسُ والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا.

المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-.

بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ. كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ السَّادِسُ والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ.

وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ.

وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا اللَّفْظِ.

الحَدِيثُ السَّابِعُ والثلاثون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ -فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تبارك وتعالى- قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ:

فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً.

وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً.

وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» بِهَذِهِ الحُرُوفِ.

الحَدِيثُ الثَّامِنُ والثلاثون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ. وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الحَدِيثُ التَّاسِعُ والثلاثون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَالبَيْهَقِيُّ، وَغَيْرُهُمَا.

الحَدِيثُ الأَرْبَعُونَ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الحَدِيثُ الحَادِي وَالأَرْبَعُونَ

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ فِي كِتَابِ «الحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

الحَدِيثُ الثَّانِي وَالأَرْبَعُونَ

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ.

يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

❁❁❁

من هنا تبدأ زيادة الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

الحَدِيثُ الثَّالِثُ وَالأَرْبَعُونَ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتِ الفَرَائِضُ، فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ» خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الرَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الوِلَادَةُ» خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ الخَامِسُ وَالأَرْبَعُونَ

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ عَامَ الفَتْحِ -وَهُوَ بِمَكَّةَ- يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ، وَالمَيْتَةِ، وَالخِنْزِيرِ، وَالأَصْنَامِ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ شُحُومَ المَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ؟ قَالَ: لَا؛ هُوَ حَرَامٌ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ؛ إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الشُّحُومَ، فَأَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ» خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ السَّادِسُ وَالأَرْبَعُونَ

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ -أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرِبَةٍ تُصْنَعُ بِهَا؟ فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: البِتْعُ وَالمِزْرُ. -فَقِيلَ لِأَبِي بُرْدَةَ: مَا البِتْعُ؟ قَالَ: نَبِيذُ العَسَلِ، وَالمِزْرُ: نَبِيذُ الشَّعِيرِ-. فَقَالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ.

وَخَرَّجَهُ مُسْلِمٌ وَلَفْظُهُ: «قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَمُعَاذٌ إِلَى اليَمَنِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ شَرَابًا يُصْنَعُ بِأَرْضِنَا يُقَالُ لَهُ: المِزْرُ مِنَ الشَّعِيرِ، وَشَرَابٌ يُقَالُ لَهُ: البِتْعُ مِنَ العَسَلِ، فَقَالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَقَالَ: كُلُّ مَا أَسْكَرَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهُوَ حَرَامٌ».

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أُعْطِيَ جَوَامِعَ الكَلِمِ بِخَوَاتِمِهِ، فَقَالَ: أَنْهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ أَسْكَرَ عَنِ الصَّلَاةِ».

الحَدِيثُ السَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ

عَنِ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ» رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَه، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ».

الحَدِيثُ الثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا:

مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ.

وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ.

وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ.

وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ» خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ.

الحَدِيثُ التَّاسِعُ وَالأَرْبَعُونَ

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا» رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَالحَاكِمُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

الحَدِيثُ الخَمْسُونَ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ؟ قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عز وجل».

خَرَّجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا اللَّفْظِ. وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» بِمَعْنَاهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ».

وَكُلُّهُمْ خَرَّجَهُ مِنْ رِوَايَةِ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ الكِنْدِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَخَرَّجَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «آخِرُ مَا فَارَقْتُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ قُلْتُ لَهُ: أَيُّ الأَعْمَالِ خَيْرٌ وَأَقْرَبُ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عز وجل».

تَمَّ بِحَمْدِ اللهِ

نُبْذَةٌ فِي العَقِيدَةِ الإِسْلامِيَّة

-بتصرُّف-

بِقَلَمِ
فَضيلَة الشَّيخ العَلَّامة
مُحمَّد الصَّالح العُثيمين
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إنَّ الحمدَ لله نحمدُهُ، ونستعينهُ، ونستغفرهُ، ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان، وسلَّم تسليمًا. أما بعد:

فإنَّ (علمَ التوحيد) أشرفُ العلوم، وأجلُّها قدرًا، وأوجبُها مطلبًا؛ لأنه العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وحقوقه على عباده، ولأنه مفتاح الطريق إلى الله تعالى، وأساس شرائعه. ولذا؛ أجمعت الرسل على الدعوة إليه، قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وشهد لنفسه -تعالى- بالوحدانية، وشهد بها له ملائكته، وأهل العلم، قال الله تعالى: ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨]، ولمَّا كان هذا شأن التوحيد؛ كان لزامًا على كل مسلم أن يعتني به تعلُّمًا، وتعليمًا، وتدبُّرًا، واعتقادًا؛ ليبني دينه على أساس سليم، واطمئنان، وتسليم، يسعدُ بثمراته، ونتائجه، والله وليُّ التوفيق.

مُحمَّد الصَّالح العُثَيْمين

الدِّينُ الإسلاميُّ

الدِّين الإسلاميُّ: هو الدين الذي بعثَ الله به محمدًا ﷺ، وختم الله به الأديان، وأكمله لعباده، وأتمَّ به عليهم النعمة، ورضيه لهم دينًا، فلا يقبل من أحد دينًا سواه، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد فرض الله تعالى على جميع الناس أن يدينُوا لله تعالى به فقال مخاطبًا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّة: يهودي، ولا نصراني، ثم يموتُ، ولم يؤمنْ بالذي أرسلتُ به؛ إلا كان من أصحاب النار**» [مسلم (١٥٣)].

والإيمان به: تصديق ما جاء به مع القبول والإذعان، لا مجرد التصديق؛ ولهذا لم يكن أبو طالب مؤمنًا بالرسول ﷺ مع تصديقه لما جاء به، وشهادته بأنه من خير الأديان.

والدين الإسلامي: متضمن لجميع المصالح التي تضمنتها الأديان السابقة، مُتميز عليها بكونه صالحًا لكل زمان ومكان وأُمَّة، قال الله تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومعنى كونه صالحًا لكل زمان، ومكان، وأمَّة: أنَّ التمسك به لا ينافي مصالح الأمة في أي زمان، أو مكان، بل هو صلاحُها، وليس معنى ذلك أنَّه خاضع لكل زمان ومكان وأمَّة، كما يريده بعض الناس.

والدين الإسلامي: هو دين الحق الذي ضمن الله -تعالى- لمن تمسَّك به حق التمسك أن ينصره، ويُظهره على من سواه، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٥٥].

والدين الإسلاميُّ: عقيدةٌ، وشريعةٌ، فهو كامل في عقيدته، وشرائعه:

١- يأمرُ بتوحيد الله تعالى، وينهى عن الشرك.

٢- يأمرُ بالصدق، وينهى عن الكذب.

٣- يأمرُ بالعدل، وينهى عن الجوْر، والعدل هو المساواة بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، وليس العدل المساواة المطلقة كما ينطق به بعض الناس حين يقول: دين الإسلام دين المساواة، ويُطلق، فإن المساواة بين المختلفات جوْر لا يأتي به الإسلام، ولا يحمد فاعله.

٤- يأمرُ بالأمانة، وينهى عن الخيانة.

٥- يأمرُ بالوفاء، وينهى عن الغدر.

٦- يأمرُ ببرِّ الوالدين، وينهى عن العقوق.

٧- يأمرُ بصلة الأرحام وهم الأقارب، وينهى عن القطيعة.

٨- يأمرُ بحسن الجوار، وينهى عن سَيِّئه.

وعموم القول: أنَّ (الإسلام) يأمر بكل خُلق فاضل، وينهى عن كل خُلق سافل. ويأمر بكل عمل صالح، وينهى عن كل عمل سيء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

أركانُ الإسلام

أركان الإسلام: أُسُسهُ التي ينبني عليها، وهي خمسة: مذكورة فيما رواه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: أنه قال: «**بُنِيَ الإسلام على خمسة: على أنْ يُوَحَّدَ اللهُ** -وفي رواية على خمس-: **شهادةِ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصيامِ رمضان، والحجِّ**»، فقال رجل: الحج، وصيام رمضان؟، قال: «**لا، صيام رمضان، والحج**»، هكذا سمعته من رسول الله ﷺ. [البخاري (٨)، مسلم (١١١)].

١- أما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله فهي: الاعتقاد الجازم المعبَّر عنه باللسان بهذه الشهادة، كأنه بجزمه في ذلك مُشاهد له، وإنما جُعلت هذه الشهادة ركنًا واحدًا مع تعدد المشهود به: **إما:** لأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله تعالى، فالشهادة له ﷺ بالعبودية والرسالة من تمام شهادة أن لا إله إلا الله. **وإما:** لأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال وقَبولها، إذ لا صحة لعمل، ولا قبول، إلا بالإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله ﷺ. **فبالإخلاص لله تتحقق شهادة:** أن لا إله إلا الله، **وبالمتابعة لرسول الله تتحقق شهادة:** أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

ومن ثمرات هذه الشهادة العظيمة: تحريرُ القلب والنفس من الرِّق للمخلوقين، ومن الاتباع لغير المرسلين.

٢- وأما إقام الصلاة: فهو التعبد لله تعالى بفعلها على وجه الاستقامة، والتمام في أوقاتها، وهيئاتها. **ومن ثمراته:** انشراح الصدر، وقُرة العين، والنهي عن الفحشاء والمنكر.

٣- وأما إيتاء الزكاة: فهو التعبد لله تعالى ببذل القدر الواجب في الأموال الزكوية المُستحقة. **ومِن ثمراته:** تطهيرُ النفس من الخُلق الرذيل (البُخل) ، وسدُّ حاجة الإسلام والمسلمين.

٤- وأما صوم رمضان: فهو التعبد لله تعالى بالإمساك عن المفطرات في نهار رمضان. **ومن ثمراته:** ترويض النفس على ترك المحبوبات؛ طلبًا لمرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

٥- وأما حج البيت: فهو التعبد لله تعالى بقصد البيت الحرام؛ للقيام بشعائر الحج. **ومن ثمراته:** ترويض النفس على بذل المجهود المالي، والبدني في طاعة الله تعالى؛ ولهذا كان الحج نوعًا من الجهاد في سبيل الله تعالى.

وهذه الثمرات التي ذكرناها لهذه الأسس، وما لم نذكره تجعلُ من الأمَّةِ أمَّةً إسلاميَّة طاهرة نقيَّة، تَدين لله دين الحق، وتعاملُ الخلق بالعدل والصدق؛ لأن ما سواها من شرائع الإسلام يصلح بصلاح هذه الأسس، وتصلحُ أحوال الأمة بصلاح أمر دينها، ويفوتُها من صلاح أحوالها بقدر ما فاتها من صلاح أمور دينها.

ومن أراد استبانة ذلك؛ فليقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩] وليُنظر في تاريخ من سبق؛ فإن التاريخ عبرة لأولي الألباب، وبصيرة لمن لم يَخُلْ دون قلبه حجاب، والله المستعان.

أُسُسُ العَقِيدَةِ الإسلاميَّة

الدين الإسلامي: -كما سبق أن أوضحنا- عقيدةٌ وشريعةٌ، وقد أشرنا إلى شيء من شرائعه، وذكرنا أركانه التي تُعتبر أساسًا لشرائعه.

أما العقيدة الإسلامية، فأُسُسُها: (الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر: خيره، وشره). وقد دلَّ على هذه الأُسُسِ كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

ففي كتاب الله تعالى، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويقول في القدر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩-٥٠].

وفي سنة رسول الله ﷺ يقول النبي ﷺ مجيبًا لجبريل حين سأله عن الإيمان: «**الإيمان: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر: خيره وشره**» [مسلم (٨)].

الإيمانُ بِاللهِ تَعَالَى

فأما الإيمان بالله فيتضمَّنُ أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى؛ وقد دلَّ على وجوده تعالى: الفطرة، والعقل، والشرع، والحس.

١- أما دلالة الفطرة على وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: فإنَّ كل مخلوق قد فُطِرَ على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير، أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها؛ لقول النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا ويولدُ على الفطرة، فأبواهُ يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**» [البخاري (١٣٥٨)، مسلم (٢٦٥٨)].

٢- وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى؛ فلأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها، لابد لها من خالق أوجدها، إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن توجد صدفة. لا يمكن أن توجِد نفسها بنفسها؛ لأن الشيء لا يخلقُ نفسه؛ لأنه قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقًا؟! ولا يمكن أن توجد صُدفة؛ لأن كل حادث لابد له من مُحدِث، ولأن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومُسبِّباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض، يمنعُ منعًا باتًّا أن يكون وجودها صدفة؛ إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون مُنتَظمًا حال بقائه وتطوره؟! وإذا لم يُمكن أن توجِد هذه المخلوقات نفسها بنفسها، ولا أن توجد صدفة؛ تعيَّن أن يكون لها مُوجِد وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي، والبرهان القطعي، حيث قال: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥]. يعني: أنهم لم يُخْلَقُوا من غير خالق، ولا هم الذين خلقُوا أنفسهم؛ فتعيَّن أن يكون خالقهم هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا لما سمع جُبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ**﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]. وكان جبير يومئذ مُشركًا قال: «كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي» [البخاري (٤٨٥٤)].

ولنضرب مثلاً يوضح ذلك: فإنه لو حدَّثك شخص عن قصرٍ مَشيَّد، أحاطتْ به الحدائق، وجرت بينها الأنهار، ومُلئ بالفرش والأسِرَّة، وزُيِّن بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال لك: إنَّ هذا القصر وما فيه من كمال قد أوْجد نفسه، أو وُجِد هكذا صدفة بدون مُوجد؛ لبادرت إلى إنكار ذلك وتكذيبه، وعددت حديثهُ سفهًا من القول، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع: بأرضه، وسمائه، وأفلاكه، وأحواله، ونظامه البديع الباهر، قد أوجَدَ نفسه، أو وُجد صدفة بدون موجد؟!

٣- وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى: فلأنَّ الكتب السماوية كُلَّها تنطقُ بذلك، وما جاءت به من الأحكام العادلة المتضمنة لمصالح الخلق؛ دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه، وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها؛ دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

٤- وأما أدلة الحس على وجود الله؛ فمن وجهين:

أحدهما: أننا نسمعُ ونشاهدُ من إجابة الداعين، وغوث المكروبين، ما يدلُ دلالة قاطعة على وجوده تعالى، قال الله سبحانه: ﴿**وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ**﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾ [الأنفال: ٩]. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنَّ أعرابيًّا دخل يوم الجمعة -والنبي ﷺ يخطبُ- فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاعَ العيال، فادع الله لنا؛ فرفع يديه ودعا؛ فثار السحاب أمثال الجبال، فلم ينزل عن منبره حتى رأيتُ المطر يتحادر على لحيته. وفي الجمعة الثانية، قام ذلك الأعرابي، أو غيره فقال: يا رسول الله، تهدم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا؛ فرفع يديه، وقال ﷺ: «**اللهم حوَالَيْنا ولا عَلَيْنَا، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت**» [البخاري (٩٣٣)، مسلم (٨٩٧)]. وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا؛ لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى، وأتى بشرائط الإجابة.

الوجه الثاني: أنَّ آيات الأنبياء التي تسمَّى المعجزات ويشاهدها الناس، أو يسمعون بها، برهان قاطع على وجود مُرسِلهم، وهو الله تعالى؛ لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر، يجريها الله تعالى؛ تأييدًا لرسله، ونصرًا لهم. **مثال ذلك:** آية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه

البحر، فضربه؛ فانفلَق اثنى عشر طريقًا يابسًا، والماء بينها كالجبال، قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. **ومثال ثانٍ**: آية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث كان يُحيي الموتى، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله، قال الله تعالى عنه: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقال: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]. **ومثال ثالث**: لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية، فأشار إلى القمر؛ فانفلق فِرقتين، فرآه الناس، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢]. فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى؛ تأييدًا لرسله، ونصرًا لهم، تدلُّ دلالة قطعية على وجوده تعالى.

الأمر الثاني مما يتضمنه الإيمان بالله: الإيمان بربوبيَّته أي بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين. **والرب**: من له الخلق، والملك، والأمر، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا هو، ولا أمر إلا له، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]. ولم يُعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه، إلا أن يكون مكابرًا غير مُعتقِد بما يقول، كما حصل من فرعون، حين قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، لكن ذلك ليس عن عقيدةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وقال موسى لفرعون، فيما حكى الله عنه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولهذا كان المشركون يقرُّون بربوبية الله تعالى، مع إشراكهم به في الألوهية، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وأمرُ الله سبحانه شامل للأمر الكوني

والشرعي، فكما أنه مدبر الكون القاضي فيه بما يريد، حسب ما تقتضيه حكمته، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادات، وأحكام المعاملات، حسبما تقتضيه حِكمته، فمن اتخذ مع الله تعالى مُشرِّعًا في العبادات، أو حاكمًا في المعاملات؛ فقد أشرك به، ولم يحقق الإيمان.

الأمر الثالث مما يتضمنه الإيمان بالله: الإيمان بألوهيَّته، أَيْ: بأنه وحده الإله الحق لا شريك له، و (الإله) بمعنى: (المألوه) أَيْ: (المعبود) حُبًّا وتعظيمًا. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وكل من اتخذ إلهًا مع الله، يُعبد من دونه؛ فألوهيته باطلة، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. وتسميتها آلهة؛ لا يعطيها حق الألوهية، قال الله تعالى في (اللات والعُزَّى ومَناة): ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]. وقال عن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إنه قال لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١]. وقال عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠]. ولهذا كانت الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يقولون لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولكن أبى ذلك المُشركون، واتخذوا من دون الله آلهة، يعبدونهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويستنصرون بهم، ويستغيثون.

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين هذه الآلهة ببرهانين عقليين:

الأول: أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية، فهي مخلوقة لا تَخلقُ، ولا تجلب نفعًا لعابديها، ولا تدفع عنهم ضررًا، ولا تملك لهم حياة، ولا موتًا، ولا يملكون شيئًا من السموات، ولا يشاركون فيه. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]. وإذا كانت هذه حالَ تلك الآلهة؛ فإن اتخاذها آلهة من أسْفهِ السَّفهِ، وأبطل الباطل.

والثاني: أن هؤلاء المشركين، كانوا يُقرُّون بأن الله تعالى وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجيرُ ولا يُجارُ عليه، وهذا يستلزم أن يوحِّدوه بالألوهية، كما وحَّدوه بالربوبية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

الأمر الرابع مما يتضمنه الإيمان بالله؛ الإيمان بأسمائه وصفاته: أَيْ: إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو سنة رسوله ﷺ من الأسماء، والصفات، على الوجه اللائق به من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد ضلَّ في هذا الأمر طائفتان؛

إحداهما: (المُعطِّلة) الذين أنكروا الأسماء والصفات، أو بعضها، زاعمين أن إثباتها لله يستلزم التشبيه، أَيْ: تشبيه الله تعالى بخلقه، وهذا الزعم باطل؛ لوجوه، منها:

الأول: أنه يستلزم لوازم باطلة؛ كالتناقض في كلام الله سبحانه، وذلك أن الله تعالى أثبت لنفسه

الأسماء، والصفات، ونفى أن يكون كمثله شيء، ولو كان إثباتها يستلزم التشبيه؛ لزم التناقض في كلام الله، وتكذيب بعضه بعضًا.

الثاني: أنه لا يلزم من اتفاق الشيئين في اسم أو صفة أن يكونا متماثلين، فأنت ترى الشخصين يتفقان في أن كُلاًّ منهما إنسان سميع، بصير، متكلم، ولا يلزم من ذلك أن يتماثلا في المعاني الإنسانية، والسمع، والبصر، والكلام. وترى الحيوانات لها أيدٍ، وأرجلٌ، وأعينٌ، ولا يلزم من اتفاقها هذا أن تكون أيديها، وأرجلها، وأعينها متماثلة. فإذا ظهر التباين بين المخلوقات فيما تتفقُ فيه من أسماء، أو صفات؛ فالتباين بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

الطائفة الثانية: (المُشبِّهة) الذين أثبتوا الأسماء والصفات مع تشبيه الله تعالى بخلقه، زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص؛ لأن الله تعالى يخاطب العباد بما يفهمون، وهذا الزعم باطل؛ لوجوه منها: **الأول**: أن مشابهة الله تعالى لخلقه أمر يُبطله العقل، والشرع، ولا يمكن أن يكون مُقتضى نصوص الكتاب والسنة أمرًا باطلاً. **الثاني**: أن الله تعالى خاطبَ العباد بما يفهمون من حيث أصل المعنى، أما الحقيقة والكُنْه الذي عليه ذلك المعنى؛ فهو مما استأثر الله تعالى بعلمه فيما يتعلق بذاته، وصفاته. فإذا أثبت الله لنفسه أنه سميع؛ فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنى (وهو إدراك الأصوات) لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلى سمع الله تعالى غير معلومة؛ لأن حقيقة السمع تتباين حتى في المخلوقات؛ فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم. وإذا أخبر الله تعالى عن نفسه أنه استوى على عرشه؛ فإن الاستواء من حيث أصل المعنى معلوم، لكن حقيقة الاستواء التي هو عليها غير معلومة لنا بالنسبة إلى استواء الله على عرشه؛ لأن حقيقة الاستواء تتباين في حق المخلوق، فليس الاستواء على كرسي مستقر كالاستواء على رحل بعير صعب نَفور، فإذا تباينت في حق المخلوق؛ فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة، منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى، بحيث لا يتعلق بغيره رجاء، ولا خوف، ولا يعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالى وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى، وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

الإيمانُ بِالملائِكَة

الملائكة: عالَم غيبيٌّ، مخلوقون، عابدون لله تعالى، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، خلقهم الله تعالى من نور، ومنحهم الانقياد التامَّ لأمره، والقوة على تنفيذه. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. وهم عدد كثير، لا يُحصيهم إلا الله تعالى، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة المعراج أن النبي ﷺ رُفع له البيت المعمور في السماء، يُصلِّي فيه كلَّ يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. [البخاري (٣٢٠٧)، مسلم (١٦٢)].

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه (كجبريل) ومن لم نعلم أسماءهم نؤمن بهم إجمالاً.

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كصفة (جبريل) فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خُلق عليها، وله ستمائة جناح قد سدَّ الأفق. وقد يتحول الملك بأمر الله تعالى إلى هيئة رجل، كما حصل (لجبريل) حين أرسله الله تعالى إلى مريم فتمثَّل لها بشرًا سويًّا، وحين جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه، جاءه بصفة رجلٍ شديدِ بياضِ الثياب، شديدِ سوادِ الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه أحد من أصحابه، فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها؛ فأجابه النبي ﷺ فانطلق، ثم قال ﷺ: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» [مسلم (٨)]. وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط؛ كانوا على صورة رجال.

الرابع مما يتضمنه الإيمان بالملائكة: الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى؛ كتسبيحه، والتعبد له ليلاً ونهارًا بدون ملل، ولا فُتُور. وقد يكون لبعضهم أعمال خَاصَّة. **مثل:** جبريل؛ الأمين على وحي الله تعالى، يرسله الله به إلى الأنبياء والرسل. **ومثل:** ميكائيل؛ الموكل بالقطر، أَيْ: بالمطر والنبات. **ومثل:** إسرافيل؛ الموكل بالنفخ في الصور عند قيام الساعة

وبعث الخلق. **ومثل**: ملك الموت؛ الموكل بقبض الأرواح عند الموت. **ومثل**: مالك؛ الموكل بالنار، وهو خازن النار. **ومثل**: الملائكة الموكلين بالأجِنَّةِ في الأرحام، إذا أتم الإنسان أربعة أشهر في بطن أمه، بعث الله إليه ملكًا وأمره بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٍّ، أو سعيد. **ومثل**: الملائكة الموكلين بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها، لكل إنسان ملكان، أحدهما عن اليمين والثاني عن الشمال. **ومثل**: الملائكة الموكلين بسؤال الميت إذا وضع في قبره؛ يأتيه ملكان، يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه.

والإيمان بالملائكة، يثمر ثمراتٍ جليلةً، منها:

الأولى: العلم بعظمة الله تعالى، وقوَّته، وسلطانه، فإن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق.

الثانية: شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم، حيث وكَّل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم، وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

الثالثة: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى. وقد أنكر قوم من الزائغين كون الملائكة أجسامًا، وقالوا: إنهم عبارة عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات، وهذا تكذيب لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ**﴾ [فاطر: ١]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ**﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ**﴾ [سبأ: ٢٣]. وقال في أهل الجنة: ﴿**...وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ**﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحبُ فلانًا فأحببه؛ فيحبّه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله يحب فلانًا فأحبُّوه؛ فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**» [البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧)].

وفيه أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام؛ طووا الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر**» [البخاري (٩٢٩)، مسلم (٨٥٠)]. وهذه النصوص صريحة في أن الملائكة أجسام لا قوى معنوية، كما قال الزائغون، وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون.

الإيمانُ بِالكُتُبِ

الكُتب: جمع (كتاب) بمعنى (مكتوب). **والمراد بها هنا:** الكُتب التي أنزلها الله تعالى على رسله رحمة للخلق، وهداية لهم، ليصلُوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن نزولها من عند الله حقًّا.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه: كالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ، والزَّبُور الذي أوتيه داود ﷺ، وأما ما لم نعلم اسمه؛ فنؤمن به إجمالاً.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يُبدل أو يُحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها، والرضا والتسليم به سواء أفهمنا حِكمته أم لم نفهمها، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨] أي (حاكمًا عليه). وعلى هذا، فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صحَّ منها، وأقرَّه القرآن.

والإيمان بالكتب يثمر ثمراتٍ جليلةً، منها:

الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده، حيث أنزل لكل قوم كتابًا، يهديهم به.

الثانية: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه، حيث شرَع لكل قوم ما يناسب أحوالهم، كما قال الله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة: ٤٨].

الثالثة: شُكر نعمة الله في ذلك.

الإيمانُ بالرُّسُل

الرُّسل: جمع (رسول) بمعنى: (مُرسَل) أي مبعوث بإبلاغ شيء. **والمراد هنا:** من أُوحي إليه من البشر بشرع وأُمر بتبليغه. وأول الرُّسل نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وآخرهم محمد ﷺ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حديث الشَّفاعة أن النبي ﷺ: «ذكر أن الناس يأتون إلى آدم؛ ليشفع لهم، فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحًا أول رسولٍ بعثه الله» وذكر تمامَ الحديث [البخاري (٤٧١٢)، مسلم (١٩٤)]. وقال الله تعالى في محمد ﷺ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ولم تخلُ أمةٌ من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه، أو نبي يوحى إليه بشريعة من قبله؛ ليجددها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤].

والرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ وهو سيد الرسل، وأعظمهم جاهًا عند الله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

وتلحقهم خصائص البشرية: من المرض، والموت، والحاجة إلى الطعام، والشراب، وغير ذلك، قال الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في وصفه لربه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨١]. وقال النبي ﷺ: «إنما أنا بشرٌ مثلكم أنسى كما تنسون؛ فإذا نسيت؛ فذكِّروني» [البخاري (٤٠١)، مسلم (٥٧٢)]. وقد وصفهم الله تعالى بالعبودية له في أعلى مقاماتهم، وفي سياق الثَّناء عليهم؛ فقال تعالى في نوح ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال في محمد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. وقال في إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب -صلَّى الله عليهم وسلَّم-: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧]. وقال في عيسى ابن مريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم؛ فقد كفر بالجميع، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل، مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذَّبوه، وعلى هذا فالنصارى الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ ولم يتبعوه؛ هم مكذِّبون للمسيح ابن مريم، غير متبعين له أيضًا، لا سيَّما أنه قد بشرهم بمحمد ﷺ ولا معنى لبشارتهم به إلا أنه رسول إليهم، ينقذُهم الله به من الضَّلالة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

الثاني مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح -عليهم الصلاة والسلام- وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. وأما من لم نعلم اسمه منهم؛ فنؤمن به إجمالاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

الثالث مما يتضمنه الإيمان بالرسل: تصديق ما صحَّ عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ المُرسل إلى جميع الناس، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ

﴿أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وللإيمان بالرسل ثمراتٌ جليلة، منها:

الأولى: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده، حيث أرسل إليهم الرسل؛ ليهدوهم إلى صراط الله تعالى، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأنَّ العقل البشري، لا يستقلُّ بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: مَحبَّةُ الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وتعظيمهم، والثَّناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالى، ولأنهم قاموا بعبادته، وتبليغ رسالته، والنُّصحِ لعباده.

وقد كذَّب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر! وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم، وأبطله بقوله سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]. فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لابد أن يكون الرسول بشرًا؛ لأنه مُرسل إلى أهل الأرض، وهم بشر، ولو كان أهل الأرض ملائكة؛ لنزَّل الله عليهم من السماء مَلكًا رسولاً؛ ليكون مثلهم، وهكذا حكى الله تعالى عن المكذبين للرسل أنهم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

الإيمانُ باليَومِ الآخِر

اليوم الآخر: يوم القيامة الذي يُبْعثُ الناس فيه؛ للحساب، والجزاء. **وسمِّي بذلك؛** لأنه لا يوم بعده، حيث يستقرُ أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: الإيمان بالبعث: وهو إحياء الموتى حين ينفخُ في الصور النفخة الثانية؛ فيقوم الناس لرب العالمين، حفاة غيرَ منتعلين، عراة غيرَ مستترين، غُرلاً غيرَ مختتنين، قال الله تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. **والبعث:** حقٌّ ثابت، دلَّ عليه الكتابُ، والسُّنَّةُ، وإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦]. وقال النبي ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً**» [البخاري (٦٥٢٧)، مسلم (٢٨٥٩)]. وأجمع المسلمون على ثبوته، وهو مقتضى الحكمة؛ حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا، يجازيهم فيه على ما شرعه لهم فيما بعث به رسله، قال الله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ [القصص: ٨٥].

الثاني مما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالحساب والجزاء؛ يحاسَبُ العبد على عمله، ويجازى عليه، وقد دلَّ على ذلك الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم**﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يدني المؤمن؛ فيضع عليه كنفه** -أي ستره- **ويسترهُ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قَرَّرَهُ بذنوبه، ورأى أنه قد هلك؛ قال: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم؛ فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون؛ فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنةُ الله على الظالمين**» [البخاري (٢٤٤١)، مسلم (٢٧٦٨)]. وصحَّ عن النبي ﷺ: «**أن من**

همَّ بحسنة فعملها؛ كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأن من همَّ بسيئة فعملها؛ كتبها الله سيئة واحدة» [البخاري (٦٤٩١)، مسلم (١٣١)]. وقد أجمع المسلمون على إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، وهو مقتضى الحكمة؛ فإن الله تعالى أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وفرض على العباد قَبول ما جاءوا به، والعمل بما يجب العمل به منه، وأوجب قتال المعارضين له وأحلَّ دماءهم، وذرِّيَّاتهم، ونساءهم، وأموالهم، فلو لم يكن حساب ولا جزاء؛ لكان هذا من العبث الذي يُنزهُ الرب الحكيم عنه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿**فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ**﴾ [الأعراف: ٦-٧].

الثالث مما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالجنة والنار وأنهما المآل الأبدي للخلق.

فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به، وقاموا بطاعة الله ورسوله، مُخلصين لله، مُتَّبِعين لرسوله، فيها من أنواع النعيم «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» [البخاري (٣٢٤٤)، مسلم (٢٨٢٤)]. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ**﴾ [البينة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧].

وأما النار: فهي دار العذاب التي أعدَّها الله تعالى للكافرين الظالمين، الذين كفروا به وعصوا رسله، فيها من أنواع العذاب والنَّكال ما لا يخطر على البال، قال الله تعالى: ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿**وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا**﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

وللإيمان باليوم الآخر ثمراتٌ جليلة، منها:

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة، والحرص عليها؛ رجاء لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة من فعل المعصية، ومن الرضى بها؛ خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عمَّا يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة، وثوابها. وقد أنكر الكافرون البعث بعد الموت؛ زاعمين أن ذلك غير ممكن. وهذا الزعم باطل، دلَّ على بطلانه الشرع، والحس، والعقل.

أما الشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]. وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه.

وأما الحس: فقد أرى الله عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا، وفي سورة البقرة، خمسة أمثلة على ذلك، هي:

المثال الأول: قوم موسى حين قالوا له: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

المثال الثاني: في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها؛ ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَـٔۡتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

المثال الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف؛ فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

المثال الرابع: في قصة الذي مرَّ على قرية مَيِّتةٍ، فاستبعد أن يحييها الله تعالى؛ فأماته الله تعالى مائة سنة، ثم أحياه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

المثال الخامس: في قصة إبراهيم الخليل، حين سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى؛ فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاءً على الجبال التي حوله، ثم يناديهن؛ فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهذه أمثلة حسِّيَّة واقعة، تدل على إمكان إحياء الموتى، وقد سبقت الإشارة إلى ما جعله الله تعالى من آيات عيسى ابن مريم في إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى.

وأما دلالة العقل: فمن وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى فاطر السموات، والأرض وما فيهما، خالقهما ابتداء، والقادر على ابتداء الخلق لا يعجز عن إعادته، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال آمرًا بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

الثاني: أن الأرض تكون ميتة هامدة، ليس فيها شجرة خضراء؛ فينزل عليها المطر؛ فتهتز خضراءَ حيَّةً، فيها من كل زوج بهيج، والقادر على إحيائها بعد موتها، قادر على إحياء الأموات، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مثل:

(أ) **فتنة القبر**: وهي سؤال الميت بعد دفنه عن ربه، ودينه، ونبيه؛ فيُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيِّي محمد ﷺ، ويُضلُ الله الظالمين فيقول الكافر: هاه، هاه، لا أدري، ويقول المنافق أو المرتاب: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. [البخاري (٨٦)، مسلم (٩٠٥)].

(ب) **عذابُ القبر ونَعيمه**: فيكون للظالمين من المنافقين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «فَلَوْلا أَنْ لا تَدافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِن عَذابِ القَبْرِ الَّذي أَسْمَعُ منه. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنا بوَجْهِهِ، فَقالَ: تَعَوَّذُوا باللهِ مِن عَذابِ النّارِ، قالوا: نَعُوذُ باللهِ مِن عَذابِ النّارِ، فَقالَ: تَعَوَّذُوا باللهِ مِن عَذابِ القَبْرِ، قالوا: نَعُوذُ باللهِ مِن عَذابِ القَبْرِ، قالَ :تَعَوَّذُوا باللهِ مِنَ الفِتَنِ، ما ظَهَرَ منها وَما بَطَنَ، قالوا :نَعُوذُ باللهِ مِنَ الفِتَنِ ما ظَهَرَ منها وَما بَطَنَ، قالَ :تَعَوَّذُوا باللهِ مِن فِتْنَةِ الدَّجّالِ، قالوا: نَعُوذُ باللهِ مِن فِتْنَةِ الدَّجّالِ» [مسلم (٢٨٦٧)].

وأما نعيم القبر؛ فللمؤمنين الصادقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٩].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال في المؤمن إذا أجاب الملكين في قبره: «**فيُنادِي مُنادٍ من السَّماءِ: أنْ صَدَقَ عَبدِي، فَأفْرِشُوه من الجنَّةِ، وألْبِسُوهُ من الجنَّةِ، وافْتَحُوا له بابًا إلى الجنَّةِ، فيَأتِيهِ من رَوْحِها وطِيبِها، ويُفسحُ له في قَبرِهِ مَدَّ بَصرِهِ**» [صحيح الجامع (١٦٧٦)].

وقد ضلَّ قوم من أهل الزَّيغ فأنكروا عذاب القبر، ونعيمه، زاعمين أن ذلك غير ممكن لمخالفته الواقع، قالوا: فإنه لو كُشف عن الميِّت في قبره؛ لوُجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بِسِعَةٍ ولا ضِيق.

وهذا الزعم باطل؛ بالشرع، والحس، والعقل؛

أما الشرع: فقد سبقت النصوص الدالة على ثبوت عذاب القبر، ونعيمه. وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة؛ فسمع صوت إنسانين يُعَذبَانِ في قبورهما) وذكر الحديث، وفيه: أن أحدهما كان لا يستتر من البول. وفي رواية: (من بوله)، وأن الآخر كان يمشي بالنميمة. وفي رواية لمسلم: (**لا يستنزه من البول**)» [البخاري (٢١٨، ٢١٦)، مسلم (٢٩٢)].

وأما الحس: فإن النائم يرى في منامه أنه كان في مكان فسيح بهيج، يتنعم فيه، أو أنه كان في مكان ضيق موحش، يتألم منه، وربما يستيقظ أحيانًا مما رأى، ومع ذلك فهو على فراشه في حجرته على ما هو عليه، والنوم أخو الموت؛ ولهذا سماه الله تعالى (وفاةً)، قال الله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ [الزمر: ٤٢].

وأما العقل: فإن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للواقع، وربما رأى النبي ﷺ على صفته، ومن رآه على صفته؛ فقد رآه حقًّا، ومع ذلك، فالنائم في حجرته على فراشه بعيدٌ عما رأى، فإذا كان هذا ممكنًا في أحوال الدنيا؛ أفلا يكون ممكنًا في أحوال الآخرة؟! وأما اعتمادهم فيما زعموه على أنه لو كُشف عن الميِّت في قبره؛ لوُجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق؛ فجوابه من وجوه منها:

الأول: أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشرع، بمثل هذه الشبهات الداحضة التي لو تأمَّل المعارض بها ما جاء به الشرع حقَّ التأمل؛ لعلم بطلان هذه الشبهات، وقد قيل: (وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا وآفته من الفَهمِ السقيمِ).

الثاني: أن أحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحسُّ، ولو كانت تدرك بالحس؛ لفاتت فائدة الإيمان بالغيب، ولتساوى المؤمنون بالغيب، والجاحدون في التصديق بها.

الثالث: أن العذاب، والنعيم، وسعة القبر، وضيقه؛ إنما يدركها الميِّتُ دون غيره، وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيِّق موحش، أو في مكان واسع بهيج، والذي حوله لا يرى ذلك ولا يشعر به، ولقد كان النبيُّ ﷺ يوحى إليه، وهو بين أصحابه؛ فيسمعُ الوحي، ولا يسمعهُ الصحابة، وربما يتمثَّل له الملك رجلاً فيكلِّمه، والصحابة لا يرونَ الملك، ولا يسمعونه [البخاري (٢)، مسلم (٢٣٣٣)].

الرابع: أن إدراك الخلق محدود بما مكنهم الله تعالى من إدراكه، ولا يمكن أن يدركوا كل موجود، فالسموات السَّبع، والأرض، ومن فيهن، وكل شيء يسبحُ بحمد الله تسبيحًا حقيقيًّا، يُسمعه الله تعالى من شاء من خلقه أحيانًا، ومع ذلك هو محجوب عنا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ**﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهكذا الشياطين والجن يسعون في الأرض ذهابًا وإيابًا، وقد حضرت الجن إلى رسول الله ﷺ واستمعوا لقراءته، وأنصتُوا، وولَّوا إلى قومهم منذرين، ومع هذا؛ فهم محجوبون عنا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٧]، وإذا كان الخلق لا يدركون كل موجود؛ فإنه لا يجوز أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب، ولم يدركوه.

الإيمانُ بالقَدَر

القَدَر: تقدير الله تعالى للكائنات، حسبما سبق به علمه، واقتضتهُ حكمته.

والإيمان بالقدر يتضمَّنُ أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن الله تعالى عالمٌ بكل شيء، جملةً وتفصيلاً، أزلاً وأبدًا، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده.

الثاني: الإيمان بأن الله تعالى كتب ذلك في اللوح المحفوظ، وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**كتب الله مقادير الخلائقِ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**) [مسلم (٢٦٥٣)].

الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى، سواء أكانت مما يتعلق بفعله، أم مما يتعلق بفعل المخلوقين، قال الله تعالى فيما يتعلقُ بفعله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، وقال تعالى فيما يتعلق بفعل المخلوقين: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالى بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال عن نبيِّه إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال لقومه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

والإيمان بالقدر -على ما وصفنا- لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وقُدرةٌ عليها؛ لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك له.

أما الشرع: فقد قال الله تعالى في المشيئة: ﴿**فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا**﴾ [النبأ: ٣٩]، وقال: ﴿**فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال في القُدرة: ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ**﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة، بهما يفعل، وبهما يترك، ويُفرِّق بين ما يقع بإرادته كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش، لكنَّ مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى وقدرته؛ لقول الله تعالى: ﴿**لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]، ولأن الكون كله ملك لله تعالى؛ فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته.

والإيمان بالقدر -على ما وصفنا- لا يمنح العبد حجة على ما ترك من الواجبات، أو فعل من المعاصي، وعلى هذا؛ فاحتجاجه به باطل من وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ولو كان لهم حُجةٌ بالقدر؛ ما أذاقهم الله بأسه.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [النساء: ١٦٥]، ولو كان القدر حُجةً للمخالفين؛ لم تنتفِ بإرسال الرسل؛ لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله تعالى.

الثالث: ما رواه البخاري ومسلم -واللفظ للبخاري- عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (**ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة**) فقال رجل من القوم: ألا نَتَّكِلُ يا رسول الله؟ قال: (**لا، اعملوا فكل مُيَسَّرٌ، ثم قرأ: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ)**) [الليل: ٥]، وفي لفظ

لمسلم: (فكل مُيَسَّرٌ لما خُلق له) [البخاري (٤٩٤٥)، مسلم (٢٦٤٧)]، فأمر النبي ﷺ بالعمل، ونهى عن الاتكال على القدر.

الرابع: أن الله تعالى أمر العبد ونهاه، ولم يكلفه إلا ما يستطيع، قال الله تعالى: ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُوا**﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولو كان العبد مُجبرًا على الفعل؛ لكان مُكلَّفًا بما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا باطل؛ ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل، أو نسيان، أو إكراه؛ فلا إثم عليه؛ لأنه معذور.

الخامس: أن قدر الله تعالى سرٌّ مكتومٌ لا يُعْلَمُ به إلا بعد وقوع المقدور، وإرادة العبد لما يفعله سابقة على فعله؛ فتكون إرادته الفعل غير مبنيَّةٍ على علم منهُ بقدر الله، وحينئذ تنتفي حجته بالقدر؛ إذ لا حُجة للمرء فيما لا يعلمه.

السادس: أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه؛ حتى يُدركه، ولا يَعدل عنه إلى ما لا يلائمه، ثم يحتجُّ على عُدوله بالقدر؛ فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتجُّ بالقدر؟ أفليس شأن الأمرين واحدًا؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك:

لو كان بين يدي الإنسان طريقان: أحدهما: ينتهي به إلى بلد كلها فوضى: قتل، ونهب، وانتهاك للأعراض، وخوف، وجوع. **والثاني**: ينتهي به إلى بلد كلها نظام، وأمن مستتب، وعيش رغيد، واحترام للنفوس والأعراض والأموال، فأي الطريقين يسلك؟ إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي به إلى بلد النظام والأمن، ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يسلك طريقَ بلدِ الفوضى والخوف؛ ويحتجُّ بالقدر. فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون الجنة ويحتجُّ بالقدر؟

ومثالاً آخر: نرى المريض يؤمر بالدواء؛ فيشربه، ونفسه لا تشتهيه، ويُنهى عن الطعام الذي يَضرُّه؛ فيتركه، ونفسه تشتهيه، كل ذلك؛ طلبًا للشفاء والسلامة، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء، أو يأكل الطعام الذي يضره، ويحتجُّ بالقدر، فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله به ورسوله أو يفعلُ ما نهى الله عنه ورسوله ثم يحتجُّ بالقدر؟

السابع: أن المحتجَّ بالقدر على ما تركه من الواجبات، أو فعله من المعاصي، لو اعتدى عليه شخص فأخذ ماله، أو انتهك حرمته، ثم احتجَّ بالقدر، وقال: لا تلمني فإنَّ اعتدائي كان بقدر الله؛ لم يَقبل حجته، فكيف لا يقبل الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه، ويحتج به لنفسه في اعتدائه على حقِّ الله تعالى؟! ويُذْكَرُ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِعَ إليه سارقٌ استحق القطع؛ فأمر بقطع يده فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنما سرقت بقدر الله؛ فقال عمر: ونحن إنما نقطعُ بقدر الله.

وللإيمان بالقدر ثمرات جليلة، منها:

الأولى: الاعتماد على الله تعالى، عند فعل الأسباب، بحيث لا يعتمدُ على السبب نفسه؛ لأن كل شيء بقدر الله تعالى.

الثانية: أن لا يُعْجَب المرء بنفسه عند حصول مراده؛ لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قَدَّره من أسباب الخير والنجاح، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

الثالثة: الطمأنينة، والراحة النفسية بما يجزى عليه من أقدار الله تعالى؛ فلا يقلقُ بفوات محبوب، أو حصول مكروه؛ لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض، وهو كائن لا محالة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، ويقول النبي ﷺ: (**عجبًا لأمر المؤمن إنّ أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاءُ شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر؛ فكان خيرًا له**) [مسلم (٢٩٩٩)].

وقد ضلَّ في القدر طائفتان:

إحداهما: الجَبريَّة الذين قالوا: إنَّ العبد مُجبر على عمله، وليس له فيه إرادة ولا قدرة.

الثانية: القَدَرِيَّة الذين قالوا: إنَّ العبد مستقل بعمله في الإرادة، والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر.

والرد على الطائفة الأولى (الجبرية) بالشرع والواقع:

أما الشرع: فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة، وأضاف العمل إليه، قال الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلمُ الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته: كالأكل، والشرب، والبيع، والشراء، وبين ما يقعُ عليه بغير إرادته: كالارتعاش من الحمى، والسقوط من السطح، فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر، وفي الثاني غير مختار، ولا مريد لما وقع عليه.

والرد على الطائفة الثانية (القدرية) بالشرع والعقل:

أما الشرع: فإن الله تعالى خالق كل شيء، وكل شيء كائن بمشيئته، وقد بَيَّنَ الله تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وأما العقل: فإن الكون كُلَّه مملوكٌ لله تعالى، والإنسان من هذا الكون؛ فهو مملوك لله تعالى، ولا يمكن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته.

أَهْدَافُ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّة

الهدف -لُغةً-: يُطلق على معانٍ منها: (الغَرَضُ يُنصب ليُرمى إليه، وكل شيء مقصود).

وأهداف العقيدة الإسلامية: مقاصدها، وغاياتها النبيلة، المترتبة على التمسك بها.

وهي كثيرة متنوعة فمنها:

أولاً: إخلاص النية والعبادة لله تعالى وحده؛ لأنه الخالق لا شريك له، فوجب أن يكون القصد، والعبادة له وحده.

ثانيًا: تحرير العقل والفكر من التخبُّط الفوضويِّ الناشئ عن خُلُوِّ القلب من هذه العقيدة؛ لأن من خلا قلبه منها فهو إما فارغ القلب من كل عقيدة وعابد للمادة الحسِّيَّة فقط، وإما متخبط في ضلالات العقائد والخرافات.

ثالثًا: الراحة النفسية، والفكرية، فلا قلق في النفس ولا اضطراب في الفكر؛ لأن هذه العقيدة تَصِل المؤمن بخالقه؛ فيرضى به ربًّا مُدبرًا، وحاكمًا مُشرِّعًا؛ فيطمئنُ قلبه بقدره، وينشرح صدره للإسلام؛ فلا يبغي عنه بديلاً.

رابعًا: سلامة القصد والعمل من الانحراف في عبادة الله تعالى، أو معاملة المخلوقين؛ لأن من أُسُسها الإيمان بالرسل، المتضمن لاتباع طريقتهم ذات السلامة في القصد والعمل.

خامسًا: الحزم والجد في الأمور، بحيث لا يفوِّت فرصة للعمل الصالح إلا استغلها فيه؛ رجاء للثواب، ولا يرى موقع إثم إلا ابتعد عنه؛ خوفًا من العقاب؛ لأن من أُسُسها الإيمان بالبعث، والجزاء على الأعمال.

قال الله تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقد حثَّ النبي ﷺ على هذه الغاية في قوله: (**المؤمن القوي خيرٌ، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنِّي فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قلْ: قدَّر الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**) [مسلم (٢٦٦٤)].

سادسًا: تكوين أُمَّة قوية تبذل كلَّ غالٍ ورخيص في تثبيت دينها، وتوطيد دعائمه، غير مبالية بما يصيبها في سبيل ذلك، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

سابعًا: الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بإصلاح الأفراد والجماعات، ونيل الثواب والمكرمات، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

هذه بعض أهداف العقيدة الإسلامية، نرجو الله تعالى أن يحققها لنا، ولجميع المسلمين؛ إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تَمَّتْ بِقَلَمِ مُؤَلِّفِهَا:
مُحَمَّدٍ الصَّالِحِ العُثَيْمِين

مِن فَضائل الوضُوء

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها» [مسلم (٢٢٣)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن تَوَضَّأَ فأحْسَنَ الوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطاياهُ مِن جَسَدِهِ، حتّى تَخْرُجَ مِن تَحْتِ أَظْفارِهِ» [مسلم (٢٣١)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن تَوَضَّأَ هَكَذا -أي: كوضوءه ﷺ- غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ، وكانَتْ صَلاتُهُ ومَشْيُهُ إلى المَسْجِدِ نافِلَةً» [مسلم (٢٣١)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هذا، ثُمَّ صَلّى رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِما نَفْسَهُ، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ» [البخاري (١٥٩)].

وَقَالَ ﷺ: «لا يَقْبَلُ اللهُ صَلاةَ أحَدِكُمْ إذا أحْدَثَ حتّى يَتَوَضَّأَ» [البخاري (٦٩٥٤)].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَتَمَّ الوُضُوءَ كما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى، فالصَّلَواتُ المَكْتُوباتُ كَفّاراتٌ لِما بيْنَهُنَّ» [مسلم (٢٣١)].

وَقَالَ ﷺ: «لا يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فيُحْسِنُ الوُضُوءَ فيُصَلِّي صَلاةً إلّا غَفَرَ اللهُ له ما بيْنَهُ وبيْنَ الصَّلاةِ الَّتي تَلِيها» [مسلم (٢٢٧)].

وَقَالَ ﷺ: «ما مِن مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عليهما بقَلْبِهِ ووَجْهِهِ، إلّا وجَبَتْ له الجَنَّةُ» [مسلم (٢٣٤)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن تَوَضَّأَ لِلصَّلاةِ فأسْبَغَ الوُضُوءَ، ثُمَّ مَشى إلى الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ، فَصَلّاها مع النّاسِ، أَوْ مع الجَماعَةِ، أَوْ في المَسْجِدِ غَفَرَ اللهُ له ذُنُوبَهُ» [مسلم (٢٣٢)].

وَقَالَ ﷺ: «ما من مسلمٍ يتوضأ فيُسبِغُ الوضوءَ، ثم يقومُ في صلاتِه، فيعلمُ ما يقول، إلا انفتَل، وهو كيومِ ولدَتْه أمُّه» [صحيح الترغيب (٥٤٦)].

وَقَالَ ﷺ: «أنْتُمُ الغُرُّ المُحَجَّلُونَ يَومَ القِيامَةِ مِن إسْباغِ الوُضُوءِ» [مسلم (٢٤٦)].

وَقَالَ ﷺ: «من توضَّأ فأحسَنَ وضوءَهُ ثمَّ راحَ فوجدَ النّاسَ قد صلَّوا أعطاهُ اللهُ جلَّ وعزَّ مثلَ أجرِ

من صلّاها وحضرَها لا ينقصُ ذلِكَ من أجرِهم شيئًا» [صحيح سنن أبي داود (٥٦٤)].

وَقَالَ ﷺ: «إذا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ، أَوِ المُؤْمِنُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِن وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْها بعَيْنَيْهِ مع الماءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الماءِ، فَإِذا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِن يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كانَ بَطَشَتْها يَداهُ مع الماءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الماءِ، فَإِذا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْها رِجْلاهُ مع الماءِ، أَوْ مع آخِرِ قَطْرِ الماءِ، حتّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ» [مسلم (٢٤٤)][1].

وَقَالَ ﷺ: «أَلا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ به الخَطايا، ويَرْفَعُ به الدَّرَجاتِ؟ قالُوا بَلى يا رَسولَ اللهِ، قالَ: إسْباغُ الوُضُوءِ على المَكارِهِ، وكَثْرَةُ الخُطا إلى المَساجِدِ، وانْتِظارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ» [مسلم (٢٥١)].

وَقَالَ ﷺ: «رأيْتُ رَبي فِيْ أحسنَ صُورَةٍ، فقال: فيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأعلى، فقُلْتُ: لا أَدْرِي، فوضعَ يَدَهُ بين كَتِفَيَّ، حتى وجَدْتُ بَرْدَ أنامِلِه، ثُمَّ قال: فيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأعلى؟ قُلْتُ: في الكَفّاراتِ والدَّرَجاتِ، قال: وما الكَفّاراتُ؟ قُلْتُ: إسْباغُ الوُضُوءِ في السَّبَراتِ، ونَقْلُ الأَقْدامِ إلى الجُمُعاتِ،

---

(١) «في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] هذا الوضوء تُطهَّرُ فيه الأعضاءُ الأربعة؛ الوَجهُ، وَاليدان، والرأس، والرجلان، وهذا التطهير يكون تطهيراً حسيًا، ويكون تطهيراً معنويًا. أما كونه تطهيراً حِسيًا فظاهر؛ لأن الإنسان يغسل وجهه، ويديه، ورجليه، ويمسح الرأس، وكان الرأس بصدد أن يغسل كما تغسل بقية الأعضاء، ولكن الله خفف في الرأس؛ ولأن الرأس يكون فيه الشعر، والرأس هو أعلى البدن، فلو غسل الرأس ولا سيما إذا كان فيه الشعر؛ لكان في هذه مشقة على الناس، ولا سيما في أيام الشتاء، ولكن من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل فرض الرأس المسح فقط، فإذا توضأ الإنسان لا شك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيراً حسيًا، وهو يدل على كمال الإسلام؛ حيث فرض على معتنقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التي هي غالبًا ظاهرة بارزة. أما الطهارة المعنوية، وهي التي ينبغي أن يقصدها المسلم، فهي تطهيره من الذنوب، فإذا غسل وجهه، خرجت كل خطايا نظر إليها بعينه، وذِكْرُ العين -والله أعلم- إنما هو على سبيل التمثيل، وإلا فالأنف قد يخطئ، والفم قد يخطئ؛ فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها، ولكن ذَكَرَ العين؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ في النظر. فلذلك إذا غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه، فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه، حتى يكون نقيًا من الذنوب. ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، يعني ظاهراً وباطنًا، حِسًا ومعنًى، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر هذا المعنى، أي أن وضوءه يكون تكفيراً لخطيئاته، حتى يكون بهذا الوضوء محتسبًا الأجر على الله عَزَّوَجَلَّ، والله الموفق» [العثيمين، شرح رياض الصالحين (٢/ ١٨١-١٨٣)].

وانْتِظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ، قال: فما الدَّرَجاتُ؟ قُلْتُ: إطْعامُ الطَّعامِ، وإفْشاءُ السلامِ، وصلاةٌ باللَيلِ والناسِ نيامٌ، قال: قُلْ، قال: قُلْتُ: ما أَقُولُ؟ قال: قُلْ: اللهمَّ! إنِّي أسألُكَ عَمَلًا بالحَسَناتِ، وتَرْكًا لِلْمُنْكَراتِ، وإذا أردْتَ في قومٍ فِتْنَةً وأنا فيهِمْ؛ فاقْبِضْنِي إليكَ غيرَ مَفْتُونٍ» [السلسلة الصحيحة (٣١٦٩)].

وَقَالَ ﷺ: «سدِّدُوا وقارِبوا، واعملُوا وخيِّروا، واعلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكم الصلاةُ، ولا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ» [السلسلة الصحيحة (١١٥)].

وَقَالَ ﷺ: «إذا تَوضَّأَ أحدُكُم في بيتِهِ، ثمَّ أتى المسجدَ، كان في صلاةٍ حتّى يرجعَ، فلا يقلْ هكَذا: وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ» [صحيح الجامع (٤٤٥)].

وَقَالَ ﷺ: «إذا تطَهَّرَ الرَّجلُ ثمَّ أتى المسجِدَ يَرعى الصَّلاةَ، كتَب لهُ كاتِباه أو كاتبُهُ بكلِّ خُطوةٍ يَخطوها إلى المسجِدِ عشْرَ حسَناتٍ والقاعِدُ يرعى الصَّلاةَ كالقانِتِ، ويُكتَبُ من المصَلِّينَ، مِن حينِ يخرجُ من بيتِه حتّى يرجعَ إليهِ» [صحيح الترغيب (٢٩٨)].

وَقَالَ ﷺ: «إذا توضَّأَ أحدُكم فأحسنَ الوضوءَ ثمَّ خرجَ إلى الصَّلاةِ لم يرفع قدمَهُ اليمنى إلّا كتبَ اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُ حسنةً ولم يضع قدمَهُ اليسرى إلّا حطَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ سيِّئةً فليقرِّب أحدُكم أو ليبعِّد فإن أتى المسجدَ فصلّى في جماعةٍ غُفِرَ لَهُ فإن أتى المسجدَ وقد صلَّوا بعضًا وبقيَ بعضٌ صلّى ما أدرَكَ وأتمَّ ما بقيَ كانَ كذلِكَ فإن أتى المسجدَ وقد صلَّوا فأتمَّ الصَّلاةَ كانَ كذلِكَ» [صحيح سنن أبي داود (٥٦٣)].

وَقَالَ ﷺ: «ما مِنكُم مِن أحَدٍ يَتَوَضَّأُ فيُبْلِغُ، أوْ فيُسْبِغُ الوَضُوءَ ثُمَّ يقولُ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا عبدُ اللهِ ورَسولُهُ؛ إلّا فُتِحَتْ له أبْوابُ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةُ يَدْخُلُ مِن أيِّها شاءَ» [مسلم (٢٣٤)]، وفي رواية: «من توضأ فأحسن الوضوءَ ثم قال: أشهد أن لا إلهَ الا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه. اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهِّرين، فُتحت له ثمانيةُ أبوابِ الجنةِ، يدخل من أيِّها شاءَ» [صحيح سنن الترمذي (٥٥)]. وَقَالَ ﷺ: «من توضأَ فقال بعد فراغِه من وضوئِه: سبحانَك اللهمَّ وبحمدِك، أشهدُ أنْ لا إلَه إلا أنتَ، أستغفرُك وأتوبُ إليك، كُتِبَ في رَقٍّ، ثم جُعِلَ في طابعٍ، فلم يُكسرْ إلى يومِ القيامةِ» [صحيح الجامع (٦١٧٠)].

وَقَالَ ﷺ: «لا يتوضَّأُ أحَدُكم فيُحْسِنُ وُضوءَهُ فيُسْبِغُهُ، ثمَّ يأتي المسجِدَ لا يُريدُ إلّا الصَّلاةَ فيه،

إلّا تَبَشْبَشَ اللهُ إليه كما يَتَبَشْبَشُ أهلُ الغائبِ بطَلعَتِهِ» [صحيح الترغيب (٣٠٣)].

وَقَالَ ﷺ: «إذا تَوضَّأَ الرَّجلُ كما أُمِرَ، ذهَب الإثمُ مِن سَمعِه وبصَرِه، ويديْهِ ورِجليْهِ» [صحيح الترغيب (١٨٧)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن تَوضَّأَ كما أُمِرَ وصلّى كما أُمِرَ غُفِرَ لَهُ ما قدَّمَ مِن عملٍ» [صحيح سنن النسائي (١٤٤)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن خرجَ من بيتِه متطَهرًا إلى صلاةٍ مَكتوبةٍ فأجرُه كأجرِ الحاجِّ المحرمِ ومَن خرجَ إلى تسبيحِ الضُّحى لا ينصبُه إلّا إيّاهُ فأجرُه كأجرِ المعتمرِ وصلاةٌ على أثرِ صلاةٍ لا لغوَ بينَهما كتابٌ في عِلِّيِّينَ» [صحيح سنن أبي داود (٥٥٨)].

وَقَالَ ﷺ: «ما من مسلمٍ يبيتُ على ذكرِ اللهِ طاهرًا، فيتعارَّ من الليلِ، فيسأل اللهَ خيرًا من أمر الدنيا والآخرةِ؛ إلا أعطاهُ إياه» [السلسلة الصحيحة (٣٢٨٨)].

وَقَالَ ﷺ: «الرَّجلُ من أُمَّتِي يقومُ من اللَّيلِ يُعالِجُ نَفسَه إلى الطَّهورِ، وعليهِ عُقدٌ، فإذا وضَّأَ يديْهِ انحلَّتْ عُقدةٌ، وإذا وضَّأَ وجهَه انحلَّتْ عُقدةٌ، وإذا مسح رأسَه انحلَّتْ عُقدةٌ، وإذا وضَّأَ رجليْهِ انحلَّتْ عُقدةٌ. فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ للذين وراءَ الحجابِ: انظروا إلى عبدي هذا يُعالِجُ نفسَه، ويسألُني، ما سألَني عَبدي هذا فهوَ لهُ» [صحيح الترغيب (٦٣١)].

وَقَالَ ﷺ: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ، حَيْثُ يَبْلُغُ الوَضُوءُ» [مسلم (٢٥٠)].

وَقَالَ العَلامَةُ حَافِظُ بنُ أَحْمَد الحَكَمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في بَيَانِ بَعْضِ فَضَائِلِ الوُضُوءِ:

طُهُورُنَا شَطْرٌ مِنَ الإِيمَانِ ... مُكَفِّرٌ صَغَائِرَ العِصْيَانِ
تَخْرُجُ عِنْدَ الغَسْلِ للأَعْضَاءِ ... نَصًّا صَرِيحًا مَعَ قَطْرِ المَاءِ
لا سِيَّمَا لِكُلِّ مَنْ قَدْ صَلَّى ... مِنْ بَعْدِهِ فَرِيضَةً أَوْ نَفْلَا
إِسْبَاغُهُ فِيهِ عَلَى المَكَارِهْ ... فَضِيلَةٌ عُظْمَى وَمِنْ آثَارِهْ
عَلَامَةٌ وَأَيُّمَا عَلَامَهْ ... لِهَذِهِ الأُمَّةِ فِي القِيَامَهْ
أَيْ أَثَرُ الغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ ... لَهُمْ خُصُوصًا لَمْ تَكُنْ لِجِيلِ
فَهُمْ عَلَى ذَا الوَصْفِ يُبْعَثُونَا ... وَعِنْدَ وِرْدِ الحَوْضِ يُعْرَفُونَا
كَفَاكَ فِي فَضْلِ الطُّهُورِ كَوْنُهُ ... لا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةً دُونَهُ
وَالفَضْلُ فِي تَجْدِيدِهِ مَأْثُورُ ... حَيْثُ بِهِ تُضَاعَفُ الأُجُورُ

صِفَةُ وُضوءِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

١ – ينوي الوضوء بقلبه من غير تلفظ باللسان؛ لقوله ﷺ: «**إنَّما الأعْمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوى**» [البخاري (١)].

وقدر الماء الذي يكفي للوضوء قدر المُد؛ للحديث: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُغَسِّلُهُ الصَّاعُ مِنَ الماءِ مِنَ الجَنابَةِ، ويُوَضِّئُهُ المُدُّ» [مسلم (٣٢٦)]، وفي رواية: «كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَغْتَسِلُ بالصَّاعِ ويَتَطَهَّرُ بالمُدِّ».

والمُد: مِلء كفيِّ الإنسان المعتدل.

ويُسن التسوك عند الوضوء؛ لقوله ﷺ: «**لولا أن أشُقَّ عَلى أُمتي لأمرْتُهم بالسواكِ مع كلِّ وضوءٍ**» [صحيح الجامع (٥٣١٧)].

٢ – ثم يسمي الله تعالى قائلا بلسانه: «بِسْمِ اللهِ»؛ لقوله ﷺ: «**توضَّؤوا باسمِ اللهِ**» [صحيح سنن النسائي (٧٨)]، ولا يزيد: (الرحمن الرحيم)، ولقوله ﷺ: «**لا صلاةَ لمن لا وضوءَ لَهُ، ولا وضوءَ لمن لم يذكرِ اسمَ اللهِ تعالى عليهِ**» [صحيح سنن أبي داود (١٠١)].

وإذا نسي فلا شيء عليه.

٣ – ثم يغسل كفيه –ثلاث مرات، استحبابا[1]–، ويخلل ما بين أصابعهما؛ للحديث، أنَّ «عُثْمانَ بنَ عَفَّانَ دَعا بوَضُوءٍ، فأفْرَغَ على يَدَيْهِ مِن إنائِهِ، فَغَسَلَهُما ثَلاثَ مَرَّاتٍ» [البخاري (١٦٤)]، وللحديث، أنَّهُ سُئل «عَبْد اللهِ بن زَيْد عن وُضُوءِ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَعا بِتَوْرٍ مِنْ ماءٍ، فَتَوَضَّأَ لَهُمْ وُضُوءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَكْفَأَ على يَدِهِ مِنَ التَّوْرِ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ ثَلَاثًا» [البخاري (١٨٦)].

ولقوله ﷺ: «**أسبغِ الوُضوءَ، وخلِّل بينَ الأصابعِ**» [صحيح سنن الترمذي (٧٨٨)].

وحدُّ الكف: من أطراف الأصابع إلى مفصل الرسغ.

٤ – ثم يتمضمض ويستنشق –ثلاث مرات–، للحديث: «فَمَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ واسْتَنْثَرَ، ثَلَاثَ غَرَفاتٍ» [البخاري (١٨٦)].

---

(١) لحديث: «تَوَضَّأَ النبيُّ ﷺ مَرَّةً مَرَّةً» [البخاري (١٥٧)]، ولحديث: «أنَّ النبيَّ ﷺ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ» [البخاري (١٥٨)]، وهكذا في بقية أعضاء الوضوء.

والسنة أن يأخذ لهما الماء بغرفة واحدة بيده اليمنى، ويستنثر بيده اليسرى، للحديث: «ثُمَّ غَسَلَ -أوْ مَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ- مِن كَفَّةٍ واحِدَةٍ، فَفَعَلَ ذلكَ ثَلاثًا» [البخاري (١٩١)]، وللحديث: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مَضمضَ واستنشَقَ من غَرفةٍ واحدةٍ» [صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٩)].

وللحديث عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّهُ دعا بوَضوءٍ، فتمضمضَ واستنشقَ، ونثرَ بيدِهِ اليُسرى، ففعلَ هذا ثلاثًا ثمَّ قالَ: هذا طُهورُ نبيِّ اللهِ» [صحيح سنن النسائي (٩١)].

والسنة المبالغة في الاستنشاق إلا للصائم؛ لقوله ﷺ: «**وبالِغ في الاستِنشاقِ، إلا أن تَكونَ صائمًا**» [صحيح سنن الترمذي (٧٨٨)].

والمضمضة هي: «غسل الفم بإدخال الماء وتحريكه فيه».

والاستنشاق هو: «إدخال الماء إلى الأنف وجذبه بالنَّفَس».

والاستنثار هو: «إخراج الماء من الأنف بعد استنشاقه».

٥ – ثم يغسل وجهه كاملا -ثلاث مرات-، ويخلل لحيته؛ لقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ**﴾ [المائدة: ٦]، وللحديث: «فَغَسَلَ وجْهَهُ ثَلاثًا» [البخاري (١٨٦)]، وللحديث: «ثُمَّ غَسَلَ وجْهَهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ» [مسلم (٢٢٦)].

وللحديث: «كان إذا توضَّأَ خلَّلَ لِحيتَهُ بالماءِ» [صحيح الجامع (٤٦٩٩)]، وللحديث: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يخلِّلُ لحيتَهُ» [صحيح سنن الترمذي (٣١)]، وللحديث: «رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يخلِّلُ لِحيتَهُ» [صحيح سنن ابن ماجه (٣٤٩)]، وللحديث: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا تَوضَّأَ أخذَ كفًّا من ماءٍ فأدخلَهُ تحتَ حنكِهِ فخلَّلَ بِهِ لِحيتَهُ، وقالَ: **هَكَذا أمرَني ربِّي عزَّ وجَلَّ**» [صحيح سنن أبي داود (١٤٥)].

وحدُّ الوجه: ما بين منبت الشعر المعتاد إلى منتهى الذقن طولا، وما بين شحمتي الأذنين عرضا، ويدخل فيه الصدغان واللحيان.

وإذا كان في الوجه شعر خفيف يصف البشرة؛ فتُغسل البشرة مع الشعر.

وإذا كان في الوجه شعر كثيف؛ فيُغسل ظاهر الشعر الداخل في حد الوجه.

٦ – ثم يغسل يده اليمنى مع المرفق -ثلاث مرات-، ثم يده اليسرى مثل ذلك، ويخلل ما بين أصابعهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وللحديث: «ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ اليُمْنى إلى المِرْفقِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ اليُسْرى مِثْلَ ذلكَ» [مسلم (٢٢٦)].

ولقوله ﷺ: «**أسبغِ الوُضوءَ، وخلِّل بينَ الأصابعِ**» [صحيح سنن الترمذي (٧٨٨)].

والمرفق: هو المفصل الذي بين الساعد والعضد، فيكون الغسل شاملا لجميع الذراع؛ من أطراف الأصابع مرورا باليد والرسغ والساعد إلى المرفق.

٧ – ثم يمسح رأسه كاملا مع الأذنين مسحة واحدة[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وللحديث: «ثُمَّ أدْخَلَ يَدَهُ فَمَسَحَ رَأْسَهُ، فأقْبَلَ بهما وأَدْبَرَ مَرَّةً واحِدَةً» [البخاري (١٨٦)]، وللحديث: «ثُمَّ مَسَحَ برَأْسِهِ» [مسلم (٢٢٦)].

ولقوله ﷺ: «**الأُذنانِ مِن الرأسِ**» [السلسلة الصحيحة (٣٦)].

وصفة المسح: أن يبل يديه بالماء ثم يمرُّهما من مقدم الرأس إلى قفاه ثم يعود إلى مقدم الرأس، ثم يمسح أذنيه بنفس الماء الذي مسح به رأسه، فيدخل سباحتيه في صماخي أذنيه ويمسح بإبهاميه ظاهرهما وبسباحتيه باطنهما، ويتعاهد المنطقة الظاهرة التي بين الأذنين وشعر الرأس؛ للحديث: «ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بيَدَيْهِ، فأقْبَلَ بهما وأَدْبَرَ، بَدَأَ بمُقَدَّمِ رَأْسِهِ حتَّى ذَهَبَ بهما إلى قَفاهُ، ثُمَّ رَدَّهُما إلى المَكانِ الذي بَدَأَ منه» [البخاري (١٨٥)]، وللحديث: «ثمَّ مسحَ برأسِه فأدخلَ إصبعيهِ السَّبَّاحتينِ في أُذُنيهِ ومسحَ بإبهاميهِ على ظاهرِ أذنيهِ وبالسَّبَّاحتينِ باطنَ أذنيهِ» [صحيح سنن أبي داود (١٣٥)]، وللحديث: «ثمَّ مسحَ برأسِه وأذنيهِ باطنِهما بالسَّبَّاحتينِ وظاهرِهما بإبهاميهِ» [صحيح سنن النسائي (١٠٢)].

---

(١) ويصح المسح مرتين أو ثلاثا -أحيانا-؛ لما رُوي عن شَقِيقِ بنِ سَلَمةَ قالَ: «رَأيْتُ عُثْمانَ بنَ عفَّانَ غَسَلَ ذِراعَيه ثَلاثًا ثَلاثًا، ومَسَحَ رأسَه ثَلاثًا، ثُمَّ قالَ: رَأيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ هذا» [صحيح سنن أبي داود (١١٠)]، ولما رُوي عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ ابْنِ عَفْرَاءَ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْتِينَا، فَحَدَّثْنَا أَنَّهُ قَالَ: **اسْكُبِي لِي وَضُوءًا**، فَذَكَرَتْ وُضُوءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ فِيهِ: فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثًا، وَوَضَّأَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، وَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ مَرَّةً، وَوَضَّأَ يَدَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ مَرَّتَيْنِ بِمُؤَخَّرِ رَأْسِهِ، ثُمَّ بِمُقَدَّمِهِ وَبِأُذُنَيْهِ كِلْتَيْهِمَا ظُهُورِهِمَا وَبُطُونِهِمَا، وَوَضَّأَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا» [صحيح سنن أبي داود (١٢٦)].

٨ - ثم يغسل رجله اليمنى مع الكعبين -ثلاث مرات-، ثم رجله اليسرى مثل ذلك، ويدلك ويخلل ما بين أصابعهما، ويتعاهد العقب بغسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، وللحديث: «ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ إلى الكَعْبَيْنِ» [البخاري (١٨٦)].

وللحديث: «ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُمْنى ثَلاثًا، ثُمَّ اليُسْرى ثَلاثًا» [البخاري (١٩٣٤)].

ولقوله ﷺ: «**خلِّلْ أصابعَ يديْكَ ورجليكَ**» [السلسلة الصحيحة (١٣٤٩)]، وللحديث: «رأيتُ النَّبيَّ ﷺ إذا توضَّأ دلَك أصابعَ رِجلَيْه بخَنصرِه» [صحيح سنن الترمذي (٤٠)].

ولقوله ﷺ: «**ويْلٌ لِلأَعْقابِ مِنَ النَّارِ، أَسْبِغُوا الوُضُوءَ**» [مسلم (٢٤١)].

٩ - ثم يدعو بالدعاء المستحب بعد الوضوء، فيقول: «**أشهد أن لا إلهَ الا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه. اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهِّرين**» [صحيح سنن الترمذي (٥٥)]، أو يقول: «**سبحانَك اللهمَّ وبحمدِك، أشهدُ أنْ لا إلَه إلا أنتَ، أستغفرُك وأتوبُ إليك**» [صحيح الجامع (٦١٧٠)].

والسنة الترتيب في غسل أعضاء الوضوء كما رتبها الله تعالى في الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وكما طبق ذلك نبينا ﷺ.

وتشترط الموالاة بين أعضاء الوضوء وعدم الفصل الطويل.

❁ وإذا عُدم الماء أو لم يمكن استعماله يُنتقل إلى التيمم[1]؛ للحديث: «أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ رَأى رَجُلًا مُعْتَزِلًا لَمْ يُصَلِّ في القَوْمِ، فَقالَ: **يا فُلانُ ما مَنَعَكَ أنْ تُصَلِّيَ في القَوْمِ؟** فَقالَ يا رَسولَ اللهِ: أصابَتْنِي جَنابَةٌ ولا ماءَ، قالَ: **عَلَيْكَ بالصَّعِيدِ فإنَّه يَكْفِيكَ**» [البخاري (٣٤٨)].

وصفة التيمم: أن ينوي التيمم، ويقول: بسم الله، ثم يضرب بكفيه وجه الأرض ضربة واحدة، ثم يمسح ظاهر كفه الأيمن براحة يده اليسرى، وظاهر كفه الأيسر براحة يده اليمنى، ثم يمسح وجهه بيديه؛ للحديث: «**إنَّما كانَ يَكْفِيكَ أنْ تَصْنَعَ هَكَذا**، فَضَرَبَ بكَفِّهِ ضَرْبَةً على الأرْضِ، ثُمَّ نَفَضَها، ثُمَّ مَسَحَ بهما ظَهْرَ كَفِّهِ بشِمالِهِ أوْ ظَهْرَ شِمالِهِ بكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بهما وجْهَهُ» [البخاري (٣٤٧)]، وفي رواية: «**إنَّما كان يكفيك أن تصنعَ هكذا**، فضرب بيدِه على الأرضِ فنفضها ثمَّ ضرب بشمالِه على يمينِه وبيمينِه على شمالِه على الكفَّيْن ثمَّ مسح وجهَه» [صحيح سنن أبي داود (٣٢١)].

ويقال بعد التيمم ما يقال بعد الوضوء من الأذكار.

---

(١) عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «خَرَجْنا مع رَسولِ اللهِ ﷺ في بَعْضِ أسْفارِهِ، حتَّى إذا كُنَّا بالبَيْداءِ، أوْ بذاتِ الجَيْشِ، انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فأقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ على التِماسِهِ، وأقامَ النَّاسُ معهُ، ولَيْسُوا على ماءٍ، وليسَ معهُمْ ماءٌ، فأتى النَّاسُ أبا بَكْرٍ فَقالوا: ألا تَرى ما صَنَعَتْ عائِشَةُ؟ أقامَتْ برَسولِ اللهِ ﷺ وبالنّاسِ معهُ، ولَيْسُوا على ماءٍ، وليسَ معهُمْ ماءٌ؟ فَجاءَ أبو بَكْرٍ ورَسولُ اللهِ ﷺ واضِعٌ رَأْسَهُ على فَخِذِي قدْ نامَ، فَقالَ: حَبَسْتِ رَسولَ اللهِ ﷺ والنّاسَ، ولَيْسُوا على ماءٍ، وليسَ معهُمْ ماءٌ، قالَتْ: فَعاتَبَنِي، وقالَ ما شاءَ اللهُ أنْ يَقُولَ، وجَعَلَ يَطْعُنُنِي بيَدِهِ في خاصِرَتِي، فلا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إلا مَكانُ رَسولِ اللهِ ﷺ على فَخِذِي، فَنامَ رَسولُ اللهِ ﷺ حتّى أصْبَحَ على غيرِ ماءٍ، فأنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ، فَتَيَمَّمُوا، فَقالَ أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ: ما هي بأوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يا آلَ أبِي بَكْرٍ!، فَقالَتْ عائِشَةُ: فَبَعَثْنا البَعِيرَ الذي كُنْتُ عليه، فَوَجَدْنا العِقْدَ تَحْتَهُ» [البخاري (٣٦٧٢)].

من فضائل الصلاة

قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وَسُئِلَ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلى اللهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «الصَّلاةُ عَلى وَقْتِهَا» [البخاري (٥٩٧٠)].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. «يَعْنِي: أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عَلَى تَرْكِ الفَوَاحِشِ وَالمُنْكَرَاتِ، أَيْ: إِنَّ مُوَاظَبَتَهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ» [ابن كثير]، وَ«جَاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَال: إِنَّ فُلانًا يُصَلِّي بِاللَّيلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ. قَالَ: إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» [السلسلة الصحيحة (٣٤٨٢)].

وَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج].

وَقَالَ جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

وقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الحديث القدسي: «هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ» [البخاري (٣٤٩)].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَدِّدوا وقارِبوا، واعلموا أنَّ خيرَ أعمالِكم الصلاةُ» [صحيح الترغيب (١٩٧)].

وَقَالَ ﷺ: «أرَأَيْتُمْ لو أنَّ نَهرًا بِبابِ أحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فيه كُلَّ يَومٍ خَمْسًا، ما تَقُولُ ذلكَ يُبْقِي مِن دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يُبْقِي مِن دَرَنِهِ شيئًا، قالَ: فَذلكَ مثلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ به الخَطايا» [البخاري (٥٢٨)].

وَقَالَ ﷺ: «بُنِيَ الإسْلامُ على خَمْسٍ، شَهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رَمَضانَ» [مسلم (١٦)].

وَقَالَ ﷺ: «إنَّ أوَّلَ ما يحاسبُ به العبدُ يومَ القيامةِ من عملِه صلاتُه فإن صلحت فقد أفلحَ وأنجحَ وإن فسدت فقد خابَ وخسرَ فإن انتقصَ من فريضةٍ شيئًا قالَ الرَّبُّ تبارك وتعالى انظروا هل لعبدي من تطوُّعٍ فيُكمَّلَ بها ما أنتقصَ منَ الفريضةِ ثمَّ يَكونُ سائرُ عملِه على ذلِك» [صحيح سنن الترمذي (٤١٣)].

وَقَالَ ﷺ: «صَلاةُ الرَّجُلِ في الجَماعَةِ تُضَعَّفُ على صَلاتِهِ في بَيْتِهِ، وفي سُوقِهِ، خَمْسًا وعِشْرِينَ ضِعْفًا، وذلكَ أنَّهُ: إذا تَوَضَّأَ، فأحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إلى المَسْجِدِ، لا يُخْرِجُهُ إلّا الصَّلاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً، إلّا رُفِعَتْ له بها دَرَجَةٌ، وحُطَّ عنْه بها خَطِيئَةٌ، فَإذا صَلّى، لَمْ تَزَلِ المَلائِكَةُ تُصَلِّي عليه، ما دامَ في مُصَلّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عليه، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، ولا يَزالُ أحَدُكُمْ في صَلاةٍ ما انْتَظَرَ الصَّلاةَ» [البخاري (٦٤٧)].

وَقَالَ ﷺ: «الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمْعَةُ إلى الجُمْعَةِ، وَرَمَضانُ إلى رَمَضانَ، مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهُنَّ إذا اجْتَنَبَ الكَبائِرَ» [مسلم (٢٣٣)].

وَقَالَ ﷺ: «ما مِنَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاةٌ مَكْتُوبَةٌ فيُحْسِنُ وُضُوءَها وخُشُوعَها ورُكُوعَها، إلّا كانَتْ كَفّارَةً لِما قَبْلَها مِنَ الذُّنُوبِ ما لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وذلكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» [مسلم (٢٢٨)].

وَفِي الحديث: «كُنْتُ أبِيتُ مع رَسولِ اللهِ ﷺ فأتَيْتُهُ بوَضُوئِهِ وحاجَتِهِ، فَقالَ لِي: سَلْ، فَقُلْتُ: أسْأَلُكَ مُرافَقَتَكَ في الجَنَّةِ. قَالَ: أوْ غيرَ ذلكَ؟ قُلتُ: هَوَ ذَاكَ. قَالَ: فَأعِنِّي عَلى نَفْسِكَ بكَثْرَةِ السُّجُودِ» [مسلم (٤٨٩)].

وَقَالَ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ الصَّلاةُ، فَإنْ صَلحَتْ صَلحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإن فَسدَتْ فَسَدَ سَائِر عَمَلِهِ» [السلسلة الصحيحة (١٣٥٨)].

وَقَالَ ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطانُ على قافِيَةِ رَأْسِ أحَدِكُمْ إذا هو نامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكانَها: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فارْقُدْ، فَإنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّها، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلّا أصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ» [البخاري (٣٢٦٩)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ فَهو في ذِمَّةِ اللهِ، فلا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِن ذِمَّتِهِ بشيءٍ، فإنَّه مَن يَطْلُبْهُ مِن ذِمَّتِهِ بشيءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبَّهُ على وَجْهِهِ في نارِ جَهَنَّمَ» [مسلم (٦٥٧)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن صَلَّى صَلاتَنا واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنا، وأكَلَ ذَبِيحَتَنا فَذلكَ المُسْلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللهِ وذِمَّةُ رَسولِهِ، فلا تُخْفِرُوا اللهَ في ذِمَّتِهِ» [البخاري (٣٩١)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن صَلَّى العِشاءَ في جَماعَةٍ فَكَأَنَّما قامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَن صَلّى الصُّبْحَ في جَماعَةٍ فَكَأَنَّما صَلّى اللَّيْلَ كُلَّهُ» [مسلم (٦٥٦)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ» [البخاري (٥٧٤)].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ صلَّى للهِ أربعينَ يومًا في جماعةٍ، يُدْرِكُ التَّكْبيرَةَ الأُولى، كُتِبَتْ لهُ بَراءَتانِ: بَراءَةٌ مِنَ النارِ، وبَراءَةٌ مِنَ النِّفاقِ» [السلسلة الصحيحة (٢٦٥٢)].

وَقَالَ ﷺ: «الصلاةُ خير موضوع، فمَنِ استطاعَ أنْ يَسْتكْثِرَ فلْيستكْثِرْ» [صحيح الجامع (٣٨٧٠)].

وَقَالَ ﷺ: «الصلاةُ قُربانٌ» [صحيح الترغيب (٨٦٦)].

وَقَالَ ﷺ: «أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ، فأكْثِرُوا الدُّعاءَ» [مسلم (٤٨٢)].

وَقَالَ ﷺ: «يا بلالُ أقمِ الصلاةَ، أرِحْنا بها» [صحيح سنن أبي داود (٤٩٨٥)].

وَقَالَ ﷺ: «جُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصلاةِ» [السلسلة الصحيحة (٣٢٩١)].

وَقَالَ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها» [مسلم (٢٢٣)].

وَقَالَ ﷺ: «..فإنْ هو قامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنى عليه، وَمَجَّدَهُ بالَّذِي هو له أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ؛ إلّا انْصَرَفَ مِن خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [مسلم (٨٣٢)].

وَقَالَ ﷺ: «ما مِن رجلٍ يذنبُ ذنبًا، ثمَّ يقومُ فيتطَهَّرُ، ثمَّ يصلِّي ثمَّ يستغفرُ اللهَ إلا غفرَ لَهُ، ثمَّ قرأَ هذِهِ الآيةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى آخرِ الآيةِ» [صحيح سنن الترمذي (٣٠٠٦)].

وَقَالَ ﷺ: «مَا مِن مُسلمٍ يُذنبُ ذنبًا فيتوضأُ ثم يُصلِّي ركعتينِ أو أربعًا مفروضةً أو غيرَ مفروضةٍ ثم يَستغفرُ اللهَ إلا غَفَرَ اللهُ لهُ» [السلسلة الصحيحة، تحت (٣٣٩٨)].

وَقَالَ ﷺ: «كانُوا إذا فَزِعُوا فَزِعُوا إلى الصَّلاةِ. يعني: الأنْبياءَ» [السلسلة الصحيحة (٣٤٦٦)]، وَفي الأثر: «كانَ النَّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ إذا حزبَهُ أمرٌ صلَّى» [صحيح سنن أبي داود (١٣١٩)].

وَقَالَ ﷺ: «**إذا خرجتَ من منزِلِك فصلِّ ركعتينِ تمنعانِكَ مخرجَ السُّوءِ، وإذا دخلْتَ إلى منزِلِك فصلِّ ركعتينِ تمنعانِكَ مدْخلَ السُّوءِ**» [صحيح الجامع (٥٠٥)].

وَقَالَ ﷺ: «**ابْنَ آدمَ اركعْ لي أولَ النهارِ أربعَ ركَعاتٍ أكْفِكَ آخرَه**» [صحيح سنن الترمذي (٤٧٥)].

وَقَالَ ﷺ: «**ركعتانِ خفيفتانَ مما تحقرونَ وتنفلونَ يزيدهُما هذا -يشيرُ إلى قبرٍ- في عملهِ أحبُّ إليهِ من بقيَّةِ دُنياكُم**» [السلسلة الصحيحة (١٣٨٨)].

وَقَالَ ﷺ: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فِيها**» [مسلم (٧٢٥)].

وَفِي الحَدِيث: «جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنِّي عالَجْتُ امْرَأَةً في أَقْصى المَدِينَةِ، وإنِّي أَصَبْتُ منها ما دُونَ أَنْ أَمَسَّها، فَأَنا هذا، فاقْضِ فِيَّ ما شِئْتَ، فَقالَ له عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لو سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النبيُّ ﷺ شيئًا، فَقامَ الرَّجُلُ فانْطَلَقَ، فأتْبَعَهُ النبيُّ ﷺ رَجُلًا دَعاهُ، وَتَلا عليه هذِه الآيَةَ: ﴿**وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ**﴾ [هود: ١١٤]، فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: يا نَبِيَّ اللهِ هذا له خاصَّةً؟ قالَ: **بَلْ لِلنَّاسِ كافَّةً**» [مسلم (٢٧٦٣)].

وَفِي الحَدِيث: «كنتُ معَ النَّبيِّ ﷺ في سفَرٍ، فأصبَحتُ يومًا قريبًا منهُ ونحنُ نَسيرُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أخبرني بعمَلٍ يُدخِلُني الجنَّةَ ويباعِدُني من النَّارِ، قالَ: **لقد سألتَني عَن عظيمٍ، وإنَّهُ ليسيرٌ على من يسَّرَهُ اللهُ علَيهِ، تعبدُ اللهَ ولا تشرِكْ بِهِ شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ**. ثمَّ قالَ: **ألا أدلُّكَ على أبوابِ الخيرِ: الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدَقةُ تُطفي الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجلِ من جوفِ اللَّيلِ** قالَ: ثمَّ تلا: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ**﴾، حتَّى بلغَ ﴿**يَعۡمَلُونَ**﴾.

ثمَّ قالَ: **ألا أخبرُكَ بِرَأسِ الأمرِ كلِّهِ وعَمودِهِ، وذِروةِ سَنامِهِ؟** قلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: **رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعَمودُهُ الصَّلاةُ، وذروةُ سَنامِهِ الجِهادُ.**

ثمَّ قالَ: **ألا أخبرُكَ بملاكِ ذلِكَ كلِّهِ؟** قُلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: فأخذَ بلِسانِهِ قالَ: **كُفَّ عليكَ هذا،** فقُلتُ: يا نبيَّ اللهِ، وإنَّا لمؤاخَذونَ بما نتكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: **ثَكِلَتكَ أمُّكَ يا مُعاذُ، وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهِم -أو على مَناخرِهِم- إلا حَصائِدُ ألسِنَتِهِم!**» [صحيح سنن الترمذي (٢٦١٦)].

وَقَالَ ﷺ: «خمسُ صلواتٍ كتبَهنَّ اللهُ على العبادِ، فمن جاءَ بِهنَّ لم يضيِّع منْهنَّ شيئًا استخفافًا بحقِّهنَّ، كانَ لَهُ عندَ اللهِ عَهدٌ أن يدخلَهُ الجنَّةَ، ومن لم يأتِ بِهنَّ فليسَ لَهُ عندَ اللهِ عَهدٌ، إن شاءَ عذَّبَهُ، وإن شاءَ أدخلَهُ الجنَّةَ» [صحيح سنن أبي داود (١٤٢٠)].

وَقَالَ ﷺ: «تحترِقونَ تحترِقونَ، فإذا صلَّيتُم الصُّبحَ غَسَلَتْها، ثمَّ تحترِقونَ تحترِقونَ، فإذا صلَّيتُم الظُّهرَ غَسَلَتْها، ثمَّ تحترِقونَ تحترِقونَ، فإذا صلَّيتُم العصرَ غَسَلَتْها، ثمَّ تحترِقونَ تحترِقونَ، فإذا صلَّيتُم المَغربَ غَسَلَتْها، ثمَّ تحترِقونَ تحترِقونَ، فإذا صلَّيتُم العِشاءَ غَسَلَتْها، ثمَّ تنامونَ فلا يُكْتَبُ عليكُم حتّى تستَيقِظُوا» [صحيح الترغيب (٣٥٧)].

وَقَالَ ﷺ: «إنَّ أحَدَكُمْ إذا قامَ في صَلاتِهِ فإنَّه يُناجِي رَبَّهُ، أوْ إنَّ رَبَّهُ بيْنَهُ وبيْنَ القِبْلَةِ، فلا يَبْزُقَنَّ أحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ، ولَكِنْ عن يَسارِهِ أوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ » [البخاري (٤٠٥)].

وَقَالَ ﷺ عند موته: «الصَّلاةَ، الصَّلاةَ! اتَّقُوا اللهَ فيما ملَكَت أَيمانُكُم» [صحيح الأدب المفرد (١١٨)].

وَقَالَ ﷺ: «عَلَيْكَ بكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فإنَّكَ لا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إلّا رَفَعَكَ اللهُ بها دَرَجَةً، وحَطَّ عَنْكَ بها خَطِيئَةً» [مسلم (٤٨٨)].

وَقَالَ ﷺ: «مَن استيقظَ مِن اللَّيلِ وأيقظَ امرأتَهُ فصلَّيا ركعتَينِ جميعًا كُتِبا مِن الذّاكرينَ اللهَ كثيرًا والذّاكراتِ» [صحيح سنن أبي داود (١٤٥١)].

وَقَالَ العَلامَةُ حَافِظُ بنُ أَحْمَد الحَكَمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في بَيَانِ بَعْضِ فَضَائِلِ الصَّلاة:

ثَانِيَـــةُ الأَرْكَـــانِ للإِسْـــلَامِ ... تَنْهَـــى عَـــنِ الفَحْشَـــاءِ وَالآثَـــامِ
قُـــرَّةُ عَـــيْنِ المُصْـــطَفَى فِيهَـــا كَمَـــا ... عَـــنْ نَفْسِـــهِ أَخْبَـــرَ نَصًّـــا مُحْكَمَـــا
وَلَـــمْ يَـــزَلْ مُبَـــادِرًا إِلَيْهَـــا ... وَكَـــمْ لَـــهُ مِـــنْ بَيْعَـــةٍ عَلَيْهَـــا
وَحِـــينَ مَـــا قَـــدْ جَـــاءَهُ الوَفَـــاةُ ... آخِـــرُ مَـــا أَوْصَـــى بِـــهِ الصَّـــلَاةُ
وَمَـــنْ يَكُـــنْ صَـــلَاتَهُ قَـــدْ ضَـــيَّعَا ... كَـــانَ لِغَيْرِهَـــا يَقِينًـــا أَضْـــيَعَا
فَهِـــيَ عَمُـــودُ الـــدِّينِ فَاحْفَظْنَهَـــا ... فَـــإِنَّ أَوَّلَ السُّـــؤَالِ عَنْهَـــا
إِنْ قُبِلَـــتْ يُقْبَـــلُ سَـــائِرُ العَمَـــلْ ... أَوْ لَا فَيَـــا صَـــفْقَةَ خُسْـــرٍ لَـــمْ تُقَـــلْ

تَلخِيص

«صِفَة صَلاةِ النَّبي صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّم»

مِن التَّكبير إلى التَّسليم كَأنَّك تَراهَا

«صَلُّوا كما رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» [رواه البخاري]

-بتصرُّف-

هذه الرسالة

❁ كيف كان رسولُ الله ﷺ يصلي من التكبير إلي التسليم كأنك تراها؛ بعبارة وجيزة، لا تعقيد فيها، ولا غموض، بعيدةً عن الأقيسة والآراء.

❁ استقصيتُ فيها كل ما ثبتَ عن النبي ﷺ مما له صلة بموضوعِها، بحيث جمعتْ ما في بطون الأمهات الفقهيه وغيرها، بل وأرْبَتْ عليها.

❁ انتخبتُ مادَّتها من عشرات الكُتب الحديثية المعتمدة، من مطبوعة ومخطوطة.

❁ كلُّ مسألةٍ فيها تجد مُستندَها من قوله ﷺ أو فعله في أصلِها «صفة الصلاة»، فهي بهذه المزايا فائقة كل ما هو معروف اليوم من الرسائل المؤلفة في بابها.

تأليف:

العلامة المُحدِّث محمد ناصر الدين الألباني

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعدُ: فقد اقترح علي أكثر من أخ أو صديق أن أقوم بتلخيص كتابي: (صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها)، واختصاره، وتقريب عبارته إلى عامة الناس ولما رأيته اقتراحًا مباركًا، وكان موافقا لما كان يجولُ في نفسي من زمن بعيدٍ، شجعني ذلك على أن أقتطعَ له قليلا من وقتي المزدحم بكثير من الأعمال العلمية، فبادرتُ إلى تحقيقه حسب طاقتي وجهدي، سائلا المولى سُبحانه وتعالى أن يجعله خالصًا لوجهه، وينفع به إخواني المسلمين.

وقد أوردتُ فيه بعضَ الفوائد الزائدة على (الصِّفة)، تنبهتُ لها، واستحسنتُ ذكرها في أثناء التلخيص، كما عُنيتُ عناية خاصة بشرح بعض الألفاظ الواردة في بعض الجُمل الحديثية، أو الأذكار. وجعلتُ له عناوين رئيسة، وأخرى كثيرة جانبية توضيحية، وأوردتُ تحتها مسائل الكتاب بأرقام متسلسلة. وصرحتُ بجانب كل مسألة بحكمِها من ركن أو واجبٍ، وما سكتُّ عن بيان حكمه فهو من السنن، وبعضها قد يحتمل القول بالوجوب، والجزم بهذا أو ذاك ينافي التحقيق العلمي.

والركن: هو ما يتم به الشيءُ الذي هو فيه، ويلزم من عدم وجوده بُطلان ماهو ركنٌ فيه؛ كالركوعِ مثلا في الصلاة، فهو ركنٌ فيها، يلزم من عدمه بُطلانها.

والشرط: كالركن إلا أنه يكون خارجًا عما هو شرط فيه؛ كالوضوء مثلا في الصلاة، فلا تصح بدونه.

والواجب: هو ماثبتَ الأمرُ به في الكتاب أو السنة، ولا دليلَ على ركنيته أو شرطيته، ويُثاب فاعله. ويعقاب تاركه إلا لعذرٍ. ومثلُه (الفرضُ)؛ والتفريق بينه وبين الواجب اصطلاحٌ حادِث لا دليلَ عليه.

والسنة: ما واظب النبيُ ﷺ عليه من العبادات دائماً، أو غالباً. ولم يأمر به أمرَ إيجاب، ويُثاب فاعلُها، ولا يعاقب تاركها، ولا يعاتب.

وأما الحديثُ الذي يذكره بعضُ المقلدين، معزواً إلى النبي ﷺ: (من ترك سُنتي، لم تنله شفاعتي)، فلا أصلَ له عن رسول الله ﷺ. وما كان كذلك فلا يجوز نسبته إليه ﷺ؛ خشية التقوُّل عليه. فقد قال ﷺ: «**مَن قال عليَّ ما لَمْ أَقُلْ؛ فليتبوَّأْ مقعدَه من النَّارِ**» [السلسلة الصحيحة (٣١٠٠)].

وإن من نافلة القول أن أذكر: أنني لم ألتزمْ فيه -تبعًا لأصله- مذهبًا معينًا من المذاهب الأربعة المُتَّبعة. وإنما سلكتُ فيه مسلك أهل الحديث؛ الذين يلتزمون الأخذ بكل ما ثبت عنه ﷺ من الحديث، ولذلك كان مذهبهم أقوى من مذاهب غيرهم، كما شهد بذلك المُنصِفون من كل مذهبٍ، منهم العلامة أبو الحسنات اللكنوي الحنفي القائل: «وكيف لا، وهم ورثة النبي ﷺ حقا، ونُوَّاب شرعه صِدقا، حشرنا الله في زُمرتهم، وأماتنا على حُبهم وسِيرتهم».

ورحم الله الإمام أحمد بن حنبل؛ إذ قال:

دِيـنُ النَّـبِيِّ مُـحَـمَّـدٍ أَخْـبَـارُ ❁ نِـعْـمَ الـمَـطِيَّة لِلْفَتَى آثَـارُ
لَا تَـرْغَـبَـنَّ عَنِ الحَدِيثِ وَآلِـهِ ❁ فَالرَّأْيُ لَيْـلٌ وَالْحَدِيثُ نَهَارُ
وَلَرُبَّمَا جَهِلَ الفَتَى أَثَرَ الهُدَى ❁ وَالشَّـمْـسُ بَـازِغَةٌ لَهَا أَنْـوَارُ

دمشق ٢٦ صفر ١٣٩٢هـ

محمد ناصر الدين الألباني

١ - استقبال الكعبة

١ - إذا قمت أيها المسلم إلى الصلاة؛ فاستقبل الكعبة حيث كنت، في الفرض والنفل، وهو ركن من أركان الصلاة التي لا تصح الصلاة إلا بها.

٢ - ويسقط الاستقبال: **عن** المحارب في صلاة الخوف، والقتال الشديد. **وعن** العاجز عنه؛ كالمريض، أو من كان في السفينة، أو السيارة، أو الطائرة. إذا خشي خروج الوقت. **وعمن** كان يصلي نافلة أو وترا، وهو يسير راكبا دابة أو غيرها. ويستحب له -إذا أمكن- أن يستقبل بها القبلة عند تكبيرة الإحرام، ثم يتجه بها حيث كانت وجهته.

٣ - ويجب على كل من كان مشاهدا للكعبة أن يستقبل عينها، وأما من كان غير مشاهد لها فيستقبل جهتها.

حكم الصلاة إلى غير الكعبة خطأ:

٤ - وإن صلى إلى غير القبلة؛ لغيم أو غيره بعد الاجتهاد والتحري جازت صلاته، ولا إعادة عليه.

٥ - وإذا جاءه من يثق به -وهو يصلي- فأخبره بجهتها؛ فعليه أن يبادر إلى استقبالها، وصلاته صحيحة.

٢ - القيام

٦ - ويجب عليه أن يصلي قائما، وهو ركن إلا على: **المصلي صلاة الخوف**، والقتال الشديد، فيجوز له أن يصلي راكبا. **والمريض العاجز عن القيام**، فيصلي جالسا إن استطاع، وإلا فعلى جنب.

والمتنفل: له أن يصلي راكبا، أو قاعدا إن شاء، ويركع ويسجد إيماء برأسه. وكذلك المريض، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه.

٧ - ولا يجوز للمصلي جالسا أن يضع شيئا على الأرض مرفوعا يسجد عليه، وإنما يجعل سجوده أخفض من ركوعه -كما ذكرنا- إذا كان لا يستطيع أن يباشر الأرض بجبهته.

الصلاة في السفينة والطائرة:

٨ - وتجوز صلاة الفريضة في السفينة، وكذلك الطائرة.

٩ - وله أن يصلي فيهما قاعدا إذا خشي على نفسه السقوط.

١٠ - ويجوز أن يعتمد في قيامه على عمود، أو عصا؛ لكبر سنه، أو ضعف بدنه.

الجمع بين القيام والقعود:

١١ - ويجوز أن يصلي صلاة الليل قائما أو قاعدا بدون عذر، وأن يجمع بينهما، فيصلي ويقرأ جالسا، وقبيل الركوع يقوم، فيقرأ ما بقي عليه من الآيات قائما، ثم يركع ويسجد، ثم يصنع مثل ذلك في الركعة الثانية.

١٢ - وإذا صلى قاعدا جلس متربعا، أو أي جلسة أخرى يستريح بها.

الصلاة في النعال:

١٣ - ويجوز له أن يقف حافيا، كما يجوز له أن يصلي مُنتعلا.

١٤ - والأفضل أن يصلي تارة هكذا، وتارة هكذا، حسبما تيسر له، فلا يتكلف لبسهما للصلاة ولا خلعهما، بل إن كان حافيا صلى حافيا، وإن كان منتعلا صلى منتعلا، إلا لأمر عارض.

١٥ - وإذا نزعهما فلا يضعهما عن يمينه، وإنما عن يساره، إذا لم يكن عن يساره أحد يصلي، وإلا وضعهما بين رجليه، بذلك صح الأمر عن النبي ﷺ[1].

الصلاة على المنبر:

١٦ - وتجوز صلاة الإمام على مكان مرتفع -كالمنبر- لتعليم الناس، يقوم عليه فيكبر، ويقرأ ويركع وهو عليه، ثم ينزل القهقرى حتى يتمكن من السجود على الأرض في أصل المنبر، ثم يعود إليه، فيصنع في الركعة الأخرى كما صنع في الأولى.

---

(١) [حواشي هذا المتن هي للألباني]، قلتُ: وفيه إيماءٌ لطيف إلى أنه لا يضعهما أمامه، وهذا أدبٌ أخلَّ به جماهير المصلين، فتراهم يصلون إلى نعالهم!

وجوب الصلاة إلى سترة والدنو منها:

١٧ - ويجب أن يصلي إلى سترة، لا فرق في ذلك بين المسجد وغيره، ولا بين كبيره وصغيره لعموم قوله ﷺ: «**لا تصلِّ إلا إلى سترةٍ، ولا تدعْ أحدًا يمرُّ بين يديك، فإن أبى فلْتقاتلْه؛ فإن معه القرين**». يعني: الشيطان.

١٨ - ويجب أن يدنو منها؛ لأمر النبي ﷺ بذلك.

١٩ - وكان بين موضع سجوده ﷺ والجدار الذي يصلي إليه نحو ممر شاة، فمن فعل ذلك فقد أتى بالدنو الواجب[1].

مقدار ارتفاع السترة:

٢٠ - ويجب أن تكون السُترة مُرتفعة عن الأرض نحو شبر، أو شبرين؛ لقوله ﷺ: «**إذا وضَعَ أحَدُكُمْ بيْنَ يَدَيْهِ مِثْلَ مُؤْخِرَةِ[2] الرَّحْلِ فَلْيُصَلِّ، ولا يُبالِ مَن مَرَّ وراءَ ذلكَ**».

٢١ - ويتوجَّه إلى السُترة مُباشرةً؛ لأنه الظاهر من الأمر بالصلاة إلى سُترة، وأما التَّحول عنها يمينًا أو يسارًا بحيث أنه لا يصمد إليها صمدا، فلم يثبت.

٢٢ - وتجوزُ الصلاة إلى العصا المغروزة في الأرض أو نحوها، وإلى شجرة، أو أسطوانة، وإلى امرأته المضطجعة على السرير، وهي تحت لحافها، وإلى الدابة، ولو كانت جَملا.

تحريم الصلاة إلى القبور:

٢٣ - ولا تجوزُ الصلاةُ إلى القبور مُطلقا، سواء كانت قبورا للأنبياء، أو غيرهم.

تحريم المرور بين يدي المصلي -ولو في المسجد الحرام-:

٢٤ - ولا يجوز المرور بين يدي المُصلي إذا كان بين يديه سُترة، ولا فرق في ذلك بين المسجد الحرام وغيره من المساجد، فكلها سواء في عدم الجواز؛ لعموم قوله ﷺ: «**لو يَعْلَمُ المارُّ**

---

(١) قلتُ: ومنه نعلم أن ما يفعله بعض الناس من الصلاة وسط المسجد بعيدا عن الجدار أو السارية، ما هو إلا غفلة عن أمره ﷺ وفعله.

(٢) هو العمود الذي في آخر الرَّحل. و(الرَّحل) هو للجمل بمنزلة السَّرج للفَرس. وفي الحديث إشارة إلى أن الخط على الأرض لا يجزئ؛ والحديث المروي فيه ضعيف.

بيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي ماذا عليه، لَكانَ أنْ يَقِفَ أرْبَعِينَ، خَيْرًا له مِن أنْ يَمُرَّ بيْنَ يَدَيْهِ». يعني: المرور بينه وبين موضع سُجوده[1].

وجوب منع المصلي للمار بين يديه -ولو في المسجد الحرام-:

٢٥ - ولا يجوز للمصلي إلى سترة أن يدع أحدا يمرُّ بين يديه؛ للحديث السابق: «**ولا تدعْ أحدًا يمرُّ بين يديك ...** »، وقوله ﷺ: «**إذا صلَّى أحدُكم إلى شيءٍ يسترُهُ من النَّاسِ، فأرادَ أحدٌ أنْ يجتازَ بين يديهِ، فليدفعْ في نحرِهِ، وليدرَأْ ما استطاعَ**»، وفي رواية: «**فلْيمنعه** -مرتين- **فإنْ أبى فليقاتلْهُ؛ فإنَّما هو شيطانٌ**».

المشي إلى الأمام؛ لمنع المرور:

٢٦ - ويجوز أن يتقَّدم خُطوة أو أكثر؛ ليمنع غير مُكلَّفٍ من المُرور بين يديه؛ كدابةٍ أو طفلٍ، حتى يمرَّ من ورائه.

ما يقطع الصلاة:

٢٧ - وإنَّ من أهميَّة السُترة في الصلاة؛ أنها تَحُول بين المُصلِّي إليها وبين إفساد صلاته بالمرور بين يديه، بخلاف الذي لم يتَّخذها فإنه يقطع صلاته إذا مرَّت بين يديه المرأة البالغة، وكذلك الحِمار، والكلب الأسود.

٣ - النيَّة

٢٨ - ولا بدَّ للمُصلي من أن ينوي الصَّلاة التي قام إليها، وتعيينها بقلبه؛ كفرض الظهر أو العصر، أو سُنتهما مثلا، وهو شرط أو رُكن، وأما التَّلفظُ بها بلسانه فبدعة مُخالفة للسُّنة، ولم يقل بها أحدٌ من متبوعي المقلَّدين من الأئمة.

---

(١) وأما حديث: صلاته ﷺ في حاشية المطاف دون سُترة والنَّاس يمرُّون بين يديه، فلا يصح. على أنه ليس فيه أن المرور كان بينه وبين سجوده.

٤ - التكبير

٢٩ - ثم يستفتح الصلاة، بقوله: (الله أكبر) وهو ركن؛ لقوله ﷺ: «**مِفتاحُ الصَّلاةِ الطُّهورُ، وتحريمُها التَّكبيرُ، وتحليلُها التَّسليمُ**»(١).

٣٠ - ولا يرفع صوته بالتَّكبير في كل الصَّلوات، إلا إذا كان إماما.

٣١ - ويجوز تبليغ المؤذن تكبير الإمام إلى الناس، إذا وُجد المقتضي لذلك، كمرض الإمام، وضعف صوته أو كثرة المصلين خلفه.

٣٢ - ولا يكبِّر المأموم إلا عقب انتهاء الإمام من التكبير.

رفع اليدين وكيفيته:

٣٣ - ويرفع يديه مع التَّكبير، أو قبله، أو بعده، كل ذلك ثابت في السُّنة.

٣٤ - ويرفعهما ممدودتا الأصابع.

٣٥ - ويجعل كفَّيه حذو منكبيه، وأحيانا يبالغ في رفعهما حتى يحاذي بهما أطراف أذنيه(٢).

وضع اليدين وكيفيته:

٣٦ - ثم يضع يده اليُمنى على اليُسرى عقب التكبير، وهو من سُنن الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام، وأمر به رسول الله ﷺ أصحابه، فلا يجوز إسدالهما.

٣٧ - ويضع اليمنى على ظهر كفِّه اليسرى، وعلى الرُّسغ والسَّاعد.

٣٨ - وتارة يقبض باليمنى على اليسرى(٣).

محل الوضع:

٣٩ - ويضعهما على صدره فقط، الرَّجل والمَرأة في ذلك سواء(٤).

٤٠ - ولا يجوز أن يضع يده اليمنى على خاصِرته.

---

(١) أَيْ: وتحريم ما حرم الله من الأفعال خارجها. وكذا تحليلها، أَيْ: تحليل ما أحل خارجها من الأفعال.

(٢) قلتُ: وأما مسُّ شحمتي الأذنين بإبهاميه، فلا أصل له في السُّنة، بل هو عندي من دواعي الوسوسة.

(٣) وأمَّا ما استحسنهُ بعض المتأخرين من الجمع بين الوضع والقبض في آن واحد، فممَّا لا أصل له.

(٤) قلتُ: ووضعهما على غير الصَّدر؛ إما ضعيف، وإما لا أصل له.

الخُشوع والنَّظر إلى موضع السُّجود:

٤١ - وعليه أن يخشع في صلاته، وأن يتجنَّب كل ما قد يُلهيه عنه؛ من زخارف ونُقوش، فلا يصلي بحضرة طعام يشتهيه، ولا وهو يدافعه البول والغائط.

٤٢ - وينظر في قيامه إلى موضع سُجوده.

٤٣ - ولا يلتفت يمينا، ولا يسارا، فإن الالتفات اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.

٤٤ - ولا يجوز أن يرفع بصره إلى السَّماء.

دعاء الاستفتاح:

٤٥ - ثم يستفتح القراءة ببعض الأدعية الثابتة عن النبي ﷺ، وهي كثيرة أشهرُها: «**سُبْحانَك اللَّهُمَّ وبحَمْدِك، وتَبارَكَ اسْمُك، وتَعالى جَدُّك، ولا إلهَ غَيْرُك**». وقد ثبت الأمر به فينبغي المحافظة عليه[1].

٥ - القراءة

٤٦ - ثم يستعيذ بالله تعالى وجوبا، ويأثم بتركه.

٤٧ - والسُّنة أن يقول تارة: «**أَعوذُ باللهِ مِن الشَّيْطانِ الرَّجيمِ؛ مِن هَمْزِه، ونَفْخِه، ونَفْثِه**»، و(النَّفث) هنا: الشِّعرُ المذموم.

٤٨ - وتارة يقول: «**أعوذُ باللهِ السَّميعِ العليمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ مِن هَمزِه، ونَفخِه، ونَفثِه**».

٤٩ - ثم يقول سِرًّا في الجهرية والسرية: ﴿**بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾.

قراءة الفاتحة:

٥٠ - ثم يقرأ سورة (الفاتحة) بتمامها -والبسملة منها-، وهي ركنٌ، لا تصح الصَّلاة إلا بها، فيجب على الأعاجم حِفظها.

٥١ - فمن لم يستطع أجزأه أن يقول: «**سُبحانَ اللهِ، والْحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ**».

٥٢ - والسُّنة في قراءتها أن يُقطِّعها آيةً آية، يقفُ على رأس كل آية، فيقول: ﴿**بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ**

---

(١) ومن شاء الإطلاع على بقية الأدعية، فليُراجع (صفة الصلاة).

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، ثم يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف، ثم يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، ثم يقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثم يقف... وهكذا إلى آخرها. وهكذا كانت قراءة النبي ﷺ كلها، يقف على رؤوس الآي، ولا يَصِلها بما بعدها، وإن كانت متعلقة المعنى بها.

٥٣ - ويجوز قراءتها: ﴿مَٰلِكِ﴾، و﴿مَلِكِ﴾.

قراءة المقتدي لها:

٥٤ - ويجب على المقتدي أن يقرأها وراء الإمام في السِّرية، وفي الجهرية أيضا -إن لم يسمع قراءة الإمام-، أو سكت الإمام بعد فراغه منها سكتةً؛ ليتمكَّن فيها المقتدي من قراءتها -وإن كنَّا نرى أن هذا السكوت لم يثبت في السُّنة-[1].

القراءة بعد الفاتحة:

٥٥ - ويُسن أن يقرأ -بعد الفاتحة- سورة أخرى، حتَّى في صلاة الجنازة، أو بعض الآيات في الركعتين الأُوليين.

٥٦ - ويُطيل القراءة بعدها أحيانا، ويُقصِّرها أحيانا، لعارض سفر، أو سُعال، أو مرض، أو بُكاء صبي.

٥٧ - وتختلف القراءة باختلاف الصَّلوات، فالقراءة في صلاة الفجر أطول منها في سائر الصلوات الخمس، ثم الظهر، ثم العصر والعشاء، ثم المغرب غالبا.

٥٨ - والقراءة في صلاة الليل أطول من ذلك كُلِّه.

٥٩ - والسُّنة إطالة القراءة في الركعة الأولى أكثر من الثانية.

٦٠ - وأن يجعل القراءة في الأُخريين أقصر من الأُوليين، قدر النصف[2].

قراءة الفاتحة في كل ركعة:

٦١ - وتجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

٦٢ - ويُسن الزيادة عليها في الركعتين الأخيرتين أيضا -أحيانا-.

---

(١) قلتُ: وقد ذكرت مُستندَ من ذهب إليه، وما يرد عليه في سلسلة (الأحاديث الضعيفة) رقم (٥٤٦) و(٥٤٧).

(٢) وتفصيل هذا الفصل راجعه إن شئت في (صفة الصلاة).

٦٣ - ولا تجوز إطالة الإمام للقراءة بأكثر ممَّا جاء في السُّنة؛ فإنه يشقُّ بذلك على من قد يكون وراءه من رجل كبير في السن، أو مريض، أو امرأة لها رضيع، أو ذي الحاجة.

الجهر والإسرار بالقراءة:

٦٤ - ويجهر بالقراءة في صلاة الصبح، والجمعة، والعيدين، والاستسقاء، والكسوف، والأُوليين من صلاة المغرب والعشاء. ويُسِرُّ بها في صلاة الظهر والعصر، وفي الثالثة من صلاة المغرب، والأُخريين من صلاة العشاء.

٦٥ - ويجوز للإمام أن يُسمعهم الآية -أحيانا- في الصلاة السِّريَّة.

٦٦ - وأما الوِترُ وصلاة الليل، فيُسِر فيها تارة، ويَجهر تارة، ويتوسط في رفع الصوت.

ترتيل القرآن:

٦٧ - والسُّنة أن يرتِّل القرآن ترتيلا، لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مُفسرة حرفًا حرفًا، ويُزين القرآن بصوته. ويتغنَّى به في حدود الأحكام المعروفة عند أهل العلم بالتَّجويد، ولا يتغنَّى به على الألحان المُبتدَعة، ولا على القوانين الموسيقيَّة.

الفتح على الإمام:

٦٨ - ويُشرع للمقتدي أن يتقصَّد الفتحَ على الإمام إذا لُبست عليه القراءة.

٦ - الركوع

٦٩ - فإذا فرغَ من القراءة، سكتَ سكتةً لطيفة، بمقدار ما يترادَّ إليه نَفَسُه.

٧٠ - ثم يرفع يديه على الوجوه المُتقدِّمة في تكبيرة الإحرام.

٧١ - ويكبِّر، وهو واجب.

٧٢ - ثم يركع، بقدر ما تستقرُّ مفاصِله، ويأخذ كل عُضو مَأخذه، وهذا رُكن.

كيفية الركوع:

٧٣ - ويضع يديه على رُكبتيه، ويمكِّنهما من رُكبتيه، ويُفرِّج بين أصابعه، كأنه قابِضٌ على رُكبتيه، وهذا كله واجب.

٧٤ - ويمدُّ ظهره ويبسُطَه، حتى لو صُبَّ عليه الماء لاسْتَقرَّ، وهو واجب.

٧٥ - ولا يخفض رأسه، ولا يرفعه، ولكن يجعله مُساويا لِظهره.

٧٦ - ويُباعد مِرفقيه عن جَنبيه.

٧٧ - ويقول في ركوعه: «**سُبْحانَ رَبِّيَ العَظِيم**» ثلاث مرات، أو أكثر[١].

تسوية الأركان:

٧٨ - ومن السُّنة أن يُسوِّي بين الأركان في الطُّول، فيجعل ركوعه، وقيامه بعد الركوع، وسجوده، وجلسته بين السجدتين؛ قريبا من السَّواء.

٧٩ - ولا يجوز أن يقرأ القرآن في الركوع، ولا في السجود.

الاعتدال من الركوع:

٨٠ - ثم يرفع صُلبَه من الركوع، وهذا ركنٌ.

٨١ - ويقول في أثناء الاعتدال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه**»، وهذا واجب.

٨٢ - ويرفع يديه عند الاعتدال على الوجوه المُتقدِّمة.

٨٣ - ثم يقوم مُعتدلا مُطمئنًا، حتى يأخذ كلُّ عظم مأخذه، وهذا ركن.

٨٤ - ويقول في هذا القيام: «**رَبَّنا ولَكَ الحَمْد**»، وهذا واجبٌ على كل مُصلٍّ، ولو كان مُؤتَمًّا؛ فإنه وِرْدُ القِيام، أما التَّسميع فَوِرْدُ الاعتدال[٢].

٨٥ - ويسوِّي بين هذا القيام والركوع في الطُّول، كما تقدم.

٧ - السجود

٨٦ - ثم يقول: «**اللهُ أكْبَر**» وجوبًا.

٨٧ - ويرفعُ يديه، أحيانًا.

---

(١) وهناك أذكار أخرى تُقال في هذا الرُّكن؛ منها الطويل، ومنها المتوسط، ومنها القصير، تُراجع في (صِفة صلاة النبي ﷺ).

(٢) وهناك أذكار أخرى تُقال هنا، فراجع (صِفة الصلاة). ولا يشرع وضع اليدين إحداهما على الأخرى في هذا القيام؛ لعدم وروده، وانظر إن شئت البسط في الأصل (صِفة صلاة النبي ﷺ).

الخُرور على اليدين:

٨٨ - ثم يَخِرُّ إلى السُّجود على يديه، يضعهما قَبل رُكبتيه، بهذا أمر رسول الله ﷺ، وهو الثَّابت عنهُ مِن فعله ﷺ، ونهى عن التَّشبُّه بِبروك البعير. وهو إنما يَخِرُّ على رُكبتيه اللتين هُما في مُقدمتيه.

٨٩ - فإذا سَجد -وهو ركن- اعتمد على كفَّيه وبسطَهما.

٩٠ - ويضمُّ أصابعهما.

٩١ - ويوجهها إلى القِبلة.

٩٢ - ويجعل كفَّيه حَذْوَ منكبيه.

٩٣ - وتارة يجعلهما حَذْوَ أُذنيه.

٩٤ - ويرفع ذِراعيه عن الأرض وجوبا، ولا يبسطهما بَسط الكلب.

٩٥ - ويُمكِّن أَنفه وجَبهتَه مِن الأرض، وهذا ركن.

٩٦ - ويُمكِّن أيضًا رُكبتيه.

٩٧ - وكذا أطراف قدميه.

٩٨ - ويَنصبهما، وهذا كلُّه واجب.

٩٩ - ويَستقبل بأطراف أصابعهما القِبلة.

١٠٠ - ويرصُّ عَقِبيه.

الاعتدال في السجود:

١٠١ - ويَجب عليه أن يعتدل في سجوده، وذلك بأن يعتمد فيه اعتمادًا مُتساويا على جميع أعضاء سجوده، وهي: الجَبهة والأنف معًا، والكفَّان، والرُكبتان، وأطراف القدمين.

١٠٢ - ومَن اعتدل في سجوده هكذا، فقد اطمأن يقينًا، والاطمئنان في السجود رُكن أيضا.

١٠٣ - ويقول فيه: «**سُبْحانَ رَبِّيَ الأعْلى**» ثلاث مرات، أو أكثر[1].

---

(١) وفيه أذكار أخرى تراها في (صِفة صلاة النبي ﷺ).

١٠٤ - ويُستحب أن يُكثر الدُّعاء فيه؛ فإنه مَظنَّة الإجابة.

١٠٥ - ويَجعل سُجوده قريبا مِن رُكوعه في الطُّول كما تقدَّم.

١٠٦ - ويجوز السُّجود على الأرض، وعلى حائِل بَينها وبين الجَبهة؛ مِن ثوب، أو بِساط، أو حَصير، أو نحوه.

١٠٧ - ولا يجوز أن يقرأ القرآن وهو ساجد.

الافتراش والإقعاء بين السَّجدتين:

١٠٨ - ثم يرفع رأسَه مُكبِّرا، وهذا واجب.

١٠٩ - ويرفع يديه -أحيانا-.

١١٠ - ثم يجلس مُطمئنا، حتى يَرجع كلُّ عظم إلى مَوضعه، وهو ركن.

١١١ - ويَفرش رِجله اليُسرى فيقعد عليها، وهذا واجب.

١١٢ - ويَنصب رجله اليُمنى.

١١٣ - ويَستقبل بأصابعها القِبلة.

١١٤ - ويجوز الإقعاء أحيانا، وهو أن يَنتصب على عَقِبيه وصدور قَدميه.

١١٥ - ويقول في هذه الجَلسة: «**اللهمَّ اغفرْ لِي، وارحمْنِي، واجبرْنِي، وارفعْني، وعافِني، وارزقْنِي**».

١١٦ - وإن شاء قال: «**رَبِّ اغفِرْ لي، رَبِّ اغفِرْ لي**».

١١٧ - ويُطيل هذه الجلسة حتى تكون قريبا من سَجدته.

السجدة الثانية:

١١٨ - ثم يُكبِّر وجوبا.

١١٩ - ويرفع يديه مع هذا التكبير أحيانًا.

١٢٠ - ويسجد السَّجدة الثانية، وهي رُكن أيضا.

١٢١ - ويَصنع فيها ما صَنع في الأولى.

جلسة الاستراحة:

١٢٢ - فإذا رفعَ رأسه مِن السَّجدة الثانية، وأراد النهوض إلى الركعة الثانية؛ كبَّر وجوبا.

١٢٣ - ويرفع يَديه -أحيانا-.

١٢٤ - ويَستوي قبل أن ينهض قاعدًا على رِجله اليُسرى مُعتدلا، حتَّى يرجع كلُّ عظم إلى مَوضعه.

الركعة الثانية:

١٢٥ - ثم ينهض مُعتمِدا على الأرض بيديه المَقبوضَتين -كما يَقبضهما العَاجِزُ- إلى الرَّكعة الثانية، وهي ركن.

١٢٦ - ويَصنع فيها ما صَنع في الأولى.

١٢٧ - إلا أنه لا يَقرأ فيها دُعاء الاستفتاح.

١٢٨ - ويَجعلها أقصر مِن الرَّكعة الأولى.

الجلوس للتشهد:

١٢٩ - فإذا فرغَ من الرَّكعة الثانية، قَعَدَ للتَّشهد، وهو واجب.

١٣٠ - ويَجلس مُفترشًا -كما سبق- بين السَّجدتين.

١٣١ - لكن لا يجوز الإقعَاءُ هنا.

١٣٢ - ويَضعُ كفَّه اليُمنى على فَخذه وركبته اليُمنى، ونِهاية مِرفقه الأيمن على فخذه، لا يُبعده عنه.

١٣٣ - ويَبسط كفَّه اليُسرى على فخذه ورُكبته اليُسرى.

١٣٤ - ولا يجوز أن يَجلس مُعتمِدا على يَده، وخُصوصا اليُسرى.

تحريك الإصبع، والنظر إليها:

١٣٥ - ويَقبض أصابع كفِّه اليُمنى كلها، ويضع إبهامه على إصبعه الوسطى تارةً.

١٣٦ - وتارةً يُحلِّق بهما حلقةً.

١٣٧ - ويُشير بإصبعه السَّبابة إلى القِبلة.

١٣٨ - ويَرمي ببَصره إليها.

١٣٩ - ويُحرِّكها يدعو بها مِن أول التَّشهد إلى آخره.

١٤٠ - ولا يُشير بإصبع يَده اليُسرى.

١٤١ - ويَفعل هذا كُلَّه في كُلِّ تَشهُّدٍ.

صيغة التشهد، والدعاء بعده:

١٤٢ - والتَّشهد واجب، إذا نَسِيَهُ سَجد سجدتي السَّهو.

١٤٣ - ويَقرؤه سِرًّا.

١٤٤ - وصِيغَتهُ: «**التَّحيَّاتُ للهِ، والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ، السلامُ على النَّبيِّ**[1] **ورَحمةُ اللهِ وبَركاتُه، السلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالحينَ، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه**».

١٤٥ - ويُصلي بعدَهُ على النبي ﷺ فيقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ، وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبْراهِيمَ، وعلى آلِ إبْراهِيمَ؛ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بارِكْ على مُحَمَّدٍ، وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما بارَكْتَ على إبْراهِيمَ، وعلى آلِ إبْراهِيمَ؛ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**».

١٤٦ - وإن شِئت الاختِصار، قُلتَ: «**اللهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ، وعلى آلِ مُحَمَّدٍ. وبارِك على مُحَمَّدٍ، وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كَما صَلَّيتَ وبارَكتَ على إبراهيمَ، وعلى آلِ إبراهيم، إنَّك حَميدٌ مَجيد**».

١٤٧ - ثم يَتخيَّر في هذا التَّشهد مِن الدُّعاء الوارِد أعجبَهُ إليه؛ فيدعو الله به.

الركعة الثالثة والرابعة:

١٤٨ - ثم يُكبِّر وجوبا، والسُّنة أن يُكبِّر وهو جَالس.

١٤٩ - ويَرفع يَديه أحيانًا.

١٥٠ - ثم يَنهض إلى الرَّكعة الثالثة، وهي رُكن كالتي بَعدها.

١٥١ - وكذلكَ يفعلُ إذا أرادَ القِيام إلى الرَّكعة الرَّابعة.

١٥٢ - ولكنَّه قبل أن ينهض يَستوي قاعدا على رِجله اليُسرى مُعتدلا، حتى يَرجع كلُّ عظم

---

(١) هذا هو المشروع بعد وفاة النبي ﷺ، وهو الثَّابت في تشهد ابن مسعود وعائشة وابن الزبير وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن شاء التَّفصيل فعليه بكتابي (صِفة صلاة النبي ﷺ). وفي كتابي المذكور صِيغ أُخرى ثابتة، وما ذكرته هُنا أصحها.

إلى مَوضعه.

١٥٣ - ثم يقومُ مُعتمِدا على يَديه، كما فَعل في قِيامه إلى الرَّكعة الثانية.

١٥٤ - ثم يقرأ في كلٍّ من الثالثة والرابعة سورة (الفاتحة) وجوبا.

١٥٥ - ويُضيف إليها آيةً أو أكثر -أحيانا-.

القنوت للنازلة، ومحلُّه:

١٥٦ - ويُسنُّ له أن يَقنُت ويدعو للمسلمين لنازِلة نَزلت بهم.

١٥٧ - ومحلُّه إذا قال بعد الركوع: «**رَبَّنا لَكَ الحَمْد**».

١٥٨ - وليس له دُعاء راتب، وإنما يدعو فيه بما يتناسب مع النَّازلة.

١٥٩ - ويرفع يَديه في هذا الدُّعاء.

١٦٠ - ويَجهر به إذا كان إمامًا.

١٦١ - ويُؤمِّن عليه مَن خَلفه.

١٦٢ - فإذا فرغ، كبَّر وسَجد.

قنوت الوِتر، ومحلُّه، وصيغتُه:

١٦٣ - وأما القُنوت في الوِتر، فيُشرع أحيانا.

١٦٤ - ومحلُّه قبل الركوع، خلافًا لقنوت النازلة.

١٦٥ - ويدعو فيه بما يأتي: «**اللَّهُمَّ اهْدِني فيمن هدَيتَ، وعافِني فيمَن عافَيتَ، وتوَلَّني فيمَن توَلَّيتَ، وبارِكْ لي فيما أعطَيتَ، وقِني شَرَّ ما قَضَيتَ، فإنَّك تَقْضي ولا يُقْضى عليك، وإنَّه لا يَذِلُّ مَن والَيتَ، ولا يَعِزُّ من عاديتَ، تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ، ولا مَنْجا منك إلا إليكَ**».

١٦٦ - وهذا الدُّعاء من تَعليم رسول الله ﷺ، فلا يُزاد عليه، إلا الصلاة عليه ﷺ فتجوز؛ لثُبوتها عن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

١٦٧ - ثم يَركع، ويسجد السَّجدتين، كما تقدَّم.

التشهد الأخير، والتَّورك:

١٦٨ - ثم يَقعد للتَّشهد الأخير، وكِلاهُما واجب.

١٦٩ - ويَصنع فيه ما صَنع في التَّشهد الأول.

١٧٠ - إلا أنَّه يَجلس فيه مُتورِّكا، يُفضي بِوَركِهِ اليُسرى إلى الأرض، ويُخرج قَدميه مِن ناحية واحدة، ويَجعل اليُسرى تحت ساقه اليُمنى.

١٧١ - ويَنصِبُ قدمَه اليُمنى.

١٧٢ - ويجوز فرشها أحيانا.

١٧٣ - ويُلقِم كفَّه اليُسرى رُكبتَه، يَعتمد عليها.

وجوب الصلاة على النبي ﷺ والتَّعوذ من الأربع:

١٧٤ - ويجبُ عليه في هذا التَّشهد الصلاة على النبي ﷺ، وقد ذكرنا في التشهد الأول بعض صِيغها.

١٧٥ - وأن يستعيذ بالله مِن أربع، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عَذابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيا والمَماتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(١).

الدعاء قبل السلام:

١٧٦ - ثم يدعو لِنفسه بِما بَدا لَهُ، مما ثبت في الكتاب والسُّنة، وهو كثيرٌ طيِّب، فإن لم يكن عنده شيء مِنه، دعا بما تيسَّر له، مما ينفعهُ في دينه، أو دُنياه.

التسليم وأنواعه:

١٧٧ - ثم يُسلِّم عن يَمينه، وهو ركن، حتى يُرى بَياض خدِّه الأيمن.

١٧٨ - وعن يَساره حتى يُرى بَياض خدِّه الأيسر، ولو في صلاة الجنازة.

١٧٩ - ويرفع الإمام صَوته بالسَّلام، إلا في صَلاة الجنازة.

---

(١) فِتنة (المَحيا) هي: ما يَعرِض للإنسان في حياته من الافتِتان بالدُّنيا وشَهواتها. وفِتنة (المَمات) هي: فِتنة القَبر وسُؤال المَلَكين. وفِتنة (المَسيح الدَّجَّال) هي: ما يَظهر على يديه من الخَوارق التي يَضِلُّ بها كثير من الناس، ويتبعونه على دعواه الألوهية.

١٨٠ - وهو على وُجوه: **الأول**: «السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» عن يمينه. «السلام عليكم ورحمة الله» عن يساره. **الثاني**: مثله، دون قوله: «وبركاته». **الثالث**: «السلام عليكم ورحمة الله» عن يمينه. «السلام عليكم» عن يساره. **الرابع**: يُسلِّم تسليمة واحدة تلقاء وجهه، يميل به إلى يمينه قليلا.

أخي المسلم: هذا ما تيسَّر لي من «تلخيص صفة صلاة النبي ﷺ»، مُحاولا بذلك أن أُقرِّبها إليك، حتى تكون واضحةً لديك، مَاثِلة في ذِهنك، وكأنما تَراها بِعينك.

فإذا أنت صلَّيت نحو ما وصفتُ لك من صَلاته ﷺ، فإني أرجو مِن الله تعالى أن يتقبَّلها مِنك؛ لأنك بذلك تكون قد حقَّقت فِعلا قول النبي ﷺ: «**صَلُّوا كما رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**».

ثم عليك بعد ذلك أن لا تنسى الاهتمام باستحضار القلب، والخشوع فيها؛ فإنه هو الغاية الكبرى من وقوف العَبد بين يدي الله تعالى فيها، وبِقدر ما تُحقق في نفسك من هذا الذي وصفتُ لك من الخشوع والاحتذاء بصلاته ﷺ، يكون لك من الثَّمرة المرجوَّة، التي أشار إليها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ**﴾.

وخِتاما؛ أسأل الله تعالى أن يتقبَّل مِنَّا صَلاتنا، وسائر أعمالنا، ويدَّخِر لنا ثوابها إلى يوم نَلقاه ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾.

والحمد لله رب العالمين.

مَنْظُومة سُلَّم الْوُصُولِ إِلى عِلْمِ الأُصُولِ

فِي تَوْحِيدِ اللهِ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ

تأليف:

العلامة حافظ بن أحمد الحكمي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

(ت ١٣٧٧ هـ)

منظومة سُلَّمِ الْوُصُولِ إلى عِلْمِ الأُصُولِ في تَوْحِيدِ اللهِ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ

المُقَدِّمَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] أَبْدَأُ بِاسْمِ اللهِ مُسْتَعِينَا ... رَاضٍ بِهِ مُدَبِّرًا مُعِينَا

[٢] وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هَدَانَا ... إِلَى سَبِيلِ الحَقِّ وَاجْتَبَانَا

[٣] أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهْ ... وَمِنْ مَسَاوِي عَمَلِي أَسْتَغْفِرُهْ

[٤] وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى نَيْلِ الرِّضَا ... وَأَسْتَمِدُّ لُطْفَهُ فِيمَا قَضَى

[٥] وَبَعْدُ: إِنِّي بِاليَقِينِ أَشْهَدْ ... شَهَادَةَ الإِخْلَاصِ أَنْ لَا يُعْبَدْ

[٦] بِالحَقِّ مَأْلُوهٌ سِوَى الرَّحْمَنِ ... مَنْ جَلَّ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

[٧] وَأَنَّ خَيْرَ خَلْقِهِ مُحَمَّدَا ... مَنْ جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَى

[٨] رَسُولُهُ إِلَى جَمِيعِ الخَلْقِ ... بِالنُّورِ وَالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ

[٩] صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَمَجَّدَا ... وَالْآلِ وَالصَّحْبِ دَوَامًا سَرْمَدَا

[١٠] وَبَعْدُ: هَذَا النَّظْمُ فِي الْأُصُولِ ... لِمَنْ أَرَادَ مَنْهَجَ الرَّسُولِ

[١١] سَأَلَنِي إِيَّاهُ مَنْ لَا بُدَّ لِي ... مِنِ امْتِثَالِ سُؤْلِهِ المُمْتَثَلِ

[١٢] فَقُلْتُ مَع عَجْزِي وَمَعْ إِشْفَاقِي ... مُعْتَمِدًا عَلَى القَدِيرِ البَاقِي

مُقَدِّمَةٌ تُعَرِّفُ العَبْدَ بِمَا خُلِقَ لَهُ، وَبِأَوَّلِ مَا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَبِمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ المِيثَاقِ فِي ظَهْرِ أَبِيهِ آدَمَ، وَبِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ

[١٣] اِعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا ... لَمْ يَتْرُكِ الخَلْقَ سُدًى وَهَمَلَا

[١٤] بَلْ خَلَقَ الخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ ... وَبِالإِلَهِيَّةِ يُفْرِدُوهُ

[١٥] أَخْرَجَ فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ ظَهْرِ ... آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ كَالذَّرِّ

[١٦] وَأَخَذَ العَهْدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ ... لَا رَبَّ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ غَيْرَهُ

[١٧] وَبَعْدَ هَذَا رُسْلَهُ قَدْ أَرْسَلَا ... لَهُمْ، وَبِالحَقِّ الكِتَابَ أَنْزَلَا

[١٨] لِكَيْ بِذَا العَهْدِ يُذَكِّرُوهُمْ ... وَيُنْذِرُوهُمْ وَيُبَشِّرُوهُمْ

[١٩] كَيْ لَا يَكُونَ حُجَّةٌ لِلنَّاسِ بَلْ ... لِلَّهِ أَعْلَى حُجَّةٍ عَزَّ وَجَلْ

[٢٠] فَمَنْ يُصَدِّقْهُمْ بِلَا شِقَاقِ ... فَقَدْ وَفَى بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ

[٢١] وَذَاكَ نَـاجٍ مِـنْ عَـذَابِ النَّـارِ وَذَلِـكَ الْـوَارِثُ عُقْبَـى الـدَّارِ
[٢٢] وَمَـنْ بِهِـمْ وَبِالْكِتَـابِ كَـذَّبَا وَلَازَمَ الإِعْـرَاضَ عَنْـهُ وَالإِبَـا:
[٢٣] فَـذَاكَ نَـاقِضٌ كِـلَا الْعَهْـدَيْنِ مُسْـتَوْجِبٌ لِلْخِـزْيِ فِـي الـدَّارَيْنِ

فَصلٌ:

فِي كَوْنِ التَّوحِيدِ يَنْقَسِمُ إِلَى نَوعَينِ؛ وَبَيَانِ النَّوعِ الأَوَّلِ، وَهُوَ تَوحِيدُ المَعْرِفَةِ وَالإِثْبَاتِ

[٢٤] أَوَّلُ وَاجِـبٍ عَلَـى العَبِيـدِ مَعْرِفَـةُ الـرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيـدِ
[٢٥] إِذْ هُـوَ مِـنْ كُـلِّ الْأَوَامِـرْ أَعْظَـمُ وَهُـوَ نَوْعَـانِ أَيَـا مَـنْ يَفْهَـمُ
[٢٦] إِثْبَـاتُ ذَاتِ الـرَّبِّ جَـلَّ وَعَـلا أَسْـمَائِهِ الْحُسْـنَى صِـفَاتِهِ الْعُلَـى
[٢٧] وَأَنَّـهُ الـرَّبُّ الْجَلِيـلُ الْأَكْبَـرُ الْخَـالِقُ الْبَـارِئُ وَالْمُصَـوِّرُ
[٢٨] بَـارِي الْبَرَايَـا مُنْشِـئُ الْخَلَائِـقِ مُبْـدِعُهُمْ بِـلَا مِثَـالٍ سَـابِقِ
[٢٩] الأَوَّلُ الْمُبْـدِي بِـلَا ابْتِـدَاءِ وَالْآخِـرُ الْبَـاقِي بِـلَا انْتِهَـاءِ
[٣٠] الْأَحَـدُ الْفَـرْدُ الْقَـدِيرُ الْأَزَلِـيّ الصَّـمَدُ الْبَـرُّ الْمُهَـيْمِنُ الْعَلِـيّ
[٣١] عُلُـوَّ قَهْـرٍ وَعُلُـوَّ الشَّـانِ جَـلَّ عَـنِ الْأَضْـدَادِ وَالْأَعْـوَانِ
[٣٢] كَـذَا لَـهُ الْعُلُـوُّ وَالْفَوْقِيَّـهْ عَلَـى عِبَـادِهِ بِـلَا كَيْفِيَّـهْ
[٣٣] وَمَـعَ ذَا مُطَّلِـعٌ إِلَـيْهِمُ بِعِلْمِـهِ مُهَـيْمِنٌ عَلَـيْهِمُ
[٣٤] وَذِكْـرُهُ لِلْقُـرْبِ وَالْمَعِيَّـهْ لَـمْ يَنْـفِ لِلْعُلُـوِّ وَالْفَوْقِيَّـهْ
[٣٥] فَإِنَّـهُ الْعَلِـيُّ فِـي دُنُـوِّهِ وَهُـوَ الْقَرِيـبُ جَـلَّ فِـي عُلُـوِّهِ
[٣٦] حَـيٌّ وَقَيُّـومٌ فَـلَا يَنَـامُ وَجَـلَّ أَنْ يُشْـبِهَهُ الأَنَـامُ
[٣٧] لا تَبْلُـغُ الْأَوْهَـامُ كُنْـهَ ذَاتِـهِ وَلاَ يُكَيِّـفُ الْحِجَـا صِـفَاتِهِ
[٣٨] بَـاقٍ فَـلَا يَفْنَـى وَلَا يَبِيـدُ وَلَا يَكُـونُ غَيْـرُ مَـا يُرِيـدُ
[٣٩] مُنْفَـرِدٌ بِـالْخَلْقِ وَالإِرَادَهْ وَحَـاكِمٌ -جَـلَّ- بِمَـا أَرَادَهْ
[٤٠] فَمَـنْ يَشَـأْ وَفَّقَـهُ بِفَضْـلِهِ وَمَـنْ يَشَـأْ أَضَـلَّهُ بِعَدْلِـهِ
[٤١] فَمِـنْهُمُ الشَّـقِيُّ وَالسَّـعِيدُ وَذَا مُقَـرَّبٌ وَذَا طَرِيـدُ
[٤٢] لِحِكْمَـةٍ بَالِغَـةٍ قَضَـاهَا يَسْـتَوْجِبُ الْحَمْـدَ عَلَـى اقْتِضَـاهَا

[٤٣] وَهْـوَ الَّـذِي يَـرَى دَبِيـبَ الـذَّرِّ فِـي الظُّلُمَـاتِ فَـوْقَ صُـمِّ الصَّـخْرِ
[٤٤] وَسَـامِعٌ لِلْجَهْـرِ وَالإِخْفَـاتِ بِسَـمْعِهِ الْوَاسِـعِ لِلأَصْـوَاتِ
[٤٥] وَعِلْمُـهُ بِمَـا بَـدَا وَمَـا خَفِـيْ أَحَـاطَ عِلْمًـا بِـالْجَلِيِّ وَالْخَفِـيْ
[٤٦] وَهْـوَ الْغَنِـيْ بِذَاتِـهِ سُـبْحَانَهُ جَـلَّ ثَنَـاؤُهُ تَعَـالَى شَـانُهُ
[٤٧] وَكُـلُّ شَـيْءٍ رِزْقُـهُ عَلَيْـهِ وَكُلُّنَـا مُفْتَقِـرٌ إِلَيْـهِ
[٤٨] كَلَّـمَ مُوسَـى عَبْـدَهُ تَكْلِيمَـا وَلَـمْ يَـزَلْ بِخَلْقِـهِ عَلِيمَـا
[٤٩] كَلَامُـهُ جَـلَّ عَـنِ الإِحْصَـاءِ وَالْحَصْـرِ وَالنَّفَـادِ وَالْفَنَـاءِ
[٥٠] لَـوْ صَـارَ أَقْلَامًـا جَمِيـعُ الشَّـجَرِ وَالْبَحْـرُ تُلْقَـى فِيـهِ سَـبْعَةُ ابْحُـرِ
[٥١] وَالْخَلْـقُ تَكْتُبُـهُ بِكُـلِّ آنِ: فَنِـيَتْ وَلَـيْسَ الْقَـوْلُ مِنْـهُ فَـانِ
[٥٢] وَالْقَـوْلُ فِـي كِتَابِـهِ الْمُفَصَّـلْ بِأَنَّـهُ: كَلَامُـهُ الْمُنَـزَّلْ
[٥٣] عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى لَـيْسَ بِمَخْلُـوقٍ وَلَا بِمُفْتَـرَى
[٥٤] يُحْفَـظُ بِالْقَلْـبِ وَبِاللِّسَـانِ يُتْلَـى، كَمَـا يُسْـمَعُ بِـالْآذَانِ
[٥٥] كَـذَا بِالْابْصَـارِ إِلَيْـهِ يُنْظَـرُ وَبِالْأَيَـادِي خَطُّـهُ يُسَـطَّرُ
[٥٦] وَكُـلُّ ذِي مَخْلُوقَـةٌ حَقِيقَـهْ دُونَ كَـلَامِ بَـارِئِ الْخَلِيقَـهْ
[٥٧] جَلَّـتْ صِـفَاتُ رَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ عَـنْ وَصْـفِهَا بِـالْخَلْقِ وَالْحِـدْثَانِ
[٥٨] فَالصَّـوْتُ وَالْأَلْحَـانُ: صَـوْتُ الْقَـارِيْ لَكِنَّمَـا الْمَتْلُـوُّ قَـوْلُ الْبَـارِيْ
[٥٩] مَـا قَالَـهُ لَا يَقْبَـلُ التَّبْـدِيلا كَـلَّا وَلَا أَصْـدَقُ مِنْـهُ قِـيلا
[٦٠] وَقَـدْ رَوَى الثِّقَـاتُ عَـنْ خَيْـرِ المَـلا: بِأَنَّـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ وَعَـلا
[٦١] فِـي ثُلُـثِ اللَّيْـلِ الأَخِيـرِ يَنْـزِلُ يَقُـولُ: هَـلْ مِـنْ تَائِـبٍ فَيُقْبَـلُ؟
[٦٢] هَـلْ مِـنْ مُسِـيءٍ طَالِـبٍ لِلْمَغْفِـرَهْ؟ يَجِـدْ كَرِيمًـا قَـابِلًا لِلْمَعْـذِرَهْ
[٦٣] يَمُـنُّ بِـالْخَيْرَاتِ وَالْفَضَـائِلْ وَيَسْـتُرُ الْعَيْـبَ وَيُعْطِـي السَّـائِلْ
[٦٤] وَأَنَّـهُ يَجِـيءُ يَـوْمَ الْفَصْـلِ كَمَـا يَشَـاءُ لِلْقَضَـاءِ الْعَـدْلِ
[٦٥] وَأَنَّـهُ يُـرَى بِـلَا إِنْكَـارِ فِـي جَنَّـةِ الْفِـرْدَوْسِ بِالْأَبْصَـارِ
[٦٦] كُـلٌّ يَـرَاهُ رُؤْيَـةَ الْعِيَـانِ كَمَـا أَتَـى فِـي مُحْكَـمِ الْقُـرْآنِ
[٦٧] وَفِـي حَـدِيثِ سَـيِّدِ الأَنَـامِ مِـنْ غَيْـرِ مَـا شَـكٍّ وَلا إِبْهَـامِ

[٦٨] رُؤْيَـــةَ حَـــقٍّ لَـــيْسَ يَمْتَرُونَهَـــا ... كَالشَّـــمْسِ صَـــحْوًا لَا سَـــحَابَ دُونَهَـــا

[٦٩] وَخُـــصَّ بِالرُّؤْيَـــةِ أَوْلِيَـــاؤُهُ ... فَضِـــيلَةً، وَحُجِبُـــوا أَعْـــدَاؤُهُ

[٧٠] وَكُـــلُّ مَـــا لَـــهُ مِـــنَ الصِّـــفَاتِ ... أَثْبَتَهَـــا فِـــي مُحْكَـــمِ الْآيَـــاتِ

[٧١] أَوْ صَـــحَّ فِيمَـــا قَالَـــهُ الرَّسُـــولُ: ... فَحَقَّـــقَـــهُ التَّسْـــلِيمُ وَالْقَبُـــولُ

[٧٢] نُمِرُّهَـــا صَـــرِيحَةً كَمَـــا أَتَـــتْ ... مَـــعَ اعْتِقَادِنَـــا لِمَـــا لَـــهُ اقْتَضَـــتْ

[٧٣] مِـــنْ غَيْـــرِ تَحْرِيـــفٍ وَلَا تَعْطِيـــلِ ... وَغَيْـــرِ تَكْيِيـــفٍ وَلَا تَمْثِيـــلِ

[٧٤] بَـــلْ قَوْلُنَـــا قَـــوْلُ أَئِمَّـــةِ الْهُـــدَى ... طُـــوبَى لِمَـــنْ بِهَـــدْيِهِمْ قَـــدِ اهْتَـــدَى

[٧٥] وَسَـــمِّ ذَا النَّـــوْعَ مِـــنَ التَّوْحِيـــدِ: ... تَوْحِيـــدَ إِثْبَـــاتٍ بِـــلَا تَرْدِيـــدِ

[٧٦] قَـــدْ أَفْصَـــحَ الْـــوَحْيُ الْمُبِـــينُ عَنْـــهُ ... فَـــالْتَمِسِ الْهُـــدَى الْمُنِيـــرَ مِنْـــهُ

[٧٧] لَا تَتَّبِـــعْ أَقْـــوَالَ كُـــلِّ مَـــارِدِ ... غَـــاوٍ مُضِـــلٍّ مَـــارِقٍ مُعَانِـــدِ

[٧٨] فَلَـــيْسَ بَعْـــدَ رَدِّ ذَا التِّبْيَـــانِ: ... مِثْقَـــالُ ذَرَّةٍ مِـــنَ الإِيمَـــانِ

فَصْلٌ:

فِي بَيَانِ النَّوْعِ الثَّانِي مِنَ التَّوحِيدِ، وَهُوَ تَوحِيدُ الطَّلَبِ وَالقَصْدِ، وَأَنَّهُ مَعْنَى (لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)

[٧٩] هَـــذَا وَثَـــانِي نَـــوْعَيِ التَّوْحِيـــدِ: ... إِفْـــرَادُ رَبِّ الْعَـــرْشِ عَـــنْ نَدِيـــدِ

[٨٠] أَنْ تَعْبُـــدَ اللهَ إِلَهًـــا وَاحِـــدَا ... مُعْتَرِفًـــا بِحَقِّـــهِ لَا جَاحِـــدَا

[٨١] وَهْـــوَ الَّـــذِي بِـــهِ الْإِلَـــهُ أَرْسَـــلَا ... رُسْـــلَهُ يَـــدْعُونَ إِلَيْـــهِ أَوَّلَا

[٨٢] وَأَنْـــزَلَ الْكِتَـــابَ وَالتِّبْيَانَـــا ... مِـــنْ أَجْلِـــهِ، وَفَـــرَقَ الْفُرْقَانَـــا

[٨٣] وَكَلَّـــفَ اللهُ الرَّسُـــولَ الْمُجْتَبَـــى ... قِتَـــالَ مَـــنْ عَنْـــهُ تَـــوَلَّى وَأَبَـــى

[٨٤] حَتَّـــى يَكُـــونَ الـــدِّينُ خَالِصًـــا لَـــهُ ... سِـــرًّا وَجَهْـــرًا دِقُّـــهُ وَجِلُّـــهُ

[٨٥] وَهَكَـــذَا أُمَّتُـــهُ قَـــدْ كُلِّفُـــوا ... بِـــذَا، وَفِـــي نَـــصِّ الْكِتَـــابِ وُصِـــفُوا

[٨٦] وَقَـــدْ حَوَتْـــهُ لَفْظَـــةُ الشَّـــهَادَهْ ... فَهْـــيَ سَـــبِيلُ الْفَـــوْزِ وَالسَّـــعَادَهْ

[٨٧] مَـــنْ قَالَهَـــا مُعْتَقِـــدًا مَعْنَاهَـــا ... وَكَـــانَ عَـــامِلًا بِمُقْتَضَـــاهَا

[٨٨] فِـــي الْقَـــوْلِ وَالْفِعْـــلِ وَمَـــاتَ مُؤْمِنَـــا: ... يُبْعَـــثُ يَـــوْمَ الْحَشْـــرِ نَـــاجٍ آمِنَـــا

[٨٩] فَـــإِنَّ مَعْنَاهَـــا الَّـــذِي عَلَيْـــهِ ... دَلَّـــتْ يَقِينًـــا وَهَـــدَتْ إِلَيْـــهِ

[٩٠] أَن لَـيْسَ بِـالْحَقِّ إِلَـهٌ يُعْبَـدُ ... إِلَّا الإِلَـهُ الْوَاحِـدُ الْمُنْفَـرِدُ

[٩١] بِـالْخَلْقِ وَالـرِّزْقِ وَبِالتَّـدْبِيرِ ... جَـلَّ عَـنِ الشَّـرِيكِ وَالنَّظِيـرِ

[٩٢] وَبِشُـرُوطٍ سَـبْعَةٍ قَـدْ قُيِّـدَتْ ... وَفِـي نُصُـوصِ الْـوَحْيِ حَقًّـا وَرَدَتْ

[٩٣] فَإِنَّـهُ لَـمْ يَنْتَفِـعْ قَائِلُهَـا ... بِـالنُّطْقِ إِلَّا حَيْـثُ يَسْـتَكْمِلُهَا:

[٩٤] الْعِلْـمُ وَالْيَقِـينُ وَالْقَبُـولُ ... وَالانْقِيَـادُ فَـادْرِ مَـا أَقُـولُ

[٩٥] وَالصِّـدْقُ وَالإِخْـلَاصُ وَالْمَحَبَّـهْ ... وَفَّقَـكَ اللهُ لِمَـا أَحَبَّـهْ

فَصْلٌ:

فِي تَعْرِيفِ العِبَادَةِ، وَذِكْرِ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا، وَأَنَّ مَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ

[٩٦] ثُـمَّ الْعِبَـادَةُ هِـيَ: اسْـمٌ جَـامِعُ ... لِكُـلِّ مَـا يَرْضَـى الإِلَـهُ السَّـامِعُ

[٩٧] وَفِـي الحَـدِيثِ: مُخُّهَـا الـدُّعَاءُ ... خَـوْفٌ تَوَكُّـلٌ، كَـذَا الرَّجَـاءُ

[٩٨] وَرَغْبَـةٌ وَرَهْبَـةٌ خُشُـوعُ ... وَخَشْـيَةٌ إِنَابَـةٌ خُضُـوعُ

[٩٩] وَالاسْـتِعَاذَةُ وَالاسْـتِعَانَهْ ... كَـذَا اسْـتِغَاثَةٌ بِـهِ سُـبْحَانَهْ

[١٠٠] وَالـذَّبْحُ وَالنَّـذْرُ وَغَيْـرُ ذَلِـكْ ... فَـافْهَمْ هُـدِيتَ أَوْضَـحَ الْمَسَـالِكْ

[١٠١] وَصَـرْفُ بَعْضِـهَا لِغَيْـرِ اللهِ ... شِـرْكٌ، وَذَاكَ أَقْـبَحُ الْمَنَـاهِي

فَصْلٌ:

فِي بَيَانِ ضِدِّ التَّوحِيدِ؛ وَهُوَ الشِّرْكُ، وَأَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: أَصْغَرَ وَأَكْبَرَ، وَبَيَانِ كُلٍّ مِنْهُمَا

[١٠٢] وَالشِّـرْكُ نَوْعَـانِ: فَشِـرْكٌ أَكْبَـرُ ... بِـهِ خُلُـودُ النَّـارِ إِذْ لَا يُغْفَـرُ

[١٠٣] وَهْـوَ اتِّخَـاذُ الْعَبْـدِ غَيْـرَ اللهِ ... نِـدًّا بِـهِ مُسَـوِّيًا مُضَـاهِيْ

[١٠٤] يَقْصِـدُهُ عِنْـدَ نُـزُولِ الضُّـرِّ ... لِجَلْـبِ خَيْـرٍ أَوْ لِـدَفْعِ الشَّـرِّ

[١٠٥] أَوْ عِنْـدَ أَيِّ غَـرَضٍ لَا يَقْـدِرُ ... عَلَيْـهِ: إِلَّا الْمَالِـكُ الْمُقْتَـدِرُ

[١٠٦] مَـعْ جَعْلِـهِ لِـذَلِكَ الْمَـدْعُوِّ ... أَوِ الْمُعَظَّـمِ أَوِ الْمَرْجُـوِّ

[١٠٧] فِـي الْغَيْـبِ سُـلْطَانًا بِـهِ يَطَّلِـعُ ... عَلَـى ضَـمِيرِ مَـنْ إِلَيْـهِ يَفْـزَعُ

[١٠٨] وَالثَّـانِ شِـرْكٌ أَصْـغَرٌ وَهْـوَ الرِّيَـا ... فَسَّـرَهُ بِـهِ خِتَـامُ الْأَنْبِيَـا

[١٠٩] وَمِنْـهُ: إِقْسَـامُ بِغَيْـرِ الْبَـارِي ... كَمَـا أَتَـى فِـي مُحْكَـمِ الأَخْبَـارِ

فَصْلٌ:

فِي بَيَانِ أُمُورٍ يَفْعَلُهَا العَامَّةُ، مِنْهَا مَا هُوَ شِرْكٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ قَرِيبٌ مِنْهُ، وَبَيَانِ حُكْمِ الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

[١١٠] وَمَنْ يَثِقْ بِوَدْعَةٍ أَوْ نَابِ ... أَوْ حَلْقَةٍ أَوْ أَعْيُنِ الذِّئَابِ

[١١١] أَوْ خَيْطٍ اوْ عُضْوٍ مِنَ النُّسُورِ ... أَوْ وَتَرٍ أَوْ تُرْبَةِ الْقُبُورِ

[١١٢] لِأَيِّ أَمْرٍ كَائِنٍ تَعَلَّقَهْ: ... وَكَلَهُ اللهُ إِلَى مَا عَلَّقَهْ

[١١٣] ثُمَّ الرُّقَى مِنْ حُمَةٍ أَوْ عَيْنِ ... فَإِنْ تَكُنْ مِنْ خَالِصِ الْوَحْيَيْنِ:

[١١٤] فَذَاكَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيْ وَشِرْعَتِهْ ... وَذَاكَ لَا اخْتِلافَ فِي سُنِّيَّتِهْ

[١١٥] أَمَّا الرُّقَى المَجْهُولَةُ الْمَعَانِي: ... فَذَاكَ وِسْوَاسٌ مِنَ الشَّيْطَانِ

[١١٦] وَفِيهِ قَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ أَنَّهْ: ... شِرْكٌ بِلَا مِرْيَةٍ، فَاحْذَرَنَّهْ

[١١٧] إِذْ كُلُّ مَنْ يَقُولُهُ لَا يَدْرِي ... لَعَلَّهُ يَكُونُ مَحْضَ الْكُفْرِ

[١١٨] أَوْ هُوَ مِنْ سِحْرِ الْيَهُودِ مُقْتَبَسْ ... عَلَى الْعَوَامِ لَبَّسُوهُ فَالْتَبَسْ

[١١٩] فَحَذَرًا ثُمَّ حَذَارِ مِنْهُ ... لَا تَعْرِفِ الْحَقَّ وَتَنْأَى عَنْهُ

[١٢٠] وَفِي التَّمَائِمِ الْمُعَلَّقَاتِ ... إِنْ تَكُ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتِ:

[١٢١] فَالِاخْتِلَافُ وَاقِعٌ بَيْنَ السَّلَفْ ... فَبَعْضُهُمْ أَجَازَهَا وَالْبَعْضُ كَفْ

[١٢٢] وَإِنْ تَكُنْ مِمَّا سِوَى الْوَحْيَيْنِ ... فَإِنَّهَا شِرْكٌ بِغَيْرِ مَيْنِ

[١٢٣] بَلْ إِنَّهَا قَسِيمَةُ الْأَزْلَامِ ... فِي الْبُعْدِ عَنْ سِيمَا أُولِي الْإِسْلَامِ

فَصْلٌ:

مِنَ الشِّرْكِ فِعْلُ مَنْ يَتَبَرَّكُ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ بُقْعَةٍ أَوْ قَبْرٍ أَوْ نَحْوِهَا يَتَّخِذُ ذَلِكَ الْمَكَانَ عِيدًا، وَبَيَانُ أَنَّ الزِّيَارَةَ تَنْقَسِمُ إِلَى: سُنِّيَّةٍ وَبِدْعِيَّةٍ وَشِرْكِيَّةٍ

[١٢٤] هَذَا وَمِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ ... مِنْ غَيْرِ مَا تَرَدُّدٍ أَوْ شَكِّ:

[١٢٥] مَا يَقْصِدُ الجُهَّالُ مِنْ تَعْظِيمِ مَا ... لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِأَنْ يُعَظَّمَا

[١٢٦] كَمَنْ يَلُذْ بِبُقْعَةٍ أَوْ حَجَرِ ... أَوْ قَبْرِ مَيْتٍ أَوْ بِبَعْضِ الشَّجَرِ

[١٢٧] مُتَّخِذًا لِذَلِكَ الْمَكَانِ ... عِيدًا: كَفِعْلِ عَابِدِي الْأَوْثَانِ

[١٢٨] ثُمَّ الزِّيَارَةُ عَلَى أَقْسَامِ ... ثَلَاثَةٍ يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ

[١٢٩] فَإِن نَوَى الزَّائِرُ فِيمَا أَضْمَرَهْ ... فِي نَفْسِهِ تَذْكِرَةً بِالْآخِرَهْ

[١٣٠] ثُمَّ الدُّعَا لَهُ وَلِلأَمْوَاتِ ... بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَّاتِ

[١٣١] وَلَمْ يَكُنْ شَدَّ الرِّحَالَ نَحْوَهَا ... وَلَمْ يَقُلْ هُجْرًا كَقَوْلِ السُّفَهَا:

[١٣٢] فَتِلْكَ سُنَّةٌ أَتَتْ صَرِيحَهْ ... فِي السُّنَنِ الْمُثْبَتَةِ الصَّحِيحَهْ

[١٣٣] أَوْ قَصَدَ الدُّعَاءَ وَالتَّوَسُّلَا ... بِهِمْ إِلَى الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا:

[١٣٤] فَبِدْعَةٌ مُحْدَثَةٌ ضَلَالَهْ ... بَعِيدَةٌ عَنْ هَدْيِ ذِي الرِّسَالَهْ

[١٣٥] وَإِنْ دَعَا الْمَقْبُورَ نَفْسَهُ فَقَدْ ... أَشْرَكَ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَجَحَدْ

[١٣٦] لَنْ يَقْبَلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ ... صَرْفًا وَلَا عَدْلًا فَيَعْفُوْ عَنْهُ

[١٣٧] إِذْ كُلُّ ذَنْبٍ مُوشِكُ الْغُفْرَانِ ... إِلَّا اتِّخَاذَ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ

فَصْلٌ:

فِي بَيَانِ مَا وَقَعَ فِيهِ العَامَّةُ الْيَوْمَ، وَمَا يَفْعَلُونَ عِنْدَ الْقُبُورِ، وَمَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الشِّرْكِ الصَّرِيحِ وَالْغُلُوِّ الْمُفْرِطِ فِي الأَمْوَاتِ

[١٣٨] وَمَنْ عَلَى الْقَبْرِ سِرَاجًا أَوْقَدَا ... أَوِ ابْتَنَى عَلَى الضَّرِيحِ مَسْجِدَا

[١٣٩] فَإِنَّهُ مُجَدِّدٌ جِهَارَا ... لِسُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى

[١٤٠] كَمْ حَذَّرَ الْمُخْتَارُ عَنْ ذَا وَلَعَنْ ... فَاعِلَهُ كَمَا رَوَى أَهْلُ السُّنَنْ

[١٤١] بَلْ قَدْ نَهَى عَنِ ارْتِفَاعِ الْقَبْرِ ... وَأَنْ يُزَادَ فِيهِ فَوْقَ الشِّبْرِ

[١٤٢] وَكُلُّ قَبْرٍ مُشْرِفٍ فَقَدْ أَمَرْ ... بِأَنْ يُسَوَّى، هَكَذَا صَحَّ الْخَبَرْ

[١٤٣] وَحَذَّرَ الْأُمَّةَ عَنْ إِطْرَائِهِ ... فَغَرَّهُمْ إِبْلِيسُ بِاسْتِجْرَائِهِ

[١٤٤] فَخَالَفُوهُ جَهْرَةً وَارْتَكَبُوا ... مَا قَدْ نَهَى عَنْهُ، وَلَمْ يَجْتَنِبُوا

[١٤٥] فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ قَدْ غَلَوْا وَزَادُوا ... وَرَفَعُوا بِنَاءَهَا وَشَادُوا

[١٤٦] بِالشِّيدِ وَالآجُرِّ وَالأَحْجَارِ ... لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الأَعْصَارِ

[١٤٧] وَلِلْقَنَادِيلِ عَلَيْهَا أَوْقَدُوا ... وَكَمْ لِوَاءٍ فَوْقَهَا قَدْ عَقَدُوا

[١٤٨] وَنَصَبُوا الأَعْلَامَ وَالرَّايَاتِ ... وَافْتَتَنُوا بِالأَعْظُمِ الرُّفَاتِ

[١٤٩] بَلْ نَحَرُوا فِي سُوحِهَا النَّحَائِرْ ... فِعْلَ أُولِي التَّسْيِيبِ وَالْبَحَائِرْ

[١٥٠] وَالْتَمَسُوا الحَاجَاتِ مِنْ مَوْتَاهُمُ ... وَاتَّخَذُوا إِلَهَهُمْ هَوَاهُمُ

[١٥١] قَدْ صَادَهُمْ إِبْلِيسُ فِي فِخَاخِهِ ... بَلْ بَعْضُهُمْ قَدْ صَارَ مِنْ أَفْرَاخِهِ

[١٥٢] يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ... بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَبِاللِّسَانِ

[١٥٣] فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ أَبَاحَ ذَلِكْ! ... وَأَوْرَطَ الأُمَّةَ فِي الْمَهَالِكْ!

[١٥٤] فَيَا شَدِيدَ الطَّوْلِ وَالإِنْعَامِ ... إِلَيْكَ نَشْكُو مِحْنَةَ الإِسْلَامِ

فَصْلٌ:

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ السِّحْرِ، وَحَدِّ السَّاحِرِ، وَأَنَّ مِنهُ عِلْمَ التَّنْجِيمِ، وَذِكْرِ عُقُوبَةِ مَنْ صَدَّقَ كَاهِنًا

[١٥٥] وَالسِّحْرُ حَقٌّ وَلَهُ تَأْثِيرُ ... لَكِنْ بِمَا قَدَّرَهُ الْقَدِيرُ

[١٥٦] أَعْنِي بِذَا التَّقْدِيرِ: مَا قَدْ قَدَّرَهْ ... فِي الْكَوْنِ لَا فِي الشِّرْعَةِ الْمُطَهَّرَهْ

[١٥٧] وَاحْكُمْ عَلَى السَّاحِرِ: بِالتَّكْفِيرِ ... وَحَدُّهُ: الْقَتْلُ بِلَا نَكِيرِ

[١٥٨] كَمَا أَتَى فِي السُّنَّةِ الْمُصَرِّحَهْ ... مِمَّا رَوَاهُ التِّرْمِذِيْ وَصَحَّحَهْ

[١٥٩] عَنْ جُنْدبٍ، وَهَكَذَا فِي أَثَرِ ... أَمْرٌ بِقَتْلِهِمْ رُوِيْ عَنْ عُمَرِ

[١٦٠] وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ عِنْدَ مَالِكِ ... مَا فِيهِ أَقْوَى مُرْشِدٍ لِلسَّالِكِ

[١٦١] هَذَا وَمِنْ أَنْوَاعِهِ وَشُعَبِهْ: ... عِلْمُ النُّجُومِ فَادْرِ هَذَا وَانْتَبِهْ

[١٦٢] وَحَلُّهُ بِالْوَحْيِ نَصًّا يُشْرَعُ ... أَمَّا بِسِحْرٍ مِثْلِهِ: فَيُمْنَعُ

[١٦٣] وَمَنْ يُصَدِّقْ كَاهِنًا: فَقَدْ كَفَرْ ... بِمَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ المُعْتَبَرْ

فَصْلٌ:

يَجْمَعُ مَعْنَى حَدِيثِ جِبْرِيلَ المَشْهُورِ فِي تَعْلِيمِنَا الدِّينَ، وَأَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثِ مَرَاتِبَ: الإِسْلامِ والإِيمَانِ والإِحْسَانِ، وَبَيَانُ أَرْكَانِ كُلٍّ مِنْهَا

[١٦٤] اعْلَمْ بِأَنَّ الدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلْ ... فَاحْفَظْهُ وَافْهَمْ مَا عَلَيْهِ ذَا اشْتَمَلْ

[١٦٥] كَفَاكَ مَا قَدْ قَالَهُ الرَّسُولُ ... إِذْ جَاءَهُ يَسْأَلُهُ جِبْرِيلُ

[١٦٦] عَلَى مَرَاتِبَ ثَلاثٍ فَصَّلَهْ ... جَاءَتْ عَلَى جَمِيعِهِ مُشْتَمِلَهْ:

[١٦٧] لِاسْلامِ وَالْإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ ... وَالْكُلُّ مَبْنِيٌّ عَلَى أَرْكَانِ

[١٦٨] فَقَدْ أَتَى الْإِسْلَامُ مَبْنِيًّا عَلَى ... خَمْسٍ، فَحَقِّقْ وَادْرِ مَا قَدْ نُقِلَا

[١٦٩] أَوَّلُهَا: الرُّكْنُ الأَسَاسُ الأَعْظَمُ ... وَهْوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الأَقْوَمُ

[١٧٠] رُكْنُ الشَّهَادَتَيْنِ، فَاثْبُتْ وَاعْتَصِمْ ... بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لا تَنْفَصِمْ

[١٧١] وَثَانِيًا: إِقَامَةُ الصَّلاةِ ... وَثَالِثًا: تَأْدِيَةُ الزَّكَاةِ

[١٧٢] وَالرَّابِعُ: الصِّيَامُ فَاسْمَعْ وَاتَّبِعْ ... وَالْخَامِسُ: الْحَجُّ عَلَى مَنْ يَسْتَطِعْ

[١٧٣] فَتِلْكَ خَمْسَةٌ، وَلِلإِيمَانِ ... سِتَّةُ أَرْكَانٍ بِلا نُكْرَانِ

[١٧٤] إِيمَانُنَا بِاللهِ ذِي الْجَلالِ ... وَمَا لَهُ مِنْ صِفَةِ الْكَمَالِ

[١٧٥] وَبِالْمَلائِكِ الْكِرَامِ الْبَرَرَهْ ... وَكُتُبِهِ الْمُنْزَلَةِ الْمُطَهَّرَهْ

[١٧٦] وَرُسُلِهِ الْهُدَاةِ لِلأَنَامِ ... مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ وَلا إِبْهَامِ

[١٧٧] أَوَّلُهُمْ نُوحٌ بِلا شَكٍّ، كَمَا ... أَنَّ مُحَمَّدًا لَهُمْ قَدْ خَتَمَا

[١٧٨] وَخَمْسَةٌ مِنْهُمْ أُولُوا الْعَزْمِ الأُلَى ... فِي سُورَةِ الأَحْزَابِ وَالشُّورَى تَلا

[١٧٩] وَبِالْمَعَادِ ايْقِنْ بِلا تَرَدُّدِ ... وَلا ادِّعَا عِلْمٍ بِوَقْتِ الْمَوْعِدِ

[١٨٠] لَكِنَّنَا نُؤْمِنُ مِنْ غَيْرِ امْتِرَا ... بِكُلِّ مَا قَدْ صَحَّ عَنْ خَيْرِ الْوَرَى

[١٨١] مِنْ ذِكْرِ آيَاتٍ تَكُونُ قَبْلَهَا ... وَهْيَ عَلامَاتٌ وَأَشْرَاطٌ لَهَا

[١٨٢] وَيَدْخُلُ الإِيمَانُ بِالْمَوْتِ وَمَا ... مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الْعِبَادِ حُتِمَا

[١٨٣] وَأَنَّ كُلًّا مُقْعَدٌ مَسْؤُولُ: ... مَا الرَّبُّ؟ مَا الدِّينُ؟ وَمَا الرَّسُولُ؟

[١٨٤] وَعِنْدَ ذَا يُثَبِّتُ الْمُهَيْمِنُ ... بِثَابِتِ الْقَوْلِ الَّذِينَ آمَنُوا

[١٨٥] وَيُوقِنُ الْمُرْتَابُ عِنْدَ ذَلِكْ ... بِأَنَّ مَا مَوْرِدُهُ الْمَهَالِكْ

[١٨٦] وَبِاللِّقَا وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ... وَبِقِيَامِنَا مِنَ الْقُبُورِ

[١٨٧] غُرْلًا حُفَاةً كَجَرَادٍ مُنْتَشِرْ ... يَقُولُ ذُو الْكُفْرَانِ: ذَا يَوْمٌ عَسِرْ

[١٨٨] وَيُجْمَعُ الْخَلْقُ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ... جَمِيعُهُمْ عُلْوِيُّهُمْ وَالسُّفْلِي

[١٨٩] فِي مَوْقِفٍ يَجِلُّ فِيهِ الْخَطْبُ ... وَيَعْظُمُ الْهَوْلُ بِهِ وَالْكَرْبُ

[١٩٠] وَأُحْضِرُوا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ ... وَانْقَطَعَتْ عَلَائِقُ الْأَنْسَابِ

[١٩١] وَارْتَكَمَتْ سَحَائِبُ الْأَهْوَالِ ... وَانْعَجَمَ الْبَلِيغُ فِي الْمَقَالِ

[١٩٢] وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْقَيُّومِ ... وَاقْتُصَّ مِنْ ذِي الظُّلْمِ لِلْمَظْلُومِ

[١٩٣] وَسَاوَتِ الْمُلُوكُ لِلأَجْنَادِ ... وَجِيءَ بِالْكِتَابِ وَالْأَشْهَادِ

[١٩٤] وَشَهِدَتِ الأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ ... وَبَدَتِ السَّوْءَاتُ وَالْفَضَائِحُ

[١٩٥] وَابْتُلِيَتْ هُنَالِكَ السَّرَائِرْ ... وَانْكَشَفَ الْمَخْفِيُّ فِي الضَّمَائِرْ

[١٩٦] وَنُشِرَتْ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ ... تُؤْخَذُ بِالْيَمِينِ وَالشِّمَالِ

[١٩٧] طُوبَى لِمَنْ يَأْخُذُ بِالْيَمِينِ ... كِتَابَهُ بُشْرَى بِحُورٍ عِينِ

[١٩٨] وَالْوَيْلُ لِلآخِذِ بِالشِّمَالِ ... وَرَاءَ ظَهْرٍ لِلْجَحِيمِ صَالِي

[١٩٩] وَالْوَزْنُ بِالْقِسْطِ فَلَا ظُلْمَ وَلَا ... يُؤْخَذُ عَبْدٌ بِسِوَى مَا عَمِلَا

[٢٠٠] فَبَيْنَ نَاجٍ رَاجِحٍ مِيزَانُهُ ... وَمُقْرِفٍ أَوْبَقَهُ عُدْوَانُهُ

[٢٠١] وَيُنْصَبُ الْجِسْرُ بِلَا امْتِرَاءِ ... كَمَا أَتَى فِي مُحْكَمِ الأَنْبَاءِ

[٢٠٢] يَجُوزُهُ النَّاسُ عَلَى أَحْوَالِ ... بِقَدْرِ كَسْبِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ

[٢٠٣] فَبَيْنَ مُجْتَازٍ إِلَى الْجِنَانِ ... وَمُسْرِفٍ يُكَبُّ فِي النِّيرَانِ

[٢٠٤] وَالنَّارُ وَالْجَنَّةُ: حَقٌّ، وَهُمَا ... مَوْجُودَتَانِ لَا فَنَاءَ لَهُمَا

[٢٠٥] وَحَوْضُ خَيْرِ الْخَلْقِ حَقٌّ وَبِهِ ... يَشْرَبُ فِي الْأُخْرَى جَمِيعُ حِزْبِهِ

[٢٠٦] كَذَا لَهُ لِوَاءُ حَمْدٍ يُنْشَرُ ... وَتَحْتَهُ الرُّسْلُ جَمِيعًا تُحْشَرُ

[٢٠٧] كَذَا لَهُ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى كَمَا ... قَدْ خَصَّهُ اللهُ بِهَا تَكَرُّمَا

[٢٠٨] مِنْ بَعْدِ إِذْنِ اللهِ لَا كَمَا يَرَى ... كُلُّ قُبُورِيٍّ عَلَى اللهِ افْتَرَى

[٢٠٩] يَشْفَعُ أَوَّلًا: إِلَى الرَّحْمَنِ فِي ... فَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ

[٢١٠] مِنْ بَعْدِ أَنْ يَطْلُبَهَا النَّاسُ إِلَى ... كُلِّ أُولِي الْعَزْمِ الْهُدَاةِ الْفُضَلا

[٢١١] وَثَانِيَا: يَشْفَعُ فِي اسْتِفْتَاحِ ... دَارِ النَّعِيمِ لِأُولِي الْفَلَاحِ

[٢١٢] هَذَا وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ ... قَدْ خُصَّتَا بِهِ بِلَا نُكْرَانِ

[٢١٣] وَثَالِثًا: يَشْفَعُ فِي أَقْوَامِ ... مَاتُوا عَلَى دِينِ الْهُدَى الْإِسْلَامِ

[٢١٤] وَأَوْبَقَتْهُمْ كَثْرَةُ الآثَامِ ... فَأُدْخِلُوا النَّارَ بِذَا الْإِجْرَامِ

[٢١٥] أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا إِلَى الْجِنَانِ ... بِفَضْلِ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الْإِحْسَانِ

[٢١٦] وَبَعْدَهُ يَشْفَعُ كُلُّ مُرْسَلِ ... وَكُلُّ عَبْدٍ ذِي صَلَاحٍ وَوَلِي

[٢١٧] وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النِّيرَانِ ... جَمِيعَ مَنْ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ

[٢١٨] فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ يُطْرَحُونَا ... فَحْمًا فَيَحْيَوْنَ وَيَنْبُتُونَا

[٢١٩] كَأَنَّمَا يَنْبُتُ فِي هَيْئَاتِهِ ... حِبُّ حَمِيلِ السَّيْلِ فِي حَافَاتِهِ

[٢٢٠] وَالسَّادِسُ: الْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ ... فَأَيْقِنَنْ بِهَا وَلَا تُمَارِ

[٢٢١] فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرْ ... وَالْكُلُّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مُسْتَطَرْ

[٢٢٢] لَا نَوْءَ لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَ وَلَا ... عَمَّا قَضَى اللهُ تَعَالَى حِوَلَا

[٢٢٣] لَا غُولَ لَا هَامَةَ لَا وَلَا صَفَرْ ... كَمَا بِذَا أَخْبَرَ سَيِّدُ الْبَشَرْ

[٢٢٤] وَثَالِثٌ مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ ... وَتِلْكَ أَعْلَاهَا لَدَى الرَّحْمَنِ

[٢٢٥] وَهْوَ رُسُوخُ الْقَلْبِ فِي الْعِرْفَانِ ... حَتَّى يَكُونَ الْغَيْبُ كَالْعِيَانِ

فَصْلٌ:

في كَوْنِ الإِيمَانِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيةِ، وَأَنَّ فَاسِقَ أَهْلِ المِلَّةِ لا يُكَفَّرُ بِذَنبٍ دُونَ الشِّرْكِ، إلا إِذَا اسْتَحَلَّهُ، وَأَنَّهُ تَحْتَ المشِيئَةِ، وَأَنَّ التَّوْبَةَ مَقْبُولَةٌ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ

[٢٢٦] إِيمَانُنَا يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ ... وَنَقْصُهُ يَكُونُ بِالزَّلَّاتِ

[٢٢٧] وَأَهْلُهُ فِيهِ عَلَى تَفَاضُلِ ... هَلْ أَنْتَ كَالْأَمْلاكِ أَوْ كَالرُّسُلِ؟

[٢٢٨] وَالْفَاسِقُ الْمِلِّيُّ ذُو الْعِصْيَانِ ... لَمْ يُنْفَ عَنْهُ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ

[٢٢٩] لَكِنْ بِقَدْرِ الْفِسْقِ وَالْمَعَاصِي ... إِيمَانُهُ مَا زَالَ فِي انْتِقَاصِ

[٢٣٠] وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ فِي النَّارِ ... مُخَلَّدٌ، بَلْ أَمْرُهُ لِلْبَارِي

[٢٣١] تَحْتَ مَشِيئَةِ الإِلَهِ النَّافِذَهْ ... إِنْ شَا عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَا آخَذَهْ

[٢٣٢] بِقَدْرِ ذَنْبِهْ، وَإِلَى الْجِنَانِ ... يُخْرَجُ إِنْ مَاتَ عَلَى الإِيمَانِ

[٢٣٣] وَالْعَرْضُ تَيْسِيرُ الْحِسَابِ فِي النَّبَا ... وَمَنْ يُنَاقَشِ الْحِسَابَ عُذِّبَا

[٢٣٤] وَلَا نُكَفِّرْ بِالْمَعَاصِي مُؤْمِنَا ... إِلَّا مَعَ اسْتِحْلَالِهِ لِمَا جَنَى

[٢٣٥] وَتُقْبَلُ التَّوْبَةُ قَبْلَ الْغَرْغَرَهْ ... كَمَا أَتَى فِي الشِّرْعَةِ الْمُطَهَّرَهْ

[٢٣٦] أَمَّا مَتَى تُغْلَقُ عَنْ طَالِبِهَا؟ ... فَبِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا

فَصْلٌ:

فِي مَعْرِفَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَتَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ، وَإِكْمَالِ اللَّهِ لَنَا بِهِ الدِّينَ، وَأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ أَجْمَعِينَ، وَأَنَّ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ

[٢٣٧] نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ مِنْ هَاشِمِ ... إِلَى الذَّبِيحِ دُونَ شَكٍّ يَنْتَمِي

[٢٣٨] أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْنَا مُرْشِدًا ... وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَهُدَى

[٢٣٩] مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ الْمُطَهَّرَهْ ... هِجْرَتُهُ لِطَيْبَةَ الْمُنَوَّرَهْ

[٢٤٠] بَعْدَ ارْبَعِينَ بَدَأَ الْوَحْيُ بِهِ ... ثُمَّ دَعَا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ

[٢٤١] عَشْرَ سِنِينَ: أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا ... رَبًّا تَعَالَى شَأْنُهُ وَوَحِّدُوا

[٢٤٢] وَكَانَ قَبْلَ ذَاكَ فِي غَارِ حِرَا ... يَخْلُو بِذِكْرِ رَبِّهِ عَنِ الْوَرَى

[٢٤٣] وَبَعْدَ خَمْسِينَ مِنَ الأَعْوَامِ ... مَضَتْ لِعُمْرِ سَيِّدِ الأَنَامِ

[٢٤٤] أَسْرَى بِهِ اللهُ إِلَيْهِ فِي الظُّلَمْ ... وَفَرَضَ الْخَمْسَ عَلَيْهِ وَحَتَمْ

[٢٤٥] وَبَعْدَ أَعْوَامٍ ثَلَاثَةٍ مَضَتْ ... مِنْ بَعْدِ مِعْرَاجِ النَّبِيِّ وَانْقَضَتْ

[٢٤٦] أُوذِنَ بِالْهِجْرَةِ نَحْوَ يَثْرِبَا ... مَعْ كُلِّ مُسْلِمٍ لَهُ قَدْ صَحِبَا

[٢٤٧] وَبَعْدَهَا: كُلِّفَ بِالْقِتَالِ ... لِشِيعَةِ الْكُفْرَانِ وَالضَّلَالِ

[٢٤٨] حَتَّى أَتَوْا لِلدِّينِ مُنْقَادِينَا ... وَدَخَلُوا فِي السِّلْمِ مُذْعِنِينَا

[٢٤٩] وَبَعْدَ أَنْ قَدْ بَلَّغَ الرِّسَالَهْ ... وَاسْتَنْقَذَ الْخَلْقَ مِنَ الْجَهَالَهْ

[٢٥٠] وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَا ... وَقَامَ دِينُ الْحَقِّ وَاسْتَقَامَا

[٢٥١] قَبَضَهُ اللهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى ... سُبْحَانَهُ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى

[٢٥٢] نَشْهَدُ بِالْحَقِّ بِلَا ارْتِيَابِ ... بِأَنَّهُ الْمُرْسَلُ بِالْكِتَابِ

[٢٥٣] وَأَنَّهُ: بَلَّغَ مَا قَدْ أُرْسِلَا ... بِهِ، وَكُلُّ مَا إِلَيْهِ أُنْزِلَا

[٢٥٤] وَكُلُّ مَنْ مِنْ بَعْدِهِ قَدِ ادَّعَى ... نُبُوَّةً: فَكَاذِبٌ فِيمَا ادَّعَى

[٢٥٥] فَهُوَ خِتَامُ الرُّسْلِ بِاتِّفَاقِ ... وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الإِطْلَاقِ

فَصْلٌ:

فِيمَنْ هُوَ أَفْضَلُ الأُمَّةِ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ، وَذِكْرِ الصَّحَابَةِ بِمَحَاسِنِهِمْ، وَالْكَفِّ عَنْ مَسَاوِئِهِمْ وَمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

[٢٥٦] وَبَعْدَهُ: الْخَلِيفَةُ الشَّفِيقُ ... نِعْمَ نَقِيبُ الْأُمَّةِ الصِّدِّيقُ

[٢٥٧] ذَاكَ رَفِيقُ الْمُصْطَفَى فِي الْغَارِ ... شَيْخُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

[٢٥٨] وَهْوَ الَّذِي بِنَفْسِهِ تَوَلَّى ... جِهَادَ مَنْ عَنِ الْهُدَى تَوَلَّى

[٢٥٩] ثَانِيهِ فِي الْفَضْلِ بِلَا ارْتِيَابِ ... الصَّادِعُ النَّاطِقُ بِالصَّوَابِ

[٢٦٠] أَعْنِي بِهِ الشَّهْمَ: أَبَا حَفْصٍ عُمَرْ ... مَنْ ظَاهَرَ الدِّينَ الْقَوِيمَ وَنَصَرْ

[٢٦١] الصَّارِمَ الْمُنْكِي عَلَى الْكُفَّارِ ... وَمُوسِعَ الْفُتُوحِ فِي الأَمْصَارِ

[٢٦٢] ثَالِثُهُمْ: عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ ... ذُو الْحِلْمِ وَالْحَيَا بِغَيْرِ مَيْنِ

[٢٦٣] بَحْرُ الْعُلُومِ جَامِعُ الْقُرْآنِ ... مِنْهُ اسْتَحَتْ مَلَائِكُ الرَّحْمَنِ

[٢٦٤] بَايَعَ عَنْهُ سَيِّدُ الأَكْوَانِ ... بِكَفِّهِ فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

[٢٦٥] وَالرَّابِعُ: ابْنُ عَمِّ خَيْرِ الرُّسُلِ ... أَعْنِي الإِمَامَ الْحَقَّ ذَا الْقَدْرِ الْعَلِي

[٢٦٦] مُبِيدَ كُلِّ خَارِجِيٍّ مَارِقِ ... وَكُلِّ خِبٍّ رَافِضِيٍّ فَاسِقِ

[٢٦٧] مَنْ كَانَ لِلرَّسُولِ فِي مَكَانِ ... هَارُونَ مِنْ مُوسَى بِلَا نُكْرَانِ

[٢٦٨] لَا فِي نُبُوَّةٍ، فَقَدْ قَدَّمْتُ مَا ... يَكْفِي لِمَنْ مِنْ سُوءِ ظَنٍّ سَلِمَا

[٢٦٩] فَالسِّتَّةُ الْمُكَمِّلُونَ الْعَشَرَهْ ... وَسَائِرُ الصَّحْبِ الْكِرَامِ الْبَرَرَهْ

[٢٧٠] وَأَهْلُ بَيْتِ الْمُصْطَفَى الأَطْهَارُ ... وَتَابِعُوهُ السَّادَةُ الأَخْيَارُ

[٢٧١] فَكُلُّهُمْ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ ... أَثْنَى عَلَيْهِمْ خَالِقُ الْأَكْوَانِ

[٢٧٢] فِي الْفَتْحِ وَالْحَدِيدِ وَالْقِتَالِ ... وَغَيْرِهَا بِأَكْمَلِ الْخِصَالِ

[٢٧٣] كَذَاكَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ... صِفَاتُهُمْ مَعْلُومَةُ التَّفْصِيلِ

[٢٧٤] وَذِكْرُهُمْ فِي سُنَّةِ الْمُخْتَارِ ... قَدْ سَارَ سَيْرَ الشَّمْسِ فِي الْأَقْطَارِ

[٢٧٥] ثُمَّ السُّكُوتُ وَاجِبٌ عَمَّا جَرَى ... بَيْنَهُمُ مِنْ فِعْلِ مَا قَدْ قُدِّرَا

[٢٧٦] فَكُلُّهُمْ مُجْتَهِدٌ مُثَابُ ... وَخِطْؤُهُمْ يَغْفِرُهُ الْوَهَّابُ

خَاتِمَةٌ:

في وُجُوبِ التَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، والرُّجُوعِ عندَ الاخْتِلافِ إِلَيْهِمَا، فَمَا خَالَفَهُمَا فَهُوَ رَدٌّ

[٢٧٧] شَـرْطُ قَبُـولِ السَّـعْيِ أَنْ يَجْتَمِعَـا ... فِيـــهِ: إِصَـــابَةٌ وَإِخْـــلَاصٌ مَعَـــا

[٢٧٨] لِلَّـــهِ رَبِّ الْعَـــرْشِ لَا سِـــوَاهُ ... مُوَافِـــقَ الشَّـــرْعِ الَّـــذِي ارْتَضَـــاهُ

[٢٧٩] وَكُـلُّ مَـا خَـالَفَ لِلْـوَحْيَيْنِ ... فَإِنَّـــــهُ: رَدٌّ بِغَيْـــــرِ مَـــــيْنِ

[٢٨٠] وَكُـلُّ مَـا فِيـهِ الْخِـلَافُ نُصِـبَا: ... فَـــرَدُّهُ إِلَيْهِمَـــا قَـــدْ وَجَبَـــا

[٢٨١] فَالـــدِّينُ إِنَّمَـــا أَتَـــى بِالنَّقْـــلِ ... لَـــيْسَ بِالأَوْهَـــامِ وَحَـــدْسِ الْعَقْـــلِ

[٢٨٢] ثُـــمَّ إِلَـــى هُنَـــا قَـــدِ انْتَهَيْـــتُ ... وَتَـــمَّ مَـــا بِجَمْعِـــهِ عُنِيـــتُ

[٢٨٣] سَـمَّيْتُهُ: بِـ (سُـلَّمِ الْوُصُـولِ) ... إِلَـــى سَـــمَا مَبَاحِـــثِ الأُصُـــولِ

[٢٨٤] وَالْحَمْـدُ لِلَّـهِ عَلَـى انْتِهَـائِي ... كَمَـــا حَمِـــدتُّ اللهَ فِـــي ابْتِـــدَائِي

[٢٨٥] أَسْـــأَلُهُ مَغْفِـــرَةَ الـــذُّنُوبِ ... جَمِيعِهَـــا، وَالسِّـــتْرَ لِلْعُيُـــوبِ

[٢٨٦] ثُـــمَّ الصَّـــلَاةُ وَالسَّـــلَامُ أَبَـــدَا ... تَغْشَـــى الرَّسُـــولَ الْمُصْـــطَفَى مُحَمَّـــدَا

[٢٨٧] ثُـــمَّ جَمِيـــعَ صَـــحْبِهِ وَالْآلِ ... السَّـــادَةِ الأَئِمَّـــةِ الأَبْـــدَالِ

[٢٨٨] تَـــدُومُ سَـــرْمَدًا بِـــلَا نَفَـــادِ ... مَـــا جَـــرَتِ الْأَقْـــلَامُ بِالْمِـــدَادِ

[٢٨٩] ثُـــمَّ الـــدُّعَا وَصِـــيَّةُ الْقُـــرَّاءِ ... جَمِـــيعِهِمْ مِـــنْ غَيْـــرِ مَـــا اسْـــتِثْنَاءِ

[٢٩٠] أَبْيَاتُهَـــا (يُسْـــرٌ) بِعَـــدِّ الْجُمَّـــلِ ... تَأْرِيخُهَـــا (الْغُفْـــرَانُ) فَـــافْهَمْ وَادْعُ لِـــي

للاستماع

عَقِيدَةُ أَهْلِ الإِسلامِ

فِيمَا يَجِبُ لِلإِمام

«مُختصر كتاب: مُعَامَلَةُ الحُكَّام في ضَوْءِ الكِتابِ والسُّنَّة»

-بتصرُّف-

لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد السَّلام بن برجس آل عبد الكريم

١٣٨٧-١٤٢٥هـ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذه رسالة اختصرت أغلبها من كتابي: «**مُعَامَلَةُ الحُكَّام في ضَوْءِ الكِتابِ والسُّنَّة**».

اجتهدتُ في اختصارها؛ ليسهلَ حَملُها، ويَكثرَ قارئوها، إذ الاطلاع على مسائل هذا الموضوع محلُّ اهتمام المسلم الذي يريدُ لقاء الله على عقيدة السَّلَف الصالح -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم-.

ومَن تأمل التأريخ عَلِمَ أن أكثر مَصَائب المسلمين إنَّمَا هي من جرَّاء التفريط فيما قرَّره الشرع المطهر في هذا الباب الخطير.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يَحفظ على المسلمين دينهم وأمنهم، وأن يُؤلِّف بين قلوبِهم، ويَجمع كلمتهم على الحقِّ.

وصَلِّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه: عبد السلام بن برجس العبد الكريم

٢٢/ ٧/ ١٤٢٢هـ

الفصل الأول: في وجوب نصب الإمام وحكمة الشرع في وجوب نصبه وذكر فضائله

الإمام هو: إمام الرعيَّة، يسمَّى: خليفةً، أو أمير المؤمنين، أو المَلِكَ، أو الأمير، ونَحو ذلك من الألفاظ الَّتِي تفيدُ بأن هذا الرجل له رياسةٌ تامَّةٌ وزَعَامة تتعلق بالمسلمين فيما يصلح الدِّين والدنيا.

فالإمامة العظمى: هي خلافة النبي ﷺ فِي أمته لحراسة الدين، وسياسة الدنيا.

وقد ورد ذكر الإمام بهذَا المعنى في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَلا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» [البخاري (٧١٣٨)، مسلم (١٨٢٩)].

وسَمَّاه النَّبي ﷺ أميرًا، كما في أحاديث كثيرة، فقد ورد بلفظ: «**كُلُّكُمْ راعٍ فَمَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فالأمِيرُ الذي على النَّاسِ راعٍ وهو مَسْئُولٌ عنْهمْ**» [البخاري (٢٥٥٤)].

ويُسمَّى المَلِك، قال تعالى: ﴿**وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ**﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال ﷺ: «**خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ الْمُلْكَ -أَوْ مُلْكَهُ- مَنْ يَشَاءُ**» [صحيح سنن أبي داود (٤٦٤٦)].

ويُسمَّى الخليفة، كما جاء في قوله ﷺ: «**وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ فَتَكْثُرُ. قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ، فَالْأَوَّلِ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ**» [البخاري (٣٤٥٥)، مسلم (١٨٤٢)]. فإطلاق «الخليفة» عليه جائز؛ لهذا الحديث ولغيره، وإن كان لفظ الخِلافة يُطلق في الغالب على الخُلَفَاء الراشدين: أبِي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لكمال عدلِهم، ويلحق بِهم من هو مثلهم كعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ.

فصل

وهذا الإمام واجبٌ نصبه على المسلمين؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد موت النبي ﷺ أجمَعوا على نصب الإمام قبل الاشتغال بدفن جسمه الطاهر الشريف ﷺ، فعملهم هذا دليل قاطع على أن نصب الإمام من أهم الواجبات. وبناء على هذا العمل من الصَّحَابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جاء إجماعُ أُمة مُحمد ﷺ على ذلك، ولَم يَخرج عن هذا الإجمَاع أحدٌ ممَّن يُعتدُّ به.

حكى هذا الإجماع: أبو الحسن المَاوردي [الأحكام السلطانية]، والقرطبي [الجامع لأحكام القرآن]،

والنووي [شرح النووي على مسلم]، وغيرهم.

ومن هنا قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ نَصْبَ الإمام فرضُ كفاية. فإن سألت -أيها المُسلم- عن حكمة الشارع الحكيم فِي إلزام الناس بنصب الإمام؟

قلتُ: إنَّ الحِكَمَ فِي هذا التشريع ترجع إلَى أمرين:

١- تحقيق مَصَالِح الدِّين والدنيا.

٢- دفع المَفَاسد عن الدِّين والدنيا.

وفي ذلك يقول الشيخ العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولولا نَصبُ الإمام الأعظم لفاتت المَصَالِح الشاملة، وتَحققت المَفَاسد العامة، ولاستولى القويُّ على الضعيف، والدنِيُّ على الشريف» [قواعد الأحكام في إصلاح الأنام].

وشرح ذلك: أن أكثر بني آدم طُبعوا على عدم الإنصاف وحبِّ الانتصاف، فلو لَم يكن عليهم سلطان يسوس أمورهم؛ لكانوا كوحوش الغابة، وحيتان البحر، يأكل القويُّ الضعيف. وانظر إلى هذه الصورة في المجتمع الجَاهلي الذي بُعِث النبي ﷺ لتطهيره من الشرك، فإنه مُجتمعٌ فوضويٌّ، لا قائد له، ولا يؤمن أحدٌ من أفراده بمبدأ السمع والطاعة لولاة الأمر، فكان نتيجة ذلك: انتشار القتل والسلب، وذيوع الخَوف، ونشوب الحُرُوب الطاحنة على أتْفَهِ الأسباب، وضياع الحُقُوق.

لِهذه المفاسد العظام: شدَّد النَّبي ﷺ على أمر البيعة للإمام المُسلم القائم، وجعل من مات من المسلمين وليس فِي عنقه بيعة مات ميتة جاهلية؛ فربط ﷺ بين هذا الْمَرء وبين أهل الجَاهلية؛ لأنه شابَههم في هذه الخَصلة المَقيتة، وبئس المَصير.

فضرورة نَصْب الإمام أكَّدها الإسلام: لأن من مقاصد الإسلام صُنعَ مُجتمعٍ قائمٍ على دين الله، يعمر الأرض بالحَضَارة القَويمَة كما أراد الله، فيجمع مَصَالِح الدنيا والآخرة، ويدفع مفاسد الدنيا والآخرة، ولا يكون مجتمعًا جاهليًّا فوضويًّا، وكل هذه الأمور تتوقف على وجود إمام، فوجوده أساس إصلاح المجتمع، وفقدانه أساس خراب المجمع. وفي هذا يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا يُصلحُ الناس إلا أميرٌ: برٌّ، أو فاجر. قالوا: يا أمير المؤمنين، هذا البرُّ، فكيف بالفاجر؟ قال: إن الفاجر يؤمِّن الله عَزَّوَجَلَّ به السُّبُل، ويُجاهد به العدو، ويَجيء الفيء، وتُقام به

الحدود، ويُحجُّ به البيت، ويعبد الله فيه المسلمُ آمنًا، حتَّى يأتيه أجله» [أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان)].

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لابد للمسلمين من حاكم؛ أتذهَبُ حقوقُ الناس؟».

وقال أيضًا: «والفتنة إذا لَم يكن إمام يقوم بأمر الناس». [أخرجه الخلَّال في كتاب (السُّنة)]. وإن أردت أن تزداد معرفة لأَهمية وجود الإمام، فانظر إلَى الأثر العظيم الذي جاء عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «وما يَزَعُ الإمام أكثرُ مِمَّا يزع القرآن» [أخرجه ابن عبدالبر في (التمهيد)].

قال ابن منظور: «معناه: أن من يَكُف عن ارتكاب العظائم مَخافة السلطان أكثر مِمَّن تكفه مَخافة القرآن، والله تعالى، فمَن يكفُّه السلطان عن المعاصي أكثر مِمَّن يكفُّه القرآن بالأمر والنهي والإنذار» [لسان العرب]. ولعل هذا الأثر الجَميل هو عمدة العلامة سهل بن عبد الله التستري عندما قال: «الخَشَباتُ السُّودُ المُعلَّقة على أبوابِهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضيًا يقضون في المسجد» [قوت القلوب].

فصل

ولمَّا كان منصب الإمام أكبر المناصب، وأهمها، وأخطرها، إذ مصالح المسلمين متعلقة به؛ جاء الشرع بتعديد فضائله، وتقوية جانبه؛ ليعينه ذلك على العمل بِمَا يُصلح أحوال المسلمين في أمور الدنيا والدين. **فمن ذلك:**

١- قول الله تعالى: ﴿**فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

قيل في تفسيرها: «ولولا أن الله تعالى أقام السلطان في الأرض، يدفع القوي عن الضعيف، وينصف المظلوم من ظالمه، لتواثب الناس بعضهم على بعض، فلا ينتظم لهم حالٌ، ولا يستقرُّ لَهم قرار، فتفسُدُ الأرض ومن عليها» [تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام لابن جماعة]. ثم امتَنَّ الله تعالى على عباده بإقامة السلطان لهم بقوله: ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾.

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «وفي هذا تنبيه على فضيلة الملك، وأنه لولاه ما استتبَّ أمْرُ العالَمِ» [روح المعاني]. يعني: لولاه بعد الله تعالى.

٢- ذكر أبو طالب المكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عن بعض أهل العلم أنه قال: «الإمام يوضع في ميزانه جميع أعمال رعيته» [قوت القلوب]. **وبيان ذلك ما قاله الشيخ العز بن عبد السلام** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأجر الإمام الأعظم أفضل من أجر المُفتي والحَاكم -أَيْ: القاضي-؛ لأن ما يجلبه من المصالح ويدرؤه من المفاسد أتَمّ وأعمّ؛ ولذلك جاء في الحديث الصحيح: (**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ**...). فبدأ به لعلو مرتبته... -**إلى أن قال**:- وعلى الجملة: فالعادل من الأئمة والولاة والحُكام أعظم أجرًا من جميع الأنام، بإجماع أهل الإسلام؛ لأنهم يقومون بجلب كل صلاح كامل، ودرء كل فسَاد شامل. **قال**: وأما ولاة السوء، وقضاة الجَوْر، فمن أعظم الناس وزرًا، وأحطهم درجة عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لعموم ما يجري على أيديهم من جلب المفاسد العِظام، ودرء المصالح الجِسام» [قواعد الأحكام في إصلاح الأنام].

٣- «**السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ**». هذا نصٌّ عن رسول الله ﷺ روي في عدَّة أحاديث، أصحها حديث أبي بكرة نُفيع بن الحارث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، [أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب (السُّنة)].

والمعنى: أن الظلَّ يدفع أذى حرِّ الشمس، فكذلك السلطان يدفع الله به الأذى عن الناس، وفي إضافة الظل إلى الله تنبيه على أن الظل الحاصل بالسلطان ليس كسائر الظلال، فهو أرفعها وأجلُّها وأعظمها فائدة ونفعًا، ففي الحديث دلالة على علوِّ مكانة السلطان وشرف منزلته؛ لأن الإضافة في قوله: «**السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ**» إضافة تشريف وتكريم، كقولنا: بيتُ الله، وكعبة الله. وفي الإشارة إلى كثرة الفضائل الواردة للإمام في النصوص الشرعية، قلتُ ضمن قصيدة لي [وهي في مدح أخينا الشيخ الفاضل محمد بن هادي حفظه الله ورعاه]:

نَصـــرُ الـــوُلاةِ إِلَـــى الإلـــه مُحبَّـــبٌ ... إِكْـــرَامُهم فَضـــلٌ ومَـــا هُـــوَ دُونُ
لَهـــم الفَضَـــائِلُ في الكِتَـــابِ وسُـــنَّةٍ ... ولَهـــم سُـــيوفٌ حَـــدُّها مَسْـــنُونُ
ظِـــلُّ الـــرَّحيم بأرضِـــهِ لِعِبَـــادِهِ ... حِصـــنٌ مِـــن الفِـــتنِ العِظـــام حَصـــينُ
إِنَّـــا إِذَا جَهِـــلَ العَـــدوُّ صِـــراطَنا ... قَـــوْمٌ بِحُـــبِّ المُنعِمـــينَ نَـــدينُ

الفصل الثاني: فيما يجب على المسلم للإمام

إذا تمَّ تعيين الإمام بأحد الطريقين المتفق عليهما، وهُمَا:

- اختيار أهل الحَلِّ والعقدِ له، أو استخلافه بولاية العهد له من الإمام قَبلَه.

- أو كان ذلك بطريق الغلبة، واستتبَّ له الأمر؛ وجب على المسلمين القيامُ بحُقُوق هذا الإمام.

وحقوق الإمام حقوقٌ نصَّ الله تعالى عليها في كتابه العزيز، ونصَّ عليها النبي ﷺ، وذلك ليعلم المسلم أن هذه الحُقُوق في غاية الأهمية، فالقيام بها حتمٌ لا يُسمحُ بالتقصير فيها. ومَنْ قصَّر فقد رتَّب الشرع المطهر له عقوبات زاجرة، منها عقوبات تتعلق بالدنيا، ومنها عقوبات في الآخرة.

وهذا بيان هذه الحقوق:

١- البيعة له: فيبايعه أهل الحلِّ والعقد، ثم عموم المسلمين ممَّن تيسر حضورهم، ويكون ذلك ملزمًا لكل مسلم. **ومعنى البيعة:** العهد على الطاعة، أَيْ: أن المُبايعين يُسلِّمون للإمام النَّظر في أمر أنفسهم، وأمور المسلمين، لا ينازعونه في شيء من ذلك، ويطيعه الجميع فيما يكلفهم به من أمر في المَنشط والمَكره، بشرط ألَّا يكون الأمر بمَعصية الله، وتكون هذه البيعة بالمُصافحة والكلام، أو بالكلام وحده، أو بالكتابة. **دليل وجوب البيعة:** حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال: «...**وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» [مسلم (١٨٥١)]. وعند الحاكم بلفظ: «**وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامُ جَمَاعَةٍ؛ فَإِنَّ مَوْتَتَهُ مَوْتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**» [المستدرك على الصحيحين (٢٦١)]. فأفاد الحديث وُجُوب عقد البيعة للإمام القائم المسلم، وأن المُطَالب بها جميع المسلمين الذين تحت ولاية هذا الإمام. وبيَّن العقوبة المُرتبة على عدم وجود البيعة في عنق المسلم، وهي كونه يموت كحال أهل الجاهلية على ضلال، والعياذ بالله. أما مَنْ نقض هذه البيعة فإن هذه العقوبة تناله؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» [البخاري (٧٠٥٣)، مسلم (١٨٤٩)]. كما تناله عقوبة القتل؛ لحديث عرفجة بن شريح الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ**» [مسلم (١٨٥٢)].

٢- **السمع والطاعة له في غير معصية الله تعالى:** هذا الحقُّ أجمع عليه أهل السنَّة والجماعة، وأودَعُوهُ في كتب العقائد، التي يُرَبُّون بها الناس صغارًا وكبارًا، ذُكرانًا وإناثًا، وهو حقٌّ لَم يترُك الشارع استنباطه للناس؛ بل نصَّ عليه الله العزيز الحكيم في كتابه الكريم، ونصَّ عليه الرسول المصطفى ﷺ في سنته، حتَّى لا يبقى مَجال للخلاف فيه.

أ- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وهم الولاة والأمراء، ذهب إلى ذلك جماهير السَّلَف والخلف من المحدِّثين والمفسرين والفقهاء وغيرهم [شرح النووي على مسلم].

وهذا الأمر بطاعة أولي الأمر مُقَيَّدٌ: بعدم الطاعة في الأمر بالمعصية لله تعالى. **قال الإمام حربٌ الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «العقيدة» التي نقلها عن جميع السلف:** «وإن أمرك السلطان بأمر فيه لله معصيةٌ، فليس لك أن تطيعه ألبتَّة، وليس لك أن تخرج عليه، ولا تمنعه حقه».

ب- أما الأحاديث عن رسول الله ﷺ في ذلك فقد بلغت حدَّ التواتر، أو كادت أن تبلغه، كما أفاد ذلك صدر الدين السُّلمي في رسالته «طاعة السلطان». **منها:** حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، عن النبي ﷺ أنه قال: «**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**» [البخاري(٧١٤٤)، مسلم (١٨٣٩)].

قال العلامة المُطهَّر في شرح هذا الحديث: «**يعني**: سَمعُ كلام الحاكم وطاعته واجبٌ عَلَى كل مسلم، سواءٌ أمرَهُ بما يوافقُ طَبعَهُ أو لَم يوافقهُ، بشرط ألَّا يأمرَهُ بمعصية، فإن أمرَهُ بها فلا تجوز طاعتهُ، لكن لا يجوز له مُحاربةُ الإمام» [نقله المباركفوري في (تحفة الأحوذي)].

مثال الأمر بالمعصية: أن يُؤمَر المرءُ بأن يقتُل نفسًا بغير حقٍّ، أو يُؤمَرَ بأن يرابي أو يشرب الخمر، فلا طاعة للإمام في ذلك، ويُسمَعُ ويطاع له فيما عدا الأمر بالمعصية.

ومنها: حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السَّمع والطاعة في منشطنا ومَكرَهنا، وعُسْرنا ويُسْرنا، وأثرةٍ علينا، وألَّا ننازع

الأمر أهله، قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» [البخاري (٧٠٥٥)، مسلم (١٧٠٩)]. وقد رتَّب النَّبي ﷺ ثوابًا لمن التزم هذا الأمر، ورتب عقابًا لمن خالفه؛ عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا أُمَّةَ بَعْدَكُمْ، أَلَا فَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ طَيِّبَةً بِهَا نفُوسكُمْ، وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ» [السنة لابن أبي عاصم (١٠٦١)]. وبإسناد جيد: عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ السَّامِعَ الْمُطِيعَ لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ السَّامِعَ الْعَاصِي لَا حُجَّةَ لَهُ» [السنة لابن أبي عاصم (١٠٥٦)].

والمعنى: أن الذي يسمع أوامر الإمام فيطيع، لا حجة عليه يوم القيامة؛ لأنه أدى ما عليه، وأن الذي يسمع أوامر الإمام فلا يطيع، فلا حُجَّة له تقبل منه يوم القيامة في تَخلُّفه عن طاعة الإمام، فيهلَكَ.

٣- الصبرٌ على جوره: إذا ابتُلي المسلمون بإمام جائر، فإنَّ الصَّبر على جَوْره هو سبيل المؤمنين، وطريقة أهل العلم والدين؛ لأن الخُروج عليه يوجب مِن الظلم والفساد أكثر من ظُلمه، فيُصبر عليه، كما يُصبرُ عند الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر على ظُلم المأمور والمَنهيِّ؛ لقوله تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وهذا الحق للإمام ثبتَ بالنصوص المتوَاترة عن رسول الله ﷺ: منها: حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النَّبي ﷺ، قال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ، فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَمَاتَ، فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ » [البخاري (٧٠٥٤)، مسلم (١٨٤٩)]. وفي لفظ لمسلم: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا، فَمَاتَ عَلَيْهِ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

ومنها: حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فما تَأْمُرُنا؟ قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ» [البخاري (٣٦٠٣)، مسلم (١٨٤٣)]. قوله ﷺ: «أَثَرَةٌ» هي: الانفراد بالشيء عمَّن له فيه حقٌّ، وتتعلق بالأموال. وقوله ﷺ: «وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»، أَيْ: من أمور الدين، إما بالتقصير فيها، أو

بإحداث البدع.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في شرح الحديث: «فيه الحثُّ على السَّمع والطاعة، وإن كان المُتولِّي ظالمًا عَسُوفًا، فيعطى حقَّه من الطاعة، ولا يُخرج عليه، ولا يُخلعُ؛ بل يُتضرع إلى الله تعالى فِي كشف أذاه، ودفع شرِّه، وإصلاحه» [شرح النووي على مسلم].

وبهذه النصوص أخذ سلفنا الصَّالِح، فأودعوا في كتب «العقائد» الأمر بالصبر على جَوْر الأئمة، فلا يكاد يَخلو مؤلَّفٌ لهم من ذلك.

وقد وردت آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تؤكد ذلك:

منها: ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» بإسنادٍ جيد، عن سويد بن غفلة قال: قال لي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا أبا أميَّة، إنِّي لا أدري لعلي لا ألقاك بعد عامي هذا، فإن أُمِّرَ عليك عبدٌ حبشيٌّ مُجدَّع، فاسْمع له وأطِعْ، وإن ضربكَ فاصبر، وإن حَرَمَك فاصبر، وإن أراد أمرًا يُنْقصُ دينك؛ فقل: سَمعٌ وطاعة دمي دون ديني، ولا تفارق الجماعة».

ومنها: ما أخرجه التبريزي في «النصيحة للراعي والرعية» عن كعب الأحبار أنه قال: «السُّلطان ظل الله في الأرض، فإذا عمل بطاعة الله، كان له الآجر، وعليكم الشكر، وإذا عمل بمعصية الله، كان عليه الوزرُ، وعليكم الصبر، ولا يَحملنَّك حبُّه على أن تدخل في معصية الله، ولا بُغضُهُ على أن تَخرج من طاعته».

٤- النصح له: هذا الحقُّ جاء منصوصًا فِي أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقبل ذكر بعضها، أنقُلُ لك معنَى النُّصْح لإمام المُسلمين من كلام العلماء:

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وأمَّا النصيحة لأئمَّة المُسلمين: فحبُّ صلاحهم ورُشدهم وعدلهم، وحبُّ اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتديُّنُ بطاعتهم في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والبغض لمن رأى الخُروج عليهم، وحبُّ إعزازهم في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ» [جامع العلوم والحِكم].

وقال أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «والنصيحة لأئمَّة المسلمين: معاونتهم على الحَق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبيههم فِي رِفْقٍ ولُطفٍ، ومُجانبة الوثوب عليهم، والدعاءُ لهم بالتوفيق، وحثُّ الأغيار على ذلك» [صيانة صحيح مسلم].

ومن الأحاديث المُؤكدة لذلك: حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِي ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: **لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**» [مسلم (٥٥)]. فمَن نَصَح لولاة الأمر فقد أدى ما افترض الله عليه، ومَنْ لَمْ ينصح لَهم فإنَّ قلبَهُ قد مُلئ غيظًا على أمة مُحمَّد ﷺ، ولذا لا ترى هذه الخَصلة الذميمة إلا عند أهل البدع والأهواء، كما قال العلامة سهل بن عبد الله التَّستُريُّ (ت ٢٨٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة: اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يُبغض السُّلطان، والناجية هذه الواحدة الَّتِي مع السلطان».

وهَذَا مأخوذٌ من قوله ﷺ: «**ثَلَاثُ خِصَالٍ: لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**» [السلسلة الصحيحة (٤٠٤)].

وفي «المسند» عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قام رسول الله ﷺ بالخَيْف من منًى، فقال: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْأَمْرِ**». وفي لفظ: «**طَاعَة ذَوِي الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَكُونُ مِنْ وَرَائه**». فهذه الخِصال الثلاث لا توجد في قلبٍ إلا وهو قلبٌ طاهر من الخِيانة والدَّغل والشرِّ؛ لأنَّها خصال تنفي الغِلَّ والغِشَّ ومُفسدات القلوب.

فمُناصحة ولاة الأمور منافٍ للغلِّ والغش؛ لأن النصيحة لا تُجامع الغلَّ؛ إذْ هي ضِدُّه، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغِلِّ، ومَن لَم ينصحِ الأئمة فقد انغمسَ في الغِلِّ، والعياذ بالله تعالى. [يُنظر (مفتاح دار السعادة) لابن القيم].

٥- توقيره واحترامه: وهذا الحقُّ رَعَاهُ الشارع الحكيم بأن أمر به نصًّا، ونَهي عن ضدِّه مِن سَبهم وإهانتهم.

وقصدُ الشارع من ذلك ما أشار إليه العلامة القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى **حيث قال:** «**قاعدة:** ضبطُ المصالح العامة واجبٌ، ولا تنضبط إلَّا بعظمة الأئمَّة في نفس الرَّعيَّة، ومتى اختَلَفَت عليهم، أو

أُهينوا؛ تعذَّرت المصلحة..» [الذخيرة].

وقد سبقه إلى ذلك العلامة سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى **حينما قال:** «لا يزال الناس بخير ما عظَّموا السلطان والعلماء، فإن عظَّموا هذين أصلح الله دُنياهم وأُخراهُم، وإن استخفوا بِهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم» [تفسير القرطبي].

فالشارع الحكيم إنَّما راعى هذا الأمر لأجل أن المسئوليات على الإمام كثيرة وثقيلة، ولا يُمكن له أن يقوم بذلك على الوجه الصحيح إلا إذا كانت النفوس موطَّنة على احترامه وتقديره، موعودةً بالأجر على ذلك، متوعَّدةً بالوزر إن خالفت ذلك.

أ- أمَّا الأمر بتوقير الإمام فقد جاءت به نصوصٌ نبويَّة شريفة، وعقدَ كبار العلماء في مؤلفاتهم أبوابًا خاصَّةً بذلك. ففي كتاب «السنة» لابن أبي عاصم: «بابٌ: فِي ذكر تعزير الأمير وتوقيره». وفي كتاب «الحجَّة فِي بيان المحجَّة وشرح عقيدة أهل السنة» لأبي القاسم الأصبهاني: «فصلٌ: في فضل توقير الأمير». وفي كتاب «النصيحة للراعي والرعية»؛ «بابُ ذكر النصيحة للأمراء، وإكرام مَحلِّهم، وتوقير رتبهم، وتعظيم مَنْزلتهم».

ومن النصوص في ذلك: ما أخرجه أبو داود في «سُنَنه» كتاب الأدب، بابٌ: في تنْزيل الناس منازلَهم، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**» [صحيح سنن أبي داود (٤٨٤٣)].

ومنها: حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَمْسٌ؛ مَنْ فَعَلَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ** -وذكر منهن:- **أَوْ دَخَلَ عَلَى إِمَامِهِ يُرِيدُ تَعْزِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ**» [صحيح الجامع (٣٢٥٣)]. ومعنى: «**كَانَ ضَامِنًا عَلَى اللهِ**». أَيْ: دخول الجنة، والله أعلم.

ومنها: حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن أجَلَّ سلطانَ اللهِ أجَلَّه اللهُ يومَ القيامةِ**» [السلسلة الصحيحة (٢٢٩٧)].

ب- **أما النهي عن سبِّهم وإهانتهم**: فقد جاءت به أحاديث، وآثارٌ عن السَّلف، وعَقَدَ أهل العلم في مؤلفاتِهم بابًا لذلك. ففي «السنَّة» لابن أبي عاصم: «باب ما ذُكر عن النبي ﷺ من أمره بإكرام السلطان وزجره عن إهانته». وفي كتاب «الحُجَّة» لأبي القاسم الأصبهاني: «فصلٌ: فِي النهي عن سبِّ الأمراء والولاة، وعصيانهم».

وممَّا ورد في ذلك حديث عمرو البُكالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَأْمُرُونَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالْجِهَادِ، فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ سَبَّهُمْ، وَحَلَّ لَكُمُ الصَّلَاةَ خَلْفَهُمْ**» [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير».

وقد جاء موقوفًا على عمرو البكالي من قوله، أخرجه البخاري في «التاريخ الصغير». وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإصابة»: سنده صحيح].

ومنها: قول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَهَانَا كُبَرَاؤُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ، وَلَا تَغُشُّوهُمْ، وَلَا تُبْغِضُوهُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ قَرِيب» [أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وغيرهما بإسناد صحيح].

ومنها: قول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَوَّلَ نِفَاقِ الْمَرْءِ طَعْنُهُ عَلَى إِمَامِهِ» [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وابن عبد البر في «التمهيد»].

ومنها: قول أبي إسحاق السبيعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما سبَّ قومٌ أميرهم، إلا حُرِمُوا خيره» [أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد»، وأبو عمرو الداني في «الفتن»].

ومنها: قول أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إياكم والطعن على الأئمَّة، فإن الطعن عليهم هي الحَالقة، حَالقةُ الدِّين ليست حالقة الشَّعْر، ألا إن الطعَّانين هم الخائبون وشرار الأشرار» [أخرجه ابن زنْجَويه في كتاب «الأموال»].

ومنها: قول معروف الكرخي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لَعَنَ إمامه حُرِم عَدلُه» [ذكره ابن الجَوزي في «مناقب معروف وأخباره»].

الفصل الثالث: في إنكار المنكر على الأئمة كيف يكون؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أصلٌ من أصول الدين، القيام به فرضٌ على الأمة، إذا قام به مَن يكفي؛ سقط الإثمُ عن الباقين، فإن تركوه كلهم أثِموا. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾. ثم فسر تعالى هذا الاعتداء الذي بسببه لُعِنوا فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» [مسلم (٤٩)]. ولما كان الإمام بشرًا غير معصوم، فإن وقوعه في شيء من المُنكرات، يوجب الإنكار عليه، لكنَّ الشارع الحكيم جعل الإنكار عليه بطريقة لا تُفضي إلى مفسدة أكبر من مفسدة الوقوع في المُنكر، فجاء الشرعُ بأن الإنكار عليه لا يكون إلا بالضوابط التالية:

١- **لا ينكر عليه بالسلاح:** تكلَّم العلامة ابن النَّحَّاس رَحِمَهُ اللَّهُ عن إنكار المنكر بكلام متين قَويم، وكان ممَّا تكلم عنه إذا وقع المنكر من السلطان، فقال: «ليس لأحدٍ منعه بالقهر باليد، ولا أن يشهر عليه سلاحًا، أو يجمع عليه أعوانًا؛ لأن في ذلك تحريكًا للفتن، وتَهييجًا للشرِّ، وإذهابًا لهيبة السلطان من قلوب الرعية، وربَّما أدى ذلك إلى تَجرِّيهم على الخروج عليه، وتخريب البلاد، وغير ذلك مما لا يخفى» [تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السَّالكين من أفعال الهالكين].

وهذا الكلام موافقٌ تمامًا للمقاصد الشرعية التي رَعَاهَا الشارع في أحكامه، كما أن النصوص السلفية نطقت به، وأكَّدته، وجاء عمل السلف عليه؛ من ذلك: قولُ أبي البختري: أنه قيلَ لحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لَحَسَنٌ، ولكن ليس من السنة أن ترفع السِّلاح على إمامك» [أخرجه البيهقي في «الجامع لشُعب الإيمان»]. **ومنه:** قول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عندما خرجَ خارجيٌّ بالبصرة: «المسكين رأى منكرًا فأنكره، فوقع فيما هو أنكر منه» [أخرجه الآجري في «الشريعة»].

٢- أن تكون مناصحته سرًّا: يقول العلامة ابن النَّحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «ويَختار الكلام مع السلطان في الخُلوة على الكلام معه على رءوس الأشهاد؛ بل يودُّ لو كَلَّمه سِرًّا، ونصحه من غير ثالث لهما» [تنبيه الغافلين].

وقال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لِمَن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه، ولا يُظهر الشناعة عليه على رءوس الأشهاد» [السيل الجرار]. وهذا الذي قَرَّراه رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ هو ما دلت عليه الأحاديث النبوية، والآثار السَّلفيَّة.

من ذلك: حديث عياض بن غَنْم، وهشام بن حكيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ، فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ، فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ**» [أخرجه الإمام أحمد في «المسند»]. قال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: (**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ**). أَيْ: نصيحة السلطان ينبغي أن تكون في السرِّ لا بين الخَلْقِ» [حاشيته على مسند الإمام أحمد].

ومن ذلك أيضًا: أن سعيد بن جُمهان جاء إلى عبد الله بن أبي أوفَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال سعيد: إنَّ السلطان يظلم الناس، ويفعل بِهم، فأخذ عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بيده، فغمزه غمزةً شديدة، ثُمَّ قال: «ويحك يا بن جُمهان، عليك بالسَّوَاد الأعظم، عليك بالسَّوَاد الأعظم، إن كان السلطان يسمع منك فَأْتِهِ في بيته، فأخبره بما تَعْلَم، فإن قَبِل منك، وإلا فدَعْهُ، فإنك لستَ بأعلم منه» [أخرجه الإمام أحْمَد في «المُسند»].

ومنه: أثر أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قيل له: ألا تدخل على عثمان لتكلِّمه؟ فقال: «أترونَ أنِّي لا أُكلمه إلا أُسمعكم؟ والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمرًا لا أحبُّ أن أكون أوَّل من فتحه» [أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، واللفظ لمسلم].

قال العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «يعني: المُجاهرة بالإنكار على الأمراء في المَلأ؛ لأن في الإنكار جهارًا ما يُخشى عاقبته؛ كما اتفق في الإنكار على عثمان جهارًا إذ نشأ عنه

قتله!» [مختصر صحيح مسلم][1].

---

(١) **الإنكار العلني خروج على ولي الأمر باللسان، وهو بذرة الخروج بالسنان؛** «فَالْبِدَعُ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا شِبْرًا، ثُمَّ تَكْثُرُ فِي الأَتبَاعِ حَتَّى تَصِيرَ أَذْرُعًا وَأَمْيَالًا وَفَرَاسِخ» [ابن تيمية].

«فإنَّ الخوارج فرقة من الاثنتين والسبعين فرقة الهالكة المُتوعَّدة بالنار، نشأت كفردٍ في عهد النبي ﷺ؛ فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ وَهو يَقْسِمُ قَسْمًا، أَتاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ، وَهو رَجُلٌ مِن بَنِي تَمِيمٍ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، اعْدِلْ!! قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: (وَيْلَكَ وَمَن يَعْدِلُ إنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إنْ لَمْ أَعْدِلْ). فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رَسولَ اللهِ، ائْذَنْ لي فيه أَضْرِبْ عُنُقَهُ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: (دَعْهُ، فإنَّ له أَصْحابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مع صَلاتِهِمْ، وَصِيامَهُ مع صِيامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإسْلامِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِهِ فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى رِصافِهِ فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى نَضِيِّهِ فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ -وَهو القِدْحُ- ثُمَّ يُنْظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إحْدى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَتَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ).

قالَ أَبُو سَعِيدٍ: فأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هذا مِن رَسولِ اللهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاتَلَهُمْ وَأَنا معهُ، فأمَرَ بذلكَ الرَّجُلِ فالْتُمِسَ، فَوُجِدَ، فَأُتِيَ به، حتَّى نَظَرْتُ إلَيْهِ، على نَعْتِ رَسولِ اللهِ ﷺ الذي نَعَتَ. [الحديث في الصحيحين وغيرهما واللفظ لمسلم (١٠٦٤)].

فبكلمة (اعدلْ يا محمد) وما تتضمنه من طعن واتهام خرج هذا الرجل على النبي ﷺ ولم يخرج بالسيف؛ ومع هذا فهو إمام الخوارج! ونشأت الخوارج كتجمع في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين اجتمع نفر منهم على إشاعة الفتن في عهده حتى انتهت بالخروج عليه بالسلاح وقتله شهيداً مظلوما، ثم نشأت كفرقةٍ لها أصولها واستدلالاتها ومحاربيها ومكانها في عهد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث خرجوا من عسكره بعد أن رفضوا تحكيم الحَكَمَين، وحكموا بكفر الصحابة الذين رضوا بالتحكيم، ثم انعزلوا وقاموا بقتل عبد الله بن خباب وزوجته، ثم قاتلوا الصحابة في معركة النهروان! فكان الخروج ابتداءً خروجا بالكلمة وانتهاءً خروجا بالسلاح!

ولا يتصور مسلم أنَّ الخوارج فرقة اندثرت وانتهت بل هي فرقة قائمة إلى أن يخرج الدجال، كلما خرج قوم منهم في عصر من العصور أو فترة من الفترات تصدى لهم ولاة الأمور (الأمراء والعلماء) بالحجة والبيان -كما فعل ابن عباس مع الخوارج الأوائل-، أو بالسيف والسنان -كما فعل أمير المؤمنين علي في معركة النهروان- حتى تنقطع دعوتهم الضالة، وهذا مصداق لحديث النبي ﷺ: (ينشأُ نشءٌ يقرؤُونَ القرآنَ لا يجاوزُ تراقيَهم؛ كُلَّما خرجَ قرنٌ قُطِعَ) -قال ابنُ عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (كُلَّما خرجَ قرنٌ قُطِعَ) أكثرَ من عشرينَ مَرَّة- (حتَّى يخرجَ في عِراضِهِمُ الدَّجَّالُ) [صحيح سنن ابن ماجه (١٤٤)].

وقد أَحْكَمَ منهج السلف الصالح سد هذا الباب، وتتابعت كلمات العلماء في التحذير من الإنكار العلني على الحكام، وأن الخروج على الحُكَّام قد يكون بالسيف وقد يكون بالكلام، وكيفما كان فهو منهيٌّ عنه ومخالفٌ لمنهج السلف الصالح:

قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «وَأَمَّا أَهْلُ العِلْمِ وَالدِّينِ وَالفَضْلِ فَلَا يُرَخِّصُونَ لِأَحَدٍ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ وُلَاةِ الأُمُورِ وَغِشِّهِمْ وَالخُرُوجِ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِ مِنْ الوُجُوهِ؛ كَمَا قَدْ عُرِفَ مِنْ عَادَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالدِّينِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ سِيرَةِ غَيْرِهِمْ» [المجموع (١٢/ ٣٥)].

وقال العلامة محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «بل العجب أنه وُجِّه الطعن إلى الرسول ﷺ، وقيل له: (اعدل هذه قسمة ما أُريدَ بها وجه الله)، وهذا أكبرُ دليل على: أنَّ الخروج على الإمام يكون بالسيف، ويكون بالقول والكلام، يعني: هذا ما أخذَ السيفَ على الرسول ﷺ، لكنه أنكر عليه، وما يُوجد في بعض كتب أهل السنة من أنَّ الخروج على الإمام: هو الخروج بالسيف، فمرادهم بذلك هو (الخروج النهائي الأكبر)، كما ذكر النبي ﷺ: الزنا يكون بالعين، ويكون بالأُذُن، ويكون باليد، ويكون بالرِّجل، لكن الزنا الأعظم: هو زنا الحقيقة، هو زنا الفرج، ولهذا قال: (الفرج يُصدِّقه أو يُكذِّبه)، فهذه العبارة من بعض العلماء: هذا مرادهم.

ونحن نعلم علم اليقين بمقتضى طبيعة الحال: أنه لا يمكن خروج بالسيف إلا وقد سبقه خروج باللسان والقول، الناس لا يمكن أن يأخذوا سيوفهم يحاربون الإمام بدون شيء يثيرهم، لابد أن يكون هناك شيء يثيرهم، وهو الكلام، فيكون الخروج على الأئمة بالكلام خروجا حقيقة؛ دلَّت عليه السنة، ودلَّ عليه الواقع، أما السنة فعرفتموها [يقصد حديث ذي الخويصرة الذي قال: اعدل يا محمد!]، وأما الواقع: فإنا نعلم علم اليقين: أنَّ الخروج بالسيف فرعٌ عن الخروج باللسان والقول، لأنَّ الناس لم يخرجوا على الإمام بمجرد "يلَّه امشِ خذ السيف"، لابد أن يكون توطئة وتمهيد: قدح في الأئمة، وستر لمحاسنهم، ثم تمتلئ القلوب غيظًا وحقدًا، وحينئذٍ يحصل البلاء!» [التعليق على رسالة رفع الأساطين].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «ولما سُئل ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كيف تنكر على عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الإتمام، وتُصلي معه أربعًا؟! قال: (إنَّ الخِلاف شر)، فانظر إلى فقه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في موافقة الإمام على ما فعل مع إنكارهم عليه؛ لأنَّ الخلاف مع الأئمة شرٌّ عظيم، يجعل في قلوب الناس كراهة الأئمة، وعدم انقيادهم لأوامرهم، وبالتالي ومع التراجع في الكلام ونقل الكلام بعضهم إلى بعض يحصل الخروج الكامل؛ لأنَّ الخروج على الأئمة أوله كلام، وآخره سهام.

ولا مانع أن نقول: إنَّ الكلام الذي يؤدي إلى إيغار الصدور على الأئمة، لا مانع أن نقول: إنه خارجي، ولهذا قال العلماء: إنَّ الذي قال للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (اعدل) إنه أوَّل الخوارج. ثم إنَّ مقدمات الشيء قد تُوصف بوصف الشيء، فالنظر إلى المرأة والكلام معها يُسمى (زنا)، لكنه ليس الزنا الذي قال فيه النبي ﷺ: (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)، لكنه لما كان سببًا مُوصلا إلى ذلك استحق أن يُوصف به.

فالناس مثلاً إذا اختلفوا على الأئمة وقالوا: هذا عمل منكر ولا نوافقهم وسنصلي وحدنا، فهذا لا شك أنه أول الخروج على الأئمة بالكلام، وهذه مسألة قلَّ من يتفطن لها من طلبة العلم، والواقع شاهد بهذا؛ فإن هذه المعارك التي نسمعها عن يميننا أو شمالنا، أصلها إيش هو؟ كلام، أصلها كلام، ثم تطاير هذا الكلام وزيد فيه ونقص حتى أدى إلى المقابلة بالسلاح» [التعليق على صحيح البخاري (٤/ ٢٢٧)].

وسُئِلَ العلامة ربيع بن هادي بن عمير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: هل يكون الخروج على ولاة الأمر بالكلام؟ أو لابدَّ من الخروج عليهم بالسيف؟ فقال: «بدايةُ الخروج بالكلام؛ الكلام في تهييج الناس وتثويرهم وشحنهم وإلقاء البغضاء بين الناس؛ هذه فتنة قد تكون أشد من السيف، ما يكون السيف إلا تعبيراً عمَّا في النفوس» [الموقع الرسمي].

وسُئل العلامة صالح بن فوزان الفوزان: هل الخروج على الأئمة يكون بالسيف فقط، أم يدخل في ذلك الطعن فيهم، وتحريض الناس على منابذتهم والتظاهر ضدهم؟ فقال: «ذكرنا هذا لكم، قلنا: الخروج على الأئمة يكون بالخروج عليهم بالسيف؛ وهذا أشد الخروج، ويكون بالكلام: بسبِّهم وشتمهم والكلام فيهم في المجالس وعلى المنابر؛ هذا يهيِّج الناس ويحثهم على الخروج على ولي الأمر، ويُنَقِّص قدر الولاة عندهم، هذا خروج، فالكلام خروج، نعم» [الموقع الرسمي].

والنصيحة لولاة الأمر -أو الإنكار عليهم- تكون سرًّا لا علنا؛

سُئل العلامة عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: هل من منهج السلف نقد الولاة من فوق المنابر؟ وما منهج السلف في نصح الولاة؟

فقال: «ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذِكر ذلك على المنابر؛ لأنَّ ذلك يُفضي إلى الفوضى وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع، ولكنَّ الطريقة المتبعة عند السلف: النصيحة فيما بينهم وبين السلطان، والكتابة إليه، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يُوجَّه إلى الخير» [المجموع (٨/ ٢١١)].

وسُئل رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أيضا: الإنكار على أُولي الأمر على رؤوس المنابر؟ فقال: «ما يصلح، لكن بالمكاتبة، بالنصيحة، أمَّا على رؤوس المنابر فلا يصلح؛ لأنَّ هذا يُسبب فتنةً» [الموقع الرسمي].

وقال العلامة محمد بن عبد الله السبيل رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «كما ينبغي على من أراد مناصحة ولاة الأمور وموعظتهم، وتذكيرهم بالحق عند مخالفته وبيانه لهم، أن يكون سرا فيما بينه وبينهم، عملا بالتوجيه النبوي الشريف، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن أبي عاصم في السنة: (من أراد أن ينصح السلطان بأمر؛ فلا يبذل له علانية، ولكن ليأخذ بيده، فيخلو به، فإن قبل منه ذلك، وإلا كان قد أدى الذي عليه). وقد سار وفق هذا التوجيه النبوي سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أئمة الإسلام المشهورين...

أما سلوك غير ذلك من الأساليب المنكرة، والمناهج المحدثة، كالجهر بالإنكار على الولاة أمام الملأ، وفي المحافل العامة، والتشهير بهم، والتنقص لأقدارهم، وتغليظ القول في الإنكار عليهم، دون مراعاة لمكانتهم، وإجلال لأقدارهم؛ فإنه مع كونه خلاف التوجيه الإلهي، والهدْي النبوي، والمنهج السوي الذي سار عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وأئمة الإسلام المخلصين؛ فإن له آثارا سيئة، ومفاسد عظيمة على الأمة، إذ يكون سببا في إيغار صدور الرعية على ولاتهم، وحصول العداوات والبغضاء فيما بينهم، وربما ثار بسببه فتن، ينتج عنها مفاسد كثيرة، وأضرار عظيمة على العباد والبلاد» [الأدلة الشرعية في بيان حق الراعي والرعية].

وقال العلامة أحمد بن يحيى النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فالمنازعة لولاة الأمر غير جائزة، وكذلك الإثارة عليهم وتحريض العامة على الخروج عليهم، كل هذا لا يجوز، ومن ذلك الإنكار عليهم على المنابر، فهذا مما يوغر صدور الولاة، ويوقع الوحشة بين الولاة والعامة، ويجعلهم في حالة لا يثق بعضهم ببعض» [إرشاد الساري ص١٠١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «الحقيقة أن الإنكار العلني على الولاة أمر مُحدث، ولم يكن من أصول السنة، فالنبي ﷺ يقول: (ألا من ولي عليه وال، فرآه يأتي شيئا من معصية الله، فليكره ما يأتي، ولا ينزعن يدا من طاعة)، هكذا يقول نبي الهدى ﷺ، إذن فلا يجوز الإنكار العلني على المنابر؛ لأن الأضرار التي تترتب عليه أكثر من فائدته، والنبي ﷺ قد أمر بالنصيحة لعامة المسلمين ولخاصتهم، فقال كما في حديث تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم).

لكن النصيحة لأئمة المسلمين بأي صورة تكون؟ ينبغي أن تكون بصفة سرية؛ وقد قال أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما قيل له: ألا تكلم عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؟ فقال: (أتظنون أني لا أكلمه إلا أن أُسمعكم!) يعني: إني أُكلمه سرًا. إذن الأصل هكذا في السنة، ومن يقف على المنبر ويقول: رسالة إلى الملك الفلاني، أو إلى الوزير الفلاني أو ما أشبه ذلك، فهو مخطئ، بل يجب عليه إن كان يرى شيئا من المنكر؛ يجب عليه أن يرسل نصيحة سرية، فإن قُبلت فليحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ذلك، وإن لم تُقبل فليعلم أن ذمته قد برئت، وليس عليه شيء بعد هذا» [أسئلة في المنهج، السؤال رقم ٥].

وقال العلامة محمد أمان بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «كيف ننصح لولاة أمورنا علماء وحكاما؟ هل من النصح لهم أن أجلس أمام هذه الأجهزة وأعدد عيوبهم وتقصيرهم وأُهيج السُّفهاء ضدهم، أنهم فعلوا، فعلوا، فعلوا؟ لا، هذا الأسلوب لا يليق حتى بالإنسان العادي، من تُحب له الخير من الناس العاديين، ليس من العقل والمنطق -وقبل أن نقول: ليس من الشرع- أن تُعلن بأخطائه، وتُعدد عيوبه بمكبر الصوت أمام الناس، ولكن تخلو به، وتهمس في أذنه، وتُخبره بما وقع فيه وتنصحه، فما بال ولاة الأمور الذين أوجب الله علينا طاعتهم في كتابه حيث يقول الرب سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾» [مقطع بعنوان: المنهج الرباني في نصيحة ولاة الأمور].

وقال العلامة علي بن محمد بن ناصر الفقيهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «أما كيفية تقديم النصيحة لهم فننقل ما قاله العلامة عبدالرحمن بن سعدي ... قال: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين، وهم ولاتهم من السلطان الأعظم إلى الأمير إلى القاضي إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة، فهؤلاء لما كانت مهماتهم وواجباتهم أعظم من غيرهم وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم والاعتراف بولايتهم، ووجوب طاعتهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم، وحث الرعية على طاعتهم ولزوم أمرهم الذي لا يخالف أمر الله ورسوله، وبذل ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم وتوضيح ما خفي عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كل أحد بحسب حاله، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق، فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم). ثم قال: (واجتناب سبهم والقدح فيهم وإشاعة مثالبهم، فإن في ذلك شرا وضررا وفسادا كبيرا، فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك). ثم قال: (وعلى من رأى منهم ما لا يحل أن ينبههم سرا لا علنا، بلطف وعبارة تليق بالمقام، ويحصل بها المقصود، فإن هذا مطلوب في حق كل أحد، وبالأخص ولاة الأمور، فإن في تنبيههم على هذا الوجه فيه خير كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص). ثم قال: (واحذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس، فتقول لهم: إني نصحتهم وقلت وقلت. فإن هذا عنوان الرياء، وعلامة ضعف الإخلاص، وفيه أضرار أُخر معروفة).

هذا ما قاله الشيخ عبدالرحمن السعدي في نصيحة ولاة الأمور، السلطان الأعظم وولاته. وقد نصَّ على أن النصيحة تكون سرا لا علنا، ثم بلطف وعبارة تليق بالمقام» [البدعة؛ ضوابطها وأثرها السيئ في الأمة].

وقال العلامة عبيد بن عبدالله بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «فالواجب على الأمة من خواص وعوام مَقْت مَن يُسوِّغ المُظاهرات ويُحسِّن لها بالقول، الواجب عليهم أن يَلزموا من ولَّاه الله أمرهم، فإذا استدعى الأمر نصيحته -كان مِنهُ جوْر وظلم ظاهر مُدرَك بالدليل- كيف يُنصح؟ هذا قد فَصَل فيه من لا ينطق عن الهوى كما وصفه ربه -أعني محمدا ﷺ-، لقد صح عنه بمجموع الطرق: (من أراد أن ينصح لذي سلطان، فلا يبده علانية، وليخلو به، وليأخذ بيده، فإن قبلَها قبِلها، وإن ردها، فقد أدى ما عليه)، فهذا الحديث معاشر السامعين يتضمن من الفقه ماذا؟

أولا: السرية التامة في مناصحة ولي الأمر حتى عن أقرب الناس إليه.

ثانيا: براءة الذمة بالنصيحة على هذا الوجه، ولا يَلزم الناصح أن يقبل الحاكم نصيحته، برئت ذمته.

ثالثا: لو كان ثمة وجه آخر لبيَّنه رسول الله ﷺ، ومن القواعد المُقررة في الأصول: (لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة)» [التنبيهات بالكشف عن حقيقة المظاهرات].

وقال العلامة صالح بن محمد اللحيدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «ثم إن الانتقاد والتجريح لولي الأمر أو لبعض نُوابه: إذا كان التجريح بحق فليُرفع له، سِرًّا، كما كان الصحابة يفعلون، ولما قيل لأسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، قال: أتظنون أني لا أُكلم الخليفة؟ يعني بيَّن لهم أنه ليس كلما يكلم الخليفة عليه أن يخبر الناس أنه كلمه ونصحه وإلى آخره، المقصود حصول النفع العام، لا إشاعة ما يُكره علانية» [مقطع بعنوان: ندوات الإنكار العلني على الحاكم].

وقال العلامة زيد بن محمد بن هادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «الأصول الثابتة أن الإنكار على ولي الأمر يكون سرا، ويكون بلطف، وبغير مواجهة أمام الجماهير، ولا يُستدل باجتهاد من يجتهد فيكون معذورا وإن أخطأ» [مقطع بعنوان: ضوابط الإنكار على ولي الأمر].

وقال العلامة عبدالمحسن بن حمد العباد البدر: «ثُمَّ إنَّ النَّصيحة لولاة الأمور وغيرهم تكون سرًّا وبرفق ولين، ويدلُّ لذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن النَّبيِّ ﷺ قال: (إنَّ الرِّفق لا يكون في شيء إلا زَانَه، ولا ينزع من شيء إلا شَانَه) رواه مسلم (٢٥٩٤).

وفي صحيح البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)، واللفظ لمسلم، عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: قيل لأسامة: (ألا تدخل على عثمان فتكلِّمه؟ فقال: أتَرَوْن أنِّي لا أُكلِّمه إلا أُسمعكم؟ والله! لقد كلَّمتُه فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمرا لا أُحبُّ أن أكون أوَّل من فتحه) الحديث.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥١): (أي: كلَّمتُه فيما أشرتم إليه، لكن على سبيل المصلحة والأدب، في السِّر بغير أن يكون في كلامي ما يُثير فتنة أو نحوها).

وعن عياض بن غنم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: (من أراد أن ينصح السُّلطان بأمر فلا يُبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قَبِل منه فذاك، وإلا كان قد أدَّى الذي عليه له).

رواه أحمد (١٥٣٣٣) والحاكم (٣/ ٢٩٠) وابن أبي عاصم في السنة (١٠٩٦-١٠٩٨).

قال الألباني في تخريجه (٢/ ٥٢٣): (فالحديث صحيح بمجموع طرقه).

وإذا خَلا النُّصحُ مِن الرِّفق واللِّين وكان علانية؛ فإنَّهُ يضرُّ ولا ينفع، ومن المعلوم أنَّ أيَّ إنسان إذا كان عنده نقصٌ يُحبُّ أن يُنصح برفق ولين، وأن يكون ذلك سِرًّا، فعليه أن يُعامل النَّاس بمثل ما يحبُّ أن يعاملوه به.

ففي صحيح مسلم (١٨٤٤) في حديث طويل عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (فمن أحبَّ أن يُزحزح عن النَّار ويُدخَل الجنَّة؛ فلتأته منيَّتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأت إلى النَّاس الذي يحبُّ أن يُؤتى إليه)» [قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ص١٧٣].

وسئل العلامة صالح بن سعد السحيمي: ما هي الطرق الشرعية لنصح ولاة الأمر؟ فأجاب: «الطرق الشرعية لنصح ولاة الأمر بيَّنها الرسول ﷺ، فلا نحتاج فيها إلى بيان أحد، أولا: قول النبي ﷺ: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم)، ثم إنه ثبت عن حديث عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (من أراد أن ينصح لذي سلطان، فلا يبدها علانية، وليأخذ بيده، ولينصحه بينه وبينه، فإن استجاب، وإلا فقد أدى الذي عليه)» [شرح أعلام السنة المنشورة، الدرس (٣٢)].

وقال الشيخ محمد بن هادي بن علي: «الدندنة الجديدة على قضية الإنكار على الأئمة علنا، والإعلان بالنصيحة إذا لم يُقبل من الناصح، هذه مصيبة عظيمة، يُراد منها إثارة الفتن والفوضى وزعزعة الأمن ومنازعة السلطان، بل هي تجرئة لكل سفيه على مقام هذا السلطان! ونحن نتكلم فيه مرة أخرى غير مُبالين بما يُقال فينا، ليقولوا ما شاءوا؛ لأن هذا من الدين، والله لا عَلِم بنا حاكم ولا أمرنا به حاكم، ولا دعانا إليه عالم، ولكن دعانا إليه ربنا جَلَّ وَعَلَا، خصوصا وقد قام المُوجب مرة أخرى، فإذا أخطأ شخص وخالف السنة، لم يجز أن تُترك السنة الصحيحة لترك هذا الشخص -ولو كان عالما-، بل يقول النووي: لا يجوز ترك السنة إذا صحت لترك بعض الناس لها، بل لترك كل الناس! لو تركوها لا يجوز أن تُترك، هذا دين الله جَلَّ وَعَلَا ...

قالوا: الشيخ الفلاني أنكر على السلطان علنا! أقول لك: قال رسول الله! تقول لي: قال الشيخ فلان؟! أيُّهم أعظم: قال رسول الله، وتقولون: قال أبوبكر وعمر -المأمورين باتباعهم-، أو الشيخ فلان؟ عجبا لكم!...

وفي الدعوة إلى الذي ذكرنا، تجرئة للسفهاء على السلاطين المسلمين، وعلى حكام المسلمين، والحاكم المسلم إذا ذهبت هيبته وانتُزعت من صدور الناس، انْتَثَر نظم العِقد، وإذا انتثر نظم العِقد تفرَّق الناس واضطربت شؤون حياتهم الدينية والدنيوية، فنحن الآن نسمع: ذهبنا إلى الأمير، إلى الملك، ناصحنا، لكنه لم يقبل منا، طيِّب وإذا لم يقبل منك ما هو الواجب عليك؟ الواجب عليك أن تقول: الحمد لله، برئت ذمتي، وهو وشأنه، أمرهُ إلى الله، أما أن تذهب تُشنِّع عليه في المحافل، والمجامع، ومنابر الإعلام، فهذا والله أبطل الباطل، لأنه مخالف لكلام رسول الله ﷺ.

فالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قد أمر بقوله ﷺ: (من كانت عنده نصيحة لذي سلطان، فلا يُبده علانية، وليأخذ بيده، وليَخْلُ به، وليحدثه فيما بينه وبينه)، انظر إلى هذه الدرجات: (ليأخذ بيده) ملاطفة له وتقديم لأسباب القبول، كما تأخذ بيد المنصوح تتلطف إليه، لعله يقبل، فتقديم الأسباب الموجبة للقبول بين يدي النصيحة مطلوبة، (فليأخذ بيده، وليخلُ به) ما يحدِّثه أمام الناس، ثم قال بعد ذلك مؤكدا: (وليحدثه فيما بينه وبينه)، طيب، حصلت هذه الأمور، حدثتَهُ فيما بينك وبينه، النبي ﷺ لم يترك الأمر هَمَلا وإنما أَحْكَمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: (فإن قبل منه فذاك، وإلا كان أدى الذي عليه)، إن قَبِل: الحمدُ لله، بها ونِعْمَت، هذا هو المُراد للناصح والذي يُحبه، أن يَفتح الله على قلب هذا الحاكم فيأخذ ويَقبل الحق. ما قَبِل؟ بَرئت ذمتك؛ (وإلا كان أدى الذي عليه) انتهى الحديث.

هَل قال لهُ: اخرج في القناة الفلانية أَذِعْها؟! هل قال له: اطلع على المنبر أعلن ذلك؟! ويؤكد هذا فهمُ أصحاب رسول الله ﷺ؛ جاء في البخاري أنه قال لأسامة بن زيد -كما في حديث ابن الخِيار-: (ألا تأتي هذا الرجل -يعني عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فتكلمَهُ؟ أو تنصح لهُ؟ قال: أترون أني لا أكلمه إلا إذا حدثتكم؟! والله لقد كلمته فيما بيني وبينه، ولكني لا أفتتح باب شر) أو كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا هو الواجب على الناس في هذه المسألة» [محاضرة بعنوان: ثوابت عادوا إلى التشكيك فيها].

وقال الشيخ محمد بن غيث الغيث: «النصح السني الذي جاء به رسولنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكون في ستر تام، وشفقة، ورحمة، تشفق على الإمام الذي وقع في خطأ، كُلنا خَطَّاء، وتشفق على الناس بأن لا تجرهم إلى بلاء، ولا تثير فتنة، يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (من أراد أن ينصح لذي سلطان، فلا يبده علانية)، لا فضائيات، ولا قنوات، ولا إذاعات، ولا منابر، ولا صُحف، ولا مَجلات، ولا غير ذلك.

(من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية، ولكن ليأخذ بيده، فيخلو به) يأخذ بيده إشارة إلى الرِّفق، يخلو به إشارة إلى الكِتمان والسِّتر.

قال: (فإن قبل منه فذاك، وإلا قد أدى الذي عليه) يعني: عليك أن تنصح، السُّلطان قبل منك فذاك، طيب لم يقبل منك؟ (فقد أدى الذي عليه)، لا تقل: نصحت السلطان فلم يتنصح، ما في إلا الخروج عليه، هذا باطل.

(فقد أدى الذي عليه) انتهت مُهمتك هُنا، ولا تزد على ذلك، ولا تُشوش، ولا تثير الناس، ولا تَذكر ما عند السلطان من معاصي، ولا تنزع يدا من طاعة» [فقه الجماعة والإمامة (١)].

وقال الشيخ عزيز بن فرحان العنزي: «لا يجوز الإنكار على ولاة الأمور من على أعواد المنابر، أو في أعمدة الصحف، أو في وسائل التواصل الآن المنتشرة بين أيدي الناس، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (من رأى من أميره ما يكره، فلا يبده علانية، وليأخذ بيده، ولينصحه سرا) أو كما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم، لأن النصيحة في العلن تُوهن وتُضعف قوة ولي الأمر، وتُجرِّئ الدهماء والسَّوَقة والغوغاء، تجرؤهم على ولاة الأمر، والمطلوب من جمهور الناس أن يقووا موقف ولي الأمر، وأن يجمعوا القلوب عليه، هذا منهج أهل السنة والجماعة، خالف في ذلك الخوارج، كما جاءت النصوص بذلك موضحة كيف يتعامل الخوارج مع ولاة الأمر.

وأيضا السوابق التاريخية تُفسر لنا ما حصل من فتن ومن ابتلاءات، ولذلك: (من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية)، وإنما يذهب وينصحه سِرًّا، إن قَبِل فالحمد لله، وإن لم يقبل فقد أديت الذي عليك، وإن لم تستطع الوصول إليه فقد عذرك الله عَزَّوَجَلَّ، يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، ومن المُمارسات الموجودة حاليا ما عليه كثير من هؤلاء الناس عبر وسائل التواصل؛ من الطعن والتشهير والثلب على ولاة الأمور، هذا لا شك بأنه ليس من منهج أهل السنة والجماعة.

كان الصحابة يُنكرون على من يُنكر على ولاة الأمر عَلَنا، ومَن لديه القدرة يذهب عنده، وينصحه بأدب، هذا فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وبَطش بِبني إسرائيل، وسفك الدماء، وسحق بني إسرائيل، قتَّل أطفالهم واستحيا نسائهم، لمَّا بعث الله موسى وهارون إليه، ماذا قال؟ قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ وهو فرعون!» [مقطع بعنوان: كيف تكون النصيحة لولي الأمر؟].

وقال الشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد البدر: «النصيحة لولي الأمر، إن لم تكن على ضَوء قاعدة الشريعة وهَدْي النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وما جاء عنه في هذا الباب؛ فإنها تضر أكثر مما تنفع، وهذا معروف واقعًا وتجربةً للناس، ومنهم من جرب هذا السبيل وأعلن عدم فائدته، وأن الفائدة إنما تكون في هدي النبي ﷺ، وجاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أحاديث كثيرة تتعلق بالتعامل مع ولي الأمر.

بل إن الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه الصحيح عقَد كتابا في الإمارة خاصة، وضمَّنه أحاديث كثيرة جدا. وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَقْرن حق ولي الأمر بعبادات الإسلام الكبار، مثل ما جاء عنه في حَجة الوداع، قال: (اتقوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة مالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم)، قَرَن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طاعة ولي الأمر مع هذه العبادات العِظام، وجاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة جدا.

وبسبب غلبة الأهواء فإن بعض الناس إذا قُرئت عليه الأحاديث الواردة في الصلاة، أقْبل قلبهُ عليها، وإذا قُرئت عليه الأحاديث المتعلقة بالصيام أقْبَل قلبهُ عليها، وإذا قُرئت عليه الأحاديث الصحيحة الثابتة المتعلقة بالتعامل مع ولي الأمر: نَفَر!

والسبب في ذلك غلبة الأهواء، وإلا كيف يليق بمسلم أن ينفر من أحاديث الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ! فالذي أمَر بالصلاة وأمَر بالصيام هو الذي أمَر -صلوات الله وسلامه عليه- بطاعة ولي الأمر! ولهذا بعض الناس ينفر، وإذا وجد أحدا يقرأ الأحاديث المتعلقة بولي الأمر: غضب، وكَرِه ذلك، ولم يُطق سَماع ذلك، والسبب غلبة الأهواء.

فالواجب على المسلم فيما يتعلق بالإنكار على ولي الأمر: أن يقرأ الأحاديث الواردة في السُّنة في طريقة التعامل مع ولي الأمر، يقرأها جيدا، وفي ضوء تلك الأحاديث ينطلق، فينطلق من السنة لا من الهَوى، ومَن أَمَرَ السُّنة على نفسه نطق بالحكمة!

فإذا قرأ الأحاديث، وفهمها، وعرف دلالاتها، وضبط هذا الأمر، ونصح لولي الأمر في ضوء هذه الأحاديث؛ آتت نصيحته أُكلها، وإن لم يفعل ذلك -نعم قد يُقال عنه بطل، وقد يقال عنه جريء، وقد يقال كذا- لكن هذا لا يُقدِّم ولا يُفيد.

وإنما الذي يُفيد: الإخلاص لله، والاتباع لرسول الله ﷺ، وهو ما ركزت عليه في بدء الحديث، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة ينبغي أن تُقرأ وأن يُعمل بمجموعها، وبما دلَّت عليه، أما أن يأخذ الإنسان حديثا فيُعمِلُه في غير بابه، أو يفهم منه غير مُراده، ويُعرض عن أحاديث صريحة واضحة، مثل قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (من كانت له حاجة عند ذي سلطان، فلا يبده علانية)، فلا يبده علانية!

قال: لا يُبده علانية!

واضح!

وقوله -ما ذكره السائل- (كلمة حق عند سلطان)، ما قال على المنبر! قال عند السلطان!

فكيف تُفهم الأحاديث؟!! يُفهم الحديث على غير بابه ويُعرض عن أحاديث في هذا الباب صحيحة ثابتة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه؟!!

فالإنسان تَسَعُهُ السنة، ويَسَعه ما وَسِعَ السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فإما أن يقرأ السنة ويدعو بعلم، أو يسكت بحلم، لا أن يدخل مداخل في الإنكار، وتكون تلك المداخل التي دخلها في الإنكار بعيدة عن الجَادَّة، قد يترتب عليها تحمُّله لأوزار وآثام في خاصة نفسه وفي مَن يقلدونه ويسلكون مسلكه في ذلك الطريق المُجانب للسُّنة» [مقطع بعنوان: حكم الإنكار العلني على ولي الأمر].

وسُئِلَ الشيخ محمد بن عمر بازمول عن قول مضمونه: أنه إذا ظهرت أمور منكرة من مسؤولين في الدولة سواء في الصحف أو غيرها فإن الواجب إنكار المنكر علانية كما كان ظهوره علانية؟

فقال: «هذا فيه نظر؛ لأن الصحابي راوي الحديث، أدرى بمرويه، وهو لم يفهم أن الإنكار يكون علانية إذا ظهر المنكر علانية! عن شُرَيْحُ بْنُ عُبَيْدٍ الْحَضْرَمِيُّ، وَغَيْرُهُ، قَالَ: جَلَدَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ صَاحِبَ دَارَا حِينَ فُتِحَتْ، فَأَغْلَظَ لَهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ الْقَوْلَ حَتَّى غَضِبَ عِيَاضٌ. ثُمَّ مَكَثَ لَيَالِيَ، فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ حَكِيمٍ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ هِشَامٌ لِعِيَاضٍ: أَلَمْ تَسْمَعِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا، أَشَدَّهُمْ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا لِلنَّاسِ)؟ فَقَالَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ: يَا هِشَامُ بْنَ حَكِيمٍ، قَدْ سَمِعْنَا مَا سَمِعْتَ، وَرَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ، فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ، فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ). وَإِنَّكَ يَا هِشَامُ لَأَنْتَ الْجَرِيءُ؛ إِذْ تَجْتَرِئُ عَلَى سُلْطَانِ اللهِ، فَهَلَّا خَشِيتَ أَنْ يَقْتُلَكَ السُّلْطَانُ، فَتَكُونَ قَتِيلَ سُلْطَانِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ... فهذا هشام أنكر منكراً ظاهراً علنا، ومع ذلك راوي الحديث علَّمه أن هذا خلاف السنة. وأفاد الحديث: الإسرار في نصيحة صاحب السلطان. وأنه لا يصح أن يُقال: إذا كان المنكر من ولي الأمر أو نائبه علانية فإنه ينكر عليه علانية! وليُعلم أن باب معاملة ولاة الأمر، ليس هو باب معاملة أهل البدع والأهواء في الرد عليهم. والله الموفق» [الموقع الرسمي].

وعدم جواز الإنكار العلني لا يقتصر على ولي الأمر الذي يكون المتكلم من ضمن رعاياه، بل يشمل كل سلطان مسلم؛

سُئل الشيخ محمد بن هادي بن علي: أحسن الله إليكم، نرجو من فضيلتكم توجيه نصيحة لبعض طلاب العلم وبعض الشباب الذين انخرطوا في الكلام على ولاة أمور بعض دول الخليج، بحُجَّة أن هؤلاء الولاة ليسوا ولاة أمورهم، وأن هذه الدولة ليست دولتهم، وقد انتشر هذا المنهج للأسف الشديد انتشارا كبيرا في مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها، مع كثرة دخول الشباب السلفي في السياسة وكثرة الخوض فيها؟

فأجاب بقوله: «الحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإن النبي ﷺ قد أجاب عن هذا السؤال، ولم يدَعه لنا، ولم يَدَع فيه مجالا للاجتهاد، وذلك في الحديث الذي صحَّ عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو مشهور عند كثير من طلبة العلم ولله الحمد، وهو قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (من كانت عنده نصيحة لذي سلطان، فلا يبده علانيه، وليأخذ بيده، وليخلُ به، وليحدثه فيما بينه وبينه، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان أدي الذي عليه)، فقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (لذي سلطان) عام ، فإن (ذا) الذي جاء ذكره في الحديث بالجر، (لذي سلطان)، (ذو) هنا بمعنى صَاحب، (مِنْ ذاكَ ذُو: إِنْ صُحْبَةً أَبَانَا) يقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الخلاصة)، فـ(ذو) بمعنى: صَاحب، من كانت عنده نصيحة لِصَاحب سُلطان، فلم يقيده النبي ﷺ بسلطانك أنت، وإنما قيَّده بالسلطان الذي تنصح لهُ، أو تريد النصيحة لهُ؛ (فلا تُبده علانيه)، فهذا أمر واضح من النبي ﷺ، فيجب على العبد أن يمتثله، ومن تركه فهو صاحب هوى!

والفهم -هذا الذي ذكرتموه- هذا فهم غير صحيح، فإن النبي ﷺ يقول: (من كانت عنده نصيحة لذي سلطان) أي: لصاحب سلطان، فأي سلطان من سلاطين المسلمين، فإن الواجب له على كل مسلم إذا أراد أن ينصح له؛ ألا يبده علانيه، لما في ذلك من الشر ولما في ذلك من الضرر، ولأن المقصود من النصيحة إيصال الخير إلى الغير، واستجلابه من الغير إلى الغير، إيصال النصيحة منك إلى السلطان، واستجلاب الخير منه إلى رعيته وشعبه وعموم المسلمين الذين هم تحته، وهذه الطريقة

[التي في السؤال] تنافي هذا المقصود، فإذا نصحته على هذه الطريقة وتكلمت به وشهرت به، فإنه لا يقبل منك، فحينئذ تكون ممن قيل فيه: (رامَ نَفْعًا فَضَرَّ مِن غَيرِ قَصْدٍ، وَمِنَ البِرِّ ما يَكونُ عُقوقا).

وأنا أوجه سؤالا لمن يقول هذه المقالة، وهو ليس بسلطان، هل ترضى إذا كنت في السعودية أن يسبك رجل في الكويت؟ لا ترضى! إذا كان كذلك وأنت لست بسلطان، فاعتبر هذا بنفسك! فدعوى الإقليمية والقُطرية هذه غير صحيحة، ولا تُخصص بها أحاديث النبي ﷺ، فإن كلام رسول الله ﷺ لا يُخصَّص إلا بكلامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هذا الفهم غير صحيح، بل هو فهمٌ سقيم، والواجب على من يسمع هذه الكلمة أن يتفهَّم في كلام الله وكلام رسول الله ﷺ على الوجه الصحيح.

وأنا ضربت له مثالا هذا القائل: إذا كان مثلا في السعودية فهل يرضى أن يسبه إنسان في الكويت؟ يقول هذا ما هُوَ من الكويت ما هو بكويتي، هذا غير صحيح، ما يقبله، لا يمكن أن يعذره بهذا، سيرد عليه غدا في النت مباشرة، أو يرد عليه في الصحف، أو يقوم يذهب إلى بلده يرفع عليه دعوى، دعوى بأنه يسبني أو يشهر بي، هل يقبل منه هذا الاعتذار؟ ما يقبل، فالواجب على العبد أن يأتي الناس ما يحب أن يؤتوه لهُ، هذا الذي أوصي به نفسي وإخواني جميعا، وأما هذه المقالة التي ذكرتموها فهي مقالة خاطئة تدل على جهلٍ وعدم فهم، أو على الهوى، نسأل الله العافية والسلامة» [مقطع بعنوان: حكم الكلام في ولاة أمر الدول الأخرى].

وسُئل الشيخ سليمان بن سليم الله الرحيلي: أحسن اللهُ إليكم، يقول السَّائلُ: هل يجوز للمُسلِمِ أنْ يتكلَّم على وليِّ أمرٍ ليس تحت وِلايتِه، ويُبيِّنُ أخطاءه وظُلمَه؟

فأجاب: «والله لا أدري لِمَ شُغِفَ النَّاس بمِثلِ هذا؟! الأصل الشَّرعي أنَّ مَن ولِيَ أمراً مِن أُمور المُسلِمين الولايةَ العامة يجبُ أنْ يُكفَّ اللِّسان عنه، هذا الأصل. فمَن كان وليًّا لأمرٍ بلدٍ مِن بلاد المُسلِمين فإنَّه يجبُ كفُّ اللِّسان عنه. وهذا القول الَّذي أصبح يُدندنُ به بعض النَّاس! ولأكُنْ صريحا وواضحا، بعد أنْ تولَّى الإخوان في مصر! مع أنَّه مِن قبل ما كان أحدٌ يقول هذا! وفيه حُكَّام في البُلدان بعضهم سيِّئٌ جداً، لكن كان ينبغي كفُّ الألسنة عن الحُكَّام لِما في ذلك مِن الفساد. ثُمَّ أصبح بعضُ النَّاس يُدندن على قضيَّة أنَّه إذا لم يكن وليّ أمر في بلادي! طيِّب، هذا يفتح الذَّريعة للطَّعنِ في ولاة الأمرِ. أنا في الكويت أُريد أنْ أطعن في وُلاة أمري، أطلبُ مِن ناسٍ في مصر أنْ يطعنوا في وليِّ الأمر، وأنا في السُّعوديَّة أُريد أنْ أطعن في وُلاة أمري، أطلبُ مِن ناسٍ في الكويت أنْ يطعنوا في ولي الأمر، وأقول: هؤلاء ما يحرُمُ عليهم أنْ يطعنوا في وليِّ الأمر!!

فهو ذريعة إلى ما حرَّم الله، ومِن جهة أُخرى هو ذريعة إلى نشرِ الضَّغائنِ والحقد بين المُسلِمين. فإذا تناول أهلُ الكويت وليَّ الأمر في الإمارات، وتناول أهلُ الإمارات وليَّ الأمر في السُّعوديَّة؛ سيتولَّد مِن هذا حقدٌ بين الشُّعوب، ويُصبحون يتبادلون السَّبَّ والشَّتمَ، ثُمَّ ينتقل الأمر إلى سبِّ الشُّعوب بعضها لبعضٍ؛ وفي هذا فسادٌ عظيم.

ولذلك نحن نقول يجبُ علينا أنْ نتمسَّك بالأصلِ الشَّرعي، وهو أنَّ مَن ولِيَ أمرَ بلدٍ مِن بُلدان المُسلِمين ينبغي علينا أنْ نكُفَّ عنه الألسِنة، ومَن كان عنده نصيحة فينبغي أنْ يُوصِلها بالأصل الشَّرعي. طبعا هُناك فرق بين الكلام على وليِّ الأمر والكلام عن جماعة، مثلاً كوْن الإنسان يتكلَّم عن جماعة الإخوان المُسلِمين، ويُبيِّن أخطاء هذه الجماعة ومُخالَفاتِها الكثيرة للأُصول الشَّرعيَّة؛ هذا لا يُمنعُ مِنه، لكن أنْ يُؤتى بوليِّ الأمر في بلدٍ مِن البُلدان، ويُجعل يُتحدَّثُ فيه؛ لأنَّا لم نرض عن منهجه أو نحو ذلك، لا شكَّ أنَّ هذا مُخالِفٌ للأُصول الشَّرعيَّة، واللهُ أعلم» [مقطع بعنوان: حكم الكلام في حاكم غير حاكم بلدك].

الفصل الرابع: أداء العبادات مع الأئمة

الناظر في كتب السَّلَف العقائدية يَرَى إجماعهم على أن العبادات تُؤدَّى مع الولاة، لا يَختلف اثنان منهم على ذلك، وقد حكى هذا الإجماع بعض الأئمة الأكابر.

فمن ذلك: قول الإمام حربُ بن إسماعيل الكرماني (ت ٢٨٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «عقيدته» المشهورة: «هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بِها، المُقتدى بهم فيها، من لَدُن أصحاب رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركتُ مَنْ أدركتُ من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها؛ فمن خالف شيئًا من هذه المَذَاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مُخالف مبتدعٌ خارجٌ عن الْجَمَاعَة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق. **قال:** وهو مذهب أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم بن راهويه، وعبد الله بن مَخلد، وعبد الله بن الزبير الحُميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم مِمَّن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم، وكان من قولهم: والْجِهَادُ ماضٍ قائم مع الأئمَّة؛ بَرُّوا أو فَجَرُوا، لا يبطله جَوْر جائر، ولا عَدْل عادل، والجُمُعَة، والعِيدان، والحج مع السلطان، وإن لم يكونوا بَرَرةً عدولًا أتقياء، ودفع الصدقات، والخَراج، والأعشار، والفيء والغنائم إليهم، عدلوا فيها، أو جاروا».

وقال الإمام أبو مُحَمَّد عبد الرَّحْمَنِ بن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سألت أبي، وأبا زرعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن مذاهب أهل السنة، وما أدركنا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؟ **فقالا:** أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازًا، وعراقًا، ومصرًا، وشامًا، ويَمنًا، فكان من مذاهبهم أن...الجهاد ماضٍ منذ بعث الله نبيه ﷺ إلى قيام الساعة مع أولي الأمر من أئمة المُسلمين، لا يبطله شيء، والحج كذلك. ودفع الصَّدقات من السوائم إلى أولي الأمر من المسلمين» [عقيدة أبي حَاتِم وأبي زرعة].

وفي لفظ لهذه العقيدة عن أبي حاتم أنه قال: «هذا مذهبنا، واختيارنا، وما نعتقده، وندين الله به...**قال:** ونرى الصلاة، والحج، والجهاد مع الأئمة، ودفع صدقات المواشي إليهم».

وقال الإمام أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «بابٌ: في الصلاة خلف الولاة. **قال**: ومِن قول أهل السنة: أن صلاة الجمعة، والعيدين، وعرفة، مع كل أمير برٍّ أو فاجر؛ مِن السنة والحَقِّ. وأنَّ من صلى معهم ثم أعادها، فقد خرج من جماعة مَنْ مضى من صالح سلف هذه الأمة» [أصول السنة].

ثُمَّ عقد الإمام أبو عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا في دفع الزكاة إلى الولاة، ثُمَّ بابًا آخر فِي الحَجِّ والجهاد مع الولاة، وساق أدلة على كل ذلك. ولو أردتُ أن أنقُل لك -أيها الموفَّق- جميع ما أودعه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كُتُبَهُمْ فِي هذه المسألة، لاحتجت إلى مؤلَّف مُستقل؛ إذْ لا يخلو كتابٌ في المعتقد للسلف إلا وفيه تقرير للمسألة إما على وجه الاختصار، أو على وجه الإطالة.

ومن الأدلة على ذلك:

أولًا: الصلاة: قوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الجمعة: ٩]. فقد أمر الله تعالى بإتيان الجمعة أمرًا مُطلقًا، مع أنه تعالى يعلم أن القائمين بِهَا من الولاة منهم البرُّ والفاجر، فعُلِمَ أن الواجب القيام بِهَا مع كل أحدٍ منهم. ولهَذَا صلى ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا خلف الحجَّاج بن يوسف، وخلف نَجدَةَ الْحَرُوريِّ. وصلى الحَسَنِ والحُسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا خلف مروان، وصلى سعيد بن جبير خلف الحَجَّاج. وقد حكى إبراهيم النخعي ذلك عن عبد الله بن مسعود وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فقال: «كانوا يصلون خلف الأمراء ما كانوا» [أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»].

ولَم يكتف السَّلَف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالصلاة خلفهم؛ بل أنكروا أشدَّ الإنكار على من ترك الصلاة خلفهم تديُّنًا.

فقد قال أبو حمزة الثمالي: «لا نصلي خلف الأئمة».

فردَّ عليه علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى **بقوله**: «بل نصلي خلفهم، ونناكحهم بالسنَّة» [أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»].

ثانيا: الزكاة: حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءنا ناسٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إنَّ ناسًا من الْمُصَدِّقين -هم العاملون على الزكاة- يأتوننا، فيظلموننا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ**» [مسلم (٩٨٩)].

وعن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: «اجتمع عندي مال، قال: فذهبتُ إلى ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخُدري، وسعد بن أبي وقاص، فأتيت كل رجل منهم وحده، فقلت: إنه اجتمع عندي مالٌ، وإن هؤلاء يضعونَها حيث ترون، وإني قد وجدت لَهَا موضعًا، فكيف ترى؟ فكلهم قالوا: أدِّها إليهم» [مصنف عبدالرزاق].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «ادفعوا زكاة أموالكم إلى من ولاه الله أمركم، فمن برَّ فلنفسه، ومن أثِمَ فعليها» [مصنف ابن أبي شيبة].

ثالثا: الحج والجهاد: قول الله تَعَالَى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**﴾ [آل عمران: ٩٧]. **ووجه الدلالة منها:** ما قاله الإمام أبو عبد الله بن أبي زمنين بعد ذكر هذه الآية: «وأعلمنا بفضل الجهاد في غير موضع من كتابه، وقد عَلِمَ أحوال الولاة الذين لا يقوم الحَج والجِهَاد إلا بِهم، فلم يشترط ولَم يبين، وما كان ربك نسيًّا...-ثُمَّ ساق بسنده- عن عبدالمَلك بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أنه قال: سَمعت أهل العلم يقولون: لا بأس بالجهاد مع الولاة، ولو عَمِلُوا ما عَمِلُوا، ولو جاز للناس تركُ الغزو معهم لسوء حالهم، لاستذلَّ الإسلام، وتخيَّفَت أطرافه -أَيْ: أطراف بلاده- واستبيح حَريمه، ولَعَلا الشركُ وأهله...-ثُمَّ ساق بسنده- عن زهير بن عباد قال: كان مَنْ أدركت من المَشَايخ: مالك، وسفيان، والفضيل بن عياض، وابن المُبَارك، ووكيع، وغيرهم: كانوا يَحُجُّون مع كل خليفة» [أصول السنة].

وعن محمد بن عبد الرَّحْمَن بن يزيد النخعي، قال: «قلتُ لأبي: يا أبتِ، فِي إمارة الحجَّاج تغزو؟ قال: يا بنَي لقد أدركت أقوامًا أشد بغضًا منكم للحجاج، وكانوا لا يَدَعُونَ الجهاد على حال، ولو كان رأيُ الناس فِي الجهاد مثل رأيك، ما رأى الإتاوة -يعني: الخَراج-» [مصنف ابن أبي شيبة].

وبعد هذه الأدلة الجلية، والنقول عن علماء الأمة؛ لا أظن أحدًا ممَّن يريد الحَق وينشد الهُدى يسعُهُ الْخُرُوج عن هذا المذهب السلفي، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وفيما ذهب إليه السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من أداء العبادات مع الولاة تَحقيق لمَقَاصد الشريعة الإسلامية، التي جاءت بتحقيق المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها، وقد أشار إلى هذا النظر المَقَاصديِّ عبد الرَّحْمَنِ بن يزيد النخعي، وعبد الملك بن حبيب، كما تقدم النقل عنهما.

كما أشار إلى ذلك الإمام إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه سُئل عن الغزو مع بني مروان، وذَكَر ما يصنعون؟ فقال: «إن عرَّضَ به إلا الشيطان؛ ليثبِّطهم عن جهاد عدوِّهم» [سنن سعيد بن منصور].

والمعنى: إنَّ هذه الشُّبهة -وهي: ترك الغزو مع الأمراء لأجل جَوْرهم- ما أثارها إلا الشيطان الرجيم؛ لأجل أن يثبط المسلمين عن تحقيق المصلحة الكبرى الحاصلة من الجهاد.

الفصل الخامس: مشروعية الدُّعاء للإمام

صلاح الأئمَّة يعود على الناس والوطن بالصلاح، وهذا أمرٌ مشاهدٌ معروف، وهو -أيضًا- منصوص عن السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اعلموا أن الناس لن يزالوا بخير ما استقامت لهم وُلاتهم وهُداتهم»، [أخرجه البيهقي في «السنن»].

وفيه -أيضًا- عن القاسم بن مُخيمرة أنه قال: «إنَّما زمانكم سلطانكم، فإذا صلح سلطانكم؛ صلح زمانكم، وإذا فسد سلطانكم؛ فسد زمانكم».

ومن هنا جاء اهتمام السلف بالدعاء للإمام، وكان عمل المسلمين على ذلك:

١- عن أبي مسلم الخَولاني رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال عن الأمير: «إنه مؤمَّرٌ عليك مثلُكَ، فإن اهتدى فاحْمَد الله، وإن عَمِلَ بغير ذلك، فادعُ له بالهُدى، ولا تُخالفه فتضِل» [«السنة» للخلَّال].

٢- وعن الفضيل بن عياض أنه قال: «لو أن لي دَعوَة مُستَجَابة ما صيَّرتُها إلَّا فِي الإمام. قيل: وكيف ذلك يا أبا علي؟ قال: متَى صيَّرتُها في نفسي لَم تجزْنِي، ومَتَى صيَّرتُها في الإمام؛ فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد. فقبَّل ابن المُبَارك جبهته، وقال: يا مُعلم الخَير! من يُحسِن هذا غيرك؟!» [«الحلية» لأبي نعيم].

٣- وعن حنبل، أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قال عن إمام المُسلمين: «وإنِّي لأدعو له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار، والتأييد، وأرى ذلك واجبا عليَّ» [«السنة» للخلَّال]. هذا بعض ما جاء عن السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذه المَسألة، وهو كما ترى -ينطق- بالحَثِّ على الدعاء لولاة الأمر من الأئمَّة بالصَّلاح، ويؤكد ذلك؛ «فحقيقٌ على كل رعية أن ترغب إلَى الله عَزَّوَجَلَّ فِي إصلاح السلطان، وأن تبذل له النصيحة، وتَخصه بصَالِح دعائها، فإن في صلاحه صلاح العباد والبلاد، وفِي فساده فساد العباد والبلاد» [«سراج المُلوك» للطرطوشي].

واعلم -أيها المُوفق-: أن من علامات كون المَرء على السنَّة: دعاءه للإمام، وأن من علامات أهل البدع والأهواء: عدم دعائهم للإمام؛ لِمَا انطوت عليه قلوبُهم من الغلِّ على اجتماع الأمة وتوحُّد صفوفها.

وفي هذا يقول العلامة البربَهاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «إذا رأيت الرجل يدعو على السلطان، فاعلم أنه صاحبُ هوى، وإذا رأيت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح، فاعلم أنه صاحب سنة» [شرح السنة].

فهذا يُفيد أن الدعاء للإمام مهمٌّ جدًّا، ولذا جعله السلف من مسائل العقيدة، فأودعوه مؤلفاتِهم، التي يُربَّى عليها المُسلمون صغارًا وكبارًا؛ بل من العلماء من أفرد هذا الأمر بمؤلَّف مستقل كابن الحُبَيْشي: يَحيَى بن منصور الْحَرَّانِي الْحَنبلي (ت ٦٧٨هـ)، واسم كتابه: «دعائم الإسلام في وجوب الدعاء للإمام» [ذكره ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»].

الفصل السادس: عقوبة الخارج على الإمام والمثبِّط عنه والسَّاب له

رتَّب الشارع الحكيم عقوبات صارمة على الخُروج على الإمام؛ نظرًا لما يترتب على الخروج عليه من المفاسد العظام؛ فجاءت الأحاديث الصحيحة بترتيب العقوبة الدنيوية والأخروية على الخارج عن طاعة إمام المسلمين:

أما العقوبة الأخروية، فمنها:

١- أن المفارق للجماعة قد خلع ربقة الإسلام من عنقه. **والمعنى:** أن الإسلام كالطَّوْق في العنق، فإذا فارق المسلم جَمَاعة المسلمين، انفلتَ الطوقُ الذي كان محفوظًا به، وأصبح كالدَّابة التي انفلتت من زمامها، فكانت عرضةً للهلاك والضياع.

ودليل ذلك: حديث الحَارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ** ...» [أخرجه أحمد في «المسند»].

٢- أن من مات خارجًا عن الطاعة مات ميتةً جاهلية، أَيْ: كحال أهل الجاهلية. جاء ذلك فِي عدَّة أحاديث صحيحة، تقدم منها حديث ابن عباس. وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ؛ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» [مسلم (١٨٥١)].

وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» [أخرجه أحمد في «المسند»].

٣- أن مَنْ فارق الجَمَاعَة فإنه لا يُسأل عنه، بمعنى أنه من الهَالكين؛ لحديث فَضَالة بن عُبيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا...**» [أخرجه أحمد في «المسند»].

٤- أن الخَارج على الإمام لا حُجَّة له يوم القيامة، تقدم في ذلك حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والمعنى: لا حُجة له في فعله، ولا عُذر له ينفعه.

وأما العقوبة الدنيوية: فهي القتل إن أصَرَّ على هذا الجُرم، ولم يرجع عنه، لقول النبي ﷺ: «**إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ**».

وفي رواية: «**فَاقْتُلُوهُ**».

وفي رواية: «**مَن أتاكُمْ وأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ على رَجُلٍ واحِدٍ، يُرِيدُ أنْ يَشُقَّ عَصاكُمْ، أوْ يُفَرِّقَ جَماعَتَكُمْ، فاقْتُلُوهُ**» [مسلم (١٨٥٢)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام، أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونَحو ذلك. ويُنهى عن ذلك، فإن لم ينته؛ قُوتل، وإن لم يندفع شرُّه إلا بقتله، فَقُتِل؛ كان هَدرًا».

وقال العلامة الصَّنْعَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «دلت الألفاظ على أن مَنْ خَرَجَ على إمام قد اجتمعت عليه كلمة المُسلمين، والمُراد: أهل قُطْر، فإنه قد استحق القتل؛ لإدخاله الضرر على العباد» [سبل السلام].

فصل

وأَمَّا الْمُثَبِّطُ عن الإمام؛ فقد ألحَقَ به علماء الأمة عقوبةً تتناسب مع حجم تثبيطه؛ إذ التثبيطُ عن الإمام مُقدِّمة للخروج عليه، وقد عَلِمْتَ حكم الخروج عليه، وعقوبة الخَارج، فكل وسيلة أدَّت إلى الخُروج فهي وسيلة سوء، تستحق عقوبة ملائمة لسوء الخروج نفسه.

قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الواجب دَفْعُهُ -أَيْ: المثبِّط- عن هذا التثبيط، فإن كفَّ، وإلَّا كان مستحقًّا لتغليظ العقوبة، والحَيلولة بينه وبين مَنْ صَارَ يسعى لديه بالتثبيط، بحبس، أو غيره؛ لأنه مرتكبٌ لِمُحَرَّمٍ عظيم، وساع في إثارة فتنةٍ تُراقُ بسببها الدماء، وتُهتك عندها الحُرم. وفي التثبيط نزعٌ ليده من طاعة الإمام» [السيل الجرار المُتدفق على حدائق الأزهار].

فصل

وأمَّا عقوبة مَنْ وقع في سبِّ الإمام؛ فقد جعلها الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى عقوبةً تعزيرية؛

قال الموفق ابن قدامة: «وإنْ أظهر قومٌ رأي الخوارج، ولم يَجتمعوا لحرب، لم يتعرض لهم، فإن سبُّوا الإمام؛ عزَّرهم» [المقنع]. فإن عرَّضوا بسبِّ الإمام، ولم يُصرِّحوا؛ عُزِّروا -أيضًا- رجحه المردَاوي في «الإنصاف» وغيره.

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن صرَّح الخوارج بِسَبِّ الإمام، وسب أهل العدل، عُزِّروا، للأذى، وذبًّا عن منصب الإمامة. **وإن عرَّضوا به من غير تصريح، ففي تعزيرهم وجهان: أحدهما:** لا يعزرون؛ لأن عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يُعزر من عرَّض... **والثاني:** أنَّهم يُعزَّرون؛ لأن الإقرار على التعريض مُفض إلى التصريح، فكان التعزير حاسمًا لما بعده من التصريح» [الحاوي الكبير].

وقال ابن فرحون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تكلم بكلمة لغير مُوجب في أمير من أمراء المسلمين؛ لزمته العقوبة الشديدة، ويسجن شهرًا. ومن خالف أمرًا، وقد كرَّر دعوته؛ لزمته العقوبة الشديدة، بقدر اجتهاد الإمام» [تبصرة الحكام].

هذا آخر ما أردتُ ذكره فِي هذه الرسالة الوجيزة الموسومة بـ: «عقيدة أهل الإسلام فيما يجب للإمام».

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به من كتبه وقرأه وسمعه، آمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

" أَعَاذَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْآرَاءِ الْمُخْتَرَعَةِ، وَالْأَهْوَاءِ الْمُتَّبَعَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْمُبْتَدَعَةِ، فَإِنَّ أَهْلَهَا خَرَجُوا عَنِ اجْتِمَاعٍ إِلَى شَتَاتٍ، وَعَنْ نِظَامٍ إِلَى تَفَرُّقٍ، وَعَنْ أُنْسٍ إِلَى وَحْشَةٍ، وَعَنِ ائْتِلَافٍ إِلَى اخْتِلَافٍ، وَعَنْ مَحَبَّةٍ إِلَى بُغْضَةٍ، وَعَنْ نَصِيحَةٍ وَمُوَالَاةٍ إِلَى غِشٍّ وَمُعَادَاةٍ، وَعَصَمَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الِانْتِمَاءِ إِلَى كُلِّ اسْمٍ خَالَفَ الْإِسْلَامَ وَالسُّنَّة! "

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ ... وَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أَحْيَا شَقِيَّا

" فَمُنَّ عَلَيَّ يَا رَحْمَنُ قَلْبًا ... تَقِيًّا يَكْرَهُ الفِعْلَ الرَّدِيَّا "

وَأَدْخِلْنِي بِفَضْلٍ مِنْكَ رَبِّي ... جِنَانَ الخُلْدِ وَاجْعَلْنِي رَضِيَّا

فَلا تُفَرِّطْ ولا تُفْرِطْ وكُنْ وَسَطًا ... وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فاسْتَقِم

سَدِّدْ وقارِبْ وأَبْشِرْ واسْتَعِنْ بِغُدُوْ ... وبِالرَّواحِ وأَدْلِجْ قاصِدًا ودُم

فمِثْلُ ما خَانَتِ الكسْلانَ هِمَّتُهُ ... فَطَالَمَا حُرِمَ المُنْبَتُّ بالسَّأَم

ودُمْ عَلى البَاقِياتِ الصَّالِحاتِ وحَوْ ... قِلْ واسْأَلِ اللهَ رِزْقًا حُسْنَ مُخْتَتَم

واضْرَعْ إلى اللهِ في التَّوْفِيقِ مُبْتَهِلًا ... فَهْوَ المُجِيبُ وأَهْلُ المَنِّ والكَرَم

يا رَبِّ يا حَيُّ يا قيومُ مَغْفِرَةً ... لِمَا جَنَيْتُ مِنَ العِصْيانِ واللَّمَم

" وامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضِيكَ واقْضِهِ لِي ... مِنِ اعْتِقادٍ ومِنْ فِعْلٍ ومِنْ كَلِم "

وأَعْلِ دينَكَ وانْصُرْ ناصِريهِ كَمَا ... وَعَدْتَهُمْ ربَّنا فِي أَصْدَقِ الكَلِم

واقصِمْ بِبَأْسِكَ رَبِّي حِزْبَ خاذِلِهِ ... ورُدَّ كَيْدَ الأعادِي فِي نُحُورِهِم

واشْدُدْ عَلَيْهِمْ بِزِلْزَالٍ ودَمْدَمَةٍ ... كمَا فَعَلْتَ بأَهْلِ الحِجْرِ فِي القِدَم

واجْعَلْهُمُو رَبَّنا لِلْخَلْقِ مَوْعِظَةً ... وعِبْرَةً يا شَدِيدَ البَطْشِ والنِّقَم

ثُم الصَّلاةُ عَلى المَعْصومِ مِنْ خَطَأٍ ... مُحَمَّدٍ خَيْرِ رُسْلِ اللهِ كُلِّهِم

والآلِ والصَّحْبِ ثُمَّ التابعينَ لَهُمْ ... وتَمَّ [سِفْرِي] بِحَمْدِ اللهِ ذِي النِّعَم

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
❁ من فضائل القرآن	٩
تفسير جزء عم وسورة الفاتحة وآية الكرسي	١٧
تفسير سورة الفاتحة	١٩
تفسير آية الكرسي	٤٩
تفسير سورة النبأ	٥٥
تفسير سورة النازعات	٦٢
❁ قصة موسى الكليم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى فرعون	٦٩
تفسير سورة عبس	١١٥
تفسير سورة التكوير	١٢٢
تفسير سورة الانفطار	١٣١
تفسير سورة المطففين	١٣٥
تفسير سورة الانشقاق	١٤٣
تفسير سورة البروج	١٤٨
تفسير سورة الطارق	١٥٥
تفسير سورة الأعلى	١٥٨
تفسير سورة الغاشية	١٦٢
تفسير سورة الفجر	١٦٦
❁ قصة هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى عاد	١٧٥
❁ قصة صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ثمود	١٨٨

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة البلد	١٩٩
تفسير سورة الشمس	٢٠٥
تفسير سورة الليل	٢٠٩
تفسير سورة الضحى	٢١٥
تفسير سورة الشرح	٢١٩
تفسير سورة التين	٢٢٣
تفسير سورة اقرأ	٢٢٥
تفسير سورة القدر	٢٢٩
تفسير سورة البينة	٢٣٥
تفسير سورة الزلزلة	٢٤٣
تفسير سورة العاديات	٢٤٧
تفسير سورة القارعة	٢٥٠
تفسير سورة التكاثر	٢٥٢
تفسير سورة العصر	٢٥٧
تفسير سورة الهمزة	٢٥٩
تفسير سورة الفيل	٢٦١
تفسير سورة قريش	٢٦٨
تفسير سورة الماعون	٢٧٠
تفسير سورة الكوثر	٢٧٢
تفسير سورة الكافرون	٢٨٠
تفسير سورة النصر	٢٨٣

الموضوع	الصفحة
❁ قصة: غزوة الفتح الأعظم وكانت في رمضان سنة ثمان	٢٨٨
تفسير سورة تبت	٣٢٢
تفسير سورة الإخلاص	٣٢٦
تفسير سورتي المعوذتين	٣٣٠
تفسير سورة الفلق	٣٣٢
تفسير سورة الناس	٣٣٥
❁ **فوائد مهمة:**	٣٣٩
❁ **من فضائل حفظ الأحاديث النبوية وتعلمها وتبليغها**	٣٣٩
❁ **الأربعون في مباني الإسلام وقواعد الأحكام (الأربعون النووية)**	٣٤٥
❁ **نبذة في العقيدة الإسلامية**	٣٦١
❁ **من فضائل الوضوء**	٣٩٧
❁ **صفة وضوء النبي ﷺ**	٤٠١
❁ **من فضائل الصلاة**	٤٠٧
❁ **تلخيص (صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها)**	٤١٣
❁ **منظومة سلم الوصول إلى علم الأصول في توحيد الله واتباع الرسول ﷺ**	٤٣٥
❁ **عقيدة أهل الإسلام فيما يجب للإمام (مختصر كتاب: معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة)**	٤٥٣
الفهرس	٤٨٩

❁❁❁